كسر التعويذة

الدين كظاهرة طبيعية

دانيال دينيت

ترجمة:

سوسن عمران







طُبع في سوريا

كسر التعويذة

دانيال دينيت



منشورات تانيت
دمشق - بروكسل
الطبعة الأولى: 2023

تانيت ليست دار نشر ربحية بل هي مشروع تعاوني من نخب ثقافية عربية وغربية مهمته نقل الثقافة الأخرى والتراث الفكري إلى العربية لهدف انساني توعوي يجسر الهوة بين مجتمعاتنا العربية ويساهم في معالجة بذور التطرف وتجفيف منابع الإرهاب.

لا تنشر الدار إلا ما هي مقتنعة به وتتبناه لذا نحن لا نتبنى شعار الهروب الذي يعتبر الآراء الواردة هي ليست آراء الدار بل هي أفكارنا 100 %

شعارنا

الثقافة هي ملك لكل الشعوب وسننقلها للعربية لنرتقي.

كسر التعويذة

دانيال دينيت



2023

المقدمة

دعوني أبدأ بحقيقةٍ واضحة: أنا كاتبٌ أمريكي، وهذا الكتاب موجّهٌ في المقام الأول للقرَّاء الأمريكيين.

لقد شاركت مسوَّدات هذا الكتاب مع العديد من القرَّاء، ووجد معظم القرَّاء غير الأمريكيين أنَّ هذه الحقيقة ليست واضحةً فحسب، بل مشتّتةً للانتباه، وحتّى مرفوضةً في بعض الحالات.

ألا يسعني أن أجعل الكتاب ذا شكلٍ أقلَّ إقليميَّة، ألا يجب أن أسعى جاهداً- كفيلسوف- من أجل حشد أكبر جمهورٍ عالمي مستهدف؟

لا، ليس في هذه الحالة، وعلى القرَّاء غير الأمريكيين أن يفكّروا فيما يمكنهم تعلُّمه عن الوضع في أمريكا ممَّا وجدوه في هذا الكتاب.

كان الأمر الأكثر إلحاحاً بالنسبة لي من ردِّ فعل قرَّائي غير الأمريكيين، هو حقيقة أنَّ قلَّةً قليلةً من القرَّاء الأمريكيين ليس لديهم أيُّ فكرةٍ عن هذا التحيُّز، أو إن كانت لديهم فكرة، فهم لن يعترضوا.

هذا نمطٌ للتفكير، ويلاحظ عادةً - في أمريكا وخارجها على حدٍّ سواء - أنَّ أمريكا تختلف بشكلٍ لافت للنظر عن دول العالم الأول الأخرى في مواقفها تجاه الدين، وهذا الكتاب- من بين أمورٍ أخرى- هو بمثابة جهاز السبر الذي يهدف إلى سبر أغوار تلك الاختلافات.

قرَّرتُ أنّني يجب أن أعبّر عن نقاط التركيز الموجودة هنا، إذا كان لديَّ أيُّ أملٍ في الوصول

إلى الجمهور المستهدف: المواطنون المحبّون للإطلاع، وذوو الضمائر الحيَّة في موطني الأصلي، أكبر عددٍ ممكن، وليس الأكاديميين فقط.

إنّها تجربة افتراقٍ عن أهدافي في الكتب السابقة، وأولئك الذين أصيبوا بالارتباك أو الإحباط بسبب هذا الافتراق يعرفون الآن أنَّ لديَّ أسبابي، سواءٌ أكانت جيِّدةً أم سيّئة، بالطبع ربّما أكون قد أخطأت هدفي، سنرى ذلك.

تركيزي على أمريكا متعمَّد، ولا يمكن أن يكون هناك أيُّ شيءٍ آخر.

عندما يتعلَّق الأمر بالدين المعاصر- من ناحيةٍ أخرى- فإنَّ تركيزي على المسيحيَّة أولاً، والإسلام واليهوديَّة بعد ذلك، غير مقصود، ولكن لا مفرَّ منه.

أنا ببساطةٍ لا أعرف ما يكفي عن الأديان الأخرى للكتابة بثقةٍ عنها، ربَّما كان ينبغي لي أن أكرّس عدَّة سنواتٍ أخرى للدراسة قبل كتابة هذا الكتاب، ولكن بما أنَّ إلحاح الرسالة تولَّد لديَّ بصورةٍ متكررة بسبب الأحداث الجارية، كان عليَّ أن أكتفي بالمنظورات التي تمكَّنت من تحقيقها حتَّى الآن.

أحد أشكال الافتراق عن ممارساتي الأسلوبيَّة السابقة، هو أنَّني أستخدم الملاحظات الختاميَّة بدلاً من الحواشي السفليَّة، عادةً ما يؤسفني هذا الأسلوب، حيث إنَّه يلزم القارئ الأكاديمي بالحفاظ على إشارةٍ مرجعيَّةٍ إضافيَّةٍ أثناء التقليب ذهاباً وإياباً، ولكن في هذه الحالة قرَّرت أنَّ التدفُّق الملائم لقارئٍ من هذا الجمهور الأوسع، كان أكثر أهمّيَّةً من راحة العلماء.

بعد ذلك، دعني أضع مواداً أكثر من المعتاد في تعليقاتٍ ختاميَّةٍ طويلة، لذا فإنَّ لهذا الأسلوب المربك بعض المزايا لأولئك الذين يريدون الحجج الإضافيَّة، وبالروح نفسها قمت بسحب أربعة أجزاءٍ من المواد المخصَّصة أساساً للقرَّاء الأكاديميين من النصّ الرئيس، وأودعتها في النهاية كملاحق يُشار إليها في حينه ضمن النصّ، وإلَّا ستكون فصولاً أو أقساماً.

مرَّةً أخرى، بفضل جامعة تافتس، تمكَّنت من لعب دور توم سوير والسياج المطلي باللون

الأبيض مع مجموعةٍ شجاعةٍ وواعيةٍ بشكلٍ ملحوظ من الطلَّاب، معظمهم من الطلَّاب الجامعيين الذين وضعوا قناعاتهم الدينيَّة الراسخة في كثيرٍ من الأحيان على المحكّ، وقرأوا مسوَّدةً مبكرةً في ندوةٍ في خريف عام 2004، وقاموا بتصحيح العديد من الأخطاء، موجّهين إيَّايَ إلى عوالمهم الدينيَّة بروح الدعابة والتسامح مع زلَّاتي، وغيرها من الإساءات.

إذا تمكَّنت من العثور على جمهوري المستهدف، فإنَّ تعليقاتهم تستحقُّ الكثير من التقدير، شكراً للكلِّ من: بريسيلا ألفاريز، وجاكلين أردام، وماوريسيو أرتينانو، وجوناثان بالاكانشان، وألكسندرا باركر، ولورنس بلوستون، وسارا براونر، وبنجامين بروكس، وشون تشيشولم، وإريكا كلامبيت، وسارة دالغليش، وكاثلين دانيال، ونوح دوك، وهانا فورمانش، وجيد جولد، جينا غورلين، جوزيف جوليزيان، كريستوفر هيلي، إيتان هيرش، جو كيتنغ، ماثيو كيبي، تاكر لينتز، كريس لينتز، ستيفن مارتن، جوليانا ماكاني، أكيكو نورو، ديفيد بولك، سمير بوري، مارك رايفمان، لوكاس ريكشيوني، إدوارد روسيل، آرييل رودولف، ومامي ساكاماكي، وبريان سالفاتور، وكايل طومسون ويسترا، وجريدون زورزي.

كما أشكر فريقي الرائع في مركز الدراسات المعرفيَّة، ومساعدي التدريس، ومساعدي الأبحاث، الباحث المشارك، ومساعد البرنامج، فقد علَّقوا على مقالات الطلَّاب، وقدَّموا النصح للطلَّاب الذين استاءوا من المشروع، كما قدَّموا النصح لي، وساعدوني في ابتكار الاستبيانات وتنقيحها ونسخها وترجمتها، وإدخال البيانات وتحليلها، واسترجاع مئات الكتب والمقالات من المكتبات والمواقع الإلكترونيَّة، كما ساعدنا بعضنا البعض، وساعدوني في إبقائي على المسار الصحيح: أفيري آرتشر، وفيليبي دي بريجارد، آدم ديجين براون، ريتشارد جريفين، تيريزا سلفاتو.

شكراً أيضاً لكريس ويستبري، ديانا رافمان، جون روبرتس، جون سيمونز، بيل رامزي على مشاركتهم في جامعاتهم في مشروع الاستبيان الذي ما يزال قيد التنفيذ، وإلى جون كيلستروم، كاريل دي باو، مارسيل كينزبورن على توجيهي إلى قراءاتٍ قيّمة.

شكرٌ خاصٌ لميرا ناندا، التي كانت حملتها الشجاعة لجلب الفهم العلمي للدين إلى موطنها

الهند، أحد مصادر الإلهام لهذا الكتاب، وكذلك على عنوانه، انظر كتابها Breaking the Spell of Dharma (2002) بالإضافة إلى الكتاب الأحدث Prophets Facing Backwards (2003).

يشمل القرّاء المذكورين في الفقرة الأولى قلّةً ممَّن اختاروا عدم الكشف عن هويَّتهم، أشكرهم، وكذلك رون بارنيت، أكيل بيلجرامي، باسكال بوير، جوانا برايسون، توم كلارك، بو دالبوم، ريتشارد دينتون، روبرت غولدشتاين، نيك همفري، جوستين جونج، مات كونيج، ويل لوي، إيان لوستيك، سوزان ماسي، روب ماكول، بول أوبنهايم، سيمور بابيرت، أمبر روس، دون روس، بول سيبرايت، بول سلوفاكيا، دان سبيربر، سو ستافورد.

مرَّةً أخرى، قام تيري زاروف بمهمَّة تحريرٍ رائعةٍ من أجلي، فهو لم يتمكَّن من التقاط زلّات الأسلوب فقط، ولكن نقاط الضعف الجوهريَّة أيضاً، كما كان ريتشارد دوكينز وبيتر سوبير ممَّن قدَّموا اقتراحاتٍ قيّمة بوجهٍ خاصّ في سياق الحوارات، كذلك فعل وكيل أعمالي جون بروكمان، وزوجته كاتينكا ماتسون، ولكن اسمحوا لي أيضاً أن أشكر - دون ذكر أسمائهم- العديد من الأشخاص الآخرين الذين اهتمّوا بهذا المشروع على مدار العامين الماضيين، وقدَّموا اقتراحاتٍ ونصائحَ ودعماً معنويّاً محلَّ تقديرٍ كبير.

أخيراً، يجب أن أشكر زوجتي سوزان، مرَّةً أخرى، التي تجعل كلَّ كتابٍ لي أغنيةً ثنائيَّة، وليست أغنيةً فرديَّة، بطرقٍ لا يمكنني حسابها أبداً.

دانيال دينيت

الجزء الأول

فتح صندوق باندورا

الفصل الأول

كسر أيّ تعويذة؟

1- ما الذي يحدث؟

«وكلّمهم كثيراً بأمثالٍ قائلاً: هوذا الزارع قد خرج ليزرع، وفيما هو يزرع، سقط بعضٌ على الطريق، فجاءت الطيور وألتهمته» أنجيل متّى 3:13-4

«إذا كانت عبارة «البقاء للأصلح» صحيحةً كشعار، فإنَّ الكتاب المقدّس يبدو مرشّحاً عادلاً لاحتوائه على النصوص الأصلح» - هيو بيبر، «النص الأناني: الكتاب المقدّس وعلم الميمات»

راقب نملةً في مرجٍ وهي تتسلّق عشبةً ثمّ تسقط، ثمّ تعيد الكرّة مرّةً بعد مرّة، مثل سيزيف وهو يدحرج صخرته ساعياً لبلوغ القمّة.

لماذا تفعل النملة هذا، ما الفائدة الذاتيّة التي تسعى إليها من هذا النشاط الشّاق وغير المحتمل؟

كما تبيّن فهو سؤالٌ خاطئ، إذ لا فائدة بيولوجيّة تعود على النملة؛ هي لا تحاول الحصول على رؤيةٍ أفضل للمنطقة، أو البحث عن الطعام، أو التباهي أمام شريكٍ محتمل، على سبيل المثال.

إنَّ دماغها يتحكَّم به طفيليٌّ متناهي الصغر، والذي يحتاج إلى اختراق معدة خروفٍ أو بقرة لإكمال دورة التكاثر، إنَّ هذه الدودة تدفع بالنملة إلى المكان المناسب لتكاثرها، هي وليس النملة.

إنَّ هذه الظاهرة ليست معزولة، وبأسلوبٍ مماثل؛ إنَّ الطفيليَّات المتلاعبة تغزو الأسماك والفئران من بين الأنواع الأخرى، هذه الطفيليَّات تجعل مضيفها يتصرَّف وفق طرقٍ غير متوقَّعة – وقد تكون انتحاريَّةً أحياناً – كلُّ ذلك لصالح الضيف، وليس المضيف.[1]

هل يحدث أيٌّ من هذا مع البشر؟ نعم بالفعل؛ غالباً ما نجد البشر يتخلَّون عن مصالحهم الشخصيَّة، وصحَّتهم، وفرصهم في إنجاب الأطفال، مكرّسين حياتهم كلَّها لخدمة فكرةٍ استقرَّت في أذهانهم.

إنَّ كلمة «إسلام» في العربيَّة تعني «التسليم»، كلُّ مسلمٍ صالح ينطق بالشهادتين، ويؤدّي الصلوات الخمس، ويؤتي الصدقات، ويصوم رمضان، يحجُّ إلى مكَّة إن استطاع إلى ذلك سبيلاً، وكل هذا في سبيل الله ورسوله محمد.

يقوم المسيحيُّون واليهود بالمثل، مكرّسين حياتهم لنشر كلمة الله، مقدّمين تضحياتٍ عظيمة، مخاطرين بحياتهم من أجل فكرة، وكذلك يفعل السّيخ والهندوس والبوذيُّون، ولا ننسى الآلاف من دعاة الإنسانيَّة العلمانيين الذين ضحّوا بحياتهم من أجل الديمقراطيَّة أو العدالة أو الحقيقة الواضحة. هناك الكثير من الأفكار التي نموت من أجلها. قدرتنا على تكريس حياتنا لشيءٍ نراه أكثر أهميَّةً من رفاهيَّتنا الشخصيَّة – أو واجبنا البيولوجي في الحصول على ذريَّة – هو أحد الأشياء التي تميّزنا عن بقيَّة الحيوانات في هذا العالم؛ ستدافع أنثى الدبّ بشجاعةٍ عن مجالها الحيوي، وتحمي بشراسةٍ أشبالها، (لكن ربما يكون عدد الذين ماتوا دفاعاً عن أماكن وكتب مقدسة أكثر من عدد أولئك الذين ماتوا دفاعاً عن منازلهم ومخازن طعامهم وأطفالهم.) وكباقي الحيوانات، نمتلك غرائز أصيلةً للتكاثر والقيام بكلِّ ما/ يلزم لتحقيق هذا الهدف، ولكنَّنا في المقابل نمتلك عقائدَ وقدرةً على تجاوز ضروراتنا الجينيَّة.

إنَّ هذه الحقيقة تجعلنا مختلفين، لكنَّها في حدِّ ذاتها حقيقةٌ بيولوجيَّةٌ واضحةٌ في علم الطبيعة، وهي أيضاً تتطلَّب تفسيراً منه.

كيف يمكن للإنسان العاقل أن يمتلك وجهة نظرٍ غيرَ عاديَّةٍ عن حياته؟

بالكاد يستطيع أحدهم أن يقول: إنَّ أهمَّ شيءٍ في الحياة هو أن يكون لديك أحفادٌ أكثر من منافسيك، ولكن هذه هي نقطة ضعف الغاية الأسمى summum bonum لكل الحيوانات البرية؛ فهم لا يعرفون أيَّ شيءٍ أفضل، لا يمكنهم ذلك، هم مجرَّد حيوانات.

يبدو أن هناك استثناءً واحداً مثيراً للاهتمام (الكلب)، ألا يمكن «لصديق الإنسان الأوفى» أن يظهر تفانياً يضاهي تفاني صديقٍ بشري، ألم يمت الكلب لحماية سيّده؟ نعم، وليس من قبيل المصادفة أن هذه السمة الرائعة موجودةٌ في كلِّ الأنواع المستأنسة.

كلاب اليوم هي نسل الكلاب التي أحبّها أسلافنا وأعجبتهم في الماضي، حتَّى دون محاولة التكاثر من أجل الولاء، فقد تمكنوا من فعل ذلك، مبرزين الأفضل (لهم ولنا) عند حيواناتنا المرافقة[2].

هل قمنا - دون وعي - بنمذجة هذا الإخلاص للسيّد بناءً على إخلاصنا لله، هل كنّا نشكّل الكلاب على صورتنا؟ ربَّما، ولكن من أين أتى إخلاصنا لله؟

المقارنة التي بدأت بها، بين دودةٍ طفيليَّةٍ تغزو دماغ نملة، والفكرة التي تغزو العقل البشري، ربَّما تبدو شاذَّةً وشائنة، فعلى عكس الديدان، الأفكار ليست حيَّةً ولا تغزو الأدمغة، بل تخلقها العقول.

الأمر صحيحٌ في كلا الحالتين، لكنَّ هذه ليست اعتراضاتٍ معبّرة كما تظهر لأول مرَّة، الأفكار ليست حيَّة، لا يمكنها رؤية إلى أين تذهب، ولا تملك أطرافاً لتوجيه دماغ المضيف حتَّى لو كان بإمكانها الرؤية.

صحيح، لكنَّ الدودة الطفيليَّة ليست عالمة صواريخ، وهي ليست أكثر ذكاءً من الجزرة، حتَّى أنَّها لا تمتلك دماغاً، بل إنَّ كلَّ ما تمتلكه هو مجرَّد حسن حظٍّ جعلها تتمتَّع بميزاتٍ تؤثّر

على أدمغة النمل، بهذه الطريقة المفيدة في كلِّ مرَّةٍ تتَّصل معها.

(إنَّ هذه الميزات مثل بقع العين على أجنحة الفراشات، التي توهم أحياناً الطيور المفترسة أنَّ حيواناً كبيراً ينظر إليها فتخاف، الفراشة هي المستفيدة، مع أنَّها ليست الأكثر حكمة).

الفكرة الخاملة - إذا صُمِّمَت بشكلٍ صحيح- قد يكون لها تأثيرٌ مفيدٌ على العقل دون معرفة أنَّها تفعل ذلك! وإذا حدث وعلمت بذلك، فسوف تزهو لأنَّها صُمِّمَت بشكلٍ صحيح.

إنَّ المقارنة بين «كلمة الله» والدودة الطفيليَّة مقلقة، لكنَّ فكرةَ مقارنة فكرةٍ بكائنٍ حي ليست جديدة، لديَّ مخطوطةٌ موسيقيَّةٌ قديمة، كُتِبَت على الرقّ في منتصف القرن السادس عشر، وجدتها قبل نصف قرنٍ في مكتبةٍ بباريس، يروي النصُّ (باللاتينيَّة) المغزى من مَثَل الزارع (متَّى 13): البذرة هي كلمة الله، والزارع هو المسيح، تتجذَّر هذه البذور في البشر، وتجعلهم ينشرونها على نطاقٍ واسع (وفي المقابل، فإنَّ المضيف يحصل على الحياة الأبديَّة - الذي يسمع سيبقى للأبد).

كيف تُصنع الأفكار بواسطة العقول؟

قد يكون ذلك عن طريق الإلهام الإعجازي، أو بوسائلَ أكثر طبيعيَّة، كانتقال الأفكار من عقلٍ إلى آخر، أو عن طريق الترجمة بين لغاتٍ مختلفة، والأغاني والأيقونات والتماثيل والطقوس، متجمّعةً في مجموعاتٍ غير متوقّعة في عقول أشخاصٍ محدَّدين، حيث تؤدّي إلى ظهور «إبداعاتٍ» جديدةٍ أخرى، تحمل سماتٍ عائليَّةً متشابهةً مع الأفكار التي ألهمتهم، ولكنَّها تضيف ميزاتٍ جديدة، وقوىً جديدة، وربَّما تكون بعض الأفكار «الجامحة» التي غزت عقولنا في البداية، قد أسفرت عن ذريَّةٍ مدجّنةٍ في محاولةٍ لكي نصبح أسيادها، أو على الأقلّ أوصياءَ عليها.

ما هو أصل الأفكار المدجّنةِ التي انتشرت اليوم، كيف نشأت ولماذا؟ وبمجرَّد أن أخذ أسلافنا على عاتقهم نشر هذه الأفكار والاحتفاء بها، كيف أدَّى هذا الإيمان بالإيمان إلى تغيير

الأفكار التي يتمُّ نشرها؟

أسرَتنا الأفكار الدينيَّة العظيمة نحن البشر لآلاف السنين، لفترةٍ أطول من التَّاريخ المسجَّل، ولكنَّها ما تزال مجرَّد لحظةٍ وجيزةٍ في الزمن البيولوجي.

إذا أردنا أن نفهم طبيعة الدين اليوم- كظاهرةٍ طبيعيَّة- علينا أن ننظر ليس فقط إلى ما هو عليه اليوم، ولكن إلى ما كان عليه من قبل، سيوفِّر لنا سرد أصول الدين- في الفصول السبعة التالية- منظوراً جديداً يمكننا من خلاله النظر في الفصول الثلاثة الأخيرة، إلى ماهيَّة الدين اليوم، ولماذا يعني الكثيرَ لكثيرٍ من النَّاس، وما الذي قد يكون صواباً وخطأً في فهمهم الذاتي كأشخاصٍ متدينين، ثمَّ سنرى بشكلٍ أفضل إلى أين يمكن أن يتَّجه الدين في المستقبل القريب، مستقبلنا على هذا الكوكب.

لا أستطيع التفكير في موضوعٍ أكثر أهميَّةً للتحقيق فيه.

2- تعريفٌ عمليٌّ للدين:

«وسّع الفلاسفة معنى الكلمات لدرجة أنَّها بالكاد تحتفظ بمعانيها الأصليَّة؛ من خلال تسمية «الله» فكرةً مجرَّدةً غامضة قاموا باختلاقه لأنفسهم، فهم يمثّلون الربوبيين، كمؤمنين. أمام العالم؛ قد يفخرون بأنفسهم بأنَّهم توصَّلوا إلى فكرةٍ أسمى وأنقى عن الله، على الرَّغم من أنَّ إلههم ليس سوى ظلٍّ ضئيل، ولم يعد تلك الشخصيَّة الجبَّارة للمتديّن» - سيغموند فرويد، مستقبل الوهم

كيف أعرّف الدين؟

لا يهم، طالما أنَّني أخطّط لفحص ومناقشة الظواهر القريبة منه، التي (ربَّما) ليست ديانات- كالروحانيَّة، والالتزام بالمنظَّمات العلمانيَّة، والتعصُّب الشديد لجماعاتٍ عرقيَّة (أو فرقٍ رياضيَّة)، والخرافات، لذلك سوف أتجاوز كلَّ الحدود التي وضعتها.

كما سنرى، فإنَّ ما نسمّيه عادةً الأديان يتكوَّن من مجموعةٍ متنوّعةٍ من الظواهر المختلفة تماماً، تنشأ من ظروفٍ مختلفة، ولها آثارٌ مختلفة، وتشكّل مجموعةً واسعةً من الظواهر، وليست «نوعاً طبيعيّاً» مثل عنصرٍ كيميائي أو فصيلة.

ما هو جوهر الدين؟

يجب طرح هذا السؤال بحذر، فعلى الرَّغم من وجود تقاربٍ عميقٍ ومهمّ بين العديد من ديانات العالم، فمن المؤكّد أنَّ هناك أشكالاً مختلفةً تتشارك بصفاتٍ نمطيَّةٍ ما، في حين تفتقر إلى سمةٍ «أساسيَّةٍ» أو أكثر.

مع تقدّم علم الأحياء التطوُّري خلال القرن الماضي، توصّلنا تدريجيّاً إلى تقدير الأسباب العميقة لتصنيفنا الكائنات الحيَّة بالطريقة التي نقوم بها - الإسفنج كحيوان، والطيور أقرب إلى الديناصورات أكثر من الضفادع - وما زالت المفاجآت الجديدة تُكتَشَف كلَّ عام، لذلك علينا أن نتوقَّع بعض الصعوبات في الوصول إلى تعريفٍ غير قابلٍ للدحض، لشيءٍ متنوّعٍ ومعقَّدٍ مثل الدين.

تبدو أسماك القرش والدلافين متشابهةً للغاية، وتتصرَّف وفق طرقٍ عديدةٍ متشابهة، لكنَّها ليست من النوع نفسه على الإطلاق.

ربَّما عندما نفهم هذا المجال بأكمله بشكلٍ أفضل، سنرى أنَّ البوذيَّة والإسلام، على الرَّغم من كلّ أوجه التشابه بينهما، إلَّا أنَّهما يستحقَّان أن نعدَّهما نوعين مختلفين تماماً من الظواهر الثقافيَّة.

يمكننا اعتماداً على الفطرة السليمة والتقاليد، أن نعدَّ كلتيهما ديانة، لكن لا ينبغي أن نعمي أنفسنا عن احتماليَّة تعديل تصنيفنا الأولي كلَّما تعلَّمنا المزيد.

لماذا يُعدُّ إرضاع الصغار أكثر أهميَّةً من العيش في المحيط، لماذا يعدُّ وجود العمود الفقري أكثر أهميَّةً من وجود أجنحة؟ قد تبدو تلك التساؤلات بداهيَّةً الآن، لكنَّها لم تكن واضحةً

في بدايات علم الأحياء.

في المملكة المتحدة، يضع القانون المتعلّق بالقسوة ضدَّ الحيوانات حدّاً أخلاقيّاً مهمّاً حول ما إذا كان الحيوان من الفقاريّات: وفقاً لهذا القانون، يمكنكَ أن تفعل ما تشاء لدودةٍ حيَّة، أو ذبابة، أو قريدسٍ حي، ولكن لا يمكنك فعل ذلك بطائرٍ، أو ضفدع، أو فأرٍ حي.

إنّها نقطةٌ مهمّة، لكنَّ القوانين يمكن أن تُعدَّل، وما حدث مع هذا القانون، فقد عُدَّت رأسيات الأرجل - الأخطبوط، الحبّار- مؤخّراً من الفقاريّات الفخريَّة، لأنّها على خلاف أبناء فصيلتها من الرخويّات كالمحار، تمتلك أجهزةً عصبيَّةً معقَّدةً بشكلٍ لافت للنظر.

يبدو لي هذا تعديلاً سياسيَّاً حكيماً، إذ أنَّ أوجه التشابه التي اهتمَّ بها هذا القانون والأخلاق، لم تكن متوافقةً تماماً مع المبادئ البيولوجيَّة.

قد نجد أنَّ رسم الحدود بين الدين وأقرب جيرانه من الظواهر الثقافيَّة محفوفٌ بمشكلاتٍ مماثلة، لكنَّها أكثر إزعاجاً، فعلى سبيل المثال، ونظراً لأنَّ القانون (في الولايات المتَّحدة على الأقل) أفرد للأديان مكانةً خاصَّة، فإنَّ الإعلان عن شيءٍ كان يُنظَرُ إليه على أنّه دين، هو شيءٌ آخر لا بدَّ أن يحظى باهتمامٍ أكاديمي أكثر من قِبَلِ أولئك المعنيين.

تمَّ دعم Wicca (السحر) وظواهر العصر الجديد الأخرى بوصفها دياناتٍ من قبل أتباعها على وجه التحديد، من أجل الارتقاء بهم إلى الوضع القانوني والاجتماعي الذي تمتَّعت به الأديان تقليديَّاً، ومن جهةٍ أخرى، هناك من زعم أنَّ علم الأحياء التطوُّري هو في الحقيقة «مجرَّد دينٍ آخر»، ومن ثمَّ لا مكان لمبادئه في مناهج المدارس العامَّة.

الحماية القانونيَّة والشرف والسمعة والإعفاء التقليديُّ من أنواع معيّنة من التحليل والنقد، يتوقَّف بدرجةٍ كبيرة على كيفيَّة تعريفنا للدين، وكيف يمكنني التعامل مع هذه القضيَّة الحسَّاسة.

مبدئياً، أقترح تعريف الأديان على أنّها أنظمةٌ اجتماعيَّةٌ يعترف المشاركون فيها بالإيمان بكائنٍ أو كائناتٍ خارقة للطبيعة يجب كسب رضاها، هذه بالطبع طريقةٌ ملتويةٌ للتعبير عن

فكرة أنَّ الدين من دون إلهٍ أو آلهة هو مثل الفقاريَّات من دون عمود فقري.

بعض الأسباب الكامنة خلف هذه الطريقة غير المباشرة واضحةٌ نسبيَّاً، في حين أنَّ بعضها الآخر سيظهر مع مرور الوقت، وهذا التعريف خاضعٌ للمراجعة، أو هو نقطةٌ للبداية، وليس منقوشاً على حجرٍ لكي يُستمات في الدفاع عنه، وفقاً لهذا التعريف، فإنَّ نادي المعجبين المخلصين لإلفيس بريسلي ليس ديانة، لأنَّه على الرَّغم من أنَّ أعضائه قد يعبدون إلفيس إلى حدٍّ ما، إلَّا أنَّهم لا يرونه خارقاً للطبيعة بالمعنى الحرفي للكلمة، ولكنَّه كان مجرَّد شخصيَّةٍ خاصَّة، إنسان رائع.

(وإذا قرَّرت بعض نوادي المعجبين أنَّ إلفيس هو حقَّاً خالدٌ وإلهي، فهم حتماً في طريقهم بالفعل لبدء دينٍ جديد) لا يُشترط أن يكون الكائن الخارق للطبيعة بشريَّاً، إنَّ يهوه في العهد القديم هو بالتأكيد رجلٌ إلهيٌّ (وليس إمرأة)، يرى بعينين ويسمع بأذنين، ويتحدَّث ويعمل في الزمن الحقيقي.

(انتظر الله ليرى ما سيفعله أيُّوب، ثمَّ تكلَّم معه) يُصرُّ العديد من المسيحيين واليهود والمسلمين المعاصرين على أنَّ الرَّبَّ أو الله، كلِّيُّ العلم، لا يحتاج إلى أيّ شيءٍ مثل أعضاء الحس، وكونه أبديَّاً، لا يعمل في الزمن الحقيقي، وهذا محيّر، لأنَّ العديد منهم يواصلون الصلاة إلى الله، علَّ أمل أن يستجيب الله لصلواتهم في اليوم التالي، وللتعبير عن امتنانهم لله على خلق الكون، واستخدام تعبيرات مثل: «هذه مشيئة الله» و«ليرحمه الله»، أفعالٌ قد تبدو متناقضةً تماماً، مع إصرارهم على أنَّ إلههم ليس بشريَّاً بالمطلق.

وفقاً لتقليدٍ طويل الأمد، فإنَّ هذا التوتّر بين الله كوسيط، والله ككائنٍ أبدي وثابت هو أحد الأشياء التي تفوق إدراك الإنسان، ولذلك سيكون من الحماقة والغطرسة محاولة فهم ذلك، لذا سيُعَالَجُ هذا الموضوع بعنايةٍ لاحقاً في هذا الكتاب، لكن لا يمكننا المضيُّ قدماً في تعريفنا للدين (أو أيِّ تعريفٍ آخر) حتَّى نتمكَّن من الحصول على بعض الإيضاحات حول طيف الآراء التي يمكن تمييزها من خلال عدم الفهم للإيمان المشوَّش، نحتاج مزيداً من التفسير قبل أن نقرّر كيفيَّة تصنيف العقائد التي يتبنَّاها هؤلاء الأشخاص.

بالنسبة لبعض النَّاس، لا تعني الصلاة التحدُّث إلى الله بالمعنى الحرفي للكلمة، بل هي بالأحرى نشاطٌ «رمزي»، طريقةٌ للتحدُّث مع الذات عن أعمق هواجس المرء، معبّرةً عنها مجازيّاً؛ كأن تستهلَّ بدء كتابة مذكّراتك اليوميَّة بعبارة «دفتر يوميَّاتي العزيز».

إذا لم يكن ما يسمّونه الله حقّاً في نظرهم فعلاً كائناً يمكنه الاستجابة للصلاة، وأن يرضى أويرفض، وأن يقبل الأضاحي، وأن يعاقب أو يغفر، فعندئذٍ، على الرَّغم من أنَّهم قد يسمّون هذه الكينونة «الرَّب»، ويقفون خاشعين أمامه كشيءٍ وليس كرجل (it) (ليس هو Him)،[1] فإنَّ عقيدتهم مهما كانت، ليست ديناً بالفعل وفقاً لتعريفي.

ربَّما تكون بديلاً رائعاً عن الدين، أو ديانةً سابقة، نتاجَ دينٍ أصيلٍ يحمل الكثير من أوجه الشبه العائليَّة مع الدين، لكنَّه نوعٌ آخر تماماً.

من أجل توضيح ماهيَّة الأديان، علينا أن نقبل بأنَّ بعض الأديان قد تتحوَّل إلى أشياء ليست ديانات إطلاقاً، وهذا ما حدث لممارساتٍ وتقاليدَ كانت فيما سبق جزءاً من دياناتٍ أصيلة، فمثلاً لم تعد طقوس الهالوين (عيد جميع القدّيسين) طقوساً دينيَّةً، على الأقلّ في أمريكا؛ إنَّ الأشخاص الذين يبذلون جهداً كبيراً، وينفقون الكثير للمشاركة فيها لا يمارسون الدين، على الرَّغم من أنَّ أنشطتهم يمكن وضعها في خطٍّ واضحٍ من النسب مع الممارسات الدينيَّة، كذلك فقد الإيمان بسانتا كلوز مكانته كمعتقدٍ ديني.

أمَّا بالنسبة للآخرين، فالصلاة هي في الحقيقة التحدُّث إلى الله، الذي يستمع ويغفر حقّاً، عقيدتهم هي ديانةٌ حسب تعريفي، بشرط أن يكونوا جزءاً من نظامٍ اجتماعي أو مجتمعٍ أكبر، وليسوا طائفةً منه.

في هذه الحالة، يتعارض تعريفي بدرجةٍ كبيرة مع تعريف ويليام جيمس، الذي عرَّف الدين بأنَّه: «مشاعرُ وأفعالُ وتجارب أناسٍ أفراد في عزلتهم، بقدر ما يتصوَّرون أنفسهم

(1) استخدم المؤلف كلمة who بدلاً من كلمة which للدلالة على أن هؤلاء يتعاملون مع الله بوصفه كائناً عاقلاً.

بأنَّهم على صلةٍ بما يعدُّونه إلهاً» (1902، ص 31).

لن يجد جيمس صعوبةً في تحديد هويَّة المؤمن المنفرد على أنَّه شخصٌ متدين، فقد كان هو نفسه كذلك، إنَّ هذا التركيز على التجربة الدينيَّة الفرديَّة والخاصَّة كان اختياراً تكتيكيَّاً لجيمس؛ اعتقد جميس أنَّ المعتقدات والطقوس والزخارف والتسلسل الهرميَّ السياسي للدين «المنظَّم»، كانت إلهاءً عن الظاهرة الأصليَّة، وقد أنتج مساره التكتيكيُّ ثماراً رائعة، لكنَّه لم يستطع إنكار أنَّ تلك العوامل الاجتماعيَّة والثقافيَّة تؤثّر بدرجةٍ كبيرة على محتوى وهيكل تجربة الفرد.

توجد اليوم أسبابٌ لاستبدال مجهر جيمس النفسي بتلسكوبٍ بيولوجي واجتماعي واسع الزاوية، للنظر إلى العوامل التي تشكّل تجارب وأفعال أفراد متدينين على امتداداتٍ شاسعةٍ من المكان والزمان.

ولكن كما أنَّ جيمس لم يستطع أن ينكر العوامل الاجتماعيَّة والثقافيَّة، فإنَّني لا أستطيع أن أنكر وجود الأفراد الذين يعدُّون أنفسهم بصدقٍ وإخلاص هم المؤمنين الوحيدين لما يمكن أن نطلق عليه دياناتٍ خاصَّة.

عادةً ما يتمتَّع هؤلاء الأشخاص بخبرةٍ كبيرة، بواحدةٍ أو أكثر من الديانات العالميَّة، واختاروا عدم الانضمام إليها، لا أرغب بتجاهلهم، ولكنَّني بحاجةٍ إلى تمييزهم عن المتدينين النمطيين الأكثر شيوعاً، الذين يعرّفون أنفسهم بعقيدةٍ معيَّنة أو كنيسةٍ تضمُّ العديد من الأعضاء الآخرين، سأسمّيهم أشخاصاً روحانيين، لكن ليسوا متدينين، إن أردت، فهم بمثابة الفقاريَّات الفخريَّة.

هناك العديد من الأنماط المختلفة التي يجب أخذها في الحسبان في الوقت المناسب، على سبيل المثال، الأشخاص الذين يصلُّون، ويؤمنون بفاعليَّة الصلاة، لكن لا يؤمنون أنَّ هذه الفاعليَّة يتمُّ توجيهها من خلال «الإله الفاعل» الذي يسمع الصلاة حرفيّاً.

أريد تأجيل النظر في هذه القضايا كلّها، حتَّى يكون لدينا إدراكٌ أكثر وضوحاً عن مكان

نشأة هذه العقائد.

إنَّ الظاهرة الأساسيَّة للدين، كما أقترح، تستحضر آلهةً فاعلةً نشطةً في الزمن الحقيقي، وتلعب دوراً مركزيّاً في الطريقة التي يفكّر بها المشاركون فيما يجب عليهم فعله، أستخدم الكلمة المراوغة (تستحضر) هنا لأنَّه كما سنرى في فصلٍ لاحق، فإنَّ الكلمة النموذجيَّة (يؤمن) تميل إلى تشويه وتمويه بعض السمات الأكثر إثارةً للاهتمام في الدين، وبتعبيرٍ استفزازي، فإنَّ الإيمان الدينيَّ ليس إيماناً بصورةٍ دائمة، ولماذا يتمُّ السعي للحصول على موافقة الكائن أو الكائنات الخارقة؟

تمَّ تضمين هذا البند للتمييز بين الدين و«السحر الأسود» من مختلف الأنواع.

هناك أشخاصٌ- قليلون جدّاً، في الواقع، على الرَّغم من الأساطير الحضريَّة المثيرة حول «الطوائف الشيطانيَّة» التي ستجعلنا نفكّر بطريقةٍ أخرى - يعدُّون أنفسهم قادرين على قيادة الشياطين الذين يشكّلون معهم نوعاً من التحالف غير المقدَّس، هذه النظم الاجتماعيَّة (موجودةٌ بالكاد) تقع على حدود الدين، لكنَّني أعتقد أنَّه من المناسب استبعادها، نظراً لأنَّ حدسنا يتراجع عن فكرة أنَّ الأشخاص الذين ينخرطون في هذا النوع من التفاهة يستحقُّون المكانة الخاصَّة للمتدينين.

إنَّ ما يشكّل أسس الاحترام الواسع النطاق الذي تحظى به الأديان بكلِّ أنواعها، هو الشعور بأنَّ أولئك المتدينين الذين يملكون نواياً حسنة، يحاولون عيش حياةٍ أخلاقيَّة، وهم جادُّون في رغبتهم في عدم فعل الشر، والتكفير عن خطاياهم. في الوقت نفسه الذي يحاول فيه الشخص الأناني والساذج عقد اتفاق مع قوى الشر الخارقة من أجل شق طريقه في العالم، فإنه يعيش في عالم القصص المصوّرة الهزليّة عن الخرافات، ولا يستحق مثل هذا الاحترام..

3- نكسر أو لا نكسر:

«العلم مثل الثرثار الذي يفسد عليك الفيلم بإخبارك بنهايته» — نيد فلاندرز (شخصية خياليّة في عائلة سمبسون)

أنت في حفلٍ موسيقي، مذهولٌ ومنبهر، تستمع إلى موسيقييك المفضّلين في جولتهم الوداعيَّة، والموسيقى الحلوة ترتقي بك وتنقلك بعيداً إلى مكانٍ آخر، ثمَّ يبدأ الهاتف الخلوي لشخصٍ ما بالرنين كاسراً السحر.

التافه الحقير، ذو الذنب الذي لا يغتفر، لقد أفسد عليك هذا الأحمق المتهوّر الحفلة الموسيقيَّة، وسرق منك لحظةً ثمينةً لا يمكن استعادتها أبداً، كم هو شريرٌ أن تكسر تعويذة أحدهم!

لا أريد أن أكون ذلك الشخص صاحب الهاتف الخلوي، وأنا أدرك جيّداً أنَّني سأبدو لكثيرٍ من النَّاس وكأنَّني سأغازل هذا المصير من خلال الشروع في هذا الكتاب.

المشكلة هي أنَّ هناك تعاويذ جيِّدةً وأيضاً تعاويذ سيّئة، لو كان من الممكن فقط لبعض المكالمات الهاتفيَّة في الوقت المناسب أن تقاطع الإجراءات في جونستاون في غيانا في عام 1978، عندما كان المعتوه جيم جونز يأمر المئات من أتباعه المذهولين بالانتحار!.

ليتنا فقط كسرنا التعويذة التي أغرت طائفة أوم شينريكيو اليابانيَّة لإطلاق غاز السارين في مترو الأنفاق في طوكيو، ممَّا أسفر عن مقتل العشرات وإصابة الآلاف غيرهم، لو تمكنّا اليوم فقط من اكتشاف طريقةٍ ما لكسر التعويذة التي تغري الآلاف من الشباب المسلمين الفقراء في المدارس الدينيَّة المتعصّبة، حيث يتمُّ إعدادهم ليكونوا «استشهاديين» قتلة، بدلاً من تعليمهم عن العالم الحديث والديمقراطيَّة والتَّاريخ والعلوم، لو تمكنّا فقط من كسر التعويذة التي تقنع بعض إخوتنا المواطنين أنَّ الله أمرهم بتفجير عيادات الإجهاض.

ليست العبادات الدينيَّة والمتعصّبون السياسيُّون هم الفاعلون الوحيدون في تعاويذ الشرّ اليوم، فكّر في الأشخاص المدمنين على المخدّرات أو القمار أو الكحول أو المواد الإباحيَّة للأطفال، إنَّهم بحاجةٍ إلى كلِّ المساعدة التي يمكنهم الحصول عليها، وأشكُّ إن كان أيُّ شخصٍ يميل إلى تقديم حمايةٍ لهؤلاء المتورّطين ونصحهم -"صه صه، لا تكسر التعويذة"- وربَّما تكون أفضل طريقةٍ لكسر هذه التعاويذ السيّئة هي التعريف بما هو مدهشٌ في تعويذةٍ

جيّدة، تعويذةٍ إلهيَّة، إنجيل.

قد يكون وقد لا يكون، يجب أن نحاول معرفة ذلك، ربَّما بينما نحن في ذلك، يجب أن نستفسر عمَّا إذا كان العالم سيكون مكاناً أفضل إن استطعنا أن نثير انتباه مدمني العمل ونعالجهم أيضاً، لكنَّني الآن أقتحم الموضوعات المثيرة للجدل. قد يزعم العديد من مدمني العمل أنَّ إدمانهم هو إدمانٌ حميدٌ ومفيدٌ للمجتمع وأحبَّائهم، وإلى جانب ذلك، سيصرُّون على أنَّه من حقّهم في مجتمعٍ حر، أن يفعلوا ما تمليه عليهم قلوبهم، طالما أنَّ ذلك لا يلحق الضرر بأيّ شخصٍ آخر.

المبدأ مسالم: ليس لدينا نحن الآخرين الحقُّ في التطفُّل على ممارساتهم الخاصَّة، طالما أنَّنا متأكّدون تماماً من أنَّهم لا يؤذون الآخرين، لكنَّ التأكُّد متى يكون الأمر كذلك، يزداد صعوبةً أكثر فأكثر.

يجعل النَّاس أنفسهم معتمدين على أشياء كثيرة، يعتقد البعض أنَّهم لا يستطيعون العيش من دون الصحف اليوميَّة والصحافة الحرَّة، بينما يعتقد البعض الآخر أنَّهم لا يستطيعون العيش من دون سجائر، أو أنَّ الحياة من دون موسيقى لن تستحقَّ العيش، أو أن الحياة من دون دينٍ لن تستحقَّ العيش، هل هذا إدمان، أم أنَّها احتياجاتٌ حقيقيَّةٌ يجب أن نسعى للحفاظ عليها بأيّ ثمن؟

في نهاية المطاف، يجب أن نصل إلى أسئلةٍ حول القيم المطلقة، ولا يمكن لأيّ استقصاءٍ واقعي أن يجيب عليها، بدلاً من ذلك، لا يمكننا أن نقوم بشيءٍ أفضل من الجلوس والتفكير معاً، وهي عمليَّةٌ سياسيَّةٌ للإقناع المتبادل والتعليم، يمكننا أن نحاول إجرائها بنيّةٍ حسنة، ولكن من أجل القيام بذلك، علينا أن نعرف الخيارات المتاحة، كما نحتاج إيضاً إلى تفسيرٍ واضحٍ للحجج الداعمة، والمناهضة للرؤى المختلفة للمشاركين.

أولئك الذين يرفضون المشاركة (لأنَّهم يعرفون بالفعل الإجاباتَ في قلوبهم) هم جزءٌ من المشكلة من وجهة نظر الآخرين، بدلاً من أن يكونوا مشاركين في جهودنا الديمقراطيَّة

للتوصّل إلى اتفاقٍ بين إخواننا من بني البشر، فإنَّهم يضعون أنفسهم في قائمة العقبات التي يجب التعامل معها، بطريقةٍ أو بأخرى.

كما هو الحال مع ظاهرة الاحتباس الحراري، لا فائدة من محاولة الجدال معهم، ولكن هناك أكثر من سبب لدراستهم بشكلٍ جدّي، سواءً أحبّوا ذلك أم لا، فقد يغيّرون رأيهم وينضمُّون مجدَّداً إلى مجموعتنا السياسيَّة، ويساعدوننا في استكشاف أسباب مواقفهم وممارساتهم، ولكن سواءً فعلوا ذلك أم لا، يتعيَّن على بقيَّتنا تعلُّم كلّ ما في وسعنا عنهم، لأنَّهم يشكلون خطراً على ما نعتزُّ به.

لقد حان الوقت لإخضاع الدين بوصفه ظاهرةً عالميَّة لأكبر بحثٍ متعدّد الاختصاصات يمكننا حشده، والذي يستنفر أفضل العقول على هذا الكوكب، لماذا؟

لأنَّ الدين أهمُّ من أن نظلَّ جاهلين به، فهو لا يؤثّر فقط على صراعاتنا الاجتماعيَّة والسياسيَّة والاقتصاديَّة، بل يؤثّر على المعاني ذاتها-التي نكتشفها في حياتنا، بالنسبة لكثيرٍ من النَّاس، وربَّما لغالبيَّة النَّاس على وجه الأرض، لا شيء يهمُّ أكثر من الدين، لهذا السبب بالذات، من الضروري أن نتعلَّم عنه قدر المستطاع، هذه باختصار، حجَّةُ هذا الكتاب.

ألن يؤدّي هذا الفحص الشامل والجائر إلى الإضرار بالظاهرة نفسها، قد لا يكسر التعويذة؟ هذا سؤال جيّد ولا أعرف الجواب، ولا أحد يعرف الجواب، وهذا هو السبب في أنَّني أطرح السؤال لاستكشافه بعنايةٍ الآن، كي لا نتسرَّع في استفسارات، سنكون جميعاً أفضل حالاً إذا لم نقم بها، ومع ذلك يجب ألَّا نخفي حقائق عن أنفسنا يمكن أن تقودنا إلى حياةٍ أفضل للجميع.

يواجه النَّاس على هذا الكوكب مجموعةً رهيبةً من المشكلات - الفقر، والجوع، والمرض، والقمع، وعنف الحرب، والجريمة وغير ذلك الكثير - وفي القرن الحادي والعشرين لدينا قوىً لا مثيل لها لمواجهة هذه المشكلات كلّها، لكن ماذا سنفعل؟

إنَّ ما تعلَّمناه في القرن العشرين هو أنَّ النوايا الحسنة لا تكفي، لأنَّنا ارتكبنا بعض الأخطاء

الجسيمة بنيَّةٍ حسنة، في العقود الأولى من القرن العشرين، بدت الشيوعيَّة لملايين المفكّرين وذوي النوايا الحسنة حلّاً جميلاً وجليّاً للظلم الرهيب الذي يمكن للجميع رؤيته، لكنَّهم كانوا مخطئين خطأً فادحاً مكلفاً.

بدا الحظر[1] أيضاً في ذلك الوقت فكرةً جيّدة، ليس فقط للمتعصّبين المتعطّشين للسلطة، العازمين على فرض ذوقهم على مواطنيهم، ولكن للعديد من الأشخاص المحترمين الذين أمكنهم إدراك الخسائر الفادحة لإدمان الكحول، واعتقدوا بأنَّه لن يكون هناك حلاً مقبولاً أقل من الحظر التّام.

لقد ثبت أنَّهم كانوا على خطأ، ولم نتعافَ من جميع الآثار السيّئة التي أحدثتها السياسة حسنة النيّة، وفي وقتٍ ليس ببعيد، بدت فكرة إبقاء السود والبيض في مجتمعاتٍ منفصلة، مع مرافقَ منفصلة، للعديد من الأشخاص الصادقين حلًّا معقولاً للمشكلات الملحّة للنزاع بين الأعراق. لقد تطلَّب الأمر ظهور حركة الحقوق المدنيَّة في الولايات المتَّحدة، والتجربة المؤلمة والمهينة للفصل العنصري، وتفكيكه في نهاية المطاف في جنوب إفريقيا، لإظهار مدى خطأ هؤلاء الأشخاص ذوي النوايا الحسنة في تصديق ذلك.

قد تقول: عارٌ عليهم، كان يجب عليهم أن يعرفوا أكثر، هذه وجهة نظري.

يمكننا أن نتعرَّف بشكلٍ أفضل إذا بذلنا قصارى جهدنا لمعرفة ذلك، وليس لدينا أيُّ عذرٍ لعدم المحاولة، أو ربَّما لدينا ذلك العذر، هل بعض المواضيع محظورة مهما كانت العواقب؟

اليوم، يصلّي المليارات من النَّاس من أجل السلام، ولن أتفاجأ إذا كان معظمهم يؤمن من صميم قلوبهم أنَّ أفضل طريقٍ لتحقيق السلام في جميع أنحاء العالم هو المسار الذي يمرُّ عبر مؤسَّستهم الدينيَّة الخاصَّة، سواءٌ أكانت المسيحيَّة أو اليهوديَّة أو الإسلام أو الهندوسيَّة أو البوذيَّة، أو مئات الأنظمة الدينيَّة الأخرى.

في الواقع، يعتقد الكثير من النَّاس أن الأمل الوحيد للبشريَّة، هو أن نتمكَّن من الجمع بين

(1) يقصد الكاتب هنا حظر الكحول في الولايات المتَّحدة خلال الفترة (1933-1920).

ديانات العالم كلّها في حوارٍ قائمٍ على الاحترام المتبادل، والاتفاق النهائي حول كيفيَّة التعامل مع بعضنا البعض، ربَّما يكونون على حقّ، لكنَّهم لا يدركون ذلك.

حماسة إيمانهم ليست بديلاً عن الأدلَّة القويَّة الجيّدة، والأدلّة المؤيّدة لهذا الأمل الجميل لا تكاد تكون مقنعةً في الواقع، بل هي ليست مقنعةً إطلاقاً، لأنَّ الكثير من النَّاس على ما يبدو، يؤمنون بصدقٍ أنَّ السلام العالميَّ أقلُّ أهميَّةً على المدى القصير والطويل، من الانتصار العالمي لدينهم الخاصّ على منافسيه.

يرى البعض أنَّ الدين هو أفضل أملٍ للسلام، وهو قارب نجاةٍ لا نجرؤ على هزّه بقوّة خشية أن نقلبه ونهلك جميعاً، ويرى البعض الآخر أنَّ تعريف الذات الديني هو المصدر الرئيس للصراع والعنف في العالم، ويؤمنون بالقدر نفسه من الحماسة أنَّ القناعة الدينيَّة هي بديلٌ رهيبٌ للتفكير المستنير والهادئ، وقد مهَّدت النوايا الحسنة لكلا الطريقين.

من منهما على حق؟

أنا لا أعرف، لكن من الثابت أنَّهم ليسوا أولئك المليارات من الأشخاص ذوي المعتقدات الدينيّة المتحمّسة، ولا أولئك الملحدين الذين هم على يقينٍ بأنَّ العالم سيكون مكاناً أفضل بكثير إذا انقرضت الأديان كلّها.

هناك عدم تناسق: الملحدون بوجهٍ عامّ يرحّبون بالفحص الأكثر كثافةً وموضوعيَّةً لوجهات نظرهم وممارساتهم وأسبابهم (في الواقع، يمكن أن يصبح مطلبهم المتواصل للفحص الذاتي مملًّا للغاية) بينما غالباً ما يتّخذ المتديّنون في المقابل، موقفاً عدائيّاً من الوقاحة، وعدم الاحترام، وانتهاك المقدّسات، التي يقدم عليها أيُّ شخصٍ يريد التحقيق في آرائهم.

أنا أعارض بكلِّ احترام، هناك بالفعل تقليدٌ قديمٌ ينجذبون إليه هنا، لكنَّه تقليدٌ خاطئ، ويجب عدم السماح له بالاستمرار، لذا لا بدَّ من كسر هذهِ التعويذة والآن.

لا يمكن لأولئك المتدينين والذين يعتقدون أنَّ الدين هو أفضل أملٍ للبشريَّة، أن يتوقَّعوا منَّا نحن الذين نشكّك بذلك الامتناع عن التعبير عن شكوكنا، إذا

كانوا هم أنفسهم غير مستعدّين لوضع قناعاتهم تحت المجهر، إذا كانوا على حقّ وبشكلٍ جلي، وبمزيدٍ من التفكير لن نتنازل نحن المشكّكون عن هذا فحسب، بل سننضمُّ إلى القضيَّة بحماسة.

نحن نريد ما يدَّعون أنَّهم يريدونه، ألا وهو عالم يسوده السلام، مع أقلِّ قدرٍ ممكنٍ من المعاناة، مع الحرية والعدالة والرفاهية وقيمة الحياة للجميع، وإذا لم يكن من الممكن إثبات صوابيَّة طريقهم، فعليهم أن يدركوا ذلك.

ببساطة، هم يطالبون بمناقبيَّةٍ عالية، ربَّما يستحقُّونها وربَّما لا، دعونا نكتشف ذلك.

4- التحديق في الهاوية:

«الفلسفة هي أسئلةٌ قد لا تتمُّ الإجابة عنها أبداً، الدين أجوبةٌ قد لا يسألها أحدٌ قط» - مجهول

التعويذة التي أقول أنَّه يجب كسرها هي المحرَّمات ضدَّ تحقيقٍ علمي صريحٍ وغير محظورٍ للدين، بوصفه إحدى الظواهر الطبيعيَّة كغيره من الظواهر، لكن من المؤكّد أنَّ أحد الأسباب الأكثر إلحاحاً ومنطقيَّةً لمقاومة هذا الادّعاء، هو الخوف من أنَّه إذا كُسِرَت هذه التعويذة، ووُضِعَ الدين تحت الأضواء السَّاطعة والمجهر، فهناك خطرٌ جسيمٌ لكسر تعويذةٍ مختلفة وأكثر أهميَّةً بكثير: سحر الدين نفسه الذي يثري الحياة.

قد تكون فاجعةً رهيبةً إن أدَّى التدخُّل الناجم عن الاستقصاء العلمي، إلى إعاقة الأشخاص بطريقةٍ ما وجعلهم غير قادرين على التعامل مع الحالات الذهنيَّة التي تشكّل منطلقاتٍ للتجربة الدينيَّة أو القناعة الدينية؛ لا يمكنك أن تفقد عذريَّتك إلَّا مرَّةً واحدة، ويخشى البعض من أنَّ فرض الكثير من المعرفة على بعض الموضوعات، قد يسلب النَّاس براءتهم ويشلُّ قلوبهم بدعوى توسيع مداركهم.

لرؤية المشكلة، يتعيّن على المرء فقط التفكير في الهجوم العالمي الأخير للتكنولوجيا

والثقافة الغربيَّة العلمانيَّة، ممَّا أدَّى إلى اندثار مئات اللغات والثقافات في غضون أجيالٍ قليلة، ألا يمكن أن يحدث الشيء نفسه لدينك؟

إنَّ كلمة الله محصَّنةٌ ضدَّ تطفّل العلماء الضعيف، والقول بأنَّ الكفَّار الفضوليين يمشون على رؤوس أصابعهم كي لا يزعجوا المؤمنين هي فرضيَّةٌ مضحكة، لكن في هذه الحالة لا ضرر من البحث، أليس كذلك؟ فقد نتعلَّم شيئاً مهمّاً.

التعويذة الأولى هي المحرَّمات، والثانية هي الدين نفسه، وهما مرتبطتان معاً في عناقٍ غريب، وقد يكون جزءٌ من قوّة الثانية هي الحماية التي تتلقَّاها من الأولى، لكن من يعلم؟ إذا فرضت علينا التعويذة الأولى عدم التحقيق في هذا الارتباط السببي المحتمل، فإنَّ التعويذة الثانية لها درعٌ مفيد، سواءً كانت بحاجةٍ إليه أم لا.

تتَّضح العلاقة بين هاتين التعويذتين في حكاية هانز كريستيان أندرسن الساحرة «ملابس الإمبراطور الجديدة»، في بعض الأحيان يمكن للأكاذيب والأساطير التي تعدُّ «حكمةً شائعة» أن تستمرَّ إلى أجلٍ غير مسمًّى، لمجرَّد أنَّ المحرَّمات تجعل احتمال كشفها أمراً شاقّاً أو محرجاً.

يمكن الاحتفاظ بمسلَّمةٍ مشتركةٍ هشّة، بعيدةٍ عن النقد لسنوات أو حتَّى لقرون، لأنَّ كلَّ شخص يفترض أنَّ شخصاً آخر لديه بعض الأسباب الوجيهة للحفاظ عليها، ولا أحد يجرؤ على تحدّيها.

حتَّى الآن، كان هناك اتفاقٌ مشتركٌ لم يُختبر جيّداً بأنَّ العلماء والباحثين الآخرين سيدعون الدين وشأنه، أو يقصرون أنفسهم على بعض النظرات الجانبيَّة، حيث ينزعج النَّاس من مجرَّد التفكير في إجراء تحقيقٍ أكثر تركيزاً.

أقترح تعطيل هذا الافتراض وفحصه، إذا كان علينا ألَّا ندرس خصوصيَّات وعموميَّات الدين كلّها، فأنا أريد أن أعرف لماذا، وأريد أن أرى أسباباً جيّدةً مدعومةً بالوقائع، وليس مجرَّد اتّباعٍ للتقاليد التي أرفضها.

إذا كان لا بدَّ من تركِ ستار الخصوصيَّة التقليدي أو «الحرم» في مكانه، فيجب أن نعرف سبب قيامنا بذلك، بما أنَّه يمكن تقديم حجَّةٍ دامغةٍ على أنَّنا ندفع ثمناً باهظاً لتجاهلنا.

يحدّد ذلك ترتيب العمل: أولاً، يجب أن ننظر في مسألة ما إذا كان يجب كسر التعويذة الأولى- المحرَّمات، فمن خلال كتابة هذا الكتاب ونشره، باشرت العمل محاولاً كسر التعويذة الأولى، لكن بما أنَّه يجب على المرء أن يبدأ من نقطةٍ ما، قبل المضي قدماً، ومن ثمَّ جعل الأمور أسوأ، سأتوقّف مؤقّتاً للدفاع عن قراري بمحاولة كسر تلك التعويذة، بعد ذلك، وبعد أن قدَّمت دوافعي لبدء المشروع، سأبدأ المشروع، لكن ليس من خلال الإجابة على الأسئلة الكبرى التي تحفّز المشروع بأكمله، بل عن طريق طرحها بعنايةٍ قدر الإمكان، والإشارة إلى ما نعرفه بالفعل عن كيفيَّة الإجابة عليها، وبيان سبب حاجتنا للإجابة عليها.

أنا فيلسوفٌ ولست عالم أحياء، أو أنثروبولوجيّاً، أو عالم اجتماعٍ، أو مؤرّخاً، أو عالمَ لاهوت، نحن الفلاسفة أفضل في طرح الأسئلة أكثر من الإجابة عليها، وقد يصدم هذا بعض النَّاس لكونه اعترافاً كوميديّاً بالعبث - يقول: «إنَّ تخصّصه هو مجرَّد طرح الأسئلة، وليس الإجابة عليها، يا له من عملٍ رديء! وهم يدفعون له مقابل هذا»، لكنَّ أيَّ شخصٍ عالجَ مشكلةً صعبة حقّاً يعرف أنَّ إحدى أصعب المهام هي العثور على الأسئلة الصحيحة التي يجب طرحها، والترتيب الصحيح لطرحها.

عليك أن تكتشف ليس فقط ما لا تعرفه، ولكن ما تحتاج إلى معرفته، وما لست بحاجة إلى معرفته، وما الذي تحتاج إلى معرفته لاكتشاف ما تحتاج إلى معرفته، وما إلى ذلك.

يفتح الشكل الذي تتَّخذه أسئلتنا بعض السبل، ويغلق البعض الآخر، ولا نريد إضاعة الوقت والطاقة سدىً، يمكن للفلاسفة أحياناً أن يساعدوا في هذا المسعى، لكنَّهم غالباً ما يصبحون عائقاً أيضاً، ثمَّ يجب على فيلسوفٍ آخر أن يأتي ويحاول تنظيف الفوضى.

لطالما أحببت الطريقة التي عبَّر بها جون لوك، في «رسالةٍ إلى القارئ» في بداية مقالته حول الفهم البشري (1690):

"يكفيه طموحاً أن يُوظَّف كعاملٍ جزئيّ في تنظيف الأرض، وإزالة بعض الأنقاض التي تعيق طريق المعرفة التي كان من الممكن أن تكون أكثر تقدّماً في العالم، لو لم تكن مساعي الرجال المجتهدين والمبدعين مثقلةً كثيراً بالاستخدام المتكلّف والعبثي للمصطلحات الغريبة أو المتكلّفة أو غير المفهومة، التي تمَّ إقحامها في العلوم، حيث شكّلت أسلوباً، لدرجة أنَّه نُظِرَ إلى الفلسفة، التي ليست سوى المعرفة الحقيقيَّة للأشياء، على أنَّها غير ملائمةٍ أو غير قادرةٍ على الانخراط في مجالسةٍ لطيفةٍ وحوارٍ راقٍ".

أحد أبطالي من الفلاسفة (ويليام جيمس) أدرك كأيّ فيلسوف أهميَّة إثراء نظامه الفلسفي بالمجرَّدات والحجج المنطقيَّة، بمساعدةٍ كبيرةٍ من الحقائق التي تمَّ الحصول عليها بشقِّ الأنفس، وقبل حوالي مئة عام، نشر تحقيقه الكلاسيكي «أصناف التجربة الدينيَّة»، والذي سوف يُستشهدُ به كثيراً في هذا الكتاب، لأنَّهُ كنزٌ دفينٌ من الأفكار والحجج، والتي غالباً ما يتمُّ تجاهلها في الآونة الأخيرة، وسأبدأ بوضع حكاية قديمة يرويها لاستخدام جديد:

"القصَّة التي كثيراً ما يرويها الوعَّاظ الإحيائيُّون[1]هي قصَّة رجلٍ انزلق ليلًا على جانب الهاوية، واستطاع أن يمسك بغصنٍ أوقف سقوطه، وبقي متشبّثاً به في بؤسٍ لساعات، لكن أخيراً أفلتت أصابعه قبضتها عن الغصن، وفي وداعٍ يائسٍ للحياة، ترك نفسه يسقط، سقط ستَّ بوصاتٍ فقط، ولو تخلَّى عن النضال في وقتٍ سابق، لنجا من العذاب". [جيمس، 1902، ص. 111]

سأقول لكم، مثل واعظٍ إحيائي: أيُّها المتديّنون الذين يخشون كسر المحرَّمات، تخلّوا عنها، بالكاد ستلاحظون السقطة، فكلَّما شرعنا في دراسة الدين علميّاً، كلَّما تلاشت أعمق مخاوفكم، لكنَّه مجرَّد نداءٍ وليس حجَّة، لذا عليَّ أن أستمرَّ في قضيَّتي.

أطلب منكم فقط أن تحافظوا على أذهانكم متفتّحة، وأن تمتنعوا عن الحكم المسبق على ما أقوله، لأنَّني فيلسوفٌ كافر، بينما أبذل قصارى جهدي أيضاً لكي أفهمكم.

(1) الواعظ الإحيائي هو الواعظ الذي يحمل أو يروّج أو يرأس الإحياء الديني.

(أنا بارع، أثارت مقالتي «The Bright Stuff» في صحيفة نيويورك تايمز، 12 يوليو 2003، الانتباه إلى جهود بعض اللاأدريين والملحدين وغيرهم من أتباع المذهب الطبيعي، لصياغة مصطلحٍ جديدٍ لنا نحن غير المؤمنين، وقد ساعدت الاستجابة الإيجابيَّة الكبيرة على هذا المقال في إقناعي بكتابة هذا الكتاب، كان هناك أيضاً ردٌّ سلبيٌّ يعترض إلى حدٍّ كبير على المصطلح الذي اخترته [ليس من قبلي]: بارع، والذي يبدو أنَّه يوحي بأنَّ الآخرين كانوا بليدين أو أغبياء، لكنَّ المصطلح على غرار التحريف الناجح للغاية لكلمة «gay» من قبل المثليين جنسيَّاً، لا ينبغي أن يحمل هذا المعنى.

أولئك الذين ليسوا مثليين ليسوا بالضرورة كئيبين؛ هم أسوياء، وأولئك غير البارعين ليسوا بالضرورة بليدين، قد يرغبون في اختيار اسمٍ لأنفسهم، لأنَّهم وعلى عكسنا نحن البارعون، يؤمنون بما هو خارقٌ للطبيعة، ربَّما يرغبون في تسمية أنفسهم «خارقين» «supers»، إنَّها كلمة لطيفةٌ ذات دلالات إيجابيَّة، مثل مثلي الجنس وبارع وسوي.

بعض النَّاس لن يتعاملوا عن طيبِ خاطرٍ مع شخصٍ مثلي الجنس بشكلٍ معلن، وآخرون لم يقرؤوا عن طريق الخطأ كتاباً لشخصٍ بارع بوضوح، لكن هنالك مرَّةٌ أولى لكلِّ شيء، جرّبها، يمكنك دائماً التراجع لاحقاً إذا أصبح الأمر مسيئاً للغاية).

كما ترون بالفعل، ستكون هذه تجربةً مثيرةً لكلينا، لقد أجريت مقابلاتٍ مع العديد من الأشخاص المتديّنين بشدَّة في السنوات القليلة الماضية، ومعظم هؤلاء المتطوّعين لم يتجادلوا أبداً مع أيّ شخصٍ مثلي حول مثل هذه الموضوعات (وبالتأكيد لم أحاول التطرُّق من قبل إلى مثل هذه الموضوعات الحسَّاسة مع أشخاص ليسوا مثلي)، لذلك كانت هناك أكثر من مجرَّد مفاجآتٍ غريبة، وسوء فهمٍ محرج.

لقد تعلَّمت الكثير، لكن على الرَّغم من أنَّني بذلت قصارى جهدي، فأنَّني سأُغضِبُ بلا شكٍّ بعض القرَّاء، وأُظهِرُ جهلي بالأمور التي يعدّونها ذات أهميَّةٍ قصوى، وسيعطيهم هذا سبباً سهلاً لتجاهل كتابي من دون التفكير في النقاط التي يختلفون معها في الكتاب، وسبب ذلك.

أطلب منهم مقاومة التذرّع بهذا العذر والاستمرار بعناد، سيتعلَّمون شيئاً ما، وبعد ذلك قد يكونون قادرين على تعليمنا كلَّ شيء.

يعتقد بعض النَّاس أنَّه من غير الأخلاقي مجرَّد التفكير في قراءة مثل هذا الكتاب! فبالنسبة لهم، فإنَّ التساؤل عمَّا إذا كان ينبغي عليهم قراءته سيكون مخجلاً، مثل التساؤل عمَّا إذا كانوا سيشاهدون شريط فيديو إباحيَّاً.

يعرّف عالم النفس فيليب تيتلوك (1999، 2003، 2004) القيم على أنَّها مقدَّسةٌ عندما تكون مهمَّةً جدَّاً لأولئك الذين يؤمنون بها، لدرجة أنَّ دراستها تعد أمراً مسيئاً.

اشتُهِرَ الممثل الكوميدي جاك بيني ببخله- أو هكذا قدَّم نفسه على الراديو والتلفزيون- وكان من أفضل أعماله المسرحيَّة الهزليَّة تلك التي يضع فيها السارق مسدَّساً في ظهره ويصرخ، «أموالك أو حياتك؟» يقف «بيني» صامتاً، ويكرّر السارق «أموالك أو حياتك؟»، ومع نفاد صبر اللص يردُّ بيني: «أنا أفكّر، أنا أفكّر».

هذا مضحك لأنَّ معظمنا - سواءٌ أكان متديناً أم لا - يعتقد أنَّه لا ينبغي لأحدٍ حتَّى التفكير في مثل هذه المقايضة، لا ينبغي أن يكون التفكيرُ في مثل هذه المقايضة أمراً وارداً، فالحياة مقدَّسة، ولن يكون أيُّ مبلغٍ من المال تعويضاً عادلاً لها، وإذا كنت لا تعرف ذلك بالفعل، فما خطبك؟

«إنَّ تجاوز هذه الحدود، وإعطاء قيمة نقديَّةٍ لصداقات المرء، أو أطفاله، أو ولائه للبلد، هو حرمان المرء من الأدوار الاجتماعيَّة المصاحبة له» (Tetlock et al.، 2004، p. 5)، وهي ما تجعل للحياة قيمةً مقدَّسة.

أجرى تيتلوك وزملاؤه تجارب بارعةً (ومقلقةً في بعض الأحيان)، حيث يتعيَّن على الأشخاص التفكير في «المقايضات المحظورة»، مثل شراء أجزاء حيَّةٍ من جسم الإنسان مقابل غرضٍ ما جدير بالاهتمام أو عدم القيام بذلك، أو دفع أموالٍ لشخصٍ ما لكي ينجب لك طفلاً تقوم بتربيته بعد ذلك أو لا، أو تدفع لشخصٍ ما لأداء خدمتك العسكريَّة، وكما

يتنبَّأ نموذجهم، يُظهِرُ بعض الأشخاص «تأثيراً تأمُّليّاً خالصاً» قويّاً؛ يشعرون بالذنب ويغضبون أحياناً حتَّى من مجرَّد استدراجهم للتفكير في مثل هذه الخيارات الرهيبة، حتَّى لو اختاروا جميع الخيارات الصحيحة.

عندما يُمنَحُ المجرَّبون الفرصة للانخراط في «التطهير الأخلاقي» (عن طريق التطوُّع في بعض الخدمات المجتمعيَّة ذات الصلة، على سبيل المثال) فإنَّ الأشخاص الذين اضطرُّوا للتفكير في المقايضات المحرَّمة يكونون أكثر ميلاً للتطوُّع في مثل هذه الأعمال الصالحة، من أولئك الأشخاص غير الخاضعين للتجربة (المجموعة الضابطة).

(طُلِبَ من أفراد المجموعة الضابطة التفكير في مقايضات علمانيَّة بحتة، مثل استئجار شخصٍ لتنظيف المنزل، أو شراء طعامٍ بدلاً من شيءٍ آخر) لذلك قد يحقِّق هذا الكتاب بعض الخير من خلال زيادة مستوى العمل الخيّر عند أولئك الذين يشعرون بالذنب بسبب قراءته.

إذا شعرت بأنَّك ملوَّثٌ من خلال قراءة هذا الكتاب، فربَّما تشعر بالامتعاض، ولكنَّك ستشعر أيضاً بحماسةٍ أكثر للتخلُّص من هذا الامتعاض من خلال الانخراط في بعض التطهير الأخلاقي، أتمنَّى ذلك، ولستَ بحاجة إلى شكري لإلهامك.

على الرَّغم من الدلالات الدينيَّة للمصطلح، حتَّى الملحدون واللاأدريُّون يمكن أن تكون لديهم قيمٌ مقدَّسة، وهي ببساطةٍ ليست قابلةً لإعادة التقييم إطلاقاً؛ لديَّ قيمٌ مقدَّسة؛ بمعنى أنَّني أشعر بالذنب بشكلٍ مبهم لمجرَّد التفكير فيها إذا كانت قابلة للدفاع عنها، ولن أفكِّر أبداً في التخلّي عنها في سياق حلِّ معضلةٍ أخلاقيَّة.

إنَّ قيمي المقدَّسة واضحةٌ ومسكونيَّةٌ إلى حدٍّ كبير: الحبُّ والحقيقة والحياة والديمقراطيَّة والعدالة (حسب الترتيب الأبجدي)، لكن بما أنَّني فيلسوف، تعلَّمت كيف أتجنَّب اختلال التوازن والإحراج، وأسأل نفسي ما الذي يدعمها في النهاية، وما الذي يجب أن تقدّمه عندما تتعارض مع بعضها، كما تفعل بشكلٍ مأساوي في كثيرٍ من الأحيان، وما إذا كانت هناك بدائل أفضل.

هذا هو انفتاح الفلاسفة التقليديين على كلِّ فكرةٍ يجدها بعض النَّاس غير أخلاقيَّةٍ في حدِّ ذاتها، يعتقدون أنَّهم يجب أن يكونوا منغلقين عندما يتعلَّق الأمر بمواضيع معيّنة، إنَّهم يعرفون أنَّهم يتشاركون الكوكب مع الآخرين الذين يختلفون معهم، لكنَّهم لا يريدون الدخول في حوار مع هؤلاء الآخرين، إنَّهم يريدون تشويه سمعة الآخرين أو قمعهم أو حتَّى قتلهم.

بينما أُدرك أنَّ العديد من المتدينين لا يمكنهم أبداً إقناع أنفسهم بقراءة كتاب مثل هذا – وهذا جزءٌ من المشكلة التي يهدف الكتاب إلى إلقاء الضوء عليها – فإنَّني أعتزم الوصول إلى أكبر عددٍ ممكنٍ من جمهور المؤمنين.

كتب مؤلّفون آخرون مؤخّراً كتباً ومقالاتٍ ممتازةً حول التحليل العلمي للدين، موجّهةً بوجهٍ أساسي إلى زملائهم الأكاديميين. إنَّ هدفي هنا هو لعب دور السفير، وتقديم (وتمييز، وانتقاد، والدفاع) عن الأفكار الرئيسة لتلك الأدبيَّات، ممَّا يؤدّي إلى تفعيل قيمي المقدَّسة: أريد أن يكون حلُّ مشكلات العالم ديمقراطيّاً وعادلاً قدر الإمكان، وتعتمد الديمقراطيَّة والعدالة على الجلوس على الطاولة ليتمكَّن الجميع من رؤية أكبر قدرٍ ممكنٍ من الحقيقة، مع الأخذ في الحسبان أنَّ الحقيقة مؤلمةٌ أحياناً، لذا يجب تركها مخفيَّةً بدافع الحبّ لمن سيعانون إذا تمَّ الكشف عنها، لكنَّني على استعدادٍ للنظر في القيم البديلة، وإعادة النظر في الأولويَّات التي أجدها بين أولويَّاتي.

5- الدين ظاهرة طبيعيَّة:

لبما أنَّ كلَّ استفسارٍ يتعلَّق بالدين له أهميَّةٌ قصوى، فهناك سؤالان على وجه الخصوص يشدَّان انتباهنا، وهما: السؤال المتعلّق بتأسيسه في العقل، وذلك المتعلّق بأصله في الطبيعة البشريَّة» – ديفيد هيوم، التاريخ الطبيعي للدين

ماذا أعني عندما أتحدّث عن الدين بوصفه ظاهرةً طبيعيَّة؟

قد أعني أنَّه مثل الطعام الطبيعي– ليس لذيذاً فقط، ولكنّه صحيٌّ و«عضوي» (هذه هي

الأسطورة بأي حال من الأحوال) فهل أعني: «الدين صحيّ؛ إنَّه مفيدٌ لك»؟ قد يكون هذا صحيحاً، لكن ليس هذا ما أعنيه، قد أعني أنَّ الدين ليس أثراً فنيَّاً، وليس نتاج نشاطٍ فكري بشري؛ العطس والتجشّؤ أمران طبيعيَّان، ولكنَّ قراءة الشعر ليست كذلك، أن تكون عارياً- كما ولدتك أمك- أمرٌ طبيعي، ولكنَّ ارتداء الملابس ليس كذلك، لكن من الواضح أنَّه من الخطأ أن نعدَّ الدين أمراً طبيعيَّاً بهذا المعنى.

تنتقل الأديان ثقافيَّاً من خلال اللغة والرمزيَّة، وليس من خلال الجينات؛ قد يكون لك أنف والدك وموهبة والدتك الموسيقيَّة من خلال جيناتك، لكن إذا حصلت على دينك من والديك، فإنَّك تحصل عليه بالطريقة التي تكتسب بها لغتك من خلال التنشئة، لذلك ليس هذا ما أعنيه بالطبيعيَّة.

بنبرةٍ مختلفة قليلاً، قد أعني أنَّ الدين يلائم ما نحصل عليه بشكلٍ طبيعي، وليس الذوق المكتسب أو المصطنع أو المُتعَلَّم، وبهذا المعنى، الكلام أمرٌ طبيعي، ولكنَّ الكتابة ليست كذلك، شرب الحليب طبيعي، لكنَّ شرب المارتيني ليس كذلك، الاستماع إلى الموسيقى المقاميَّة (tonal music) أمرٌ طبيعي، ولكنَّ الاستماع إلى الموسيقى اللامقاميَّة (atonal music) ليس كذلك، التحديق في غروب الشمس أمرٌ طبيعي، ولكنَّ التحديق في لوحات بيكاسو الأخيرة ليس كذلك.

هناك بعض الحقيقة في هذا: الدين ليس عملاً غير طبيعي، وسيكون هذا موضوعاً سيُبحَثُ في هذا الكتاب، لكن ليس هذا ما أعنيه.

قد أعني أنَّ الدين أمرٌ طبيعيٌّ على عكس ما هو خارقٌ للطبيعة، وأنَّه ظاهرةٌ بشريَّةٌ تتكوَّن من أحداث، وكائنات، وأشياء، وتركيبات، وأنماط، وما شابه ذلك جميعها تخضع لقوانين الفيزياء أو علم الأحياء، لذا لا تنطوي على معجزات، وهذا ما أعنيه.

لاحظ أنَّه يمكن أن يكون صحيحاً أنَّ الله موجود، وأنَّ الله هو بالفعل الخالق الذكي الواعي والمحبُّ لنا جميعاً، ومع ذلك فإنَّ الدين نفسه بوصفه مجموعةً معقَّدةً من الظواهر،

هو ظاهرةٌ طبيعيَّةٌ تماماً.

لا أحد يعتقد أنَّه كان من المفترض أن يؤلف الملحد كتاباً بعنوان الرياضة بوصفها ظاهرةً طبيعيَّة، أو السرطان بوصفه ظاهرةً طبيعيَّة، من المعروف أنَّ كلاً من الرياضة والسرطان هما ظاهرتان طبيعيَّتان وليستا خارقتين للطبيعة، على الرَّغم من المبالغات المعروفة للمروّجين المختلفين.

تخضع الرياضة والسرطان لتدقيق علمي مكثَّف من قبل باحثين يعملون في العديد من التخصُّصات، ولديهم العديد من الآراء الدينيَّة المختلفة، يفترضون جميعاً - مبدئيَّاً ومن أجل العلم- أنَّ الظواهر التي يدرسونها هي ظواهر طبيعيَّة.

هذا لا يستبق الحكم على أنَّها كذلك، ربَّما توجد معجزات رياضيَّة تتحدَّى قوانين الطبيعة، ربَّما تكون بعض علاجات السرطان معجزات، إذا كان الأمر كذلك، فإنَّ الأمل الوحيد في إثبات ذلك لعالمٍ متشكّك سيكون من خلال تبنّي المنهج العلمي، مع افتراض عدم وجود معجزات، وإظهار أنَّ العلم غير قادرٍ تماماً على تفسير الظواهر.

يجب أن يكون صيَّادو المعجزات علماء نزيهين، وإلَّا فإنَّهم يضيعون وقتهم - وهي نقطةٌ اعترفت بها الكنيسة الرومانيَّة الكاثوليكيَّة منذ فترةٍ طويلة، والتي تُخضِعُ ادّعاءات الإتيان بمعجزات من جانب المرشَّحين للقداسة لتحقيقٍ علمي موضوعي- لذلك لا ينبغي لأيّ شخصٍ شديد التديّن أن يعترض على الدراسة العلميَّة للدين بافتراض أنَّه ظاهرةٌ طبيعيَّةٌ تماماً. إذا لم يكن الأمر طبيعيَّاً تماماً، وكانت هناك معجزاتٌ بالفعل، فإنَّ الطريقة المثلى الوحيدة لإظهار ذلك للمتشككين ستكون بإثبات ذلك علميَّاً.

إنَّ رفض الالتزام بهذه القواعد يخلق شكوكاً في أنَّ المرء لا يعتقد حقَّاً أنَّ الدين خارقٌ للطبيعة في النهاية.

بافتراض أنَّ الدين ظاهرةٌ طبيعيَّة، فأنا لا أحكم مسبقاً على قيمته في حياة الإنسان، بطريقةٍ أو بأخرى. فالدين مثل الحبّ والموسيقى طبيعي، وكذلك التدخين والحرب والموت، وبهذا

المعنى لكلمة «طبيعي»، كلُّ شيءٍ اصطناعي طبيعي؛ سدُّ أسوان ليس أقلَّ طبيعيَّةً من سدّ القندس، وجمال ناطحة السحاب ليس أقلَّ طبيعيَّةً من جمال غروب الشمس.

تأخذ العلوم الطبيعيَّة كلَّ شيءٍ في الطبيعة كموضوعٍ لها، وهذا يشمل كلاً من الأدغال والمدن، والطيور والطَّائرات، والصالح والسيّئ، والقبيح والتَّافه، والأهمّ أيضاً.

منذ أكثر من مائتي عام، كتب ديفيد هيوم كتابين عن الدين، أحدهما كان عن الدين كظاهرةٍ طبيعيَّة، وكانت الجملة الافتتاحيَّة هي العبارة المكتوبة في بداية هذا القسم، وكان الآخر عن «الأساس العقلي» للدين، وهو كتابه الشهير «حوارات حول الدين الطبيعي» (1779).

أراد هيوم أن يفكّر فيما إذا كان هناك أيُّ سببٍ وجيه - سبب علمي - للإيمان بالله، سيكونُ الدين الطبيعي، بالنسبة لهيوم، عقيدةً مدعومةً جيّداً بالأدلّة والحجج، مثل نظريَّة نيوتن في الجاذبيَّة، أو الهندسة المستوية.

قارن هيوم بين الدين الطبيعي والدين الموحى به، والذي اعتمد على إلهامات التجربة الصوفيَّة، أو غيرها من مساراتٍ علميَّةٍ إضافيَّة للاعتقاد، لقد منحتُ كتاب حوارات حول الدين الطبيعي لـ هيوم موقع الصدارة في كتابي لعام 1995، «فكرة داروين الخطرة» - هيوم بطلٌ آخر من أبطالي - لذلك قد تعتقد أنَّني أعتزم متابعة هذه القضيَّة أكثر في هذا الكتاب، لكنَّ ذلك ليس في نيتي، هذه المرَّة أتابع طريق هيوم الآخر.

لقد أمضى الفلاسفة ألفي عام وأكثر في تلفيق وانتقاد الحجج على وجود الله، مثل الحجَّة من التصميم والحجَّة الأنطولوجيَّة، والحجج ضدَّ وجود الله، مثل حجَّة الشر، لقد كرَّس الكثير منّا قدراً كبيراً من الوقت والطَّاقة في مرحلةٍ ما من حياتنا للنظر في الحِجج المؤيّدة لوجود الله والمعارضة لذلك، ويواصل العديد من البارعون متابعة هذه القضايا، ويبتعدون بقوَّةٍ عن حجج المؤمنين، كما لو كانوا يحاولون دحض نظريَّةٍ علميَّةٍ منافسة، لكن ليس أنا، لقد قرَّرت منذ بعض الوقت أنَّ فوائد الحجج حول وجود الله بدأت بالتراجع، وأشكُّ في حدوث اختراقاتٍ وشيكةٍ من أيّ جانب، إلى جانب ذلك، يصرُّ العديد من الأشخاص

المتديّنين بشدَّة على أنَّ هذه الحجج كلَّها - على كلا الجانبين - تفتقد ببساطةٍ إلى الهدف الكامل للدين، وعدم اهتمامهم الواضح بالحجج يقنعني بصدقهم. حسناً، إذاً ما هو الهدف من الدين؟ وما هي هذه الظاهرة أو مجموعة الظواهر التي تعني الكثير لكثيرٍ من النَّاس، ولماذا -وكيف- تفرض الولاء وتشكّل حياة الكثير من النَّاس بقوَّة؟

هذا هو السؤال الرئيس الذي سأتناوله هنا، وبمجرَّد أن نفرز بعض الإجابات المتضاربة على هذا السؤال ونوضّحها (لم نحسمها)، سوف يعطينا منظوراً جديداً يمكننا من خلاله النظر بإيجاز في القضيَّة الفلسفيَّة التقليديَّة.

إنَّ بعض النَّاس يصرُّون على أنَّ القضيَّة الوحيدة هي: ما إذا كانت هناك أسباب وجيهةٌ للإيمان بالله أم لا، أولئك الذين يصرُّون على أنَّهم يعرفون أنَّ الله موجود، ويمكنهم إثبات ذلك.

الفصل الأول: الأديان من أقوى الظواهر الطبيعيَّة على هذا الكوكب، ونحن بحاجةٍ إلى فهمها بشكلٍ أفضل إذا أردنا اتخاذ قراراتٍ سياسيَّةٍ مستنيرةٍ وعادلة.

على الرَّغم من وجود مخاطرَ ومضايقاتٍ ضمنيَّة، يجب أن نُعدَّ أنفسنا ونضع إحجامنا التقليديَّ عن التحقيق في الظواهر الدينيَّة بطريقةٍ علميَّة جانباً، حتَّى نتمكَّن من فهم كيف ولماذا تلهم الأديان مثل هذا الإخلاص، ومعرفة كيف يجب أن نتعامل معها جميعاً في القرن الحادي والعشرين.

الفصل الثاني: معوقات أمام الدراسة العلميَّة للدين، وهناك شكوكٌ يجب معالجتها، حيث يظهر الاستكشاف الأولي أنَّه من الممكن والمستحسن بالنسبة لنا أن نسلّط أقوى الأضواء على الدين.

الفصل الثاني

بعض الأسئلة حول العلوم

1- هل يستطيع العلم دراسة الدين؟

«من الثابت أنَّ الإنسان حيوانٌ من منظور علم الحيوان، لكنَّه حيوانٌ فريدٌ من نوعه، ويختلف عن بقيَّة الحيوانات في العديد من الجوانب الأساسيَّة، الأمر الذي يجعل وجود علمٍ مستقلٍّ للإنسان أمراً مبرَّراً» - إرنست ماير، نمو الفكر البيولوجي.

كان هناك بعض الالتباس حول ما إذا كان يجب عدُّ المظاهر الأرضيَّة للدين جزءاً من الطبيعة، هل الدين خارج نطاق العلم؟ كلُّ هذا يتوقَّف على ما تقصده؛ إذا كنت تقصد التجارب والمعتقدات والممارسات والنصوص والتحف والمؤسَّسات والصراعات الدينيَّة وتاريخ الإنسان العاقل، فهذا فهرسٌ ضخم للظواهر الطبيعيَّة بلا شك.

تعدُّ حالات الهلوسة الناتجة عن المخدِّرات والنشوة الدينيَّة قابلةً للدراسة من قبل علماء الأعصاب وعلماء النفس، بكونها حالات نفسيَّة، كما يعدُّ حفظ الجدول الدوري للعناصر بمثابة ممارسةٍ للكفاءة المعرفيَّة، ويماثل ظاهرة حفظ الصلاة الربَّانيَّة، ونظراً لكونها أمثلةً على الهندسة، فإنَّ الجسور المعلَّقة والكاتدرائيَّات تخضع لقانون الجاذبيَّة، وللأنواع نفسها من القوى والإجهادات.

تعدُّ كلٌّ من الروايات الغامضة والأناجيل من السلع المصنَّعة القابلة للبيع التي تخضع لنظام الاقتصاد، ولا تختلف لوجستيَّات الحروب المقدَّسة عن لوجستيَّات الصراعات العلمانيَّة بالكامل، «سبّحوا للربّ وأعطوا الذخيرة!» كما قالت أغنية الحرب العالميَّة الثانية.

يمكن للباحثين التحقيق في حملةٍ صليبيَّة أو جهادٍ في العديد من التخصُّصات، من الأنثروبولوجيا والتَّاريخ العسكري إلى التغذية وعلم المعادن.

في كتابه Rocks of Ages (1999)، دافع الراحل «ستيفن جاي غولد» عن الفرضيَّة السياسيَّة القائلة بأنَّ العلم والدين هما «سلطتان تعليميَّتان[1] غير متداخلتين، مجالان للاهتمام والاستفسار يمكن أن يتعايشا بسلامٍ طالما لا يتعدَّى أحدهما على الآخر.

إنَّ السلطة التعليميَّة في العلوم هي الحقيقة الواقعيَّة في جميع الأمور، بينما السلطة التعليميَّة في الدين، كما يزعم «غولد»، هي مملكة الأخلاق ومغزى الحياة، وعلى الرَّغم من أنَّ رغبة غولد في تحقيق السلام بين هذين المنظورين المتصارعين في كثيرٍ من الأحيان كانت جديرةً بالثناء، إلَّا أنَّ اقتراحه لم يلقَ استحساناً كبيراً من كلا الجانبين، لأنَّه بنظر المتديّنين، اقترح التخلّي عن جميع الادّعاءات الدينيَّة لصالح الحقيقة الواقعيَّة وفهم العالم الطبيعي (بما في ذلك الادّعاءات بأنَّ الله خلق الكون، أو يصنع المعجزات، أو يستمع للصلاة)، بينما من وجهة نظر العلمانيين، فإنَّه منح الدين الكثير من السلطة في مسائل الأخلاق والمعنى.

كشف جولد عن بعض الأمثلة الواضحة للحماقة السَّافرة على كلا الجانبين، لكنَّ الادّعاء بأنَّ كلَّ صراعٍ بين المنظورين يرجع إلى تجاوزٍ من طرف أحد الجانبين هو أمرٌ غير قابلٍ للتصديق، وغير مقنعٍ إلَّا لقلَّةٍ من القرَّاء، ولكن سواءٌ أكان من الممكن دعم مقترح غولد أم لا، فإنَّ اقتراحي مختلف، قد يكون هنالك مجالٌ يكون فيه الدين هو الآمرَ لوحده، كبعض مجالات النشاط البشري التي لا يستطيع العلم معالجتها بأسلوبٍ صحيح، بينما يستطيع الدين فعل ذلك، لكنَّ هذا لا يعني أنَّ العلم لا يستطيع، أو لا ينبغي أن يدرس هذه الحقيقة

(1) MAGISTERIUM: هي السلطة التعليميَّة للكنيسة الكاثوليكيَّة الرومانيَّة، خاصَّةً كما يمارسها الأساقفة أو البابا (وجمعها MSGISTERIA)

بالذات.

من المفترض أنَّ كتاب غولد نفسه كان نتاجاً لمثل هذا البحث العلمي، وإن كان بحثاً غير رسميٍ إلى حدٍّ ما، لقد نظر غولد إلى الدين بعينيّ عالم، واعتقد أنَّه يستطيع رؤية حدودٍ تكشف مجالين من النشاط البشري، هل كان على حقّ؟ من المفترض أن يكون هذا سؤالاً علميّاً واقعيّاً، وليس سؤالًا دينيّاً، أنا لا أقترح أن يحاول العلم أن يفعل ما يفعله الدين، ولكن يجب أن يدرس علميّاً ما يفعله الدين.

أحد الاكتشافات المدهشة لعلم النفس الحديث هو مدى سهولة أن تكون جاهلاً بجهلك، عادةً ما تكون غافلاً عن بقعتك العمياء، وعادةً ما يصاب النَّاس بالدهشة لاكتشاف أنّنا لا نرى ألواناً في رؤيتنا المحيطيَّة[1]، يبدو الأمر كما لو فعلنا ذلك، لكنَّنا لا نفعل، حيث يمكنك إثبات ذلك لنفسك من خلال اهتزاز بطاقاتٍ ملوَّنةٍ على حافَّة مجال رؤيتك - سترى الحركة بشكلٍ جيّد، ولكن لن تكون قادراً على تحديد لون الشيء المتحرك- يتطلَّب الأمر استثارةً خاصَّةً كالتي قمنا بها في المثال السابق، لكي ندرك غياب معلوماتٍ تكشف عن نفسها لنا، وغياب المعلومات عن الدين هو ما أريد أن ألفت انتباه الجميع إليه، لقد أهملنا جمع ثروةٍ من المعلومات حول شيءٍ مهمٍّ لنا.

قد يفاجئنا هذا الأمر، ألم ننظر إلى الدين بعنايةٍ لفترةٍ طويلة؟ نعم بالطبع، كانت هناك قرون من الدراسات المتعمّقة والرصينة حول تاريخ الظواهر الدينيَّة وتنوُّعها، ويثبت هذا العمل أنَّه مصدرٌ قيّمٌ للغاية لأولئك الروَّاد الذين بدؤوا في دراسة الظواهر الطبيعيَّة للدين بعيون العلم المعاصر الآن، كما كانت المعلومات التي جمعها مراقبو الطيور المتفانون، وغيرهم من محبّي الطبيعة قبل عصر داروين، فقد تمكّن داروين بفضل معرفته العميقة بثروةٍ من التفاصيل التجريبيَّة التي حصل عليها بشكلٍ دقيق - من قبل المئات من المؤرّخين الطبيعيين ما قبل الداروينيين وغير الداروينيين- من إحداث ثورةٍ في علم الأحياء.

(1) رؤيةٌ جانبيَّةٌ لما تراه العين عند النظر إلى الأمام مباشرةً.

كانت براءتهم النظريَّة في حدِّ ذاتها بمثابة اختبار مهمٍّ لحماسته؛ لم يجمعوا حقائقهم بهدف إثبات صحَّة النظريَّة الداروينيَّة، ويمكننا أن نكون ممتنِّين بالقدر نفسه لأنَّ كلَّ «التَّاريخ الطبيعي للدين» الذي تراكم حتَّى الآن، وإن لم يكن بريئاً من الناحية النظريَّة، فهو على الأقلّ غافلٌ عن هذا النوع من النظريَّات التي قد يدعمها أو يقوِّضها الآن.

ومع ذلك لم يكن البحث حتَّى الآن محايداً، فنحن لا نتوجَّه إلى الظواهر الدينيَّة وندرسها مباشرةً، كما لو كانت أحافيرَ أو فولَ صويا في حقل؛ يميل الباحثون إلى أن يكونوا إمَّا محترمين، مراعين، دبلوماسيين، متردّدين، أو عدائيين وغاضبين، ومحتقرين.

من المستحيل تقريباً أن تكون محايداً في مقاربتك للدين، لأنَّ العديد من النَّاس يرون الحياد في حدِّ ذاته عدائيّاً؛ إذا لم تكن معنا، فأنت ضدَّنا، وبما أنَّ الدين مهمٌّ جدّاً لكثيرٍ من النَّاس، لم يحاول الباحثون أبداً أن يكونوا محايدين، فهم إمَّا اتَّخذوا جانب الإذعان، متعاملين مع الموضوع بحذر، أو اتَّخذوا موقف العداء السَّافر، ولهذا السبب كان هناك نمطٌ بائسٌ في العمل الذي أُنجِز.

الأشخاص الذين يرغبون في دراسة الدين، عادةً ما تكون لديهم غاية، فإمَّا أنَّهم يريدون الدفاع عن دينهم المفضَّل من منتقديه، أو يريدون إظهار لاعقلانيَّة وعدم جدوى الدين، ممَّا يجعل أساليبهم متحيِّزة.

مثل هذا التشوُّه ليس حتميّاً، فالعلماء في كلّ مجال لديهم نظريَّاتٌ محبَّبةٌ يسعون لتأكيدها، أو يستهدفون الفرضيَّات التي يتوقون إلى دحضها، لكن رغم ذلك يتَّخذون مجموعةً متنوّعةً من الخطوات المجرَّبة والصحيحة، كي لا يلوِّث تحيُّزهم جمع الأدلَّة: التجارب المزدوجة التعمية[1] (double-blind experiments)، ومراجعة الأقران، والاختبارات الإحصائيَّة، والعديد من القيود النموذجيَّة الأخرى للطريقة العلميَّة الجيِّدة، ولكن في دراسة الدين، غالباً ما يُنظر إلى المخاطر على أنَّها أكبر.

---

(1) هي التجارب التي لا يكون لدى المشاركين ولا الباحثين فيها أيَّةُ معرفة بمَن من المشاركين ينتمي لأيِّ مجموعة، سواءٌ كانت تجريبيَّةً أو مجموعة مقارنة.

إذا كنت تعتقد أنَّ عدم تأكيد فرضيَّةٍ حول ظاهرةٍ دينيَّة، لن يكون مجرَّد صدعٍ غير مرغوبٍ فيه في أساس نظريَّةٍ ما، بل هو كارثةٌ أخلاقيَّة، فأنت تميل إلى التساهل بشأن الضوابط، أو هكذ بدا الأمر للمراقبين.

أدَّى هذا الانطباع، سواءً كان صائباً أم خاطئاً، إلى مجموعة ردود فعلٍ إيجابيَّة، فالعلماء لا يريدون التعامل مع زملاء أدنى منهم، لذا فإنَّهم يميلون إلى التنصُّل من المواضيع التي يرون أنَّ ما يُنجَزُ فيها هو عملٌ عادي، وهذا الاختيار الذاتي هو نمطٌ محبطٌ يبدأ عندما يفكِّر الطلَّاب في «اختيار تخصُّصٍ» في الكليَّة؛ عادةً ما يقارن أفضل الطلَّاب بين التخصُّصات، فإذا لم ينبهروا بنتيجتهم في أول مقرَّرٍ تعليمي لهم في مجالٍ ما، فإنَّهم يشطَبون هذا المجال من قائمتهم إلى الأبد.

عندما كنت طالباً جامعيَّاً، كانت الفيزياء ما تزال مجالاً ساحراً، ثمَّ اجتذب السباق إلى القمر أكثر من حصّته من المواهب، تبع ذلك علوم الكمبيوتر لفترةٍ من الزمن، وعلى مدى نصف قرنٍ وأكثر - اجتذبت البيولوجيا، وخاصَّةً البيولوجيا الجزيئيَّة، العديد من أذكى الطلَّاب، واليوم، العلوم المعرفيَّة ومختلف فروع علم الأحياء التطوُّري - فإنَّ المعلوماتيَّة الحيويَّة، وعلم الوراثة، وعلم الأحياء النمائي[1] آخذةٌ في الازدياد، لكن طوال هذه الفترة، كافح علم الاجتماع والأنثروبولوجيا وعلم النفس الاجتماعي ومجالي الخاصّ (الفلسفة)، جاذبين أولئك الذين تتوافق اهتماماتهم مع المجال جيّداً، بما في ذلك بعض الأشخاص اللامعين، ولكنَّها أُجبِرَت على مقاومة سمعةٍ لا تحسدُ عليها إلى حدٍّ ما، كما قال صديقي القديم وزميلي السابق، نيلسون بايك، وهو فيلسوفٌ دينيٌّ محترم، ذات مرَّةٍ بأسف:

(1) علم الأحياء النمائي: هو العلم الذي يبحث في كيفيَّة قيام مجموعةٍ متنوّعةٍ من العمليَّات المتفاعلة بتوليد أشكال الكائن الحي غير المتجانسة وحجمه وسماته الهيكليَّة التي تنشأ على المسار من الجنين إلى الكبار، أو بشكلٍ عام طوال دورة الحياة. إنَّه يمثّل مجالاً نموذجيَّاً لعلم الأحياء التجريبي المعاصر، يركّز على الظواهر التي حيَّرت الفلاسفة والعلماء الطبيعيين لأكثر من ألفي عام. أظهر فلاسفة علم الأحياء اهتماماً بعلم الأحياء النمائي نظراً للأهميَّة المحتملة للتطوُّر لفهم التطوُّر، وموضوع الاختزال في التفسيرات الجينيَّة، ومن خلال الاهتمام المتزايد بتفاصيل برامج بحثيَّةٍ معيَّنة، مثل بيولوجيا الخلايا الجذعيَّة. يعرض علم الأحياء النمائي مجموعةً غنيَّةً من الممارسات الماديَّة والمفاهيميَّة التي يمكن تحليلها لفهم المنطق العلمي المعروض في علم الحياة التجريبي بشكلٍ أفضل.

"إذا كنت بصحبة أشخاصٍ من مهنٍ مختلطة، وسألك شخصٌ ما عمَّا تفعله، وتقول إنَّك أستاذٌ جامعي، سيرمقك بنظرةٍ باردة، وإذا كنت في صحبة أساتذةٍ من مختلف الأقسام، وسألكَ شخصٌ ما ما هو مجال عملك، وتقول الفلسفة، سيرمقك بنظرةٍ باردة، وإذا كنت في مؤتمر الفلاسفة، وسألك أحدهم عمَّا تعمل، وقلت فلسفة الدين". [مقتبس في بامبرو، 1980]

هذه ليست مشكلةً لفلاسفة الدين فقط، إنَّها كذلك مشكلةٌ لعلماء اجتماع الدين، وعلماء النفس الدينيين، وعلماء الاجتماع الآخرين - الاقتصاديين وعلماء السياسة - والقليلِ من علماء الأعصاب الشجعان، وعلماء الأحياء الآخرين الذين قرَّروا النظر في الظواهر الدينيَّة بأدواتهم المهنيَّة.

أحد العوامل التي تؤدّي إلى هذه النظرة هو أنَّ النَّاس يعتقدون أنَّهم يعرفون بالفعل كلَّ ما يحتاجون لمعرفته عن الدين، وأنَّ المعرفة التي تلقوُّها سطحيَّةٌ للغاية، وليست استفزازيَّةً بما يكفي لكي تثير الدحض أو التأكيد.

في الواقع، إذا شرعتَ في تصميم حاجزٍ محكمٍ بين العلماء وظاهرةٍ غير مكتشفة، فإنَّ أفضل ما يمكنك القيام به هو اختلاق الهالة الكئيبة للمكانة الوضيعة والغيبيَّة والنتائج المشكوك فيها التي تحيط حالياً بموضوع الدين، وبما أنَّنا نعلم منذ البداية أنَّ العديد من الأشخاص يعتقدون أنَّ مثل هذا البحث ينتهك أحد المحرَّمات، أو على الأقل يتدخَّل بوقاحةٍ في أمورٍ يُفضَّلُ احترام خصوصيَّتها، فليس من المستغرب أنَّ القليل من الباحثين الجيّدين، في أيّ تخصُّص، يرغبون في التطرُّق إلى موضوع الدين، أنا نفسي بالتأكيد شعرت بذلك حتَّى وقتٍ قريب.

يمكن التغلُّب على هذه العقبات، ففي القرن العشرين، تعلّمنا الكثير حول كيفيَّة دراسة الظواهر البشريَّة والظواهر الاجتماعيَّة، لقد أدَّت موجات متتالية من البحث والنقد إلى زيادة تقديرنا للمخاطر الخاصَّة، مثل التحيُّز في جمع البيانات، وتأثيرات تدخُّل الباحث، وتفسير البيانات.

لقد أصبحت التقنيَّات الإحصائيَّة والتحليليَّة أكثر تعقيداً، وقد بدأنا في تنحية النماذج القديمة المبسَّطة للإدراك والعاطفة والتحفيز والتحكُّم بالتصرُّفات البشريَّة، واستبدالها بنماذج أكثر واقعيَّةً من الناحية الفسيولوجيَّة والنفسيَّة، ولم يتمَّ بعد سدُّ الهوَّة الكبيرة التي كانت تفصل بين العلوم الإنسانيَّة[1] والعلوم الطبيعيَّة[2] بشكلٍ آمن، بل تمَّ مدُّ العديد من الخطوط عبر الفجوة.

يستمرُّ الشكُّ المتبادل والغيرة المهنيَّة، بالإضافة إلى الجدل النظري الحقيقي في زعزعة جميع الجهود لنقل الأفكار ذهاباً وإياباً على هذه الخطوط المتَّصلة، ولكنَّ حركة المرور تزداد كلَّ يوم، لذا فإنَّ السؤال ليس: ما إذا كان علم الدين الجيّد كظاهرةٍ طبيعيَّة ممكناً أم لا، ولكنَّ السؤال هو: ما إذا كان ينبغي لنا أن نفعل ذلك؟.

2- هل يجب أن يدرس العلم الدين؟

فكِّر قبل أن تثب:- إيسوب، «الثعلب والماعز»[3]

البحث مكلف، وله آثارٌ جانبيَّةٌ ضارَّةٌ أحياناً، ومن الدروس المستفادة في القرن العشرين أنَّ العلماء ليسوا منزَّهين عن اختلاق تبريراتٍ للعمل الذي يريدون القيام به، مدفوعين بفضولٍ نهم.

هل توجد في الواقع أسباب وجيهةٌ - إلى جانب الفضول المطلق- لمحاولة تطوير العلم الطبيعي للدين، هل نحتاج ذلك لأيّ سبب، هل سيساعدنا ذلك في اختيار السياسات والاستجابة للمشكلات وتحسين عالمنا، ماذا نعرف عن مستقبل الدين؟

---

(1) Geisteswissenschaften

(2) Naturwissenschaften

(3) حكايات إيسوب: تعود إلى القاصّ إيسوب، وهو عبدٌ يونانيٌّ عاش في اليونان القديمة بين عامي 620 و560 قبل الميلاد، اشتُهِرَت حكاياته حول العالم، وتعدُّ أساطيره رافداً للتربية الأخلاقيَّة للأطفال.

ضع في حسبانك خمس فرضيَّاتٍ مختلفةً تماماً:

1. **انتهى التنوير منذ زمنٍ طويل:** «العلمنة» الزَّاحفة للمجتمعات الحديثة التي كانت متوقَّعةً منذ قرنين من الزمان تتبخَّر أمام أعيننا، يعود المدُّ ليصبح الدين أكثر أهميَّةً من أيِّ وقتٍ مضى، ففي هذا السيناريو سرعان ما يستردُّ الدين بعضاً من الدور الاجتماعي والأخلاقي المهيمن الذي لعبه قبل صعود العلم الحديث في القرن السابع عشر، وبينما يتعافى النَّاس من افتتانهم بالتكنولوجيا ووسائل الراحة الماديَّة، تصبح الهويَّة الروحيَّة السمة الأكثر قيمةً للشخص، وينقسم النَّاس بشكلٍ حادّ أكثر من أيِّ وقتٍ مضى بين المسيحيَّة والإسلام واليهوديَّة والهندوسيَّة، وعددٍ قليلٍ من المنظَّمات الدينيَّة الرئيسة متعدّدة الجنسيَّات، في النهاية - قد يستغرق الأمر ألف عامٍ أخرى، أو قد تسْرع به كارثة- عقيدةٌ رئيسةٌ واحدة تجتاح الكوكب.

2. **يعاني الدين سكرات الموت:** إنَّ فورة الحماسة والتعصُّب الديني اليوم ما هي إلَّا مرحلةٌ انتقاليَّةٌ قصيرةٌ وحرجة، إلى مجتمعٍ حديثٍ يلعب فيه الدين دوراً احتفاليّاً على الأكثر، وفي هذا السيناريو، على الرَّغم من أنَّه قد تكون هناك بعض الصحوات المحليَّة والمؤقَّتة، وحتَّى بعض الكوارث العنيفة، فإنَّ الأديان الرئيسة في العالم سرعان ما تنقرض تماماً مثل مئات الأديان الصغيرة التي تختفي بشكلٍ أسرع ممَّا يمكن لعلماء الأنثروبولوجيا توثيقها، لذا خلال حياة أحفادنا، قد تصبح مدينة الفاتيكان المتحف الأوروبيَّ للكاثوليكيَّة الرومانيَّة، وتتحوَّل مكَّة إلى مملكة ديزني السحريَّة (لله).

3. **تحوّل الأديان نفسها إلى مؤسَّساتٍ لم نشهد لها مثيلاً من قبل على هذا الكوكب:** جمعيَّاتٌ غير إيمانيَّة تبيع المساعدة الذاتيَّة، وتقوم بتمكين العمل الجماعي الأخلاقي، باستخدام الاحتفاليَّات والتقاليد لتوطيد العلاقات، وبناء «ولاء معجبين طويل الأمد»، وفي هذا السيناريو، أن تكون عضواً يشبه كونك مشجِّعَ فريقِ كرة سلَّة «بوسطن ريد سوكس»، أو معجباً بمسلسل تلفزيوني «دالاس كوبويز».

ألوان وأغانٍ وهتافات ورموز مختلفة ومنافسة قويَّة - هل تريد أن تتزوَّج ابنتك بأحد

مشجّعي فريق «اليانكيز»؟ - ولكن بصرف النظر عن قلّةٍ مسعورة، يقدّر الجميع أهميَّة التعايش السلمي في رابطة الأديان العالميَّة.

يزدهر الفنُّ والموسيقى الدينيَّة، ويؤدّي التنافس الودّيُّ إلى درجةٍ من التخصُّص، حيث يفتخر أحد الأديان باهتمامه البيئي، وتوفير المياه النظيفة للمياراتٍ من سكّان العالم، بينما يشتهر الآخر بالدفاع المُنَسَّق عن العدالة الاجتماعيَّة والمساواة الاقتصاديَّة.

4. **تتضاءل هيبة الدين وظهوره كالتدخين:** يتمُّ التسامح معه، لأنَّ هناك من يقول إنَّه لا يستطيع العيش من دونه، لكنَّه شيءٌ غير محبَّذ، ويعدُّ تعليم الدين لأطفالٍ صغار عرضةٍ للتأثّر، أمراً مستهجناً في معظم المجتمعات ومحظوراً في أخرى، وفي هذا السيناريو، يمكن انتخاب السياسيين الذين ما يزالون يمارسون الدين إذا أثبتوا أنَّهم يستحقُّون ذلك في نواحٍ أخرى، لكنَّ القليل منهم قد يعلن عن انتمائه الديني أو ابتلائه، ويُصِرُّ على تسميته بشكلٍ غير صحيحٍ سياسيّاً.

من الوقاحة لفت الانتباه إلى دينِ شخصٍ تماماً، مثل التعليق علناً على جنسانيَّته، أو القول عن إمرأة أنَّها مطلَّقة.

5. **أتى يوم القيامة:** يصعد المباركون بأجسادهم إلى السماء، ويُترَكُ الباقون وراءهم ليعانوا آلام الملعونين، ويُهزَم المسيح الدجّال، وكما توقَّعت نبوءات الكتاب المقدَّس: فإنَّ ولادة دولة إسرائيل من جديد في عام 1948، والصراع المستمرَّ على فلسطين هي علاماتٌ واضحةٌ على نهاية الأزمنة، عندما يجعل المجيء الثاني للمسيح جميع الفرضيَّات الأخرى طيَّ النسيان.

يمكن وصف احتمالاتٍ أخرى بالطبع، لكنَّ هذه الفرضيَّات الخمس تسلّط الضوء على الحالات المتطرّفة التي تُؤخذ على محمل الجدّ، وممَّا يلفت الانتباه في هذه المجموعة هو أنَّ أيَّ شخصٍ سيجد إحداها على الأقلّ غير معقولةٍ، أو مزعجةً، أو حتَّى مسيئةً للغاية، لكنَّ كلَّ فرضيَّةٍ منها ليست مجرَّد فرضيَّةٍ متوقَّعة، ولكن هناك من يُسعى لتحقيقها.

يتصرَّف النَّاس بناءً على ما يتوقون إليه، نحن في تناقضٍ مع الدين، على أقلِّ تقدير،

لذلك نتمكَّن من توقُّع المشكلات، بدءاً من الجهود الضائعة والحملات التي تؤدّي إلى نتائجَ عكسيَّة- إن كنَّا محظوظين- إلى الحرب الشاملة وكارثة الإبادة الجماعيَّة، إن لم نكن كذلك.

واحدةٌ فقط من هذه الفرضيَّات (على الأكثر) ستحقَّق، أمَّا بقيَّة الفرضيَّات فهي مخطئةٌ بشدَّة، يعتقد الكثير من النَّاس أنَّهم يعرفون ما هو الصحيح، لكن لا أحد يعرف، أليست هذه الحقيقة وحدها سبباً كافياً لدراسة الدين علميّاً؟

سواءٌ أكنت تريد للدين أن يزدهر أو يهلك، وسواءٌ أكنت تعتقد أنَّه يجب أن يغيّر نفسه أو يظلَّ كما هو، بالكاد يمكنك إنكار أنَّ كلَّ ما يحدث سيكون ذا أهميَّةٍ كبيرة لكوكب الأرض؛ سيكون من المفيد لآمالك معرفة المزيد حول ما يمكن أن يحدث ولماذا، وفي هذا الصدد، تجدر الإشارة إلى الكيفيَّة التي يُفتش بها المؤمنون بالرقم 5 إيماناً راسخاً أخبار العالم، بحثاً عن أدلَّةٍ على نبوءاتٍ قد تحقَّقت، يقومون بفرز وتقييم مصادرهم، ومناقشة إيجابيَّات وسلبيَّات التفسيرات المختلفة لتلك النبوءات، إنَّهم يعتقدون أنَّ هناك سبباً للتحقيق في مستقبل الدين، ولا يعتقدون أنَّ مسار الأحداث المستقبليَّة تقع ضمن نطاق قدرة الإنسان على تحديدها، ولدى بقيّتنا سببٌ إضافيٌّ للتحقيق في الظواهر، لأنَّه من الواضح تماماً أنَّ الرضا عن النفس والجهل يمكن أن يقودانا إلى تبديد فرصنا لتوجيه الظواهر فيما نحسبه اتجاهاتٍ حميدة.

استشراف المستقبل(توقّع المستقبل) هو تتويجٌ لإنجاز جنسنا البشري، لقد تمكّنا خلال بضعة آلافٍ من السنين من الحضارة البشريَّة من زيادة قدرتنا على الاستشراف عدَّة مرَّات، نحن نعلم متى سيحدث الخسوف قبل عدَّة قرون؛ يمكننا التنبّؤ بآثار التعديلات في كيفيَّة توليد الكهرباء على الغلاف الجوي، ويمكننا أن نتوقَّع بوجهٍ عام ما سيحدث مع تضاؤل احتياطيَّاتنا البتروليَّة في العقود القادمة.

نحن لا نفعل ذلك بنبوءةٍ إعجازيَّة، ولكن بمعرفةٍ أساسيَّة؛ نجمع المعلومات من البيئة، مستخدمين حواسنا، ثمَّ نستخدم العلم لتجميع التوقُّعات بناءً على تلك المعلومات، نقوم بجمع المعلومات الأوليَّة، ثمَّ نقوم بتنقيتها بصورةٍ متكررة، ويتيح لنا ذلك رؤية المستقبل – بشكلٍ باهت، ومع الكثير من الشك- ولكنَّ ذلك أفضل بكثيرٍ من الاعتماد على رمي عملة

معدنيَّةٍ في الهواء.

في كلّ مجالٍ من مجالات الاهتمام البشري، تعلّمنا كيف نتوقَّع تجنُّب الكوارث التي كانت تعمينا[1]، لقد تداركنا مؤخّراً حدوث كارثةٍ عالميَّةٍ ناجمةٍ عن الثقب المتنامي في طبقة الأوزون، لأنَّ بعض الكيميائيين الحكماء تمكّنوا من إثبات أنَّ بعض مُركّباتِنا المُصنَّعة كانت سبباً للمشكلة، لقد تجنَّبنا الانهيارات الاقتصاديَّة في السنوات الأخيرة، لأنَّ نماذجنا الاقتصاديَّة أظهرت لنا مشكلاتٍ وشيكة.

من الواضح أنَّ الكارثة التي تمَّ تجنّبها مخيّبةٌ للآمال، لذلك نحن لا نميل إلى تقدير مدى قيمة قوّتنا في استشراف المستقبل، «نحن نتذمّر»: لن يحدث ذلك بعد كلّ هذا.

كان من المتوقّع أن يكون موسم الأنفلونزا في شتاء 2003-2004 شديداً، حيث وصل في وقت أبكرَ من المعتاد، لكنَّ توصيات التلقيح في وسائل الإعلام حظيت باهتمامٍ واسعٍ لدرجة أنَّ الوباء انهار بالسرعةِ التي بدأ بها.

شيءٌ مملّ، لقد أضحى تقليداً في السنوات الأخيرة أن يبالغ علماء الأرصاد الجويَّة على شاشات التلفزيون بالحديث عن إعصارٍ قادم أو غيره من العواصف، ومن ثمّ تخيّب العاصفة الحقيقيَّة توقُّعات الجمهور، لكنَّ التقييمات الرصينة تظهر أنَّه يتمُّ إنقاذ العديد من الأرواح، وتقليل الدمار إلى الحدِّ الأدنى.

نحن نقبل قيمة الدراسة المكثَّفة لظاهرة النينيو، والدورات الأخرى في التيّارات المحيطيَّة حتَّى نتمكّن من إجراء تنبّؤاتٍ أفضل للأرصاد الجويَّة، نحتفظ بسجلّاتٍ شاملةٍ للعديد من الأحداث الاقتصاديَّة، حتّى نتمكّن من القيام بتوقُّعات اقتصاديَّةٍ أفضل، ولذات الأسباب فأنَّه يجب أن يشمل التدقيق المكثَّف الظواهر الدينيَّة.

قليلةٌ هي القوى في العالم التي لها القدر نفسهُ من القوَّة والتأثير مثل الدين، بينما نكافح من أجل إزالة التفاوتات الاقتصاديَّة والاجتماعيَّة الرهيبة التي تشوه كوكبنا حاليّاً، ونسعى لتقليل العنف والانحطاط الذي نراه، علينا أن ندرك أنَّه إذا كانت لدينا نقطةٌ عمياء بشأن

الدين، فستفشل جهودنا بالتأكيد، وقد تجعل الأمور أسوأ بكثير.

لن نسمح لمصالح الشركات المنتجة للغذاء في العالم، أن تثنينا عن دراسة الزراعة والتغذية البشريَّة، وقد تعلَّمنا ألَّا نستثني عالم البنوك والتأمين من التدقيق المكثَّف والمستمرّ، فإنَّ تأثير الدين أهمُّ من أن يُقبَلَ دون إثبات، لذا فإنَّ ما أدعو إليه هو: بذل جهودٍ متضافرةٍ لتحقيق اتفاق متبادلٍ يصبح بموجبه الدين- بمجمله- موضوعاً مناسباً للدراسة العلميَّة.

أجد هنا أنَّ الرأي منقسمٌ بين أولئك المقتنعين فعليّاً بأنَّها ستكون فكرة جيّدة، وأولئك المتوجّسين منها والميَّالين إلى الشكِّ في أنَّها ستكون ذات قيمةٍ كبيرة، وأولئك الذين يجدون الاقتراح شريراً، مسيئاً وخطيراً وغبيّاً.

لا أريد أن أعظ المتَّفقين معي في الرأي، أنا مهتمٌّ خصوصاً بمخاطبة أولئك الذين يكرهون هذه الفكرة، على أمل إقناعهم بأنَّ نفورهم في غير محلّه، هذه مهمَّةٌ شاقَّة، مثل محاولة إقناع صديقتك التي تظهر عليها أعراض السرطان أنّه يجب عليها أن تزور طبيباً الآن، نظراً لأنَّ قلقها قد يكون في غير محلّه، وكلَّما عرفت ذلك في وقتٍ أبكر كان بإمكانها المضيُّ قدماً في حياتها، وإذا عرفت أنَّها مصابةٌ بالسرطان، فإنَّ التدخُّل في الوقت المناسب قد يحدث فرقاً كبيراً.

قد ينزعج الأصدقاء عندما تشير إلى حالة إنكارهم للواقع في مثل هذه الحالات، لكنَّ المثابرة مطلوبة، نعم أريد أن أضع الدين على طاولة الفحص، فإذا كان حميداً في الأساس، كما يصرُّ العديد من أتباعه، فيجب أن يظهر بشكلٍ جيّد؛ ستهدأ الشكوك ويمكننا بعد ذلك التركيز على العلل الثانويَّة القليلة التي يعاني منها الدين، مثل أيِّ ظاهرةٍ طبيعيَّةٍ أخرى، فكلَّما أسرعنا في تحديد المشكلات بوضوح كان ذلك أفضل.

هل سيولِّد التحقيق نفسه بعض الانزعاج والإحراج؟ يكاد الأمر يكون مؤكّداً، لكنَّ هذا ثمنٌ ضئيلٌ يجب دفعه، هل هناك خطرٌ من أن يؤدّي مثل هذا الفحص الجائر إلى إصابة الدين السليم بالمرض، أو حتَّى تعطيله؟ بالطبع، هناك دوماً مخاطر، هل يستحقُّ ذلك تحمُّل هذه

المخاطر؟ ربَّما لا، لكنّي لم أرَ حتّى الآن حجَّةً تقنعني بذلك، وسننظر قريباً في أفضلها.

يجب أن تثبت الحجج الوحيدة التي تستحقُّ الاهتمام أنَّ (1) الدين يوفّر فوائدَ صافيةً للبشريَّة، و(2) من غير المرجَّح أن تستمرَّ هذه الفوائد في ظلّ مثل هذا التحقيق، فأنا على سبيل المثال، أخشى أنّه إذا لم نُخضِع الدين لمثل هذا التدقيق الآن، وإذا لم نعمل معاً مهما كانت المراجعات والإصلاحات المطلوبة، فسوف نورث أحفادنا أشكالاً من الدين أكثر سُمِّيَّة من أيّ وقتٍ مضى.

لا أستطيع إثبات ذلك، وأولئك الواثقون تماماً من أنَّ هذا لن يحدث، يتمُّ تشجيعهم على قول ما يدعم قناعاتهم، بصرف النظر عن الولاء لتقاليدهم، وهو أمرٌ بداهيٌّ ولا يُعتدُّ به هنا.

عموماً، تؤدّي معرفة المزيد إلى تحسين فرصك في الحصول على ما تقدّره، هذه ليست حقيقةً منطقيَّةً تماماً، لأنَّ عدم اليقين ليس هو العامل الوحيد الذي يمكن أن يقلّل من احتماليَّة تحقيق أهداف المرء، إذ يجب أخذ تكاليف المعرفة في الحسبان، وقد تكون هذه التكاليف مرتفعة، ولهذا السبب فإنَّ «الارتجال» هو نصيحةٌ جيّدةٌ في بعض الأحيان.

افترض أنَّ هناك حدّاً لمقدارِ ما تكون معرفتنا حول موضوعٍ ما مفيدة، إذا كان الأمر كذلك، فعندما يتمُّ الوصول إلى هذا الحدّ (سواءٌ أمكنَ أم لا)، يجب أن نحظر، أو على الأقلّ نثبّط بشدَّةٍ، أيَّ بحثٍ إضافي عن المعرفة حول هذا الموضوع بعدّه نشاطاً ضدَّ المجتمع.

ربَّما يكون مبدأٌ لا يُطبَّقُ أبداً، لكنَّنا لا ندرك ذلك، ويجب علينا بالتأكيد قبول هذا المبدأ، قد تكون بعض خلافاتنا الرئيسة في العالم اليوم حول ما إذا كنَّا قد وصلنا إلى هذا الحدّ، ويضع هذا التفكير القناعة الإسلاميَّة بأنَّ العلم الغربي أمرٌ سيّئٌ من منظورٍ مختلف: قد لا يكون خطأً ناشئاً عن جهل، بقدر ما يكون وجهة نظرٍ مختلفةً تماماً عن مكان هذا الحدّ المعرفي.

في بعض الأحيان يكون الجهل نعمة، نحن بحاجة إلى النظر في هذه الاحتمالات بعناية.

3- هل الموسيقى ضارَّةٌ بالنسبة لك؟

«الموسيقى، أعظم خيرٍ يعرفه البشر، وكلُّ السماء لدينا أدناه» - جوزيف أديسون.

«ليس من المستغرب أن تتمكَّن أوتارٌ مصنوعةٌ من أمعاء خروف من أن تخطف أرواح البشر، وتسرح بهم بعيداً عن أجسادهم؟» - وليم شكسبير.

لا يعني ذلك أنَّني لا أتعاطف مع نفور أولئك الذين يقاومون اقتراحي، ففي محاولةٍ لتخيُّلِ استجابتهم العاطفيَّة لاقتراحي، توصَّلت إلى تجربةٍ فكريَّةٍ مقلقة يبدو لي أنَّها تقوم بالمطلوب (إنَّني أتحدَّث الآن إلى أولئك الذين يشبهونني، الذين لم تروِّعهم فكرة هذا الاختبار).

تخيَّل كيف ستشعر إذا قرأت في قسم العلوم في نيويورك تايمز أنَّ بحثاً جديداً أُجرِيَ في جامعة كامبريدج ومعهد كاليفورنيا للتكنولوجيا خَلُصَ إلى أنَّ الموسيقى، التي يُنظرُ إليها منذ فترةٍ طويلة على أنَّها إحدى كنوز الثقافة الإنسانيَّة غير الملوَّثة، هي في الواقع ضارَّةٌ بصحَّتك، وهي عامل خطر رئيس لمرض الزهايمر وأمراض القلب، كما أنَّها عاملٌ مشوِّهٌ للمزاج يضعف القدرة على الحكم بطرقٍ خفيَّةٍ وضارَّةٍ بشكلٍ واضح، تساهم في النزعات العدوانيَّة ورهاب الأجانب وضعف الإرادة.

إنَّ التعرُّض المبكر والاعتيادي للموسيقى، سواءً من خلال الأداء أو الاستماع، يجعلك أكثر عرضةً بنسبة 40 في المائة للإصابة باكتئابٍ خطير، ويخفض معدَّل ذكائك بمعدَّل عشر نقاط، ويضاعف تقريباً احتماليَّة ارتكابك لفعلٍ عنيفٍ في وقتٍ ما من حياتك.

توصي لجنة من الباحثين بأن يقلِّل النَّاس جرعتهم الموسيقيَّة بما لا يزيد عن ساعةٍ في اليوم (بما في ذلك موسيقى المصاعد، والموسيقى التصويريَّة في التلفاز، إلى الحفلات السيمفونيَّة) وأن يتمَّ على الفور تقليص دروس الموسيقى على نطاقٍ واسعٍ للأطفال.

بصرف النظر عن عدم إيماني المطلق الذي سأقابل به تقريراً عن مثل هذه «النتائج»، يمكنني أن أكتشف في ردود أفعالي المتخيّلة اندفاعاً دفاعيَّاً عميقاً، على غرار: «ما أسوأ

كامبريدج ومعهد كاليفورنيا للتكنولوجيا! ماذا يعرفان عن الموسيقى؟ «و"لا يهمني ما إذا كان هذا صحيحاً، على الشخص الذي يحاول أن يسلبني الموسيقى أن يستعدَّ للمواجهة، لأنَّ الحياة من دون موسيقى لا تستحقُّ العيش. لا يهمّني إذا كانت الموسيقى» تؤذيني»، وأنا لا أهتمُّ حتّى إذا كانت «تؤذي» الآخرين، لابدَّ أن يكون لدينا موسيقى، وهذا كلُّ ما في الأمر".

هكذا سيكون ردّي: أفضّل عدم العيش في عالمٍ من دون موسيقى، «لكن لماذا؟» قد يسأل شخصٌ ما: «إنّها مجرَّد نشازٍ سخيف وإحداث ضوضاء، وهي لا تطعم الجياع أو تعالج السرطان أو...»، أجيبه: «ولكنّها تجلب الراحة والفرح لمئات الملايين من النَّاس.

بالتأكيد هناك مبالغة وجدل، ولكن مع ذلك، هل يمكن لأيّ شخصٍ أن يشكَّ في أنَّ الموسيقى شيءٌ جيّدٌ إلى حدٍّ كبير؟ «يأتي الرد: «حسناً، نعم»، هناك طوائف دينيَّة - «طالبان»، على سبيل المثال، كذلك طائفة البيوريتان المسيحيَّة[1] في الماضي، ولا شكَّ أنَّه توجد طوائف أخرى- اعتبرت أنَّ الموسيقى تسليةٌ شرّيرة، ونوعاً من المخدِّرات يجب حظره، الفكرة ليست مجنونةً تماماً، لذلك يجب أن نتقبَّل العبء الفكريَّ لإظهار أنَّها خطأ.

أدرك أنَّ الكثير من النَّاس يشعرون تجاه الدين بالطريقة التي أشعر بها تجاه الموسيقى، قد يكونون على حقّ، دعونا نكتشف؛ أي دعونا نُخضع الدين للنوع نفسه من البحث العلمي الذي أجريناه مع التبغ والكحول، وكذلك الموسيقى، دعونا نتعرَّف على سبب حبّ النَّاس لدينهم، ولماذا هو مفيد، ولا ينبغي لنا أن نحمّل البحث الحاليَّ عبء تسوية المشكلة أكثر ممَّا حمَّلنا حملات شركات التبغ حول سلامة تدخين السجائر في ظاهرها.

بالتأكيد، الدين ينقذ الأرواح، وكذلك الأمر بالنسبة للتبغ؛ اسألوا GIs (الجنود الأمريكيين) الذين كان التبغ بالنسبة لهم راحةً أعظم من الدين خلال الحرب العالمية الثانيَّة، والحرب الكوريَّة، وحرب فيتنام.

(1) البيوريتان: مجموعة من البروتستانت الإنجليز في أواخر القرنين السادس عشر والسابع عشر، الذين عدُّوا إصلاح كنيسة إنجلترا في عهد إليزابيث غير مكتمل، وسعوا إلى تبسيط وتنظيم أشكال العبادة.

أنا على استعدادٍ للنظر مليّاً في إيجابيّات وسلبيّات الموسيقى، إذا تبيّن أنَّ الموسيقى تسبّب السرطان، الكراهية العرقيّة، والحرب، سأفكّر بجديَّةٍ في كيفيَّة العيش من دونها.

فقط لأنّني واثقٌ تماماً من أنَّ الموسيقى لا تسبّب ضرراً كبيراً، ويمكنني الاستمتاع بها بضميرٍ مرتاح، وإذا قال لي أشخاصٌ موثوقون بأنَّ الموسيقى قد تكون ضارَّةً للعالم، سأشعر بأنّني ملزمٌ أخلاقيّاً بفحص الأدلَّة بتجرُّدٍ قدر استطاعتي، في الواقع، سأشعر بالذنب حيال ولائي للموسيقى إذا لم أتحقَّق من ذلك.

لكن أليست الفرضيَّة القائلة بأنَّ تكاليف الدين تفوق الفوائد، أكثر سخافةً من الادّعاء الأحمق عن الموسيقى؟ لا أعتقد ذلك، قد يصحُّ في الموسيقى ما قاله ماركس: أنَّ الدين هو أفيون الشعوب، الذي يبقي العمّال في حالة إذعانٍ كأنَّهم تحت تأثير مخدّر، لكنَّه قد يكون أيضاً أغنيةً حاشدةً للثورة، والذودِ عنها بإخلاص، ومن هذه الزاوية، تملك الموسيقى والدين ملامح متشابهةً تماماً، ومن ناحيةٍ أخرى، تبدو الموسيقى أقلَّ إشكاليَّة من الدين.

على مدى آلاف السنين، أثارت الموسيقى القليل من أعمال الشغب، وربَّما قام الموسيقيُّون ذوو الكاريزما بالاعتداء الجنسي على عددٍ مذهل من المعجبين الشباب شديدي التأثّر، وأغووا الكثيرين الآخرين بترك أسرهم (وذكائهم) خلفهم، ولكن لم تُشنَّ حملاتٌ صليبيَّةٌ أو جهادٌ بسبب اختلافاتٍ في الأنماط الموسيقيَّة، ولم تُرتكب مذابحٌ ضدَّ محبّي الفالس أو الراغا أو التانغو، لم تخضع شعوبٌ بأكملها إلى العزف الإجباري، أو إبقائها في حالة فقرٍ من أجل تجهيز قاعات الحفلات الموسيقيَّة بأفضل أجهزة الصوت والآلات، كما لم تصدر فتاوى بحقِّ أيّ موسيقي من قبل المنظَّمات الموسيقيَّة، ولا حتَّى عازفي الأكورديون.

تعدُّ المقارنة بين الدين والموسيقى مفيدةً هنا خصوصاً، لأنَّ الموسيقى هي ظاهرة طبيعيَّةٌ أخرى تمَّت دراستها باقتدار من قبل العلماء لمئات السنين، ولكنَّها أصبحت للتوِّ موضوعاً للدراسة العلميَّة التي أُوصيَ بها، لم تكن هناك ندرةٌ في البحث المهني حول نظريَّة الموسيقى- التناغم، التناقض، الإيقاع- أو تقنيَّات الموسيقي، أو تاريخ كلِّ نوعٍ وآلة موسيقيَّة.

درس علماء الموسيقى الإثنيَّة[1] تطوُّر الأساليب والتقاليد الموسيقيَّة، وعلاقتها بالعوامل الاجتماعيَّة والاقتصاديَّة والثقافيَّة الأخرى، وبدأ علماء الأعصاب[2] وعلماء النفس مؤخّراً في دراسة إدراك الموسيقى وإبداعها، باستخدام أحدث التقنيَّات للكشف عن أنماط نشاط الدماغ المرتبطة بالخبرة والذاكرة الموسيقيَّة والموضوعات ذات الصلة، لكنَّ معظم هذا البحث ما يزال يعدُّ الموسيقى كأمرٍ مسلَّمٍ به.

نادراً ما يُطرحُ سؤال: لماذا الموسيقى موجودة؟ هناك إجابةٌ مختصرة، وهي صحيحةٌ إلى حدٍّ كبير: إنَّها موجودةٌ لأنَّنا نحبّها، ومن ثمَّ نستمرُّ في إبداع المزيد منها، لكن لماذا نحبّها؟ لأنَّنا نجد أنَّها جميلة، لكن لماذا هي جميلةٌ بالنسبة لنا؟ هذا سؤالٌ بيولوجيٌّ جيّدٌ تماماً، لكن ليس له إجابةٌ جيّدةٌ حتَّى الآن، قارنها على سبيل المثال بالسؤال: لماذا نحب الحلويَّات؟ أنَّنا نعرف بشيءٍ من التفصيل الإجابة بحسب علم التطوُّر، ولدينا بعض التقلُّبات الغريبة.

ليس من قبيل الصدفة أن نجد أنَّ الأشياء الحلوة تروق لنا، وإذا أردنا تعديل سياساتنا فيما يتعلَّق بها في المستقبل، سيكون علينا أن نفهم الأساس التطوُّريَّ لجاذبيّتها بشكلٍ أفضل، يجب ألَّا نرتكب خطأ الرجل في النكتةِ القديمة: الذي اشتكى من أنَّه – فقط– عندما نجح أخيراً في تدريب حماره على عدم الأكل، نفق الحيوان الغبيُّ وسقط عليه.

بعـض الأشـياء ضروريـةٌ للحيـاة، وبعـض الأشـياء عـلى الأقـلّ تُعـزّز الحيـاة، أو تُمكّـن الحيـاة لدرجـة أنَّنـا نعبـث بهـا عـلى مسـؤوليّتنا، ونحـن بحاجـةٍ إلى معرفـة هـذه الأدوار والاحتياجـات.

منذ عصر التنوير في القرن الثامن عشر، اعتقد الكثير من الأشخاص ذوو المعرفة الجيّدة والذكاء– بثقةٍ– أنَّ الدين سيختفي قريباً، وأنَّه يمكن إشباع الذوق البشري بوسائل أخرى، وما يزال الكثيرون ينتظرون بثقةٍ أقلَّ إلى حدٍّ ما، لذا أيّاً كان ما يقدّمه الدين لنا، فهو شيءٌ

(1) Ethnomusicologists

(2) neuroscientist

يعتقد الكثيرون أنّهم لا يستطيعون العيش من دونه، لنأخذهم على محمل الجدّ هذه المرَّة، فقد يكونون على حقّ، لكنَّ هناك طريقةً واحدةً فقط لأخذهم على محمل الجدّ: نحن بحاجةٍ إلى دراستهم علميّاً.

4- هل سيكون الإهمال أكثر اعتدالاً؟

«الجهال هو المعرفة التي تقدمها الطبيعة، يُفسد عقلنا المتدخّل الأشكال الجميلة للأشياء: نحن نقتل من أجل أن نفهم» - ويليام وردزورث، «The Tables Turned»

«لماذا إذاً يجب أن يظلَّ العلم والعلماء محكومين بالخوف- الخوفُ من الرأي العام، والخوف من العواقب الاجتماعيَّة، والخوف من التعصُّب الديني، والخوف من الضغط السياسي، وقبل كلّ شيء، الخوف من التعصُّب الأعمى والتحّيز- بالقدر نفسه داخل وخارج عالم مهني؟» - وليام ماسترز وفرجينيا جونسون، Human Sexual Response

«وستعرفون الحقّ والحقُّ يحرّركم» - يسوع الناصري، في يوحنا 8:32

حان الوقت لمواجهة القلق من أنَّ مثل هذا التحقيق قد يقتل بالفعل جميع العيّنات، ويدمّرُ شيئاً ثميناً باسم اكتشاف طبيعته الداخليَّة، ألن يكون من الحكمة أن نترك الأمور على حالها؟

كما أشرت للتو، فإنَّ قضيَّة كبح فضولنا تتكوَّن من جزأين يجب عرض كليهما: (1) أنَّ الدين يوفّر فوائد صافيةً للبشريَّة، (2) أنّه من غير المرجَّح أن تنجو هذه الفوائد في ظلّ هذا التحقيق.

المشكلة التكتيكيَّة التي تواجهنا هي أنّه لا توجد طريقةٌ لعرض النقطة الأولى دون الانخراط الفعلي في التحقيق، يبدو الدين لكثير من النَّاس مصدراً للعديد من الأشياء الرائعة، لكنَّ آخرين يشكُّون في ذلك لأسبابٍ وجيهة، ولا ينبغي لنا قبول هذه النقطة من منطلق احترام في غير محلّه للتقاليد، ربَّما يكون هذا الاحترام مثل الغلاف الخارجي الواقي الذي يخفي غالباً فيروساتٍ مميتةً عن جهازنا المناعي، وهو نوعٌ من التمويه يتملّص من النقد، ونحن في أمسّ

الحاجة إليه، لذا فإنَّ أكثر ما يمكننا قوله هو أنَّ النقطة (1) لم يتمَّ إثباتها بعد، ومع ذلك يمكننا المضي قدماً بشكلٍ مؤقَّت، والنظر في مدى احتماليَّة أن تكون النقطة (2) إذا افترضنا جدلاً أنَّ الدين هو بالفعل شيءٌ ذو قيمةٍ كبيرة، وبعبارةٍ أخرى، يمكننا أن نفترض أنَّ الدين بريءٌ حتَّى تثبت إدانته، بالطريقة التي يعمل بها نظامنا القانوني.

الآن، ماذا عن النقطة (2)، ما مقدار الضرر الذي قد يسبّبه التحقيق في أسوأ الحالات، أليس من الممكن ألَّا تتكسر التعويذة، وألَّا نتحرر من الوهم إلى الأبد؟

لقد كان هذا القلق أرضيَّةً مفضَّلةً لمقاومة الفضول العلمي لعدَّة قرون، ولكن على الرَّغم من أنَّه لا يمكن إنكار أنَّ فصل نماذج معيَّنةٍ من الأشياء الرائعة - النباتات والحيوانات والآلات الموسيقيَّة، قد يؤدّي في بعض الأحيان إلى تدميرها بعد إعادة البناء، وقد تزدهر أشياء رائعةٌ أخرى كالقصائد والسمفونيَّات والنظريَّات، الأنظمة القانونيَّة - بالتحليل، مهما كان شاقَّاً، وبالكاد يمكن للمرء أن ينكر فائدة النباتات والحيوانات والآلات الموسيقيَّة الأخرى الناتجة عن الفحص الدقيق لبعض العيّنات، وعلى الرَّغم من كلّ التحذيرات على مرِّ القرون، لم أتمكَّن من التوصُّل إلى حالةٍ من بعض الظواهر القيّمة التي تمَّ تدميرها بالفعل، أو حتَّى تضرَّرت بشكلٍ خطير من خلال التدقيق العلمي.

غالباً ما يواجه علماء الأحياء الميدانيُّون مأزقاً خطراً عند دراسة الأنواع المهدَّدة بالانقراض: هل تؤدي محاولتهم حسنة النيَّة في إجراء إحصاءٍ يتضمَّن أسر وإطلاق كائناتٍ حيَّة إلى تسريع انقراض الأنواع؟

عندما يحاول علماء الأنثروبولوجيا دراسة أناس بدائيين منعزلين حتَّى الآن، فإنَّ أبحاثهم مهما كانت سرِّيَّةً ودبلوماسيَّة، ستغيّر بسرعةٍ الثقافة التي يتوقون إلى معرفتها.

فيما يتعلَّق بالحالة الأولى، «لا تدرس» هي سياسة قد يكون من الحكمة في بعض الأحيان اتّخاذها كذريعة، ولكن فيما يتعلَّق بالحالة الأخيرة، فإنَّ إطالة أمد عزل النَّاس عن طريق وضعهم فعليّاً في حديقة حيواناتٍ ثقافيَّة، على الرَّغم من كونها مؤيّدةً أحياناً، هي حالة

لا تتحمَّل التمحيص، هؤلاء أناسٌ، ولا يحقُّ لنا أن نجعلهم جاهلين بالعالم الأكبر الذي يتشاركونه معنا (هل لديهم الحقُّ في إبقاء أنفسهم جاهلين؟ هو أحد الأسئلة المحيّرة التي يجب أخذها في الحسبان لاحقاً في هذا الكتاب).

وتجدر الإشارة إلى أنَّ الأمر استغرق سنوات عديدة من الروَّاد الشجعان للتغلُّب على المحرَّمات القويَّة ضدَّ تشريح الجثث البشريَّة خلال السنوات الأولى من الطبّ الحديث، ويجب أن نلاحظ أنّه على الرَّغم من الغضب والاشمئزاز اللذين قوبلت بهما فكرة التشريح، فإنَّ التغلُّب على هذا التقليد لم يؤدِّ إلى الانهيار المخيف للأخلاق واللياقة؛ نحن نعيش في عصرٍ ما تزال فيه الجثث البشريَّة تُعامل بالاحترام الواجب، مع المزيد من الاحترام واللياقة أكثر ممَّا عوملت به في الوقت الذي كان التشريح فيه ما يزال سيّئ السمعة، ومَن منَّا سيختار التخلّي عن فوائد الطب التي تحقَّقت بفضل العلم المجتاح المتطفّل الذي يمقته وردزورث؟

في الآونة الأخيرة، كُسِرَت محرَّمةٌ أخرى مع احتجاج أكبر، إذ بدأ ألفريد سي كينزي في الأربعينيَّات والخمسينيَّات من القرن الماضي، التحقيق العلميَّ في الممارسات الجنسيَّة البشريَّة في أمريكا، ممَّا أدَّى إلى تقارير كينزي سيّئة السمعة، والسلوك الجنسي لدى ذكور البشر (1948)، والسلوك الجنسي في الأنثى البشريَّة (1953).

كانت هناك عيوبٌ كبيرةٌ في دراسات كينزي، لكنَّ ثقل الأدلَّة التي جمعها أدَّت إلى استنتاجاتٍ مفاجئةٍ لم تتطلَّب سوى تعديلاتٍ طفيفة في التحقيقات اللاحقة التي تمَّ التحكُّم فيها بشكلٍ أفضل.

لأول مرَّةٍ يمكن للأولاد والرجال أن يتعلَّموا أن أكثر من 90 في المائة من الذكور الأمريكيين يمارسون العادة السرّيَّة، وأنَّ حوالي 10 في المائة منهم هم من المثليين، ويمكن للفتيات والنساء أن يتعلَّمن أنَّ النشوة الجنسيَّة هي أمرٌ طبيعي، ويمكن تحقيقها بالنسبة لهنَّ أيضاً، سواءً في الجماع أو في العادة السرّيَّة، وليس من المستغرب- لاحقاً- أنَّ السحاقيَّات كنَّ أقدر على إثارة النشوة الجنسيَّة لدى النساء من الرجال.

كانت أدوات بحث كينزي عبارة عن مقابلاتٍ واستبيانات، ولكن سرعان ما تجرّأ كلٌّ من ويليام هـ. ماسترز وفرجينيا جونسون على إخضاع الإثارة الجنسيَّة البشريَّة للتحقيق العلمي في المختبر، وتسجيل الاستجابات الفسيولوجيَّة للمتطوِّعين المنخرطين في أفعالٍ جنسيَّة باستخدام جميع أدوات العلم، بما في ذلك التصوير السينمائي الملوَّن (كان هذا قبل أن يتوافر شريط الفيديو).

قوبل عملهم الرائد، Human Sexual Response (1966)، بمزيجٍ جامحٍ من العداء والغضب والافتتان الشهواني اللاهي، واستحسانٍ حذرٍ من المجتمع الطبّي والعلمي، ومن خلال تسليط الضوء السّاطع للعلم على ما أُجريَ حتّى الآن في الخفاء (مع قدرٍ كبيرٍ من السرّيَّة والخجل)، لقد بدّدوا مجموعةً من الأساطير، وراجعوا الفهم الطبّيَّ لبعض أنواع الخلل الوظيفي الجنسي، وحرَّروا أعداداً لا حصر لها من الأشخاص القلقين الذين كانت أذواقهم وممارساتهم مرفوضةً اجتماعيّاً بشكلٍ متجذّر، وحسّنوا الحياة الجنسيَّة للملايين.

اتَّضح أنَّه في هذه الحالة، على الأقل، يمكنك كسر التعويذة وعدم كسر التعويذة في الوقت نفسه؛ يمكنك انتهاك المحرَّمات ضدَّ الدراسة النزيهة لظاهرة - تمَّ كسر تعويذةٍ واحدة، ولكنَّها لم تدمَّر في هذه العمليَّة - هناك تعويذةٌ يمكن للمرء أن يظلَّ ضمنها سعيداً، لكن ما هو الثمن؟

لقد تعمَّدت لفت الانتباه إلى عمل ماسترز وجونسون الذي ما يزال مثيراً للجدل، لأنَّه يبيّن بوضوحٍ القضايا الصعبة التي سيهتمُّ بها هذا الكتاب، سيتَّفق معي الكثيرون عندما أقول أنَّه بفضل العمل الرائد لـ Kinsey Masters and Johnson، فإنَّ المعرفة التي اكتسبناها لم تمنع تدمير الجنس فحسب، بل جعلت الجنس أفضل، ولكن هناك أيضاً العديد ممَّن سينقضُّون على المقارنة، ويقولون أنَّ هذا هو بالضبط سبب معارضتهم لأيّ استكشافٍ علمي للدين: هناك احتمال أن يفعل ذلك للدين ما فعله كينزي وآخرون للجنس، قد يعلمنا أكثر ممَّا هو مفيدٌ لنا.

اسمحوا لي أن أضع الكلمات على لسانهم:

"إذا كانت ممارسة العادة السرِّيَّة من دون خجل، والتسامح مع المثليَّة الجنسيَّة، ومعرفة أكبر بكيفيَّة تحقيق النشوة الجنسيَّة للإناث هي أمثلةٌ على الفوائد التي يمكن أن يجلبها لنا العلم، فتبّاً لهكذا علم.

من خلال التعامل مع الجنس بوصفه شيئاً طبيعيّاً (بمعنى أنّه لا يوجد ما يُخجل منه)، فقد ساهم ذلك في انتشار المواد الإباحيَّة والانحطاط، ممّا أدّى إلى تدنيس الفعل المقدَّس المتمثّل في الاتحاد الإنجابي بين الزوج والزوجة، لذا كان من الأفضل لنا ألّا نعرف كلَّ هذه الحقائق، وعلينا أن نتَّخذ ما بوسعنا من خطواتٍ لحماية أطفالنا من هذه المعلومات الملوّثة!"

هذا اعتراضٌ خطيرٌ للغاية، ليس هناك من ينكر أنَّ الصراحة الواقعيَّة حول الجنس التي رعاها هذا البحث كانت لها بعض الآثار الجانبيَّة الرهيبة، وفتحت مجالاتٍ جديدةً وخصبةً للاستغلال من قبل أولئك الذين يبحثون دائماً عن طرق لاستغلال مواطنيهم.

لم تكن الثورة الجنسيَّة في الستينيَّات هي التحرُّر الكامل المجيد كما تمَّ تصويرها غالباً؛ حطمت استكشافات «الحبّ الحر» و«الزواج المفتوح» العديد من القلوب، وسلبت العديد من الشباب إحساساً عميقاً بالأهميَّةِ الأخلاقيَّة للعلاقات الجنسيَّة، من خلال تشجيع الرؤية السطحيَّة للجنس على أنّه مجرَّد متعةٍ حسيَّة، وعلى الرَّغم من الاعتقاد السائد بأنَّ الثورة الجنسيَّة ساهمت في الإهمال والممارسات الجنسيَّة غير الشرعيَّة، ممَّا زاد من انتشار الأمراض المنقولة جنسيّاً، فقد لا تكون هذه هي القضيَّة. تشير معظم الأدلَّة إلى أنَّه عندما تنتشر المعلومات حول الجنس، يصبح السلوك الجنسيُّ أكثر مسؤوليَّة (بوسنر، 1992)، لكنَّ أيَّ شخصٍ يقوم بتربية طفل اليوم عليه أن يقلق بشأن الكمِّ الهائل من المعلومات حول الجنس الذي يكتسحنا الآن.

المعرفة قوَّةٌ للخير والشر: يمكن أن يكون للمعرفة القدرة على تعطيل الأنماط القديمة للإيمان والعمل، والقدرة على تقويض السلطة وعلى تغيير العقول، كما يمكن أن تتداخل مع

الاتجاهات التي قد تكون أو لا تكون مرغوبة.

في مذكَّرةٍ سيّئة السمعة إلى الرئيس ريتشارد نيكسون، كتب دانيال باتريك موينيهان: «ربَّما حان الوقت الذي يمكن أن تستفيد فيه مسألة العرق من فترة «الإهمال الحميد»، لقد تمَّ الحديث عن الموضوع كثيراً، هيمن على النقاش الهستيريُّون، والمصابون بجنون العظمة، والسياسيُّون الفاسدون من جميع الجوانب، قد نحتاج إلى فترةٍ يستمرُّ فيها تقدم الزنوج، ويتلاشى فيها الخطاب العنصري، يمكن للإدارة أن تساعد في تحقيق ذلك من خلال الاهتمام بشكلٍ أكبر بمثل هذا التقدُّم - كما نفعل نحن - بينما تسعى لتجنُّب المواقف التي يُمنَحُ فيها المتطرّفون من كلا العرقين فرصاً للاستشهاد أو البطولة أو التمثيل المسرحي أو أيّ شيءٍ آخر". [موينيهان، 1970]

ربَّما لن نعرف أبداً ما إذا كان موينيهان على حقّ، لكنَّه ربما كان كذلك، والذين يشتبهون في أنَّه كان على حقّ، قد يأملون أن نتَّبع نصيحته هذه المرَّة، ونؤجّل الاهتمام الشديد بالدين لأطول فترةٍ ممكنة، ونصرف النظر عن البحث فيه، وأن نتمنّى الأفضل، لكن من الصعب أن نرى كيف يمكن تحقيق هذه السياسة في أيّ حال.

منذ عصر التنوير، كان لدينا بالفعل أكثر من مائتي عام من الفضول الصَّامت والمحترم، ولا يبدو أنَّه أدَّى إلى تلاشي الخطاب الديني، أليس كذلك؟

يشير التَّاريخ الحديث بقوَّة إلى أنَّ الدين سيكتسب المزيد من الاهتمام في المستقبل القريب، إذا كان سيحظى باهتمام، فمن الأفضل أن يكون اهتماماً عالي الجودة، وليس من النوع الذي ينخرط فيه الهستيريُّون، والمصابون بجنون العظمة، والفاسدون من جميع الأطراف.

المشكلة هي أنَّه من الصعب للغاية في الوقت الحاضر الاحتفاظ بالأسرار، بينما كان الجهل في القرون السابقة هو الحالة الافتراضيَّة لمعظم الجنس البشري، وقد تطلَّب الأمر تمريناً كبيراً من البحث للتعرُّف على العالم الواسع، فنحن نسبح اليوم في بحرٍ من المعلومات والمعلومات المضلّلة، حول كل موضوع، من الاستمناء إلى كيفيَّة بناء سلاحٍ نووي للقاعدة.

نظراً لأنّنا نأسف لمحاولة بعض الزعماء الدينيين في العالم الإسلامي إبقاء بناتهم ونسائهم غير متعلّمات وغير مطّلعاتٍ على العالم، لا يمكننا الموافقة على حظرٍ مماثلٍ على المعرفة في عالمنا، أم أنّنا نستطيع؟

ربّما تكون نقطة الخلاف هذه هي الانقسام القارّي[1] في «Opinion Space»[2]، بين أولئك الذين يعتقدون أنّ أفضل أملٍ لنا هو محاولة تثبيت الغطاء فوق صندوق باندورا، وإبقاء أنفسنا جاهلين إلى الأبد، وأولئك الذين يعتقدون أنّ هذا الأمر مستحيلٌ سياسياً وغير أخلاقيٍ في المقام الأول.

دفع الأوّلون بالفعل ثمناً باهظاً لفقرهم المعرفي الذي فرضوه على أنفسهم: لا يمكنهم تخيُّل عواقب السياسة التي اختاروها بالتفصيل، ألا يرون أنّه لا شيء أقلّ من دولة بوليسيَّة، مليئةٍ بالقوانين التي تحظر البحث ونشر المعرفة، أو تحجر السكّان في عالمٍ بلا نوافذ، يمكن أن ينجز هذا العمل الفذّ، هل هذا حقّاً ما يريدونه، هل يعتقدون أنّ لديهم أساليبَ لم يحلم بها الملالي المحافظون لوقف التدفُّق الذي لا يرحم من المعلومات المحرَّرة لقطيعهم؟ تطلّع إلى الأمام.

يوجد فخٌّ هنا بانتظار أولئك الذين ليس لديهم بعد نظر، ربّما لا يوجد آباءٌ محصَّنون ضدَّ تأنيب الضمير، عندما يرون أول دليلٍ على فقدان البراءة لدى أطفالهم، والحاجة إلى حماية الطفل من العالم المليء بالحيويَّة القويَّة، لكنَّ التفكير يجب أن يبيّن لأيٍّ كان أنَّ هذا لن يحدث، نحن بحاجة إلى السماح لأطفالنا بالنموّ لمواجهة العالم مسلَّحين بالمعرفة، بمعرفةٍ أكثر بكثير ممّا كانت لدينا في سنّهم، إنّه أمرٌ مخيف، لكنَّ البديل أسوأ.

هناك بعض النَّاس – الملايين على ما يبدو – يعلنون بفخرٍ أنّه ليس عليهم توقُّع العواقب:

(1) يقصد به المؤلّف الانقسام في الرأي داخل الولايات الواقعة في أمريكا الشماليَّة.

(2) تمَّ تطوير «Opinion Space» المعروف أيضاً باسم (The Collective Discovery Engine) في جامعة كاليفورنيا في بيركلي، وهو عبارةٌ عن تقنية وسائط اجتماعيَّة جديدة مصمَّمةٍ لمساعدة المجتمعات على توليد الأفكار وتبادلها حول القضايا والسياسات المهمَّة.

إنَّهم يعرفون في قلوبهم أنَّ هذا هو الطريق الصحيح، مهما كانت التفاصيل، وبما أنَّ يوم القيامة على الأبواب، فلا داعي للتخطيط للمستقبل.

إذا كنت أحد هؤلاء، فإليك ما آمل أن يكون تفكيراً واقعيّاً: هل فكَّرت في أنَّك ربَّما تكون غير مسؤول؟ أنت لا تخاطر طوعاً بحياة أحبَّائك ورفاههم في المستقبل فحسب، بل بحياة ورفاهية الآخرين جميعاً دون تردُّد، دون بذل العناية الواجبة، مسترشداً بوحيٍ ما، مقتنعاً بأنَّه ليس لديك طريقةٌ جيّدةٌ للتحقّق من صحَّته.

«كُلُّ ذَكِيٍّ يَعْمَلُ بِالْمَعْرِفَةِ، وَالْجَاهِلُ يَنْشُرُ حُمْقًا» (أمثال 16:13)، نعم، أعرف أنَّ الكتاب المقدَّس يحتوي أيضاً على نصٍّ مخالف، لأَنَّهُ مَكْتُوبٌ: «سَأُبِيدُ حِكْمَةَ الْحُكَمَاءِ، وَأَرْفُضُ فَهْمَ الْفُهَمَاءِ» (كورنثوس الأولى 1:19) يمكن لأي شخصٍ أن يقتبس من الكتاب المقدَّس لإثبات أيّ شيء، ولهذا السبب يجب أن تقلق بشأن المبالغة في الثقة.

هل سألت نفسك يوماً ماذا لو كنت مخطئاً؟ بالطبع، هناك حشدٌ كبيرٌ من النَّاس من حولك يشاركونك قناعتك، وهذا يوزّع ويخفّف المسؤوليَّة، لذلك إذا سنحت لك الفرصة لتلفظ كلمة آسف، فسيكون لديك عذرٌ مقنع: لقد اجتاحك حشدٌ من المتحمّسين، لكن من الثابت أنَّك لاحظت حقيقةً مقلقة: يعطينا التَّاريخ العديد من الأمثلة عن حشودٍ كبيرةٍ من المخدوعين الذين يحرّضون بعضهم على الانغماس في متع الحياة التي تودي إلى الهلاك.

كيف يمكنك التحقّق من أنَّك لست جزءاً من هكذا مجموعة؟

أنا شخصيّاً لست خائفاً من إيمانك، إنَّني مرتعبٌ من غطرستك، من يقينك غير المعقول بأنَّ لديك كلَّ الإجابات، وأتساءل عمَّا إذا كان أيُّ مؤمنٍ بنظريَّة «نهاية الأزمنة» سيكون لديه الأمانة والشجاعة الفكريَّة لقراءة هذا الكتاب.

ما نتخيَّله في حالة الترقُّب المخيف غالباً ما يكون أسوأ بكثيرٍ من الواقع، لذا قبل أن نأسف لعدم قدرتنا على كبح المدِّ المتصاعد للمعلومات، يجب أن نفكّر في عواقبه المحتملة بهدوء، قد لا يكونون بهذا السوء.

تخيَّل أنَّه لم يكن لدينا أبداً أسطورة سانتا كلوز، لكان عيد الميلاد مجرَّد عيدٍ مسيحي آخر، مثل أحد الشعانين أو عيد العنصرة، يحتفلُ به، ولكن بالكاد كانَ معروفاً عالميًّا، من ثمَّ تخيَّل أنَّ محبّي قصص هاري بوتر لجيه كيه رولينغ كانوا يحاولون بدء تقليدٍ جديد: في كلّ عام، في ذكرى تاريخ نشر كتاب هاري بوتر الأول، يتلقَّى الأطفال هدايا من هاري بوتر، الذي يطير عبر نافذةٍ على عصا المكنسة السحريَّة، مصحوباً ببومته، لنجعل يوم هاري بوتر يوماً عالميًّا للأطفال!.

من المفترض أن يكون مصنّعو الألعاب (وناشرو رولينغ) مؤيّدين، لكن تخيَّل المتشائمين الذين سيعارضونها، يا لها من فكرةٍ رهيبة!.

فكّر في الآثار الصادمة على الأطفال الصغار عندما يعلمون- كما سيفعلون في النهاية- أنَّ براءاتهم وثقتهم قد استُغِلَّت من قبل مؤامرةٍ عامَّةٍ ضخمةٍ من الكبار، إنَّ الخسائر النفسيَّة والاجتماعيَّة لمثل هذا الخداع الهائل ستكون السخرية[1] واليأس وجنون الارتياب والحزن، الذي قد يشلُّ الأطفال مدى الحياة، هل يمكن أن يكون هناك أيُّ شيءٍ أكثر شرَّاً من التلفيق المتعمَّد لمجموعةٍ مغريةٍ من الأكاذيب لنشرها على أطفالنا؟ سوف يكرهوننا بمرارة، وسوف نستحقُّ غضبهم.

لو كان هذا القلق المشروع قد أُثِيرَ بشكلٍ فعَّال في الأيَّام الأولى من تطوُّر أسطورة سانتا كلوز، فربَّما كان من الممكن منع كارثة سانتا كلوز العظيمة عام 1985، لكنَّنا نعرف أنَّه لم يكن هناك مثل هذه الكارثة ولن تكون أبداً.

يعاني بعض الأطفال -في لحظاتٍ قصيرةٍ نسبيًّا- من الإحراج والمرارة عندما يعلمون أنَّه

(1) السخرية: موقفٌ يتَّسم بارتياب عام في دوافع الآخرين، فقد يعاني الساخر من نقص عام في الإيمان أو الأمل لدى النَّاس بدافع الطموح والرغبة والجشع والإشباع والماديَّة والأهداف والآراء التي يعدّها الساخر عبثاً، أو لا يمكن الحصول عليها، أو لا معنى لها في النهاية، ومن ثمَّ فهي تستحقّ السخرية أو التوبيخ. المصطلح مشتقٌ في الأصل من الفلاسفة اليونانيين القدماء «الكلبيين» الذين رفضوا الأهداف التقليدية للثروة والسلطة والشرف، لقد مارسوا عدم الامتثال المخزي للأعراف الاجتماعيَّة في الدين أو الآداب العامَّة أو المسكن أو الملبس أو الحشمة، وبدلاً من ذلك دافعوا عن السعي وراء الفضيلة وفقاً لأسلوب حياةٍ بسيطٍ وطبيعي.

لا يوجد سانتا كلوز، لكنَّ البعض الآخر يفتخر بانتصار التحرّي على طريقة شيرلوك هولمز، ويستمتعون بوضعهم الجديد بين أولئك الذين يعرفون، ويساهمون بشغفٍ في الحيلة للعام التالي، والإجابة بعقلانيَّةٍ على جميع الأسئلة البريئة التي طرحها إخوتهم الصغار عليهم.

نحن نعلم أنَّ خيبة الأمل بسانتا كلوز غير مؤذية، أكثر من ذلك، من المحتمل (ولكن لم يتمَّ التحقيق بعد، على حدّ علمي) أنَّ هذا الجزء من الجاذبيَّة الدائمة لأسطورة سانتا كلوز، هو أنَّ البالغين الذين لم يعد بإمكانهم تجربة متعة سانتا البريئة بشكلٍ مباشر، اكتفوا بالتشويق غير المباشر مستمتعين بإثارة أطفالهم.

يبذل النَّاس قدراً كبيراً من الجهد والنفقات لإدامة أسطورة سانتا كلوز، لماذا، هل يحاولون استعادة براءة الطفولة المفقودة، هل دافعهم المباشر هو الرّضا أكثر من الكرم، أم أنَّ متعة التآمر المغفور مجتمعيَّاً (التآمر الذي لا يلوّثه الشعور بالذنب الذي يصاحب الزنا أو الاختلاس أو التهرّب الضريبي، على سبيل المثال) كافيةٌ بمفردها لدفع التكاليف الباهظة؟

ستلوح مثل هذه الأساليب الوقحة في التفكير لدرجةٍ كبيرةٍ في الفصول اللاحقة، عندما ننتقل إلى الأسئلة الأكثر إثارةً للقلق حول سبب انتشار الدين، إنَّها ليست أسئلةً بلاغيَّة يمكن الإجابة عليها إن حاولنا.

إنَّني أقدّر أنَّ العديد من القرَّاء سيكونون غير واثقين بشدَّة من المسار الذي أتَّبعه هنا، سوف يرونني مجرَّد أستاذ ليبرالي آخر يحاول تخليصهم من بعض قناعاتهم، وهم على صوابٍ تماماً بشأن ذلك، هذا ما أنا عليه، وهذا بالضبط ما أحاول فعله.

لماذا إذاً يجب أن ينتبهوا؟ إنَّهم مرتعبون من الانحلال الأخلاقي الذي يرونه من جميع الجوانب، وهم مقتنعون بصدقٍ أنَّ حماية دينهم من كلّ بحثٍ ونقد، هي أفضل طريقةٍ لتغيير الوضع.

أتَّفق معهم بصدقٍ على أنَّ هناك أزمةً أخلاقيَّة، وأنَّه لا يوجد شيءٌ أكثر أهميَّةً من العمل معاً لإيجاد طرقٍ للخروج من معضلاتنا الحاليَّة، لكنَّني أعتقد أنَّ لديَّ طريقةً أفضل، سيقولون

اثبت ذلك، وسوف أجيب: اسمحوا لي أن أحاول، وهذا ما يدور حوله هذا الكتاب، وأطلب منهم محاولة قراءته بعقلٍ منفتح.

الفصل الثاني: الدين ليس خارج نطاق العلم، على الرَّغم من الدعاية التي تناقض ذلك من مصادر متنوّعة، بالإضافة إلى ذلك، هناك حاجةٌ إلى البحث العلمي لإثراء قراراتنا السياسيَّة الأكثر أهميَّة، ستكون هناك مخاطر وكذلك ألم، لكنَّ استخدام ذلك كذريعةٍ للجهل يعدُّ عملاً غير مسؤول.

الفصل الثالث: إذا أردنا معرفة سبب تقديرنا للأشياء التي نحبّها، فنحن بحاجةٍ إلى الخوض في التَّاريخ التطوُّري للكوكب، واكتشاف القوى والقيود التي ولَّدت مجموعةً رائعةً من الأشياء التي نعتزُّ بها، والدين ليس مستثنىً من هذا الاستطلاع، ويمكننا رسم مجموعةٍ متنوّعةٍ من السبل الواعدة لمزيدٍ من البحث، بينما نفهم كيف يمكننا إنجاز منظورٍ لأبحاثنا التي يمكن للجميع مشاركتها، بصرف النظر عن عقائدهم المختلفة.

الفصل الثالث

لماذا تحدث الأشياء الجيّدة؟

1- إخراج الأفضل:

«أصبح الرمز الديني جزءاً من نسيج الواقع، والعيش في هذا الواقع يساعد الملايين من النّاس على التأقلم ليكونوا أشخاصاً أفضل» — لانغدون، بطل شيفرة دافنشي، بقلم دان براون

عندما بدأت العمل على هذا الكتاب، أجريت مقابلاتٍ مع عدد قليلٍ من النّاس لمحاولة التعرُّف على الأدوار المختلفة التي يلعبها الدين في حياتهم، لم يكن ذلك عمليّةَ جمعٍ علميّةً للبيانات (على الرَّغم من أنّني قمت بشيءٍ من ذلك أيضاً)، ولكنّه كان محاولةً لوضع النظريّات والتجارب جانباً، والذهاب مباشرةً إلى أناسٍ حقيقيين، وجعلهم يخبرونني بكلماتهم الخاصّة عن سبب أهميّة الدين بالنسبة لهم، كانت هذه المقابلات سرّيّةً للغاية، وكانت جميعها تقريباً فرديّة[1]، وعلى الرَّغم من أنّني كنت فضوليّاً باستمرار، إلّا أنّني لم أتحدَّ أو أتجادل معهم.

غالباً ما كانت هذه المناسبات مؤثرة -على أقلّ تقدير- وتعلّمت منها الكثير، لقد عانى بعض النّاس من مصاعبَ لم أستطع أن أتخيّل نفسي أنجو منها بيسر، ووجد البعض في دينهم القوّة لاتّخاذ قراراتٍ لا تعوزها البطولة والتمسُّك بها، وكان الأشخاص ذوو المواهب والإنجازات المتواضعة أفضل بكثيرٍ ممّا قد يتوقّعه المرء بشكلٍ أقلّ دراماتيكيّة، وأكثر أثارةً

للأعجاب.

لم يكن الأمر مجرَّد أنَّ حياتهم ذات معنى بالنسبة لهم – على الرَّغم من أنَّ هذا كان صحيحاً بالتأكيد – ولكنَّهم كانوا في الواقع يجعلون العالم أفضل من خلال جهودهم المستوحاة من قناعتهم بأنَّ حياتهم لم تكن ملكهم ليتخلَّصوا منها كما اختاروا.

يمكن للدين بالتأكيد أن يبرز أفضل ما في الإنسان، لكنَّه ليس الظاهرة الوحيدة التي لها تلك الخاصيَّة؛ غالباً ما يجعل إنجاب طفلٍ الشخصَ أكثر نضجاً.

من المعروف أنَّ زمن الحرب يمنح النَّاس الكثير من المناسبات للارتقاء، كما تفعل الكوارث الطبيعيَّة مثل الفيضانات والأعاصير، ولكن بالنسبة للاستعداد اليومي طوال الحياة، ربَّما لا يوجد شيءٌ فعَّال مثل الدين، فهو يجعل الأشخاص الأقوياء والموهوبين أكثر تواضعاً وصبراً، ويجعل النَّاس العاديين يتفوَّقون على أنفسهم، ويوفّر دعماً قويَّاً للعديد من الأشخاص الذين هم بأمسِّ الحاجة إلى المساعدة للابتعاد عن المشروبات الكحوليَّة أو المخدّرات أو الجريمة، غالباً ما يجعل الدين الأشخاص الانطوائيين أو السطحيين أو الفظّين أو فاقدي العزيمة أكثر نبلاً، انطلاقاً من نظرتهم للحياة التي تساعدهم على اتّخاذ القرارات الصعبة التي نفخر باتّخاذها جميعاً.

لا يمكن أن يستند أيُّ حكمٍ قيمي شامل إلى مثل هذا المسح المحدود وغير الرَّسمي، فالدين يفعل كلَّ هذا الخير وأكثر، بلا شكّ، لكن يمكننا ابتكار شيءٍ آخر قد يقوم بذلك بشكلٍ جيِّد أو بشكلٍ أفضل؛ هناك العديد من الملحدين واللاأدريين الحكماء الملتزمين أخلاقيَّاً، رغم ذلك ربَّما تُظهِر دراسةٌ مسحيَّة أنَّ الملحدين واللاأدريين كمجموعة، أكثر احتراماً للقانون، وأكثر حساسيةً لاحتياجات الآخرين، أو أكثر أخلاقيَّةً من المتدينين.

بالتأكيد لم يُجرَ مسحٌ موثوقٌ به يظهر خلاف ذلك، قد يكون أفضل ما يمكن أن يقال عن الدين: هو أنَّه يساعد بعض النَّاس على تحقيق مستوى المواطنة والفضيلة الموجودة لدى الملحدين، وإذا وَجَدْتَ هذا التخمين غير منطقي، فأنت بحاجةٍ إلى تعديل منظورك.

من بين الأسئلة التي نحتاج إلى النظر فيها بموضوعيَّةٍ هو: ما إذا كان الإسلام أكثرَ أو أقلَّ فعَّاليَّةً من المسيحيَّة في إبعاد النَّاس عن المخدِّرات والكحول (وما إذا كانت الآثار الجانبيَّة في كلتا الحالتين أسوأ من المنفعة)، ما إذا كان الاعتداء الجنسي يمثِّل مشكلةً بين السيخ أكثرَ أو أقلَّ منه بين المورمون؟.

لا يمكنك الإعلان عن الخير كلّه الذي يفعله دينك، دون أن تطرح أولاً وبدقَّة الضرر كلّه الذي يسبّبه، والنظر بجدّيَّةٍ في مسألة ما إذا كان هناك دينٌ آخر، أو لا يوجد دينٌ على الإطلاق يعمل بشكلٍ أفضل.

لقد أظهرت الحرب العالميَّة الثانية بالتأكيد أفضل ما لدى العديد من الأشخاص، وغالباً ما يقول أولئك الذين عايشوها أنَّها كانت أهمَّ شيءٍ في حياتهم، ومن دونها لن يكون لحياتهم أيُّ معنى، ولكن من الثابت أنَّه لا يجب أن نحاول خوض حربٍ عالميَّةٍ أخرى.

الثمن الذي يجب أن تدفعه مقابل أيّ ادّعاءٍ يتعلَّق بقوَّة دينك أو أيّ دينٍ آخر، هو استعدادك لرؤية ادّعائك قيد الاختبار، وجهة نظري في البداية هي أنَّه يجب الاعتراف فقط بأنَّنا نعرف بالفعل ما يكفي عن الدين لندرك أنَّه مهما كانت آثاره السلبيَّة فظيعة - التعصُّب الأعمى، والتعصُّب القاتل، والقمع، والقسوة، والجهل القسري - فإنَّ لدى الأشخاص الذين ينظرون إلى الدين على أنَّه أهمُّ شيء في الحياة، العديد من الأسباب الوجيهة للتفكير بذلك.

2- مَنْ المستفيد؟

«مباركٌ الرَّب، يوماً فيوماً يحملنا إله خلاصنا» سلاه - مزمور 19:68

«كلَّما عرفنا المزيد عن تفاصيل العمليَّات الطبيعيَّة، أصبح من الواضح أنَّ هذه العمليَّات هي نفسها إبداعيَّة، لا شيء يتجاوز الطبيعة مثل الطبيعة نفسها» - لويال رو[1]

(1) فيلسوف أمريكي للدين، وهو استاذٌ فخريٌّ للدين والفلسفة في كلّيَّة لوثر في دديكوراه، آيوا. يركّز على

الأشياء الجيّدة لا تحدث بالصدفة، هنالك «ضربات حظّ»، لكنَّ الحفاظ على الشيء الجيّد ليس مجرَّد حظ، قد تكون العناية الإلهيَّة بالطبع؛ قد يكون الله على يقينٍ من أنَّ الشيء الصالح يحدث، وأنَّه يدعم نفسه عندما لا يحدث خلاف ذلك من دون تدخّل الله، لكنَّ أيَّ تقديرٍ من هذا القبيل يجب أن ينتظر دوره، للسبب نفسه الذي يجعل باحثي السرطان غير مستعدّين للتعامل مع حالات السكون غير المتوقَّعة على أنَّها مجرَّد «معجزاتٍ» لا تحتاج إلى مزيد من الاستكشاف.

ما هي مجموعة العمليّات الطبيعيَّة غير الخارقة التي يمكن أن تنتج وتحافظ على هذه الظاهرة ذات القيمة العالية؟ الطريقة الوحيدة لأخذ فرضيَّة المعجزات على محمل الجدّ هي التخلُّص من البدائل غير الإعجازيَّة.

يمكن رؤية بخل الطبيعة أينما نظرنا، إذا عرفنا ما الذي نبحث عنه؛ على سبيل المثال تظهر ذئاب القيوط كإضافةٍ مرحَّبٍ بها للحياة البريَّة في نيو إنجلاند، وهي تعوي بشكلٍ مخيف في ليالي الشتاء، لكنَّ هذه الحيوانات المفترسة الجميلة والماكرة تخشى البشر، ونادراً ما تُشاهد.

كيف يمكنك تمييز آثار أقدامهم على الثلج عن آثار أقدام أبناء عمومتهم، الكلاب الأليفة؟

حتَّى عن قرب، قد يكون من الصعب معرفة بصمة مخلب قيوطٍ من بصمة مخلب كلبٍ مماثل الحجم - تميل مخالب الكلب إلى أن تكون أطول، نظراً لأنَّها تقضي وقتاً قصيراً في الحفر- ولكن حتَّى من بعيد، يمكن تمييز أثر قيوطٍ بسهولةٍ عن أثر كلب؛ تشكّل آثار القيوط خطّاً مستقيماً فرديّاً بأسلوبٍ غريب، حيث تتطابق آثار الأقدام الخلفيَّة بوجهٍ مثالي تقريباً مع آثار الأقدام الأماميَّة، في حين أنَّ آثار الكلب عادةً ما تكون في حالةٍ من الفوضى، حيث يمشي الكلب متنقّلاً بشكلٍ أخرق هنا وهناك، ملاحقاً نزواته الفضوليَّة (ديفيد براون، 2004).

يتغذَّى الكلب جيّداً، ويعرف أنَّه سيحصل على عشاءه بصرف النظر عن أيّ شيء، في

النظريَّات الطبيعيَّة للدين، وقد حصل على زمالتين من مؤسَّسة جون تيمبلتون، وقد كان لسنواتٍ عديدة عضواً وحاضراً في معهد الدين في عصر العلم.

حين يحتاج القيوط إلى الحفاظ على كلّ سعرةٍ حراريَّةٍ من أجل المهمَّة التي يقوم بها، وهي الحفاظ على الذات.

لقد تطوَّرت طرق تنقّله بشكلٍ قاسٍ لتحقيق الكفاءة، ولكن ما الذي يفسّر عواء القطيع المميَّز، ما الفائدة التي تعود على القيوط من هذا الإنفاق الواضح للطاقة، ألا يفيد ذلك في تخويف فريستهم ولفت انتباه مفترسيهم إلى وجودهم؟ قد يعتقد المرء أنَّ مثل هذه التكاليف لن تُعوَّض بسهولة.

هذه أسئلةٌ جيِّدةٌ يعمل علماء الأحياء على حلّها، وعلى الرَّغم من عدم وجود إجابات نهائيَّةٍ لديهم حتَّى الآن، فمن الثابت أنَّهم على حقٍّ في طلبها، أيُّ نمطٍ من النفقات الواضحة يتطلَّب تقديراً لهذه النفقات.

ضع في حسبانك، على سبيل المثال، الإنفاق الهائل للجهود البشريَّة المكرَّسة في جميع أنحاء العالم لإنتاج السكَّر، ليس فقط زراعة وحصاد قصب السكَّر والشوندر السكَّري، وتكرير ونقل المنتج الأساسي، ولكن العالم المحيط الأكبر لتصنيع الحلوى، ونشر كتب الطبخ التي تحتوي وصفات الحلويَّات، والإعلان عن المشروبات الغازيَّة والشوكولاتة، وتسويق الهالوين، فضلاً عن الأجزاء الموازنة للنظام: عيادات السمنة، والبحوث التي ترعاها الحكومة حول وباء مرض السكَّري المبكر، وأطبَّاء الأسنان، وإضافة الفلورايد إلى معجون الأسنان ومياه الشرب.

يُنتَجُ ويُستَهلَكُ أكثر من مائة مليون طنٍّ متري من السكَّر كلَّ عام، لذا لشرح الآلاف من ميزات هذا النظام الضَّخم، والذي يوفّر الحياة لملايين الأشخاص، ويمكن تمييزه على كلّ مستوىً من مستويات المجتمع، نحتاج إلى العديد من الأبحاث العلميَّة والتَّاريخيَّة المختلفة، جزءٌ صغيرٌ منها فقط بيولوجي، لذا فنحن بحاجةٍ إلى دراسة كيمياء السكَّر، وفيزياء التبلور والكرملة، وعلم وظائف الأعضاء البشريَّة، وتاريخ الزراعة، وكذلك تاريخ الهندسة والتصنيع والنقل والمصارف والجغرافيا السياسيَّة والإعلان، وغير ذلك الكثير.

لن يكون أيٌّ من هذه النفقات المتعلّقة بالسكَّر من الوقت والطاقة موجوداً، لولا الصفقة التي أُبرِمَت منذ حوالي خمسين مليون سنةٍ بين النباتات «التي تبحث» بشكلٍ أعمى عن طريقة لتفريق بذورها الملقَّحة، والحيوانات التي تبحث بالمثل عن مصادرَ فعَّالةٍ من الطاقة لتغذية مشاريعها الإنجابيَّة، كما أنَّ هناك طرقاً أخرى لتوزيع البذور، مثل الطَّائرات الشراعيَّة والدوَّامات الهوائيَّة، ولكلٍّ طريقةٍ تكاليفها وفوائدها.

تعدُّ الثمار اللحميَّةُ المليئة بالسكَّر استراتيجيَّةً ذات استثمارٍ مرتفع القيمة، ولكن يمكن أن يكون لها عائدٌ كبير، فالحيوان لا يحمل البذور فحسب، بل يضعها على قطعةٍ مناسبةٍ من الأرض ملفوفة بكميَّةٍ كبيرةٍ مساعدةٍ من السماد، وغالباً ما تفشل هذه الاستراتيجيَّة، ولكن يكفي أن تنجح مرَّةً أو مرَّتين فقط في عمر النبات حتَّى يحافظ النبات على استمراريَّته على هذا الكوكب.

هذا مثالٌ جيّدٌ على بخل الطبيعة الأم في النتيجة النهائيَّة، مترافقاً مع الإفراط اللامعقول في الأساليب؛ ينجز حيوانٌ منويٌّ واحد من كلِّ مليار مهمة حياته - الحمد لله - ولكنَّ كلَّ حيوانٍ منويّ مصمَّمٌ ومجهَّزٌ كما لو أنَّ كلَّ شيءٍ يعتمد على نجاحه. (تشبه الحيوانات المنويَّة البريد الإلكتروني العشوائي، لذا فهي رخيصةٌ جدّاً في صنعها وتسليمها، بحيث أنَّ معدَّلَ عائدٍ ضئيلٍ للغاية كافٍ لتأمين استمرار المشروع).

أيَّد التطوُّر المشترك[1] الصفقةَ بين النبات والحيوان، وشحذ قدرة أسلافنا على تمييز السكَّر من خلال «حلاوته»؛ أي أنَّ التطوُّر زوَّد الحيوانات بجزيئاتٍ مُستقبلةٍ محدَّدة تستجيب لتركيز السكَّريَّات عالية الطاقة في أيّ شيءٍ تتذوَّقه، ورُبِطَت جزيئات المُستَقبِلات هذه بالآليَّة التي تبحث عنها لوضعها.

يقول النَّاس عموماً: إنَّنا نحبُّ بعض الأشياء لأنَّها حلوة، ولكن من الأدقِّ القول: إنَّ بعض الأشياء حلوةٌ (بالنسبة لنا) لأنَّنا نحبّها (ونحن نحبّها لأنَّ أسلافنا الذين تعلَّقوا بها

(1) تأثير الأنواع وثيقة الصلة ببعضها البعض في تطوُّرها.

كان لديهم طاقةٌ أكبر للتكاثر من أقرانهم الأقلّ حظّاً).

لا يوجد شيءٌ «حلوٌ متأصّلٌ» في جزيئات السكّر، لكنّها ذات قيمةٍ جوهريَّةٍ للكائنات التي تحتاج الطاقة، لذا فقد أوجد التطوُّر لدى الكائنات تفضيلاً مدمجاً وقويّاً لأيّ شيءٍ يدغدغ أجهزتها للكشف عن الطاقة العالية ذات الأغراض الخاصَّة، هذا هو السبب في أنّنا نولد بإعجابٍ غريزي للحلويّات، وبشكلٍ عام، كلَّما ازدادت الحلاوة كان ذلك أفضل.

استفاد الطرفان - النباتات والحيوانات - وقام النظام بتطوير نفسه على مرّ العصور، والأمر الذي يفسّر كلَّ هذا التصميم والتصنيع (للمعدَّات النباتيَّة والحيوانيَّة الأوليَّة) هو التكاثر التفاضلي للحيوانات المفترسة والنهمة، ونباتات الفاكهة الصالحة للأكل.

لم «تختر» كلُّ النباتات صفقة صنع الفاكهة الصالحة للأكل، لكنَّ تلك النباتات التي فعلت ذلك كان عليها أن تجعل ثمارها جذَّابةً من أجل كسب المنافسة، كان كلُّ شيءٍ منطقيّاً تماماً، ومن الناحية الاقتصاديَّة كانت صفقةً عقلانيَّة، أُجرِيَت بوتيرةٍ أبطأ من الأنهار الجليديَّة على مرِّ العصور، وبالطبع لم يكن على أيّ نبات أو حيوان أن يفهم كيفيَّة حدوث ذلك كي يزدهر النظام.

هذا مثالٌ على ما أسمّيه الأساس المنطقيَّ العائم الحر (Dennett، 1983، 1995b)، «تكتشف» العمليَّات التطوُّريَّة العمياء عديمة الاتجاه، التصاميم الناجحة، إنَّها فعَّالةٌ لأنَّ لديها ميزاتٍ مختلفة، ويمكن وصف هذه الميزات وتقييمها بأثرٍ رجعي، كما لو أنَّها من بنات أفكار مصمّمين أذكياء توصَّلوا إلى الأساس المنطقي للتصميم مسبقاً.

هذا ليس مثيراً للجدل في السياق العام للأحداث، فعدسة العين على سبيل المثال، مصمَّمةٌ بأسلوبٍ رائعٍ للقيام بعملها، وكان الأساس المنطقي الهندسي للتفاصيل واضح، لكنَّ أيَّ مصمّمٍ لم يبيّنه، حتَّى أُجرِيَت هندسةٌ عكسيَّةٌ للعين من قبل العلماء.

العقلانيَّة الاقتصاديَّة لصفقات المقايضة للتطوُّر المشترك لا لبس فيها، ولكن حتَّى وقتٍ قريبٍ جدّاً، مع ظهور التجارة البشريَّة منذ بضعة آلافٍ من السنين، لم تكن الأسس المنطقيَّة

لمثل هذه الصفقات واضحةً في الأذهان.

الاستطراد: هذه نقطةٌ خلافيَّةٌ بالنسبة لأولئك الذين لم يقدّروا بعد مدى جودة تأسيس نظريَّة التطوُّر عن طريق الاصطفاء الطبيعي، فوفقاً لمسحٍ حديث، يدرك حوالي ربع سكَّان الولايات المتَّحدة الأمريكيَّة فقط، أنَّ التطوُّر راسخٌ تماماً مثل حقيقة أنَّ الماء هو H_20، تتطلَّب هذه الإحصائيَّة المحرجة بعض التفسير، لأنَّ الدول الأخرى المتقدّمة علميَّاً لا تظهر النمط نفسه.

هل يمكن أن يكون الكثير من النَّاس على خطأ؟ حسناً، منذ زمنٍ ليس ببعيد عندما اعتقدت أقليَّةٌ صغيرةٌ فقط من سكَّان الأرض، أنَّ الأرض كرويَّة وأنَّها تدور حول الشمس، لذلك نحن نعلم أنَّ الأغلبيَّة يمكن أن تكون مخطئةً تماماً، ولكن الآن في مواجهة كلّ هذه التأكيدات المذهلة والأدلَّة العلميَّة الهائلة، كيف يمكن للعديد من الأمريكيين عدم تصديق التطوُّر؟

الأمر بسيط: لقد قيل لهم رسميَّاً: إنَّ نظريَّة التطوُّر خاطئة (أو على الأقل غير مثبتة) من قبل أشخاصٍ يثقون بهم أكثر ممَّا يثقون بالعلماء. وإليكم سؤالاً مثيراً للاهتمام: من المسؤول عن هذا التضليل واسع الانتشار للسكَّان؟ افترض أنَّ كهنة مذهبك، الحكماء والصالحين، يؤكّدون لك أنَّ التطوُّر نظريَّةٌ خاطئةٌ وخطيرة، إن كنت شخصاً عاديَّاً، فقد تصدّق كلامهم الموثوق ببراءة، وتنقله إلى أطفالك بحكم سلطتك الأبويَّة، فكلّنا نثق بالخبراء في أمورٍ كثيرة، وهؤلاء هم خبراءك (الكهنة، رجال الدين)، ولكن من أين حصل رجال دينك على هذه المعلومات المضلّلة؟

إذا ادَّعوا أنَّهم حصلوا عليها من العلماء فقد خُدِعُوا، لأنَّه لا يوجد علماء مرموقون يدَّعون أنَّ نظريَّة التطوُّر خاطئة، وهناك الكثير من المحتالين والدجَّالين، لكن ماذا عن المؤمنين العلميين بفكرة الخلق الإلهي، وأنصار التصميم الذكي ذوي الصوت المسموع والمرئي في الحملات الدعائيَّة؟ لقد تمَّ تفنيدهم جميعاً بعنايةٍ وصبرٍ من قبل علماء أوفياء لضميرهم العلمي، تحمَّلوا عناء اختراق شاشات الدعاية المضللة الخاصَّة بهم، وفضح كلّ حججهم

الرديئة وتحريفاتهم ومراوغاتهم المدروسة ظاهريّاً.

إذا كنت لا تتّفق بشدّةٍ مع هذا النبذ القاطع، لديك خياران جيّدان عليك أخذهما في الحسبان في هذه المرحلة:

1. ثقّف نفسك حول نظريّة التطوُّر ونقدها، وانظر بنفسك ما إذا كان ما أقوله صحيحاً قبل المتابعة.

(توفّر التعليقات الختاميّة لهذا الفصل جميع المراجع التي ستحتاج إليها للبدء، وسيستغرق الأمر بضعة أشهرٍ من العمل الشاقّ فقط).

2. تعليق عدم الإيمان بنظريّة التطوُّر مؤقّتاً، من أجل معرفة كيف ينظر أنصار التطوُّر إلى الدين بوصفه ظاهرةً طبيعيّة. (ربّما يكون من الأفضل أن تنفق وقتك وطاقتك كمشكّكٍ في محاولة الوصول إلى جوهر هذا المنظور التطوُّري بحثاً عن عيبٍ فادح).

بدلاً من ذلك، قد تعتقد أنّك لست بحاجةٍ إلى النظر في الأدلّة العلميّة إطلاقاً، فقط لأنّ «الكتاب المقدّس» يقول: إنّ التطوُّر خاطئ، وهذا موقفٌ أكثر تطرُّفاً ممّا يمكن ملاحظته أحياناً.

حتّى لو كنت تعتقد أنّ الكتاب المقدّس هو الكلمة الأخيرة والمثاليّة في كلّ موضوع، يجب أن تدرك أنّ هناك أشخاصاً في العالم لا يشاركونك تفسيرك للكتاب المقدّس، فعلى سبيل المثال، يرى الكثيرون أنّ الكتاب المقدّس هو كلمة الله، ولكنّهم لا يرون أنّه يستبعد التطوُّر، لذلك فهي حقيقةٌ يوميّةٌ واضحة أنّ الكتاب المقدّس لا يتحدّث بوضوح، وبشكلٍ لا لبس فيه عن جميع المواضيع، ولذلك فإنّ الكتاب المقدّس ليس مرشّحاً معقولاً كأرضيّةٍ مشتركةٍ يمكن مشاركتها دون الحاجة للمزيد من المناقشة في حوارٍ منطقي.

إذا أصررت على ذلك، فأنت تتجاهل التحقيق برمّته (وداعاً، وآمل أن أراك مرّةً أخرى يوماً ما)، لكن ألا يوجد عدم تناسقٍ غير مبرَّرٍ هنا، كوني أرفض الدفاع عن موقفي المناهض لنظريّة الخلق، في حين أنّني أنبذ المعصوم الكتابيَّ لعدم التزامه بقواعد المناقشة العقلانيّة؟ لا،

لأنَّني وجَّهت الجميع إلى الأدبيَّات التي تدافع عن نبذ نظريَّة الخلق ضدَّ كلّ الاعتراضات، في حين أنَّ المعصوم يرفض حتَّى تحمُّل هذا الالتزام، لكي أكون متماثلاً، يجب أن يشجّعني اللاهوتي على الرجوع إلى الأدبيَّات التي تدَّعي إثبات أنَّ الكتاب المقدَّس هو بالفعل كلمة الله، وأنَّه يستبعد التطوُّر.

لم أُوجِّه بعد إلى أيٍّ من هذه الأدبيَّات، ولم أجدها على أيِّ موقع ويب، ولكن إذا كانت موجودة، فإنَّها تستحقُّ النظر كموضوعٍ ليوم آخر ومشروعٍ آخر، تماماً مثل نظريَّة الخلق ونقَّادها.

هؤلاء القرَّاء الباقون لن يطلبوا منّي مزيداً من الاهتمام بنظريَّة الخلق ومتغيّراتها، لأنَّني أخبرتهم أين يجدون الإجابات التي أؤيّدها، للأفضل أو للأسوأ (نهاية الاستطراد).

لدى المحامين عبارةٌ لاتينيَّةٌ قديمة، cui bono؟، والتي تعني «من المستفيد من هذا؟»، وهو سؤالٌ أكثر أهميَّةً في علم الأحياء التطوُّري منه في القانون (Dennett، 1995b).

أنَّ أيَّ ظاهرةٍ في العالم الحيّ تتجاوز النداءات الوظيفيَّة، تستدعي التفسير، هناك شكٌّ دائماً بأنَّ هنالك شيئاً ما مفقوداً، لأنَّ المصاريف غير المبرَّرة غير اقتصاديَّة، وكما يذكّرنا الاقتصاديُّون دوماً، لا يوجد شيءٌ اسمه وجبة غداءٍ مجانيَّة؛ نحن لا نتعجَّب من حيوانٍ يدسُّ أنفه في الأرض بإصرار، لأنَّنا نعتقد أنَّه يبحث عن طعامه، ولكن إذا كان يخالف عاداته المتأصّلة بشقلبات، فنحن نريد أن نعرف السبب، ونظراً لوقوع الحوادث، فمن الممكن دائماً أن تكون بعض سمات الكائن الحي التي تبدو زائدةً عديمة الفائدة هي بالفعل كذلك. (وليست حيلةٍ عميقةٍ ومحيّرةٍ في بعض الألعاب التي لا نفهمها). لكن التطوُّر فعَّالٌ بوجهٍ ملحوظ في إخراج الحوادث عديمة الفائدة من المشهد، لذلك إذا وجدنا نمطاً ثابتاً من المعدَّات أو الأنشطة باهظة الثمن، يمكننا أن نكون متأكّدين تماماً من أنَّ شيئاً ما يستفيد منه في التقييم الوحيد الذي تقدّره نظريَّة التطوُّر: التكاثر التفاضلي.

ينبغي علينا البحث عن المستفيدين على نطاق واسع، لأنَّهم غالباً ما يكونون بعيدي المنال.

لنفترض أنَّك وجدت الفئران التي تخاطر بحياتها بتهوّرٍ مع وجود القطط، واسأل من المستفيد؟ سؤال: ماذا تستفيد هذه الفئران من هذا السلوك المتهوّر، هل يتفاخرون بإثارة إعجاب أقرانهم المحتملين، أم أنَّ سلوكهم المكلف يحسّن بطريقةٍ ما وصولهم إلى مصادر طعام جيّدة؟

مثل الدودة الطفيليَّة التي استقرَّت في النملة النشيطة التي بدأت بها هذا الكتاب، هناك طفيليٌّ، Toxoplasma gondii، يمكنه العيش في العديد من الثدّيات، ولكنَّه يحتاج إلى الوصول إلى معدة القطّ للتكاثر، وعندما يصيب الفئران، فإنَّ لها خاصيَّةً مفيدةً تتمثَّل في التدخُّل في أنظمتها العصبيَّة، وجعلها مفرطة النشاط ومتحرّرةً من الخوف نسبيَّاً، ومن ثمَّ من المرجَّح أن تأكلها أيُّ قطَّةٍ في الجوار، فمن المستفيد؟ الفائدة هي النجاح التناسلي – للتوكسوبلازما جوندي، وليس الفئران المصابة (زيمر، 2000).

كلُّ صفقةٍ في الطبيعة لها أسبابها المنطقيَّة العائمة، ما لم تكن صفقةً ابتكرها المتفاوضون البشريُّون، الممثّلون العقلانيُّون الوحيدون الذين ينبغي عليهم أن يتطوروا بعد على هذا الكوكب، لكنَّه منطقٌ عفا عليه الزمن، فمع تغيّر الفرص والمخاطر في البيئة، يمكن أن تزول الصفقة الجيّدة، ويستغرق التطوُّر وقتاً «للتعرُّف» على هذا.

حبّنا للسكَّر هو مثالٌ جيّد، فقد عاش أسلافنا –مثل ذئاب القيوط– على الصيد والجمع وبمصادر غذاء قليلة، وكان عليهم الاستفادة من كلّ فرصةٍ عمليَّةٍ لتخزين السعرات الحراريَّة لاستخدامها في حالات الطوارئ، كانت الشهيَّة النهمة للحلويَّات منطقيَّةً عمليَّاً، والآن بعد أن طوَّرنا طرقاً لخلق كميَّاتٍ وافرةٍ من السكَّر، أصبح هذا النهم عيباً خطيراً في التصميم.

يساعدنا التعرُّف على المصدر التطوُّري لهذا الخلل في معرفة كيفيةً التعامل معه، إنَّ حبَّنا للحلويَّات ليس مجرَّد حادثٍ أو عيبٍ لا فائدة منه في نظامٍ ممتاز مختلف؛ لقد صُمِّمَ للقيام بعمله، وإذا استهنَّا بدهائه، ومقاومته للاضطراب والكبح، فإنَّ جهودنا للتعامل معه قد تأتي بنتائجَ عكسيَّة، هناك سبب يجعلنا نحبُّ السكَّر، وهذا سببٌ وجيهٌ للغاية، قد نجد حبّاً خارقاً

آخر يحتاج إلى اهتمامنا.

لقد ذكرت الموسيقى في الفصل السابق، وسوف ننتقل في النهاية إلى فحصٍ أكثر تفصيلاً لمصادرها التطوُّريَّة المحتملة، لكنّي أريد البدء أولاً ببعض الأشياء الأسهل التي نحبّها، ماذا عن الكحول، المال، الجنس؟

يقدّم الجنس بعضاً من أكثر المشكلات المثيرة للاهتمام والتحدّي في نظريَّة التطوُّر، لأنَّ التكاثر الجنسي- في ظاهر الأمر- هو صفقةٌ سيّئةٌ بالفعل.

انسَ - لبعض الوقت- الجنس الخاصّ بالبشر (الجنس المثير)، وفكّر في أهمّ أنواع التكاثر الجنسي في العالم الحي: التكاثر الجنسيُّ لجميع أشكال الحياة متعدّدة الخلايا تقريباً، من الحشرات والمحار إلى أشجار التفّاح، وحتّى العديد من الكائنات وحيدة الخليَّة.

ذات مرَّة قال عالم الأحياء التطوُّري العظيم فرانسوا جاكوب ساخراً: إنَّ حلم كلّ خليَّةٍ هو أن تصبح خليَّتين، في كلّ مرَّةٍ يحدث هذا الانشطار، يتمُّ نسخ نسخةٍ كاملة من جينوم الخليَّة إلى النسل، الوالد يستنسخ نفسه، وبمعنى آخر؛ يشترك الكائن الحيُّ الناتج بنسبة 100 في المائة من جيناته، وإذا كان بإمكانك عمل نسخٍ جينيَّةٍ مثاليَّةٍ لنفسك، فلماذا تذهب إلى حساب التكاثر الجنسي، والذي لا يتضمَّن فقط العثور على رفيق، ولكن الأهمَّ من ذلك بكثير، نقل نصف جيناتك فقط إلى ذريَّتك؟"[4]. هذا التخفيض بنسبة 50 بالمائة (من وجهة نظر الجين) يُعرف بتكلفة الانقسام المنصف (نوع الانشطار الذي يحدث في الخلايا الجنسيَّة، لتمييزه عن الانشطار الاستنساخي للانقسام الخيطي) يجب دفع شيءٍ ما مقابل هذه التكلفة، ويجب أن يتمَّ الدفع عند التسليم، وليس في موعدٍ ما في المستقبل، لأنَّ التطوُّر يفتقر إلى البصيرة، ولا يمكنه الموافقة على الصفقات على أساس المضاربة بالعائد النهائي في وقتٍ بعيد، من ثمَّ فإنَّ التكاثر الجنسي هو استثمارٌ مكلفٌ يجب أن يدفع ثمنه على المدى القصير.

إنَّ تفاصيل النظريَّة والتجربة حول هذا الموضوع رائعة (انظر، على سبيل المثال،

Maynard Smith، 1978؛ Ridley، 1993)، ولكنَّ بعض النقاط البارزة من النظريَّة الحاليَّة هي الأكثر إفادةً لأهداف بحثنا: يُبرِّر الجنس (في الفقاريَّات مثلا على الأقلّ) بجعل نسلنا غامضاً نسبيّاً للطفيليَّات التي نمنحهم إيَّاها منذ الولادة، تتمتَّع الطفيليَّات بعمرٍ قصيرٍ مقارنةً بمضيفيها، وعادةً ما تتكاثر عدَّة مرَّاتٍ خلال حياة مضيفها.

الثدييَّات على سبيل المثال، تستضيف تريليوناتٍ من الطفيليَّات (نعم، الآن، بصرف النظر عن مدى صحّتك ونظافتك، هناك تريليوناتٌ من الطفيليَّات لآلاف الأنواع المختلفة التي تعيش في أمعائك، ودمك، وبشرتك، وشعرك، وفمك، وكلّ جزءٍ آخر من جسمك، تتطوَّر بسرعةٍ للبقاء على قيد الحياة ضدَّ هجوم دفاعاتك منذ ولادتك).

قبل أن تبلغ الأنثى سنَّ الإنجاب، تتطوُّر طفيليَّاتها لتناسبها بشكلٍ مثالي (في غضون ذلك، يتطوَّر جهازها المناعي لمكافحة هذه الطفيليَّات ومواجهتها - إذا كانت تتمتَّع بصحَّةٍ جيّدة - في سباق تسلُّح مستمرّ) إذا ولدت نسخةٌ منها، فإنَّ طفيليَّاتها ستقفز إلى هذه النسخة الجديدة لتجد نفسها في البيئة نفسها مجدَّداً، ومن ثمَّ ستكون هذه الطفليليَّات متوافقةً بشكلٍ أمثل مع محيطهم الجديد.

إذا استخدمت الأنثى التكاثر الجنسي بدلاً من ذلك لتمنح نسلها مجموعةً مختلطةً من الجينات (نصفها من رفيقها)، فإنَّ العديد من هذه الجينات ومنتجاتها في الدفاعات الداخليَّة للنسل، ستكون غريبةً أو خفيَّةً بالنسبة للطفيليَّات الانتهازيَّة، فبدلاً من المنزل الجميل، ستجد الطفيليَّات نفسها في أرضٍ مجهولة، وهذا يعطي للنسل السبق في سباق التسلُّح.

هل يمكن أن تبرّر مثل هذه الصفقة ذاتها؟

هذا هو السؤال الذي يكمن في قلب البحث الحالي في علم الأحياء التطوُّري، وإذا كانت الإجابة الإيجابيَّة ستصمد أمام المزيد من التدقيق، فسنكون قد وجدنا المصدر القديم والمستمرّ في التطوُّر للنظام الضخم، للأنشطة والمنتجات التي تخطر ببالنا عادةً عندما نفكّر في الجنس: طقوس الزواج والمحرَّمات ضدَّ الزنا، والملابس، وتسريحات الشعر، ومنعشات

النَفَس، والمواد الإباحيَّة، والواقي الذكري، وفيروس نقص المناعة البشريَّة، وكلِّ ما تبقَّى.

لشرح سبب وجود كلِّ جانبٍ من جوانب هذا المجمع الضخم، سيتعيَّن علينا اللجوء إلى العديد من الأنواع والمستويات المختلفة للنظريَّة، وليس جميعها بيولوجيَّة، لكن لن يكون أيٌّ من هذا موجوداً إذا لم نكن مخلوقاتٍ تتكاثر جنسيّاً، وعلينا أن نفهم الأسس البيولوجيَّة أولاً إذا أردنا أن تكون لدينا رؤيةٌ واضحةٌ لما هو اختياري أو مجرَّد عارضٍ تاريخي، وما هو مقاومٌ جداً للاضطراب، وما هو قابلٌ للاستغلال، هناك أسبابٌ تجعلنا نحبُّ الجنس، وهي أكثر تعقيداً مما نعتقد.

مع الكحول، يظهر منظورٌ مختلفٌ نوعاً ما؛ ما الذي يبرّر وجود مصانع الجعة ومزارع العنب والتقطير وأنظمة التوصيل الضخمة، التي تجعل المشروبات الكحوليَّة في متناول كلِّ إنسانٍ تقريباً على هذا الكوكب؟

نحن نعلم أنَّ الكحول -مثل النيكوتين والكافيين والمكوّنات النشطة في الشوكولاتة- له تأثيراتٌ محدَّدة تماماً على الجزيئات المستقبلةِ في أدمغتنا، دعونا نفترض أنَّ هذه الآثار مجرَّد مصادفاتٍ في البداية، ودعونا نفترض أيضاً أنَّ بعض الجزيئات الكبيرة في بعض النباتات تتشابه من ناحية الكيمياء الحيويَّة مع الجزيئات الكبيرة التي تلعب دوراً مهمّاً في تعديل أدمغة الحيوانات، وهي كذلك على الأرجح.

يجب أن يبدأ التطوُّر دائماً بعنصرٍ من الصدفة البحتة، ولكن ليس من المستغرب أنّه على مدى ملايين السنين من تناول الطعام بقصد الاستكشاف، يجب على جنسنا والآخرين اكتشاف النباتات ومكوّناتها ذات التأثير النفساني، وتطوير تصرُّفات تفضيليَّةٍ أو مكروهة فيما يتعلَّق بها.

من المعروف أنَّ الفيلة - وقردة البابون والحيوانات الأفريقيَّة الأخرى - تبلغ درجة الثمالة عند تناولها الفاكهة المخمَّرة من أشجار المارولا، وهناك دليلٌ على أنَّ الفيلة ستقطع مسافاتٍ كبيرةً للوصول إلى أشجار المارولا عندما تنضج ثمارها، ويبدو أنَّ الفاكهة تتخمَّر

في معدتها عندما يزداد عدد خلايا الخميرة الموجودة في الفاكهة، وتستهلك السكَّر وتفرز ثاني أوكسيد الكربون والكحول، يُحدث الكحول التأثير الممتع نفسه في أدمغة الفيلة الذي يُحدثه في أدمغتنا.

قد تكون الصفقة الأساسيَّة المبرمة بين أشجار الفاكهة والحيوانات التي تتغذَّى على الفاكهة - صفقة نشر البذور مقابل السكَّر- قد تعزَّزت من خلال شراكةٍ إضافيَّةٍ بين الخميرة وشجرة الفاكهة، وهذا من شأنه أن يخلق جاذبيَّةً إضافيَّةً تؤتي ثمارها من خلال تعزيز احتمالات التكاثر لكلٍّ من الخميرة والأشجار، أو قد تكون مجرَّد حادثٍ عارضٍ في البرِّيَّة، وعلى أيّ حال، فإنَّ نوعاً آخر، الإنسان العاقل Homo sapiens، قد أكمل الدورة، وبدأ مثل هذه الصفقة التطوُّريَّة: قمنا بتدجين الخميرة والفاكهة، ولآلاف السنين كنَّا نختار بشكلٍ مصطنع الأصناف التي تولّد التأثيرات التي نحبّها بشكلٍ أفضل.

تقدّم خلايا الخميرة خدمةً فعَّالةً من خلال الحماية والمواد الغذائيَّة، هذا يعني أنَّ مزارع الخميرة التي يتمُّ تربيتها بعنايةٍ من قبل صانعي البيرة والخبَّازين متعايشةٌ مع البشر، تماماً مثل البكتيريا الإشريكيَّة القولونيَّة التي تعيش في أمعائنا، لكن على عكس بكتيريا التعايش الداخلي، مثل Toxoplasma gondii، التي يجب أن تصل إلى أجسام كلٍّ من الجرذان والقطط، فإنَّ خلايا الخميرة هي نوعٌ من التعايش الخارجي المعتمد على الأنواع الأخرى- نحن البشر- ولكنَّها ليست مضطَّرةً لدخول أجسادنا، قد نبتلعها عن طريق الصدفة، لكنَّ إفرازاتها فقط هي التي تحتاج إلى الدخول إلينا لتزدهر، مثل الأسماك «المنظِّفة» التي تعتني بأسماكٍ أكبر.

فكّر الآن في نوعٍ مختلفٍ تماماً من الأشياء الجيّدة: المال- فعلى عكس السلع الأخرى التي درسناها- فهو يقتصر (حتَّى الآن) على نوعٍ واحد- نحن البشر- وينتقل تصميمه من خلال الثقافة، وليس الجينات.

سيكون لديَّ المزيد لأقوله عن التطوُّر الثقافي في فصولٍ لاحقة، لكن في هذه النظرة العامَّة التمهيديَّة، أودُّ أن أشير إلى بعض أوجه التشابه اللافتة للنظر بين المال والكنوز «الأكثر حيويَّة»

التي قمنا بمسحها للتو، فمثل البصر والطيران، تطوَّر المال أكثر من مرَّة، لذا فهو مرشَّح مقنعٌ لما أسميه الحيلة الجيِّدة - وهي حركةٌ في فضاء التصميم سيتمُّ «اكتشافها» بصورةٍ متكررة من خلال عمليَّات التطوُّر العمياء لمجرَّد وجود العديد من المسارات التكيفيَّة المختلفة، ومن ثمَّ المصادقة عليها (Dennett، 1995b).

لقد توصَّل الاقتصاديُّون إلى الأساس المنطقي للمال بشيءٍ من التفصيل، إذ من الواضح أنَّ المال هو أحد «الاختراعات» الأكثر فاعليَّةً لجنسنا الذكي، ولكنَّ هذا الأساس المنطقي كان غائماً حتَّى وقتٍ قريبٍ جدَّاً؛ استخدمنا المال واعتمدنا عليه وقيَّمناه، وأحياناً قُتلنا ومتنا من أجله، قبل أن يصبح الأساس المنطقيُّ لقيمة المال واضحاً في العقول بوقتٍ طويل.

المال ليس الاختراع الثقافي الوحيد الذي يفتقر إلى مخترعٍ أو مؤلِّفٍ معيَّن، لم يخترع أيُّ شخصٍ لغةً أو موسيقى أيضاً[6]، ومن المصادفة المسلِّية أنَّ مصطلحاً قديماً للمال في شكل عملةٍ ورقيَّة هو specie (من الجذر اللاتيني نفسه مثل species الأنواع)، وكما لاحظ الكثيرون فإنَّ الأساس المنطقيَّ العائم لمصطلح specie (مال باللاتينيَّة) قد ينقضي في المستقبل المنظور، ويمكن أن ينقرض في أعقاب بطاقات الائتمان وغيرها من أشكال تحويل الأموال الإلكتروني.

المال مثل الفيروس ينتقل بخفَّةٍ، ولا يحمل معه آليَّة التكاثر الخاصَّة به، بل يعتمد على مثابرته في تحريض مضيف (نحن) لعمل نسخٍ منه باستخدام آلات التكاثر باهظة الثمن الخاصَّة بنا (المطابع والطوابع والقوالب).

العملات المعدنيَّة وقطع النقود الورقيَّة تبلى بمرور الوقت، وما لم يتمَّ صنع المزيد منها واعتمادها، فقد ينقرض النظام بأكمله (يمكنك تأكيد ذلك من خلال محاولة شراء قاربٍ به كومةٌ من أصداف رعاة البقر التي كانت تستخدم كنقودٍ لدى بعض الشعوب قديماً) ولكن بما أنَّ المال هو حيلةٌ جيِّدة، فتوقَّع أن تستحوذ بعض الأنواع الأخرى من المال على المكانة التي تركها المال المغادر شاغراً.

لديَّ دافعٌ خفيٌّ آخر لجلب المال، إنَّ كلَّ السلع التي تمَّ التعرُّض لها - السكَّر، الجنس، الكحول، الموسيقى، المال- إشكاليَّة، لأنَّه في كلّ حالةٍ قد نصبح مهووسين، وتوَّاقين للحصول على المزيد من الأشياء الجيِّدة، ولكن ربَّما يكون المال أسوأهم سمعةً كشيءٍ جيِّد، فإذا كان الكحول مداناً من قبل الكثيرين - من قبل المسلمين على وجه الخصوص - ولكنَّه بالنسبة لأولئك الذين يقدّرونه- مثل الروم الكاثوليك- فإنَّ الشخص الذي يحبّه باعتدال لا يعدُّ حقيراً أو أحمقاً، لكن من المفترض أنّنا جميعاً نحتقر المال بوصفه شيئاً في حدّ ذاته، ونقيّمه كوسيلةٍ فقط.

المال هو «شيءٌ قذر»، شيءٌ يمكن الاستمتاع به فقط لما يمكن أن يقدّمه للحصول على أشياءٍ ذات قيمة أكبر، أشياء ذات قيمةٍ «جوهريَّة»، كما تقول الأغنية القديمة، بشكلٍ غير مقنعٍ تماماً: أفضل الأشياء في الحياة هي الأشياء المجَّانيَّة، فهل هذا لأنَّ المال «مصطنع»، والآخرون «طبيعيُّون»؟ غير محتمل.

هل المقطوعة الموسيقيَّة الرباعيَّة الوتريَّة أو الويسكي المصنوع من نوعٍ واحدٍ من الشعير أو تروفل الشوكولاتة[1] أقلُّ اصطناعيَّةً من العملة الذهبيَّة؟

ما يجب أن نستخلصه من هذا الموضوع في الثقافة الإنسانية هو سؤالٌ مثيرٌ للاهتمام، سأتحدَّث عنه أكثر لاحقاً، ولكن حاليَّاً يجب أن نلاحظ أنَّ المرتكز الوحيد الذي رأيناه حتَّى الآن للقيمة «الجوهريَّة»، هو قدرة شيءٍ ما على إثارة استجابةٍ تفضيليَّةٍ في الدماغ بشكلٍ مباشر؛ الألم «سيّئٌ في جوهره»، لكنَّ هذا التكافؤ السلبيَّ يعتمد على الأساس المنطقي التطوُّري بالقدر نفسه لاعتماد «الخير المتأصّل» لإشباع الجوع على هذا الأساس المنطقي.

لا شكَّ في أنَّ الوردة مهما تغيّر اسمها ستكون رائحتها جميلة، ولكن هل من الصحيح أيضاً أنَّه إذا كان البحث في جثث الفيلة المتعفّنة مفيداً لآمالنا الإنجابيَّة كما هو الحال بالنسبة

(1) التروفل: هو نوعٌ من أنواع حلويَّات الشوكولاتة، والتي تكون مصنوعةً على شكل كراتٍ صغيرةٍ ذات حشوةٍ مركزيَّةٍ من كريمة الشوكولاتة، وتكون مغطَّاة إمَّا بالشوكولاتة، أو مسحوق السكَّر، أو مسحوق الكاكاو، أو بقطعٍ من المكسرات مثل البندق أو اللوز أو جوز الهند.

للنسور، فإنَّ رائحة هذا الفيل الميت ستكون جميلةً كرائحة الوردة بالنسبة لنا؟.

يصرُّ علم الأحياء على الغوص تحت سطح القيم «الجوهريَّة» والتساؤل عن سبب وجودها، وأيُّ إجابةٍ تدعمها الحقائق ذات التأثير في إظهار أنَّ القيمة المعنيَّة تكون -أو كانت ذات مرة- مفيدةً حقًّا، وليست جوهريَّة، حتَّى لو لم نرها بهذه الطريقة.

لا يمكن أن يكون للقيمة الجوهريَّة مثل هذا التفسير بالطبع، ستكون جيّدةً فقط لأنَّها كذلك، وليس لأنَّها كانت جيّدةً لشيءٍ ما.

الفرضيَّة التي يجب مراعاتها بجدّيّةٍ إذن، هي أنَّ جميع قيمنا «الجوهريَّة» بدأت كقيمٍ وسيليَّة، والآن بعد أن انتهى الغرض الأصليُّ منها فإنَّها تظلُّ أشياء نحبّها لمجرَّد أنَّنا نحبّها، على الأقلّ في نظرنا (هذا لا يعني أنَّنا مخطئون بإعجابنا بها، بل يعني - بالتعريف - أنَّنا نحبّها من دون الحاجة إلى أيّ سببٍ خفيّ لنحبّها).

3- التساؤل: ما فائدة الدين؟

«لكن ما هي الفوائد، لماذا يريد النَّاس الدين أصلاً؟ إنَّهم يريدونه لأنَّ الدين هو المصدر الوحيد المعقول لبعض المكافآت التي عليها طلب عامٌّ لا ينضب» — رودي ستارك وروجر فينك، أعمال الإيمان

أيّاً كان الدين كظاهرةٍ بشريَّة، فهو مسعىً مكلفٌ للغاية، ويُظهِرُ علم الأحياء التطوُّري أنَّه لا شيء باهظ التكلفة يحدث بلا غاية، أيُّ إنفاقٍ منتظمٍ للوقت والطاقة يجب موازنته بشيءٍ «ذي قيمة» يتمُّ الحصول عليه، والمقياس النهائيُّ «للقيمة» التطوُّريَّة هو الملاءمة: القدرة على التكاثر بنجاحٍ أكبر من المنافسين (هذا لا يعني أنَّه يجب علينا أن نقدّر التكاثر قبل كلّ شيء، إنَّه يعني فقط أنَّه لا يوجد شيءٌ يمكن أن يتطوَّر ويستمرَّ لفترةٍ طويلةٍ في هذا العالم المتطلِّب، ما لم يحفّز بطريقةٍ ما تكاثره الخاصَّ بشكلٍ أفضل من تكاثر منافسيه).

بما أنَّ المال هو ابتكارٌ حديثٌ من منظور التَّاريخ التطوُّري، من الغريب أن نسأل ما فائدة

ميزةٍ بيولوجيَّةٍ متطوِّرةٍ أو أخرى، كما لو كانت هناك معاملاتٌ وموازناتٌ فعليَّة في مكتب محاسبة داروين، لكنَّ هذه الاستعارة على كلّ حال تجسّدُ بشكلٍ جيّدٍ التوازن الأساسيَّ للقوى الملحوظة في كلّ مكانٍ في الطبيعة، ونحن لا نعرف أيَّ استثناءاتٍ للقاعدة، لذا فإنَّ المخاطرة بالهجوم ومحاولة التخلّص من هذا الخطر بوصفه جانباً آخر من المحظورات التي يجب كسرها يجعلني أتساءل: ما فائدة الدين؟

اكره طريقة السؤال إن أردت، لكنَّ هذا لن يمنحك سبباً وجيهاً لتجاهل السؤال، أيُّ ادّعاءٍ يقول أنَّ الدين - دينك أو أيَّ دين - يتعالى فوق المحيط الحيوي، ولا يتعيَّن عليه الاستجابة لهذا المطلب هو مجرَّد ثرثرة.

قد يكون الله من يغرس لكلِّ إنسان روحاً خالدةً متعطّشةً لفرصِ عبادته، وهذا من شأنه أن يفسّر بالفعل الصفقة التي تمَّ التوصُّل إليها- مقايضة الوقت والطاقة البشريَّة بالدين- لذا فإنَّ الطريقة الوحيدة النزيهة للدفاع عن هذا الافتراض، أو أيّ شيءٍ من هذا القبيل، هي أخذ النظريَّات البديلة لاستمرار وشعبيَّة الدين في الحسبان بعدالة، واستبعادها من خلال إظهار عدم قدرتها على تفسير الظواهر الملاحظة، إلى جانب ذلك، قد ترغب في الدفاع عن الفرضيَّة القائلة بأنَّ الله قد أنشأ الكون حتَّى نتطوَّر لنملك محبَّةً لله، إذا كان الأمر كذلك، فنحن نريد أن نفهم كيف حدث هذا التطوُّر؟.

يمكن إجراء النوع نفسهِ من التحقيق الذي كشف ألغاز الحلاوة والكحول والجنس والمال على العديد من جوانب الدين، فمنذ وقتٍ ليس بالبعيد- وفق المعايير التطوُّريَّة- لم يكن هناك دينٌ على هذا الكوكب، والآن يوجد الكثير، لماذا؟

قد يكون للدين مصدرٌ تطوُّريٌّ أساسيٌّ واحد أو أكثر، أو قد يرفض التحليل التطوُّريَّ كلّيّاً، لكنَّنا لن نعرف حتَّى نبحث. هل نحن حقّاً بحاجةٍ للاستقصاء عن هذا، ألا يمكننا فقط قبول الحقيقة الواضحة بأنَّ الدين ظاهرة بشريَّة، وأنَّ البشر ثديِّيات، ومن ثمَّ نتاج تطوُّر، ثمَّ نترك الأسس البيولوجيَّة للدين عند هذا الحدّ؟

يصنع الناس أدياناً، لكنَّهم يصنعون أيضاً السيَّارات والأدب والرياضة، وبالتأكيد لسنا بحاجةٍ إلى النظر بعمقٍ في عصور ما قبل التَّاريخ البيولوجيَّة، لفهم الاختلافات بين السيَّارة السياحية والقصيدة وبطولة التنس، أليست معظم الظواهر الدينيَّة التي تحتاج إلى استقصاءٍ ثقافي واجتماعي - أيديولوجي وفلسفي ونفسي وسياسي واقتصادي وتاريخي- هي «فوق» المستوى البيولوجي بطريقةٍ ما؟

هذا افتراضٌ مألوفٌ بين الباحثين في العلوم الاجتماعيَّة والإنسانيَّة، الذين غالباً ما يعدُّونه «اختزاليَّاً» (وشكلاً سيِّئاً للغاية) حتَّى لطرح أسئلةٍ حول الأسس البيولوجيَّة لهذه الظواهر المبهجة والمهمَّة. أستطيع أن أرى بعض علماء الأنثروبولوجيا الثقافيَّة، وعلماء الاجتماع يلفُّون أعينهم بازدراء - «أوه، لا! هنا يأتي داروين مرَّةً أخرى، متَّجهاً إلى حيث لا حاجة إليه»، بينما بعض المؤرِّخين وفلاسفة الدين واللاهوتيين يسخرون من نزعة التفلسف لدى أيِّ شخصٍ يمكنه أن يسأل بشكلٍ مباشر عن الأسس التطوُّريَّة للدين.

«ماذا بعد، بحثٌ عن جين الكاثوليكيَّة؟»

عادةً ما تكون هذه الاستجابة السلبيَّة غير متوقَّعة، لكنَّها ليست حمقاء، وهي مدعومةٌ جزئيَّاً بذكرياتٍ غير سارَّة للحملات السابقة التي فشلت: غزوات ساذجةٌ وغير مدروسةٍ من قبل علماء الأحياء في أدغال التعقيد الثقافي.

هناك حالةٌ جيِّدةٌ يجب طرحها على أنَّ العلوم الاجتماعيَّة والإنسانيَّة، أو علوم العقل، لها منهجيَّاتها وموضوعاتها «المستقلَّة» الخاصَّة بها، بصرف النظر عن العلوم الطبيعيَّة، لكن على الرَّغم من كلِّ ما يمكن قوله لصالح هذه الفكرة (وسأقضي بعض الوقت في النظر في أفضل حالةٍ لها في الوقت المناسب)، فإنَّ العزلة المعرفيَّة التي تحفِّزها هذه الفكرة أصبحت عقبةً رئيسةً أمام الممارسة العلميَّة الجيِّدة، وهي حجَّةٌ ضعيفةٌ لتبرير الجهل، شمَّاعةٌ أيديولوجيَّةٌ يجب التخلُّص منها.

لدينا أسبابٌ مقنعةٌ بشكلٍ خاصّ للتحقيق في الأسس البيولوجيَّة للدين الآن، ففي بعض الأحيان – نادراً – تسوء الأديان، فتتحوَّل إلى شيءٍ مثل الجنون الجماعي أو الهستيريا، وتسبِّب ضرراً كبيراً. الآن وقد أوجدنا التكنولوجيا لتسبب كارثة عالمية، فإنَّ خطرنا يتضاعف إلى أقصى حدّ: الهوس الدينيُّ السَّامُّ يمكن أن ينهي الحضارة الإنسانيَّة بين عشيَّةٍ وضحاها، نحن بحاجةٍ إلى فهم ما الذي يجعل الأديان تعمل، حتَّى نتمكَّن من حماية أنفسنا بطريقةٍ مستنيرةٍ من الظروف التي تتعثَّر فيها الأديان.

ممَّا يتكوَّن الدين، كيف تتلاءم أجزاؤه معاً، كيف تتشابك، ما هي الآثار التي تعتمد على الأسباب، ما هي الميزات -إن وجدت- التي تحدث دائماً معاً، التي تستبعد بعضها البعض، ما الذي يشكّل صحَّة وعلم أمراض الظواهر الدينيَّة؟

يمكن معالجة هذه الأسئلة عن طريق الأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع وعلم النفس والتَّاريخ، وأيّ مجموعةٍ متنوّعةٍ أخرى من الدراسات الثقافيَّة التي تريدها، ولكن من غير المبرَّر للباحثين في هذه المجالات السَّماح للغيرة المعرفيَّة والخوف من «الإمبرياليَّة العلميَّة» بإنشاء ستارٍ حديدي أيديولوجي يمكنه أن يخفي عنهم القيود والفرص الكامنة المهمَّة.

ضع في حسبانك خلافاتنا الحاليَّة بشأن التغذية والنظام الغذائي. إنَّ فهم الأساس المنطقي لتصميم آليَّة عمل أجسامنا، والذي يدفعنا إلى الإفراط في تناول الحلويَّات والدهون هو المفتاح لإيجاد التدابير التصحيحيَّة التي ستنجح بالفعل، فلسنواتٍ عديدة، اعتقد خبراء التغذية أنَّ مفتاح الوقاية من السمنة هو ببساطة التخلُّص من الدهون في النظام الغذائي، لقد ظهر الآن أنَّ هذا النهج التبسيطيَّ في اتّباع نظامٍ غذائي يأتي بنتائجَ عكسيَّة؛ عندما تلتزم بنظامٍ غذائي منخفض الدهون بصرامة، فإنَّ هذا سيجعل جسمك يكثّف جهوده التعويضيَّة، ممَّا يؤدّي إلى الإفراط في تناول الكربوهيدرات.

ساعد التفكير التطوُّري الساذج في الماضي القريب في خلق وتفعيل موضةٍ جديدة، والتي أصبحت بعد ذلك مكتفيةً ذاتيَّاً تحت رعاية صانعي ومعلني الأطعمة قليلة الدسم.

Taubes (2001) هو تقريرٌ سلَّط الضوء على العمليَّات السياسيَّة التي خَلِقَت ومنحت الاستدام لهذا «الكتاب، الذي يبشّر بالأطعمة قليلة الدسم»، ويوفّر تحذيراً في الوقت المناسب للمشروع الذي أقترحه هنا: «إنَّها سردٌ لما يمكن أن يحدث عندما تصطدم مساعي سياسة الصحَّة العامَّة، ومساعي الجمهور، للحصول على مشورةٍ بسيطةٍ بالغموض المربك للعلم الحقيقي» (ص 2537).

حتَّى لو درسنا علم الدين بشكلٍ صحيح (لأول مرَّة)، يجب علينا أن نحافظ بشدَّةٍ على نزاهة العمليَّة التالية، وتكثيف النتائج المعقَّدة للبحث في قراراتٍ سياسيَّة، لن يكون هذا سهلاً إطلاقاً، يقول باسل ريفكيند (أحد خبراء التغذية الذين تعرَّضوا لضغوطٍ نتيجة إصدار حكمٍ سابقٍ لأوانه بشأن انخفاض الدهون في النظام الغذائي): «لقد وصلنا إلى النقطة التي يمكن أن تكون العواقب عندها وخيمة إذا لم نتَّخذ قراراً، إذا سمحت للأمريكيين بالاستمرار في استهلاك 40٪ من السعرات الحراريَّة من الدهون، ستكون لذلك عواقب وخيمة أيضاً .(p. 2541 ،2001 ،[1]Taubes)

النوايا الحسنة ليست كافية، هذا هو النوع من الحملات المضلّلة التي نريد تجنُّبها عندما نحاول تصحيح ما نعدّه تجاوزاتٍ مؤذيةً للدين، يرتدُّ المرء مرتعباً من الآثار المحتملة لمحاولة فرض «حميةٍ قاسيةٍ» مضلّلة أو أخرى على المتعطّشين للدين.

قد يكون من المغري القول بأنّنا كنَّا سنكون جميعاً أفضل حالاً لو لم يكن هناك أيُّ خبراء تغذيةٍ يعرفون كلَّ شيء، يتدخَّلون في وجباتنا الغذائيَّة منذ البداية، كنَّا سنأكل ما كان جيّداً بالنسبة لنا من خلال الاعتماد فقط على غرائزنا التي تشكَّلت عبر التطوُّر، كما تفعل الحيوانات الأخرى، لكن ببساطة هذا خطأ في حالة كلٍّ من النظام الغذائي والدين.

لقد غيَّرت الحضارة – الزراعة خصوصاً والتكنولوجيا بشكلٍ عام – ظروفنا البيئيَّة بشكلٍ كبير وسريع، مقارنةً بظروف أسلافنا الجدد، وهذا يجعل العديد من غرائزنا قديمة، ربما تزال

(1) غاري توبيس: هو صحفي واخصائي تغذية أمريكي، ولد في 30 أبريل 1956 في روتشستر في الولايات المتحدة.

بعضها ذات قيمةٍ على الرَّغم من تقادمها، ولكن من المحتمل أن تكون بعضها ضارَّةً باطِّراد.

لا يمكننا العودة إلى الجهل المبارك لماضينا الحيواني بثقة، نحن عالقون في كوننا النوع العارف، وهذا يعني أنَّه سيتعيَّن علينا أن نستخدام معرفتنا على أفضل وجهٍ لتعديل سياساتنا وممارساتنا لتتوافق مع ضروراتنا البيولوجيَّة.

4- قائمة سكان المريخ للنظريَّات:

«لو كنت أنت الله، هل كنت لتخترع الضحك؟» - كريستوفر فراي، السيدة ليست للحرق

قد نكون قريبين جدًّاً من الدين بحيث لا نتمكَّن من رؤيته بوضوحٍ في البداية، كان هذا موضوعاً مألوفاً بين الفنَّانين والفلاسفة لسنوات، تتمثَّل إحدى مهامهم التي وضعوها لأنفسهم في «جعل الأشياء المألوفة غريبة».

بعض التجديفات العظيمة للعبقريَّة الإبداعيَّة تدفعنا إلى اختراق قشرة الألفة المفرطة، والنظر إلى الأشياء العادية والواضحة بعيونٍ جديدة.

لا يمكن أن يتَّفق العلماء أكثر من ذلك، كانت اللحظة الأسطوريَّة للسير إسحاق نيوتن حين سأل نفسه السؤال الغريب حول سبب سقوط التفَّاحة من الشجرة («حسناً، لماذا لا؟» يسأل الإنسان البسيط: «إنَّها ثقيلة!» كما لو كان هذا تفسيراً مرضياً)، وقد طرح ألبرت أينشتاين سؤالاً غريباً مشابهاً: الجميع يعرف ماذا تعني كلمة «الآن»، لكنَّ أينشتاين سأل ما إذا كنت أعني نفس الشيء بكلمة «الآن» عندما نفترق عن بعضنا البعض بسرعةٍ تقارب سرعة الضوء.

يحتوي علم الأحياء أيضاً على بعض الأسئلة الغريبة: «لماذا لا تُرضِعُ ذكور الحيوانات؟» يسأل عالم الأحياء التطوُّريُّ العظيم الراحل جون ماينارد سميث (1977)، محاولاً إيقاظنا

بقوّةٍ من سباتنا العقائدي لمواجهة احتمالٍ غريب.

«لماذا ترمش كلتا العينين في وقتٍ واحد؟» يسأل عالم أحياء تطوّريّ عظيمٍ آخر، جورج ويليامز (1992).

أسئلةٌ جيّدةٌ لم يُردّ عليها من قبل علم الأحياء، وهنا المزيد: لماذا نضحك عندما يحدث شيءٌ مضحك؟ قد نعتقد أنّه من الواضح أنّ الضحك (على عكس خدش أذن المرء أو التجشؤ) هو الاستجابة المناسبة للفكاهة، ولكن لماذا هو كذلك، لماذا بعض الأشكال الأنثويّة مثيرة، وبعضها الآخر ليس كذلك، أليس هذا واضحاً؟ فقط انظر إليهم، لكن هذه ليست نهاية الأمر. إنّ الانضباط والتنميط في ردودنا على العالم تضمن بشكلٍ تافه أنّها جزءٌ من «الطبيعة البشريّة»، لكن يظلّ السؤال لماذا؟ من الغريب أنّ هذه هي سمة الأسئلة التطوّريّة التي كثيراً ما يُنظَرُ إليها بنفورٍ عميق من قبل الفنّانين والفلاسفة.

قال الفيلسوف لودفيج فيتجنشتاين[1]: إنّ التفسير يجب أن يتوقّف في مكانٍ ما، لكنّ هذه الحقيقة التي لا يمكن إنكارها تضلّلنا إذا كانت تثنينا عن طرح مثل هذه الأسئلة، وتنهي فضولنا قبل الأوان.

لماذا الموسيقى موجودةٌ على سبيل المثال؟ «لأنّها طبيعيّة!» يأتي الردُّ اليومي المطمئن، لكنّ العلم لا يأخذ شيئاً طبيعيّاً كأمرٍ مسلّمٍ به.

يكرّس الناس في جميع أنحاء العالم ساعاتٍ طويلة - غالباً حياتهم المهنيّة - لتأليف الموسيقى والاستماع إليها والرقص على أنغامها، لماذا، من المستفيد، لماذا الموسيقى موجودة، لماذا يوجد الدين؟

القول بأنّ هذا طبيعي هو فقط بداية الإجابة وليس النهاية، أعطت المؤلّفة المتوحّدة الرائعة وخبيرة الحيوانات تمبل غراندين[2] لطبيب الأعصاب أوليفر ساكس عنواناً رائعاً لإحدى

(1) Ludwig Wittgenstein

(2) ميل غراندين: هي أستاذةٌ في علم الحيوان في جامعة ولاية كولورادو، ومؤلّفة للكتاب الأكثر مبيعاً،

مجموعاته من دراسات الحالة لكائناتٍ بشريَّةٍ غير عاديَّة: (عالم أنثروبولوجيا من المريخ) (1995). قالت غراندين لساكس: إنَّ هذا ما شعرت به عند التعامل مع أشخاصٍ آخرين هنا على الأرض، عادةً ما يكون هذا الاغتراب عائقاً، لكنَّ الابتعاد عن العالم العادي يساعدنا في تركيز انتباهنا على ما هو واضحٌ جدّاً بحيث لا يمكن ملاحظته، وسيساعدنا إذا وضعنا أنفسنا مؤقَّتاً في مكان كائن مرّيخي هو أحد أعضاء فريقٍ من المحقّقين الفضائيين، الذين يمكن تخيّل أنّهم ليسوا على درايةٍ بالظواهر التي يرصدونها هنا على كوكب الأرض.

ما يرونه اليوم هو عدد سكّانٍ يزيد عن ستَّة مليارات شخص، يكرّس جميعهم تقريباً جزءاً كبيراً من وقتهم وطاقتهم لنوعٍ من النشاط الديني: طقوسٌ مثل الصلاة اليوميَّة (العامَّة والخاصَّة)، أو الحضور المتكرر للاحتفالات، والتضحيات المكلفة أيضاً، عدم العمل في أيّامٍ معيَّنة بصرف النظر عن الأزمة التي تلوح في الأفق، والتي تحتاج إلى عنايةٍ فوريَّة، والتدمير المتعمَّد للممتلكات القيّمة في الاحتفالات الفخمة، والمساهمة في دعم المارسين المتخصّصين داخل المجتمع، وصيانة المباني المتقنة، والالتزام بمجموعةٍ من المحظورات والمتطلَّبات التي يتمُّ التقيُّد بها بشدَّة، بما في ذلك عدم تناول أطعمة معيَّنة، وارتداء الحجاب، والإساءة إلى سلوكيَّاتٍ غير ضارَّة على ما يبدو في الآخرين، وما إلى ذلك.

ليس لدى المريّخيين أدنى شكٍّ في أنَّ كلَّ هذا كان «طبيعيَّاً» بمعنىً واحد، فهم يلاحظونه في كلّ مكانٍ تقريباً في الطبيعة، في نوعٍ واحد من الكائنات الناطقة ذوات القدمين، ومثل الظواهر الأخرى في الطبيعة، فهي تُظهر تنوُّعاً مذهلاً وقواسمَ مشتركةً مذهلة، وتصميماً بارعاً ساحراً (إيقاعيَّاً، شعريَّاً، معماريَّاً، اجتماعيَّاً...إلخ)، ومع ذلك فهي غامضةٌ محيّرة؛ من أين أتى كلُّ هذا التصميم، وما الذي يدعمه؟ بالإضافة إلى كلّ الوقت والجهد المبذول في الوقت الحالي، فإنَّ كلَّ أعمال التصميم والبحث والتطوير الضمنيَّة التي سبقته مكلفةٌ أيضاً.

واستشاريَّةٌ في سلوك الحيوانات في مجال المواشي. اشتهرت غراندين التي تعاني من التوحّد ذي الأداء الوظيفي العالي من خلال نشاطاتها من أجل مرض التوحّد، واختراعها لآلة العناق المصمَّمة للأشخاص ذوي الحساسيَّة المفرطة.

يمكن للمرّيخيين ملاحظة بعض أعمال البحث والتطوير مباشرةً: المناقشات بين القادة الدينيين حول ما إذا كان سيتمُّ التخلّي عن عناصر محرجةٍ من معتقداتهم، وقرارات لجان البناء بقبول اقتراحٍ معماريٍ ناجحٍ لمعبدٍ جديد، وتلحين أناشيدَ جديدة، وكتابة اللاهوتيين خطباً ومواعظَ دينيَّة، اجتماع المبشّرين الإنجيليين عبر التلفاز مع وكالات الإعلان والمستشارين الآخرين للتخطيط لموسم بثٍّ جديد.

في العالم المتقدّم، بالإضافة إلى الوقت والطاقة اللذين يُنفَقَان في ممارسة الشعائر الدينيَّة، هناك مشروعٌ ضخمٌ للنقد والدفاع والتفسير والمقارنة العامَّة والخاصَّة لكلِّ جانبٍ من جوانب الدين، وإذا ركّز المرّيخيُّون على هذا فقط، سيتولَّد لديهم انطباعٌ بأنَّ الدين -مثل العلم أو الموسيقى أو الرياضة الاحترافيَّة- يتكوَّن من أنظمةٍ للنشاط الاجتماعي تمَّ تصميمها وإعادة تصميمها بواسطة فاعلين واعين متأنّين، وعلى درايةٍ بغايات وأغراض المؤسَّسات والمشكلات التي تحتاج إلى حلّ، والمخاطر والتكاليف والفوائد.

تمَّ إنشاء وتصميم الرابطة الوطنيَّة لكرة القدم من قبل أفرادٍ معروفين لتحقيق مجموعةٍ من الأغراض البشريَّة، وكذلك البنك الدولي. تظهر هذه المؤسَّسات دليلاً واضحاً على التصميم، لكنَّها ليست «مثاليَّة»؛ يرتكب النَّاس أخطاءً، ويتمُّ تحديد الأخطاء وتصحيحها بمرور الوقت، وعندما تكون هناك خلافات جوهريَّة بين مَن هم في موقع السلطة والمسؤوليَّة للحفاظ على مثل هذا النظام، يتمُّ البحث عن حلول وسط، وغالباً ما يتمُّ تحقيقها.

تقع بعض أعمال البحث والتطوير التي شكّلت وما تزال تشكّل الدين ضمن هذه الفئة، ستكون الحالة المتطرّفة-السيانتولوجيا[1]- والتي هي دينٌ كامل، هو بلا شكّ من بنات أفكار مؤلّفٍ واحد، L. Ron Hubbard، على الرَّغمِ من أنَّه استعار بالطبع عناصر أثبتت نفسها في الأديان القائمة.

(1) السيانتولوجيا: هو نظامٌ دينيٌّ يقوم على البحث عن معرفة الذات والوفاء الروحي، من خلال دوراتٍ دراسيَّةٍ وتدريبيَّةٍ متدرّجة. أسَّسها كاتب الخيال العلمي الأمريكي إل رون هوبارد (1986-1911) في عام 1955

من ناحيةٍ أخرى، ليس هناك شكٌّ في أنَّ الأديان الشعبيَّة أو الأديان القبليَّة التي تتكافئ من حيث التعقيد والتصميم، والموجودة في جميع أنحاء العالم، لم تخضع أبداً من قبل ممارسيها لأيّ عمليّات مراجعةٍ من قِبَل «مجلس مراجعة التصميم» الذي يمثّلها مجلس ترينت أو الفاتيكان الثاني.

مثل الموسيقى والفنون الشعبيَّة، اكتسبت هذه الأديان خصائصها الجماليَّة، وميزات التصميم الأخرى من خلال نظام تأثيرات أقلّ وعياً بالذات، ومهما تكون هذه التأثيرات أو كانت، فإنَّها تُظهر قواسمَ مشتركةً وأنماطاً عميقة، لكن ما مدى عمقها، هل هي بعمق الجينات، هل توجد «جيناتٌ» لأوجه الشبه بين الأديان حول العالم، أم أنَّ الأنماط الأكثر أهميَّةً هي جغرافيَّةٌ أو بيئيَّة أكثر منها وراثيَّة؟

لا يحتاج المرّيخيُّون إلى استدعاء الجينات لشرح سبب عدم ارتداء النَّاس في المناخات الاستوائيَّة معاطف الفرو، أو لماذا تكون المراكب المائيَّة في جميع أنحاء العالم متطاولةً ومتناظرةً حول المحور الطويل (بصرف النظر عن الجندول الفينيسي، وعددٍ قليل من الحرف المتخصّصة الأخرى).

بعد أن أتقن المرّيخيُّون لغات العالم، سيلاحظون قريباً أنَّ هناك تبايناً كبيراً في التطوُّر بين بناة القوارب حول العالم، ويمكن لبعضهم تقديم تفسيراتٍ واضحة ودقيقة للسبب وراء إصرارهم على أن تكون سفنهم متناظرة، وهو أمرٌ يعرفه أيُّ مهندسٍ بحري يحمل درجة الدكتوراه.

في الهندسة، سيكون لدى الآخرين إجابةٌ أبسط: نحن نبني القوارب بهذه الطريقة، لأنَّ هذه هي الطريقة التي بنيناها بها دائماً، إنَّهم ينسخون التصاميم التي تعلّموها من آبائهم وأجدادهم، الذين فعلوا الشيء نفسه في أيّامهم.

سيلاحظ المرّيخيُّون أنَّ هذا النسخ الطائش هو إلى حدٍّ ما موازٍ مغرٍ لوسيلة النقل الأخرى التي حدَّدوها (الجينات)، إذا كان بناة القوارب أو الخزَّافون أو المغنون معتادين على نسخ

التصاميم القديمة «دينيّاً»، فقد يحتفظون بميزات التصميم على مدى مئاتٍ أو حتّى آلاف السنين.

النسخ البشريُّ متغيّر، لذلك غالباً ما تظهر اختلافاتٌ طفيفةٌ في النسخ، وعلى الرَّغم من أنَّ معظم هذه النسخ تختفي على الفور، نظراً لأنَّها تعدُّ معيبةً، أو «بضائعَ من الدرجة الثانية»، أو غير مرغوبةٍ لدى العملاء على أيّ حال، بين الحين والآخر سيولّد الاختلاف سلالةً جديدة، بمعنىً ما؛ تحسينٌ أو ابتكارٌ يكون له «مكانةٌ في السوق»، ومن دون أن يدرك أيُّ شخصٍ ذلك، أو يقصده، فإنَّ هذه العمليَّة الطائشة نسبيّاً على مدى فتراتٍ طويلة من الزمن يمكن أن ترتقي بالتصاميم إلى درجةٍ رائعة، ممَّا يؤدّي إلى جعلها مثاليَّةً للظروف المحلّيَّة.

يمكن للتصميم المنقول ثقافيّاً بهذه الطريقة، أن يكون له أساسٌ منطقيٌّ عائمٌ تماماً، بالطريقة نفسها التي يعمل بها التصميم المنقول وراثيّاً؛ لم تعد هناك حاجة لأن يفهم صانعو القوارب وأصحابها الأسباب التي تجعل قواربهم متناسقة، كما لا يحتاج الدّبُّ الذي يأكل الفاكهة لفهم دوره في تكاثر أشجار التفّاح البريَّة عندما يتغوَّط في الغابة.

هنا لدينا تصميمٌ لنتاجٍ بشري- منقولٍ ثقافيّاً، وليس وراثيّاً - من دون مصمّمٍ معروف، ومن دون مؤلّفٍ أو مخترعٍ أو حتّى محرّرٍ أو ناقدٍ مطّلع، وفي علم الوراثة يسمَّى ذلك: التكاثر التفاضلي؛ عندما يتمُّ عمل نسخٍ مع بعض الفروقات، وتكون بعض هذه الفروقات «أفضل» بشكلٍ طفيف (لكنَّها أفضل بما يكفي لعمل المزيد من النسخ منها في الدفعة التالية)، سيؤدّي ذلك إلى عمليَّة تصعيدٍ في تحسين التصميم من دون تراجع، والتي يطلق عليها داروين التطوُّر عن طريق الانتقاء الطبيعي، لذا فإنَّ ما يتمُّ نسخه لا يجب أن يكون جينات، بل يمكن أن يكون أيّ شيءٍ إطلاقاً يلبّي المتطلّبات الأساسيَّة للخوارزميَّة الداروينيَّة.

أعطى ريتشارد دوكينز (1976) تسميةً لمفهوم المكرَّرات الثقافيَّة (أي العناصر التي يتم نسخها بصورةٍ متكررة)، حيث اقترح تسميتها بالميمات، وهو المصطلح الذي كان مؤخّراً محور الجدل.

في الوقت الحالي، أريد أن أوضّح نقطةً لا جدال فيها: يمكن أن يحاكي الانتقال الثقافيُّ أحياناً الانتقال الجيني، ممَّا يسمح بنسخ الأشكال المختلفة المتنافسة بمعدَّلاتٍ مختلفة، ممَّا يؤدّي إلى تنقيحاتٍ تدريجيَّةٍ في سمات تلك العناصر الثقافيَّة، وهذه المراجعات هي نتاج مؤلِّفين ليس لديهم بعد نظر، ولم يتعمَّدوا القيام بها.

الأمثلة الأكثر وضوحاً والأكثر بحثاً هي اللغات الطبيعيَّة، اللغات الرومانسيَّة- الفرنسيَّة والإيطاليَّة والإسبانيَّة والبرتغاليَّة، وعددٌ قليلٌ من اللهجات الأخرى - تنحدر جميعها من اللاتينيَّة، مع الحفاظ على العديد من الميزات الأساسيَّة، في حين قامت بإعادة النظر بخصائص أخرى.

هل هذه المراجعات تعديلات؛ أي هل هي بأيّ شكلٍ من الأشكال تحسيناتٌ على أسلافها اللاتينيين في بيئاتها؟

هناك الكثير ممَّا يمكن قوله حول هذا الموضوع، وتميل الغايات «الواضحة» إلى أن تكون مبسَّطةً وخاطئة، ولكن على الأقلّ هذا واضح جدَّاً: بمجرَّد أن يبدأ التحوُّل في الظهورِ في منطقةٍ واحدة، يجب أن يتماشى السكَّان المحليُّون معه عموماً إذا أرادوا أن يفهموا؛ عندما تكون في روما، تحدَّث كما يفعل الرومان، أو سيتمُّ تجاهلك أو إساءة فهمك، وهكذا فإنَّ الخصوصيَّات في النطق والتعابير العاميَّة وغيرها من المستجدَّات، سترسَّخ -كما يقول عالم الوراثة- في لغةٍ محليَّة، ولا شيء من هذا وراثي، فما يتمُّ نسخه هو طريقةٌ لقول شيء، سلوكٍ أو روتين.

التحوُّلات التدريجيَّة التي حوَّلت اللاتينيَّة إلى الفرنسيَّة والبرتغاليَّة واللغات الأخرى المشتقَّة عنها، لم تكن مقصودةً أو مخطَّطةً أو متوقَّعةً أو مرغوبةً أو مطلوبةً من قبل أيّ شخص.

في مناسباتٍ نادرة، ربَّما يصبح نطقٌ غريبٌ من قبل شخص محلّي مشهور لكلمة أو صوت شائع، بدعةً تحوَّلت في النهاية إلى كليشيه، ثمَّ إلى جزءٍ ثابتٍ من اللغة المحليَّة، وفي هذه الحالات يمكننا تحديد «أصل» أو «فصل» جذر شجرة عائلة تلك الميزة، وفي حالاتٍ

نادرة، قد يشرع الأفراد في ابتكار كلمةٍ أو لفظ، وينجحون بالفعل في صياغة شيءٍ يدخل اللغة في النهاية، ولكن عموماً، فإنَّ التغييرات التي تتراكم ليس لها مؤلّفٌ بشريٌّ بارز متعمَّد.

غالباً ما يتمُّ تكييف الفن والموسيقى الشعبيَّة والطبّ الشعبي ومنتجاتٍ أخرى من هذه العمليّات الشعبيَّة، ببراعةٍ مع أغراض متقدّمةٍ ومحدَّدة تماماً، ولكن مهما كانت ثمار التطوُّر الثقافي رائعة، يجب أن نقاوم الإغراء القويَّ لافتراض نوعٍ من الأسطوريَّة العبقريَّة الشعبيَّة، أو صوفيَّة الوعي المشترك لتفسيرها.

غالباً ما تدين هذه التصميمات الممتازة ببعض ميزاتها للتحسينات المتعمَّدة من قبل الأفراد على طول الطريق، ولكن يمكن أن تنشأ عن طريق النوع نفسه تماماً من عمليَّة الغربلة والتكرار العمياء، والميكانيكيَّة الرائعة التي أنتجت تصميماً رائعاً للكائنات الحيَّة بواسطة الاصطفاء الطبيعي، وفي كلتا الحالتين يكون «الحكم» قاسياً وصارماً وعديم الخيال.

الطبيعة الأم هي محاسبٌ مبتدئٌ يهتمُّ فقط بالمكافأة الفوريَّة من حيث التكرار التفاضلي، ممَّا يقلّل من السَّماح للمرشَّحين الواعدين الذين لا يستطيعون مواكبة المنافسة المعاصرة.

في الواقع، فإنَّ المغنّي الذي لا يملك أذناً موسيقيَّة، وكثير النسيان، ولا يستطيع الغناء بأسلوبٍ صحيح، وينسى كلَّ أغنيةٍ يسمعها تقريباً، ولكن يمكنه تذكّر هذه الأغنية الوحيدة التي لا تنسى، يساهم كمراقب جودةٍ في العمليَّة الشعبيَّة «من خلال تكرار هذه الموسيقى الكلاسيكيَّة على حساب جميع الأغاني المتنافسة» مثل مؤلّفي الموسيقا الشعبيَّة الأكثر موهبة.

الكلمات موجودة، ممَّا تصنع، هواء مضغوط، حبر؟ بعض الأمثلة على كلمة «قطَّة» مكتوبةٌ بالحبر، منطوقةٌ، ومطبوعةٌ على شاشة الكمبيوتر، أو مجرَّدةٌ في الذهن، والقاسم المشترك بينها أنَّها تعدُّ «نفس الشيء» في نظامٍ من الرموز يعرف باسم اللغة (رموزٌ من النوع نفسه، كما نقول نحن الفلاسفة).

الكلمات هي عناصر مألوفةٌ في عالمنا الغارق في اللغة، لدرجة أنَّنا نميل إلى التفكير فيها كما لو كانت أشياء ملموسةً بشكلٍ غير مشكوكٍ فيه - حقيقيَّة مثل فناجين الشاي وقطرات

المطر – لكنَّها في الواقع مجرَّدةٌ تماماً، وحتَّى أكثر تجريديَّةً من الأصوات أو الأغاني أو قصَّات الشعر أو الفرص (وممَّا هي مصنوعة؟) ما هي الكلمات؟

الكلمات هي في الأساس حزم معلوماتٍ من نوعٍ ما، وصفاتٌ لاستخدام الأجهزة الصوتيَّة والأذنين (أو اليدين والعينين) –والعقول – بطرقٍ محدَّدة، الكلمة هي أكثر من مجرَّد صوتٍ أو تهجئة، فعلى سبيل المثال، كلمة Fast تبدو متشابهةً من حيث النطق والتهجئة باللغتين الإنجليزيَّة والألمانيَّة، ولكنَّ لها معانٍ وأدواراً مختلفةً تماماً في اللغتين، كلمتان مختلفتان تشتركان فقط في بعض خصائصهما الظاهريَّة.

الكلمات موجودة، فهل الميمات موجودة؟

نعم، لأنَّ الكلمات موجودة، والكلمات عبارةٌ عن ميمات يمكن نطقها، الميمات الأخرى هي الشيء نفسه – حزم معلوماتٍ أو وصفاتٌ لفعل شيءٍ آخر غير النطق – سلوكيَّات، مثل المصافحة أو القيام بإيماءةٍ وقحةٍ معيّنة، أو نزع حذائك عند دخولك إلى المنزل، أو القيادة إلى اليمين، أو جعل قواربك متناسقة، ويمكن وصف هذه السلوكيَّات وتعليمها بشكلٍ صريح، لكن ليس بالضرورة أن تكون كذلك؛ يمكن للنَّاس فقط تقليد السلوكيَّات التي يرون الآخرين يؤدُّونها، ويمكن أن تنتشر الاختلافات في النطق، وكذلك الاختلافات في طرق الطهي والغسيل وزراعة المحاصيل.

هناك مشكلاتٌ مزعجة حول ماهيَّة حدود الميم meme[1] – هل ارتداء قبَّعة بيسبول للخلف هو ميم واحد أم اثنان (ترتدي قبَّعة، وتضعها في الخلف)؟ – ولكن تظهر مشكلاتٌ مماثلة في حدود الكلمات – هل يجب أن نعدَّ «copping out» كلمةً واحدةً أم كلمتين؟ وكذلك بالنسبة للجينات.

الشروط الحدّيَّة واضحةٌ للجزيئات المفردة من الحمض النووي، أو الأجزاء المكوّنة لها مثل النيوكليوتيدات أو الكودونات (ثلاثيَّة من النيوكليوتيدات، مثل AGC أو AGA)،

(1) عنصرٌ من ثقافة أو نظام سلوكٍ يمكن عدُّه متنقّلاً من فردٍ إلى آخر بوسائل غير جينيَّة، وخاصَّةً التقليد.

لكنَّ الجينات لا تصطفُّ بسلاسةٍ ضمن هذه الحدود، تنقسم أحياناً إلى عدَّة قطعٍ منفصلة، والأسباب التي تدعو علماء الأحياء إلى تسمية السلاسل المنفصلة من الكودونات بأجزاءٍ من جينٍ واحد بدلاً من جينين، هي إلى حدٍّ كبير الأسباب نفسها التي تجعل اللغويين يعرّفون بعض التراكيب اللغويَّة كمصطلحاتٍ بارزة، وليست مجرَّد عباراتٍ فعليَّة مكوَّنة من عدَّة كلمات.

تثير مثل هذه الأجزاء المربوطة معاً مشكلات ليست مستعصية على الحل، ولكنها ليست واضحة أيضاً، لأي شخص يحاول عد الجينات. وما يتم نسخه ونقله، في حالة كلٍّ من الميمات والجينات، هي المعلومات.

سيكون لديَّ المزيد لأقوله عن الميمات في فصولٍ لاحقة، وبما أنَّ المتحمّسين بشدَّةٍ للميمات والكارهين بشدَّة لها جعلوا الموضوع مشكلةً ساخنةً لكثيرٍ من النَّاس، فأنا بحاجةٍ إلى حماية نسخةٍ رصينةٍ (نسبيّاً) من المفهوم من بعض أصدقائها وأعدائها، ومع ذلك لا يحتاج الجميع إلى المشاركة في ممارسة النظافة المفاهيميَّة هذه، لذا فقد أعدت طبع مقدّمتي الأساسيَّة حول الميمات - «The New Replicators» موسوعة التطوُّر التي نشرتها مطبعة جامعة أكسفورد في عام 2002 – الملحق(أ) في نهاية هذا الكتاب.

السبب الرئيس لأخذ الميمات على محمل الجدّ، هو أنَّها تسمح لنا بإلقاء نظرةٍ على «من المستفيد؟» السؤال عن كلّ سمةٍ مصمَّمة للدين دون الحكم مسبقاً على مسألة ما إذا كنَّا نتحدَّث عن التطوُّر الجيني أو الثقافي، وما إذا كان الأساس المنطقيُّ لميزة التصميم عائماً أو منطقاً صريحاً لشخصٍ ما.

هذا يوسّع مساحة النظريَّات التطوُّريَّة المحتملة، ويفتح المجال لنا للنظر في عمليَّاتٍ متعدّدة المستويات ومختلطة، ويبعدنا عن الأفكار المبسَّطة لـ «جينات الدين» من جهة، وللمؤامرة الكهنة» من جهةٍ أخرى، ويسمح لنا أن ننظر في حساباتٍ أكثر إثارةً للاهتمام (وأكثر احتماليَّة) حول كيف ولماذا تتطوَّر الأديان؟

النظريَّة التطوُّريَّة ليست مجرَّد خدعةٍ واحدة، وعندما يبدأ المرّيخيُّون بوضع نظريَّاتٍ حول الدين الأرضي، يكون لديهم الكثير من الخيارات لاستكشافها، والتي سأقوم برسمها بسرعة- في الإصدارات المتطرّفة- فقط لإعطاء إحساسٍ بالمجالات التي يجب استكشافها بعنايةٍ أكبر في فصولٍ لاحقة.

نظريَّات الأسنان الحلوة (محبّو السكَّر):

أولاً، ضع في حسبانك مجموعةً متنوّعةً من الأشياء التي نحبُّ أن نبتلعها أو ندخلها في أجسامنا: السكَّر، والدهون، والكحول، والكافيين، والشوكولاتة، والنيكوتين، والماريجوانا، والأفيون كبداية.

في كلّ حالة، يوجد نظام مستقبلاتٍ متطوِّرٍ في الجسم مصمَّم لاكتشاف العناصر (سواءً تمَّ تناولها أو تكوينها داخل الجسم، مثل الإندورفين أو نظائر المورفين التي يتمُّ إنشاؤها داخليّاً) التي تمتلكها هذه المواد المفضَّلة بتركيزٍ عالٍ.

على مرّ العصور قام الجنس البشري بالتنقيب، وأخذ العيّنات من كلّ شيءٍ تقريباً في البيئة، وبعد آلاف السنين من التجربة والخطأ، تمكَّن من اكتشاف طرقٍ لجمع وتركيز هذه المواد الخاصَّة، حتَّى نتمكَّن من استخدامها لتحفيز أنظمتنا الفطريَّة بشكلٍ مبالغٍ به.

قد يتساءل المرّيخيُّون عمَّا إذا كانت هناك أيضاً أنظمةٌ مطوَّرةٌ وراثيّاً في أجسامنا مصمَّمة للاستجابة لشيءٍ توفّره الأديان بشكلٍ مكثَّف، يعتقد الكثيرون بذلك.

ربَّما كان كارل ماركس على حقّ أكثر ممَّا كان يعرف عندما أطلق على الدين اسم أفيون الشعوب، هل يمكن أن يكون لدينا «مركز إله» في أدمغتنا جنباً إلى جنب مع حبّنا للسكَّر، من أجل ماذا، ماذا ستستفيد؟

على حدِّ تعبير ريتشارد دوكينز: «إذا وجد علماء الأعصاب» مركزاً للإله «في الدماغ، فإنَّ العلماء الداروينيين مثلي يريدون معرفة سبب تطوُّر مركز الإله، والسؤال الذي يطرح نفسه

هنا: لماذا نجا أسلافنا الذين لديهم ميلٌ وراثيٌّ لتنمية مركز إله، وعاشوا بشكلٍ أفضل من منافسيهم الذين لم يفعلوا ذلك؟ « (2004 ب، ص 14).

إذا كان أيُّ تقريرٍ تطوُّريٍ من هذا القبيل صحيحاً، فإنَّ أولئك الذين لديهم مركز إله لم يعيشوا فقط بشكلٍ أفضل من الذين ليس لديهم، بل كانوا ميَّالين لإنجاب المزيد من النسل، لكن يجب علينا أن نضع جانباً المفارقة التَّاريخيَّة التي ينطوي عليها التفكير في هذا النظام الفطري المفترض بوصفه «مركزَ إله»، نظراً لأنَّ هدفه الأصلي ربَّما كان مختلفاً تماماً عن الأشياء القويَّة التي تثيرنا اليوم - ليس لدينا مركز آيس كريم شوكولاتة غريزيٌّ في المخ، أو مركز نيكوتين- قد يكون الله أحدث وأقوى الحلويَّات التي تثير مركز whatsis[1] لدى الكثير من النَّاس.

ما الفائدة التي تعود على أولئك الذين أشبعوا توقهم للـ Whatsis؟ ربَّما ليس هناك أيُّ هدفٍ حقيقي في العالم يمكن الحصول عليه، ولكن مجرَّد هدفٍ وهميٍ أو افتراضي.

في الواقع لقد كان الهدف الجديد بالاهتمام هو السعي، وليس النتيجة، وعلى أيّ حال، إذا أصبحت الحاجة إلى هذا الكنز مجهول الهويَّة، أو تذوّقه على الأقلّ جزءاً من الطبيعة البشريَّة المنقولة وراثيَّاً، فإنَّنا نتلاعب به على مسؤوليَّتنا.

تثير النظريَّات في هذه العائلة بعض الاحتمالات المثيرة للاهتمام: يحفّز كلٌّ من السكَّر والسكَّرين نظام الأسنان الحلوة لدينا.

هل هناك بدائلٌ دينيَّة يمكن إيجادها أو ابتكارها من قبل علماء نفسٍ أذكياء، أو هل الأديان نفسها هي نوعٌ من السكَّرين بالنسبة للدماغ، أقلُّ امتلاءً أو إرهاقاً أو سمّيَّةً من الهدف الأصلي، والذي قد يكون ضارَّاً، هل الدين نفسه نوعٌ فرعيٌّ من الطبّ الشعبي، حيث نعالج به أنفسنا من أجل الراحة، باستخدام علاجاتٍ شحذتها آلاف السنين من تطوير التجارب والخطأ، هل هناك تباينٌ جينيٌّ في الحساسية الدينيَّة، مثل الاختلاف الجيني الهائل المكتشفِ

(1) تستخدم للإشارة إلى شيءٍ لا يمكن للمرء أن يتذكَّر اسمه أو لا يعرفه أو لا يرغب في تحديد اسمه.

حديثاً بين البشر في حاسَّتي الذوق والشم؟ فالبشر الذين لا يستطيعون تقبُّل الكزبرة لديهم جينٌ لمستقبلٍ شمّي لا يمتلكه عشّاق الكزبرة؛ مذاق الكزبرة «كمذاق الصابون بالنسبة لنا».

تكهَّن ويليام جيمس قبل مائة عام بأنَّ لديه حاجةً ماسَّةً للدين، ولكنَّها قد لا تكون موجودةً لدى الجميع، «سمّي ذلك، إن شئت، جرثومة الصوفيَّة، إنَّها جرثومةٌ شائعةٌ جدّاً، وهي تخلق مرتبة وتصنيف المؤمنين، وكما أنَّها تصمد في الحالتين، فإنَّها ستصمد في معظم الحالات، كلّ الانتقادات الإلحاديَّة البحتة «(رسالة إلى لوبا، مقتبسةٌ من مقدمة جيمس، 1902، ص 24).

قد تكون جرثومة جيمس الغامضة في الواقع جيناً صوفيّاً، أو قد تكون- كما قال- جرثومةً صوفيَّة، شيءٌ ما ينتقل من شخصٍ لآخر ليس «عموديّاً» (عن طريق النسب من الوالدين) ولكن «أفقيّاً» عن طريق العدوى.

نظريَّات التكافل: قد تتحوَّل الأديان إلى أنواعٍ من المتعايشات الثقافيَّة التي تنجح في الازدهار من خلال الانتقال من مضيفٍ بشري إلى آخر، قد تكون متقايضة - تعزّز لياقة الإنسان، وتجعل حياته ممكنة تماماً كما تفعل البكتيريا الموجودة في أمعائنا، أو قد تكون متعايشات - محايدة؛ أي أنَّها ليست بنافعةٍ ولا ضارَّة دوماً، أو قد تكون طفيليَّات: مكررات ضارَّة سنكون أفضل حالاً من دونها - على الأقلّ فيما يتعلَّق بمصالحنا الجينيَّة- ولكن يصعب القضاء عليها، لأنَّها تطوَّرت جيّداً لمواجهة دفاعاتنا وعزَّزت انتشارها.

يمكننا أن نتوقَّع أنَّ الطفيليَّات الثقافيَّة، مثل الطفيليَّات الميكروبيَّة، تستغلُّ أيَّ أنظمةٍ موجودةٍ مسبقاً.

منعكس العطس، على سبيل المثال، هو في المقام الأول تكيّفٌ لتخليص الممرَّات الأنفيَّة من المهيّجات الأجنبيَّة، ولكن عندما تثير الجرثومة العطس، فعادةً لا يكون العاطس هو المستفيد الرئيس، بل الجرثومة، حيث تحصل على طاقة انطلاقٍ عاليةٍ في الجوار، حيث يمكن للمضيفين المحتملين الآخرين أن يلتقطوها.

قد يستخدم نشر الجراثيم والميات آليّاتٍ متماثلة، مثل المحفّزات التي لا تقاوم لنقل القصص أو عناصر أخرى من المعلومات إلى الآخرين، معزّزةً بالتقاليد التي تزيد من طول وكثافة وتكرار اللقاءات مع الأشخاص المحتملين كمضيفين.

عندما ننظر إلى الدين من هذا المنظور، مَنْ المستفيد؟ سؤالٌ يتغيّر بشكلٍ كبير.

لا يُفترض أن يعزّز الدين لياقتنا كأعضاءٍ متكاثرين من جنس الإنسان العاقل (Homo sapiens)، ولكنَّ لياقته (كعضوٍ ذاتي التكاثر في نوعٍ من ثقافاتٍ دينيَّة متعايشة) قد يزدهر كمتقايض، لأنّه يفيد مضيفه بشكلٍ مباشر تماماً، أو قد يزدهر كطفيليّ على الرَّغم من أنّه يصيب مضيفه ببلاءٍ خبيث يجعله أسوأ حالاً، ولكن أضعف من أن يحارب انتشاره، والنقطة الرئيسة التي يجب توضيحها في البداية هي أنّنا لا نستطيع تحديد أيّ من الفرضيَّتين قد تكون صحيحةً دون إجراء بحثٍ دقيقٍ وموضوعي.

من المحتمل أن يبدو دينك حميداً بالنسبة لك، وقد تبدو لك الديانات الأخرى سامَّةً بشكلٍ واضح لأولئك المصابين بها، لكنَّ المظاهر يمكن أن تكون خادعة؛ ربّما يقدم دينهم لهم فوائدَ غير مفهومةٍ بالنسبة لك، وربّما يسمّمك دينك بطرقٍ لم تشكَّ بها أبداً، لا يمكنك معرفة ذلك من الداخل، وهذه هي الطريقة التي تعمل بها الطفيليّات؛ بهدوءٍ وبشكلٍ خفي ومن دون إزعاج مضيفيها أكثر من اللازم، لذا إذا كانت (بعض) الأديان عبارةً عن طفيليّاتٍ متطوِّرةٍ ثقافيّاً، فيمكننا أن نتوقَّع منها أن تكون مصمَّمةً جيّداً بأسلوبٍ ماكر لإخفاء طبيعتها الحقيقيَّة عن مضيفها، نظراً لأنَّ هذا يعدُّ تكيُّفاً من شأنه زيادة انتشارها.

هاتان العائلتان من النظريّات- الأسنان الحلوة والمتعايشة- ليست حصريَّة، وكما رأينا بالفعل مع مثال الخميرة المفرزة للكحول، هناك احتمالاتٌ تكافليَّةٌ قد تجمع بين العديد من هذه الظواهر معاً؛ قد يكون هذا الشغف الأولي مستغلّاً من قبل المتعايشات الثقافيَّة التي تشمل كلّاً من الأشكال التقايضيَّة والطفيليَّة؛ قد يتحوَّل التعايش الحميد نسبيّاً أو غير المؤذي في ظلّ بعض الظروف إلى شيءٍ خبيثٍ وحتّى مميت.

لآلاف السنين تخيَّل النَّاس أنَّ الأديان الأخرى قد تكون شكلاً من أشكال المرض أو الاعتلال، وغالباً ما ينظر المرتدُّون إلى أيَّامهم السابقة على أنَّها فترةٌ من الضيق الذي نجوا منه بطريقةٍ ما، لكنَّ المنظور التطوُّريَّ يسمح لنا برؤية القدر نفسه من السيناريوهات الإيجابيَّة والسلبيَّة، بمجرَّد أن نبدأ في النظر إلى الدين على أنَّه متعايشٌ ثقافيٌّ محتمل.

المتعايشون بشكلٍ ودّي موجودونَ في كلّ مكان، ربَّما يتكوَّن جسمك من مائة تريليون خليَّة، وأنَّ تسعةً من كلّ عشرةٍ منها ليست خلايا بشريَّة (Hooper et al.، 1998)! معظم هذه التريليونات من الضيوف المجهريين إمَّا غير ضارَّةٍ أو مفيدة، عددٌ قليلٌ منها يمكن أن تكون مصدر قلق، بينما الكثير منها، في الواقع، مساعدون قيّمون نرثهم من أمهاتنا، وسنكون بلا حماية من دونهم، وهذا الأرث ليس جينيَّاً، فقد ينتقل بعضها عن طريق مجرى الدم المشترك بين الأم والجنين، بينما ينتقل البعض الآخر عن طريق الاتصال الجسدي أو القرب (الأم البديلة التي لا تقدّم أيَّ مساهمةٍ وراثيَّةٍ للجنين المزروع في رحمها، تساهم بشكلٍ كبير في البكتيريا التي سيحملها الرضيع لبقيَّة حياته).

المتعايشات الثقافيَّة (الميمات) يتمُّ نقلها بالمثل إلى نسل المرء عن طريق مساراتٍ غير جينيَّة؛ إنَّ التحدُّث «باللغة الأم»، والغناء، والتأدُّب، والعديد من مهارات «التنشئة الاجتماعيَّة» الأخرى تنتقل ثقافيَّاً من الآباء إلى الأبناء، وغالباً ما يكون الأطفال الرضَّع المحرومون من مصادر الإرث هذه معاقين بشدَّة.

من المعروف أنَّ الرابط بين الآباء والأبناء هو الطريق الرئيس لانتقال الدين، يكبر الأطفال وهم يتحدَّثون بلغة والديهم، وفي جميع الحالات تقريباً، يتماهون مع ديانة والديهم.

كون الدين ليس وراثيَّاً، يمكن أن ينتشر أفقيَّاً «لغير الأحفاد، لكنَّ مثل هذه الهداية تلعب دوراً ضئيلاً في معظم الظروف، لقد أدَّى التقدير الضعيف لذلك في الماضي إلى بعض برامج» التطهير «الفظَّة والوحشيَّة، لذا إذا كنت تعتقد أنَّ الدين - مع أخذ كلّ الأشياء في الحسبان- يعدُّ سمةً ضارَّةً للثقافة الإنسانيَّة، وهو مرضٌ من أمراض الطفولة له آثارٌ طويلة الأمد، فإنَّ سياسة الصحة العامَّة للتعامل معه ستكون متطرّفةً من الناحية السياسيَّة، ولكنَّها بسيطةٌ

للغاية: التلقيح والعزل؛ لا تدع الوالدين ينشئون أبنائهم تنشئةً دينيَّة (جُرِّبَت هذه السياسة على نطاقٍ واسعٍ في الاتحاد السوفييتي السابق، وكان لها عواقبُ وخيمة. إنَّ انتعاش الدين في روسيا ما بعد الاتحاد السوفييتي يوحي بأنَّ للدين أدواراً يلعبها، وموارداً هائلةً بهذه الرؤية البسيطة).

يتمُّ تمثيل نوعٍ مختلفٍ تماماً من الاحتماليَّة التطوُّريَّة من خلال نظريَّات الانتقاء الجنسي، ربَّما يكون الدين مثل عشّ طائر التعريشة[1]، حيث يكرّس ذكر طيور التعريشة وقتاً وجهداً غير عاديين لبناء وتزيين الهياكل المعقَّدة المصمَّمة لجذب إناث النوع، اللواتي يخترن الشريك فقط بعد تقييم الأعشاش المتنافسة بعناية.

هذا مثالٌ على الانتقاء الجنسي الجامح، وهو مجموعةٌ فرعيَّةٌ من الانتقاء الطبيعي الذي تلعب فيه الأنثى الانتقائيَّة دوراً انتقائيَّاً محوريَّاً، والتي قد تتحوَّل تفضيلاتها -عبر أجيالٍ عديدة- إلى مطالب محدَّدةٍ ومرهقةٍ للغاية، مثل أهواء أنثى الطاووس التي تُلزم ذكر الطاووس بأن ينمّي ذيولاً مذهلةً وباهظة الثمن ومربكةً بشكلٍ كبير (انظر Cronin، 1991، للحصول على نظرة عامَّة دقيقة).

التلوين الزاهي لذكور الطيور هو أفضل مثالٍ مدروسٍ على الانتقاء الجنسي، ففي هذه الحالات يتمُّ تضخيم التحيُّز الأولي في الأهواء الفطريَّة للإناث، مثل تفضيل اللون الأزرق على الأصفر، من خلال التغذية الراجعة الإيجابيَّة في الذكور ذوي اللون الأزرق المكثَّف، وكلَّما كان اللون الأزرق أقوى كلَّما كان ذلك أفضل، ولو كانت غالبيَّة الإناث في مجموعةٍ معزولةٍ من الأنواع التي تفضّل اللون الأصفر على الأزرق، لكان الاختيار الجامح أدَّى إلى وجود ذكور صفراء زاهية.

لا يوجد شيءٌ في البيئة يجعل اللون الأصفر أفضل من الأزرق أو العكس، باستثناء الذوق السائد لإناث النوع، والذي يمارس ضغطَ اختيارٍ قويَّاً، وإن كان عشوائيَّاً.

---

(1) طائر أستراليٌّ قويُّ المنقار، مشهورٌ بعادة الذكر في بناء تعريشةٍ مزيَّنةٍ بالريش والأصداف وأشياء أخرى لجذب الأنثى.

كيف يمكن لعمليَّة الانتقاء الجنسي الجامح أن تشكّل المبالغة في الدين؟

يتمُّ ذلك بعدَّة طرق: أولاً، ربَّما كان هناك اختيارٌ جنسيٌّ مباشر من قبل الإناث للسمات النفسيَّة المعزّزة للدين، ربَّما فضَّلوا الذكور الذين أظهروا ميلاً للإنشاد والاحتفال الديني، والذي يمكن أن يتضاعف بعد ذلك إلى نزعةٍ للنشوة المدروسة.

لم يكن على الإناث اللواتي لديهنَّ هذا التفضيل أن يفهمن سبب وجوده، كان من الممكن أن يكون مجرَّد نزوة، ذوقاً شخصيّاً أعمى دفعهم إلى هذا الاختيار، ولكن إذا كان الشريك الذي اختاروه مجرَّد عائلٍ أفضل، ورجلَ عائلةٍ أكثر إخلاصاً، فإنَّ هؤلاء الآباء والأمَّهات يميلون إلى تربية عددٍ أكبر من الأبناء والأحفاد أكثر من غيرهم، وسينتشر الميل للاحتفال وتفضيل محبّي الاحتفال، أو كان من الممكن أن يكون للنزوة نفسها ميزةٌ انتقائيَّةٌ، فقط لأنَّ المزيد من الإناث تشارَكْن تلك النزوة، بحيث يتمُّ تجاوز الأبناء الذين يفتقرون إلى الميل الدارج للاحتفال من قبل الأناث الانتقائيَّات (لو وجدت عيِّنةٌ مؤثِّرةٌ من أسلافنا، دون سببٍ وجيه، تميل إلى الذكور الذين قفزوا صعوداً وهبوطاً تحت المطر، لوجدنا أنفسنا الآن غير قادرين على الجلوس بهدوءٍ كلَّما هطل المطر، قد تُشاركنا الفتيات ميولنا للقفز في ظلّ هذه الظروف أو قد لا تفعلن، لكنَّهنَّ سيخترن بالتأكيد الرجال الذين فعلوا ذلك، وهذا هو مضمون فرضيَّة الانتقاء الجنسي الكلاسيكيَّة).

فكرة أنَّ الموهبة الموسيقيَّة هي الطريق الملكيُّ لاجتذاب المرأة مألوفةٌ بالتأكيد؛ ربَّما تبيع هذه الفكرة مليون غيتارٍ في السنة، وربَّما يكون هذا الأمر صحيحاً، يمكن أن تكون هذه نزعةً منقولةً وراثيّاً، مع وجود تنوّعٍ كبير في السكَّان، ولكن يجب علينا أيضاً أن نأخذ في الحسبان النظائر الثقافيَّة للانتقاء الجنسي.

احتفالات بوتلاتش الموجودة بين الأمريكيين الأصليين في الشمال الغربي لافتةٌ للنظر: تظاهراتٌ احتفاليَّةٌ للكرم الواضح، حيث يتنافس الأفراد مع بعضهم البعض لمعرفة من يمكنه التخلّي أكثر، وأحياناً إلى حدِّ الإفلاس.

تحمل هذه العادات علاماتٍ على أنّها أُنشِئَت بواسطة نظام ترقيةٍ اجتماعي ذي تغذيةٍ راجعةٍ إيجابيَّة، كتلك التي أوجدت ذيول الطاووس وقرون الأيائل الأيرلنديَّة العملاقة.

تُظهر الظواهر الاجتماعيَّة الأخرى أيضاً دوَّاماتٍ تضخُّميَّة من المنافسة العشوائيَّة باهظة الثمن في الأساس: زعانف الذيل على السيَّارات في الخمسينيَّات من القرن الماضي، وأزياء المراهقين، وعروض الإضاءة الخارجيَّة في عيد الميلاد هي من بين تلك المظاهر التي تناقشُ في كثيرٍ من الأحيان، ولكن هناك أمثلةٌ أخرى أيضاً.

لأكثر من مليون عام، صنع أسلافنا «فؤوساً حجريَّةً»(1) جميلة، وهي عبارةٌ عن أدواتٍ حجريَّةٍ على شكل كمّثرى بأحجامٍ مختلفة، وذات نهايات مصقولة، ونادراً ما تظهر عليها علامات البلى.

من الواضح أنَّ أسلافنا أمضوا الكثير من الوقت والطاقة في صنعها، ولم يتغيَّر التصميم على مرِّ العصور، إذ تمَّ العثور على مخابئ كبيرةٍ من المئات وحتَّى الآلاف منها (Mithen، 1996).

رأى عالم الآثار توماس واين (1995) أنَّه «سيكون من الصعب المبالغة في التأكيد على مدى غرابة الفؤوس عند مقارنتها بمنتجات الثقافة الحديثة»، وقد صاغ أحد علماء الآثار مصطلحاً جديداً عندما أطلق عليها تسمية: «إنَّها صنائع حيويَّة»، وألهمت الكاتب العلمي ماريك كوهن (1999) للتوصُّل إلى فرضيَّةٍ مذهلة.

الصنائع الجغرافيَّة هي ما يسمّيه علماء الآثار الأحجار التي تبدو وكأنَّها قطعٌ أثريَّة، ولكنَّها ليست كذلك – فهي مجرَّد نتاجٍ غير مقصودٍ لبعض العمليَّات الجيولوجيَّة– ويقترح كوهن أنَّ هذه الفؤوس قد لا تكون قطعاً أثريَّةً بقدر ما هي صنائع حيويَّة، أشبه بعشِّ طائر التعريشة منه بقوس وسهم صيَّاد.

---

(1) Acheulean: يتعلق أو يشير إلى ثقافة العصر الحجري القديم الأدنى في أوروبا (قبل Mousterian)، ممثلة بصناعات الفأس اليدوية، ويرجع تاريخها إلى حوالي 150000-1500000 سنة

الإعلانات المكلفة بشكلٍ واضح عن التفوُّق الذكوري هي حيلةٌ نُقِلَت ثقافيّاً وليس وراثيّاً، في تقليدٍ سيطر على المعركة بين الجنسين لمليون سنة، لم يعد أشباه البشر الذين عملوا بجدٍّ للمشاركة في هذه المسابقة بحاجةٍ إلى فهم الأساس المنطقي للمشروع أكثر من ذكور العناكب الذين يصطادون حشرةً ويلفُّونها بدقَّةٍ بالحرير لتقديمها «كهديَّة زواجٍ» للإناث أثناء المغازلة.

هذا ادّعاء تخمينيٌّ للغاية ومثيرٌ للجدل، لكن لم يتمَّ دحضه بعد، وهو ينبّهنا بشكلٍ مفيد إلى الاحتمالات غير المرئيَّة لنا، ومهما كانت أسباب ذلك، فقد بذل أسلافنا الوقت والجهد على القطع الأثريَّة غير المستخدمة على ما يبدو كلّما استطاعوا، وهي سابقةٌ تستحقُّ الذكر عندما نتعجَّب ممَّا أُنفِقَ على المقابر والمعابد والقرابين.

كما ينبغي استكشاف التفاعل بين الانتقال الثقافي والجيني، لذلك ضع في حسبانك الحالة المدروسة جيّداً لتحمّل اللاكتوز عند البالغين، فعلى سبيل المثال يمكن للكثيرين منَّا شرب الحليب الخام، وهضمه دون صعوبة، لكنَّ الكثيرين غيرنا الذين لم يجدوا صعوبةً في تناول الحليب عندما كانوا أطفالاً، لم يعودوا قادرين على هضم الحليب بعد الفطام، لأنَّ أجسامهم تثبّط الجين المسؤول عن إنتاج اللاكتوز؛ الإنزيم الضروريَّ بعد الفطام، وهو النمط الطبيعيُّ في الثديّيات.

من يتحمَّل اللاكتوز ومن لا يتحمَّله؟ هناك نمطٌ واضحٌ يمكن لعلماء الوراثة تمييزه: يتركَّز تحمّل اللاكتوز في المجموعات البشريَّة المنحدرة من مزارع الألبان، في حين أنَّ عدم تحمّل اللاكتوز شائعٌ بين أولئك الذين لم يكن أسلافهم مطلقاً من رعاة حيوانات الألبان، مثل الصينيين واليابانيين.

ينتقل تحمّل اللاكتوز وراثيّاً، ولكنَّ النزعة لرعاية قطعان الحيوانات، والتي تعتمد عليها السمات الوراثيَّة، تنتقل ثقافيّاً، كان من المحتمل أن تنتقل وراثيّاً، لكن على حدِّ علمنا لم يحدث ذلك (كولي بوردر، على عكس أطفال رعاة الباسك، يملكون غرائز الرعي بالتوالد، على كل حال [Dennett، 2003c،d]).

ثمَّ هناك نظريَّات المال، التي تعدُّ الأديان بمثابة منتجاتٍ ثقافيَّةٍ إلى حدٍّ ما مثل الأنظمة النقديَّة: أنظمةٌ متطوّرةٌ مجتمعيّاً، والتي طُوِّرَت ثقافيّاً عدَّة مرَّات، يتمُّ تفسير وجودها في كلّ ثقافةٍ بسهولة وحتَّى تبريرها: إنَّها خدعةٌ جيّدةٌ يتوقَّع المرء إعادة اكتشافها بصورةٍ متكررة، وهي حالةٌ من التطوُّر الاجتماعي المتقارب.

من المستفيد؟ هنا يمكننا أخذ عدَّة إجاباتٍ في الحسبان:

أ- يستفيد كلُّ فردٍ في المجتمع، لأنَّ الدين يجعل الحياة في المجتمع أكثر أماناً وانسجاماً وفعَّاليَّة، يستفيد البعض أكثر من غيره، ولكن لن يكون من الحكمة أن يتمنَّى أحدٌ زواله.

ب- تستفيد النخبة التي تتحكَّم في النظام على حساب الآخرين، فالدين أشبه بالمخطَّط الهرميّ منه بالنظام النقدي، إنَّه يزدهر من خلال افتراس غير المطَّلعين والضعفاء، في حين أنَّ المستفيدين منه ينقلونه بكلّ سرورٍ إلى ورثتهم، وراثيّاً أو ثقافيّاً.

ت- المجتمعات تستفيد كليّاً، وسواءً استفاد الأفراد أم لا، فإنَّ استمرار مجموعاتهم الاجتماعيَّة أو السياسيَّة يتعزَّز على حساب الجماعات المنافسة.

هذه الفرضيَّة الأخيرة (الاختيار الجماعي) صعبة، حيث يصعب تحديد الظروف التي يحدث في ظلّها الاختيار الجماعي الحقيقي، إنَّ ترويض الأسماك وحشد الطيور، على سبيل المثال، هي بالتأكيد ظواهر تتضمَّن التجميع، ولكنَّها لا تُفسَّر كظواهر اختيارٍ جماعي.

لكي ترى كيف يستفيد الأفراد (أو جيناتهم الفرديَّة) من التنظيم في الترويض أو القطيع، عليك أن تفهم بيئة المجموعات، لكن المجموعات ليست هي المستفيدة الأساسيَّة؛ الأفراد الذين يؤلّفونهم هم المستفيدون.

تتنكَّر بعض الظواهر البيولوجيَّة في صورة انتقاءٍ جماعي، ولكن من الأفضل التعامل معها على أنَّها حالاتٌ من الاختيار على المستوى الفردي، تعتمد على ظواهر بيئيَّةٍ معيَّنة (مثل التجميع) أو حتَّى كظواهر الانتقاء المتعايش، وكما لاحظنا بالفعل، يجب أن تنتقل الميمات المتعايشة إلى مضيفين جدد، وإذا كان بإمكانها دفع الأشخاص إلى مجموعات (بالطريقة التي

تدفع بها التوكسوبلازما جوندي الفئران إلى فكّي القطط) حيث يمكنها العثور بسهولة على مضيفين بديلين، فإنَّ التفسير ليس اختياراً جماعيّاً.

إذا لم يستطع المرّيخيُّون جعل أيّ من هذه النظريَّات تتناسب مع الحقائق، سيتحتَّم عليهم التفكير في نظريَّةٍ افتراضيَّةٍ من النوع الذي نسمّيه نظريَّة اللؤلؤ: إنَّ الدين ببساطة هو منتجٌ ثانويٌّ جميل، يُنشأ بواسطة آليَّةٍ مُتَحكَّمٍ بها وراثيّاً، أو مجموعةٍ من الآليَّات المقصودة (بواسطة الطبيعة الأم، بواسطة التطوُّر) للاستجابة لإثاراتٍ أو تدخُّلاتٍ مختلفة، صُمِّمَت هذه الآليَّات من قبل التطوُّر لأغراضٍ معيَّنة، ولكن بعد ذلك، في يومٍ من الأيّام، يأتي شيءٌ جديد، أو تقاربٌ جديدٌ لعواملَ مختلفة، وهو شيءٌ لم يواجه من قبل، وبالطبع لم يتوقَّعه التطوُّر مطلقاً، والذي يثير الأنشطة التي تولّد هذه الأداة المذهلة.

وفقاً لنظريَّات اللؤلؤ، فالدين ليس شيئاً من وجهة نظر علم الأحياء، لا يفيد أيَّ جين، أو فرد، أو مجموعة، أو تعايشٍ ثقافي، لكن وبمجرَّد وجوده يمكن أن يكون هدفاً، شيئاً يحدث فقط ليأسرنا نحن البشر، الذين نملك قدرةً قابلةً للتوسُّع إلى أجلٍ غير مسمًّى للاستمتاع بالمبتكرات والفضول.

تبدأ اللؤلؤة بنقطةٍ غريبةٍ لا معنى لها (أو على الأرجح طفيلي)، وبمجرَّد أن يضيف المحَّار طبقةً جميلةً بعد أخرى، يمكن أن تصبح شيئاً ذا قيمةٍ عرضيَّةٍ لأفراد الأنواع الذين صادفوا للتوّ مثل هذه الأشياء، سواءً كان هذا الطمعُ خكياً من وجهة نظر اللياقة البيولوجيَّةِ أم لا.

هناك معايير أخرى للقيمة قد تظهر -لأسبابٍ جيّدةٍ أو سيّئة- عائمةً أو شديدة الوضوح، وبنفس الطريقة التي يستجيب بها المحَّار للمهيّج الأولي، ثمَّ يستجيب باستمرار لنتائج استجابته الأولى، ثمَّ لنتائج تلك الاستجابة، وهكذا دواليك، قد لا يتمكَّن البشر من التوقُّف عن الاستجابة لردود أفعالهم الخاصَّة، بما في ذلك دائماً طبقاتٌ أكثر تفصيلاً في إنتاجٍ يأخذ بعد ذلك أشكالاً وميزاتٍ لا يمكن تصوُّرها من بداياته المتواضعة.

ما الذي يفسّر الدين، الأسنان الحلوة، المتعايش، التعريشة، المال، اللؤلؤ، أو لا شيءَ ممَّا

سبق؟

قد يشمل الدين ظواهر الثقافة البشريَّة التي ليس لها نظيرٌ بعيد في التطوُّر الجيني، ولكن إذا كان الأمر كذلك، فسنضطرُّ للإجابة على سؤال من المستفيد؟ لأنَّه لا يمكن إنكار أنَّ ظاهرة الدين مصمَّمةٌ لدرجةٍ كبيرةٍ جدًّا، هناك القليل من علامات العشوائيَّة أو التحكُّميَّة، لذلك يجب أن يُفسَّر التكاثر التفاضلي بالبحث والتطوير المسؤول عن التصميم.

لا تسير هذه الفرضيَّات كلُّها في الاتجاه نفسه، ولكنَّ الحقيقة حول الدين قد تكون مزيجاً من العديد منها (بالإضافة إلى أخرى) إذا كان الأمر كذلك، فلن نحصل على رؤيةٍ واضحةٍ لسبب وجود الدين حتَّى نميّز بين هذه الاحتمالات بوضوح، ونضع كلًّا منها على المحكّ.

إذا كنت تعتقد أنَّك تعرف بالفعل النظريَّة الصحيحة، فأنت إمَّا عالمٌ كبيرٌ يخفي جبلًا هائلاً من الأبحاث غير المنشورة عن بقيَّة العالم، أو أنَّك تخلط بين التفكير بالتمنِّي والمعرفة.

ربَّما يبدو لك أنَّني أتجاهل عن عمدٍ نوعاً ما التفسيرَ الواضح لوجود دينك، وما له من سمات: إنَّه موجودٌ لأنَّه استجابةٌ حتميَّةٌ من البشر المستنيرين لحقيقةٍ واضحةٍ أنَّ الله موجود، قد يضيف البعض: نحن ننخرط في هذه الممارسات الدينيَّة لأنَّ الله يأمرنا بذلك، أو لأنَّه يسعدنا إرضاء الله (نهاية القصة) لكنَّ ذلك لا يمكن أن يكون نهاية القصة، فأيّاً كان دينك، هناك عددٌ أكبر من النَّاس في العالم لا يشاركونه أكثر من الذين يشاركونه، وعليك أن تفسّر – لنا جميعاً، لماذا أخطأ الكثيرون في فهمه، وشرح كيف تمكَّن من يعرف (إن وجد) من فهمه بشكلٍ صحيح، حتَّى لو كان واضحاً لك، فهو ليس واضحاً للجميع، أو حتَّى لمعظم النَّاس.

إذا كنت قد وصلت إلى هذا الحدّ في الكتاب، فأنت على استعداد للاستفسار عن مصادر وأسباب الديانات الأخرى.

ألن يكون من النفاق الادّعاء بأنَّ دينك كان إلى حدٍّ ما خارج الحدود؟ فقط لإرضاء فضولك الفكري، قد ترغب في رؤية كيف يرقى دينك إلى هذا النوع من التدقيق الذي سنوجّهه إلى الآخرين، ولكن قد تتساءل جيّداً، هل يمكن أن يكون العلم حقّاً غير حزبي،

أليس العلم في الحقيقة «مجرَّد دينٍ آخر»، أو بعبارةٍ أخرى، أليست المنظورات الدينيَّة صالحةً تماماً مثل المنظور العلمي، كيف يمكننا أن نجد أيَّ أرضيَّةٍ موضوعيَّةٍ مشتركةٍ يمكننا من خلالها إجراء تحقيقاتنا؟.

هذه الأسئلة تهمُّ العديد من القرَّاء، وخاصَّةً الأكاديميين الذين استثمروا بكثافة في الإجابة عليها، لكنَّ آخرين لا يتحلَّون بالصبر للإجابة عليها، أو لا يعنيهم الأمر إطلاقاً.

الأسئلة مهمَّةٌ بالفعل -وهي حاسمةٌ لمشروعي بأكمله- لأنَّها تشكِّك في إمكانيَّة إجراء التحقيق الذي أبدأ فيه، ولكن يمكن تأجيلها إلى ما بعد اكتمال المخطَّط الأولي للنظريَّة، إذا كنت لا توافق، فقبل الاستمرار في الفصل الرابع، يجب أن تنتقل مباشرةً إلى الملحق (ب)، «المزيد من الأسئلة حول العلوم»، الذي يتعامل مع هذه الأسئلة، ويوضِّح بشيءٍ من التفصيل، ويدافع عن المسار الذي يمكننا من خلاله العمل معاً لإيجاد اتِّفاقٍ متبادل حول كيفيَّة المضي قدماً، وما هو مهمّ.

الفصل الثالث: كلُّ ما نقدِّره – من السكَّر والجنس والمال، إلى الموسيقى والحبّ والدين – نقدِّره لأسباب، إنَّ أسبابنا الكامنة وراء هذا التقدير والمتميِّزة عنه هي أسبابٌ تطوُّريَّة، ومبررات عائمة حرَّة أقرَّها الانتقاء الطبيعي.

الفصل الرابع: تطوَّرت أدمغة الإنسان، مثل جميع أدمغة الحيوانات، للتعامل مع المشكلات المحدَّدة للبيئات التي يجب أن تعمل فيها.

تمنح البيئة الاجتماعيَّة واللغويَّة التي تطوَّرت مع العقول البشريَّة البشر قوىً لا يتمتَّع بها أيُّ نوعٍ آخر، ولكنَّها خلقت أيضاً مشكلاتٍ تطوَّرت الديانات الشعبيَّة للتعامل معها، ويمكن تفسير المبالغة الواضحة للممارسات الدينيَّة بالشروط الصارمة للبيولوجيا التطوُّريَّة.

الجزء الثاني

تطور الدين

الفصل الرابع

جذور الدين

1 - ولادة الأديان

كلُّ شيءٍ على ما هو عليه لأنَّه حصل على هذا النحو - دارسي طومسون[1]

هناك خلافٌ بين الهندوس حول ما إذا كان «شيفا» أو «فيشنو» هو الرَّبَّ الأعلى، وقد قُتل الكثيرون لإيمانهم بذلك.

يَعِدّ «اللينجابورانا[2]بفردوس «شيفا» لمن يقتلُ أو يمزّق لسان شخصٍ يشتم شيفا» (Klostermaier، 1994). عند شعب الزولو[3]، عندما تكون المرأة الحامل على وشك الولادة، تظهر أحياناً «الأفعى الروحيَّة لامرأةٍ عجوزٍ» غاضبة (وفقاً للشامان[4])، ممَّا يشير إلى وجوب تقديم قرابين من الماعز أو بعض الحيوانات الأخرى إلى أسلاف القبيلة، حتَّى

(1) عالم أحياء أسكتلندي (1860-1948).

(2) كتاب مقدَّس لدى الهندوس.

(3) شعب الزولو: هم مجموعة من عرقية «نغوني» في جنوب إفريقيا، شعب الزولو هم أكبر مجموعة عرقية وأمَّة في جنوب إفريقيا حيث يعيش ما يقدر بنحو 12-10 مليون شخص بشكل رئيس في مقاطعة كوازولو ناتال.

(4) الشامانية: هي ظاهرة دينية تتضمن مجالات وممارسات الشامان، بالرغم من أن الشامانية موجودة بعدة أشكال حول العالم، قد يكون موطن الشامانية بشكلها النقي سايبيريا وآسيا الوسطى، بالإضافة إلى السكان الأصليين للأمريكيتين والذين يبدون من أصول وسط آسيوية

يولد الطفل بصحَّةٍ جيّدة (Lawson and McCauley، 1990p. 116).

يعتقد شعبJivaro في الإكوادور أنَّ لديك ثلاثة أرواح، الروح الحقيقيَّة التي تمتلكها منذ ولادتك (تعود إلى مسقط رأسك عندما تموت، ثمَّ تتحوَّل إلى شيطان، والذي يموت بدوره، ليصبح عثَّةً عملاقة، والتي تصبح ضبابيَّةً عندما تموت)، الأروتام، الروح التي تحصل عليها بالصوم، والاستحمام في شلَّال المياه، وتناول العصير المهلوس (تجعلك لا تُقهر، ولكن لديها عادةٌ مؤسفة تتمثَّل في تركك عندما تكون في مكانٍ مزدحم)، والمصياك، الروح الثأرية التي تحاول الهروب من رأس الضحيَّة وقتل قاتل الضحية، لهذا السبب يجب عليك تحطيم رأس ضحيَّتك(Harris، 1993) .

هذه المعتقدات والممارسات الغريبة لم تكن موجودةً دوماً - بصرف النظر عمَّا قد يقوله أتباعها، يقول مارسيل غوشيه في كتابه عن التَّاريخ السياسي للدين: «على حدِّ علمنا، كان الدين موجوداً دائماً في جميع الأوقات والأماكن» (1997، ص 22)، ولكنَّ هذا منظور مؤرِّخٍ ضيّق الأفق، وببساطة ليس صحيحاً، مرَّ وقتٌ طويل قبل أن تتكوَّن المعتقدات والممارسات الدينيَّة لدى أيّ شخص، وقبل أن يكون هناك أيُّ مؤمنٍ على هذا الكوكب، وقبل أن تكون هناك أيُّ معتقداتٍ حول أيّ شيء. بعض المعتقدات الدينيَّة قديمةٌ حقَّاً (وفقاً للمعايير التَّاريخيَّة)، ويمكن قراءة أنباءٍ عن ظهور المعتقدات الأخرى في أرشيفات الصحف. كيف نشأوا جميعاً؟

تبدو الإجابة في بعض الأحيان واضحةً بما يكفي، خاصَّةً عندما يكون لدينا سجلَّاتٌ تاريخيَّةٌ موثوقةٌ من الماضي القريب. عندما زار الأوروبيُّون في سفنهم الشراعيَّة الرائعة جزر جنوب المحيط الهادئ لأول مرَّة في القرن الثامن عشر، ذُهِلَ سكَّان ميلانيزيا الذين يعيشون في هذه الجزر بهذه السفن، والهدايا الرائعة التي قدَّمها لهم الرجال البيض الذين عاشوا فيها: أدواتٌ من الفولاذ والقماش والزجاج الذي يمكنك الرؤية من خلاله، وبضائع أخرى لا يعرفونها، لقد كان ردُّ فعلهم شبيهاً بردِّ فعلنا اليوم؛ لو أظهر زوَّارٌ من الفضاء الخارجي أنَّهم قادرون على التغلُّب علينا متى شاءوا، ممتلكين تقنياتٍ لم نكن لنحلم بها: «يجب أن نحصل على بعض هذه البضاعة لأنفسنا، وأن نتعلَّم كيف نسخِّر القوى السحريَّة لهؤلاء

الزوّار»، ومن المحتمل أنَّ جهودنا الضئيلة لاستخدام ما كنَّا نعرفه للسيطرة على الموقف، واستعادة أمننا وإحساسنا بالقوَّة، ربَّما تروق لهؤلاء الفضائيين المتفوِّقين تقنياً بقدر ما يروق لنا استنتاج الميلانيزيين أنَّ الأوروبيين هم أسلافهم المتنكّرون، العائدون من عالم الموتى بثروةٍ لا توصف، أنصاف آلهةٍ عبادتهم واجبة.

عندما وصل المبشّرون اللوثريُّون إلى بابوا غينيا الجديدة في أواخر القرن التاسع عشر محاولين تبشير الميلانيزيين بالمسيحيَّة، واجهوا شكوكاً عنيدةً: لماذا يمتنع هؤلاء الأسلاف البخلاء المتنكّرون عن إعطائهم البضائع، ويحاولون جعلهم يغنُّون الترانيم؟

ظهرت طقوس البضائع بصورةٍ متكررة في المحيط الهادئ، فخلال الحرب العالميَّة الثانية، وصلت القوَّات الأمريكيَّة إلى جزيرة تانا لتجنيد ألف رجلٍ للمساعدة في بناء مطار وقاعدةٍ عسكريَّةٍ في جزيرة إيفات المجاورة، عندما عاد العمَّال بقصصٍ عن رجالٍ بيضٍ وسود كانت لديهم ممتلكاتٌ تتجاوزُ أحلام سكَّان تانا، ما جعل المجتمع بأسره في حالة اضطّراب.

سكَّان الجزر الذين تحوَّل العديد منهم في وقتٍ سابقٍ إلى المسيحيَّة على يد المبشّرين البريطانيين، توقَّفوا عن الذهاب إلى الكنيسة، وبدأوا في بناء ساحات إنزالٍ، ومستودعاتٍ، وهوائيات راديو من الخيزران، معتقدين أنَّه إذا نجح الأمر في جزيرة إيفات بالنسبة للأمريكيين، فسيكون الأمر ناجحاً في تانا.

كانت التماثيل المنحوتة للطائرات الحربيَّة الأمريكيَّة والخوذات والبنادق مصنوعةً من الخيزران، وتُستخدم كأيقوناتٍ دينيَّة، بدأ سكَّان الجزر في السير في عروضٍ عسكريَّة، وقد وشموا على صدورهم وظهورهم USA، كما ظهر «جون فروم» كاسمٍ لمسيحهم، على الرَّغم من عدم وجودٍ سجلَّاتٍ لجندي أمريكي بهذا الاسم.

عندما غادر آخر جندي أمريكي في نهاية الحرب، توقَّع سكَّان الجزيرة عودة جون فروم، استمرَّت الحركة في الازدهار، وفي 15 فبراير 1957، رُفِعَ العلم الأمريكي في خليج الكبريت لإعلانِ ديانة جون فروم، في هذا التَّاريخ من كلِّ عام يُحْتَفَلُ بيوم جون فروم،

يعتقدون أنَّ جون فروم ينتظر في بركان ياسور مع محاربيه لتسليم شحنته إلى سكَّان تانا، وخلال الاحتفالات يسير الشيوخ في جيش مقلّد، وهو نوعٌ من التدريبات العسكريَّة الممزوجة بالرقص التقليدي، يحمل البعض بنادق مقلَّدة مصنوعةً من الخيزران، ويرتدون تذكارات الجيش الأمريكي مثل القبَّعات، القمصان والمعاطف، إنَّهم يعتقدون أنَّ طقوسهم السنويَّة ستخرج الإله جون فروم من البركان جالباً الازدهار لجميع سكَّان الجزر. [MotDoc، 2004].

في الآونة الأخيرة، حوالي عام 1960، في جزيرة بريطانيا الجديدة في بابوا غينيا الجديدة، تمَّ تأسيس طائفة بوميو كيفونج، والتي ما تزال مزدهرة. تنصُّ عقيدة بوميو كيفونغ على أنَّ الالتزام بالقوانين العشر (وهي نسخةٌ معدَّلةٌ من الوصايا العشر [الوصايا العشر]) والأداء الأمين لمجموعةٍ واسعةٍ من الطقوس، بما في ذلك دفع الغرامات لغرض الحصول على الغفران، هي أمورٌ ضروريَّةٌ للارتقاء الأخلاقي والروحي اللازم للإسراع بعودة الأجداد، وتهدف أهمُّ هذه الطقوس إلى استرضاء الأجداد الذين يشكّلون ما يسمّى بـ «حكومة القرية»، وتضمُّ حكومة القرية، التي يرأسها الله، هؤلاء الأجداد الذين غفر الله لهم، وأسبغ عليهم الكمال.

القادة الروحيُّون لطائفة بوميو كيفونغ هم: مؤسّسها كوريام، ومساعده الرئيس برنارد، وخليفة كوريام كولمان، اعتبر الاتباع أنَّ الثلاثة هم أعضاء في حكومة القرية، لذا فهم آلهة، أقام الثلاثة جسديَّاً على الأرض (تحديداً في إقليم بوميو)، لكنَّ أرواحهم سكنت مع أسلافهم طوال الوقت.

إنَّ تحقيق التطهير الجماعي الكافي هو الشَّرط الحاسم للحثِّ على عودة الأجداد وبداية «فترة الشركات» التي ستكون حقبة ازدهارٍ غير مسبوقة، ناتجةً عن نقل المعرفة والبنية التحتيَّة الصناعيَّة لإنتاج العجائب التكنولوجيَّة والثروة الماديَّة كتلك الموجودة في العالم الغربي. [Lawson and McCauley، 2002، p. 90]

قد تكون هذه الحالات استثنائيَّة، قد تعتقد أنَّ دينك ظهر إلى الوجود عندما كشف الله حقيقته الأساسيَّة لشخصٍ ما، ثمَّ أعطاها للآخرين، إنَّها تزدهر اليوم لأنَّك تعلم بواسطة إيمانك أنت والآخرين أنَّها الحقيقة، وقد باركك الله وشجَّعك على الحفاظ على الإيمان، الأمر بهذه البساطة، بالنسبة لك.

لماذا كلُّ الديانات الأخرى موجودة، إذا كان هؤلاء النَّاس مخطئين فقط، فلماذا لا تنهار عقائدهم بسهولةٍ مثل الأفكار الخاطئة حول الزراعة أو ممارسات البناء التي عفا عليها الزمن؟ قد تعتقد أنَّهم سوف ينهارون في الوقت المناسب، تاركين فقط الدين الصحيح، دينك، صامداً.

بالتأكيد هناك سببٌ ما للاعتقاد بهذا، فبالإضافة إلى بضع عشراتٍ من الديانات الرئيسة في العالم اليوم – أولئك الذين يبلغ عدد أتباعهم مئات الآلاف أو الملايين – هناك الآلاف من الديانات الأقلّ كثافةً سكَّانيَّةً معترف بها.

تظهر ديانتان أو ثلاث ديانات إلى الوجود كلَّ يوم، وعمرها النموذجي أقلُّ من عقد[1]، لا توجد طريقةٌ لمعرفة عدد الأديان المتميِّزة التي ازدهرت لفترةٍ من الوقت خلال العشر أو الخمسين أو المائة ألف سنةٍ الماضية، لكنَّه قد يكون بالملايين، ولم يعد لها أثرٌ الآن.

أثبتت بعض الأديان تاريخها الذي يعود إلى آلاف السنين – ولكن فقط إذا كنَّا كرماء فيما يخصُّ حدودنا الزمنيَّة. كنيسة مورمون عمرها أقلُّ من مائتي عام، كما يذكِّرنا اسمها الرسمي: كنيسة يسوع المسيح لقدِّيسي الأيَّام الأخيرة، عمر البروتستانتيَّة أقلُّ من خمسمائة عام، والإسلام أقلُّ من ألفٍ وخمسمائة عام، والمسيحيَّة أقلُّ من ألفي عام.

اليهوديَّة ليست أقدم بمرَّتين من ذلك، وقد تطوَّرت اليهوديَّة اليوم بشكلٍ ملحوظ من أقدم يهوديَّةٍ يمكن تحديدها، على الرَّغم من أنَّ أنواع اليهوديَّةِ لا تُقارن مع الازدهار الهائل للاختلافات التي أنتجتها المسيحيَّة في الألفي عامٍ الماضيين.

هذه فتراتٌ زمنيَّةٌ قصيرةٌ من الناحية البيولوجيَّة: إنَّها ليست طويلةً حتَّى بالمقارنة مع عصور

السمات الأخرى للثقافة الإنسانيَّة؛ الكتابة عمرها أكثر من خمسة آلاف سنة، والزراعة أكثر من عشرة آلاف سنة، واللغة - من يدري؟ - ربَّما «فقط» أربعون ألف سنةٍ، وربَّما عشر أو عشرين مرَّةً أكبر من ذلك، إنَّه موضوع بحثٍ مثيرٌ للجدل، وبما أنَّه من المتَّفق عليه على نطاقٍ واسعٍ أنَّ اللغات الطبيعيَّة المفصليَّة بالكامل يجب أن تكون قد تطوَّرت من نوعٍ من اللغات الأوليَّة (التي ربَّما تطوَّرت على مدى مئات الآلاف من السنين)، فلا يوجد إجماعٌ حول ما يمكن عدُّه تاريخ ميلاد اللغة.

هل اللغة أقدم من الدين؟ بصرف النظر عن تاريخ بداياتها، فإنَّ اللغة أقدم بكثيرٍ من أيّ دينٍ موجود، أو حتَّى من أيّ دينٍ لدينا أيَّةُ معرفةٍ تاريخيَّةٍ أو أثريَّةٍ عنه، وأقدم دليلٍ أثري مثيرٍ للإعجاب على الدين هو مواقع دفن (كرون ماجنون) المتقنة في جمهورية التشيك، ويبلغ عمرها حوالي خمسةً وعشرين ألف عام.

من الصعب معرفة ذلك، ولكن قد يكون شيئاً مثل الدين موجوداً منذ الأيَّام الأولى للغة، حتَّى قبل ذلك.

كيف كان أسلافنا قبل وجود أيّ شيءٍ مثل الدين، هل كانوا مثل مجموعات الشمبانزي، ما الذي تحدَّثوا عنه بخلاف الطعام والحيوانات المفترسة ولعبة التزاوج، الطقس، النميمة، وما هي التربة النفسيَّة والثقافية التي نشأ فيها الدين لأول مرَّة؟

يمكننا أن نعود بشكلٍ مؤقَّت إلى الوراء، ونستقرىء بتوجيهٍ من قيودنا البيولوجيَّة الأساسية: يجب على كلِّ خطوةٍ مبتكرة أن تفسّر نفسها بطريقةٍ ما، في البيئة الحاليَّة التي حدثت فيها لأول مرَّة، بصرف النظر عن دورها الذي ستمتلكه في البيئات اللاحقة.

ما الذي يمكن أن يفسّر كلّاً من التنوّع والتشابه في الأفكار الدينيَّة التي نلاحظها في جميع أنحاء العالم، أو هل أعيد اكتشاف هذه الأفكار بشكلٍ مستقلّ من قبل كلِّ ثقافةٍ تقريباً، لأنَّها ببساطةِ الحقيقة وهي واضحةٌ بما يكفي لكي يكتشفها النَّاس في الوقت المناسب؟ من الواضح أنَّ هذا تبسيطٌ مفرطٌ السذاجة، لكنَّها على الأقلّ محاولاتٌ لطرح أسئلةٍ صريحة

والإجابة عليها، والتي غالباً ما يهملها الأشخاص الذين يفقدون الاهتمام عندما يجدون غايةً أو وظيفةً معقولةً للدين: الاستجابة لـ«حاجةٍ إنسانيَّةٍ» ساميةٍ بشكلٍ مناسب لتبرير الإنفاق الواضح للوقت والطاقة اللذين يتطلَّبهما الدين.

الغايات الثلاثة المفضَّلة أو مبرّرات وجود الدين هي:

1. لتعزيتنا في معاناتنا، وتهدئة خوفنا من الموت
2. لشرح الأشياء التي لا يمكننا شرحها بطريقةٍ أخرى
3. لتشجيع التعاون الجماعي في مواجهة المحن والأعداء

كتبت آلاف الكتب والمقالات للدفاع عن هذه الادّعاءات، وربَّما تكون هذه الأفكار المقنعة والمألوفة صحيحةً جزئيّاً على الأقلّ، ولكن إذا استقريت على أحدها، أو على الثلاثة معاً، فأنت تستسلم لخللٍ غالباً ما تصادفه في العلوم الإنسانيَّة والاجتماعيَّة: إرضاء الفضول المبكر.

هناك الكثير لنسأل عنه، والأكثر لنفهمه، لماذا تريح هذه الأفكار النَّاس؟ (ولماذا هي مطمئنة، هل يمكن العثور على أفكار أفضلَ وأكثر راحة؟) لماذا تجذب هذه الأفكار النَّاس كتفسيراتٍ لأحداثٍ محيّرة؟ (وكيف يمكن أن تنشأ، هل قام عالمٌ مدَّعٍ بدراسة نظريَّةٍ خارقةٍ للطبيعة وبشَّر بها بحماسة؟) كيف تمكَّنت هذه الأفكار فعليّاً من تعزيز التعاون في مواجهة الشكّ والانشقاق؟ (ومرَّةً أخرى، كيف يمكن أن تنشأ، هل اخترع زعيم قبليٌّ حكيمٌ الدينَ لمنح قبيلته ميزة العمل الجماعي على القبائل المتنافسة؟)

يفترض البعض أنَّه لا يمكننا أبداً أن نقدّم أفضل من مثل هذه التكهُّنات البسيطة حول هذه العمليَّات والنتائج من الماضي البعيد، البعض يصرُّ على ذلك، وينمُّ عنفهم عن خشيتهم أنَّهم مخطئون، وهم كذلك.

اليوم، بفضل التقدُّم في مجموعةٍ متنوّعة من العلوم، يمكننا صقل الأسئلة والبدء في

الإجابة عليها، وفي هذا الفصل والفصول الأربعة الآتية، سأحاول سرد أفضل نسخةٍ حاليَّةٍ للقصَّة يمكن أن يرويها العلم حول: كيف أصبحت الأديان على ما هي عليه؟

أنا لا أدَّعي إطلاقاً أنَّ هذا هو ما أسَّسه العلم عن الدين بالفعل، الهدف الأساس من هذا الكتاب هو الإصرار على أنّنا لا نعرف حتَّى الآن، ولكن يمكننا اكتشاف الإجابات على هذه الأسئلة المهمَّة إذا بذلنا جهوداً متضافرة.

من المحتمل أنَّ بعض سمات القصَّة التي أرويها سوف تثبت في الوقت المناسب أنَّها خاطئة، ربَّما يكون الكثير منهم على خطأ، الغرض من محاولة رسم قصَّةٍ كاملةٍ الآن هو الحصول على شيءٍ على الطاولة يكون قابلاً ومستحقّاً للاختبار.

عادةً ما يكون إصلاح شيءٍ به عيوب أسهل من بناء شيءٍ ما من الصفر، إنَّ محاولة سدِّ الفجوات في معرفتنا تجبرنا على صياغة أسئلةٍ لم نقم بتأطيرها من قبل، وتضع القضايا في منظورٍ يتيحُ طرح المزيد من الأسئلة والإجابة عليها، وهذا في حدِّ ذاته يمكن أن يقوِّض الإعلان الانهزامي بأنَّ هذه ألغازٌ تتجاوز الإدراك البشري، قد يرغب الكثير من النَّاس في أن تكون هذه أسئلةً غير قابلةٍ للإجابة، دعونا نرى ما يحدث عندما نتحدَّى تشاؤمهم الدفاعيَّ ونجرِّبه.

2 - خامات الدين:

«قد نستنتج، إذاً، أنَّه في جميع الأمم التي اعتنقت تعدُّد الآلهة، لم تنشأ الأفكار الأولى للدين من التأمُّل في أعمال الطبيعة، بل من الاهتمام بأحداث الحياة، ومن الآمال المستمرَّة، والمخاوف التي تحرك العقل البشري»- ديفيد هيوم، التَّاريخ الطبيعي للدين.

مرشديَّ هم العلماء الروَّاد الذين بدأوا في معالجة هذه الأسئلة بخيالٍ وانضباط، إنَّ عالم الأحياء التطوُّريَّ أو عالم النفس الذي يعرف جيّداً ديناً واحداً، ولديه قدرٌ ضئيلٌ من المعلومات (الخاطئة) عن الأديان الآخرى (كمعظمنا) من المؤكَّد أنَّه يفرط في التعميم انطلاقاً

من معرفته الخاصّة عندما يتعلّق الأمر بتأطير الأسئلة.

المؤرّخ الاجتماعيُّ أو عالم الأنثروبولوجيا الذي يعرف الكثير عن معتقدات وممارسات النّاس في جميع أنحاء العالم، ولكنّه مبتدئٌ فيما يخصُّ نظريّة التطوُّر، من غير المرجّح أن يؤطّر القضايا جيّداً، ولحسن الحظ، بدأ عددٌ قليلٌ من الباحثين المطّلعين مؤخّراً في تقريب وجهات النظر المختلفة، ممّا أدّى إلى نتائج محيّرة، كتبهم ومقالاتهم تستحقُّ القراءة بكاملها، وآملُ أن أقنعكم بذلك من خلال تسليط الضوء عليها.

يعدُّ كتاب جاريد دايموند بعنوان «أسلحة وجراثيم وفولاذ» (1997) بمثابة استكشافٍ مثيرٍ للاهتمام لتأثيراتٍ محدَّدةٍ جدّاً للجغرافيا والبيولوجيا على التطوُّر المبكر للزراعة في أجزاء مختلفةٍ من العالم في أوقاتٍ مختلفة، عندما قام المزارعون الأوائل بتدجين الحيوانات، بدأوا بشكلٍ طبيعي في العيش بالقرب منها، ممّا زاد من احتماليّة انتقال طفيليّات الحيوانات إلى البشر.

إنَّ أخطر الأمراض المعدية التي عرفتها البشريّة، مثل الجدري والأنفلونزا مأخوذةٌ من الحيوانات الأليفة، وقد عاش أسلافنا الزراعيُّون في حالة «تشذيبٍ» مروّعةٍ استسلم فيه ملايينٌ لا حصر لها للسلالات المبكرة من هذه الأمراض، ولم يتبقَّ سوى أولئك المحظوظين ليكتسبوا بعض المناعة الطبيعيّة لكي يتكاثروا.

لقد ضمنت أجيالٌ عديدةٌ ممَّن عبروا عنق الزجاجة التطوُّريَّ أنَّ أحفادهم سيكونون محصَّنين نسبيّاً، أو لديهم قدرةٌ عاليةٌ على تحمّل أحفاد تلك السلالات الفتّاكة من الطفيليّات، عندما طوَّر هؤلاء الأبناء، الذين يعيشون بشكلٍ رئيسٍ في أوروبا، التكنولوجيا لعبور المحيطات، جلبوا معهم جراثيمهم التي قضت على أعدادٍ كبيرةٍ من السكّان الأصليين الذين واجههم المهاجرون أكثر ممّا فعلت البنادق والفولاذ.

يمكن دراسة دور الزراعة في تفريخ الأمراض المعدية، وإيجاد المناعة النسبيّة لها التي تطوَّرت بين الشعوب التي عانت من ويلات الأيام الأولى للزراعة، بحيث يمكننا استقراء

الماضي من جينومات الأنواع الموجودة من النباتات والحيوانات والجراثيم.

أعطت الكشوفات الجغرافية للدول الأوروبيّة السبق الذي يوضح كونهم مُستعمِرين وليسوا مُستعمَرين في القرون اللاحقة.

كتاب دايموند الحائز على جائزة بوليتزر معروفٌ بجدارة، ولكن ليس وحده، فهناك جيلٌ جديدٌ من الباحثين متعدّدي التخصُّصات الذين يعملون على تجميع البيولوجيا مع الأدلَّة المستقاة من قرونٍ من العمل من قبل المؤرِّخين وعلماء الأنثروبولوجيا وعلماء الآثار.

باسكال بوير وسكوت أتران عالما أنثروبولوجيا قاما بعملٍ ميداني مكثَّف في إفريقيا وآسيا، ولكنَّهما تدرَّبا أيضاً على النظريَّة التطوُّريَّة وعلم النفس المعرفي، كتاباهما الأخيران: (شرح الدين: الأصول التطوُّريَّة للفكر الديني) (Boyer)، 2001 و(نثق بالله) (Atran، 2002)، يطوِّران اعتباراتٍ متناغمةً إلى حدٍّ كبير للخطوات الرئيسة التي وضعاها للخوض في المستنقع مع آخرين، كما كرَّس ديفيد سلون ويلسون، عالم الأحياء التطوُّري، نفسه في السنوات الأخيرة للتحليلات التي تستغلُّ بشكلٍ منهجي ملفَّ مجال العلاقات الإنسانيَّة، وهي قاعدة بياناتٍ لجميع ثقافات العالم قام بتجميعها علماء الأنثروبولوجيا.

كتابه الأخير (كاتدرائيَّة داروين: التطوُّر والدين وطبيعة المجتمع) (2002) يقدّم أفضل حالةٍ حتَّى الآن للفرضيَّة القائلة بأنَّ الدين ظاهرةٌ اجتماعيَّةٌ مصمَّمةٌ (بالتطوُّر) لتحسين التعاون داخل (وليس بين) الجماعات البشريَّة، ووفقاً لويلسون ظهر الدين من خلال عمليَّة اختيارٍ جماعي، وهو شائبةٌ مثيرةٌ للجدل في نظريَّة التطوُّر، رفضه العديد من المنظّرين التطوُّريين بوصفه في أفضل الأحوال عمليَّةٌ هامشيَّةٌ من غير المرجَّح أن تتوافر له شروط النجاح والاستمراريَّة لفترةٍ طويلة.

هناك أسبابٌ عميقةٌ للشكّ في الاختيار الجماعي، لا سيَّما في جنسنا البشري، ولأنَّ أطروحة ويلسون - الدين بوصفه معزّزاً للتعاون - جذَّابةٌ للغاية لكثيرٍ من النَّاس، فنحن بحاجةٍ إلى أن نعدَّ أنفسنا لتجنُّب التفكير بالتمنّي.

من المتّفق عليه عموماً بين منتقديه أنّه لم ينجح (حتّى الآن) في إثبات حجّته لأطروحته الراديكاليّة حول الاختيار الجماعي، ولكن حتّى النظريّة العلميّة التي تمّ دحضها بالكامل يمكن أن تقدّم مساهمةً كبيرةً في التراكم المطّرد للفهم العلمي، إذا حُشِدَت الأدلّة المؤيّدة والمعارضة لها بدقّة (لمزيدٍ من المعلومات حول هذه النقطة، انظر الملحق ب).

هنا سأقدّم نقاط الاتفاق الرئيسة، بالإضافة إلى الاعتراف بنقاط الخلاف المستمرّة، ووضع معظم التفاصيل المثيرة للجدل في الهوامش والملاحق، حيث يمكن للمهتمّين بها متابعة دراستهم الخاصّة بشكلٍ أعمق.

يقدّم كلٌّ من Boyer وAtran عمل مجموعةٍ صغيرة، ولكن متنامية من الباحثين بعباراتٍ يسهل الوصول إليها نسبيّاً، أطروحتهم المركزيّة هي أننا بحاجة إلى فهم تطور العقل البشري لتفسير سيطرة الأفكار والممارسات الدينيّة المختلفة على النّاس.

لقرونٍ عديدة، جادل معظم الفلاسفة واللاهوتيين بأنّ العقل البشري (أو الروح) هو شيءٌ روحيٌّ غير مادي، وهو ما أطلق عليه رينيه ديكارت كلمة res cogitans (شيءٌ مفكّر)، لقد كان بمعنى ما لا نهائيّاً وخالداً وغير قابلٍ للتفسير تماماً بالوسائل الماديّة.

نحن نفهم الآن أنّ العقل- كما افترض ديكارت غير واثقٍ- ليس على اتصال بالدماغ بطريقةٍ إعجازيّة؛ إنّ الدماغ أو تحديداً التنظيم داخل الدماغ هو الذي تطوّر إلى حدٍّ كبير بالطريقة التي تطوّر بها نظام المناعة، أو الجهاز التنفسي، أو الجهاز الهضمي، فالعقل البشري- كالعديد من العجائب الطبيعيّة الأخرى- هو عبارةٌ عن كيسٍ من الحيل، مرصوفةٍ معاً عبر الدهور من خلال عمليّة التطوُّر، تفتقر للبصيرة عن طريق الانتقاء الطبيعي، فالعقل منحاز بشدّةٍ لمصلحة ملاحظة الأشياء الأكثر أهميّةً للنجاح الإنجابي لأسلافنا، مدفوعاً بمتطلّبات عالمٍ خطير.

بعض سمات أذهاننا هي الهبات التي نتشاركها مع مخلوقاتٍ أبسط بكثير، والبعض الآخر خاصٌّ بجنسنا البشري، لذا فإنّها تتطوّر كثيراً مؤخّراً، تتطرّف هذه الميزات أحياناً، وتكون

مثيرةً للفضول أحياناً أخرى، وقد تكون جاهزةً للاستغلال من قبل نسخٍ أخرى، ومن بين جميع التأثيرات الغريبة الناتجة عن مجموعة الحيل الكاملة - مجموعة «أدواتنا»، كما يسمّيها بوير - يتفاعل القليل منها مع بعضها البعض بطرقٍ معزَّزة، ممَّا يخلق أنماطاً يمكن ملاحظتها في جميع الثقافات، مع اختلافاتٍ مثيرة للاهتمام. تبدو بعض هذه الأنماط إلى حدٍّ ما مثل الأديان أو الأديان الزائفة أو الأديان البدائية. المنتجات الثانويَّة للأجهزة المختلفة هي ما يسمّيه بوير: المفاهيم.

يحدث أن ترتبط بعض المفاهيم بأنظمة الاستدلال في الدماغ بطريقةٍ تجعل الاستدعاء والتواصل سهلاً، ويحدث أن تحثَّ بعض المفاهيم برامجنا العاطفيَّة بطرقٍ معيَّنة، كما يحدث أن تتصل بعض المفاهيم بعقلنا الاجتماعي، ويتمُّ تمثيل بعضهم بطريقةٍ سرعان ما تجعلها سلوكاً معقولاً ومباشراً، والمفاهيم التي تفعل ذلك هي المفاهيم الدينيَّة التي نلاحظها بالفعل في المجتمعات البشريَّة. [ص. 50]

يسرد Boyer أكثر من نصفٍ دزّينة من الأنظمة المعرفيَّة المتميِّزة التي تغذّي التأثيرات في هذه الوصفة للدين: كاشف، وكيل، مدير ذاكرة، كاشف غشَّاش، مولّد حدسٍ أخلاقي، محبٌّ للقصص ورواية القصص، وأنظمة الإنذار المختلفة، وما أسمّيه الموقف المتعمِّد، ويزعم أنَّ أيَّ عقلٍ بهذه المجموعة المحدَّدة من أدوات التفكير والتحيُّزات سيؤوي شيئاً مثل الدين عاجلاً أم آجلاً.

يقدّم أتران وآخرون اعتباراتٍ متَّفقاً عليها إلى حدٍّ كبير، والتفاصيل تستحقُّ الاستكشاف، لكنَّني سأقوم فقط بوضع مخطَّطٍ أولي لملامح الصورة الكبيرة، حتَّى نتمكَّن من رؤية الشكل العامّ للنظريَّة، وليس تقييمها من أجل الحقيقة، سوف يستغرق الأمر عقوداً من البحث لإثبات هذه النظريَّة، ولكن في الوقت الحالي يمكننا أن نفهم ما هي الاحتمالات، ومن ثمَّ ما هي الأسئلة التي يجب أن نحاول الإجابة عليها؟.

3- كيف تتعامل الطبيعة مع مشكلة العقول الأخرى؟

«نجد وجوهاً بشريَّةً في القمر، وجيوشاً في الغيوم، وننسب الحقد وحسن النيَّة بنزعةٍ طبيعيَّة، إذا لم يتمَّ تصحيحها بالتجربة والتفكير، إلى كلّ شيءٍ يؤلمنا أو يرضينا» - ديفيد هيوم، التاريخ الطبيعي للدين

«أجل، رأيتك تسرق قبلة

يا للتواضع - يا للحياء! وبقي السرُّ محفوظاً:

ظنَّني نائمةً، على الأقلِّ عرفت

أنَّه ظنَّ أنَّني نائمة»

- كوفنتري باتمور، «The Kiss»

أول شيءٍ يجب أن نفهمه عن العقول البشريَّة كمَواطنَ مناسبةٍ للدين، هو كيف تفهم عقولنا العقول الأخرى؟

كلُّ ما يتحرَّك يحتاج إلى شيءٍ مثل العقل، لإبقائه بعيداً عن طريق الأذى، ومساعدته في العثور على الأشياء الجيِّدة؛ حتَّى البطلينوس[1] المتواضع، الذي يميل إلى البقاء في مكانٍ واحد، لديه واحدةٌ من السمات الرئيسة للعقل - سحب «قدمه» المغذِّية إلى داخل قوقعته لتجنيبها الأذى عند اكتشاف شيءٍ ينذر بالخطر، أيُّ اهتزازٍ أو صدمٍ يجعله يقوم بذلك، وربَّما يكون معظمها غير ضارّ، ولكنَّ الأمان أفضل من الندم هو شعار البطلينوس (الأساس المنطقي العائم لنظام إنذار البطلينوس).

لقد طوَّرت الكثير من الحيوانات المتنقلة أساليبَ أكثر تمييزاً؛ على وجه الخصوص تميل

(1) المحار الملزمي أو الزلفية: هو اسم يطلق على مجموعة من الحيوانات الرخوية من ذوات المصراعين ذات شكل بيضاوي أو ما شابهه، والتي لا تصنف كمحار، بلح البحر، أو محار صدفي. تنقسم الزلفيات إلى عدة أنواع، ولعل أكثرها أهميَّةً وشيوعاً الزلفيات ذوات الأصداف الصلبة، والتي تعيش في المياه العميقة، والزلفيات ذوات الأصداف الناعمة.

هذه الحيوانات إلى امتلاك القدرة على تقسيم الحركة المكتشفة إلى: حركةٍ عاديَّة (حفيف الأوراق، وتأرجح الأعشاب البحريَّة)، وحركةٍ جوهريَّةٍ محتملة: «الحركة الحيويَّة» (أو «الحركة البيولوجيَّة») لفاعلٍ آخر، حيوانٍ آخر له عقل، قد يكون مفترساً، أو فريسةً، أو رفيقاً، أو منافساً محدَّداً.

هذا منطقيٌّ من الناحية الاقتصاديَّة-بالطبع- إذا شعرت بالذهول في كلّ حركةٍ تكتشفها، فلن تحصل على عشاءٍ أبداً، وإذا لم تندهش من الحركات الخطيرة، فستصبح قريباً عشاءً لكائن آخر، وهذه خدعةٌ جيّدةٌ أخرى، ابتكارٌ تطوُّريٌّ - مثل الإبصار نفسه، أو الهروب - مفيدٌ جدّاً للعديد من طرق الحياة المختلفة التي تتطوَّر بصورةٍ متكررة في العديد من الأنواع المختلفة، في بعض الأحيان، يمكن أن تكون هذه الحيلة الجيّدة شيئاً جيداً، ثمَّ لدينا ما يسمّيه جوستين باريت جهاز الكشف عن العامل مفرط النشاط، أو HADD. (جوستين باريت،2000)

هذا التجاوز لا يقتصر على البشر، عندما يقفز كلبك ويزمجر، عندما يسقط بعض الثلج عن الأفاريز محدثاً صخباً يوقظه من غفوته، فإنَّه يُظهر استجابةً توجيهيَّةً «إيجابيَّةً كاذبة» أثارها HADD.

أظهرت الأبحاث الحديثة حول ذكاء الحيوان (Whiten and Byrne، 1988،1997؛ Hauser، 2000؛ Sterelny، 2003؛ see also Dennett، 1996) أنَّ بعض الثدييات والطيور، وربَّما بعض الكائنات الأخرى أيضاً، تحمل «تمييز الفاعل» هذا في منطقةٍ أكثر تعقيداً، وتشير الأدلَّة إلى أنَّهم لا يميزون فقط المتحرّكات الحيويَّة عن البقيَّة، بل يميّزون أيضاً بين الأنواع المحتملة من الحركات التي يجب توقُّعها من المتحرّكات الحيويَّة: هل ستهاجمني أم ستهرب، هل ستتحرَّك يساراً أم يميناً، هل ستتراجع إذا هدَّدتها، هل يراني بعد، هل يريد أن يأكلني أم يفضّل أن يلاحق جاري؟

لقد اكتشفت عقول الحيوانات الذكيَّة هذه الحيلة الجيّدة الإضافية المتمثّلة في تبنّي الموقف المتعمَّد (Dennett، 1971، 1983، 1987): لقد تعاملوا مع بعض الأشياء الأخرى في العالم على أنَّهم فاعلون، لديهم معتقداتٌ محدودةٌ حول العالم ورغباتٌ محدَّدة، وما يكفي من

الحسّ السليم لفعل الشيء العقلاني في ضوء تلك المعتقدات والرغبات.

بمجرَّد أن تبدأ الحيوانات في تبنّي الموقف المتعمَّد، يتبع ذلك نوعٌ من سباق التسلُّح، مع حيلةٍ وحيلةٍ مضادَّة، وحركةٍ خادعةٍ واكتشافٍ ذكي للحركة الخادعة، ممَّا يدفع عقول الحيوانات إلى مزيدٍ من الدقَّة والقوَّة.

إذا سبق لك أن حاولت اصطياد حيوانٍ برّي أو نصب شركٍ له، فلديك بعض التقدير للمكر الذي نشأ (على النقيض من ذلك، فإنَّ حفر البطلينوس هو لعبة أطفال؛ لم يطوِّر البطلينوس الموقف المتعمَّد، على الرَّغم من أنَّ لديه شعيراتٍ حسَّاسةً للحركةِ البسيطة يسببها (HADDs.

لا يمكن إنكار فائدة الموقف المتعمَّد في وصف سلوك الحيوان والتنبّؤ به، لكن هذا لا يعني أنَّ الحيوانات نفسها مدركةٌ لما تفعله، عندما يقود طائرٌ يبني عشَّه على مستوى منخفض، المفترسَ بعيداً عن عشّه من خلال عرض إلهاء، بعمل خدعةٍ مقنعةٍ لجناحٍ مكسور، ممَّا يخلق الوهم المغري بعشاءٍ سهلٍ للمفترس الذي يراقبه، لكنَّ الطائر لا يحتاج إلى فهم هذه الحيلة الذكيَّة، بل إلى فهم شروط النجاح المحتمل، حتَّى يتمكَّن من تعديل سلوكه بشكلٍ أفضل ليناسب المواقف المختلفة التي تواجهه، لكنَّه لم يعد بحاجة إلى إدراك الأساس المنطقي الأعمق لأفعاله، أكثر من فراخ الوقواق الوليدة عندما تدفع البيض المنافس خارج العشّ من أجل تعظيم الغذاء الذي ستحصل عليه من الوالدين بالتبنّي.

يملك الباحثون عدَّة مصطلحاتٍ أخرى للموقف المتعمَّد، يسميها البعض «نظريَّة العقل» (Premack and Woodruff، 1978؛ Leslie، 1987؛ Gopnik and Meltzoff، 1997)، ولكن هناك مشكلاتٌ في هذه الصيغة، لذلك سألتزم بمصطلحاتي الأكثر حياديَّة.

في أيّ وقتٍ يتعامل حيوانٌ مع شيءٍ ما كفاعلٍ بمعتقداتٍ ورغبات (بالمعرفة والأهداف)، أقول: إنَّه يتبنَّى الموقف المتعمَّد، أو يتعامل مع هذا الشيء كنظامٍ مقصود، يعدُّ الموقف المتعمَّد

منظوراً مفيداً للحيوان ليعتمده في عالم معادٍ (Sterelny، 2003)، نظراً لوجود أشياء قد تطارده وقد يكون لديها معتقدات حول مكانه واتجاهه.

هناك تباينٌ كبيرٌ في التعقيد بين الأنواع التي طوَّرت الموقف المتعمَّد، ففي مواجهة منافس مهدِّد، يمكن للعديد من الحيوانات اتخاذ قرارٍ معلوماتي حسَّاس إمَّا بالانسحاب، أو بخداع الطرف الآخر، ولكن هناك أدلَّةٌ ضعيفةٌ على أنَّهم يحسُّون بما يفعلونه أو لماذا.

هناك بعض الأدلَّة (المثيرة للجدل) على أنَّ الشمبانزي يمكن أن يعتقد أنَّ فاعلاً آخر - شمبانزي أو إنسان، على سبيل المثال- يعرف أنَّ الطعام موجودٌ في الصندوق وليس في السلَّة، هذه هي القصديَّة من الدرجة الثانية (Dennett، 1983)، والتي تتضمَّن معتقداتٍ حول المعتقدات (أو المعتقداتِ حول الرغبات، أو الرغبات حول المعتقدات، وما إلى ذلك)، ولكن لا يوجد دليلٌ (حتَّى الآن) على أنَّ أيَّ حيوانٍ غير بشري يريدك أن تصدّق أنَّه يعتقد أنَّك تختبئ خلف الشجرة على اليسار، وليس اليمين (القصديَّة من الدرجة الثالثة)، ولكن حتَّى الأطفال في سنٍّ ما قبل المدرسة يسعدون بممارسة الألعاب التي يريد فيها طفلٌ من طفلٍ آخر أن يتظاهر بأنَّه لا يعرف ما يريده الطفل الأول منه أن يظنّ (القصديَّة من الدرجة الخامسة): «كن الشرطيَّ، واسألني في أيّ اتجاه ذهب اللصوص؟»

مهما كان الوضع مع الحيوانات غير البشريَّة - وهذا موضوع بحثٍ قويٍّ وجدلي[6] - ممَّا لا شكَّ فيه أنَّه لا يجب تعليم البشر العاديين كيفيَّة تصوُّر العالم على أنَّه يحتوي على الكثير من الفاعلين مثلهم، الذين لديهم معتقداتٌ ورغبات، وكذلك معتقداتٌ ورغبات حول معتقدات الآخرين ورغباتهم، ومعتقداتٌ ورغبات حول المعتقدات والرغبات التي لدى الآخرين عنهم، وما إلى ذلك، ويأتي هذا الاستخدام المبدع للموقف المتعمَّد بشكلٍ طبيعي، وله تأثيرٌ في إشباع البيئة البشريَّة بعلم النفس الشعبي[(1)] (Dennett، 1981).

(1) علم النفس الشعبي أو علم النفس المنطقي: هو القدرة الطبيعيَّة على شرح وتوقّع السلوكيَّات والأحوال العقلية للآخرين، وتستخدم العمليات والعناصر التي تتم مصادفتها في الحياة اليومية، مثل الألم والمتعة والإثارة والقلق، مصطلحاتٍ لغويَّة تعارض اللغة الاصطلاحية الفنية أو العلمية، ويرتبط علم النفس الشعبي بالتمثيل المنطقي.

نحن لا ننظر إلى العالم على أنّه مجرَّد أجسادٍ بشريَّةٍ متحرّكة، ولكنَّنا نصنِّفهم كأناسٍ يتذكَّرون، وآخرون ينسون، مفكّرينَ وآملين، أشرارٍ وسُذَّج، مخلفين للوعود ومهدّدين، حلفاء وأعداء، في الواقع، هؤلاء البشر الذين يجدون صعوبةً في إدراك العالم من هذا المنظور- أولئك الذين يعانون من التوحّد، هم الفئة الأفضل للدراسة - لديهم إعاقةٌ أكثر أهميَّةً من أولئك الذين يولدون مكفوفين أو صمّاً (Baron-Cohen، 1995؛ Dunbar، 2004).

إنَّ دافعنا الفطريَّ لتبنّي الموقف المتعمَّد قويٌّ للغاية، لدرجة أنَّنا نواجه صعوبةً حقيقيَّةً في إيقاف تشغيله عندما يصبح غير مناسب؛ عندما يموت شخصٌ نحبّه أو حتَّى نعرفه جيّداً، نواجه فجأةً مهمَّةً رئيسةً تتمثّل في التحديث المعرفي: مراجعة جميع عاداتنا الفكريَّة لتلائم عالماً فيه نظامٌ مقصودٌ أقلُّ شيوعاً؛ «أتساءل عمَّا إذا كانت ترغب في ...»، «هل تعرف أنّني ...»، «أوه، انظر، هذا شيء أرادته دائماً ...»، جزءٌ كبيرٌ من الألم والارتباك الذي نعانيه عند مواجهة الموت ناتجٌ عن التذكيرات المتكررة - وحتَّى المهووسة- بأنَّ عادات الموقف المتعمَّد لدينا تفاجئنا مثل الإعلانات التي تظهر مزعجةً فجأة، لا بل هي أسوأ بكثير.

لا يمكننا حذف الملفِّ من ذاكرتنا، كما أنَّنا لا نريد فعل ذلك، ما يحافظ على العديد من العادات في مكانها هي المتعةُ التي نحصل عليها من الانغماس فيها[7]، لذا فإنَّنا نتحدَّث عنها، وننجذب إليها كما تنجذب الفراشة إلى النور، نحتفظ بالآثار والأشياء الأخرى التي تذكّرنا بالمتوفّين، ونصنع صوراً لهم، ونروي قصصاً عنهم، لإطالة أمد هذه العادات الذهنيَّة حتَّى عندما تبدأ في التلاشي، لكن هناكَ مشكلة: الجثَّة هي مصدرٌ قويٌّ للمرض، وقد طوَّرنا آليَّةً فطريَّةً تعويضيَّةً قويَّةً للاشمئزاز، لجعلنا نحافظ على مسافةٍ بعيدة؛ يسحبنا الشوق ويدفعنا الاشمئزاز إلى الوراء، نحن في حالة اضطّراب عندما نواجه جثَّة أحد الأحبَّة، ولا عجب أن تلعب هذه الأزمة دوراً محوريَّاً جدّاً في ولادة الأديان في كلِّ مكان، كما يؤكّد بوير (2001، ص 203)، يجب عمل شيءٍ ما بالجثَّة، ويجب أن يكون شيئاً يرضي أو يخفّف من الدوافع الفطريَّة المتنافسة للسلطة الديكتاتوريَّة.

ما يبدو أنّه تطوَّرٌ في كلِّ مكان، خدعةٌ جيّدةٌ للتعامل مع موقفٍ يائس، هو احتفالٌ مفصَّلٌ

يزيل الجسد الخطير من البيئة اليوميَّة، إمَّا عن طريق الدفن أو الحرق، جنباً إلى جنب مع تفسير الحماسة المستمرَّة تجاه عادات الموقف المتعمَّد التي يتشاركها كلُّ مَن عرف المتوفَّى بكونه الوجود غير المرئي للفاعل كروح، الشخص الافتراضي الذي تخلقه العقليَّات المضطَّربة للناجين، وهو تقريباً حيٌّ وقويٌّ مثل شخصٍ حيّ.

ما هو الدور الذي تلعبه اللغة في هذا، هل نحن النوع الوحيد من الثدييات التي دفنت موتاها، لأنَّنا الوحيدون الذين يمكنهم التحدُّث عمَّا يتشاركونه عندما نواجه جثَّةً جديدة، هل تُظهر ممارسات الدفن لدى إنسان نياندرتال أنَّه من المؤكَّد أنَّه أمتلك لغةً واضحةً تماماً؟ هذه بعض الأسئلة التي يجب أن نحاول الإجابة عليها.

تذخر لغات العالم بأفعال الأصناف الأساسيَّة للتلاعب بالرغبة والمعتقد: نحن نتظاهر ونكذب، لكنَّنا أيضاً نخدع ونشكُّ ونتملَّقُ ونتفاخر ونغري ونثني ونأمر ونحظر ونعصي، على سبيل المثال.

هل كانت براعتنا كعلماء نفسٍ طبيعيين شرطاً أساسيّاً لمقدرتنا اللغويَّة، أم العكس هو الصحيح، وهل جعل استخدامنا للغة مواهبنا النفسيَّة ممكنة؟ هذا مجالٌ آخر مثيرٌ للجدل في البحث الحالي، وربَّما تكون الحقيقة أنَّه كانت هناك عمليَّةٌ تطوُّريَّةٌ مشتركة، حيث تتغذَّى كلُّ موهبةٍ على الأخرى.

من المعقول أنَّ فعل الاتصال اللفظي نفسه يتطلَّب بعض التقدير للقصديَّة من الدرجة الثالثة: أنا أريد أن أجعلك تدرك أنَّني أحاول إخبارك، لجعلك تصدّق ما أقوله (Grice، 1957، 1969؛ Dennett، 1978؛ انظر أيضاً Sperber and Wilson، 1986)، ولكن مثل فراخ الوقواق الوليدة، يمكن للطفل أن يباشر طريقه جاهلاً، ويحقّق تواصلاً ناجحاً دون أن يكون لديه أيُّ تقديرٍ منعكسٍ للبنية التي يقوم عليها كلُّ التواصل المتعمَّد، دون الاعتراف بأنَّه يتواصل إطلاقاً.

بمجرَّد أن تبدأ الحديث (مع أشخاصٍ آخرين)، سوف تكتسب كلماتٍ جديدة، تفهم

بعضها أكثر ممَّا تفهم البعض الآخر؛ ستساعد بعض عناصر الإدراك هذه، مثل كلمات «يتظاهر» و«تفاخر» و«إغراء»، في جذب انتباهك وتركيزه على حالات التظاهر والتباهي والإغراء، ممَّا يمنحك الكثير من التدريبات غير المكلفة في علم النفس الشعبي.

في حين أنَّ الشمبانزي وبعض الثدييات الأخرى قد تكون أيضاً «علماء نفسٍ طبيعيين»، كما أسماها نيكولاس همفري (1978)، نظراً لأنَّها تفتقر إلى اللغة، فلن تتمكَّن من مقارنة الملاحظات أو مناقشة الحالات مع علماء النفس الطبيعي الآخرين.

إنَّ التعبير عن الموقف المتعمَّد في الاتصال اللفظي لا يزيد من حساسيَّة وتمييز وتعدُّد استخدامات علماء النفس الشعبيين فقط، بل يزيد أيضاً من حدَّة الظواهر النفسيَّة الشعبيَّة التي يعتنون بها ويعقّدها، قد يكون الثعلب ماكراً، لكنَّ الشخص الذي يمكن أن يتملَّق بقوله: إنَّك ماكرٌ مثل الثعلب، لديه حيلٌ كثيرةٌ في جعبته أكثر من الثعلب، بهامشٍ واسع.

أعطتنا اللغة القدرة على تذكير أنفسنا بالأشياء الواقعة خارج نطاق حواسنا الآن، للتركيز على الموضوعات التي قد تكون بعيدة المنال، وهذا سلَّط الضوء على عالمٍ افتراضي خيالي، يسكنه الفاعلون الأكثر أهميَّةً بالنسبة لنا، كلٌّ من الأحياء غير الحاضرين والأموات الذين رحلوا ولم ننسهم. متحرّرين من الضغط التصحيحي الناجم عن المواجهات الفعليَّة الإضافيَّة في العالم الحقيقي، كان هؤلاء الفاعلون الافتراضيُّون أحراراً في التطوُّر في أذهاننا لتضخيم تطلُّعاتنا أو مخاوفنا.

يجعل الغيابُ القلبَ أكثر ولعاً أو أكثر رعباً – إذا كان الغائب مخيفاً إلى حدٍما في الواقع. وما يزال هذا الأمر غير كافٍ لجعل أسلافنا يعتنقون الدين، ولكنَّه يدفعهم إلى المثابرة –لدرجة الهوس– على التدريب والتوسُّع في بعض عاداتهم الفكريَّة.

الفصل الرابع: بالعودة إلى عصور ما قبل التاريخ البشري وبمساعدة التفكير البيولوجي، يمكننا تخمين كيف ظهرت الأديان الشعبيَّة دون تصميمٍ واعٍ ومتعمَّد، تماماً كما ظهرت اللغات من خلال عمليَّاتٍ مترابطةٍ للتطوُّر البيولوجي والثقافي.

في جذور الإيمان البشري بالآلهة تكمن غريزةٌ كامنةٌ في شعيراتٍ حسَّاسةٍ للحركة: الميل إلى إسناد الفاعليَّة - المعتقدات والرغبات والحالات العقليَّة الأخرى - إلى أيّ شيءٍ معقَّدٍ يتحرَّك.

الفصل الخامس: إنَّ الإنذارات الكاذبة الناتجة عن نزعتنا المفرطة في البحث عن فاعلين أينما كان الفعل هي المثيرات التي تنمو حولها لآلئ الدين. فقط أفضل المتغيّرات وأكثرها ملائمةً للعقل هي التي تنتشر من خلال تلبية الاحتياجات النفسيَّة والجسديَّة العميقة، أو هكذا تبدو، ومن ثمَّ يتمُّ تنقيحها من خلال التشذيب المستمرّ لعمليَّات الاختيار.

الفصل الخامس

الدين: الأيام الأولى

1- فاعلون كثر: التنافس على مساحة البروفا

«قد أكرّر لنفسي ببطءٍ وهدوء، قائمةً من الاقتباسات الجميلة من العقول العميقة، إذا كان بإمكاني تذكّر أيّ من الأشياء اللعينة»- دوروثي باركر

ما يبدأ بوصفه كماليَّاتٍ مفيدةً تمنحك ميزةً في عالم سريعِ الحركة، يتطوَّر إلى ضرورات، واليوم، نتساءل جميعاً كيف يمكننا العيش من دون هواتفنا ورخص القيادة وبطاقات الائتمان وأجهزة الكمبيوتر الخاصَّة بنا، كذلك كان الأمر في السابق مع اللغة والموقف المتعمَّد؛ ما بدأ كخدعةٍ جيّدة سرعان ما أصبح ضرورةً عمليَّةً للحياة البشريَّة، حيث أصبح أسلافنا اجتماعيين أكثر فأكثر، ولغويين أكثر فأكثر، وكما لوحظ بالفعل بالنسبة للحالة الأبسط لـ HADD، هناك احتمال وجود الكثير من الأشياء الجيّدة.

إنَّ التجربة المستمرَّة لوجود المعارف الراحلين كأشباح ليست هي التجاوز الوحيد للموقف المتعمَّد في حياة أسلافنا، يُطلق على ممارسة الإسناد المفرط للنوايا إلى الأشياء المتحرّكة في البيئة تسمية الأرواحيَّة[1]، والمقصود بها حرفيّاً إعطاء روحٍ لأي شيءٍ متحرّك.

(1) مذهب الأرواحية: عزو الروح إلى النباتات والأشياء غير الحية والظواهر الطبيعية.

الأشخاص الذين يتملّقون بمحبّة سيّاراتهم الغريبة أو يشتمون أجهزة الكمبيوتر الخاصّة بهم يظهرون أشكالاً أثريّةً للأرواحيّة، ربّما لا يأخذون أفعال الكلام الخاصّة بهم على محمل الجدّ تماماً، لكنّهم ينغمسون فقط في شيءٍ يجعلهم يشعرون بتحسّن، وحقيقة أنّ ذلك يجعلهم يشعرون بتحسّن، وهو أمرٌ شائعٌ في كلّ الثقافات، تشير إلى مدى عمق جذور الحاجة إلى التعامل مع الأشياء - وخاصّةً الأشياء المحبطة - كفاعلين لديهم معتقداتٌ ورغباتٌ في البيولوجيا البشريّة، ولكن إذا كانت نوبات الأرواحيّة اليوم تميل إلى أن تكون ساخرةً ومخفّفة، فقد كان هناك وقت تمّ فيه أخذ رغبة النهر في التدفّق إلى البحر، والنيّة الحميدة أو الشريرة لسُحب المطر -حرفيّاً وجدّيّاً- لدرجة أنّها أصبحت مسألة حياة أو موت لتلك النفوس المسكينة التي ضُحّيَ بها لإرضاء الرغبات النّهمة لإله المطر، على سبيل المثال.

يمكن القول: إنّ الأشكال البسيطة لما يمكن أن نطلق عليه الأروحيّة العمليّة ليست أخطاءً إطلاقاً، ولكنّها طرقٌ مفيدةٌ للغاية لتتبُّع ميول الأشياء المصمّمة، الحيّة أو المصطنعة؛ البستانيُّ الذي يحاول اكتشاف ما تفضّله أزهاره وخضرواته المختلفة، أو يخدع غصن قرانيا (dogwood)[1] عن طريق إحضاره إلى داخل المنزل الدافئ ليعتقد أنّه الربيع ويفتح براعمه، ليس مضطّراً للخروج والتساؤل عمّا تدور حوله أحلام زهور البتونيا.

يمكن أن يكون من المفيد في بعض الأحيان وصف الأنظمة المادية غير المصمّمة بعبارات مقصودة أو أرواحيّة: لا يريد النهر العودة إلى المحيط حرفيّاً، لكنّ الماء يبحث عن مستقرّه- كما يقولون- ويبحث البرق عن أفضل مسارٍ إلى الأرض، لذا ليس من المستغرب أنّ محاولة تفسير الأنماط التي تمّ تمييزها في العالم غالباً ما تصطدم بالأرواحيّة بوصفها تقريباً جيّداً - تنبؤيّاً في الواقع - لبعض الظواهر الأساسيّة المعقّدة جدّاً.

لكن في بعض الأحيان، يصبح تكتيك البحث عن منظور الموقف المتعمّد غير مثمر، فبقدر ما أحبَّ أسلافنا التنبّؤ بأحوال الجو من خلال معرفة ما يريده، وما هي المعتقدات التي يحملها عنهم، إلّا أن ذلك لم ينجح.

(1) قرانيا: جنس نباتي ينتمي إلى الفصيلة القرانية، ويضم ما بين ثلاثة وستين نوعاً من النباتات الخشبية.

لكن لاشك أنه غالباً ما بدا فعالاً، فقد كوفئت رقصات المطر بين الحين والآخر بالمطر.

منذ عدَّة سنوات، أظهر عالم النفس السلوكي ب.ف. سكينر (1948) التأثير المذهل «لخرافة» الحمام الذي تمَّ وضعه في جدول تعزيز عشوائي[1]، في كثيرٍ من الأحيان، بصرف النظر عمَّا كان الحمام يفعله في الوقت الحالي، كان ينقر وتقدَّم له مكافأةٌ من الطعام، وسرعان ما كان الحمام الذي تمَّ وضعه في هذا الجدول العشوائي يقوم «برقصاتٍ» متقنة، يتمايل ويدور ويرفع أعناقه.

من الصعب مقاومة وضع مناجاةٍ في أدمغة هذه الطيور: «الآن، دعنا نرى: في المرة الأخيرة التي حصلت فيها على المكافأة، قمت بالدوران مرَّةً واحدة ورفعت رقبتي، لنحاول مرَّةً أخرى، لا، لا مكافأة، ربَّما لم أقم بالدوران الكافي، لا، ربَّما يجب أن أتمايل مرَّةً واحدة قبل الدوران والرفع، نعم! حسناً، الآن، ماذا فعلت للتو؟ «لست بحاجةٍ إلى لغةٍ لتكونَ عرضةً لمثل هذه الأوهام المغرية.

تضفي مناجاة النفس الطابع الدرامي على الديناميكيَّات التي تنتج التأثير، والتي لا تتطلَّب تفكيراً واعياً، بل مجرَّد تعزيز، لكن في الأنواع التي تمثِّل نفسها والفاعلين الآخرين لنفسها، يمكن مضاعفة التأثير، فإذا كان من الممكن إنتاج مثل هذا التأثير السلوكي الباهظ اللافت للنظر في الحمام عن طريق جعله يتجوَّل في فخِّ التعزيز العشوائي، فليس من الصَّعب تصديق أنَّه ربَّما غُرِسَت تأثيراتٌ مماثلةٌ من خلال حدثٍ سعيد في أذهان أسلافنا، الذين يشجّعهم حبُّهم المتأصّل للموقف المتعمَّد، على إضافة فاعلين غير مرئيين أو غيرهم من الأقزام[2] homunculi ليكونوا محرّكي الدمى السّريين وراء هذه الظاهرة المحيرّة.

من المؤكَّد أنَّ الغيوم لا تبدو كفاعلاتٍ لديها معتقداتٌ ورغبات، لذلك من الطبيعي بلا شكٍّ أن نفترض أنَّها بالفعل أشياء خاملةٌ وسلبيَّة يتمُّ التلاعب بها من قبل فاعلين

---

(1) جدول التعزيز: هو في الأساس قاعدة تنصُّ على حالات السلوك التي سيتمُّ تعزيزها، ففي بعض الحالات، يمكن تعزيز السلوك في كلِّ مرَّةٍ يحدث فيها، كما أنَّه في بعض الأحيان، قد لا يتم تعزيز السلوك إطلاقاً.

(2) homunculus: كائنٌ بشريٌّ مجهري، لكنَّه مكتمل التكوين كان يُعتقد سابقاً أنَّ الجنين ينمو منه.

خفيين يبدون كفاعلين: آلهة المطر وآلهة السحاب وما شابه ذلك، إن أمكننا رؤيتهم فقط .

هذه الفكرة المتناقضة بشكلٍ مثير للفضول - شيءٌ غير مرئي يبدو كشخص (له رأسٌ وعينان وذراعان وأرجل، وربَّما يرتدي خوذةً خاصَّة)- تختلف عن التركيبات الأخرى المتناقضة مع الذات.

ضع في حسبانك فكرة الصندوق الذي لا يحتوي على مساحةٍ داخليَّةٍ لوضع الأشياء فيه، أو سائلٍ غير مبلَّل، بعبارةٍ فجَّة، هذه الأفكار ليست مثيرةً للاهتمام بما يكفي لتكون محيّرةً لفترةٍ طويلةٍ جدّاً، فبعض الهراء يلفت الانتباه أكثر من غيره، لماذا؟ فقط لأنَّ ذاكرتنا ليست حياديَّةً تجاه المحتوى الذي تخزّنه.

نجد بعض الأشياء أكثر قابليَّةً للتذكّر أكثر من غيرها، وبعض الأشياء مثيرةٌ للاهتمام لدرجةِ أنَّها سريعة الاستحضار من الذاكرة ولا تنسى، ولا يمكن تذكّر بعض الأشياء مثل هذه السلسلة العشوائيَّة من الكلمات «مدرّبٌ متطوِّع بصرف النظر عن تمرين المحكمة» (التي اقتطعتها «عشوائيّاً» من أول خبرٍ في جريدةٍ وقعت عيني عليها الآن) لأكثر من بضع ثوانٍ فقط، إذا كررتها لنفسك عمداً عشرات المرّات، أو اختلقت قصَّةً مثيرةً للاهتمام بطريقةٍ ما تجعل هذه الكلمات منطقيَّةً في هذا التسلسل فقط.

ندرك اليوم بشكلٍ مؤلم أنَّ اهتمامنا هو سلعةٌ محدودةٌ يسعى العديد من المتنافسين لزيادة حصَّتهم منها، هذا الكمُّ الهائل من المعلومات في الإعلانات التي تستهدفنا من جميع الجهات، بالإضافة إلى مجموعةٍ من مصادر التشتيت الأخرى، ليس بالأمر الجديد، لكنَّنا أصبحنا واعين ذاتيّاً لها، الآن بعد أن أصبح هناك الآلاف من الأشخاص المتخصّصين في تصميمٍ مبتكرٍ لافتٍ وجاذبٍ للانتباه.

كان علينا - كما هو حال جميع الكائنات الحيَّة - أن نمتلك دوماً مرشّحاتٍ وتحيُّزاتٍ مدمجةً في أنظمتنا العصبيَّة لفحص العرض العابر، بحثاً عن أشياء تستحقُّ الاحتفاظ بها،

وتُفضِّل هذه المرشّحاتُ أنواعاً معيَّنةً من الاستثناءات أو الشذوذات، لقد أطلق باسكال بوير (2001) على هذه الاستثناءات تسمية «غير البداهيّة»[1]، لكنَّه يقصد ذلك بمعنى تقني مقيَّدٍ إلى حدٍّ ما: الشذوذات غير البداهيّة التي تستحقُّ الانتباه بشكلٍ خاص، ولا تُنسى إذا كانت تنتهك واحداً أو اثنين من الافتراضات الاعتياديَّة الأساسيَّة حول فئةٍ هامة، مثل شخصٍ أو نباتٍ أو أداة.

لا تستطيع التلفيقات غير القابلة للتصنيف بيسر، بسبب عدم منطقيَّتها، الصمود في المنافسة للاستحواذ على الاهتمام، كما أنَّ التلفيقات الضعيفة جدًّا ليست مثيرة للاهتمام بدرجةٍ كافية، إنَّ الفأس غير المرئيَّة من دون مقبض ورأسٍ كروي، هي مجرَّد هراءٍ مزعج، والفأس المصنوعة من الجبن هي أمرٌ مثيرٌ للدهشة بعض الشيء (هناك فنَّانون مفاهيميُّون[2] يكسبون دخلاً جيّداً بإنتاج مثل هذه الخدع)، لكنَّ الفأس الناطقة: آه، لقد حصلنا الآن على شيءٍ لجذب الانتباه!.

ضع هاتين الفكرتين معاً: تحيُّزٌ مفرطُ النشاط يبحث عن فاعل، وضعفٌ تجاه أنواعٍ معيَّنةٍ من المجموعاتِ التي لا تُنسى، وستحصل على نوعٍ من الغرائب المولّدة للخيال، وفي كلِّ مرَّةٍ يحدث شيءٌ محيّر، فإنَّه يثير نوعاً من دهشة الفضول، «مَن هناك؟» يكون الردُّ بطرح «فرضيَّاتٍ» من نوع: «ربَّما يكون «جون»، ربَّما يكون ذئباً، ربَّما يكون فرعاً سقط عن الشجرة، ربَّما شجرةٌ يمكنها المشي- لكن مهلاً، ربَّما تكون شجرةً يمكنها المشي!» يمكننا أن نفترض أنَّ هذه العمليَّة لا تولّد أيَّ شيءٍ لديه القدرة على البقاء تقريباً- ملايين أو مليارات من شطحات الخيال الصغيرة التي تتبخَّر على الفور تقريباً إلى أن يولد شيءٌ ما من هذه الشطحات الخياليَّة، لذا في يوم من الأيام، وفي اللحظة المناسبة تماماً، مع النوع الصحيح من الحماسة، وبتكرارها ليس مرَّةً واحدة، وليس مرَّتين فقط، ولكن عدَّة مرات، تُولَد سلسلةٌ من

---

(1) غير البداهي counterintuitive: هو ما يتعارض مع الحدس أو توقّع الفطرة السليمة (ولكن غالباً ما يكون صحيحاً).

(2) الفن المفاهيمي (بالإنجليزية: Conceptional art): هو الفن الذي يكون فيه للمفهوم (المفاهيم) أو الفكرة (الأفكار) التي ينطوي عليها العمل الأسبقية على الاهتمامات الجمالية والتقنية والمادية التقليدية.

الأفكار: سلالة شجرة المشي.

في كلّ مرَّةٍ يتمُّ فيها توجيه عقل البادئ إلى مراجعة الفكرة الغريبة، ليس بأسلوبٍ متعمَّد، ولكن من دون هدف، تصبح الفكرة أقوى قليلاً؛ بمعنى أنَّه من المرجَّح أن تخطر على عقل البادئ مرَّةً بعد مرَّة.

تملك هذه الفكرة قوَّة تكرارٍ ذاتي أكثر قليلاً من الأوهام الأخرى التي تتنافس معها طوال الوقت في الدماغ، لم تصبح ميماً بعد، ما تزال عنصراً يفلت من عقلٍ فردي وينتشر عبر الثقافة الإنسانيَّة، لكنَّه طليعة ميمٍ جيِّد: مهووسٌ قليلاً؛ أي متكررٌ كثيراً، كثيراً ما يتمُّ إدراكه – تعلّق بفكرة.

(التطوُّر هو كلُّ شيءٍ عن العمليَّات التي لا تحدث أبداً، فكلُّ ولادةٍ في كلِّ سلالة هي حدث انتواعٍ[1] محتمل، لكنَّ الانتواع لا يحدث غالباً، ولا يُحتَمَل حدوثه مرَّةً كلَّ مليونٍ ولادة، الطفرات في الحمض النووي لا تحدث أبداً – ولا يُحتملُ حدوثها مرَّةً من كلِّ تريليون نسخة – ولكنَّ التطوُّر يعتمد على ذلك؛ خذ مجموعة الحوادث النادرة، وصنِّفها إلى الحوادث السعيدة، والحوادث المحايدة، والحوادث المميتة، من ثمَّ قم بتضخيم تأثيرات الحوادث السعيدة – التي تحدث تلقائيّاً عندما يكون لديك تكرار ومنافسة –وستحصل على التطوُّر).

غالباً ما يتجاهل علماء الميم المُدَّعون حقيقة أنَّ جزءاً من دورة «حياة» الميم هو تنافسه اللحظيُّ مع الأفكار الأخرى، وليس فقط الميمات الأخرى، ولكن كلُّ فكرة أخرى يمكن لأيّ شخصٍ أن يفكّر فيها داخل عقل مضيف.

التمرين المتعمَّد أو غير الطوعي هو تكرار، يمكننا محاولة صنع شيءٍ ما على شكل ميم – أو مجرَّد ذكرى – من خلال تكراره عمداً (مثل رقم هاتف، قاعدة يجب اتّباعها)، أو ترك «الطبيعة تأخذ مجراها»، ستقوم تحيُّزات دماغنا الفطريَّة تلقائيّاً بتكرار الأشياء التي تدغدغها، ربَّما يكون هذا هو مصدر الذاكرة العرضيَّة، وقدرتنا على تذكُّر الأحداث في حياتنا، ربَّما لا تتذكّر ما الذي

(1) الانتواع speciation: تكوين أنواع جديدة ومتميزة في سياق التطور.

تناولته على وجبة الفطور في عيد ميلادك الأخير، وربَّما تتذكَّر ما الذي ارتديته في حفل زفافك، ربَّما يمكنك أن تتذكّره، لأنَّك قد راجعته مرَّاتٍ عديدة، قبل وأثناء وبعد الزفاف.

على عكس ذاكرة الكمبيوتر، وهي مخزنٌ متكافىء الفرص لتسجيل كلِّ ما يخزّن فيه، فإنَّ ذاكرة الدماغ البشري تنافسيَّةٌ ومنحازة، لقد صُمِّمَت خلال دهورٍ من التطوُّر لتذكّر بعض أنواع الأشياء بسهولةٍ أكبر من غيرها، يقوم دماغنا بذلك جزئيّاً عن طريق التدريب التفاضلي، والتركيز على ما هو حيويٌّ ويميل إلى تجاهل الأمور التافهة بعد تمريرةٍ واحدة، إنَّه يقوم بعملٍ جيّدٍ جدّاً، حيث يعتمد على الميزات التي تتوافق بالصدفة مع ما كان حيويّاً في الماضي.

نصيحةٌ جيّدةٌ لميمٍ محتمل هي: إذا كنت تريد الكثير من التدريبات (المضاعفات)، فحاول أن تبدو مهمّاً!

إنَّ ذاكرة الإنسان متحيّزةٌ لصالح التوليفات الحيويَّة، ولكن من المفترض أن تكون كذلك الذاكرة الموجودة في أدمغة جميع الحيوانات الأخرى، ربَّما كانت ذاكرة الحيوانات منيعةً نسبيّاً على الخيال، ولكن لسببٍ بسيط: الافتقار إلى اللغة. لم يكن لدى أدمغة الحيوانات طريقةٌ لإشغال نفسها بانفجار مجموعاتٍ غير موجودةٍ في البيئة الطبيعيَّة، كيف يمكن لقردٍ قلقٍ أن يصنع مزيجاً غير منطقي من شجرةٍ تمشي أو موزةٍ غير مرئيَّة؟ أفكارٌ قد تفتن عقل القرد إذا تمَّ تقديمها إليه فقط.

هل تعلم أنَّ مثل هذه العمليَّة المولِّدة للخيال تحدث (فقط لجنسنا البشري) منذ آلاف السنين؟

لا، لكنَّه احتمالٌ جدّيٌّ يستحقُّ المزيد من البحث، يمكن لهذه الفرضيَّة، باستخدام المواد التي كان من الممكن أن يطبّقها التطوُّر لأغراضٍ أخرى، أن تُفَسِّر بشكلٍ ملحوظ الخيال الخصب المسؤول بطريقةٍ ما عن عالم المخلوقات الأسطوريَّة والشياطين، وبما أنَّ هذه المخلوقات الأسطوريَّةَ لم تكن موجودةً أبداً، كان لا بدَّ من «اختراعها»، إمَّا عن قصدٍ أو عن غير قصد (بالطريقة نفسها التي اختُرِعَت بها اللغات).

إنَّها إبداعاتٌ باهظة الثمن، وكان لا بدَّ من إنشاء البحث والتطوير المطلوب للمهمَّة من خلال شيءٍ يمكن أن يبرّر نفسه، لقد تُرِكَت الفرضيَّة مبهمةً إلى حدٍّ كبيرٍ في الوقت الحالي، ولكن هناك المزيد من الأشكال المقيّدة لها، والتي لديها ميزةٌ كبيرةٌ تتمثَّل في وجود نتائج قابلةٍ للاختبار. يمكننا أن نبدأ التنقيب في الميثولوجيا العالمية بحثاً عن أنماطٍ يمكن توقُّعها بواسطة بعض نسخ الفرضيَّة دون غيرها، ولا يتعيَّن علينا تقييد أنفسنا بالجنس البشري.

قد تبدأ التجارب على غرار إثارة سكينر للخرافات حول الحمام في الكشف عن التحيُّزات وخطوط الصَّدع في آليَّات ذاكرة القرد، أظهرت تجارب نيكو تينبرجن على النوارس (1948، 1959) انحيازاتها الإدراكيَّة: لدى أنثى النورس البالغة بقعةٌ برتقاليَّةٌ على منقارها، تقوم فراخها غريزيَّاً بالنقر عليها، لتحفيز الأنثى على التقيُّؤ وإطعامها، أظهر Tinbergen أنَّ الفراخ سوف تنقر بسهولةٍ أكبر على نماذج الكرتون المبالغ فيها من البقعة البرتقاليَّة، ما يسمَّى بالمنبّهات الخارقة.

يلاحظ باسكال بوير (2001) أنَّ البشر اكتشفوا واستغلُّوا محفّزاتهم الخارقة على مرِّ العصور:

لا يوجد مجتمعٌ بشريٌّ من دون بعض التقاليد الموسيقيَّة، على الرَّغم من اختلاف التقاليد بشكلٍ كبير، يمكن العثور على بعض المبادئ في كلِّ مكان، وعلى سبيل المثال، تكون الأصوات الموسيقيَّة دائماً أقرب إلى الصوت النقيّ منها إلى الضوضاء، وللمبالغة قليلاً، فإنَّ ما تحصل عليه من الأصوات الموسيقيَّة عبارةٌ عن أحرف علَّةٍ فائقة (ذات تردُّداتٍ نقيَّةٍ بدلاً من الأصوات المختلطة التي تحدّد أحرف العلَّة العاديَّة) وأحرفٍ ساكنةٍ نقيَّة (التي تنتجها الآلات الإيقاعيَّة وضربات معظم الآلات).

تجعل هذه الخصائص الموسيقى شكلاً مكثّفاً من التجربة الصوتيَّة التي تتلقَّى القشرة المخيَّة جرعاتٍ صافيةً منها، ومن ثمَّ جرعاتٍ مكثَّفةً، ممَّا ينشّطها عادةً.

هذه الظاهرة ليست حكراً على الموسيقى، يملأ البشر في كلِّ مكانٍ بيئاتهم أيضاً بالقطع

الفنيَّة التي تزيد من تحفيز قشرتهم البصريَّة؛ من خلال توفير لونٍ نقي مشبع بدلاً من البنّي الباهت والأخضر في بيئاتهم المألوفة مثلاً، وبالطريقة نفسها، فإنَّ نظامنا البصريَّ حسَّاسٌ للتناظر في الأشياء.

التناظر الثنائيُّ على وجه الخصوص مهمٌّ جداً؛ عندما ترى جانبي وجه حيوانٍ أو شخصٍ متشابهين، فهذا يعني أنَّهما يواجهانك، وهي سمةٌ ذات صلةٍ بالتفاعل مع النَّاس، ولكن أيضاً مع الفريسة والحيوانات المفترسة، ومرَّةً أخرى، لا يمكنك العثور على مجموعةٍ بشريَّةٍ لا تنتج أدوات بصريَّةً بمثل هذه الترتيبات المتناسقة، من أبسط تقنيات المكياج أو تصفيف الشعر، إلى أنماط النسيج والديكور الداخلي. [ص. 132-33]

لماذا لا يوجد فنٌّ لدى الأنواع الأخرى؟

مرَّةً أخرى، الجواب يقترح نفسه - ولكنَّ ذلك لا يعني أنَّه مثبت، بل قابلٌ للإثبات - إنَّهم يفتقرون إلى اللغة، ويفتقرون إلى الأدوات اللازمة لإنشاء مجموعة محفِّزاتٍ بديلة، ومن ثمَّ يفتقرون إلى المنظور الذي يسمح باستكشاف التوليفات الخاصَّة بهم[1] باستخدام الملاحظة الدقيقة والتجربة والخطأ.

ابتكر «تنبرجين» بذكاء المنبّهات الخارقة التي أغرت طيوره (والحيوانات الأخرى) بمجموعةٍ من السلوكيَّات الغريبة، لا شكَّ أنَّ الحيوانات توقع نفسها في الفخّ في بعض الأحيان عن طريق اكتشاف منبّهاتٍ غير طبيعيَّةٍ في الطبيعة عن غير قصد، وجعلها تفعل فعلها، ولكن ماذا سيفعلون بعد ذلك؟

يكررون ذلك مرَّةً أخرى إذا شعروا بالرضا، ولكن من المحتمل ألا يكون توليد التنوّع الذي يعتمد عليه استكشاف التصميم الحقيقي ممكناً بالنسبة لهم.

لتلخيص القصَّة: إنَّ الحوريَّات والجنيَّات والعفاريتَ والشياطين التي تزخر بها أساطير الشعوب كلّها، هي نسلٌ خياليٌّ لعادةٍ مفرطة النشاط تتمثَّل في إيجاد شمَّاعةٍ نعلّق عليها حيرتنا أو مخاوفنا، ويُوَلِّد هذا -من دون تفكير- كمَّاً هائلاً من الأفكار الفاعلة، ومعظمها أغبى

من أن يلفت انتباهنا للحظة؛ فقط قلّةٌ من الأفكار المصمَّمة جيّداً هي من تخوض التجربة، وتتحوَّر وتتحسَّن كلَّما تقدَّمت.

الأفكار التي تتمُّ مشاركتها وتذكّرها هي الفائزة في المليارات من مسابقات وقت التدريب في أدمغة أسلافنا، هذه -بالطبع- ليست فكرةً جديدة، بل مجرَّد توضيحٍ وامتدادٍ لفكرةٍ كانت موجودةً منذ أجيال، وكما توقَّع داروين نفسه:

«يبدو أنَّ الاعتقاد بالقوى غير المرئيَّة أو الروحيَّة عالميٌّ تقريباً، ولا يصعب فهم كيفيَّة ظهوره، بمجرَّد أن تتطوَّر الملكات المهمَّة للخيال والتعجُّب والفضول جزئيّاً، جنباً إلى جنبٍ مع بعضٍ من قوَّة التفكير، كان من الطبيعي أن يتوق الإنسان إلى فهم ما يدور حوله، وأن يتكهَّن بوجوده بشكلٍ غامض». [1886، ص. 65]

جيّدٌ حتَّى الآن، لكنَّ ما وضعناه في الحسبان هي الخرافات وليس الدين؛ البحث عن الجانِ في الحديقة، أو البعبعِ تحت سريرك ليس ديناً.

ما المفقود؟ إنَّه شيءٌ واحد، الإيمان!

على الرَّغم من أنَّ داروين يتحدَّث عن الإيمان بالكيانات الروحيَّة، إلَّا أنَّنا لم نقدّم سبباً يكفل أيَّ شيءٍ بهذه القوَّة، لم يُقل أيُّ شيءٍ حتَّى الآن عن الاضطرار إلى تصديق فكرة لعبة الحصان التي يعادُ تدويرها في ذهنك؛ قد يكون حدساً، أو تعجُّباً، أو حتَّى إنكاراً قلقاً لشيءٍ من جنون العظمة، أو مجرَّد جزءٍ آسرٍ من قصَّة.

لم يؤمن أحدٌ من قبل بسندريلا أو ذات الرداء الأحمر، لكنَّ حكاياتهم الخياليَّة نُقِلَت بأمانةٍ تامَّة (مع الطفرات) على مدى أجيالٍ عديدة، العديد من الحكايات الخرافيَّة تعوِّض عن عدم كونها قصصاً حقيقيَّة من خلال وجود مغزىً أخلاقي، ممَّا يمنحها قيمةً واضحة – للرواة والمستمعين – الأمر الذي يعوِّض عن عدم كونها معلوماتٍ عن العالم الواسع، من الواضح أنَّ بعضها يفتقر إلى المغزى – ما الذي تعلّمه شخصيَّة «Goldilocks»[1] لأطفالنا؟ عدم

(1) غولدليلوكس والدببة الثلاثة: هي حكايةٌ خرافيَّةٌ بريطانية من القرن التاسع عشر توجد ثلاث إصدارات

دخول منازل الغرباء.

كما هو معتادٌ في الظروف التطوُّريَّة، هناك انتقال متدرّجٌ للحالات الذهنيَّة البينيَّة التي يجب اجتيازها، من شكِّ الخائف (هل هناك حقّاً سحرةٌ أشرار في الغابة؟) والانبهار المحايد (بساطٌ طائر – تخيَّل فقط!) من خلال عدم اليقين المزعج (حيوان وحيد القرن الخُرافي، حسناً، لم أرَه من قبل) وإلى قناعةٍ قويَّة (الشيطان حقيقيٌّ مثل ذلك الحصان الموجود هناك).

الانبهار كافٍ لتدريب القوَّة والنسخ المتماثل، ويمتلك الجميع تقريباً نسخةً قويَّةً جيِّدةً من فكرة unicorns وحيدات القرن، رغم أنَّ قلَّةً من النَّاس يؤمنون بها، ولكن بالكاد لدى أيِّ شخصٍ فكرةٌ عن pudus[1]، والتي لها ميزةٌ مميّزةٌ تتمثَّل في كونها حقيقيَّة (يمكنك البحث عنها).

هناك الكثير من هذه الأمثلة في الدين أكثر من الانبهار بالكيانات غير البداهيَّة الشبيهة بالفاعلين.

2- الآلهة كجهاتٍ مهتمَّة:

«لماذا الآلهة فوقي

من يجب أن يكون على دراية

فكّر بي قليلاً جدَّاً

يسمحون لك بالذهاب...»

— كول بورتر، «Every Time We Say Goodbye»

منها، تحكي النسخة الأصليَّة من الحكاية عن امرأة عجوز سيِّئة السلوك تدخل منزل ثلاثة من الدببة أثناء تواجدهم خارجه، تجلس على كراسيهم، وتأكل بعضاً من طعامهم، وتنام على أحد أسرتهم

(1) pudus: غزالٌ صغيرٌ جدَّاً ونادر، يوجد في جبال الأنديز السفلى بأمريكا الجنوبية

«لا بدَّ أنَّ عبادة الأسلاف فكرةٌ جذَّابةٌ لمن هم على وشك أن يصبحوا أسلافاً» — ستيفن بينكر، كيف يعمل العقل

بينما تستخدم الأنواع الأخرى الموقف المتعمَّد بشكلٍ محدود - لتوقّع تحرُّكات المفترس والفريسة، بالإضافة إلى القليل من التنمُّر والخداع - فنحن كبشرٍ مهووسون بعلاقاتنا الشخصيَّة مع الآخرين: القلق بشأن سمعتنا، ووعودنا والتزاماتنا التي لم يتمَّ الوفاء بها، ومراجعة عواطفنا وولاءاتنا.

على عكس الأنواع الأخرى التي يجب أن تقلق طوال الوقت بشأن وجود الحيوانات المفترسة وتناقص مصادر الغذاء، فقد تبادلنا نحن البشر إلى حدٍّ كبير هذه الاهتمامات الملحَّة للآخرين، والثمن الذي دفعه جنسنا البشري مقابل تأمين العيش في مجموعاتٍ كبيرةٍ من المتواصلين المتفاعلين ذوي الأجنّدات المختلفة، هو أنَّهم يجب أن يتتبَّعوا هذه الأجنّدات المعقَّدة والعلاقات المتغيّرة؛ بمن يمكنني الوثوق، من يثق بي، من هم منافسيَّ وأصدقائي، لمن أدين ومن يدين لي، هل عليَّ أن أسقط ديوني أم أحصّلها؟

يعجُّ العالم البشريُّ بمثل هذه المعلومات الاستراتيجيَّة، حسب مصطلح باسكال بوير، وأكثر ما يهمُّ عنها (كما هو الحال في لعبة الورق) هو: «افتراضنا أنَّ نفاذ الآخرين إلى المعلومات الاستراتيجيَّة أثناء التفاعل الاجتماعي، ليس مثاليّاً ولا أوتوماتيكيّاً» (2001، ص 155).

هل تعلم أنَّني أعلم أنَّها تريد أن تترك زوجها، هل يعلم أحدٌ أنَّني سرقت ذلك الخنزير؟ تعتمد جميع حبكات القصص والمآسي والروايات العظيمة، وكلِّ المواقف الكوميديَّة والكتب المصوَّرة أيضاً، على التوتُّرات والتعقيدات التي تنشأ عن كون الفاعلين في العالم لا يتشاركون جميعاً المعلومات الاستراتيجيَّة نفسها.

كيف يتعامل النَّاس مع كلِّ هذا التعقيد؟[2]

في بعض الأحيان، عندما يتعلَّم النَّاس لعبة ورقٍ جديدة، ينصحهم معلّمهم بوضع كلِّ

أوراقهم مكشوفةً على الطاولة، حتَّى يتمكَّن الجميع من رؤية ما يحمله الآخرون، هذه طريقةٌ ممتازةٌ لتعليم تكتيكات اللعبة، توفِّر دعامةً مؤقَّتةً للخيال - يمكنك في الواقع رؤية ما يخفيه كلُّ شخصٍ عادةً، لذا عليك أن تبني تفكيرك على الحقائق، ولا يتعيَّن عليك تتبُّعها في رأسك، حيث يمكنك فقط النظر إلى الطاولة متى احتجت إلى التذكّر، يساعدك هذا في بناء مهارةٍ في تصوُّر المكان الذي يجب أن تكون فيه البطاقات عندما تكون مخفيَّة.

ما ينجح على طاولة لعب الورق لا يمكن تطبيقه في الحياة الواقعيَّة؛ لا يمكننا حمل الأشخاص على إفشاء جميع أسرارهم أثناء جلسة عمليَّةٍ في الواقع، ولكن يمكننا ممارسة وضعيَّة «غير متصل بالإنترنت» من خلال سرد القصص والاستماع إليها، والتي يرويها فاعلٌ مطَّلعٌ على جميع خفايا الشخصيَّة الخياليَّة أو التَّاريخيَّة.

ماذا لو كان هناك -بالفعل- فاعلون يمكنهم الوصول إلى جميع المعلومات الاستراتيجيَّة؟

يا لها من فكرة، من السهل أن نرى أنَّ مثل هذا الكائن - من وجهة نظر بوير، «فاعلٌ تامُّ النفاذ» - سيكون اختراعاً لافتاً للانتباه، ولكن بصرف النظر عن ذلك، ما الجيد في ذلك، لماذا قد يكون أكثر أهميَّةً للنَّاس من أيِّ خيالٍ آخر؟ ربَّما يساعد النَّاس على تبسيط التفكير الذي يجب القيام به لمعرفةٍ ما يجب فعله بعد ذلك.

تُظهِرُ دراسةٌ استقصائيَّةٌ لأديان العالم أنَّ الفاعلين ذوي النفاذ التامّ، يتحوَّلون دائماً إلى أسلافٍ رحلوا، ولكنهم لم يُنسوا إطلاقاً، وبما أنَّ ذكرى الأب تُصقَل وتفصَّل في العديد من الروايات للأبناء والأحفاد وأحفاد الأحفاد، فقد يكتسب شبحه العديد من الخصائص الغريبة، ولكن في قلب صورته تكمن براعته في قسم المعلومات الاستراتيجيَّة.

تذكّر كيف يبدو أنَّ والدتك ووالدك يعرفان غالباً ما كنت تفكّر فيه، فقط ما هو الأذى الذي كنت تحاول إخفاءه؟

الأجداد هم كذلك، بل وأكثر من ذلك: لا يمكنك الاختباء منهم، ولا حتَّى أفكارك السرِّيَّة، والآن يمكنك إعادة صياغة حيرتك حول ما يجب فعله بعد ذلك: ما الذي يريدني

أجدادي أن أفعله في وضعي الحالي؟ قد لا تكون قادراً على معرفة ما يريده هؤلاء الفاعلون المتخيَّلون منك أن تفعل، ولكن مهما كان الأمر، فهذا ما يجب عليك فعله، ومع ذلك، لماذا نركّز تخيُّلاتنا باستمرار على أسلافنا؟

لقد صاغ نيتشه وفرويد والعديد من منظّري الثقافة الآخرين تخميناتٍ مفصَّلةً حول الدوافع والذكريات اللاشعوريَّة التي نشأت من النضالات الأسطوريَّة العميقة في ماضينا البشري، وقد يكون هناك أشياء ثمينةٌ يمكن استخراجها من هذا الكمّ من التكهُّنات بمجرَّد إعادة فحصها، مع التركيز على فرضيَّاتٍ قابلةٍ للاختبار لعلم النفس التطوُّري، ولكن في غضون ذلك، يمكننا بثقةٍ أكبر تحديد التصرُّف العقلي الأساسي الذي يؤسّس هذا التحيُّز، لأنَّه أقدم بكثيرٍ من جنسنا البشري.

غالباً ما تكرّس الثدييات والطيور، على عكس معظم الحيوانات الأخرى، اهتماماً كبيراً من الوالدين لصغارها، ولكن هناك تباينٌ كبيرٌ في هذا: الأنواع الناضجة هي تلك التي يصطدم فيها الصغار بالأرض، كما يقول المثل: في حين أنَّ الأنواع المبتسرة لديها صغار تتطلَّب رعاية وتدريب الوالدين لفتراتٍ طويلة، توفّر فترة التدريب هذه مجموعةً من الفرص لنقل المعلومات من الوالدين إلى النسل الذي يتجاوز الجينات تماماً.

غالباً ما يُتَّهم علماء الأحياء بأنَّ تفكيرهم مركَّزٌ على الجينات – معتقدين أنَّ كلَّ شيءٍ في علم الأحياء يُفسَّر بفعل الجينات، وبعض علماء الأحياء يبالغون في افتتانهم بالجينات– لذا يجب تذكير هؤلاء بأنَّ الطبيعة الأم ليست مُركَّزة على الجينات؛ أي أنَّ عمليَّة الانتقاء الطبيعي بحدِّ ذاتها لا تتطلَّب أن تنتقل جميع المعلومات القيّمة «عبر السلسلة الوراثيَّة» (عبر الجينات).

على العكس من ذلك، إذا كان بالإمكان التحكُّم بهذا العبء بكفاءةٍ من خلال الاستمراريَّة في العالم الخارجي، الأمر الذي يتناسب مع الطبيعة الأم – فهو يزيل العبء عن الجينوم.

ضع في ذهنك الاستمراريَّات المختلفة التي يعتمد عليها الانتقاء الطبيعي، تلك التي توفّرها القوانين الأساسيَّة للفيزياء (الجاذبيَّة...،إلخ) وتلك التي توفّرها الحالات البيئيَّة

المستمرَّة طويلة الأجل التي يمكن «توقُّع» استمرارها بأمان (مثل ملوحة المحيط، تكوين الغلاف الجوي، وألوان الأشياء التي يمكن استخدامها كمحفِّزات، وما إلى ذلك).

إنَّ القول بأنَّ الانتقاء الطبيعي يعتمد على هذه الانتظامات يعني فقط ما يلي: إنَّه يولّد آليَّاتٍ يتمُّ ضبطها للعمل بشكلٍ جيِّدٍ في البيئات التي تظهر فيها تلك الانتظامات، ويفترض تصميم هذه الآليَّات مسبقاً وجود هذه الانتظامات بالطريقة نفسها التي يفترض بها تصميم المركبة المرّيخيَّة جاذبيَّةَ الكوكب، وصلابة سطحه ودرجة حرارة سطحه، وما إلى ذلك (لم تصمم للعمل في إيفرجليدز، على سبيل المثال)، ثمَّ هناك الانتظامات التي يمكن أن تنتقل من جيلٍ إلى جيل عن طريق التعلُّم الاجتماعي، هذه حالةٌ خاصَّةٌ من انتظاماتٍ بيئيَّةٍ موثوقٍ بها؛ تحظى بأهميَّةٍ أكبر لأنَّها تخضع للانتقاء الطبيعي، بشكلٍ مباشرٍ وغير مباشر.

تمَّ تحسين وتوسيع مسارين سريعين للمعلومات على مرِّ العصور، خضعت مسارات المعلومات الجينيَّة نفسها للتنقيح المستمرّ على مدى مليارات السنين، مع تحسين تصميم الكروموسوم، واختراع وتحسين إنزيمات التصحيح وما إلى ذلك، وباختصار، حصلَ نقلٌ عالي الدقَّة وواسع النطاقِ لمعلوماتٍ جينيَّة، كما تمَّ أيضاً تحسين المسار التعليمي بين الوالدين والطفل من خلال عمليَّةٍ تكراريَّةٍ للتحسين، وكما لاحظ أفيتال وجابلونكا (2000): «إنَّ تطوُّر نقل آليَّات النقل ذو أهميَّةٍ مركزيَّةٍ لتطوُّر التعلُّم والسلوك» (ص 132).

من بين التكيُّفات لتحسين عرض نطاق نقل المعلومات ودقَّة إيصالها من الوالدين إلى الأبناء، هي عمليَّة الوسم (imprinting)، حيث يكون لدى الطفل حديث الولادة دافعٌ غريزيٌّ قويٌّ وسريع التحفيز، للاقتراب والبقاء على مقربةٍ من أول شيءٍ متحرّكٍ كبيرٍ يراه، وفي الثدييات، الرغبة في العثور على الحلمة والتشبُّث بها مرتبطةٌ بالجينات، ولها آثارٌ جانبيَّةٌ يتمُّ استغلالها بأسلوبٍ انتهازي من خلال المزيد من التكيُّفات، وهي إبقاء الصغار حيث يمكنهم مشاهدة الأم عندما لا يتغذَّون.

الرُضَّع ليسوا استثناءً لقواعد الثدييات، وفي الوقت نفسه، في الاتجاه الآخر، تمَّ تصميم الآباء وراثيَّاً للاهتمام بالأطفال الرُضَّع.

في حين أنَّ فراخ النورس تنجذب بشكلٍ لا يقاوم إلى بقعةٍ برتقاليَّة، فإنَّ البشر مفتونون بشكلٍ لا يقاوم بالنِّسَبِ الخاصَّةِ لـ «وجه الطفل»، إنَّها تجعلنا نقول «أوه، كم هي جذَّابة!»،وكما جادل كونراد لورينز (1950) وآخرون: فإنَّ العلاقة بين مظهر وجه الرضيع واستجابة البالغ المتمثّلة بالرعاية، ليست من قبيل الصدفة، ولا يعني ذلك أنَّ وجوه الأطفال محبَّبةٌ بشكلٍ طبيعي نوعاً ما، ولكنَّ هذا هو التطوُّر الذي أصاب أبعاد الوجه كإشارةٍ لتحفيز استجابات الوالدين، وقد تمَّ تحسين هذا الأمر وتكثيفه على مرِّ العصور في العديد من السلالات.

نحن لا نحبُّ الأطفال والجراء لأنَّهم لطيفون، بل على العكس، نحن نراهم لطيفين لأنَّ التطوُّر صمَّمنا لنحبَّ الأشياء التي تبدو هكذا، إنَّ هذه العلاقة قويَّةٌ للغاية حيث استُخدِمَت قياساتُ أحافير الديناصورات حديثةِ الولادة لدعم الفرضيَّة الراديكاليَّة القائلة بأنَّ بعض أنواع الديناصورات كانت مبتسرة (Hopson، 1977؛ Horner، 1984).

يقدّم التحليل الكلاسيكيُّ لستيفن جاي جولد (1980) عن التطوُّرات التدريجيَّة على مدى السنوات لميزات «ميكي ماوس»، عرضاً أنيقاً للطريقة التي يمكن أن يوازي بها التطوُّر الثقافي التطوُّر الجيني، والتركيز على ما يفضّله البشر غريزيَّاً، ولكنَّ ما هو أكثر قوَّةً من تحيُّز البالغين للاستجابة الأبويَّة للأطفال الصغار البريئين، هو تحيُّز هؤلاء الصغار للاستجابة بطاعةٍ لأوامر الوالدين، وهي سمةٌ يمكن ملاحظتها في أشبال الدب، وكذلك الأطفال الرُّضَّع.

لم يكن البحث عن الأساس المنطقي العائم بعيد المنال، فهو يكمن في المصلحة الجينيَّة للوالدين (ولكن ليس بالضرورة من النوع نفسه) تعليم صغارهم – لا أن يضلّلوهم – لذلك من الملائم (والآمن نسبيَّاً) أن يثق المرء بوالديه (لدى Sterelny، 2003، ملاحظاتٌ حادَّةٌ خصوصاً حول المقايضات بين الثقة والشكّ في سباقات التسلُّح التطوُّريَّة للإدراك) بمجرَّد إنشاء مسار المعلومات بين الوالدين والطفل عن طريق التطوُّر الجيني، فإنَّه يصبح جاهزاً لأن يُستخدم – أو يساء استخدامه — بواسطة أيّ فاعلين لديهم أجنّداتٌ خاصَّةٌ بهم، أو بواسطة

أيّة ميماتٍ يصادف امتلاكها لميزاتٍ تستفيد من التحيُّزات المضمَّنة في مسار المعلومات.

لدى والدي المرء - أو من هم بحكم والديه- شيءٌ يشبه الخطَّ السَّاخن المخصَّص للقبول، ليس بقوَّة الاقتراح المنوّم، ولكن في بعض الأحيان شبيهٌ به.

منذ عدَّة سنوات، حاولت ابنتي البالغة من العمر خمس سنواتٍ تقليد أداء لاعبة الجمباز (نادية كومانتشي) على العارضة الأفقيَّة، فقلبت كرسيَّ البيانو، وسحقت بشكلٍ مؤلم اثنين من أطراف أصابعها.

كيف سأهدّئ هذه الطفلة المرتعبة حتَّى أتمكَّن من اصطحابها بأمانٍ إلى غرفة الطوارئ؟

هبط الإلهام: وضعت يدي بالقرب من يدها الصغيرة النابضة وأمرتها بجدّيَّة: «انظري، أندريا، سأخبرك سرَّاً! يمكنك دفع الألم في يديَّ بعقلك، هيَّا ادفعي! حاولت، ونجحت! لقد «دفعت الألم» في يد أبيها، كان ارتياحها (ودهشتها) فوريَّان، واستمرَّ التأثير لدقائق فقط، ولكن مع عددٍ قليلٍ من الإجراءات الإضافيَّة من المسكّنات المرتجلة المنوّمة على طول الطريق، أوصلتها إلى غرفة الطوارئ، حيث يمكنهم إعطاؤها العلاج الإضافيَّ الذي تحتاجه (جرّبها مع طفلك، إذا أتيحت الفرصة، قد تكون محظوظاً بالمثل).

كنت أستغلُّ غرائزها، على الرَّغم من أنَّ السبب المنطقيَّ لم يخطر ببالي إلَّا بعد سنوات، عندما كنت أفكّر في الأمر (وهذا يحّرض سؤالاً تجريبيّاً مثيراً للاهتمام: هل كانت محاولتي في التنويم المغناطيسي الفوري ستنجح على نحوٍ فعَّالٍ مع شخصٍ آخر يبلغ من العمر خمس سنوات، غير معتادٍ عليَّ كشخصٍ ذي سلطة، وإذا كانت عمليَّة الوسم ضمنيَّة، فإلى أيّ حدٍّ يجب أن يكون الطفل صغيراً لكي يتأثَّر بأحد الوالدين؟ كانت ابنتنا تبلغ من العمر ثلاثة أشهر عندما تبنّيناها).

«الانتقاء الطبيعيُّ يبني أدمغة الأطفال مع ميلٍ إلى تصديق ما يقوله لهم آباؤهم وشيوخ القبائل» (Dawkins، 2004a، p. 12)، لذا ليس من المستغرب أن تجد زعماء دينيين في كلِّ جزءٍ من العالم يكتسبون سلطةً إضافيَّةً يوفّرها لهم اتّخاذهم لقب «الأب»،ولكنَّ هذا من

أجل المضيّ قدماً في قصّتنا.

ما زلنا في المرحلة حيث- كما يزعم بوير- كان أسلافنا يستدعون عن غير قصدٍ الأوهام حول أسلافهم، من أجل تخفيف بعض مآزقهم حول ما يجب القيام به بعد ذلك، ومن السمات المهمّة لفرضيَّة بوير: أنَّه لا يُنظر إلى فاعلي النفاذ الكامل المتخيَّلين عادةً على أنَّهم كلّيّو المعرفة؛ إذا فقدت سكّينك، فأنت لا تفترض تلقائيّاً أنَّهم سيعرفون مكان وجودها، إلَّا إذا سرقها شخصٌ ما منك، أو أسقطتها في مكان الجريمة أثناء لقاء، أو إذا كانت معلوماتٍ استراتيجيَّة، والأجداد يعرفون كلَّ المعلومات الاستراتيجيَّة، لأنَّهم مهتمُّون بها.

ما تفعله أنت وأقاربك هو مصدر قلقٍ للأجداد، وهو السبب نفسه الذي يثير قلق والديك، ويثير قلقك تجاه ما يفعله أطفالك، وكيف يُنظَرُ إليهم في المجتمع، ويقترح بوير أنَّ فكرة العلم بكلِّ شيء - إلهٌ يعرف كلَّ شيءٍ تماماً عن كلِّ شيء، بما في ذلك مكان مفاتيح سيَّارتك، وأكبر عددٍ أولي أصغر من كوادريليون، وعدد حبيبات الرمل على ذلك الشاطئ - هي عقبةٌ لاحقة، قليلٌ من التطوُّر أو التنظيم الفكري الذي تبنَّاه اللاهوتيُّون مؤخَّراً.

هناك بعض الأدلَّة التجريبيَّة لدعم هذه الفرضيَّة؛ لقد تعلَّم النَّاس منذ الطفولة - ومن ثمَّ سوف يجاهرون- بأنَّ الله يعرف كلَّ شيء، لكنَّهم لا يعتمدون على ذلك عند التفكير بالله بشكلٍ غير واعٍ، الفكرة الأساسيَّة التي يستخدمها النَّاس في الواقع عندما لا يقلقون بشأن «الصواب اللاهوتي» (باريت، 2000)، هي أنَّ الأسلاف أو الآلهة يعرفون الأشياء الأكثر أهميَّة: الحاجاتِ والخطط السرّيَّةَ والقلق ووخز الضمير، تعرف الآلهة مكان دفن جميع الجثث، كما يقول المثل.

3- جعل الآلهة تتكلَّم معنا:

«ليس هناك ما هو أصعب، ومن ثمَّ أثمن، من القدرة على اتخاذ القرار» -نابليون بونابرت

وما الفائدة من المعرفة الآلهيَّة إذا لم نستطع الحصول عليها منهم، كيف يمكن للمرء أن يتواصل

مع الآلهة؟ أسلافنا -بينما كانوا على قيد الحياة- عثروا على حلٍّ مبتكرٍ للغاية: العِرافة.

نعلم جميعاً مدى صعوبة اتّخاذ القرارات الرئيسة في الحياة: هل يجب أن أتشبّث بقوّةٍ أو أعترف بذنبي، هل يجب أن أتحرّك أو أبقى في وضعي الحالي، هل يجب أن أذهب إلى الحرب أم لا، هل يجب أن أتبع قلبي أو عقلي؟

ما زلنا لم نتوصّل إلى أيّ طريقةٍ منهجيّةٍ مرضيةٍ لتقرير هذه الأشياء، أيُّ شيءٍ يمكن أن يخفّف عبء اكتشاف طريقةٍ لتلبية هذه الطلبات الصعبة لا بدَّ أن تكون فكرةً جذّابة.

ضع في ذهنك فكرة رمي قطعة نقودٍ معدنيّةٍ في الهواء، على سبيل المثال، لماذا نفعل ذلك؟

للتخلُّص من عبء الاضطرار للعثور على سببٍ لاختيار A بدلاً من B، نودُّ أن يكون لدينا أسبابٌ لما نفعله، ولكن في بعض الأحيان لا يتبادر إلى الذهن شيءٌ مقنعٌ بما فيه الكفاية، ونحن ندرك أنّه يتعيَّن علينا اتّخاذ قرارٍ قريباً، لذلك نخترع أداةً صغيرة، شيئاً خارجيّاً يتّخذ القرار نيابةً عنّا، ولكن إذا كان القرار يتعلّق بشيءٍ بالغ الأهميّة، مثل الذهاب إلى الحرب، أو الزواج، أو الاعتراف، فإنَّ أيَّ شيءٍ مثل رمي قطعة نقود سيكون أمراً هزيلاً للغاية.

في مثل هذه الحالة، سيكون من الواضح جدّاً أنَّ الاختيار من دون سببٍ وجيه علامةٌ على العجز، وإلى جانب ذلك، إذا كان القرار مهمّاً جدّاً، فبمجرَّد سقوط قطعة النقود المعدنيّة على الأرض، سيتعيَّن عليك مواجهة الخيار الإضافي: هل يجب أن تحترم ما التزمت به للتوّ بما سينتج عن رمي قطعة النقود المعدنيّة، أم يجب إعادة النظر في ذلك؟

في مواجهة مثل هذه المآزق، ندرك الحاجة إلى علاجٍ أقوى من رمي قطعة النقود المعدنيّة، شيءٍ أكثر احتفاليّة، وأكثر إثارةً للإعجاب، مثل العِرافة، والذي لا يخبرك فقط بما يجب أن تفعله، ولكنّه يمنحك سبباً (إذا أمعنت النظر بشكلٍ صحيح واستخدمت خيالك).

كشف العلماء عن وفرةٍ متنوّعةٍ بشكلٍ هزلي للطرق القديمة لتفويض قراراتٍ مهمّةٍ لعوامل خارجيّةٍ لا يمكن السيطرة عليها، فبدلاً من رمي قطعة النقود المعدنيّة، يمكنك

استخدام طرق عِرافةٍ أخرى[1]، وعلم الأعداد والتنجيم، من بين العشرات من الأشياء الأخرى.

كانت إحدى أكثر الحجج المعقولة التي قدَّمها جوليان جاينز في كتابه اللامع ولكن الملتوي وغير الموثوق به، «أصول الوعي في انهيار العقل ثنائي الحجرة» (1976): إنَّ هذا الانفجار الصاخب للطرق المختلفة لنقل المسؤوليَّة إلى قرارٍ خارجي، كان مظهراً من مظاهر الصعوبات المتزايدة التي يواجهها البشر في ضبط النفس، حيث أصبحت المجموعات البشريَّة أكبر وأكثر تعقيداً (الفصل الرابع، «تغيير العقل في بلاد ما بين النهرين»، ص 223 - 54)، وكما لاحظ بالمر وستيدمان مؤخَّراً: «إنَّ أهمَّ تأثيرٍ للعِرافة هو أنَّها تقلّل من المسؤوليَّة في اتّخاذ القرار، ومن ثمَّ تقلّل حدَّة التوتّر التي يمكن أن تنجم عن القرارات السيّئة» (2004، ص 145).

إنَّ الأساس المنطقي العائم واضحٌ بما فيه الكفاية: إذا كنت ستنقل المسؤوليَّة، فمررها إلى شيءٍ لا يمكن أن يتجنَّب المسؤوليَّة بدوره، ويمكن تحميله المسؤوليَّة إذا لم تسر الأمور على ما يرام، وكالعادة مع عمليَّات التكيف، لا يتعيَّن عليك فهم الأساس المنطقي للاستفادة منها.

العِرافة - ما أسماه جاينز «الأساليب الخارجيَّة في التفكير أو اتّخاذ القرار» (ص 245) - كان من الممكن أن تزداد شعبيَّتها لمجرَّد أنَّ أولئك الذين فعلوا ذلك أحبُّوا النتائج بما يكفي لفعلها مرَّةً بعد مرَّة، ثمَّ بدأ آخرون بنسخها، وأصبح هذا هو الشيء الذي يجب فعله على الرَّغم من عدم معرفة أحد السبب الحقيقي.

لاحظ Jaynes (ص 240) أنَّ فكرة العشوائيَّة أو الصدفة نفسها هي فكرةٌ حديثةٌ جدّاً: في الأوقات السابقة، لم تكن هناك طريقة لتوقع أن حدثا ما هو عشوائي بالكامل؛ كان يُفترض

(1) كالعرافة برمي الأسهم (belomancy) أو القضبان (rhabdomancy) أو العظام أو البطاقات (sortilege)، وبدلاً من النظر إلى أوراق الشاي (tasseography) ، وفحص أكباد الحيوانات التي تم التضحية بها (hepatoscopy) أو الأحشاء الأخرى (haruspicy)، أو سكب الشمع المذاب في الماء (ceroscopy)، ثمَّ هناك العرافة بالعيوب Moleosophy أو: moleomancy هي تقنية قراءة البخت والعرافة على أساس الملاحظة وتفسير العلامات الجسدية - في المقام الأول تلك الخاصَّة بحالة وحمة الميلانينية.

أنَّ كلَّ شيءٍ ذو معنى، فقط إذا عرفنا ما هو.

إنَّ الاختيار المتعمَّد لخيارٍ لا معنى له لمجرَّد اتّخاذ بعض الخيارات أو غيرها، حتَّى يتمكَّن المرء من المضي قدماً في حياته، ربَّما يكون تطوُّراً متأخراً جدّاً، حتَّى لو كان ذلك هو الأساس المنطقي الذي يفسّر سبب كونه مفيداً للنَّاس فعليّاً، في غياب هذا التطوُّر، كان من المهمّ الاعتقاد بأنَّ هناك شخصاً ما في مكانٍ ما يعرف ما هو الصواب ليخبرك به، ومثل ريشة دامبو السحريَّة، تنجح بعض عكّازات الروح فقط إذا كنتَ مؤمناً بها.

ولكن ماذا يعني أن نقول: إنَّ مثل هذه الطريقة تنجح فقط لأنَّها تساعد النَّاس في الواقع على التفكير في مآزقهم الاستراتيجيَّة، ومن ثمَّ اتّخاذ القرارات في الوقت المناسب، وحتَّى لو لم تكن القرارات نفسها مدروسةً بشكلٍ أفضل من خلال العمليَّة، فإنَّ هذا غير مهمّ، في الواقع، يمكن أن تشكّل دفعةً هائلةً في ظلّ ظروفٍ مختلفة.

افترض أنَّ الأشخاص الذين يواجهون قراراتٍ صعبة يمتلكون عادةً المعلومات كلَّها التي يحتاجون إليها لاتّخاذ قراراتٍ تستند إلى أسسٍ جيّدة، لكنَّهم لا يدركون ذلك، أو لا يثقون في حكمهم بقدر ما ينبغي، كلُّ ما يحتاجون إليه لإخراجهم من جبنهم وشدّ أزرهم لاتّخاذ إجراءاتٍ حازمةٍ هو: القليل من المساعدة من أصدقائهم، أسلافهم المتخيَّلين الحائمين بشكلٍ غير مرئي بالقرب منهم، ليخبروهم بما يجب عليهم فعله (سيتعرَّض مثل هذا الأصل النفسي للخطر من قبل المشكّكين المزدرين لسلامة العِرافة، بالطبع، وربَّما يحفّز هذا الاعتراف دائماً – حتَّى لو كان لا شعوريّاً وغير مفصَّل – العداء تجاه المتشكّكين. صه، لا تكسر التعويذة، هؤلاء النَّاس بحاجةٍ إلى هذا العكّاز ليحافظوا على عملهم معاً).

حتَّى لو لم يكن النَّاس عموماً قادرين على اتّخاذ قراراتٍ جيّدةٍ اعتماداً على المعلومات التي لديهم، فقد يبدو لهم أنَّ العِرافة تساعدهم على التفكير في مآزقهم الاستراتيجيَّة، وهذا قد يوفّر الدافع للتشبُّث بالممارسة.

لأسبابٍ لا يستطيعون فهمها، توفّر العِرافة الراحة وتجعلهم يشعرون بالرضا، مثل التبغ،

لاحظ أن لا شيء من هذا ينتقل وراثيّاً، نحن نتحدَّث عن العِرافة المنقولة ثقافيّاً، وليس غريزيّاً.

لا يتعيَّن علينا تسوية السؤال التجريبي الآن، حول ما إذا كانت ميمات العِرافة هي ميمات متبادلة تعزّز في الواقع لياقة مضيفيها، أو ميمات طفيليَّة سيكونون أفضل حالاً من دونها، في النهاية، سيكون من الجيّد الحصول على إجابةٍ قائمةٍ على الأدلَّة لهذا السؤال، ولكن في الوقت الحالي هذه هي الأسئلة التي أهتمُّ بها.

لاحظ أيضاً أنَّ هذا يترك الاحتمال مفتوحاً على مصراعيه، لأنَّ العرافة (في ظلِّ ظروفٍ محدَّدة، يتمُّ اكتشافها وتأكيدها) ميمٌ متبادلٌ لأنَّه حقيقي، لأنَّ هناك إلهاً يعرف ما في قلب كلِّ شخص، وفي المناسبات الخاصَّة يخبر النَّاس بما يجب عليهم فعله.

بعد كلّ شيء، فإنَّ السبب في كون الماء ضروريّاً للحياة في كلّ ثقافةٍ بشريَّة هو أنَّه ضروري للحياة.

في الوقت الحالي، على الرَّغم من ذلك، فإنَّ وجهة نظري هي: أنَّ العِرافة التي تظهر في كلِّ مكانٍ تقريباً في الثقافة البشريَّة (بما في ذلك بين علماء التنجيم، وعلماء الأعداد الذين ما يزالون يسكنون ثقافتنا الغربيَّة عالية التقنية)، يمكن فهمها على أنَّها ظاهرةٌ طبيعيَّة، تبرّر ذاتها بعمليَّةٍ بيولوجيَّةٍ للنسخ المتماثل، سواءٌ أكانت مصدر معلوماتٍ موثوقاً أم لا، استراتيجيَّةً أو غير ذلك.

4- الشامان كمنومين مغناطيسيين:

«يجب فحص رأس كلِّ من يذهب إلى طبيب نفسي» - صموئيل جولدوين

العِرافة هي إحدى أنواع الطقوس الموجودة في جميع أنحاء العالم؛ طقوس الشفاء التي يقوم بها الشامان المحليّون (أو «الأطبَّاء السحرة») هي طقوسٌ أخرى.

كيف نشأت؟

في كتابه «أسلحة وجراثيمٌ وفولاذ» (1997)، أظهر جاريد دايموند أنَّه في كلِّ ثقافةٍ وفي كلِّ قارَّة، بيّن الاستكشاف البشريُّ على مرِّ القرون جميع النباتات والحيوانات المحليَّة الصالحة للأكل، بما في ذلك العديد منها التي تتطلَّب تحضيراً متقناً لـجعلها غير سامَّة، بالإضافة إلى ذلك، فقد قام البشر بتدجين أيّ نوعٍ محلّي كان قابلاً للتدجين.

لقد كان لدينا الوقت والذكاء والفضول لإجراء بحثٍ شبهِ شامل عن الاحتمالات، وهو شيءٌ يمكن إثباته الآن من خلال طرقٍ عالية التقنيَّة للتحليل الجيني، للأنواع المستأنسة وأقرب أقاربها البريَّة، ومن المنطقي- إذاً- أنَّه كان علينا أيضاً القيام بعملٍ ممتازٍ في الكشف عن معظم الأعشاب الطبيَّة المتاحة محليّاً، إن لم يكن كلَّها، حتَّى تلك التي تتطلَّب تحسيناً وتحضيراً دقيقاً.

أثبتت إجراءات البحث هذه أنَّها قويَّةٌ وموثوقةٌ للغاية، لدرجة أنَّ شركات الأدوية استثمرت في السنوات الأخيرة في البحوث الأنثروبولوجيَّة، واستحوذت بنشاطٍ - عن طريق السرقة في بعض الحالات - على ثمار هذا البحث والتطوير «البدائي» من قبل السكَّان الأصليين في كلِّ غابةٍ مطيرةٍ وجزيرةٍ نائية.

إنَّ هذا الاستيلاء على «حقوق الملكيَّة الفكريَّة» و«الأسرار التجاريَّة» للشعوب الساذجة اقتصاديّاً، مهما كان مؤسفاً، هو مثالٌ ممتازٌ على مبدأ من المستفيد؟ منطق علم الأحياء التطوُّري.

البحث والتطوير مكلفٌ، ويستغرق وقتاً طويلاً؛ مهما كانت المعلومات التي صمدت أمام اختبار الزمن، والتي يتمُّ تكرارها عبر العصور، يجب أن تكون قد أثبتت نفسها بطريقةٍ ما، لذلك من المحتمل أن يكون الأمر يستحقُّ إزالة الغبار عنه.

(من المستفيد؟ ربما تكون قد أثبتت نفسها من خلال مساعدتها سلسلةً طويلةً من المحتالين على خداع عملائهم، لذلك يجب ألَّا نفترض أنَّ الإثبات كان مفيداً لجميع الأطراف).

إنَّ تناول النَّاس الأعشاب للتخفيف من أعراضهم، أو حتَّى علاج حالاتهم ليس أمراً

محيّراً أو مفاجئاً، ولكن لماذا كلُّ هذه الطقوس المصاحبة (والمروّعة غالباً)؟

درس عالم الأنثروبولوجيا جيمس ماكلينون (2002) الأنماط في طقوس المعالجين في جميع أنحاء العالم، ووجد أنّها تدعم بقوّةٍ الفرضيّة القائلة بأنّ ما اكتشفه النّاس - بصورةٍ متكررة- هو تأثير الدواء الوهمي، وبشكلٍ أكثر تحديداً، قوّة التنويم المغناطيسي التي غالباً ما يتمُّ الحصول عليها عن طريق ابتلاع أو استنشاق المواد المهلوسة، أو غيرها من المواد التي تثير الذهن (انظر أيضاً Schumaker، 1990).

يجادل ماكلينون بأنّ العلاج الطقوسي موجودٌ في كلّ مكان لأنّه ينجح بالفعل، ليس بشكلٍ مثالي بالطبع، ولكنّه أفضل بكثيرٍ ممّا كانت المؤسّسة الطبيّة الغربيّة على استعدادٍ للاعتراف به، في الواقع هناك تقارب: الأمراض التي يذهب النّاس فيها إلى الشامان - ويدفعون لهم - للتخفيف من حدّتها، هي تلك التي تكون ملائمةً خاصّةً للعلاج بتأثيرٍ وهمي؛ الإجهاد النفسي والأعراض المصاحبة له، بالإضافة إلى محنة الولادة، التي تعدُّ الحالة الأكثر إثارةً للاهتمام.

الولادة في الإنسان العاقل هي حدثٌ مرهقٌ بشكلٍ خاصّ، وتوقيت حدوثها - على عكس صدمات الحوادث والاعتداءات - يمكن توقُّعها بدقّةٍ تامّة، ممّا يجعلها مناسبةً مثاليّةً للاحتفالات المتقنة التي تتطلّب وقتاً طويلاً للتحضير.

نظراً لأنّ معدّلات وفيّات الرُضّع والأمهات أثناء الولادة كانت مرتفعةً على الأرجح في أيّام ما قبل التكنولوجيا، كما هي الآن في الثقافات غير التكنولوجيّة، فقد كان هناك مجالٌ كبيرٌ لضغط اختيارٍ قوي للتطوُّر المشترك لأيّ علاج (ينتقل ثقافيّاً)، وقابليّة للعلاج (التي تنتقل وراثيّاً) التي يمكن أن يحسّن الاحتمالات.

يمكن أن يكون التنويم المغناطيسي قد تطوّر لدى الأشخاص الذين لديهم ثقافة طقوس الشفاء، تماماً كما تطوّر تحمُّل اللاكتوز في الأشخاص الذين لديهم ثقافة تربية الحيوانات المنتجة للألبان.

افترض أنَّ طقوس الشامان تشكّل تحريضاتٍ منوّمة، وأنَّ العروض الشامانيَّة تقدّم اقتراحات، وأنَّ استجابات الزبون تكافئ الاستجابات الناتجة عن التنويم المغناطيسي، وأنَّ الاستجابات للعلاج الشاماني مرتبطةٌ بإمكانيَّة التنويم المغناطيسي للمريض. [McClenon، 2002، p. 79]

هذه الفرضيَّات قابلةٌ للاختبار بشكلٍ بارز، ويقول ماكلينون: «إنَّها توفّر مصادر معقولةً لبعض السمات (الطقوس والمعتقدات) التي يمكن العثور عليها في كلِّ مكانٍ في الأديان»، ومن المثير للاهتمام أنَّ هناك تبايناً واسعاً في التنويم المغناطيسي، حيث يُظهر حوالي 15 بالمائة من البشر قابليَّةً قويَّةً للتنويم المغناطيسي، ويبدو أنَّ الأمر يتعلَّق بمكوّنٍ وراثي لم تتمَّ دراسته جيّداً (على حدّ علمي) حتَّى الآن.

تميل الشامانيَّة لأن تكون متوارثةً ضمن العائلات، وذلك وفقاً لمجموعةٍ كبيرةٍ من الأدلَّة الأنثروبولوجيَّة، ولكنَّ هذا بالطبع يمكن أن يكون بسبب الانتقال الثقافي الرأسي (للسمات الشامانيَّة من الوالدين إلى الطفل).

ولكن لماذا يجب أن يكون البشر عرضةً لتأثير الدواء الوهمي في المقام الأول، هل هذا تكيُّفٌ بشريٌّ فريد (اعتماداً على اللغة والثقافة)، أم أنَّها تأثيراتٌ ذات صلةٍ ملحوظةٍ في الأنواع الأخرى؟ هذا هو موضوع البحث والجدل الحالي.

واحدةٌ من أكثر الفرضيَّات عبقريَّةً قيد المناقشة، هي فرضيَّة نيكولاس همفري (2002) «إدارة الموارد الاقتصاديَّة»، يمتلك الجسم العديد من الموارد لعلاج أمراضه: الألم لتثبيط النشاط الذي يمكن أن يفاقم الإصابة، والحمَّى لمكافحة العدوى، والتقيّؤ لتخليص الجهاز الهضمي من السموم، والاستجابات المناعيَّة، على سبيل المثال لا الحصر، هي كلُّها فعَّالة ولكنَّها مكلفة؛ يمكن أن يؤدّي الإفراط في الاستخدام أو الاستخدام المبكر من قبل الجسم إلى الإضرار بالجسم أكثر من المساعدة (الاستجابات المناعيَّة الشاملة مكلفةٌ خصوصاً، ولا يمكن إلَّا للحيوانات الأكثر صحَّةً أن تحافظ على جيشٍ كاملٍ من الأجسام المضادَّة).

متى يجب على الجسم ألّا يدّخر جهداً من أجل الحصول على علاجٍ سريع؟

فقط عندما يكون ذلك آمناً، أو عندما تكون المساعدة قاب قوسينِ أو أدنى، وخلافاً لذلك، قد يكون من الحكمة أن يكون الجسم مقتّراً بسبب تكلفة علاجاته الذاتيّة، تأثير الدواء الوهمي، وفقاً لهذه الفرضيّة، هو محفّز إطلاقٍ يخبر الجسم بأنَّ عليه إيقاف كلِّ المثبّطات لأنَّ هناك أملاً.

في الأنواع الأخرى، من المفترض أن يكون متغيّر الأمل مضبوطاً مع أيّة معلوماتٍ يمكن للحيوان الحصول عليها من محيطه الحالي (هل هو آمنٌ في عرينه، أو وسط قطيعه، وهل هناك الكثير من الطعام حوله؟) بينما يمكن التلاعب بمتغيّر الأمل لدينا نحن البشر، من خلال شخصيّاتٍ موثوقة، تستحقُّ هذه الأسئلة المزيد من التحقيق.

في الفصل الثالث، قدّمت بإيجازٍ الفرضيّة القائلة بأنَّ أدمغتنا ربّما تكون قد طوّرت «مركزًا لله»، لكنّني لاحظت أنّه سيكون من الأفضل في الوقت الحالي عدُّه مركزاً للأشياء التي لا نعرف أسمائها، أو لا نريد ذكر أسمائها، والذي كُيّف لاحقاً أو اُستُغِلّ من قبل تفسيراتٍ دينيّة من أكثر من نوع.

لدينا الآن مرشّحٌ معقول لملء الفراغ: عامل التنويم المغناطيسي، حيث يدّعي عالم الأعصاب والوراثة Dean Hamer في كتابه الأخير، The God Gene، (2004) أنّه وجد الجين الذي يمكن تسخيره لهذا الدور، يعدُّ الجين VMAT2 واحداً من العديد من الجينات التي توفّر وصفاتٍ للبروتينات - الأمينات الأحاديّة - التي تقوم بالعمل الرئيس في الدماغ.

هذه هي البروتينات التي تحمل الإشارات التي تتحكّم في مجمل تفكيرنا وسلوكنا: المُعدِّلات العصبيّة والناقلات العصبيّة التي تنتقل ذهاباً وإياباً بين الخلايا العصبيّة، والناقلات داخل الخلايا العصبيّة التي تقوم بجميع العمليّات الداخليّة ضمن الخلايا، واستعادة إمدادات المُعدِّلات العصبيّة والناقلات العصبيّة.

يعمل عقار «بروزاك» والعديد من الأدوية الأخرى ذات التأثير النفساني أو المعدِّل للمزاج، التي طُوِّرت في السنوات الأخيرة من خلال تعزيز أو تثبيط نشاط أحدى الأمينات الأحاديَّة ، يعدُّ جين VMAT2 متعدّد الأشكال في البشر، ممّا يعني أنَّ هناك طفراتٍ مختلفةً منه لدى العديد من النَّاس.

تُوضَحُ الأشكال المختلفة للجين VMAT2 بشكلٍ مثالي لمراعاة الاختلافات في استجابات النَّاس العاطفيَّة أو المعرفيَّة لنفس المنبّهات، ويمكن أن يفسّر سبب تمتُّع بعض الأشخاص نسبيَّاً بحصانةٍ تجاه تحفيز التنويم المغناطيسي، بينما يصل البعض الآخر بسهولةٍ إلى الغيبوبة.

لم يُثبَت أيٌّ من هذا حتَّى الآن، واتَّسم تطوير «هامر» لفرضيَّته بالحماسة أكثر من الدقَّة، وهي نقطة ضعفٍ تمنع باحثين من الخوض في ذلك، والذين ربَّما كانوا سيأخذون الأمر على محمل الجدّ لولا هذا، ومع ذلك فإنَّ شيئاً مثل فرضيَّة هامر (ولكن ربَّما يكون أكثر تعقيداً) هو رهان جيّدٌ للتأكيد في المستقبل القريب، لأنَّ أدوار البروتينات ووصفاتها الجينيَّة خضعت لمزيدٍ من التحليل.

الجزء المثير للاهتمام في مسار هذا البحث هو مدى كونه غير اختزالي، لقد عمل مكلينون وهامر باستقلاليَّةٍ عن بعضهما البعض، وعلى حدِّ علمي لم يذكر أيٌّ منهما الآخر، ولم يُدرَس أيٌّ منهما من قبل بوير أو أتران، أو أيّ علماء أنثروبولوجيا آخرين.

يعدُّ التعاون بين علماء الوراثة وعلماء الأحياء العصبيَّة من ناحية، وعلماء الأنثروبولوجيا وعلماء الآثار والمؤرّخين من ناحيةٍ أخرى، والذي كان رائده لويجي لوكا كافالي سفورزا وزملاؤه، اتجاهاً حديثاً ومتقطّعاً.

لا بدَّ أنَّ البدايات المضلّلة وخيبات الأمل تفوق عدد الانتصارات في الأيَّام الأولى لهذا العمل متعدّد التخصُّصات، وأنا لا أقدّم أيَّ وعودٍ بشأن احتمالات الفرضيَّات المحدّدة لأيٍّ من ماكلينون أو هامر، ومع ذلك فإنَّهم يقدّمون مثالاً حيَّاً، ويمكن الوصول إليه عبر

الإمكانيّات المتاحة.

تذكَّر مقولة «دوكينز» المقتبسة في الفصل الثالث: «إذا وجد علماء الأعصاب» مركز إلهٍ «في الدماغ، فإنَّ العلماء الداروينيين مثلي يريدون معرفة سبب تطوُّر هذا المركز، لماذا عاش أسلافنا الذين كان لديهم ميلٌ لتطوير مركز إله، بشكلٍ أفضل من منافسيهم الذين لم يفعلوا ذلك؟ « (2004 ب، ص 14).

لدينا الآن إجابةٌ واحدةٌ قابلة للاختبار لسؤال دوكينز، وهي لا تستدعي الحقائق البيوكيميائيَّة فحسب، بل كلَّ عالم أنثروبولوجيا ثقافيَّة.[6]

لماذا نجا أولئك الذين لديهم ميلٌ وراثي؟ لأنَّهم على عكس أولئك الذين يفتقرون إلى الجين، لديهم تأمينٌ صحّي!

في الأيَّام التي سبقت الطبَّ الحديث، كان العلاج الشامانيُّ هو الملاذ الوحيد لك إذا مرضت، إذا كنت محصَّناً جسديّاً من الممارسات التي طوَّرها الشامان بصبرٍ على مرِّ القرون (التطوُّر الثقافي)، فلن يكون لديك مقدّم رعايةٍ صحيَّةٍ تلجأ إليه، إذا لم يكن الشامان موجودين، فلن تكون هناك ميزة اختيار امتلاك هذا الجين المتغيّر، ولكنَّ مياهم المتراكمة، وثقافة الشفاء الشاماني لديهم، ربَّما خلقت سلسلةً قويَّةً من وطأة الاختيار في المشهد التكيُّفي الذي لم يكن ليوجد لولا ذلك.

لم يوصلنا هذا الأمر إلى الدين المنظَّم بعد، لكنَّه يقودنا إلى ما سأسمّيه الدين الشعبي، أنواع الديانات التي ليس لها عقائد مكتوبة، ولا علماء دين، ولا تسلسلٌ هرميٌّ للمسؤولين.[7]

قبل وجود أيّ من الديانات المنظَّمة العظيمة، كانت هناك ديانات شعبيَّة، وقد وفَّرت هذه الديانات البيئة الثقافيَّة التي يمكن أن تنبثق منها الأديان المنظَّمة.

الديانات الشعبيَّة لها طقوسٌ وقصصٌ عن الآلهة أو أسلافٍ خارقين للطبيعة، وممارساتٍ محظورة وواجبة، ومثل الحكايات الشعبيَّة، فإنَّ مقولات الدين الشعبي هي نوعٌ من التأليف المشترك، لدرجة أنَّه من الأفضل القول: إنَّه ليس لها مؤلّفون إطلاقاً، بدلاً من القول أنّ

مؤلّفيها غير معروفين.

إنَّ طقوس وأغاني الديانات الشعبيَّة ليس لها ملحّنون مثل الموسيقى الشعبيَّة،[8] ولا يوجد مشرّعون لمحرَّماتها وأوامرها الأخلاقيَّة الأخرى، يأتي التأليف الواعي المدروس متأخّراً، بعد أن تكون تصميمات العناصر الثقافيَّة الأساسيَّة قد شُحِذَت وصُقِلَت لعدَّة أجيال- دون بعد نظر ومن دون قصد- مجرَّد عمليَّةٍ للتكرار التفاضلي أثناء النقل الثقافي.

هل كلُّ هذا ممكن؟ بالطبع، فاللغة هي أداة ثقافيَّةٌ معقَّدةٌ للغاية ومصمَّمةٌ بشكلٍ جيّد، ولا ينسب الفضل في ذلك لأيّ مصمّمٍ بشري، وكما أنَّ بعض سمات اللغات المكتوبة هي بوضوح بقايا أثريَّة لأسلافها الشفويَّة الصرفة[9]، سيتبيَّن أنَّ بعض سمات الدين المنظَّم هي بقايا أثريَّة للديانات الشعبيَّة التي تنحدر منها، وأقصد بالبقايا الأثرية: أنَّ الحفاظ على دينٍ شعبي على مدى أجيالٍ عديدة – أي استنساخه ذاتيّاً في مواجهة المنافسة العنيفة – يتطلَّب تكيفاتٍ غريبة على التقليد الشفوي، والتي لم تعد ضروريَّةً للغاية (من وجهة نظر الهندسة العكسيَّة) ولكن مع ذلك ما تزال قائمةً لمجرَّد أنَّها لم تكن مكلفةً بدرجةٍ كافية ليتمَّ اختيار عكسها.

5- أجهزة هندسة الذاكرة في الثقافات الشفويَّة:

«يتمُّ تخزين مجموعة معلومات بكتامان[1] في 183 عقلًا من عقول شعب «باكتامان»، مدعومين فقط بتركيبٍ بسيط من رموزٍ محدَّدةٍ مشفَّرة (تعتمد معانيها على تداعياتٍ مبنيَّةٍ في وعي عددٍ قليلٍ من كبار السن) وبواسطة اتصال محدودٍ غامض مع أعضاء عددٍ قليل من المجتمعات المحيطة» — فريدريك بارث، الطقوس والمعرفة بين بكتامان غينيا الجديدة.

«يبدو أنَّ البشر هم الحيوانات الوحيدة التي تشارك تلقائيّاً في التنسيق الجسدي الإبداعي

(1) البكتامان: عبارة عن مجتمع صغير (183 شخصاً) من المتحدّثين بلغة Faiwol الذين يعيشون إلى الجنوب من الكتلة الصخرية الوسطى في وسط جزيرة غينيا الجديدة، تقريباً في «منطقة Telefolmin» في بابوا غينيا الجديدة.

والإيقاعي لتعزيز إمكانيّات التعاون (على سبيل المثال، الغناء والتمايل عندما يعملون معاً)»
- سكوت أتران، نثق بالآلهة

لكلِّ ديانةٍ شعبيَّةٍ طقوسها، وبالنسبة لأنصار التطوُّر، عادةً ما تكون الطقوس باهظةً بشكلٍ مذهل، فهي تنطوي على هدرٍ متعمَّدٍ للطعام الثمين والممتلكات الأخرى - ناهيك عن التضحيات البشريَّة - غالباً ما تكون مرهقةً جسديّاً أو حتَّى ضارَّةً للمشاركين، وتتطلَّب عادةً وقتاً وجهداً مثيرين للإعجاب.

من هو المستفيد من كلِّ هذا الإنفاق الباهظ؟

لقد رأينا بالفعل طريقتين يمكن للطقوس أن تبرّر بها نفسها كسماتٍ نفسيَّةٍ ضروريَّةٍ لتقنيات العِرافة، أو إجراءات التحفيز على التنويم المغناطيسي في العلاج الشاماني، وبمجرَّد إنشائها في مسرح الأحداث لهذه الأغراض، ستكون متاحةً لتكييفها، أو لاكتسابها كما أطلق عليها الراحل ستيفن جاي جولد- لاستخداماتٍ أخرى- ولكن هناك إمكانيَّاتٌ أخرى لاستكشافها.

وضع علماء الأنثروبولوجيا ومؤرّخو الدين لعدَّة أجيال نظريَّاتٍ حول معنى ووظيفة الطقوس الدينيَّة، عادةً من وجهات نظر عمياء تتجاهل الخلفيَّة التطوُّريَّة، لذا قبل أن ننظر إلى التكهُّنات حول الطقوس على أنَّها تعبيراتٌ رمزيَّةٌ عن حاجةٍ عميقة أو معتقدٍ ما، يجب أن نأخذ في الحسبان الحالة التي يمكن بها تحويل الطقوس إلى عمليَّاتٍ لتعزيز الذاكرة، مصمَّمةٍ من قبل التطوُّر الثقافي (وليس من قبل أيّ مصمّمين واعين) لتحسين دقَّة النسخ لكلّ عمليَّة نقل ميمٍ تتضمَّنها.

أحد أوضح دروس علم الأحياء التطوُّري هو: أنَّ الانقراض المبكر هو مستقبل أيّ سلالةٍ تتعطَّل فيها آليَّة النسخ، أو حتَّى تتراجع قليلاً، ومن دون النسخ عالي الدقَّة، فإنَّ أيَّ تحسيناتٍ في التصميم في سلالةٍ ما سوف تميل إلى التلاشي على الفور تقريباً.

يمكن أن تضيع المكاسب التي تحقَّقت بشقِّ الأنفس، والتي تراكمت على مدى عدَّة أجيال

في عددٍ قليل من التكرارات المعيبة، حيث تتبخَّر ثمار البحث والتطوير الثمينة بين عشيَّةٍ وضحاها، لذلك يمكننا أن نكون على يقينٍ من أنَّ التقاليد الدينيَّة المحتملة، التي ليس لديها طرقٌ جيّدةٌ للحفاظ على تصاميمها بشكلٍ موثوق عبر القرون محكومٌ عليها بالنسيان.

يمكننا أن نلاحظ اليوم ولادة الطوائف وموتها السريع، حيث يفقد أتباعها الأوائل الإيمان، أو يفقدون الاهتمام وينجرفون بعيداً، دون أن تترك أيَّ أثرٍ بعد بضع سنوات، وحتَّى عندما يرغب أعضاءٌ من هذه المجموعة بشدَّةٍ في استمرارها، سيتمُّ إحباط رغباتهم ما لم يستفيدوا من تقنيَّات النسخ المتماثل، واليوم، توفّر الكتابة (ناهيك عن أشرطة الفيديو وغيرها من وسائط التسجيل عالية التقنيَّة) مسار المعلوماتِ السريع الواضح الذي يجب استخدامه، ومنذ الأيّام الأولى للكتابة، كان هناك تقديرٌ شديدٌ للحاجة، ليس فقط لحماية المستندات المقدَّسة من التحلُّل والتلف، ولكن لنسخها بصورةٍ متكررة، ممَّا يقلّل من مخاطر الفقد من خلال ضمان توزيع نسخٍ متعدّدةٍ منها.

لقرونٍ عديدة قبل اختراع النوع المتحرّك، والذي أتاح لأول مرَّة الإنتاج الضخم لنسخٍ متطابقة، أملى قارئٌ على عددٍ كبيرٍ من الكتبة الجالسينَ على مكاتبهم كتفاً إلى كتف، وهكذا حُوِّلَت نسخةٌ ضعيفةٌ ومهترئة إلى عشرات النسخ الجديدة - آلة نسخٍ مصنوعةٌ من أشخاص، وبما أنَّ النسخ الأصليَّة التي صُنِعَت منها النسخ تحوَّلت في الغالب إلى غبارٍ في الوقت الحالي، فلولا جهود هؤلاء الكتبة لما كان لدينا نصوصٌ موثوقةٌ لأيّ من أدب العصور القديمة، المقدَّسة أو العلمانيَّة، لا العهد القديم، ولا هوميروس، ولا أفلاطون وأرسطو، ولا جلجامش.

أقدم النسخ المعروفة من كتاب «محاورات أفلاطون» والتي ما تزال موجودة، على سبيل المثال، نُسِخَت بعد وفاته بقرون، وحتَّى مخطوطات البحر الميت، وإنجيل نجع حمادي (Pagels، 1979) هي نسخٌ من النصوص التي تمَّ تأليفها قبل مئات السنين.

النصُّ المكتوب بالحبر على ورق البردي أو على الرّقّ يشبه الأبواغ الصلبة للنبات، التي قد تظلُّ محفوظةً في الرمال لعدَّة قرون قبل أن تجد نفسها في ظروفٍ مناسبةٍ للتخلُّص من

غلافها وبذورها، لكن في التقاليد الشفهيّة -على النقيض من ذلك- فإنَّ وسيلة النقل - الآية المنطوقة أو اللازمة المُغنَّاة - تستمرُّ لبضع ثوانٍ فقط، ويجب أن يسمعها أكبر عددٍ ممكنٍ من النَّاس، وتثبت نفسها بقوّةٍ في أكبر عددٍ ممكن من الأدمغة، إذا أرادت ألَّا يطويها النسيان.

التسجيل في الدماغ - سماع صوتك وملاحظتك فوق المنافسة - هو أقلُّ من نصف المعركة، يعدُّ التدريب والتمرُّن، سواءً تمَّ في دماغٍ واحد أو من خلال التكرار العلني المتناغم، مسألة حياةٍ أو موت لميم منقولةٍ شفهياً.

إذا كنت تريد تحسين ذاكرتك بشأن ترتيب العبادة في قدّاس كنيستك يوم الأحد، أو التحقّق لمعرفة ما إذا كان ينبغي للمرء أن يقف أو يجلس أثناء الدعاء الختامي، فمن شبه المؤكّد أنَّ هناك نصّاً يمكنك الرجوع إليه، التفاصيل مطبوعةٌ في ظهر كلِّ ترنيمة، أو في كتاب الصلاة المشتركة، أو على الأقلّ في نصوصٍ متاحةٍ بسهولة للقسّ أو الحاخام أو الإمام.

لا يتعيَّن على أحدٍ أن يحفظ كلَّ سطرٍ من كلّ دعاء، وكلّ صلاة، وكلِّ تفاصيل الأزياء، الموسيقى، تناول الأشياء المقدَّسة، وما إلى ذلك، بل يتمُّ تدوينها جميعاً في سجلٍّ رسمي ما، لكن لا تقتصر الطقوس- بأيّ حالٍ من الأحوال- على الثقافات المتعلّمة.

في الواقع، غالباً ما تكون الطقوس الدينيَّة للمجتمعات غير المتعلّمة أكثر تفصيلاً، ومتطلّبةً جسديّاً، وتستغرق مدَّةً أطول من طقوس الأديان المنظَّمة، بالإضافة إلى ذلك، لا يذهب الشامان إلى المعاهد الدينيَّة الشامانيَّة الرسميَّة، ولا يوجد مجلس أساقفةٍ أو آيات الله للحفاظ على مراقبة الجودة. كيف يحتفظ أتباع هذه الديانات بكلِّ التفاصيل في الذاكرة عبر الأجيال؟

الجواب البسيط هو: لا يفعلون، لا يستطيعون، ومن الصعب للغاية إثبات خلاف ذلك، قد يجتمع أفرادٌ من ثقافةٍ غير متعلّمة على قناعةٍ، بأنَّ طقوسهم ومعتقداتهم قد تمَّ الحفاظ عليها تماماً من قبلهم على مدى «مئات» أو «آلاف» الأجيال (ألف سنةٍ هي حوالي خمسين جيلاً فقط)، فلماذا علينا تصديقهم، هل هناك أيُّ دليلٍ يدعم قناعتهم التقليديَّة؟ هناك القليل.

تحوَّلت الإثارة التي صاحبت اكتشاف العلماء لطقوس طائفة النامبوديري Nambudiri[1] إلى حقيقة أنّه على الرَّغم من وجود نصوصٍ تحدّد الطقوس الفيديَّة، إلَّا أنَّ Nambudiri لم يستخدموها، لقد حافظوا على هذا التقليد الطقسي المتقن بإخلاصٍ مذهل (كما تمَّ وضعها بواسطة Srauta Sutras[2]) بوسائل غير متعلّمة. [لوسون وماكولي، 2002، ص 153]

لذلك يبدو للوهلة الأولى أنَّ النامبوديري ربَّما تكون ثقافةً شفويَّةً محظوظةً بشكلٍ فريد، ويملك أتباعها بعض الأدلَّة التي تدعم قناعتهم بأنَّهم حافظوا على طقوسهم كما هي.

إذا لم يكن الأمر يتعلَّق بالنصوص الفيديَّة، التي يُفترضُ أنَّها غير معروفةٍ لهم، ولم تتمَّ العودة إليها على مرِّ السنين، فلن يكون هناك مقياسٌ ثابتٌ لقياس ثقتهم في قدم تقاليدهم، لكن للأسف، القصَّةُ متقنةٌ جدّاً لدرجةٍ يصعب تصديقها تماماً، قد يكون تقليد Nambudiri شفهيّاً، لكنَّهم ليسوا أميين (بعض كهنتهم يعلّمون الهندسة، على سبيل المثال)، ومن الصَّعب تصديق أنَّهم أبقوا أنفسهم معزولين تماماً عن النصوص الفيديَّة.

«من المعروف أنّه خلال فترة شعائر التكريس التي تستغرق ستة أشهر من التدريب والتحضير والبروفات قبل الحدث الفعلي، تمَّ استخدام دفاتر الملاحظات التي أعدَّها كبار

---

(1) تُهجّى أيضاً Nambūdiri أو Nampūtiri، هي إحدى الطوائف البراهمانيَّة المهيمنة في ولاية كيرالا الهنديَّة، الأرثوذكسيَّة في أقصى الحدود، يعدُّ أعضاؤها أنفسهم بمثابة المستودعات الحقيقيَّة للديانة الفيديَّة القديمة، وللشفرة الهندوسيَّة التقليديَّة.

(2) سراوتا سوترا Srauta Sutras: أي عددٌ من كتيّبات الطقوس الهندوسيَّة التي يستخدمها الكهنة المنخرطون في أداء التضحيات الفيديَّة العظيمة، التي تتطلَّب ثلاث حرائق وخدمات العديد من الكهنة المتخصّصين. تُدعى الكتيّبات shrauta (من اللغة السنسكريتيَّة shruti، «الوحي»؛ حرفيّاً «ما يُسمع») لأنَّها تستند مباشرةً إلى الأدب الفيدى الأقدم الذي يُنظر إليه على أنّه فصلٌ دراميٌّ شروتي، أو يُكشف. تشكّل Shrauta-sutras، جنباً إلى جنب مع Grihya-sutras (التعامل مع الاحتفالات المحليَّة) وDharma-sutras (التعامل مع قواعد السلوك)، مجموعاتٍ Kalpa-sutras، وهي مجموعاتٌ من النصوص التي ظهرت داخل مدارس Veda المختلفة. توجه كلُّ Shrauta-sutra كهنة مدرستها الفيديَّة الخاصَّة في أداء وظائف متخصّصة، تتناول النصوص موضوعاتٍ مثل إشعال النيران الثلاثة، واحتفالات البدر والقمر الجديد، وتضحيات الحيوانات والسوما المختلفة.

المعلّمين الخبراء the senior AcAryas [1] الذين شاركوا بالفعل في الطقوس السابقة»[12]، لذا فإنّ Nambudiri ليست في الحقيقة مقياساً معتمداً لمدى دقّة النقل الشفوي.

قارن المشكلة هنا بالبحث الجاري حول تطوُّر اللغات، يستطيع اللغويُّون باستخدام التحليلات الاحتماليَّة المعقَّدة والمتطوّرة، استنتاج سمات اللغات الشفويَّة المنقرضة التي مات آخر متحدّثيها منذ آلاف السنين!.

كيف يمكن القيام بذلك من دون تسجيلاتٍ صوتيَّةٍ للرجوع إليها، ولا نصوصٍ باللغة التي يحلّلونها؟

يستخدم اللغويُّون بكثافةٍ مجموعة البيانات النصيَّة الهائلة في لغاتٍ أخرى لاحقة، متتبّعين التحوُّلات اللغويَّة من اليونانيَّة الأتيكيَّة[2] إلى اليونانيَّة الهلنستيَّة، ومن اللاتينيَّة إلى اللغات الرومانسيَّة، وما إلى ذلك.

تمكَّن اللغويون- بشيءٍ من الثقة- من خلال العثور على أنماطٍ مشتركةٍ في هذه التحوّلات، من استقراء ما كان يجب أن تكون عليه اللغات قبل أن تحفظها الكتابة لعصورٍ لاحقة لدراستها كلغةٍ قديمة، لقد تمكَّنوا من استخلاص نظام التحوُّل اللفظي والنحوي، ووضعه جنباً إلى جنب مع أنماط الاستقرار، للوصول إلى تخميناتٍ مدروسةٍ ومثبتةٍ بشكلٍ متقاطع حول كيفيَّة نطق الكلمات الهنديَّة الأوروبيَّة، على سبيل المثال، قبل وقتٍ طويل من وجود لغاتٍ مكتوبة تحفظها كقرائن، كما تُحفَظ الحشرات الأحفوريَّة في العنبر.

---

(1) في الديانات والمجتمع الهندي، فإنَّ الأشاريا (السنسكريتية आचार्य، IAST: ācārya؛ بالي: ācariya) هو مدّرسٌ ومعلّمٌ خبير في أمورٍ مثل الدين، أو أي موضوع آخر. Acharya هو شخصٌ متعلّمٌ للغاية وله عنوانٌ مثبت على أسماء المواد المتعلّمة. [1] التسمية لها معانٍ مختلفةٌ في الهندوسيَّة والبوذيَّة والسياقات العلمانيَّة، تستخدم Acharya أحياناً لمخاطبة معلّمٍ خبير أو عالمٍ في أيّ تخصُّص، على سبيل المثال: Bha-skaraçharya، عالم الرياضيَّات الخبير

(2) الأتيكيَّة اليونانية: هي اللهجة اليونانيَّة لأتيكا القديمة، بما في ذلك مدينة أثينا، ومن اللهجات القديمة، وهي الأكثر شبهاً باليونانيَّة المتأخّرة، كما أنَّها الشكل المعياري للغة التي يتمُّ دراستها في دورات اللغة اليونانيَّة القديمة، يتمُّ تضمين اليونانيَّة الأتيكيَّة في بعض الأحيان في اليونانيَّة الأيونيكيَّة.

إذا حاولنا القيام بحيلة الاستقراء نفسها مع المعتقدات الدينيَّة، سيتعيَّن علينا أولاً وضع معايير للاستقرار والتحوُّل فيها، ولم يثبت هذا الأمر جدواه حتَّى الآن.

يعتمد ما نعرفه عن الأديان المبكرة بشكلٍ كامل تقريباً على النصوص الباقية، ويقدّم Pagels (1979) منظوراً رائعاً للأناجيل الغنوصيَّة - المنافسون الأوائل لإدراجها في شريعة النصوص المسيحيَّة- وذلك بفضل الحظّ الذي حافظ على النصوص المكتوبة التي نقلت كترجمات لنسخٍ من النسخ الأصليَّة.

لا يمكننا -إذاً- أن نأخذ على عاتقنا الإيمان بأنَّ التقاليد الدينيَّة غير المكتوبة التي ما تزال موجودةً في العالم، قديمةٌ كما هو معلنٌ عنها، ونحن نعلم بالفعل أنَّه في بعض هذه الأديان لا يوجد تقليدٌ مهووسٌ بالحفاظ على العقيدة القديمة.

وجد فريدريك بارث، على سبيل المثال، الكثير من الأدلَّة على الابتكار لدى شعب باكتامان، كما لاحظ لوسون وماكولي (2002، ص 83) بأنَّ «الإخلاص التامَّ للممارسات السابقة ليس ثابتاً بشكلٍ مثالي لدى الباكتامان»، لذلك، في حين يمكننا أن نكون على يقينٍ تامّ بأنَّ النَّاس في التقاليد الشفويَّة لديهم دينٌ من نوعٍ ما لآلاف السنين، لا ينبغي أن نتجاهل احتمال أنَّ الدين الذي نراه (ونسجّله) اليوم قد يتكوَّن من عناصر اختُرِعَت أو أُعِيدَ اختراعها مؤخَّراً.

يركض النَّاس ويقفزون ويرمون الحجارة إلى حدٍّ كبير بالطريقة نفسها في كلِّ مكان، ويتمُّ تفسير هذا الانتظام من خلال الخصائص الفيزيائيَّة للأطراف البشريَّة والعضلات، وتماثل مقاومة الرياح حول العالم، وليس كتقليدٍ ينتقل بطريقةٍ ما من جيلٍ إلى جيل، ومن ناحيةٍ أخرى، حيث لا تضمن قيودٌ كهذه إعادة الابتكار، ستكون عناصر ثقافةٍ ما قادرةً على التجوُّل بسرعة وعلى نطاقٍ واسع، ودون وعي في ظلّ عدم وجود آليَّاتٍ لاستنساخ الإخلاص.

لكلِّ شعبٍ طريقته[14]، وحيثما يحدث هذا النقل المتجوّل، سيكون هناك تلقائيَّاً اختيارٌ للآليَّات التي تعزّز دقَّة النسخ كلَّما ظهرت، سواءً كان النَّاس مهتمّين أم لا، وبما أنَّ أيَّة آليَّاتٍ

من هذا القبيل ستظلُّ في الوسط الثقافي لوقتٍ أطول من الآليَّات البديلة (والتي ليست أقل تكلفة منها) التي تستنسخ نفسها بشكلٍ غير مبالٍ.

واحدةٌ من أفضل الطرق لضمان دقَّة النسخ عبر العديد من التكرارات، هي استراتيجيَّة «قاعدة الأغلبيَّة» التي تشكِّل أساس السلوك الموثوق به بشكلٍ غريبٍ لأجهزة الكمبيوتر. وجد عالم الرياضيَّات العظيم (جون فون نيومان) طريقةً لتطبيق هذه الحيلة في عالم الهندسة الحقيقي، بحيث يمكن أن تصبح آلة الحوسبة التخيُّليَّة لآلان تورينج حقيقة، ممَّا يسمح لنا بتصنيع أجهزة كمبيوتر موثوقة للغاية من أجزاءٍ غير موثوقة لا مفرَّ منها. يُنفَّذُ النقل المثاليُّ عمليّاً لتريليونات البتَّات[1] بشكلٍ روتيني حتَّى من أرخص أجهزة الكمبيوتر هذه الأيَّام، وذلك بفضل «مضاعفة إرسال فون نيومان»، ولكن تمَّ اختراع هذه الحيلة وإعادة اختراعها على مرِّ القرون في العديد من الأشكال المختلفة، ففي الأيَّام التي سبقت الاتصالات اللاسلكيَّة والأقمار الصناعيَّة لنظام تحديد المواقع العالمي (GPS)، اعتاد الملَّاحون ألَّا يأخذوا كرونومتراً واحداً أو اثنين، بل ثلاثةً على متن سفنهم في رحلاتٍ طويلة، ذلك أنَّه إذا كان لديك كرونومتر[2] واحد فقط، وبدأ في العمل ببطءٍ أو بسرعة، فلن تعرف أبداً أنَّه مخطئ، وإذا أحضرت اثنين وبدأوا في النهاية في الاختلاف، فلن تعرف ما إذا كان أحدهما يعمل ببطءٍ أو الآخر يعمل بسرعة، ولكن إذا أحضرت ثلاثة، يمكنك أن تكون متأكِّداً تماماً من أنَّ الجهاز المخالف هو الذي يتراكم فيه الخطأ، وإلَّا فإنَّ الجهازين اللذين ما زالا متَّفقين سيكونان سيِّئين بالطريقة نفسها تماماً، وهي مصادفةٌ غير محتملةٍ في ظلِّ معظم الأحوال.

قبل وقتٍ طويل من اختراعها أو اكتشافها بشكلٍ واعٍ، تمَّ بالفعل تجسيد هذه الحيلة الجيدة كتكييف للميمات، يمكن رؤيتها بشكلٍ فعَّال في أيِّ تقليدٍ شفهي، ديني أو علماني، حيث يتصرَّف النَّاس في انسجامٍ تام – الصلاة أو الغناء أو الرقص، على سبيل المثال.

---

(1) البتات مفردها «البت» (رقم ثنائي) هو أصغر وحدة بيانات يمكن للكمبيوتر معالجتها وتخزينها

(2) الكرونومتر: أداة لقياس الوقت، خاصَّةً تلك المصمَّمة للحفاظ على دقَّة الوقت على الرَّغم من الحركة أو التغيُّرات في درجة الحرارة والرطوبة وضغط الهواء. تمَّ تطوير الكرونومتر لأول مرَّة للملاحة البحرية، حيث تمَّ استخدامه جنباً إلى جنب مع المراقبة الفلكيَّة لتحديد خط الطول

لن يتذكَّر الجميع الكلمات أو اللحن أو الخطوة التالية، لكنَّ معظمهم سيتذكَّر، وأولئك الذين خرجوا عن الخطى سيصحّحون أنفسهم بسرعةٍ للانضمام إلى الحشد، محافظين على التقاليد بشكلٍ أكثر موثوقيَّةً ممَّا يمكن لأيّ منهم أن يفعله بمفرده، لا يعتمد ذلك على الحفظة الموهوبين المنتشرين بينهم، لا أحد يحتاج إلى أن يكون متميّزاً، ويمكن إثبات ذلك رياضيّاً من خلال مخطَّطات «المضاعفة» التي يمكنها التغلُّب على ظاهرة «الحلقة الأضعف»، وإنشاء شبكةٍ أقوى بكثيرٍ من أضعف حلقاتها.

ليس من قبيل المصادفة أنَّ جميع الأديان لديها مناسباتٌ يجتمع فيها أتباعها للعمل في انسجام عامّ لأداء الطقوس، أيُّ دينٍ من دون مثل هذه المناسبات سيكون قد انقرض بالفعل.

تعدُّ الطقوس العامَّة طريقةً رائعةً للحفاظ على المحتوى بدقَّةٍ عالية، ولكن لماذا يتوق النَّاس إلى المشاركة في الطقوس في المقام الأول؟

نظراً لأنَّنا نفترض أنَّهم ليسوا عازمين على الحفاظ على دقَّة نسخ الميم الخاصَّة بهم من خلال تكوين نوعٍ من ذاكرة الكمبيوتر الاجتماعيَّة، فما الذي يدفعهم إلى ذلك؟

يوجد هنا حاليّاً مجموعةٌ من الفرضيَّات المتضاربة التي ستستغرق بعض الوقت والبحث لحلّها، ولإصطفاء أفضلها، خذ في الحسبان ما يمكن أن نسمّيه فرضيَّة الدعاية الشامانيَّة: يقوم الشامان في جميع أنحاء العالم بإجراء الكثير من معالجاتهم الطبيَّة في الاحتفالات العامَّة، وهم بارعون في دفع السكَّان المحلّيين إلى ألَّا يكونوا مجرَّد متفرّجين على خلق حالة نشوةٍ في أنفسهم أو عملائهم فقط، ولكن جعلهم يشاركون فيها، مع الطبول والغناء والهتاف والرقص.

في كتابه الكلاسيكي «الشعوذات، العرافات، والسحر بين الأزاندي[1]» (1937)، يصف عالم الأنثروبولوجيا إدوارد إيفانز بريتشارد هذه الإجراءات، مع ملاحظة كيف يجنّد الشامان

---

(1) الأزاندي: هي إحدى القوميَّات الأفريقية التي تقيم بصفةٍ رئيسة في المنطقة الشماليَّة الشرقيَّة من جمهورية الكونغو الديمقراطيَّة، في جنوب السودان، وفي شمال شرق جمهورية أفريقيا الوسطى. الأزاندي الكونغوليون يعيشون في محافظة أورينتال، وخاصَّةً على امتداد نهر ويله؛ وزاندي أفريقيا الوسطى يقيمون في مقاطعات رافاي، زميو، وأوبو.

بذكاء الحشد من المتابعين العارفين، وتحويلهم إلى أدواتٍ لإثارة إعجاب غير المتابعين، الذين تمثّل لهم هذه المظاهرة الاحتفاليّة مشهداً روائيّاً.

يُفترض أنَّ حضورهم له تأثيرٌ تكوينيٌّ مهمٌّ على نموِّ معتقدات السحر في عقول الأطفال، لأنَّ الأطفال يحرصون على حضورها والمشاركة فيها كمتفرّجين وجوقة، هذه هي المناسبة الأولى التي يُظهِرون فيها إيمانهم، وقد تمَّ تأكيده بأسلوبٍ درامي وعلني في هذه الجلسات أكثر من أيّ موقفٍ آخر. [إيفانز بريتشارد، 1937 (طبعة 1976 مختصرة، ص 70-71)].

من المحتمل أن يكون الفضول الفطري، الذي تحفّزه الموسيقى والرقص الإيقاعي والأشكال الأخرى من «المهرجانات الحسّيّة» (لوسون وماكولي، 2002)، هو الدافع الأوليّ للانضمام إلى الجوقة، خاصّةً إذا كانت لدينا رغبةٌ فطريَّةٌ متطوّرةٌ في الانتماء والانضمام إلى الآخرين، وخاصّةً كبار السن، كما جادل الكثيرون مؤخَّراً (سيكون هذا موضوعاً في الفصل التالي)، ثمَّ هناك ظاهرتا «التنويم المغناطيسي الجماعي» و«هستيريا الغوغاء»، والتي ما تزال غير مفهومةٍ جيّداً، ولكن لا يمكن إنكار التأثيرات القويَّة التي يمكن ملاحظتها عند جمع النَّاس معاً في حشود، وإعطائهم شيئاً مثيراً للتفاعل معه.

بمجرَّد أن يجد النَّاس أنفسهم في الجوقة، يمكن أن تتولَّد دوافع أخرى، أيُّ شيءٍ يجعل تكلفة عدم المشاركة باهظةً سيفي بالغرض، وإذا حصل أعضاء المجتمع المحلّي على فكرة تشجيع الأعضاء الآخرين، ليس فقط على المشاركة، ولكن لفرض تكاليفَ على أولئك الذين يتهرَّبون من مسؤوليّتهم عن المشاركة، يمكن أن تصبح الظاهرةُ مستدامةً ذاتيّاً (بويد وريتشرسون، 1992).

ألا يجب أن يكون هناك شخصٌ ما لخلق الدافع، كيف سيبدأ هذا ما لم يكن هناك بعض الأشخاص، وبعض الفاعلين، الذين يريدون بدء تقليدٍ طقسي؟

كالعادة، ينمُّ هذا الحدس عن فشل الخيال التطوُّري، من الممكن بالطبع - وقد يكون مرجحاً بالتأكيد في بعض الحالات وحتى مثبتاً - أن يقوم بعض قادة المجتمع أو فاعل آخر بتصميم طقوس

لخدمة غرض معين، لكنَّنا رأينا أنَّ مثل هذا المؤلِّفِ ليس ضروريًّا تماماً، فحتَّى الطقوس المتقنة والمكلفة للبروفات العامَّة يمكن أن تظهر من الممارسات والعادات السابقة دون تصميمٍ واعٍ.

تعدُّ البروفا العامَّة عمليَّةً أساسيَّةً لتحسين الذاكرة، لكنَّها ليست كافية، علينا أيضاً أن ننظر إلى ميزات ما يتمُّ التدرُّب عليه، بحيث تصمَّمُ لتكون أكثر ملاءمةً للذاكرة.

يتمثَّل أحد الابتكارات الرئيسة في تفكيك المواد المراد نقلها إلى شيءٍ مثل الأبجديَّة، وهي ذخيرةٌ صغيرةٌ من معايير الإنتاج، في الملحق (أ) وصفت كيف أنَّ موثوقيَّة تكرار الحمض النووي نفسه يعتمد على وجود رمزٍ محدود أو مجموعةٍ من العناصر، أبجديَّةٌ من نوع، مثل A، C، G، T، هذا شكلٌ من أشكال الرقمنة الذي يسمح بتقلُّباتٍ طفيفة، أو اختلافاتٍ في التنفيذ يتمُّ استيعابها أو محوها في الجولة التالية.

أصبحت فكرة تصميم الرقمنة مشهورةً في عصر الكمبيوتر، ولكن يمكن رؤية التطبيقات السابقة لها في الطرق الممكنة لتفكيك الطقوس الدينيَّة – مثل الرقصات والقصائد والكلمات نفسها – إلى عناصر يسهل التعرُّف عليها وتناسب ما يسمّيه Dan Sperber (2000) «الإنتاج المُحرِّض» (انظر الملحقين A وC). لا يقوم أيُّ شخصين بأداء التحيَّة أو التملُّق بالطريقة نفسها تماماً، ومع ذلك سيتمُّ التعرُّف على كلٍّ منهما بوضوح على أنَّه ينحني أو يؤدِّي تحيَّةً أو يتملَّق من قبل بقيَّة المجموعة، ممَّا يمتصُّ ضوضاء اللحظة، وينتقل إلى المستقبل فقط الهيكل الأساسي، تهجئة الحركات.

عندما يشاهد الأطفال الكبار وهم يقومون بالحركات، سواءً في رقصةٍ شعبيَّةٍ علمانيَّة أو احتفالٍ ديني شعبي (وسيكون هذا التمييز اعتباطياً أو غير موجودٍ في بعض الثقافات)، فإنَّهم يتعلَّمون أبجديَّةً من السلوكيَّات، وقد يتنافسون مع بعضهم البعض لمعرفة من يمكنه أداء الحركات الراقصة بالشكل الأمثل، ولكنَّهم جميعاً يتَّفقون على ماهيَّة الحركات، وهنا يكمن ضغطٌ هائلٌ للمعلومات التي يجب نقلها. يمكن قياس هذا النوع من الضغط بدقَّةٍ على جهاز الكمبيوتر المنزلي الخاصِّ بك، عن طريق مقارنة صورةٍ نقطيَّةٍ لصفحةٍ من النصّ (والتي لا تميِّز بين الأحرف الأبجديَّة واللطخات أو بقع الحبر، وتمثِّل بصعوبةٍ كلَّ نقطة) وملفٌّ نصّيٌّ

من الصفحة نفسها، والتي سوف تكون أصغر من حيث الحجم.

إنَّ الحديث عن «الأبجديَّة» على أنَّها تتكوَّن من مجموعةٍ «مقبولة» من الأشياء التي يجب تذكُّرها، هو مفارقة تاريخيَّة مضاعفة، وذلك باستخدام تقنيةٍ لاحقة (لغةٍ مكتوبة، وارتقاءٌ واعٍ ومتعمَّدٌ لقانونٍ مقيِّدٍ للمعتقدات والنصوص الموصوفة) لتحليل نقاط القوَّة في تصميم الابتكارات السابقة في طرق النقل التي لم يكن لها مؤلِّفون، ثمَّ عُززت أكثر من خلال استخدام الإيقاع والقافية، لارتكاب مفارقةٍ تاريخيَّةٍ أخرى، حيث تمَّ اختراع هذه المصطلحات «التقنيَّة» بالتأكيد بعد فترةٍ طويلةٍ من «التعرُّف» على فعَّاليَّة الخصائص من قبل صانع السَّاعات الأعمى للاختيار الثقافي.

قدَّم كلٌّ من الإيقاع والقافية والنغمة الموسيقيَّة تعزيزاً إضافيَّاً (روبن، 1995)، ممَّا أدَّى إلى تحويل سلاسلَ لا تُنسى من الكلمات إلى مقاطعَ صوتيَّة (دعنا نتخبَّط في مفارقةٍ تاريخيَّة، طالما بدأنا).

كانت ميزة التصميم الأقلُّ وضوحاً إلى حدٍّ ما، هي تضمين عناصر غير مفهومة: لماذا يساعد هذا الأمر النقل؟

من خلال إلزام الناقلين بالرجوع إلى «الاقتباس المباشر»، في الظروف التي قد يميلون فيها إلى استخدام «الاقتباس غير المباشر»، ونقل جوهر المناسبة «بكلماتهم الخاصَّة»- مصدرٌ خطيرٌ للطفرة.

الفكرة الأساسيَّةٌ مألوفةٌ بدرجةٍ كافية بالنسبة لنا جميعاً في طريقة بيداغوجية[1] (محتقرة عادةً، ولكنَّها فعَّالة): التعلُّم عن ظهر قلب؛ «لا تحاول فهم هذه الصيغ، احفظها!»، إذا كنت ببساطةٍ غير قادرٍ على فهم الصيغ أو بعض جوانبها، فأنت لست بحاجةٍ إلى التحذير؛ ليس لديك ملاذٌ سوى الحفظ، وهذا يعزِّز الاعتماد على التكرار الصارم، وعبقريَّة الحروف

(1) البيداغوجيا: علم أصول التدريس، الذي يفهم بشكل شائع على أنه نهج التدريس، هو نظرية وممارسة التعلم، وكيف تؤثر هذه العملية، وتتأثر بالتطور الاجتماعي والسياسي والنفسي للمتعلمين.

الهجائيَّة في تصحيح الأخطاء، ومع ذلك قد يكون التحذير موجوداً أيضاً، بالإضافة إلى ميزة أخرى لتعزيز الذاكرة؛ قل الصيغة بالضبط، حياتك تعتمد على ذلك! (إذا لم تقل الكلمة السحريَّة بالطريقة الصحيحة، الباب لن يُفتَح، سيأخذك الشيطان إذا أخطأت في الكلام).

لتكرار اللازمة التي يجب أن تكون مألوفةً الآن: لم يتوجب على أحدٍ أن يفهم هذه الأسباب المنطقيَّة، أو حتَّى أن يرغب في تحسين دقَّة نسخ الطقوس التي يشارك فيها؛ بل المهمُّ هو أنَّ أيَّ طقوسٍ يصادف أن تكون هذه الميزات مفضَّلةً لها، سيكون لها ميزةٌ تكراريَّةٌ قويَّة على الطقوس المنافسة التي تفتقر إليها.

لاحظ أنَّه حتَّى الآن كانت التعديلات التي اكتشفناها كمساهماتٍ محتملةٍ لبقاء الأديان، محايدةً فيما يتعلَّق بموضوع ما إذا كنَّا مستفيدين أم لا، إنَّها ميزات الوسيط، وليس الرسالة، المصمَّم لضمان دقَّة النقل - أحد متطلَّبات التطوُّر - بينما تكون محايدةً تماماً فيما إذا كان ما يتمُّ نقله جيّداً (متبادلاً) أو سيئاً (طفيليّاً) أو محايداً (تعويضيّاً).

للتحقّق، افترضنا أن تطوُّر طقوس الشفاء الشامانيَّة ربَّما كانت تطوُّراً حميداً أو متبادلاً، وليس مجرَّد عادةٍ سيّئة خُدع بها أسلافنا، وهناك فرصةٌ جيّدةٌ أنَّ تكون العِرافة ساعدت بالفعل (وليس أن تبدو مساعدة) أسلافنا في اتِّخاذ قراراتهم عندما يحتاجون إلى ذلك، ولكنَّ هذه أسئلةٌ تجريبيَّةٌ مفتوحة يمكننا من خلالها مراجعة رأينا دون انهيار النظريَّة إذا كان الدليل يبرّر ذلك، ولا ينبغي لأحدٍ أن يعترض في هذه المرحلة، على أنَّنا لم نبدأ الحديث عن كلِّ الخير الذي يفعله الدين، لم نضطرّ إلى معالجة هذه المشكلة حتَّى الآن، وهو ما ينبغي أن يكون.

يجب أن نستنفد خياراتنا البسيطة من أجل وضع الأسس للنظر المناسب في هذا السؤال.

الفصل الخامس: يمكن تفسير التكلفة الواضحة للدين الشعبي، وهو تحدٍّ للبيولوجيا، يمكن تفسيره من خلال الفرضيَّات التي لم يتمَّ تأكيدها بعد ولكنَّها قابلةٌ للاختبار. ربما أدى العدد الزائد من الوكلاء المتخيلين الذين ولدّتهم HADD إلى إيجاد مرشحين لوضعهم

بالخدمة كمساعدين في اتخاذ للقرار، في العرافة، أو كشركاء للشامان في الحفاظ على الصحة، على سبيل المثال. ثمَّ خضعت هذه التركيبات الذهنيَّة المختارة أو المستوحاة لمراجعةٍ شاملةٍ للتصميم تحت الضغط الانتقائي للقوة التوليدية.

الفصل السادس: مع نموٍّ الثقافة الإنسانيَّة وزيادة تفكير النَّاس، تحوَّل الدين الشعبيُّ إلى دينٍ منظَّم؛ تمَّ استكمال المبررات العائمة الحرَّة للتصاميم السابقة، واستبدالها أحياناً بأسبابٍ مُصاغةٍ بعناية حيث أصبحت الأديان متمدنة.

الفصل السادس

تطوُّر الوكالة

1- موسيقى الدين:

«لا يعني ذلك شيئاً إن لم تحصل على هذا التأرجح»- ديوك إلينجتون

الادّعاء الأساسيُّ لهذا الفصل هو أنَّ الدين الشعبيَّ تحوَّل إلى دينٍ منظَّمٍ بالطريقة نفسها التي أنتجت بها الموسيقى الشعبيَّة ما يمكن أن نطلق عليه الموسيقى المنظَّمة: الموسيقيُّون والملحِّنون المحترفون، والعروض والقواعد المكتوبة، وقاعات الحفلات الموسيقيَّة، والنقَّاد، والفاعلون، والبقيَّة.

في كلتا الحالتين، حدث التحوُّل لأسبابٍ عديدة، ولكن إلى حدٍّ كبير، نظراً لأنَّ النَّاس أصبحوا يفكّرون أكثر بممارساتهم وردود أفعالهم، فيمكنهم بعد ذلك أن يصبحوا أكثر وأكثر إبداعاً في استكشافاتهم لفضاء الاحتمالات.

أصبحت كلٌّ من الموسيقى والدين تدريجيّاً أكثر «إتقاناً» أو تطوُّراً، وأكثر تفصيلاً، وأكثر إنتاجيَّة، وليس بالضرورة أفضل بأيِّ معنىً مطلق، ولكنَّهما أقدر على الاستجابة للطلبات المعقَّدة بشكلٍ متزايدٍ من السكَّان الذين كانوا يشبهون إلى حدٍّ كبيرٍ أسلافهم البعيدين بيولوجيّاً، ولكنَّهم متضخِّمون مجهَّزون ومثقلون ثقافيّاً.

هناك براعةٌ في تصميم وتنفيذ الممارسات الدينيَّة، كما يعرف أيُّ شخصٍ عانى في وقتٍ سابق خلال حفل ديني نُفِّذَ بحماقة؛ كاهنٌ متلعثمٌ وركيك، وليتورجيا[1] مملَّة، وغناءٌ رديءٌ من الجوقة، وأناسٌ ينسون متى يقفون، وماذا يقولون ويفعلون- مثل هذا الأداء المعيب يمكن أن يبعد حتَّى المصلّين أصحاب النوايا الحسنة.

يمكن للمناسبات المُحتَفَلِ بها بمهارة أكبر، أن ترتقي بالمصلّين إلى نشوةٍ سامية، يمكننا تحليل البراعة في النصوص والاحتفالات الدينيَّة تماماً، كما يمكننا تحليل البراعة في الأدب والموسيقى والرقص والعمارة والفنون الأخرى، يمكن لأيّ أستاذٍ جيّد في نظريَّة الموسيقى أن يفكّك سيمفونيَّة موزارت أو كانتاتا باخ، ويوضِّح لك كيف تعمل ميزات التصميم المختلفة لتحقيق «سحرها»، لكنَّ بعض النَّاس يفضّلون عدم الخوض في هذه الأمور، للسبب نفسه الذي يجعلهم يرفضون شرح الخدع السحريَّة: بالنسبة لهم، التفسير يقلّل من «الدهشة»، ربَّما يكون الأمر كذلك، لكن قارن بين الاحترام غير المفهوم التي يواجه به غير المتعلّمين موسيقياً سيمفونيَّة، مع التقدير الظاهري لشخصٍ ما يشاهد مباراة كرة قدمٍ لا يعرف القواعد أو التفاصيل الدقيقة للعبة، ويرى الكثير من الجري وركل الكرة ذهاباً وإياباً، قد يهتف بصدق: «عملٌ عظيم»، لكنَّه يفتقد معظم المزايا المقدَّمة في العرض. موتسارت وباخ - ومانشستر يونايتد - يستحقُّون الأفضل، يمكن أيضاً دراسة تصاميم وتقنيَّات الدين بالفضول نفسه غير المتحيّز، مع نتائجَ قيّمة.

ضع في حسبانك تبنّي الموقف الفضولي نفسه تجاه الدين، خاصَّةً تجاه دينك، إنَّه مزيجٌ مضبوطٌ بدقَّة من المسرحيَّات والحيل الرائعة، قادرٌ على جعل النَّاس مفتونين ومخلصين طوال حياتهم، وقادر على تخليصهم من أنانيَّتهم وطرقهم الدنيويَّة، بالطريقة التي تفعلها الموسيقى في كثير من الأحيان، بل أكثر من ذلك. إنَّ فهم كيفيَّة عمله هو بمثابة مقدّمةٍ لتقديره بشكلٍ أفضل، أو جعله يعمل بشكلٍ أفضل، بقدر ما هي محاولة لتحليله، والتحليل الذي أحثُّ عليه هو مجرَّد استمرارٍ للعمليَّة التأمُّليَّة التي جعلت

(1) الليتورجيا: شكلٌ أو كتيّبٌ يتمُّ بموجبه ممارسة العبادة الدينيَّة العامَّة، وخاصَّة العبادة المسيحيَّة.

الديـن في الحالـة التـي هو عليهـا الآن.

كلُّ كاهنٍ في أيِّ ديانة يشبه موسيقيَّ الجاز، يحافظ على التقاليد حيَّةً من خلال عزف المقطوعات المحبَّبة بالطريقة التي يُفترَض أن تُعزَفَ بها، ولكن مع التقييم والقياس المستمر، إبطاء وتيرة الصلاة أو الإسراع بها، أو حذف وإضافة عبارةٍ أخرى إلى الصلاة، مزج الألفة بالجديَّة بالنِسَب الصحيحة فقط، للاستحواذ على عقول وقلوب المستمعين من الحضور.

أفضل العروض ليست مجرَّد موسيقى جيّدة، بل هي نوعٌ من الموسيقى.

استمع إلى الخطب المسجَّلة للقسّ سي إل فرانكلين (والد أريثا فرانكلين[1]، والمشهورة بين دعاة الإنجيل قبل أن تسجّل أغانيها التي حقَّقت نجاحاً ساحقاً)، أو الواعظ المعمداني الأبيض الأخ جون شيرفي، على سبيل المثال.

هؤلاء الملحّنون المؤدُّون ليسوا مجرَّد مطربين، آلتهم هي المصلّون، وهم يعزفون عليها بعاطفة، وبمهارات عازف كمانٍ مؤتمنٍ على كمانٍ من نوع ستراديفاريوس[2]، بالإضافة إلى التأثيرات الفوريَّة - ابتسامة أو «آمين» أو «هللويا» - والتأثيرات قصيرة المدى - العودة إلى الكنيسة يوم الأحد المقبل، ووضع دولارٍ آخر في طبق التبرُّعات[3] - هناك آثارٌ طويلة المدى.

عندما يقوم الكاهن باختيار الفقرات من الكتاب المقدَّس التي سيتمُّ تكرارها هذا الأسبوع، فإنَّه لا يقوم بترتيب العبادة فقط، ولكنَّه يرتّب عقول المصلّين أيضاً.

---

(1) أريثا لويز فرانكلين: مغنّية وكاتبة أغانٍ وممثِّلةٌ وعازفة بيانو وناشطةٌ حقوقيَّةٌ أمريكية، بدأت فرانكلين حياتها المهنية عندما كانت طفلة بغناء الترانيم الإنجيلية في كنسية نيو بيثيل المعمدانيَّة في ديترويت، ميتشيغان حيث عمل والدها س. إل. فرانكلين قسيساً.

(2) ولد أنطونيو ستراديفاري عام 1644، وأنشأ متجره في كريمونا بإيطاليا، حيث ظلَّ نشطاً حتَّى وفاته عام 1737، وقد كان شرحه هندسة وتصميم الكمان بمثابة نموذج مفاهيمي لصانعي الكمان لأكثر من 250 عاماً.

(3) طبقٌ أو وعاءٌ آخر يتمُّ تمريره بين المصلّين الذين يحضرون قدّاس الكنيسة المسيحية، حيث يتم وضع التبرُّعات الماليَّة فيه

ما لم تكن باحثاً بارزاً ونادراً، فأنت تحمل في ذاكرتك الشخصيَّة جزءاً بسيطاً فقط من النصوص المقدَّسة لإيمانك، تلك التي سمعتها بصورةٍ متكررة منذ طفولتك، وأحياناً ترنّمها في انسجامٍ مع المصلّين، سواءً حفظت أيّاً منها عمداً في الذاكرة، أم لم تفعل.

مثلما أفسحت العقول اللاتينيَّة في روما القديمة المجال أمام العقول الفرنسيَّة والإيطاليَّة والإسبانيَّة، فإنَّ العقول المسيحيَّة اليوم تختلف تماماً عن عقول المسيحيين الأوائل، تختلف الديانات الرئيسة اليوم عن نُسَخ أسلافها، كما تختلف موسيقى اليوم عن موسيقى اليونان القديمة وروما، التغييرات التي أُجرِيَت بعيدةٌ كل البعد عن العشوائيَّة؛ لقد تعقَّبوا الفضول المضطِّرب والاحتياجات المتغيِّرة لجنسنا المثقَّف.

تنتج القدرة البشريَّة على التفكير إمكانيَّةً ملاحظة وتقييم الأنماط في سلوكنا («لماذا أستمرُّ في التراجع عن ذلك؟» «بدت فكرةً جيّدةً في ذلك الوقت، ولكن لماذا؟»).

هذا يعزّز قدرتنا على تمثيل الآفاق والفرص المستقبليَّة، والتي بدورها تهدّد استقرار أيّ ممارساتٍ اجتماعيَّةٍ لا تستند إلى أسس، والتي لا يمكن أن تنجو من مثل هذا الاهتمام المتشكك.

بمجرَّد أن يبدأ النَّاس في «اللحاق بالركب»، فإنَّ النظام الذي «نجح» لأجيال يمكن أن ينهار بين عشيَّةٍ وضحاها، يمكن أن تتآكل التقاليد بسرعةٍ أكبر من الجدران الحجريَّة والأسقف الصخريَّة، ويمكن أن تصبح الصيانة الوقائيَّة لمعتقدات وممارسات المؤسَّسة مهنةً بدوامٍ كامل للمهنيين، ولكن لا تحصل جميع المؤسَّسات على مثل هذه الصيانة أو تطلبها.

2- الدين الشعبيُّ كمعرفةٍ عمليَّة:

«إنَّ التضحية بالثور هو أمرٌ ميمونٌ خاصَّةً بين النوير[1]، ولكن بما أنَّ الثيران ذات قيمةٍ خاصَّة، فإنَّ الخِيار سيفي بالغرض في معظم الأوقات» — أي توماس لوسون وروبرت إن

(1) قبائل تعيش على النيل في السودان، ويتسمون مع الدينكا إلى أصلٍ وجدٍّ واحد، وهم ثاني أكبر مجموعةٍ نيلية.

ماكولي، تقريب الطقوس إلى الذهن.

في مواجهة التآكل والتلف الذي لا مفرَّ منه، لا يستمرُّ أيُّ شيءٍ مصمَّم لفترةٍ طويلة دون التجديد والتكرار، إنَّ مؤسَّسات وعادات الثقافة البشريَّة ملزمةٌ تماماً بهذا المبدأ، القانون الثاني للديناميكا الحراريَّة، مثلها مثل الكائنات الحيَّة والأعضاء وغرائز البيولوجيا، ولكن ليست كلُّ الممارسات المنقولة ثقافيّاً تحتاج إلى وصاية، فاللغات، على سبيل المثال، لا تتطلَّب خدمات الشرطة اللغويَّة والنحويين، على الرَّغم من أنَّهم في اللغات الأوروبيَّة لديهم الكثير من حماة سلامة اللغة الذين نصَّبوا أنفسهم بأنفسهم.

أحد الادّعاءات الرئيسة في الفصل السابق هو أنَّ الأديان الشعبيَّة مثل اللغات في هذا الصدد: يمكنها إلى حدٍّ كبير الاعتناء بنفسها، الطقوس التي تستمرّ هي تلك التي تديم نفسها، سواءً كرَّسَ أيُّ شخصٍ جهداً جادّاً بهدف الحفاظ عليها أم لا.

يمكن أن تكتسب الميمات حيلاً جديدة - تعديلات - يمكن أن تساعدها على ضمان طول عمر سلالاتها، وسواءً قدَّرها أو لم يقدّرها أيّ شخص، فإنَّ السؤال عمَّا إذا كانت الأديان الشعبيَّة قد قدَّمت فائدةً واضحةً للنَّاس - سواءً كانت الميمات التي تتكوَّن منها عبارةً عن ميماتٍ متبادلة، وليست متعايشةً أو طفيليَّة- يمكن تركه دون إجابةٍ في الوقت الحالي.

قد تبدو فوائد الدين الشعبي واضحة - كوضوح فوائد اللغة - لكنَّنا بحاجةٍ إلى تذكير أنفسنا بأنَّ الفائدة التي تعود على اللياقة الجينيَّة البشريَّة، ليست هي الفائدة نفسها التي تعود على سعادة الإنسان أو رفاهه، ما يجعلنا سعداء قد لا يجعلنا أكثر إنجاباً، وهو كلُّ ما يهمُّ الجينات.

يجب أن يُنظر إلى اللغة بقدرٍ من الحياد، ربَّما كانت اللغة مجرَّد عادةٍ سيّئةٍ انتشرت، كيف يمكن أن يكون ذلك بحقِّ السماء؟

بهذه الطريقة: بمجرَّد أن تبدأ اللغة بالتحوُّل إلى بدعةٍ بين أسلافنا، فإنَّ أولئك الذين لم يتعلَّموها بسرعة استُبعِدُوا من لعبة التزاوج إلى حدٍّ كبير (ستكون هذه هي نظريَّة الانتقاء

الجنسي للغة: طلاوة اللسان بالنسبة للإنسان العاقل هي مثلُ الذيل بالنسبة لذكر الطاووس، ووفقاً لهذه النظريَّة، ربَّما يكون صحيحاً أنَّنا سنكون جميعاً أفضل فيما يخصُّ التكاثر، لو لم يكن لدى أيّ منَّا لغةٌ إطلاقاً، لكن وبمجرَّد أن أصبح عائق اللغة المكلف شائعاً بين الإناث، اتجه الذكور من دونها إلى الموت من دون ذريَّة، لذلك لم يعد بمقدورهم إلَّا أن يتعلَّموها، مهما جعلت حياتهم صعبة).

على عكس ريش الذيل عند الطاووس، الذي يجب عليه أن ينمّيه بأيَّة معدَّاتٍ منحه إيَّاها والداه، تنتشر اللغات أفقيَّاً أو ثقافيَّاً، لذلك نحتاج إلى عدّها متفاعلاتٍ في الدراما أيضاً، مع آفاقها الخاصَّة للتكاثر، ووفقاً لهذه النظريَّة، فإنَّ سبب حبّنا للتحدُّث هو مثل السبب الذي يجعل الفئران المصابة بالمقوَّسات العنقوديَّة تحبُّ أن تسخر من القطط - لقد استعبدت اللغات أدمغتنا الفقيرة، وجعلتنا شركاء متحمّسين في انتشارها!.

هذه فرضيَّةٌ بعيدة المنال، لأنَّ مساهمات اللغة في اللياقة الجينيَّة كلّها واضحةٌ للغاية، يوجد الآن أكثر من ستَّةِ مليارات إنسانٍ يزحمون الكوكب ويحتكرون موارده، في حين أنَّ أقرب أقربائنا، قرود البونوبو والشمبانزي وإنسان الغاب والغوريلَّا عديمو اللغة، جميعهم مهدَّدون بالانقراض، وبصرف النظر عن الفرضيَّات القائلة بأنَّ قدرتنا على الجري أو انعدام الشعر هو سرُّ نجاحنا، يمكننا أن نكون واثقين تماماً من أنَّ ميزات اللغة كانت تعزّز اللياقة البدنية، وليست طفيليَّات، ومع ذلك فإنَّ صياغة الفرضيَّة تذكّرنا بأنَّ التطوُّر الجيني لا يعزّز السعادة أو الرفاهية بشكلٍ مباشر؛ إنَّه لا يهتمُّ إلَّا بعدد أبنائنا الذين بقوا على قيد الحياة لتكوين ذريَّةٍ كبيرةٍ وما إلى ذلك.

ربَّما لعب الدين الشعبيُّ دوراً مهمَّاً في انتشار الإنسان العاقل، لكنَّنا لا نعرف ذلك حتَّى الآن، حقيقة أنَّه لدى جميع البشر نسخةٌ منه لا تثبت ذلك، فجميع البشر المعروفين قد أصيبوا أيضاً بنزلات البرد، والتي - على حدِّ علمنا - ليست تكافليَّة.

إلى متى يمكن أن يستمرَّ أسلافنا بنقل الدين الشعبي قبل أن يبدأ التفكير في تغييره؟ قد نفهم ذلك من خلال النظر إلى الأنواع الأخرى.

من الواضح أنَّ الطيور لا تحتاج إلى فهم مبادئ الديناميكا الهوائيَّة التي تملي أشكال أجنحتها، إنَّه أقلُّ وضوحاً، لكنَّه ما يزال صحيحاً أنَّ الطيور يمكن أن تكون مشاركةً غير واعية في طقوسٍ معقَّدةٍ مثل طقوس الاستعراض الذكوري - أماكن لقاء التزاوج التي تسمَّى أحياناً «الملاهي الليليَّة للطبيعة» - حيث تتجمَّع الإناث من الطيور من أحد الأنواع لمراقبة الأداء التنافسي من قبل الذكور، الذين يتبخترون بأشياءهم.

إنَّ الأساس المنطقيَّ لطقوس الاستعراض الذكوري، الموجود أيضاً في بعض الثدييات والأسماك وحتَّى الحشرات واضح: تُبرز طقوس الاستعراض الذكوري نفسها كطرقٍ فعَّالةٍ لاختيار الشريك في ظلِّ ظروفٍ محدَّدة، لكنَّ الحيوانات التي تشارك فيها لا تحتاج إلى فهم سبب قيامها بما تفعله، يستعرض الذكور ويتباهون بقدراتهم، وتهتمُّ الإناث وتختار مسترشدةً بـ «إملاءات قلوبهنَّ»، والتي -من دون علمهنّ- تشكَّلت عن طريق الانتقاء الطبيعي على مدى أجيال عديدة.

هل يمكن أن يكون لميلنا للمشاركة في الطقوس الدينيَّة تفسير مماثل؟

حقيقة أنَّ طقوسنا تنتقل من خلال الثقافة، وليس الجينات، لا تستبعد هذا الاحتمال إطلاقاً، نحن نعلم أنَّ لغاتٍ معيَّنةً تنتقل من خلال الثقافة، وليس الجينات، ولكن كان هناك أيضاً تطوُّرٌ جينيٌّ قام بضبط أدمغتنا لاكتساب واستخدام اللغة بشكلٍ أكثر مهارة[3]، لقد تطوَّرت أدمغتنا لتصبح أكثر فاعليَّةً في معالجة الكلمات، وهي ربَّما تطوَّرت أيضاً لتصبح أكثر فاعليَّةً في تنفيذ العادات المنقولة ثقافيَّاً للأديان الشعبيَّة.

لقد رأينا بالفعل كيف يمكن أن يكون التنويم المغناطيسي هو الموهبة التي تمَّ تشكيل مركز whatsis المتخيَّل في الفصل الثالث بناءً عليها، يمكن أن تكون الحساسية تجاه الطقوس (والموسيقى) جزءاً من هذه الحزمة.

لا يوجد سببٌ حقيقيٌّ لافتراض أنَّ الحيوانات لديها فكرةٌ عن سبب قيامها بما تفعله غريزيَّاً، والبشر ليسوا استثناءً، نادراً ما تكون الأغراض الأعمق لـ «غرائزنا» جليَّةً بالنسبة

لنا، والفرق بيننا وبين الأنواع الأخرى أنّنا النوع الوحيد الذي يهتمُّ بهذا الجهل على عكس الأنواع الأخرى- نشعر بالحاجة العامّة إلى الفهم- لذلك على الرَّغم من أنّه لم يجب على أحدٍ أن يفهم أو يقصد أيّاً من ابتكارات التصميم التي خلقت الديانات الشعبيّة، يجب أن ندرك أنَّ النّاس بطبيعتهم فضوليُّون ومفكّرون، ولديهم لغة يصيغون بها، ويعيدون صياغة دهشتهم.

كان من المحتمل -على عكس الطيور- أن يسألوا أنفسهم ما معنى كلّ هذه الطقوس، دافع الفضول ليس قويّاً لدى بعض النّاس على ما يبدو، وإذا حكمنا من خلال التباين الملحوظ من حولنا اليوم، فإنّنا نستطيع أن نراهن على أنَّ أقليّةً صغيرةً فقط من أسلافنا كان لديهم الوقت أو الرغبة في التشكيك في الأنشطة التي وجدوا أنفسهم يشاركون فيها مع أقاربهم وجيرانهم.

ربّما عاش أسلافنا الذين كانوا يعتمدون على الصيد وجمع الثمار في العصر الحجري القديم حياةً سهلةً نسبيّاً، مع وفرة الطعام وأوقات الفراغ (Sahlins، 1972)، مقارنةً بالعمل الشّاقّ الذي كان مطلوباً لكسب لقمة العيش بمجرَّد اختراع الزراعة.

منذ أكثر من عشرة ألف عام، نما السكّان بشكلٍ سريع، منذ بداية هذا العصر، العصر الحجري الحديث، وحتّى وقتٍ قريبٍ جدّاً في المقياس الزمني البيولوجي - آخر مائتي جيل - كانت الحياة لجميع أسلافنا تقريباً، كما قال هوبز: سيّئةً، وحشيّةً، وقصيرة، مع القليل من وقت الفراغ للحصول على حياةٍ مجرَّدة، لذلك ربّما يكون من الآمن تخيُّل أنَّ البراغماتيّة ضغطت على آفاقهم.

من بين جواهر الحكمة الشعبيّة الموجودة حول العالم، فكرة أنَّ القليل من المعرفة يمكن أن يكون شيئاً خطيراً، والنتيجة الطبيعيّة التي لا تُلاحظ في كثيرٍ من الأحيان هي أنّه في بعض الأحيان قد يكون من الآمن استبدال أسطورةٍ قويّةٍ بالمعرفة غير الكاملة.

كما قال عالم الأنثروبولوجيا روي راببورت في كتابه الأخير:

«في عالمٍ تكون فيه العمليّات التي تحكم عناصره الماديّة غيرَ معروفةٍ إلى حدٍّ ما، و لا يمكن

التنبّؤ بها بدرجةٍ أكبر، لا يمكن للمعرفة التجريبيّة لمثل هذه العمليّات أن تحلّ محلّ احترام تماسكها الغامض، وقد تكون أكثر تكيُّفاً - وهي كذلك صحيحةٌ من ناحية التكيُّف - لستر مثل هذه العمليّات في حجابٍ خارقٍ للطبيعة، بدلاً من تعريضها لسوء الفهم الذي قد يشجّعه الفهم الطبيعيُّ الدقيق تجريبيّاً، ولكن غير المكتمل». [1999، ص. 452]

إنَّ المطالب العمليَّة للتوصُّل إلى طريقةٍ لتجميع كلّ الأجزاء المحيّرة وقطع الحياة معاً، ليست هي نفسها المطالب العمليَّة للعلم، وكما يلاحظ دنبار (2004، ص 171)، «قانون العوائد المتناقصة يعني أنَّه ستكون هناك دوماً نقطةٌ لن يكون بعدها الأمر يستحقُّ استثمار المزيد من الوقت والجهد في اكتشاف الحقيقة الأساسيَّة، ففي المجتمعات التقليديَّة، أيُّ شيءٍ يفي بالغرض نفعله».

لذا يمكننا أن نتوقَّع أن أسلافنا -بصرف النظر عن مدى فضولهم بسبب مزاجهم- قاموا بأكثر أو أقلَّ ممَّا نفعله اليوم، بالاعتماد على «ما يعرفه الجميع».

معظم ما تعتقد أنَّك تعرفه تقبله فقط على أساس الإيمان، لا أعني بهذا إيمان المعتقد الديني، لكنَّني أعني شيئاً أبسط بكثير: السياسة العمليَّة التي يمكن إعادة النظر فيها دائماً، وهي الثقة ببساطةٍ في أول شيء يتبادر إلى ذهنك دون القلق بشأن سبب ذلك.

ما هي احتمالات أنَّ «الجميع» مخطئون في الاعتقاد بأنَّ التثاؤب غير ضارّ، أو أنَّه يجب عليك غسل يديك بعد الذهاب إلى الحمّام؟ ما لم ينشر شخصٌ ما دراسةً تفاجئنا جميعاً، فإنَّنا نسلّم بأنَّ المعرفة المشتركة التي نحصل عليها من كبار السن وغيرهم صحيحة، ونحن على صوابٍ لقيامنا بذلك.

نحن بحاجةٍ إلى كميَّاتٍ هائلةٍ من المعرفة العامَّة لتوجيه طريقنا في الحياة، ولا يوجد لدينا وقتٌ لفرز كلّ تلك المعرفة، واختبار كلّ عنصرٍ فيها للتحقّق من سلامته[4]، وهكذا ففي مجتمعٍ قبلي حيث «يعلم الجميع» أنَّك بحاجةٍ إلى التضحية بماعزٍ من أجل إنجاب طفلٍ سليم، يجب عليك التضحية بماعز، فالحذر أفضل من الندم.

تمثّل هذه الميزة فرقاً عميقاً بين الدين الشعبي والدين المنظَّم: أولئك الذين يمارسون ديناً شعبيّاً لا يظنُّون أنَّهم يمارسون ديناً على الإطلاق، ممارساتهم «الدينيَّة» هي جزءٌ لا يتجزَّأ من حياتهم العمليَّة، إلى جانب الصيد والجمع أو الحرث والحصاد، وإحدى الطرق لمعرفة أنَّهم يؤمنون حقّاً بالآلهة التي يقدّمون لها قرابينهم، هي أنَّهم لا يتحدَّثون أبداً عن مدى إيمانهم بآلهتهم، أكثر ممَّا نحاول أنا وأنت أن نؤكّد لبعضنا البعض أنَّنا نؤمن بالجراثيم والذرَّات، لذا حيث لا يوجد شكٌّ قائمٌ يمكن الحديث عنه، فلا داعي للتحدُّث عن الإيمان.

لا يعرف معظمنا الذرَّات والجراثيم إلَّا عن طريق الأخبار المنقولة مشافهةً، ولن يتمكّنوا بشكلٍ محرج من إعطاء إجابة جيّدةٍ إذا سألنا عالم أنثروبولوجيا مرّيخيّاً كيف عرفنا بوجود مثل هذه الأشياء، حيث لا يمكننا رؤيتها أو سماعها أو تذوُّقها أو الشعور بها.

إذا تمَّ الضغط علينا، فمن المحتمل أن يقوم معظمنا بتلفيق بعض المعلومات التقليديَّة الخاطئة بشكلٍ خطير حول هذه الأشياء غير المرئيَّة (والمهمَّة)، نحن لسنا خبراء، نحن فقط نوافق على «ما يعرفه الجميع»، وهو بالضبط ما يفعله أفراد القبائل، وقد وقع خبرائهم في الخطأ.

لاحظ العديد من علماء الأنثروبولوجيا أنَّهم عندما يسألون مصادر معلوماتهم المحليين عن التفاصيل «اللاهوتيَّة» - مكان وجود آلهتهم، تاريخ محدَّد، وطرق التصرُّف في العالم - تجد مصادر معلوماتهم أنَّ التحقيق بأكمله محيّر، لماذا يُتوقَّعُ منهم أن يعرفوا أو يهتمُّوا بأيّ شيءٍ حيال ذلك؟

بالنظر إلى ردّ الفعل الذي أُبلِغَ عنه على نطاقٍ واسع، لا ينبغي لنا أن نستبعد الفرضيَّة المزعجة القائلة بأنَّ العديد من المذاهب الغريبة حقّاً، والتي يمكن أن نقول إنَّها غير متماسكة، والتي تمَّ اكتشافها من قبل علماء الأنثروبولوجيا على مرِّ السنين هي نتاجٌ للبحث، وليست عقائدَ موجودة مسبقاً.

من المحتمل أن يكون الاستجواب المستمرُّ من قبل علماء الأنثروبولوجيا قد شكّل ببراءةٍ

نوعاً من الخيال التعاوني – العقائد المبتكرة والمتبلورة حديثاً– والتي نشأت عندما تحاور السائل مع مصدر معلوماته مع بعضهما البعض بشكلٍ غير مفهوم لكليهما حتّى نتج عن ذلك قصّةٌ متّفقٌ عليها بشكلٍ مشترك.

يؤمن أولئك الأشخاص الذين يشكلون مصادر معلومات لعلماء الانثروبولوجيا بصدقٍ بآلهتهم – «الجميع يعرف أنّهم موجودون!» – لكن ربّما لم يفكّروا من قبل في هذه التفاصيل، وهو ما يفسّر سبب كون قناعاتهم غامضةً وغير محدَّدة، إذا ألزمتهم أن يشرحوا بالتفصيل، فإنّهم يشرحون بالتفصيل، معتمدين على الأدلّة المطروحة كمفاتيحَ لإجاباتهم.

في الفصل التالي، سوف نلقي نظرةً على بعض الآثار المدهشة لهذه القضايا المنهجيّة، بمجرَّد أن نرسم صورةً أوضح لتكون بمثابةِ أداة الاختبار الخاصّ بنا.

في الوقت الحالي، قد يكون من المفيد أن تحاول وضع نفسك مكان مصدر معلومات عالم أنثروبولوجيا، الآن بعد أن وصل العالم الحديث مع تعقيداته الخاصّة إلى المجموعات القبليّة، فإنّه يتعيَّن عليه إجراء مراجعاتٍ شاملةٍ لوجهات نظره عن الطبيعة، وليس من المستغرب أن يكون هذا الاحتمال مخيفاً له.

أتجرَّأ على القول: إنَّه إذا وصل سكان المرّيخ إلى تكنولوجيا رائعة صدمتنا بأنّها «مستحيلة»، وأخبرونا أنّه يتعيَّن علينا التخلّي عن جراثيمنا وذرَّاتنا والتماشي مع برنامجهم، فإنَّ أكثر علمائنا ذكاءً هم فقط من سينتقلون بسرعةٍ وسعادة، بينما سيتشبَّث بقيَّتنا بذرَّاتنا القديمة وجراثيمنا العزيزة بقدرِ ما نستطيع.

أمرٌ واقعٌ أن نخبر أطفالنا عن كيفيّة تكوُّن الماء من ذرَّات الهيدروجين والأكسجين – على الأقلّ هذا ما قيل لنا دائماً – وأن نحذّرهم من الجراثيم، فقط للبقاء في الجانب الآمن.

ما يلوح في الأفق في حياة كلّ شخص هو مشكلة ما يجب فعله الآن، وهناك القليل من المضايقات الأكثر إرهاقاً من مأزق عدم معرفة ما يجب فعله، أو ما يجب التفكير فيه.

عندما يصدمنا ابتكارٌ مذهل، في مثل هذه الأوقات، نلجأ جميعاً إلى المألوف، قد لا يكون

الشيء المجرَّب والمؤكَّد صحيحاً، ولكن على الأقلّ تمّت تجربته، لذا فهو يعطينا شيئاً لنفعله ونعرف كيف نفعله، وعادة ما ينجح الأمر كما نجح في أيّ وقتٍ مضى.

3- التفكير الزاحف وولادة السرّيَّة في الدين:

«يمكنك أن تخدع كلَّ النَّاس لبعض الوقت، وأن تخدع بعضهم كلَّ الوقت، لكن لا يمكنك أن تخدع كلَّ النَّاس كلَّ الوقت»- ابراهام لنكون

«أولئك الذين أنزلت عليهم كلمة الله كانوا دائماً وحيدين في مكان ناءٍ، مثل موسى، لم يكن هناك أيُّ شخصٍ آخر عندما نزل الوحي على «محمَّد» أيضاً، كان لمورمون جوزيف سميث والعالمة المسيحيَّة «ماري بيكر إيدي»، لقاءٌ حصريٌّ مع الله. علينا أن نثق بهم كمراسلين - وأنت تعرف كيف يكون المراسلون الصحفيُّون، سيفعلون أيَّ شيءٍ من أجل الحصول على قصَّةٍ صحفيَّة» - آندي روني، بكل إخلاص، آندي روني.

تعمل الفيزياء الشعبيَّة وعلم الأحياء الشعبي وعلم النفس الشعبي يوميَّاً بشكلٍ جيِّدٍ كنظام- وكذلك الدين الشعبي- لكنَّ الشكوك تطفو على السطح في بعض الأحيان.

تملك الافكار الاستكشافيَّة للبشر أسلوباً يشبه تدحرج كرة الثلج لتصبح موجاتٍ من الشكّ، وإذا هدَّدت تلك الأفكار رباطة جأشنا، يمكن توقع أننا سنغتنم أيَّ استجابات تحدث لدعم الإجماع أو التخفيف من التحدي.

عندما يصادف الفضول حدثاً غير متوقَّع، لا بدَّ من القول: أنَّ «ما يعرفه الجميع» له مثالٌ مضادّ، فإمَّا أن يتحوَّل الشكُّ إلى اكتشاف، ممَّا يؤدّي إلى التخلّي عن جزءٍ مريبٍ من التقاليد المحليَّة أو انقراضها، أو أن يحمي العنصر المشكوك فيه نفسه بإصلاحٍ مرحلي من نوعٍ ما، أو يتَّحد مع العناصر الأخرى التي تجعل نفسها بعيدةً عن متناول الشكوك بطريقةٍ أو بأخرى.

تؤدّي هذه الغربلة إلى عزل مجموعةٍ فرعيَّةٍ خاصَّةٍ من العناصر الثقافيَّة خلف حجاب الحصانة المنهجيَّة للدحض- وهو نمطٌ موجودٌ في كلّ مكانٍ تقريباً في المجتمعات

البشريَّة، كما حثَّ الكثيرون (انظر، على سبيل المثال، Rappaport، 1979؛ Palmer and Steadman، 2004)، على هذا التقسيم في المقترحات المصمَّمة لتكون محصَّنةً ضدَّ عدم التأكيد، وكلُّ ما تبقَّى يبدو وكأنَّه مِفصَلٌ افتراضيٌّ يمكننا من خلاله تشكيل الطبيعة.

هذا هو -كما يقترحون- المكان الذي يتشارك فيه العلم (البدائي) والدين (البدائي) جزئيّاً، ولا يعني ذلك أنَّ هذين النوعين من المعارف لا يختلطان جيّداً في كثيرٍ من الثقافات، فقد يتداخل التَّاريخ الطبيعي المفصَّل للدين المحلي، مع عادات وخصائص جميع الأنواع المختلفة المُلاحظة بشكلٍ واعٍ، مع الأساطير والطقوس التي تتضمَّن هذه الأنواع؛ مَن هي الآلهة التي تحدد أيُّ الطيور صالحةٌ للتضحية بها، وما هي القرابين التي يجب تقديمها قبل اصطياد كلّ فريسة، وهكذا دواليك.

بالإضافة إلى ذلك، قد يكون الخطُّ الفاصل غير واضحٍ في الممارسة العمليَّة، حيث يخبر أبٌ ابنه كيف يُطلِق الزرزور نداء إنذارٍ لأقربائه يسمعه الخنزير البرّي، بينما يخبر أبٌ آخر ابنه أنَّه لا يعرف كيف يتعلَّم الخنزير من الزرزور - ربَّما يحمل ملاكٌ الرسالة - وقد يروي هذا الابن لابنه قصَّةً عن إلهٍ يحمي الزرزور والخنازير، ولكن لا يحمي الظباء.

يعرف العلماء المدَّعون الإغراء الآتي: عندما تسفر نظريَّتك المفضَّلة عن تنبّؤٍ يتَّضح أنَّه خاطئ، فلماذا لا تدع فرضيَّتك تتحوَّل قليلاً إلى نظريَّةٍ لا يمكن اختبارها بسهولةٍ في ظلّ هذه الظروف؟

من المفترض أن يكون العلماء حذرين من هذا الانحراف - بعيداً عن التفنيد- لكن من الصعب تعلُّم ذلك: التمسُّك بفرضيَّتك وترك الحقائق تقرّر، هو عملٌ غير طبيعي، وعليك أن تستعدَّ لأدائه، الشامان لديهم أجنّدةٌ مختلفة، إنَّهم يحاولون شفاء وتقديم المشورة للنَّاس في الوقت الحقيقي، ويمكنهم الاختباء بامتنان وراء الغموض عندما يحدث ما هو غير متوقَّع (يُظهر رسمٌ كاريكاتوريٌّ طبيباً ساحراً يقف مكتئباً فوق جسد مريضه الراحل، ويقول للأرملة الحزينة: «ما يزال هناك الكثير ممَّا لا نعرفه!»)

إنَّ افتراض التأثيرات غير المرئيَّة التي لا يمكن اكتشافها (على عكس الذرَّات والجراثيم) والمحصَّنة بشكلٍ منهجي ضدَّ التأكيد أو عدم التأكيد، هو أمرٌ شائعٌ جدّاً في الأديان، لدرجة أنَّ مثل هذه التأثيرات تعدُّ أحياناً نهائيَّةً لا يفتقر أيُّ دينٍ لها، وأيُّ شيءٍ يفتقر لها ليس ديناً في الحقيقة، مهما كان مشابهاً للدين من نواحٍ أخرى.

على سبيل المثال، يمكن العثور على تضحياتٍ متقنةٍ للآلهة في كلّ مكان، وبالطبع لا تظهر الآلهة في أيّ مكانٍ من الخفاء، وتجلس لتناول لحم الخنزير المشوي الجميل أو شرب الخمر، بدلاً من ذلك، يُسكَب النبيذُ على الأرض أو على النار، حيث قد تستمتع به الآلهة في خصوصيَّةٍ غير مرئيَّة، ويتمُّ تناول الطعام إمَّا عن طريق تحويله إلى رماد، أو تفويضه للشامان الذين يأكلونه كجزءٍ من واجباتهم الرسميَّة كممثّلين للآلهة.

لا يتعيَّن علينا توريط الشامان- بشكلٍ فردي أو حتَّى كمجموعةٍ منتشرةٍ من المتآمرين- في ابتكار هذا الأساس المنطقي، لأنَّه يمكن أن يظهر فقط من خلال التكرار التفاضلي للطقوس، ولكن يجب أن يكون الشامان حمقى جداً لعدم تقدير هذا التكيّف، وتقدير الحاجة إلى صرف الانتباه عنه.

في بعض الثقافات، ظهرت مواءمة أكثر مساواة: يجب على الجميع أن يأكل الطعام الذي أكلته الآلهة بطريقةٍ ما بشكلٍ غير مرئي وغير مدمّر، يمكن للآلهة أن تحصل على كعكتها، ويمكننا أن نأكلها أيضاً، أليست شفافيَّة هذه الترتيبات الملائمة محفوفةً بالمخاطر؟ نعم، لذلك يكاد يكون دائماً محميَّاً بحجابٍ ثانٍ: هذه الألغاز لا يمكن فهمها، وفي كثير من الأحيان يتمُّ توفير حجابٍ ثالث: يُمنع طرح الكثير من الأسئلة حول كلّ هذه الألغاز!

ماذا عن الشامان أنفسهم، هل أضعفت هذه المحظورات فضولهم؟ ليسَ دائماً.

مثل كلِّ عاملٍ ذي ضمير، من المتوقَّع أن يلاحظ الشامان أو يشتبهوا في أوجه القصور في أدائهم، ثمَّ يجرّبون طرقاً بديلة: «هل أفقد العملاء لصالح الشامان الآخر، ما الذي يفعله ولا أفعله، هل هناك طريقةٌ أفضل للقيام بطقوس الشفاء؟»

الفكرة الشعبيَّة المألوفة عن التنويم المغناطيسي، هي أنَّ المنوّم المغناطيسي يُعطِّل بطريقةٍ ما حرَّاس الشخص الخاضع للتنويم، آليّات الدفاع المشكّكة التي تتفقد كلَّ المواد الواردة للتثبّت من مصداقيَّتها (ربَّما يُنوّم الحرَّاس) وأفضل فكرةٍ هي أنَّ المُنوِّم المغناطيسي لا يعطِّل الحرَّاس، بل يتعاون معهم، ويحوّلهم إلى حلفاء، ويجعلهم يعملون لصالحه في الواقع.

تتمثَّل إحدى طرق القيام بذلك في إلقاء بعض الحقائق الصغيرة عليهم («أنت تشعر بالنعاس، وتشعر بثقل جفونك») والتي يستطيعون التحقُّق من دقَّتها والتأكيد عليها بسهولة، وإذا لم يكن من الواضح للشخص الخاضع للتنويم أنَّ المنوِّم المغناطيسي سيعلم هذه الحقائق، فإنَّ هذا يخلق وهماً خفيفاً بسلطةٍ غير متوقَّعة («كيف عرف ذلك؟»)، ومن ثمَّ يستطيع المنوِّم المغناطيسي، مسلَّحاً بمباركة الحرَّاس، أن يعمل بحماسة.

تحصل هذه الحكمة الشعبيَّة السرّيَّة بشكلٍ أو بآخر على بعض الدعم من التجارب: إنَّ نجاح المُنوِّم المغناطيسي مع شخصٍ ما يتأثَّر بشكلٍ كبير بما إذا كان قد تمَّ إخباره مسبقاً بأنَّ المُنوِّم مغناطيسيّاً مبتدئٌ أم خبير (Small and Kramer، 1969؛ Coe et al.، 1970؛ Balaschak et al.، 1972)، وقد تمَّ اكتشاف هذا التكتيك واستغلاله بصورةٍ متكررة من قبل الشامان، ففي كلّ مكان، هم جامعون دؤوبون ومتحفّظون لحقائقَ غير معروفةٍ عن الأفراد الذين قد يصبحون عملاءً لهم، لكنَّهم لا يتوقَّفون عند هذا الحدّ، فهناك طرقٌ أخرى لإثبات تفوّقٍ غير متوقَّع.

كما يلاحظ ماكلينون (2002)، فقد لوحظت طقوس المشي على الجمر الملتهب دون الإصابة بأذى في جميع أنحاء العالم -في الهند والصين واليابان وسنغافورة وبولينيزيا وسريلانكا واليونان وبلغاريا، على سبيل المثال- وهناك ممارسات أخرى منتشرة من قبل الشامان، وهي حركات خفَّة اليد مثل إخفاء أحشاء الحيوانات التي يمكن بعد ذلك «إخراجها» بأعجوبةٍ من بطن الشخص المصاب في «الجراحة النفسيَّة»، وخدعة تقييد اليد والقدم، ثمَّ التسبُّب في اهتزاز الخيمة بشكلٍ صاخبٍ بطريقةٍ ما.

في مساحة التصميم الضخمة للإمكانيَّات، يبدو أنَّ هذه الثلاثة هي أكثر الطرق التي يمكن

الوصول إليها لخلق تأثيراتٍ «خارقةٍ للطبيعة»، مذهلةٍ لإثارة إعجاب العملاء، حيث تمَّ إعادة اكتشافها بصورةٍ متكررة.

«يبدو أنَّ التشابه الوثيق بين الثقافات أكثر من مجرَّد مصادفة: قد يستخدم الشامان أشكالاً مماثلةً من الاستحضار، دون أيّ تدريبٍ رسمي، ودون الاتصال بالآخرين الذين يستخدمون الاستراتيجيَّات نفسها»، كما يؤكّد ماكلينون، لذا فلا يمكن قبول تفسير وجودها بواسطة «الانتشار» (ص 149).

واحدةٌ من الحقائق الأكثر إثارة للاهتمام حول هذه الأعمال الخادعة الواضحة، هي أنَّ الممارسين- عند الضَّغط عليهم من قبل علماء الأنثروبولوجيا- يظهرون مجموعةً من الردود، كما نحصل أحياناً على اعترافٍ صريحٍ بأنَّهم يستخدمون عن عمدٍ حيل السحر المسرحيَّة لإغراء عملائهم، ويدافعون أحياناً عن هذا على أنَّه نوعٌ من «التضليل المقدَّس» (للسبب الذي يتحدَّث عنه اللاهوتي بول تيليش (انظر الملحق ب)، وفي بعض الأحيان- الأمر الأكثر إثارةً للاهتمام- يُحاط المستجيب بسرعةٍ بنوعٍ من ضباب عدم الفهم والغموض المقدَّس، لحمايته من أيَّة استفسارات أخرى مدمّرة.

هؤلاء الشامان ليسوا محتالين تماماً - ليسوا جميعاً، بأيّ حالٍ من الأحوال - بل إنَّهم يعرفون أنَّ التأثيرات التي يحقّقونها هي أسرارٌ تجاريَّةٌ لا يجب الكشف عنها للمبتدئين خوفاً من تقليل تأثيراتها.

يعرف كلُّ طبيبٍ جيِّدٍ أنَّ بعض الحيل البسيطة لعرض الذات التي تؤلّف أسلوباً معاملة الطبيب للمرضى» يمكن أن تحدث فرقاً كبيراً، إنَّها ليست خادعة حقَّاً، أليس كذلك؟

يعرف كلُّ قسٍّ وكاهنٍ وإمامٍ وحاخامٍ ومعلّم الشيء نفسه، ويمكن العثور اليوم على التدرُّج نفسه من المعرفة إلى السذاجة أو الطهارة في ممارسات دعاة الإحياء الديني، كما تمَّ الكشف بوضوح في «Marjoe»، الفيلم الوثائقي الحائز على جائزة الأوسكار عام 1972، والذي تابع مارجو جورتنر، الواعظ الإنجيليَّ الشَّاب ذا الشخصيَّة الجذَّابة الذي فقد إيمانه،

لكنَّه عاد كواعظٍ من أجل الكشف عن حيل المهنة، في هذا الفيلم المزعج الذي لا يُنسى، يُظهر كيف يجعل النَّاس يغمى عليهم عندما يضع يديه عليهم لمنحهم البركة أو الشفاء، كيف يوقظهم على تصريحاتٍ مؤثِّرةٍ عن محبَّتهم ليسوع، وكيف يجعلهم يفرغون محافظهم في سلَّة جمع التبرُّعات.

4- تدجين الأديان:

«عندما تكون سلالة نباتاتٍ راسخةً بشكلٍ جيّد، لا ينتقي مستنبتو البذور أفضل النباتات، بل يفحصون أحواض البذور الخاصَّة بهم، ويسحبون «الفاسدة» منها، كما يسمون النباتات التي تنشذ عن المعيار المناسب»- تشارلز داروين، حول أصل الأنواع

«يمكننا أن نرى الآن أنَّ ما نسمّيه بالمسيحيَّة - وما نطلق عليه تقليداً مسيحيّاً - يمثّل في الواقع مجموعةً صغيرةً فقط من المصادر المحدَّدة المختارة من بين عشرات المصادر الأخرى. من قام بهذا الاختيار، ولأيّ أسباب، لماذا تمَّ استبعاد هذه الكتابات الأخرى وحظرها باعتبارها «هرطقة»، ما الذي جعلها بهذه الخطورة؟» - إيلين باجلز، الأناجيل الغنوصيَّة

تنبثق الديانات الشعبيَّة من الحياة اليوميَّة للأشخاص الذين يعيشون في مجموعاتٍ صغيرة، وتتقاسم السمات المشتركة في جميع أنحاء العالم. كيف ومتى تحوَّلت هذه الأديان إلى دياناتٍ منظَّمة؟ هناك إجماعٌ عامٌّ بين الباحثين على أنَّ التحوُّل الكبير المسؤول عن ذلك، كان ظهور الزراعة والمستوطنات الأكبر التي جعلتها الزراعة ممكنةً وضروريَّة، ومع ذلك يختلف الباحثون حول ما يجب التأكيد عليه في هذا التحوُّل الكبير. سمح إنشاء مخزوناتٍ غذائيَّة غير قابلة للنقل، وما نتج عن ذلك من تحوُّلٍ إلى الإقامة الثابتة، بظهور تقسيمٍ غير مسبوقٍ للعمل (Seabright، 2004، واضح بشكلٍ خاصّ حول هذا الموضوع)، وهذا بدوره أدَّى إلى ظهور الأسواق، وأتاح الفرصة -أكثر من أيّ وقتٍ مضى- لنشوء المهن المتخصّصة، خلقت هذه الطرق الجديدة لتفاعل النَّاس فرصاً واحتياجاتٍ جديدة. عندما تجد أنَّه يتعيَّن عليك التعامل يوميّاً مع أشخاصٍ ليسوا من أقربائك المقرَّبين، فإنَّ احتمال قيام عددٍ قليل من

الأشخاص ذوي التفكير المماثل بتشكيل تحالفٍ مختلفٍ تماماً عن الأسرة الممتدَّة يجب أن يقدّم نفسه دائماً، وغالباً ما يكون خياراً جذّاباً كذلك.

لا يُعَدُّ Boyer (2001) الوحيدَ الذي يرى أنَّ الانتقال من الدين الشعبي إلى الدين المنظَّم كان في الأساس إحدى ظواهر السوق، فعلى مرّ التَّاريخ حاولت النقابات والمجموعات الأخرى من الحرفيين والمتخصّصين، تحديد أسعارٍ ومعايير مشتركة، ومنع الأعضاء غير النقابيين من تقديم خدماتٍ مماثلة. من خلال إنشاء شبه احتكار، فإنَّهم يتأكَّدون من أنَّ كلَّ العرف يأتي لصالحهم، من خلال الحفاظ على أسعارٍ ومعايير مشتركة، فإنَّهم يجعلون من الصعب على عضو يتمتَّع بمهاراتٍ أو كفاءة خاصَّة أن يبيع بسعرٍ أقلَّ من الآخرين، لذلك يدفع معظمِ النَّاس ثمناً زهيداً لكونهم أعضاء في مجموعةٍ تضمن حصَّة دنيا من السوق لكلِّ فردٍ من أعضائها. [ص. 275]

الخطوة الأولى لمثل هذا التنظيم هي الخطوة الكبيرة، لكنَّ الخطوات التالية من نقابة الكهنة أو الشامان إلى ما يطلق عليه الشركات (والامتيازات والأسماء التجاريَّة)، هي نتيجةٌ حتميَّةٌ تقريباً للوعي الذاتي والفطنة السوقية المتنامية، لأولئك الأفراد الذين انضمُّوا لتشكيل النقابات في المقام الأول.

من المستفيد؟ عندما يبدأ الأفراد في سؤال أنفسهم عن أفضل السبل لتعزيز المؤسَّسات التي تمَّ إنشاؤها والحفاظ عليها، فإنَّهم يغيّرون تركيز السؤال بشكلٍ جذري، ممَّا يؤدّي إلى ظهور ضغوطٍ انتقائيَّةٍ جديدة.

قدَّر داروين ذلك، واستخدم الانتقال ممَّا أسماه الاختيار «اللاواعي» إلى الاختيار «المنهجي» كجسرٍ تربوي لشرح فكرته العظيمة عن الانتقاء الطبيعي، في الفصل الافتتاحي من رائعته: (بالمناسبة، فإنَّ كتاب «حول أصل الأنواع» هو كتابٌ رائعٌ للمطالعة، فكما يقرأ الملحدون في كثيرٍ من الأحيان «الكتاب المقدَّس كنصٍّ أدبي» ويتأثّرون بعمقٍ بالشعر والرؤى فيه، دون أن يغيّروا قناعاتهم، فإنَّ الخلقيين وغيرهم ممَّن لا يستطيعون إقناع أنفسهم بفكرة التطوُّر ما يزال بإمكانهم أن يستمتعوا بقراءة الوثيقة التأسيسيَّة لنظريَّة التطوُّر الحديثة

- سواءٌ غيَّرت رأيهم حول التطوُّر أم لا.)

في الوقت الحاضر، يحاول المربُّون البارزون عن طريق الانتقاء المنهجي- مع وجود كائنٍ مميَّز بالحسبان- صنع سلالةٍ جديدةٍ أو سلالةٍ فرعيَّة، متفوّقةٍ على أيّ سلالةٍ موجودةٍ في البلد، ولكن لغرضنا فإنَّ نوع الاختيار والذي قد يسمَّى اللاوعي، والذي ينتج عن محاولة كلّ شخصٍ لامتلاك وتكاثر أفضل الحيوانات الفرديَّة، هو الأكثر أهميَّة، ومن ثمَّ فإنَّ الرجل الذي ينوي الاحتفاظ بكلاب الصيد يحاول بشكلٍ طبيعي الحصول على كلاب جيّدةٍ بقدر ما يستطيع، وبعد ذلك يستولد من أفضل كلابه، لكن ليس لديه رغبةٌ أو توقّعٌ في تغيير السلالة بشكلٍ دائم، ومع ذلك لا أشكُّ في أنَّ هذه العمليَّة التي استمرَّت على مدى قرون، من شأنها تحسين وتعديل أيّ سلالة، هناك سببٌ للاعتقاد بأنَّ كلب الملك تشارلز الذليل قد تمَّ تعديله دون وعيٍ إلى حدٍّ كبير منذ عهد ذلك الملك. [ص. 34-35]

تمَّ تدجين كلٍّ من النباتات والحيوانات دون أيِّ تصميم أو ابتكار بعيد النظر من جانب القائمين على البذور وحيوانات الاستيلاد، لكن يا لها من ضربة حظٍّ جيّدةٍ لتلك السلالات التي أصبحت مستأنسة! كلُّ ما تبقَّى من أسلاف الحبوب اليوم عبارةٌ عن بقعٍ صغيرةٍ متناثرةٍ من أبناء عمومتها من الأعشاب البريَّة، ويمكن حمل أقرب الأقارب الباقين على قيد الحياة لجميع الحيوانات الأليفة في بضعة سفن.

يا له من ذكاءٍ من الأغنام البريَّة التي اكتسبت هذا التكيُّف الأكثر تنوُّعاً، الراعي! من خلال تشكيل تحالفٍ تكافلي مع الإنسان العاقل، يمكن للأغنام الاستعانة بمصادرَ خارجيَّةٍ لمهام البقاء الرئيسة: العثور على الطعام، وتجنُّب الحيوانات المفترسة، حتَّى أنَّهم حصلوا على المأوى والرعاية الطبيَّة الطارئة كمكافأة، وكان الثمن الذي دفعوه - خسارة حرّيَّة اختيار الشريك، والذبح بدلاً من القتل من قبل الحيوانات المفترسة (إذا كان هذا ثمناً) - زهيداً مقارنةً بالمكاسب التي اشتروها من بقاء الأبناء على قيد الحياة، لكن بالطبع لم يكن ذكاءهم هو ما يفسّر الصفقة الجيّدة، لقد كان الذكاء الأعمى غير البصير للطبيعة الأم (التطوُّر) هو الذي صادق على الأساس المنطقي الحرّ لهذا الترتيب.

في الواقع، تعدُّ الأغنام والحيوانات الأليفة الأخرى أكثر غباءً من أقاربها البريَّة - لأنَّها كذلك: أدمغتهم أصغر (بالنسبة إلى حجم الجسم ووزنه)، وهذا لا يرجع فقط إلى كونهم قد تمَّ استيلادهم من أجل كتلة العضلات (اللحوم)، لذا نظراً لأنَّ كلّاً من الحيوانات الأليفة ومربيها شهدوا انفجاراتٍ سكّانيَّةً ضخمة (انتقلت من أقل من 1 في المائة من الكتلة الحيويَّة للفقاريات الأرضيَّة قبل عشرة آلاف سنة إلى أكثر من 98 في المائة اليوم - انظر الملحق ب)، مما لا شكّ فيه أنَّ هذا التعايش كان تكافليّاً وعزز اللياقة لكلا الطرفين.

ما أريد أن أقترحه الآن هو أنَّه إلى جانب تدجين الحيوانات والنباتات، كانت هناك عمليَّةٌ تدريجيَّةٌ أصبحت فيها الميمات البريَّة (ذاتية الاستدامة) للدين الشعبي مدجَّنةً تماماً. حصلت الميمات على مشرفين، لذا فإنَّ الميمات المحظوظة بما يكفي لوجود أوصياء، الأشخاص الذين سيعملون بجدٍّ، ويستخدمون ذكائهم لتعزيز انتشارها وحمايتها من أعدائها، تعفى من الكثير من عبء الحفاظ على سلالاتها.

في الحالات القصوى، لم تعد بحاجةٍ إلى أن تكون جذَّابةً بشكلٍ خاصّ، أو أن تجذب غرائزنا الحسّيَّة إطلاقاً، فميمات جدول الضرب و ميمات التفاضل والتكامل، على سبيل المثال، بالكاد تكون ممتعةً للجمهور، ومع ذلك يتمُّ نشرها على النحو الواجب من قبل المعلّمين المجتهدين - رعاة الميم - الذين تقع على عاتقهم مسؤوليَّة الحفاظ على قوَّة هذه السلالات، وبعبارةٍ أخرى، تشبه الميمات البريَّة للغة والدين الشعبي، الفئران والسناجب والحمام وفيروسات الرشح، تتكيَّف بشكلٍ رائع مع العيش معنا وتستغلنا سواءً أحببناها أم لا، في المقابل، تعتمد الميمات المستأنسة على مساعدة الأوصياء البشريين للاستمرار.

ظلَّ النَّاس يدقّقون في ممارساتهم ومؤسَّساتهم الدينيَّة تقريباً، طالما كانوا يقومون بتنقيح ممارساتهم ومؤسَّساتهم الزراعيَّة، وكان لدى هؤلاء الفاحصين المفكّرين جميعاً أجنّدات - مفاهيم فرديَّة أو مشتركة حول ما كان ذا قيمةٍ ولماذا- كان البعض حكيماً وبعضهم حمقى، بعضهم واسع الاطّلاع وبعضهم ساذج، بعضهم طاهرٌ وقدّيس، وبعضهم فاسدٌ وشرير.

يمكن توسيع فرضيَّة جاريد دياموند حول البحث الشامل عمليَّاً من قبل أسلافنا عن

الأنواع القابلة للتدجين في جوارهم (التي نوقشت في الفصل 5). سيكتشف المارسون الفضوليُّون أيضاً حيلاً جيّدةً موجودةً في أقرب المناطق في مجال التصميم للأديان المحتملة، يرى دياموند أنَّ الانتقال من مجموعاتٍ أقلّ من مائة شخص، إلى قبائل من المئات، إلى مشيخاتِ الآلاف، إلى ولاياتٍ يزيد عدد سكّانها عن خمسين ألفاً، هو مسيرةٌ لا هوادة فيها «من المساواة إلى حكم اللصوص».

وفي حديثه عن المشيخات قال:

«في أحسن الأحوال، تقوم المشيخات بعملٍ جيّدٍ من خلال تقديم خدمات باهظة الثمن من المستحيل التعاقد عليها على أساسٍ فردي، وفي أسوأ الأحوال، تعمل المشيخات بلا خجلٍ كأنظمة كليبتوقراطيّة[1]، وتنقل الثروة الصافية من عامَّة النَّاس إلى الطبقات العليا [....]، لماذا يتسامح عامَّة النَّاس مع نقل ثمار عملهم الشَّاق إلى الفاسدين؟ يُطرَحُ هذا السؤال من جديد من قبل الناخبين في كلّ انتخاباتٍ حديثة، والذي سبق أن طرحه المنظّرون السياسيُّون من أفلاطون إلى ماركس». [1997، ص. 276]

هناك أربعة طرقٍ -كما يقترح دياموند- حاول الفاسدون الحفاظ على سلطتهم بواسطتها: (1) نزع سلاح الجماهير وتسليح النخبة، (2) إسعاد الجماهير من خلال إعادة توزيع قدرٍ كبيرٍ من الجزية التي حصلوا عليها، (3) استخدام احتكار القوَّة لتعزيز السعادة، من خلال الحفاظ على النظام العامّ وكبح العنف، (4) بناء أيديولوجيا أو دين يبرّر نظام الكليبتوقراطيّة. (ص 277).

كيف يمكن للدين أن يدعم نظام حكم اللصوص؟ من خلال تحالفٍ بين الزعيم السياسي والكهنة، يتمُّ فيه إعلان القائد كإله، أو منحدرٌ من الآلهة، أو -كما يقول دياموند- على الأقلّ لديه «خطٌّ ساخنٌ مع الآلهة».

إلى جانب تبرير نقل الثروة إلى الفاسدين، يجلب الدين المؤسَّسي فائدتين أخريين مهمَّتين

(1) الكليبتوقراطيّة: حكم اللصوص

للمجتمعات المركزية: أولاً، تساعد الأيديولوجيا أو الدين المشترك في حلّ مشكلة كيفيَّة عيش الأفراد غير المرتبطين معاً دون قتل بعضهم البعض - من خلال تزويدهم برباطٍ لا يقوم على القرابة، ثانياً، يمنح النَّاس دافعاً -بخلاف الاهتمام الذاتي الوراثي- للتضحية بحياتهم من أجل الآخرين، وعلى حساب عدد قليلٍ من أفراد المجتمع الذين يموتون في المعركة كجنود، يصبح المجتمع بأسره أكثر فاعليَّةً في قهر المجتمعات الأخرى أو مقاومة الهجمات. [ص. 278]

لذلك نجد الأدوات نفسها التي اختُرِعَت بصورةٍ متكررة، في كلّ دينٍ تقريباً، وفي العديد من المنظَّمات غير الدينيَّة أيضاً، وكما قال اللورد أكتون منذ أكثر من قرن: «تميل كلّ سلطةٍ إلى الفساد؛ السلطة المطلقة مفسدةٌ مطلقة»، ولكن هذا ما حدث ذات مرَّة عندما كان أسلافنا يستكشفون مراجعات التصميم لأول مرَّة لأكثر المؤسَّسات قوَّة.

على سبيل المثال، قبول مكانةٍ أدنى لإلهٍ غير مرئي هو خدعةٌ ماكرة، سواءٌ أدرك مكرها أولئك الذين يتعثَّرون بها أم لم يدركوا، أولئك الذين يعتمدون عليها سوف يزدهرون، بقصدٍ أو غير قصد، وكما يعلم كلُّ مرؤوس، تكون أوامر المرء أكثر فاعليَّةً إذا كان بإمكانه أن يرفقها بتهديدٍ بإخبار الرئيس الأكبر إذا حدث العصيان (التباينات في هذه الحيلة معروفةٌ جيّداً لأتباع المافيا وبائعي السيَّارات المستعملة، من بين آخرين - «أنا نفسي غير مصرَّحٍ لي بتقديم مثل هذا العرض، لذا سأضطرُّ إلى مراجعة رئيسي، معذرة لدقيقة»).

هذا يساعد على تفسير ما هو جزءٌ بسيطٌ من اللغز من ناحيةٍ أخرى. يعتمد أيُّ ديكتاتورٍ على إخلاص موظَّفيه المباشرين؛ بمعنى أن أيَّ اثنين أو ثلاثةٍ منهم يمكن أن يتغلَّبوا عليه بسهولة (لا يمكنه أن يتجوَّل بخنجرٍ متأهّباً طوال حياته).

كيف يمكنك كديكتاتور التأكُّد من أنَّ موظَّفيك المباشرين يضعون إخلاصهم لك فوق أيَّة أفكار قد تخطر لهم حول استبدالك؟ إنَّ وضع الخوف من قوَّة أعلى في رؤوسهم هو خطوةٌ جيّدةٌ جدَّاً، غالباً ما يكون هناك بلا شكّ اتّفاقٌ غير معلنٍ بين رئيس الكهنة والملك؛ يحتاج كلٌّ منهما إلى الآخر من أجل سلطته، ويحتاجان معاً إلى الآلهة في السماء.

يعدُّ والتر بوركيرت ميكافيليّاً بارزاً في شرحه كيف أدَّت هذه الحيلة إلى نشوء مؤسَّسة الثناء الطقسي في أعقاب ذلك، ويلاحظ بعض تعقيدها المفيد:

لا يرتقي الكاهن بقوَّة كفاءته اللفظيَّة إلى مستوىً أعلى في الخيال فحسب، بل ينجح في عكس بنية الانتباه: لقد أصبح الرئيس مجبراً على الاهتمام بأغنية أو خطاب المديح الذي يقدمه المرؤوس، والمديح هو الشكل المعترف به لإحداث الضجيج في حضور الرؤساء؛ وهو يميل لأن يصبح موسيقى إذا كان ذا تنظيمٍ جيّد، ويصعد إلى الأعالي كرائحة البخوُر، وهكذا فإنَّ التوتُّر بين العالي والمنخفض يكون مرهقاً ومريحاً معاً، حيث يؤسّس المستوى الأدنى مكانه ضمن نظامٍ يقبله بشكلٍ قاطع. [1996، ص. 91]

ستعاقبك الآلهة إذا حاولت تجاوز أحدنا، لقد لاحظنا للتو دور الطقوس مثل التدريبات الفرديَّة أو جلسات استيعاب الأخطاء الموحَّدة في تعزيز دقَّة النقل الميمي، ولاحظنا أنَّ هذه الطقوس يتمُّ فرضها من خلال جعل عدم المشاركة مكلفةً بطريقةٍ أو بأخرى، إضافةً إلى ذلك، كما يقترح جوزيف بلبوليا، «ربَّما تُظهر الطقوس الدينيَّة السلطة الطبيعيَّة للمجتمع الديني، وهو عرضٌ رائعٌ لما سيواجهه المنشقُّون المحتملون» (2004، ص 40)، لكن ما الذي يدفع روح المجتمع في المقام الأول، هل مشروع الحفاظ على الجماعات متَّحدة هي طرقٌ يخترعها الكليبتوقراطيُّون للحفاظ على «أغنامهم»، أم أنَّ هناك قصَّةً حسنة النيَّة يجب الكشف عنها؟

الفصل السادس: تمَّت مراجعة انتقال الدين من خلال مراجعةٍ ضخمة، غالباً ما تكون متعمَّدةً وبصيرة، حيث أصبح النَّاس وكلاء للأفكار التي دخلت عليهم، وقاموا بتدجينها. السرّيَّة، الخداع، والحصانة المنهجيَّة تجاه عدم التأكيد، هي بعض الميزات التي ظهرت، وقد صُمِّمَت بعمليَّاتٍ حسَّاسة لإيجاد إجاباتٍ جديدةٍ لسؤال: من المستفيد؟ حيث أصبحت دوافع الوكلاء جزءاً من العمليَّة.

الفصل السابع: لماذا ينضمُّ النَّاس إلى المجموعات، هل هذا مجرَّد قرار عقلاني من جانبهم، أم أنَّ هناك قوىً غير عاقلة نسبيّاً لاختيار المجموعة في العمل؟ على الرَّغم من وجود الكثير

عمًّا يمكن قوله لصالح كلا هذين الاقتراحين، إلَّا أنَّها لا يستنفدان النماذج المعقولة التي تحاول شرح استعدادنا لتشكيل ولاءاتٍ دائمة.

الفصل السابع

اختراع روح الفريق

1- طريقٌ معبَّدةٌ بالنوايا الحسنة:

«وهنا يأتي الفخ، يحتاج الشخص السيّئ فقط للتوبة: يمكن للشخص الصالح فقط أن يتوب تماماً، كلّما كنت أسوأ كلّما احتجت إليها، وقلّما يمكنك القيام بها، الشخص الوحيد الذي يمكنه فعل ذلك بشكلٍ مثالي هو الشخص المثالي، ولن يحتاج إليها» — سي. أس. لويس، المسيحيّة المجرَّدة

كلُّ نظام تحكُّم مصمَّمٌ لحماية شيءٍ ما، سواءً كان نظاماً عصبيّاً للحيوان، أو نظاماً للنموِّ والإصلاح الذاتي للنبات، أو نتاجاً هندسيّاً مثل نظام توجيه الطائرة، ويجب أن يحمي هذا الشيء نفسه! (إذا «مات» قبل الأوان، فإنّه يفشل في مهمّته، مهما كانت) لذا فإنَّ «المصلحة الذاتيّة» التي تحدّد بالتالي آليّة التقييم لجميع أنظمة التحكُّم، يمكن أن تنقسم عندما يصبح نظام التحكُّم مفكّراً.

يفتح تفكيرنا البشري مجالاً غنيّاً من الفرص لمراجعة أهدافنا، بما في ذلك أعظم أهدافنا، عندما يمكنك البدء في التفكير في إيجابيّات وسلبيّات الانضمام إلى ائتلافٍ قائمٍ مقابل الانفصال، ومحاولة بدء تحالفٍ جديد، أو حول كيفيّة التعامل مع مشكلات الولاء بين أقاربك، أو الحاجة إلى تغيير هيكل سلطةٍ في بيئتك الاجتماعيّة، يمكنك إنشاء طرقٍ يمكن

من خلالها الهروب من الافتراضات المسبقة الأساسيَّة لتصميمك الأولي.

عندما يتَّخذ فاعلٌ - نظامٌ مقصود، كما أسمّيه - قراراً بشأن أفضل مسارٍ للعمل، كلُّ ما يمكننا التفكير فيه هو أن نسأل: من أيِّ منظورٍ يُتِمُّ الحكمَ على هذه الأمثلة؟.

يتمثَّل أحد الافتراضات الأساسيَّة المعياريَّة إلى حدٍّ ما- على الأقلّ في العالم الغربي، وخاصَّةً بين الاقتصاديين- في معاملة كلِّ كائنٍ بشري كموضعِ رفاهٍ فردانيٍّ ومعزول، ماذا استفيد؟ المصلحة الذاتيَّة العقلانيَّة.

ولكن على الرَّغم من أنَّه يجب أن يكون هناك شيءٌ ما في الدور الذي تلعبه الذات - شيء يجيب على سؤال من المستفيد؟ سؤالٌ لصانع القرار قيد الاختبار- ليست هناك ضرورةٌ في هذه المعالجة الافتراضيَّة، كما هو شائع، يمكن توزيع الذات كمستفيدٍ نهائي عبر المكان والزمان، يمكنني الاهتمام بالآخرين، أو ببنيةٍ اجتماعيَّةٍ أكبر، على سبيل المثال.

لا يوجد شيء يقيدني بـ «أنا» على عكس «نحن»، ما يزال بإمكاني القيام بمهمَّتي في البحث عن الأولويَّات لتشمل ليس فقط أنا وعائلتي، ولكن أيضاً الإسلام، أو أوكسفام، أو شيكاغو بولز كأولويَّة!.

إنَّ إمكانيَّة تثبيت مثل هذه المنظورات الجديدة في أدمغتنا، التي فتحها التطوُّر الثقافي، هي فقط ما تمنح جنسنا البشريَّ القدرة على التفكير الأخلاقي، وغير الأخلاقي.

إليك مساراً معروفاً جيّداً: تبدأ برغبةٍ صادقةٍ لمساعدة الآخرين، والاقتناع سواءً كان أساسه جيّداً أو سيّئاً، فإنَّ نقابتك أو ناديك أو كنيستك هي التحالف الذي يمكن أن يخدم بشكلٍ أفضل لتحسين رفاهية الآخرين، وإذا كانت الأوقات صعبةً بشكلٍ خاصّ، فإنَّ هذه الإدارة المشروطة - أفعل ما هو جيّدٌ للنقابة لأنَّ ذلك سيكون مفيداً للجميع - قد يتمُّ استبدالها بالاهتمام الضيّق بسلامةِ الجماعة نفسها، ولسببٍ وجيه، إذا كنت تعتقد أنَّ المؤسَّسة المعنيَّة هي أفضل طريقٍ إلى الخير، فيمكن أن يكون هدف الحفاظ عليها للمشاريع المستقبليَّة، التي ما تزال غير متوقَّعة، الهدف الأسمى الأكثر عقلانيَّةً الذي يمكنك تحديده.

هناك خطوةٌ قصيرةٌ تفصل هذا عن فقدان المسار، أو حتّى نسيان الهدف الأكبر، وتكريس نفسك بشكلٍ فردي لتعزيز مصالح المؤسَّسة بأيّ ثمن، وهكذا يمكن أن يصبح الولاء المشروط أو المفيد في الممارسة العمليَّة غير قابلٍ للتمييز عن الالتزام بشيءٍ «جيّدٍ في حدّ ذاته»، وهناك خطوةٌ قصيرةٌ أخرى تحرّف هذا الخير الأسمى ضيّق الأفق إلى الهدف الأكثر أنانيَّة المتمثّل في القيام بكلِّ ما يلزم لإبقاء نفسك على رأس المؤسَّسة («من أفضل منّي لقيادتنا للانتصار على خصومنا؟»).

لقد رأينا جميعاً هذا يحدث عدَّة مرات، وربَّما نسينا سبب رغبتنا في أن نكون قادةً في المقام الأول.

تجلب مثل هذه التحولات عملية اتخاذ القرار الواعية للتأثير على القضايا التي تم تتبعها سابقاً من خلال عملية التكرار التفاضلي عن طريق الانتقاء الطبيعي (الميمات، أو الجينات)، وهذا يخلق منافسين جدد كإجابات على سؤال «من المستفيد»؟

قد لا يتطابق ما هو جيّدٌ عموماً مع ما هو جيّدٌ للمؤسَّسة، والذي قد لا يجعل الحياة أسهل لقائد المؤسَّسة، ولكنَّ هذه المعايير المختلفة تملك طريقة للاستعاضة عن بعضها البعض تحت ضغط التحكُّم التأمّلي في الوقت الحقيقي، عندما يحدث هذا، يمكن زيادة الأسس المنطقيَّة العائمة التي نُحِتَت بشكلٍ أعمى من خلال المنافسات السابقة، أو حتّى استبدالها بالأسباب المنطقيَّة المعلنة، والأسس المنطقيَّة التي لا ترتكز فقط في العقول الفرديَّة، في الرسوم البيانيَّة والخطط، وفي المحادثات، ولكنَّها تُستخدَم، تُناقش، تُسبب، يُتَّفق عليها، وهكذا يصبح النَّاس وكلاء واعين لميماتهم، ولا يعدُّون بقائها على قيد الحياة أمراً مفروغاً منه، بالطريقة التي نأخذ بها لغتنا كأمرٍ مسلَّمٍ به، بل يأخذون هدف تعزيز الكلمة وحمايتها ونشرها.

لماذا يريد الناس أن يكونوا وكلاء عن أديانهم؟ السببٌ واضح، أليس كذلك؟

إنَّهم يعتقدون أنَّ هذا هو السبيل لعيش حياةٍ أخلاقيَّةٍ جيّدة، ويريدون بصدقٍ أن يكونوا صالحين، هل هم على حقّ؟

لاحظ أنَّ هذه ليست مسألة ما إذا كانت الأديان قد عزَّزت اللياقة البيولوجيَّة للإنسان، حيث تعدُّ اللياقة البيولوجيَّة والقيمة الأخلاقيَّة مسألتين مختلفتين تماماً.

لقد أجَّلتُ موضوع اللياقة حتَّى نتمكَّن من رؤية ذلك، على الرَّغم من كونه سؤالاً تجريبيّاً جيّداً ينبغي أن نحاول الإجابة عليه، إلَّا أنَّ الإجابة عليه ستبقي الباب مفتوحاً على مصراعيه لسؤال: فيما إذا كان ينبغي علينا أن نكون وكلاءً للدين.

بعد ترسيخ هذه النقطة، دعونا أخيراً نفكّر- لا أن نجيب- بالسؤال عمَّا إذا كانت الأديان الشعبيَّة والأديان المنظَّمة التي تحوَّلت إليها في النهاية، قد منحت مزايا اللياقة لمن يمارسونها؟

شغل هذا السؤال علماء الأنثروبولوجيا والباحثين الآخرين لعدَّة قرون، غالباً لأنَّهم خلطوا بينه وبين مسألة القيمة النهائيَّة (الأخلاقيَّة) للدين، وليس هناك ندرةٌ في الفرضيَّات المألوفة لاستكشافها بمجرَّد أن نستعدّ.

سوف تحظى اثنتان من أكثر هذه الفرضيات منطقيَّة بمزيدٍ من الاهتمام في فصولٍ لاحقة، لذلك سأذكرهما الآن، يلخّص دنبار (2004) إحداها:

"ليس من قبيل المصادفة أنَّ كلَّ دينٍ تقريباً يَعِد أتباعه بأنَّهم وحدهم «شعب الله المختار»، ضامناً لهم الخلاص مهما يكن، مؤكّداً أنَّ الرَّبَّ (أو أيَّ شكلٍ تتَّخذه الآلهة) سيساعدهم خلال الصعوبات الحاليَّة إذا تمَّ أداء الطقوس والصلاة بشكلٍ صحيح، سيمنحهم هذا بلا شك، إحساساً عميقاً بالراحة في أوقات الشدائد". [ص. 191]

لاحظ أنَّ الراحة- في حدِّ ذاتها- لن تكون معزّزاً للياقة البدنية ما لم توفّر أيضاً (كما تفعل بالتأكيد) المزايا العمليَّة للقرار والثقة، في كلٍّ من صنع القرار والعمل. منحك الله القوَّة! عندما تواجه حالة عدم اليقين المرعبة في كثيرٍ من الأحيان لعالمٍ خطير، فإنَّ الاعتقاد بأنَّ شخصاً ما يراقبك قد يكون معزّزاً معنويّاً فعَّالاً بشكلٍ حاسم، وقادراً على تحويل الأشخاص الذين يقعدهم الخوف والتردُّد إلى فاعلين أقوياء، هذه فرضيَّةٌ حول الفاعليَّة الفرديَّة في أوقات الكفاح، وقد تكون صحيحةً أو لا.

هناك فرضيَّةٌ مميَّزةٌ تماماً، وهي أنَّ المشاركة في الدين (في طقوس التنشئة المرعبة، على سبيل المثال) تخلق أو تعزّز روابط الثِّقة التي تسمح لمجموعات الأفراد بالعمل معاً بشكلٍ أكثر فعّاليَّة، وقد تمَّ طيُّ نسخٍ من فرضيَّة اللياقة الجماعيَّة هذه بواسطة Boyer وBurkert وWilson والعديد غيرهم. قد يكون هذا صحيحاً وقد لا يكون، في الواقع، يمكن أن تكون كلتا الفرضيَّتين صحيحتين، وعلينا أن نحاول تأكيدهما أو دحضهما على حدٍّ سواء، فقط من زاوية تسليطهما الضوء على مسألة القيمة الأخلاقيَّة للدين.

2- مستعمرة النمل والمؤسَّسة:

«وُجِدَت الأديان في المقام الأول للنَّاس، لتحقيق ما لا يمكنهم تحقيقه بمفردهم» — ديفيد سلون ويلسون، كاتدرائيَّة داروين.

«لكن ما هي الفوائد، لماذا يريد النَّاس الدين أصلاً؟ إنَّهم يريدون ذلك لأنَّ الدين هو المصدر الوحيد المعقول لبعض المكافآت المحدَّدة التي يوجد عليها طلبٌ عامٌّ لا ينضب» — رودني ستارك وروجر فينك، أعمال الإيمان

لماذا ينضمُّ النَّاس إلى المجموعات؟ لأنَّهم يريدون ذلك، ولكن لماذا يريدون ذلك؟

لأسبابٍ عديدة، بما في ذلك ما هو واضح: من أجل الحماية المتبادلة والأمن الاقتصادي، لتعزيز كفاءة الحصاد والأنشطة الضروريَّة الأخرى، لإنجاز مشاريع واسعةِ النطاق كانت مستحيلةً لولا ذلك، لكنَّ المنفعة الواضحة لهذه الترتيبات الجماعيَّة لا تُفسَّر في حدِّ ذاتها كيف حدثت، لأنَّ هناك حواجزاً يجب التغلّب عليها، في شكل الخوف والعداء المتبادلين، واحتمال الانشقاق الانتهازي أو الخيانة التي تلوح في الأفق دائماً.

إنَّ عدم قدرتنا على تحقيق تعاونٍ عالمي حقيقي على الرَّغم من الحجج المقنعة التي توضّح الفوائد التي يمكن الحصول عليها، وعلى الرَّغم من العديد من الحملات الفاشلة التي تهدف إلى إنشاء مؤسَّساتٍ تمكينيَّة، يظهر أنَّ التعاون المحدود والولاء الذي نتمتَّع به، يعدَّان إنجازاً

نادراً.

لقد تمكّنا بطريقةٍ ما من جعل أنفسنا متحضّرين إلى حدٍّ ما، وبطرقٍ لم يحاول أيُّ نوعٍ آخر حتّى الآن القيام بها، غالباً ما تتجمّع الأنواع الأخرى معاً في قطعانٍ أو أسراب، ومن الواضح سبب تكيُّف هذه التجمُّعات عند حدوثها، لكنّنا لسنا حيواناتٍ ترعى، على سبيل المثال، ومن بين القرود العاشبة (والمفترسة) التي هي أقرب الحيوانات إلينا، فإنَّ المجموعات المستقرّة الأكبر تقتصر عموماً على الأقارب المقرّبين، والأسر الممتدّة التي لا يُسمَح للوافدين الجدد بالدخول إليها إلّا بعد صراعٍ واختبار (عند الشمبانزي، القادمون الجدد هم دائماً إناثٌ تهاجر من مجموعاتها الأصليّة للعثور على شريك، وأيُّ ذكرٍ يحاول الانضمام إلى مجموعةٍ أخرى سوف يُقتل).

ليس مستغرباً سبب تطويرنا، كالقردة الأخرى، رفقةً من الجنس نفسه، لكنَّ غريزة التجمُّع لها حدودها.

من اللافت للنظر أنّنا تعلّمنا أن نكون مرتاحين في صحبة الغرباء، كما قال Seabright (2004)، والفكرة المقنعة دائماً حول الدين هي أنّه يعمل على تعزيز مثل هذا التماسك الجماعي، محوّلاً السكّان التعساء من غير الأقارب والذين يشكّون ببعضهم البعض إلى عائلاتٍ متماسكة، أو حتّى كائناتٍ فائقة الفعّاليّة للغاية، مثل مستعمرات النمل أو خلايا النحل.

التضامن المثير للإعجاب الذي حقّقته العديد من المنظّمات الدينيّة ليس موضع شكّ، ولكن هل يمكن أن يفسّر هذا صعود الأديان واستمرار وجودها؟ اعتقد الكثيرون بذلك، ولكن كيف يمكن لهذا أن ينجح؟

يتّفق المنظّرون من جميع المعتقدات على أنَّ البحث والتطوير المطلوبان لإنشاء مثل هذا النظام وصيانته يجب أن ينجزا بطريقةٍ ما، ويبدو أنَّ هناك في البداية طريقان فقط للاختيار بينهما: مسار مستعمرة النمل، ومسار الشركة، وشكل الانتقاء الطبيعي تصميم النمل على

مرِّ الدهور، حيث عمل على تحويل أنواع النمل الفرديَّة إلى متخصِّصين ينسّقون جهودهم تلقائيّاً، بحيث ينتج عن ذلك مستعمرةٌ متناغمةٌ وقويَّةٌ بشكلٍ طبيعي.

لم يكن هناك نملة بطلة اكتشفتها ونفَّذتها، لم يكن عليهم أن يفعلوا ذلك، لأنَّ الانتقاء الطبيعيَّ قام بالتجربة والخطأ بالنسبة لهم، ولم يكن هناك أيُّ نملةٍ فرديَّة - أو مجلسٌ للنمل - لتلعب دور الحاكم، في المقابل، فإنَّ الاختيارات العقلانيَّة للبشر الأفراد هي التي تخلق الشركة، فهم يصمِّمون بنية الشركة، ويتفقون على تأسيس الشركة، ثمَّ يتحكمون بأنشطتها.

الفاعلون الأفراد الرشيدون، الذين يبحثون عن مصالحهم الخاصَّة، ويقومون بتحليلات التكلفة والفوائد الفرديَّة الخاصَّة بهم، هم من يتَّخذون القرارات التي تشكّل- بشكلٍ مباشر أو غير مباشر - ميزات الشركة.

هل تكمن قوة الدين وقدرته على المثابرة والازدهار في تحدّيه للقانون الثاني للديناميكا الحرارِّية ، كقُّوة مستعمرة النمل أو الشركة، هل الدين نتاج غريزةٍ تطوُّريَّة عمياء، أم اختيارٌ عقلاني، أم أنَّ هناك إمكانيَّةً أخرى؟ (هل يمكن أن يكون هبةً من الله، على سبيل المثال؟).

الفشل في طرح السؤال - ناهيك عن الإجابة - هو التهمة التي استُخدِمَت منذ فترةٍ طويلة لتشويه سمعة المدرسة الوظيفيَّة لعلم الاجتماع التي بدأها إميل دوركهايم، فوفقاً لمنتقديها: عامل الوظيفيُّون المجتمعاتِ كما لو أنَّها كائناتٌ حيَّة، حافظت على صحّتها ونشاطها من خلال مجموعةٍ من التعديلات في أعضائهم، دون إظهار كيفيَّة إنجاز البحث والتطوير المطلوبين لتصميم وتعديل هذه الكائنات الحيَّة الفائقة.

هذا النقد هو في الأساس النقد نفسه الموجَّه من قبل علماء الأحياء التطوُّريين لفرضية جايا لدى لوفلوك (1979) وآخرين، فوفقاً لفرضيَّة جايا، فإنَّ المحيط الحيويَّ للأرض هو في حدِّ ذاته نوعٌ من الكائنات الحيَّة الفائقة، ويحافظ على توازناته المختلفة من أجل الحفاظ على الحياة على الأرض، فكرةٌ جميلة، لكن كما قالها ريتشارد دوكينز بإيجاز:

«لكي ينطبق التشبيه بدقَّة، من المفترض أن تكون هناك مجموعة فرضيات «جايا» منافسة

على كواكب مختلفة.

تميل الأغلفة الحيويَّة التي لم تطوِّر أنظمةً استتبابيَّةً[1] فعَّالةً لغلافها الجوي إلى الانقراض[....]، بالإضافة إلى أنَّنا يجب أن نفترض نوعاً من التكاثر، حيث أنتجت الكواكب الناجحة نسخاً من أشكال حياتها على كواكب جديدة». [1982، 1999، ص. 236]

يجب على عشَّاق فرضيَّة «جايا»، إذا أرادوا أن يؤخذوا على محمل الجدّ، أن يسألوا ويجيبوا على السؤال الآتي: كيف تُصمَّم وتركَّب أنظمة الاستتباب المفترضة، كما يجب أن يتحمَّل العاملون في العلوم الاجتماعيَّة العبء نفسه.

أدرج David Sloan Wilson (2002) «نظريَّة الاختيار متعدِّد المستويات» لمحاولة إنقاذ سمة الوظيفيَّة، من خلال إصلاح عمليَّة التصميم بخوارزميَّات البحث والتطوير نفسها التي تفسِّر بقيَّة المحيط الحيوي، ووفقاً لويلسون، فإنَّ ابتكارات التصميم التي تعمل بمنهجيَّة لربط المجموعات البشريَّة معاً، هي نتيجة الأصل الدارويني مع التعديل الذي يسترشد بالنسخ التفاضلي الأكثر ملاءمة، على العديد من المستويات بما في ذلك مستوى المجموعة، باختصار، إنَّه يقبل التحدّي المتمثّل في إظهار أنَّ المنافسة بين الجماعات المتنافسة أدَّت إلى انقراض المجموعات سيِّئة التصميم التي فشلت في المنافسة مع المجموعات المصمَّمة بشكلٍ أفضل، والتي كانت مستفيدةً من منطق التعويم الحرّ (على طريقتي) والتي لا يحتاج أيٌّ من أعضائها لأن يفهم (من المستفيد).

يجب أن تتفوَّق لياقة المجموعة على اللياقة الفرديَّة لأعضائها، وإذا كانت المجموعات هي المستفيد النهائي، فيجب أن تكون المجموعات هي المنافسين، يمكن أن يستمرَّ الاختيار على عدَّة مستوياتٍ في وقتٍ واحد، وذلك بفضل التنافس على عدَّة مستويات.

لطالما سَخِرَ النقَّاد من استدعاء الوظيفيين لشيءٍ مثل الحكمة الاجتماعيَّة الروحانيَّة (مثل حكمة توحيد طريقة كتابة «جايا» المتخيَّلة)، لكنَّ ويلسون محقٌّ في الإصرار على أنَّه لا يوجد

(1) هو توازن البيئة الداخلية؟

شيءٌ روحانيٌ أو حتّى غامضٌ حول تثبيت الوظائف الصديقة للمجموعة الدوركهايميّة من قبل عمليّاتٍ تطوريّة - إن استطاع إظهار عمليّات اختيار المجموعة.

تمّ تحليل الحكمة الموزّعة لمستعمرة النمل، والتي هي حقّاً نوعٌ من الكائنات الحيّة الفائقة، بعمقٍ وتفصيل من قبل علماء الأحياء التطوّريّين، ومما لا شكّ فيه أنّ العمليّات التطوّريّة يمكن أن تشكّل تكيُّفات المجموعة في ظلّ ظروفٍ خاصّةٍ مثل تلك السائدة بين الحشرات الاجتماعيّة، لكنّ النّاس ليسوا نملاً، أو لا يشبهون النمل كثيراً، وتقترب الأنظمة الدينيّة الأكثر صرامةً فقط من الترابط الفاشيّ للحشرات الاجتماعيّة.

إنّ عقول البشر عبارةٌ عن أجهزة استكشاف معقّدةٍ للغاية، وهم مستفهمون نهمون عن كلّ تفاصيل العالم التي يواجهونها، لذا من الأفضل أن يضيف التطوُّر بعض الخصائص المميّزة الرائعة إلى تكيُّفاته للجماعة البشريّة، لكي يكون لها فرصةٌ للنجاح من خلال مسار الانتقاء الجماعي.

يعتقد ويلسون أنّ المنافسة بين الجماعات الدينيّة - مع البقاء والتكرار التفاضلي لبعض هذه المجموعات- يمكن أن تولّد (و«تفسّر») ميزات التصميم الممتازة التي نلاحظها في الأديان.

يحتلُّ منظّرو الاختيار العقلاني- الذين نشأوا مؤخّراً لتحدّي الافتراض السائد من قبل علماء الاجتماع بأنّ الدين هو نوعٌ من الجنون- موقع القطب النظري المقابل (البديل الوحيد)، أو هكذا يبدو للوهلة الأولى.

كما لاحظ رودني ستارك وروجر فينك (2000) بازدراء، «لأكثر من ثلاثة قرون، كانت الحكمة العلميّة الاجتماعيّة النموذجية هي أنّ السلوك الدينيّ يجب أن يكون غير عقلانيّ على وجه التحديد، لأنّ النّاس يقدّمون قرابينهم باسم إيمانهم، لأنّه من الواضح أنّه لا يوجد شخصٌ عقلانيٌ يفعل مثل هذا الشيء «(ص 42)، ولكن كما يصرّون: لا يحتاج المرء إلى أن يكون شخصاً متديّناً من أجل فهم العقلانيّة الكامنة وراء السلوك الديني، كما لا يحتاج المرء أن يكون مجرماً كي يعزو العقلانيّة للعديد من الأفعال المنحرفة (كما تفعل النظريّات الرئيسة

للجريمة والانحراف).

ما نقوله: هو أنَّ السلوك الدينيَّ يعتمد عموماً على حسابات التكلفة والفوائد، لذا فهو سلوكٌ عقلانيٌّ تماماً بالمعنى نفسه الذي يعدُّ فيه السلوك البشري الآخر عقلانيّاً. [ص. 36]

في الواقع، الأديان مثل الشركات، فهم يزعمون أنَّ «المنظَّمات الدينيَّة هي مؤسَّساتٌ اجتماعيَّةٌ تهدف إلى خلق الدين والحفاظ عليه، وتقديمه لمجموعةٍ من الأفراد ودعم تبادلاتهم مع إلهٍ أو آلهة، والإشراف عليها (ص 103).

الطلب على السلع التي يقدّمها الدين غير مرن؛ في سوقٍ حرَّةٍ لاختيارٍ ديني (كما هو الحال في الولايات المتَّحدة، مع عدم وجود دينٍ للدولة ووجود العديد من الطوائف المتنافسة) هناك منافسةٌ قويَّةٌ بين الطوائف للسيطرة على السوق، وهو تطبيقٌ مباشرٌ لاقتصاديَّات «جانب العرض»، ولكن كما يلاحظ ويلسون في مقارنةٍ مفيدةٍ بين نظريَّته ونظريَّتهم، فحتَّى لو سلَّمنا أنّه من المنطقي الآن لأعضاء الكنيسة اتّخاذ قرارات السوق أساساً حول أيّ دينٍ يستثمرون فيه (افتراضٌ سنفحصه قريباً). هذا لا يجيب على السؤال حول البحث والتطوير، ولكن كيف اكتسب الدين بنيته التي تقيّد بشكلٍ تكيُّفي خيارات مُعظّمي المنفعة بالطريقة الصحيحة؟ يجب أن نشرح هيكل الدين، بالإضافة إلى سلوك الأفراد بمجرَّد أن يتمّ وضع الهيكل.

هل تمَّ اختراع العادات الغريبة بوعي من قبل فاعلين عقلانيين يحاولون تعظيم منافعهم؟

إذا كان الأمر كذلك، فلماذا كانت لديهم منفعة تعظيم الصَّالح العامّ لكنيستهم، هل يجب حقّاً أن ننسب كلَّ السمات التكيُّفيَّة لدينٍ ما إلى عمليَّةٍ نفسيَّةٍ لاستنتاج التكلفة والمنفعة، أليست عمليَّة تحول أعمى وإدامة إنتقائية ممكنة؟

بالنتيجة، تولد الآلاف من الأديان وتموت دون سابق إنذار، لأنّها لا تجتذب مطلقاً إلّا عدداً قليلاً من الأعضاء (Stark and Bainbridge، 1985). ربما تكون السمات التكيّفية لتلك القلة من الأديان التي بقيت حيّة مثل الطفرات العشوائية بدلاً من كونها نتاج اختيار رشيد. [ص. 82]

ويلسون محقٌّ في التأكيد على بديل التحول الأعمى وعمليَّة الإدامة الانتقائيَّة، ولكن بالتشبّث بنسخته الراديكاليَّة للاختيار الجماعي، فإنَّه يفوّت فرصةً أفضل: تتضمَّن عمليَّة التصميم التطوُّري التي منحتنا الأديان التكرار التفاضلي للميمات، وليس المجموعات، ويشير ويلسون بإيجاز إلى ذلك كبديل، ولكنَّه لا يستبعد ذلك إلَّا بصعوبة، ويرجع ذلك إلى حدٍّ كبير إلى أنَّه يرى أنَّ مبدأه المُجدّد هو أنَّ السمات الدينيَّة يجب أن تكون مختلَّةً وظيفيّاً، وهو يعتقد أنَّ نظريَّة الميم تتطلَّب أن تكون جميع الميمات الدينيَّة طفيليَّات (مضعفةً للياقة)، ونادراً ما تكون متعايشاتٍ محايدةً تجاه اللياقة أو متكافلاتٍ معزّزةً للياقة.

ضلَّ ويلسون طريقه هنا، بسبب سوء فهمٍ شائع: ريتشارد دوكينز الذي صاغ مصطلح meme، ليس صديقاً للدين، وغالباً ما شبَّه الميمات - الميمات الدينيَّة على وجه الخصوص - بالفيروسات، مؤكّداً على قدرة الميمات على التكاثر على الرَّغم من تأثيراتها الضارَّة على مضيفيها من البشر.

بالرَّغم من أنَّه يجب أخذ هذا الادّعاء المتناقض في الحسبان كاحتمالٍ رئيس، يجب ألَّا ننسى أنَّ الغالبيَّة العظمى من الميمات، مثل الغالبيَّة العظمى من المتكافلات البكتيريَّة والفيروسيَّة التي تعيش في أجسامنا، محايدةٌ أو حتَّى مفيدة (من منظور لياقة المضيف)، هنا، إذاً، هو بديلي الميمي المعتدل لفرضيَّة ويلسون على مستوى المجموعة:

الميمات التي تعزّز تضامن المجموعة البشريَّة مناسبةٌ على وجه الخصوص (كالميمات) في الظروف التي يعتمد فيها بقاء المضيف (ومن ثمَّ لياقة المضيف) بشكلٍ مباشر على توحيد قوى المضيف في مجموعات.

إنَّ نجاح مثل هذه المجموعات الموبوءة بالميم، هو في حدِّ ذاته جهاز بثٍّ فعَّال، معزّزٌ للفضول خارج المجموعة (وللحسد)، ومن ثمَّ يسمح باختراق الحدود اللغويَّة والعرقيَّة والجغرافيَّة بسهولةٍ أكبر.

يمكن لهذه الفرضيَّة أن تُفَسّرَ، من حيث المبدأ مثل نظريَّة ويلسون الأكثر رادبكاليَّة

للاختيار الجماعي، التميُّز في التصميم الذي نواجهه في الدين دون افتراض المصمّمين العقلانيين (الدين كمسارٍ للشركة)، ويمكن أن تفسّر حقيقة أنَّ اللياقة الفرديَّة تخضع على ما يبدو للياقة الجماعيَّة في الأديان، ووفقاً لهذه النظريَّة، لسنا بحاجة إلى افتراض منافسات النسخ الجماعي، ولكن فقط البيئة الثقافيَّة التي تتنافس فيها الأفكار؛ بفضل التجميع، ستنتشر الأفكار التي تشجّع النَّاس على العمل معاً في مجموعات (بالطريقة التي تشجّع بها التوكسوبلازما جوندي الفئران على الاقتراب من القطط بلا خوف) بشكلٍ أكثر فاعليَّة من الأفكار التي تؤدّي وظيفةً أقلَّ فاعليَّةً في تجييش مضيفيها.

باستخدام وجهة نظر الميم، يمكننا توحيد قطبيّ النظريّة «المتعاكسين» - مستعمرة النمل مقابل الشركة - وشرح البحث والتطوير للتجمُّع البشري كمزيجٍ من العمليَّات العمياء والبصيرة، بما في ذلك عمليَّات الاختيار الوسيطة لكلّ نوعٍ من المعرفة.

نظراً لأنَّ الناس ليسوا مثل النمل، ولكنَّهم عقلانيُّون حقَّاً إلى حدٍّ ما، فمن غير المرجَّح أن يتمَّ تشجيعهم على الاستثمار بكثافةٍ في الأنشطة الجماعيَّة، ما لم يدركوا (أو يعتقدون أنَّهم يدركون) الفوائد التي تستحقُّ الاستثمار، ومن هنا فإنَّ الأفكار التي تزيد من التجميع إلى أقصى حدّ ستكون تلك التي تروق لهم- تماماً كما يقول ستارك وفينكي- «للمكافآت التي يوجد عليها طلبٌ عامٌّ لا ينضب من أجلها».

من المزايا غير المتوقَّعة لهذا المنظور الموحَّد أنَّه يوفّر مساحةً كبيرةً لموقفٍ وسيط بشأن حالة الدين التي تعدُّ واحدةً من أكثر السمات إثارةً للقلق في نموذج الاختيار العقلاني.

يحبُّ ستارك وفينكي وغيرهما من منظّري الاختيار العقلاني للدين، تصويرَ أنفسهم على أنَّهم مدافعون عن أولئك الذين لديهم إيمانٌ ديني، قائلين في الواقع: «إنَّهم ليسوا مجانين، إنَّهم أذكياء!» ومع ذلك، فإنَّ هذا التحليل العقلانيَّ بدمٍ بارد -عن عمد- لسوق السلع الدينيَّة يسيءُ بشدَّةٍ إلى العديد من المتدينين؛ لا يريدون أن ينظروا لأنفسهم على أنَّهم مُستَمَرون جيّدون في المزوّد الأكثر فاعليَّة للفوائد الخارقة للطبيعة، إنَّهم يريدون أن يروا أنفسهم وكأنَّهم قد وضعوا جانباً كل هذه الاعتبارات الأنانيَّة، وكأنَّهم تخلُّوا عن سيطرتهم العقلانيَّة لقوَّةٍ

أعلى.

تفسّر نظريَّة الميم ذلك، فوفقاً لهذه النظريَّة، فإنَّ المستفيدين النهائيين من التكييفات الدينيَّة هي الميمات ذاتها، لكنَّ انتشارها (في منافسة مع الميمات المنافسة) يعتمد على قدرتها على جذب المضيفين بطريقةٍ أو بأخرى، وبمجرَّد الاستحواذ على الولاء، يتحوَّل المضيف إلى خادمٍ عقلاني، ولكن ليس بالضرورة أن يكون الاستحواذ الأولي اختياراً عقلانيّاً من قبل المضيف، وفي الواقع، لا ينبغي أن يكون كذلك. تحتاج الميمات أحياناً إلى إدخالها برفقٍ إلى منازلها الجديدة، والتغلُّب على المقاومة «العقلانيَّة» من خلال تشجيع بعض السلبيَّة أو التقبُّل لدى المضيف.

يشير ويليام جيمس (عالمٌ ميميٌّ سابقٌ لعصره) إلى أهميَّة هذه الميزة بالنسبة لبعض الأديان، ولفت انتباهنا بشكلٍ مفيد إلى نظيرٍ علماني (مدرّس الموسيقى الذي يحذّر الطالب): «توقَّف عن المحاولة والأمر سينجح لوحده!» (1902، ص 206). فقط اترك الأمر وقم بتصفية ذهنك، ودعْ تلك الحزمة الصغيرة من المعلومات أو وصفة العادة الصغيرة تتولَّى زمام الأمور!

يمكن للمرء أن يقول إنَّ التطوُّر الكامل للمسيحيَّة في الجوهر تمثَّل قليلاً في التركيز المتزايد على أزمة استسلام الذات هذه. [ص. 210-11]

لو كنَّا نكتب قصَّة العقل من وجهة نظر التَّاريخ الطبيعي البحت، دون أيّ اهتمامٍ ديني إطلاقاً، ما يزال يتعيَّن علينا الكتابة عن مسؤوليَّة الإنسان عن التحوُّل المفاجئ والكامل بوصفها إحدى خصاله الأكثر فضوليَّة. [ص. 230]

تجدر الإشارة إلى أنَّ الكلمة العربيَّة «إسلام» تعني «التسليم»، إنَّ فكرة أنَّ المسلمين يجب أن يضعوا انتشار الإسلام قبل مصالحهم الخاصَّة مبيَّنةٌ في أصل اسمه، والإسلام ليس الوحيد في ذلك. إذا سألت المسيحيين المتدينين ما هو الشيء الأكثر أهميةً من رفاهيتهم الخاصَّة ومن حياتهم الخاصَّة؟ سيقولون لك، إذا لزم الأمر: الكلمة، إنَّ نشر كلمة الله هو خيرهم الأسمى، وإذا تمَّت دعوتهم للتخلّي عن إنجاب الأطفال والأحفاد من أجل نشر

الكلمة، فهذا هو الأمر الذي سيحاولون جاهدين إطاعته، إنَّهم لا يتهرَّبون من فكرة أنَّ الميم قد استولى عليهم وعلى غريزة الإنجاب لديهم؛ يتقبَّلونه بسرور، ويصرّحون أنَّ هذا هو بالضبط ما يميّزهم عن الحيوانات، إنَّه يمنحهم قيمة للمتابعة تتجاوز الحتميَّة الجينيَّة التي تحدُّ من أفق القرار لجميع الأنواع الأخرى.

في السعي وراء هذه القيمة، سيكونون عقلانيين قدر الإمكان، لذلك عندما يبحثون عن الأولويَّة الأولى، فإنَّ الأولويَّة الأولى هي كلمة الله، وليس أنفسهم، ناهيك عن جيناتهم الأنانيَّة.

لا تستطيع نملةٌ أن تضع نفسها في خدمة كلمة الله، فليس لديها لغةٌ أو أيُّ ثقافةٍ تتحدَّث عنها، ونحن مستخدمو اللغة لا نحصل على كلمةٍ واحدةٍ فقط، ولكن العديد من الكلمات، وتتنافس الكلمات العديدة على اهتمامنا، ويمكن أن تشكّل معاً تحالفاتٍ تتنافس على ولائنا، هذا هو ملعب نظريَّة الاختيار العقلاني، لأنه -كما رأينا- بمجرَّد أن يتحوَّل النَّاس إلى وكلاء لميماتهم المفضَّلة، يبدأ سباق تسلُّحٍ من التحسينات المحتملة.

كلُّ أعمال التصميم هي في النهاية مسألة تجربةٍ وخطأ، ولكنَّ الكثير منها يحدث «بشكلٍ مستقلّ»، من خلال توضيح القرارات في أذهان الأشخاص الذين يدرسونها بعناية قبل أن يقرّروا ما يعتقدون أنَّه سينجح بشكلٍ أفضل، آخذين في الحسبان المعلومات المحدودة حول العالم القاسي، حيث يجب اختبار التصميمات في النهاية.

التفكير في الأمر أسرع وأرخص من إجراء التجارب، والسماح للطبيعة بالقيام بعمليَّة الغربلة في الواقع، لكنَّ البصيرة البشريَّة التي توفّر هذه السرعة الإضافيَّة ليست معصومةً عن الخطأ ومنحازة، لذلك غالباً ما نرتكب أخطاء.

يمكن للهندسة الميميَّة، مثل الهندسة الوراثيَّة، أن تفرّخ الوحوش إذا لم نكن حذرين، وإذا هربوا من المختبر، فقد تتكاثر على الرَّغم من جهودنا القصوى، لذا نحتاج دائماً إلى تذكّر قاعدة أورغل[1] الثانية: التطوُّر أذكى منك.

(1) ليسلي أورغل: عالم كيمياء بريطاني (2007-127)

(اسمح لي أن أتوقَّف هنا للحظة وأشير إلى ما فعلناه للتوّ: يخشى مناهضو الداروينيَّة في العلوم الإنسانيَّة والاجتماعيَّة بشدَّة -تقليديًّا- من أنَّ المنهج التطوُّريَّ ربَّما يتخلَّص من طريقة تفكيرهم الغالية على قلوبهم، مع مؤلّفيها وفنَّانيها الأبطال والمخترعين، وغيرهم من المدافعين عن الأفكار وعشَّاقها، لذا فقد اتَّجهوا إلى التصريح- بقناعةٍ يائسة، لكن من دون دليلٍ أو حجَّة- بأنَّ الثقافة الإنسانيَّة والمجتمع البشري يمكن تأمُّلها فقط، ولا يمكن تفسيرهما سببيّاً إطلاقاً، باستخدام أساليب وافتراضاتٍ مسبقة غير قابلةٍ للمقارنة بأساليب وفرضيَّات العلوم الطبيعية.

يمكن أن يكون شعارهم: «لا يمكنك الوصول إلى هنا من هناك!»، «لا يمكن جَسْر الفجوة!» ومع ذلك فقد أكملنا للتوّ جولةً تمهيديَّة، ولكنَّها واقعيَّةٌ وغير إعجازيَّة، على طول الطريق من الطبيعة العمياء والميكانيكيَّة والروبوتيَّة، إلى الدفاع العاطفي ووضع الأفكار الأكثر تعقيداً التي عرفتها البشريَّة.

كانت الفجوة من نسج خيالٍ قلق، يمكننا القيام بعملٍ أفضل لفهم أنفسنا كأبطالٍ للأفكار ومدافعين عن القيم، إذا رأينا أولاً كيف وصلنا لشغل هذا الدور الخاصّ).

بمجرَّد وجود بدائل معروضةٍ في «سوق الأفكار»، يتبارى متنافسون أكبر وأفضل على الولاء، ليس فقط الأديان المتحوِّلة، ولكن المؤسَّسات العلمانيَّة أيضاً، ومن بين التحالفات التي لا تستند إلى القرابة الجينيَّة التي ازدهرت في التَّاريخ البشري الحديث: الأحزاب السياسيَّة، الجماعات الثوريَّة، المنظَّمات العرقيَّة، والنقابات العمَّاليَّة، الفرق الرياضيَّة، وأخيراً وليس آخراً، المافيا.

تمَّت دراسة ديناميَّات عضويَّة المجموعة (شروط الدخول والخروج والولاء، وإنفاذها بالعقاب أو غير ذلك) بشكلٍ مكثَّف في السنوات الأخيرة من قبل المفكّرين التطوريين في مجموعةٍ متنوّعةٍ من التخصُّصات: الاقتصاد، العلوم السياسيَّة، علم النفس المعرفي، علم الأحياء، وبالطبع الفلسفة، وقد سلَّطت النتائج الضوء على التعاون والغيريَّة في السياقات العلمانيَّة والدينيَّة على حدٍّ سواء، وهذا يساعد على إبراز السمات التي تميز المنظَّمات الدينيَّة عن غيرها.

3- سوق النمو في الدين:

«الاقتراح 75: بقدر ما تكون الاقتصادات الدينيَّة غير منظَّمةٍ وتنافسيَّة، ستكون المستويات العامَّة للمشاركة الدينيَّة عالية (على العكس من ذلك، في ظلِّ افتقارها إلى المنافسة، ستصبح الشركة المهيمنة غير كفؤة للغاية للحفاظ على جهودٍ تسويقيَّةٍ نشطة، وستؤدّي بالنتيجة إلى انخفاض المستوى العامّ للمشاركة الدينيَّة، مع قيام الشخص العادي بتقليل وتأخير دفع التكاليف الدينيَّة)» - رودني ستارك وروجر فينك، أعمال الإيمان

«في كلّ جانبٍ من جوانب الحياة الدينيَّة، واجه الإيمان الأمريكي الثقافة الأمريكيَّة، انتصرت الثقافة الأمريكيَّة» - آلان وولف، تحوُّل الدين الأمريكي

«لدينا منتجٌ أفضل من الصابون أو السيَّارات، لدينا الحياة الأبديَّة» — القس جيم باكير

لماذا نقدّم تضحياتٍ كبيرة من أجل تعزيز آفاق منظَّمةٍ دينيةً، ولماذا، على سبيل المثال، قد يختار المرء الولاء لدين، بينما يكون أيضاً عضواً مساهماً في اتحادٍ عمالي وحزبٍ سياسي ونادٍ اجتماعي؟.

تكون أسئلة «لماذا» السابقة محايدة بين نوعين مختلفين تماماً من الإجابات في البداية: يمكن أن يسألوك لماذا من المنطقي اختيار الولاء لدينٍ ما، أو قد يسألونك لماذا من الطبيعي أن ينجذب النَّاس إلى دينٍ يأمرهم بعد ذلك بالولاء؟ (ضع في حسبانك السؤال: لماذا يخشى الكثير من النَّاس المرتفعات؟ إحدى الإجابات هي: لأنَّه من المنطقي الخوف من المرتفعات؛ يمكن أن تسقط وتؤذي نفسك، والإجابة الآخرى هي: لقد طوَّرنا تحذيراً غريزيَّاً ناتجاً عن إدراك أنَّنا معرَّضون للخطر إذا كنَّا على ارتفاعٍ كبير، يتمُّ تضخيم هذا القلق عند بعض النَّاس بما يتجاوز ما هو مفيد؛ خوفهم طبيعي - يمكننا تفسير وجوده من دون لغزٍ متبقٍّ - لكنَّه غير عقلاني) إذا ألقينا نظرةً فاحصة على الإجابة الأولى المتعلّقة بالدين، على النحو الذي اقترحته نظريَّة الاختيار العقلاني، ستساعدنا على رؤية القوى والقيود التي تشكّل البدائل.

على مدى العقدين الماضيين، قام رودني ستارك وزملاؤه بعملٍ رائعٍ في توضيح إجابة

الاختيار العقلاني، يزعمون أنَّه بفضل جهودهم، «أصبح من المستحيل الآن القيام بعملٍ موثوقٍ به في الدراسة العلميَّة الاجتماعيَّة للدين، على أساس افتراض أنَّ التديّن هو علامةٌ على الغباء أو العُصاب أو الفقر أو الجهل أو الوعي الزائف، أو يمثّل هروباً من الحداثة (Stark and Finke، 2000، p. 18)».

يركّزون على الدين في الولايات المتحدة، ونموذجهم الأساسي هو تطبيقٌ مباشرٌ للنظريَّة الاقتصاديَّة:

في الواقع، بعد أكثر من قرنين من التطوُّر في ظلّ ظروف السوق الحرَّة، فإنَّ الاقتصاد الدينيَّ الأمريكي يفوق أحلام آدم سميث الجامحة حول القوى الإبداعيَّة للسوق الحرَّة (مور، 1994)، هناك أكثر من 1500 «طائفةٍ» دينيَّةٍ مستقلة (ميلتون، 1998)، وكثيرٌ منها كبيرةٌ جدّاً – تضمُّ 24 منها أكثر من مليون عضو لكلٍّ منها– تعتمد كلٌّ من هذه الهيئات اعتماداً كليّاً على التبرُّعات، ويبلغ إجماليُّ التبرُّعات الدينيَّة الأمريكيَّة حاليّاً أكثر من 60 مليار دولارٍ سنويّاً، أو أكثر من 330 دولاراً لكلّ شخصٍ فوق سنّ 18 عاماً (عام 1993)، فضلاً عن معظم التبرُّعات للمدارس الدينيَّة والمستشفيات والبعثات الأجنبيَّة، ففي عام 1996، تمَّ التبرُّع بأكثر من 2.3 مليار دولار لدعم المبشّرين، وتمَّ إنفاق مبلغٍ كبيرٍ من هذا على المبشّرين إلى أوروبا. [ص. 223]

عبَّر أنتش أل مينكين ذات مرَّةٍ عن رأيه: «البروتستانت الوحيدون المحترمون حقّاً هم الأصوليون، ولسوء الحظ، هم أيضاً أغبياء واضحون»، يشاركه الكثيرون هذا الرأي، خاصَّةً في الأوساط الأكاديميَّة، لكن ليس ستارك وفينكي، فهما حريصان بشكلٍ خاصّ على تبديد الفكرة المألوفة القائلة بأنَّه كلَّما كانت الطائفة أكثر أصوليَّةً أو إنجيليَّة، كانت أقلَّ عقلانيَّة.

من بين الاقتراحات الأكثر شيوعاً حول سبب نموِّ الكنائس الإنجيليَّة: النشاط الجنسي المكبوت، الطلاق، التحضُّر، العنصريَّة، التمييز على أساس الجنس، مخاوف الوضع، التغيُّر الاجتماعي السريع.

لا يقوم مؤيّدو النموذج القديم أبداً باستكشاف التفسيرات الدينيَّة المحتملة، على سبيل المثال، أنَّ النَّاس ينجذبون إلى الكنائس الإنجيليَّة من خلال منتجٍ متفوّق. [ص. 30]

يتحمَّل النَّاس النفقات الباهظة لعضويَّة الكنيسة، وتتعاقد الكنيسة في المقابل «لدعم مبادلاتهم مع إلهٍ أو آلهةٍ، والإشراف عليها» (ص 103)، لقد عمل ستارك وفينكي على هذا الأمر بعناية، والفرضيَّة المُوجِّهة الخاصَّة بها هي اقتراحها رقم 6، «في السعي وراء المكافآت، سيسعى البشر إلى الاستفادة ممَّا هو خارق للطبيعة، والتلاعب به» (ص 90).

يسعى بعض النَّاس لذلك بمفردهم، لكنَّ معظمهم يعتقدون أنَّهم بحاجة إلى المساعدة، وهذا ما توفّره الكنائس (هل تتلاعب الكنائس فعلاً بما هو خارقٌ للطبيعة، هل ستارك وفينكي ملتزمان بالادّعاء بأنَّ التبادل مع إلهٍ أو آلهةٍ يحدث حقّاً؟ لا، إنَّهما لا أدريان بشكلٍ جادّ – أو هكذا يزعمان – في هذا الصدد، وغالباً ما يشيران إلى أنَّه يمكن أن يكون من المنطقي تماماً الاستثمار في أصلٍ يتبيَّن في نهاية المطاف أنَّه عديم القيمة).

في كتابٍ لاحق، «إلهٌ واحدٌ حقيقي: العواقب التَّاريخيَّة للتوحيد» (2001)، يتولَّى ستارك دور مهندسٍ ميمي، محلّلاً إيجابيَّات وسلبيَّات العقيدة، كما لو كان مستشاراً إعلانيّاً، «ما أنواع الآلهة الأكثر جاذبيَّة؟» (ص 2) يميّز هنا بين استراتيجيتين: الإله كجوهر (مثل إله تيليش[1] أرضيَّة لكلِّ الوجود، غير مجسَّم[2] تماماً، غير محدودٍ بالزمان والمكان، مجرَّد) والله ككائنٍ واعٍ خارقٍ للطبيعة (إله يستمع إلى الصلوات ويستجيب لها في الوقت الحقيقي، على سبيل المثال) «لا يوجد فرقٌ دينيٌّ أعمق من الاختلاف بين الأديان التي تشمل كائنات إلهيَّة وتلك التي تقتصر على الجوهر الإلهي»، كما يقول، والأخيرة التي يرى أنَّها ميؤوس منها، لأنَّ «الكائنات الإلهيَّة فقط هي التي تفعل أيَّ شيء» (ص 10)، الكائنات الواعية الخارقة للطبيعة هي الأكثر رواجاً، لأنَّ «الخارق للطبيعة هو المصدر الوحيد المعقول للعديد من

(1) كان بول جوهانس تيليش (20 أغسطس 22-1886 أكتوبر 1965) فيلسوفاً وجودياً مسيحياً ألمانياً، وعالماً لاهوتياً لوثرياً بروتستانتياً يُنظر إليه على نطاق واسع على أنَّه أحد أكثر اللاهوتيين تأثيراً في القرن العشرين.

(2) nonanthropomorphic

الفوائد المرغوبة بشدَّة» (ص 12).

يهتم النَّاس بالآلهة لأنَّها- في حالة وجودها- تمثل شركاء تبادلٍ محتملين يمتلكون موارد هائلة، إضافةً إلى ذلك، هناك مليارات من النَّاس على يقينٍ من أنَّ الآلهة موجودة، على وجه التحديد لأنَّهم يعتقدون أنَّهم قد اختبروا علاقات تبادل طويلةً ومرضيةً معها [ص 13]، لذا نظراً لأنَّ الآلهة كائناتٌ واعية، فهن شركاء محتملون في التبادل، كما يُفترض أنَّ جميع الكائنات تريد شيئاً ما ويتم حثُّها لتقديم شيءٍ ذي قيمة مقابله. [ص 15]

ويضيف: أنَّ الإله الأبويَّ المتجاوب «يشكل شريك مبادلةٍ جذَّاباً جدَّاً، يمكن الاعتماد عليه لتحقيق أقصى قدرٍ من الفوائد البشريَّة» (ص 21)، بل إنَّه يقترح أنَّ الإله من دون الشيطان الموازي هو مفهومٌ غير مستقرّ - «غير عقلانيٌّ وفاسد، «لماذا؟ لأنَّ «إلهاً واحداً غير محدود يجب أن يكون مسؤولاً عن كلّ شيء، الشر وكذلك الخير، ومن ثمَّ يجب أن يكون متقلّباً بشكلٍ خطير، ويغير النوايا بشكلٍ غير متوقَّع ومن دون سبب» (ص 24).

هذا إلى حدٍّ كبير سبب الوجود نفسه الذي قدّره جيري سيجل وجو شوستر، مبتكرا شخصيَّة «سوبرمان»، عندما اخترعا الكريبتونايت[1] كشيءٍ لمواجهة الرجل الفولاذي (سوبرمان): لا توجد دراما ممكنة - لا توجد هزائم للتغلُّب عليها أو لحظة تشويقٍ عظمى- إذا كان بطلك قويَّاً جدَّاً! ولكن على عكس مفهوم الكريبتونايت، فإنَّ مفاهيم الله والشيطان هذه لها أسسٌ منطقيَّةٌ عائمة، وليست من بنات أفكار أيّ مؤلّفٍ معيَّن.

لا أقصد أن أقترح أنَّ هذه الصورة للآلهة هي نتاج «خلق» بشري واعٍ، لم يجلس أحدٌ ويقرِّر، دعونا نؤمن بإلهٍ أسمى، ونحيطه/ نحيطها ببعض الكائنات التابعة، ونفترض وجود كائن شريرٍ أدنى يمكن أن نلومه على الشر، بدلاً من ذلك، يميل هذا الرأي إلى التطوُّر بمرور الوقت، لأنَّه الاستنتاج الأكثر منطقيَّةً وإرضاءً من الثقافة الدينيَّة المتاحة. [ص. 25-26]

(1) (في العالم الخيالي للكتاب الهزلي، والتلفزيون، وشخصية الفيلم سوبرمان) معدنٌ غريبٌ له خاصيَّة حرمان سوبرمان من سلطاته.

لا ينبغي تفويت حاشية ستارك على هذا المقطع: «ولست مستعداً لإنكار أنَّ هذا التطوُّر يعكس اكتشافاً بشريّاً متقدّماً للحقيقة».

آه، هذا هو الصواب!

القصَّة لا تتحسَّن فقط، بل يتم الاقتراب من الحقيقة، فرصة سعيدة، ربَّما لا، ألن يرتِّب الله الصالح الأمور بهذه الطريقة؟ لكن حقيقةَ أنَّ الاعتبارات الدرامية تُملي بشكلٍ ملائم تفاصيل القصةِ تُقدمُ تفسيراً لسبب كون التفاصيل على ما هي عليه والتي تنافس الافتراض التقليدي بأنها ببساطة «حقيقة الله الصادقة».

4- إلهٌ يمكنك التحدّث إليه:

«عادةً ما يصلّي البابا من أجل السلام في كلِّ عيد فصح، ولم تردعه حقيقة أنّه لم يكن له أيُّ تأثيرٍ إطلاقاً على منع الحرب أو إنهائها، ما الذي يدور في ذهن البابا بشأن الرفض طوال الوقت، هل يصنع الله الحروب من أجل البابا؟» - آندي روني، مع خالص التقدير، آندي روني

بصرف النظر عمَّا قد نفكّر فيه حول اللاأدريَّة المعلنة لستارك في هذا الصدد، من الثابت أنّه محقٌّ في العيب الرئيس للمفاهيم شديدة التجريد عن الله: «نظراً لأنَّ الجوهر الإلهيَّ غير قادرٍ على التبادل، فقد يقدّم ألغازاً، لكنَّه لا يطرح أسئلةً تكتيكيَّة، ومن ثمَّ لا يبذل أيَّ جهدٍ لاكتشاف شروط التبادل» (ص 16).

من يمكنه أن يكون مخلصاً لإلهٍ لا يُطلَبُ منه شيء؟ لا يجب أن يكون المنُّ[1] من السماء، وكما قال الممثل الكوميدي إيمو فيليبس ذات مرَّة: «عندما كنت طفلاً، كنت أدعو الله من أجل درَّاجة، لكن بعد ذلك أدركت أنَّ الله لا يعمل بهذه الطريقة، لذلك سرقت درَّاجةً، ثمَّ صلّيت ليغفر لي!» وكما يلاحظ ستارك، فإنَّ «المكافآت دائماً ما تكون محدودة العرض،

(1) (في الكتاب المقدس) المادة التي زوّدت بأعجوبة كطعام لبني إسرائيل في البرية (خروج 16).

وبعضها غير متاحٍ تماماً – على الأقل فهي غير متوافرة هنا والآن من خلال الوسائل التقليديَّة-» (ص 17) إذاً، تتمثَّل إحدى المشكلات التسويقيَّة الرئيسة للأديان في كيفيَّة إغراء العميل بالانتظار.

الشفاء من السرطان هو أقلُّ أهميَّةً نوعاً ما مقارنةً بالحياة الأبدية، ولكن ربَّما يكون أهمُّ جانبٍ في مكافآت الآخرة (غير الدنيويَّة) هو إدراكنا أنَّها مؤجَّلة (غالباً إلى ما بعد الموت)، لذا في السعي وراء مكافآت الآخرة، سيقبل البشر علاقة تبادلٍ ممتدَّةً مع الآلهة، وهذا يعني أنَّ البشر سيدفعون دفعاتٍ دوريَّةً على مدى فترةٍ زمنيَّةٍ طويلة، غالباً حتَّى الموت. [ص. 19]

ما الذي يمكن فعله لإبقاء النَّاس يسدّدون مدفوعاتهم؟ تَقْطَع الشفاءات الإعجازيَّة والصلوات لتغيِّرَ الحظَّ شوطاً طويلاً، بالطبع، من خلال تقديم دليلٍ على الفوائد التي يتلقَّاها المرء أو الآخرين في هذا العالم، ولكن حتَّى في حالة عدم وجودها، هناك ميزات تصميم تفسّرها بسهولة، لكنَّ الأكثر إثارةً للاهتمام هو تأثير انعكاس السعر الذي وصفه Stark and Finke (2000).

يمكن العثور على الإجابة في علم الاقتصاد الأولي: السعر هو عاملٌ واحد فقط في أيّ تبادل، والجودة هي العامل الآخر، وتؤدّي مجتمعةً إلى تقدير القيمة، وهنا يكمن سرُّ قوَّة الجماعات الدينيَّة شديدة التوتّر؛ على الرَّغم من كونها باهظة الثمن فإنَّها تقدّم قيمة أكبر؛ في الواقع، هم قادرون على القيام بذلك لأنَّها باهظة الثمن. [ص. 145]

«يشير التوتّر إلى درجة التميز، والانفصال، والعداء بين جماعةٍ دينيَّة والعالم الخارجي» (ص 143)، لذلك في الطيف من منخفض التوتّر إلى مرتفع التوتّر، فإنَّ الكنائس الكبيرة القائمة منخفضة التوتّر، والطوائف والمذاهب شديدة التوتّر، فيما الدين الباهظ الثمن: هو الدين ذو «التكاليف المرتفعة للانتماء ماديَّاً واجتماعيَّاً ونفسيَّاً».

لا يقتصر الأمر على الوقت الذي يقضيه المرء في أداء الواجبات الدينيَّة والمال الذي يتبرَّع به؛ يمكن أن يؤدّي الانتماء إلى فقدان المكانة الاجتماعيَّة، مؤدّياً في الواقع إلى تفاقم – وليس

تخفيف - قلق المرء ومعاناته، لكنَّك تحصل على ما تدفعه مقابل ذلك، فعلى عكس الوثنيين، ستحصل على الخلاص الأبدي.

إلى الحدّ الذي يكون فيه المرء مدفوعاً بالقيمة الدينيَّة، يجب عليه أن يفضّل مورداً أعلى سعراً، ولا يقتصر الأمر على كون الجماعات الدينيَّة الأكثر تكلفة تقدّم منتجاً أكثر قيمة، ولكن من خلال القيام بذلك، فإنَّها تولّدُ مستوياتٍ من الالتزام الضروري لزيادة مستويات الثقة الفرديَّة في الدين - في حقيقة المذاهب الأصوليَّة، وفي فعَّاليَّة ممارساتها، وفي اليقين بوعودها الآخرويَّة. [ص. 146-47]

كلَّما استثمرت في دينك، زاد تحفيزك لحماية هذا الاستثمار.

ليس ستارك وفينكي وحدهما من رأيا أنَّ الغلاء يمكن أن يكون منطقيّاً من الناحية الاقتصاديَّة في بعض الأحيان، فعلى سبيل المثال، طوَّر الاقتصاديَّان التطوُّريَّان صمويل بولز وهربرت جينتيس (1998، 2001) نماذجَ رسميَّةً للمجتمعات التي تعزّز الأعراف المؤيّدة للمجتمع، «السمات الثقافيَّة التي تحكم الإجراءات التي تؤثّر على رفاهية الآخرين، ولكن لا يمكن تنظيمها عن طريق عقودٍ واجبةِ النفاذ عديمة التكلفة» (2001، ص 345).

تُظهر نماذجهم أنَّ هذه التأثيرات المؤيّدة للمجتمع تعتمد على «النفاذ المنخفض التكلفة إلى المعلومات حول أعضاء المجتمع الآخرين»، بالإضافة إلى الميل إلى تفضيل التفاعلات مع أعضاء المجموعة، وتقييد الهجرة إلى الداخل والخارج، وهو ما يشير إليه ستارك وفينكي أيضاً.

تعدُّ تكاليف الدخول والخروج المرتفعة ضروريَّةً لبقاء مثل هذه الترتيبات، مثل الغشاء المحيط بالخليَّة: الحفاظ على الذات مكلف، وأكثر كفاءةً من خلال التمييز الصارم بيني وبين بقيَّة العالم (في حالة الخليَّة) أو بيننا وبينهم (في حالة وجود مجتمع).

لا يوفّر عمل Bowles and Gintis دعماً رسميّاً لبعض المقترحات التي دافع عنها ستارك وفينكي فحسب، بل إنَّه يظهر أنَّ كره الأجانب المستهجن الموجود في المجتمعات

الدينيّة «الشديدة التوتُّر» ليس سمةً دينيّةً على وجه التحديد، وهم يجادلون بأنّ كره الأجانب هو الثمن الذي يجب أن يدفعه أيُّ مجتمعٍ أو مجموعةٍ مقابل مستوىً عالٍ من الثقة والتناغم الداخليين، إضافةً إلى ذلك، فهو ثمنٌ قد نقرّر في النهاية أنّنا يجب أن نكون مستعدّين لدفعه.

«بعيداً عن كونها مفارقاتٍ تاريخيّةً أثريّة، نعتقد أنّ المجتمعات قد تصبح أكثر أهميّةً -وليست أقلّ أهميّة- في العلاقة بين هياكل الحكم في السنوات القادمة، حيث قد تدّعي المجتمعات بعض النجاح في معالجة مشكلات الحوكمة غير القابلة للحلّ عن طريق السوق أو الدولة «(Bowles and Gintis، 2001، p. 364).

لم يتمّ إثبات تطبيقات Stark and Finke لنظريّة الاختيار العقلاني على العديد من الاتجاهات والتفاوتات التي يمكن ملاحظتها في الطوائف الدينيّة الأمريكيّة، وقد أثارت انتقاداتٍ قويّة، لكنّها بالتأكيد تستحقُّ المزيد من البحث.

وأمّا التداعيات المترتّبة على بعض مقترحاتهم فهي استفزازيّةٌ بالفعل، فعلى سبيل المثال، الاقتراح 76: حتّى عندما تكون المنافسة محدودة، يمكن للمؤسّسات الدينيّة أن تولّد مستوياتٍ عاليةً من المشاركة، لدرجة أنّ المؤسّسات تعمل كوسائل تنظيميّةٍ أساسيّةٍ للصراع الاجتماعي (على العكس من ذلك، إذا أصبحت المؤسّسات الدينيّة أقلّ أهميّةً بكثير كوسائل للصراع الاجتماعي، فستكون في المقابل أقلّ قدرةً على توليد الالتزام) [ص. 202].

بعبارةٍ أخرى، توقّع أن تستغلّ «المؤسّسات» الدينيّة الصراع الاجتماعي وتفاقمه كلّما أمكن ذلك، لأنّها طريقةٌ لتوليد الأعمال، قد يكون هذا أمراً جيّداً (المقاومة الكاثوليكيّة البولنديّة للشيوعيّة) أو سيّئاً (الصراع الذي لا نهاية له في أيرلندا)، سيقول المتقدون: أنّنا عَرَفنا هذا بالفعل عن الأديان، لكنّ الادّعاء بأنّ هذه ميزةٌ منهجيّةٌ تنبع من ميزاتٍ أخرى، وتتفاعل مع الآخرين بطرقٍ يمكن التنبّؤ بها، إذا كان هذا صحيحاً، هو مجرّد نوعٍ من الحقيقة التي سنرغب في فهمها بعمق ونحن نتعامل مع الصراعات الاجتماعيّة في المستقبل.

عندما يفكّر القادة الدينيّون ونقّادهم - داخل وخارج دياناتهم- في الإصلاحات

والتحسينات الممكنة، فإنّهم يهيّئون أنفسهم – سواءً أحبُّوا ذلك أم لا – ليكونوا مهندسين ميمين، عابثين بالتصاميم التي ورثوها عن التقاليد من أجل تكييفها مع التأثيرات المشاهدة، وبعض الملاحظات الأكثر دلالة في كتاب ستارك وفينكي هي انتقاداتها اللاذعة للإصلاحات حسنة النيَّة التي أدَّت إلى نتائجَ عكسيَّة.

هل كانوا محقّين بشأن السبب الرئيس للانحدار السريع لأعداد الكاثوليك السَّاعين لامتهان العمل الكنسي بعد المجمع الفاتيكاني الثاني[1]؟

في السابق، علمت الكنيسة الكاثوليكيَّة أنَّ الكهنة والرهبان [الراهبات والرهبان] كانوا في مرتبةٍ أعلى من القداسة، والآن على الرَّغم من نذورهم، أصبحوا مثل أيّ شخصٍ آخر [ص 177]؛ حصل العلمانيُّون على بعض امتيازات الكهنوت من دون تحمُّل عبء العزوبيَّة، أو المساءلة المباشرة أمام التسلسل الهرمي للكنيسة، وبالنسبة للكثيرين، لم يعد الكهنوت صفقةً جيّدةً بعد جهود تجديد مجمع الفاتيكان الثاني. [ص185]

هل هم مخطئون؟

الطريقة الوحيدة لمعرفة ذلك هي إجراء البحث، لأنَّ عدم الاستساغة ليس علامةً موثوقةً على الباطل، والمواعظ التقيَّة التي وجَّهت المصلحين الأوائل في كثيرٍ من الأحيان تحتاج إلى تأكيدها أو دحضها، أو تجاهلها.

إنَّ المخاطر كبيرةٌ جدّاً بالنسبة إلى تخبُّط هواةٍ ذوي نوايا حسنة، وكما ذكرنا سابقاً، في مناقشاتي لعمل بوير وويلسون وآخرين، أنا لا أصدر حكماً على سلامة أو قطعية أيٍّ من هذا العمل، لكنَّني فقط أعرض ما أراه أمثلةً عن العمل الذي يجب أن يكون مأخوذاً على محمل

(1) مجمع الفاتيكان الثاني هو مجمعٌ كنسي كاثوليكي يعدُّ بحسب الكنيسة الكاثوليكية المجمع المسكوني الحادي والعشرين، انعقد بدعوةٍ من البابا يوحنا الثالث والعشرين بين عامي 1962 و1965، وصدر عنه جملة من المقررات والمراسيم والدساتير، مكملاً ما عجز المجمع الفاتيكاني الأول عن إنجازه بسبب سقوط روما بيد الثوار عام 1870 مما أدى لوقف أعماله آنذاك، تمخَّض عن المجمع إصلاحات مختلفة في جسم الكنيسة كان من أبرزها التخلي عن استعمال اللاتينية في الصلاة، واستبدالها باللغات المحلية، والإقرار بالحركة المسكونية وغيرها.

الجدّ من الآن فصاعداً، أو دحضه بحزمٍ وبعدل، أو الاعتراف - على مضض - بمساهماته الحقيقيَّة في فهمنا.

في حالة رؤية ستارك الصريحة، لديَّ شكوك عميقة، سيظهر بعضها عندما ننتقل إلى بعض التعقيدات التي وضعها جانباً بحزم، فيما يعبّر ستارك وفينكي عن موقفهما الأساسي بشكلٍ جيّد عندما يستخفَّان بكتاب دون كيوبت Don Cupitt «بعد الله: مستقبل الدين» (1997)، الذي يؤيّد نوعاً من الدين أُزِيلَت منه جميع آثار الأعمال الخارقة.

لكن كيف يمكن أن يكون للدين مستقبلٌ من دون وجود الله؟ تصدمنا وصفة كيوبت التي تشبه توقُّع استمرار النَّاس في شراء تذاكر كرة القدم والتجمُّع في المدرَّجات لمشاهدة اللاعبين الواقفين من دون وجود كرة، فإذا لم تكن هناك كائناتٌ خارقةٌ للطبيعة، ولا معجزات، ولا خلاص، ولا معنى للصلاة، وكانت الوصايا العشر مجرَّد حكمة قديمة، وكان الموت هو النهاية، في هذه الحالة لا علاقة للإنسان العقلاني بالكنيسة، أو بشكلٍ أكثر دقَّة، الشخص العقلانيُّ لا علاقة له بكنيسةٍ كهذه. [ص 146]

إنَّه كلام قويٌّ، لكن يجب أن يدركوا أنَّ كيوبت والآخرين الذين ابتعدوا عن رؤيتهم لله، كصانع صفقات، كانوا مدركين جيّداً لمحاسنها، ولابُدَّ أنْ تكون لديهم أسبابهم (الصريحة أو غير الصريحة) لمقاومتها بدهاءٍ لفترةٍ طويلة. ما الذي يمكن أن يقال لصالح مسار - أو بالأحرى المسارات- الله بوصفه جوهراً، نظراً لوجود العديد من الطرق المختلفة لمحاولة تصوُّر الله بمصطلحاتٍ أقلَّ تجسيداً؟ أعتقد أنَّه يمكن العثور على المفتاح في بعض ملاحظات Stark و Finke الخاصَّة:

بالنظر إلى حقيقة أنَّ الدين سلعةٌ محفوفة بالمخاطر، وأنَّ النَّاس غالباً ما يمكنهم زيادة تدفُّق الفوائد الفوريَّة من خلال اللافعَّاليَّة الدينيَّة، يبدو من غير المحتمل أنَّ أيَّ قدرٍ من التعدُّديَّة والتسويق النشط يمكن أن يحقّق أيَّ شيءٍ قريبٍ من اختراق السوق بالكامل، فقد تأرجحت نسبة الأمريكيين الذين ينتمون فعليَّاً إلى جماعةٍ كنسيَّةٍ معيَّنة (على عكس تسمية التفضيل الديني عند سؤالهم) حول 65 في المائة لعدَّة عقود، ممَّا يدلُّ على عدم وجود ميلٍ للاستجابة

حتًى للدورات الاقتصاديَّة الكبرى. [ص 257]

سيكون من المثير للاهتمام محاولة معرفة المزيد عن الـ35 بالمائة الذين انقطعوا عن الكنيسة، بالإضافة إلى نسبة روَّاد الكنيسة الذين انقطعوا بسبب دياناتٍ عالية التوتّر، ومكلفةٍ من النوع الذي يفضّله ستارك، وهي موجودةٌ في جميع أنحاء العالم، فوفقاً لستارك وفينكي، «هناك دياناتٌ» لا إلهيَّة »، لكنَّ أتباعها يقتصرون على النخب الصغيرة – كما هو الحال في الأشكال النُخبَويّة من البوذيَّة والطاويَّة والكونفوشيَّة» (ص 290n).

لا تقتصر عوامل الجذب في التوحيديَّة[1]، والأسقفيَّة[2]، واليهوديَّة الإصلاحيَّة على التقاليد الإبراهيميَّة، وإذا وَجَدَتْ «النُخَبُ» أنها لا تستطيع حمل نفسها على «الاعتقاد بأنَّهم قد اختبروا علاقات تبادلٍ طويلةٍ ومرضيةٍ مع» الله، فلماذا يستمرُّون مع (شيءٍ يسمّونه) الدين على أي حال؟

الفصل السابع: الميل البشريُّ إلى التجمع أقلُّ احتساباً وحذراً ممَّا يظهر في بعض النماذج الاقتصاديَّة، ولكنَّه أيضاً أكثر تعقيداً من غريزة الرعي المتطوّرة لدى بعض الحيوانات، ما يعقّد الصورة هو لغة الإنسان وثقافته، ويسمح لنا منظور الميمات بفهم كيفيَّة تأثّر ظواهر الولاء البشري بمزيجٍ من المبرّرات الحرَّة والمترابطة جيّداً، ويمكننا إحراز تقدّمٍ من خلال الاعتراف بأنَّ الخضوع لدينٍ ما لا يجب أن يُنظر إليه على أنَّه قرارٌ اقتصاديٌّ متعمَّد، مع الاعتراف أيضاً بالقوَّة التحليليَّة والتنبّؤيَّة للمنظور الذي ينظر إلى الأديان على أنَّها أنظمةٌ مصمَّمةٌ تتنافس في سوقٍ ديناميكي على استقطاب أتباعٍ لهم احتياجاتٌ وأذواقٌ مختلفة.

(1) التوحيدية: هي حركةٌ لاهوتيَّة مسيحيَّة دينية سمّيت كذلك استناداً إلى مفهومها بوحدانيّة الله، حيث ترفض عقيدة التثليث، بالمقابل تعدُّ عقيدة التثليث معتقداً دينيّاً يعني بأنَّ الله الواحد ثلاثة أقانيم أو ثلاث حالاتٍ في نفس الجوهر المتساوي، وأصحاب عقيدة التوحيد يؤمنون أنَّ يسوع هو بشكلٍ من الأشكال «ابن» الله، ولكنَّه ليس هو الإله الواحد.

(2) الكنيسة الأسقفية: يطلق عليها أحياناً الكنيسة الأسقفية البروتستانتية، وأيضاً الكنيسة الأسقفية الأمريكية هي كنيسة بروتستانتية وطائفة أنجليكانية رئيسة في الولايات المتحدة، تعدُّ من أكبر الطوائف البروتستانتية في أمريكا الشمالية حيث عدد معتنقيها 2،125،012 أمريكي.

الفصل الثامن: يخلق الإشراف على الأفكار الدينيَّة ظاهرةً قويَّةً: الإيمان بالإيمان، والذي يحوِّل جذريّاً محتوى المعتقدات الأساسيَّة، جاعلاً التحقُّق العقلانيَّ منها صعباً إن لم يكن مستحيلاً.

الفصل الثامن

الإيمان بالإيمان

1- من الأفضل أن تصدّق ذلك:

«أعتقد أنَّ الله يستحقُّ حقيقة أنّني أريد أن أؤمن به، سواءً شعرت باليقين أم لا» - مُخبِر مجهول اقتُبِسَ من قبل آلان وولف، في «تحوُّل الدين الأمريكي»

«والدليل على أنَّ الشيطان موجودٌ ويعمل وينجح، هو بالتحديد أنّنا لم نعد نؤمن به»Denis de Rougement—، حصَّة الشيطان.

وعدت- في نهاية الفصل الأول- بالعودة إلى سؤال «هيوم» في حواراته المتعلِّقة بالدين الطبيعي، وهو السؤال عمّا إذا كانت لدينا أسبابٌ وجيهةٌ للإيمان بالله، وفي هذا الفصل، سأفي بهذا الوعد.

لقد أرست الفصول السابقة بعض الأسس الجديدة لهذا التحقيق، ولكنّها كشفت أيضاً عن بعض المشكلات التي تعترضه، والتي تحتاج إلى معالجة قبل حدوث أيّة مواجهةٍ مؤثّرة بين الإيمان والإلحاد.

بمجرَّد أن أصبح أسلافنا يفكّرون - ومفرطين في التفكير- حول معتقداتهم، فإنَّهم عيَّنوا أنفسهم وكلاء للمعتقدات التي آمنوا أنَّها أكثر أهميَّة، أصبحت ظاهرة الإيمان بالإيمان قوَّةً اجتماعيَّةً بارزةً في حدِّ ذاتها، ومتفوقة أحياناً على الظواهر الأدنى مرتبةً التي كانت موضوعها.

ضع في حسبانك بعض الحالات المؤثّرة اليوم: لأنَّ الكثير منّا يؤمنون بالديمقراطيَّة، ويدركون أنَّ ضمانة الديمقراطيَّة في المستقبل تعتمد بشكلٍ حاسم على الحفاظ على الإيمان بالديمقراطيَّة، فنحن حريصون على اقتباس - والاقتباس أكثر من مرَّة- جملة ونستون تشرشل الشهيرة: «الديمقراطيَّة هي أسوأ شكلٍ من أشكال الحكم، باستثناء جميع الأشكال الأخرى التي تمَّت تجربتها».

بوصفنا حماةً للديمقراطيَّة، غالباً ما نكون متناقضين؛ نحرص على الإشارة إلى العيوب التي يجب إصلاحها، ولكنَّنا نحرص بالقدر نفسه على طمأنة الناس بأنَّ العيوب ليست بهذا السوء، وأنَّ الديمقراطية تضبط نفسها، لذا فإنَّ إيمانهم بها ليس في غير محلّه.

يمكن إثارة الفكرة نفسها حول العلم: نظراً لأنَّ الإيمان بسلامة الإجراءات العلميَّة لا يقلُّ أهميَّةً عن السلامة الفعليَّة، فهناك دائماً توتّرٌ بين المُبَلّغين عن المخالفات والسُلطات، حتَّى عندما يعلمون أنَّهم مُنِحوا الاحترام العلمي خطأً على أساس نتيجةٍ تمَّ الحصول عليها عن طريق الاحتيال، فهل يجب أن يرفضوا بهدوءٍ العمل المسيء وأن يطردوا الفاعل بتكتّم، أو أن يثيروا مشكلة؟

وبالتأكيد، فإنَّه يمكن تفسير بعض الانبهار العامّ الشديد بمحاكمات المشاهير من خلال حقيقة أنَّ الإيمان بسيادة القانون يعدُّ مكوّناً حيويّاً في مجتمعنا[1]، لذلك إذا عُدَّ المشاهير فوق القانون، فإنَّ هذا يعرّض الثقة العامَّة في حكم القانون للخطر، ومن هنا فإنَّنا لا نهتمُّ فقط بالمحاكمة، بل بردود الفعل العامَّة على المحاكمة، وردود الفعل على ردود الفعل تلك، ممَّا يخلق تضخُّماً متصاعداً في التغطية الإعلاميَّة.

نحن الذين نعيش في الديمقراطيَّات أصبحنا مهووُسين إلى حدٍّ ما بقياس الرأي العام في جميع أنواع الموضوعات، ولسببٍ وجيه: في الديمقراطيَّة، من المهمِّ حقّاً ما يعتقده النَّاس، وإذا لم يكن من الممكن تعبئة الجمهور لفتراتٍ طويلةٍ من الغضب بسبب تقارير الفساد، أو

(1) أي مجتمع المؤلف «المجتمع الأمريكي»، المترجم

تعذيب السجناء من قبل عملائنا –على سبيل المثال– فإنَّ ضوابطنا وتوازناتنا الديمقراطيَّة معرَّضةٌ للخطر.

في كتابه المأمول، «التنمية كالحرِّيَّة» (1999)، وفي أماكن أخرى (انظر على وجه الخصوص سين، 2003)، يشير الاقتصادي الحائز على جائزة نوبل «أمارتيا سين»، إلى النقطة المهمَّة التي مفادها: أنَّك لست مضطَّراً للفوز في الانتخابات لتحقيق أهدافك السياسيَّة، فحتَّى في الديمقراطيَّات غير المستقرَّة، فإنَّ ما يعتقده القادة بشأن المعتقدات السائدة في بلدانهم يؤثِّر على ما يتَّخذونه من خياراتٍ واقعيَّة، لذا فإنَّ صون الاعتقاد هو هدفٌ سياسيٌّ مهمٌّ في حدِّ ذاته.

والأكثر أهميَّة من المعتقدات السياسيَّة – في نظر الكثيرين – هو ما يمكن أن نسمّيه المعتقدات الماورائيَّة، لقد رأى الكثيرون أنَّ العدميَّة – الإيمان بعدم وجود شيء – هي فيروسٌ خطيرٌ للغاية، لأسبابٍ واضحة، فعندما اخترع «فريدريك نيتشه» فكرته عن التكرار الأبدي – كان يعتقد أنَّه أثبت أنَّنا نعيش حياتنا مرَّة أخرى، ومرَّاتٍ عديدة – كان ميله الأول – وفقاً لبعض الروايات– هو الانتحار دون الكشف عن الدليل، من أجل تجنيب الآخرين هذا الاعتقاد الذي يدمّر الحياة.

الإيمان بالاعتقاد بأنَّ شيئاً ما مهم، هو أمرٌ قويٌّ وواسع الانتشار بشكلٍ مفهوم، الإيمان بالإرادة الحرَّة هو رؤيةٌ أخرى محميَّةٌ بقوَّة للأسباب نفسها، وأولئك الذين تبدو تحقيقاتهم مهدّدةً لهذا الإيمان يتمُّ أحياناً إساءة تمثيلهم عن عمد، من أجل تشويه سمعة ما يُنظَرُ إليه على أنَّه اتجاهٌ خطير (Dennett، 2003c).

دافع الفيزيائي بول ديفيز (2004) مؤخَّراً عن وجهة النظر القائلة بأنَّ الإيمان بالإرادة الحرَّة مهمٌّ جدَّاً، لدرجة أنَّه قد يكون «خيالاً يستحقُّ الحفاظ عليه»، ومن المثير للاهتمام أنَّه لا يبدو أنَّه يعتقد أنَّ اكتشافه للحقيقة المروّعة – ما يعدّه الحقيقة المروّعة– يعوقه أخلاقيَّاً، لكنَّه يعتقد أنَّ الآخرين، الأكثر هشاشةً منه، سيحتاجون إلى الحماية منها.

أن تنقل أخباراً سارَّةً أو غير سارَّة عن غيرِ قصد أو بلامبالاة، أمرٌ يختلف تماماً عن أن تنصّب نفسك بطلاً لميم، بمجرَّد أن يبدأ النَّاس في إلزام أنفسهم بأفكارٍ معينة (معلنةٍ أو

مضمرة)، تنشأ عمليَّةٌ ديناميكيَّةٌ غريبة، حيث يتمُّ إحاطة الالتزام الأصلي بطبقاتٍ لؤلؤيَّةٍ من ردِّ الفعل الدفاعي، وردُّ الفعل متعدّد الأبعاد، ويلاحظ الطبيب النفسي جورج أينسلي في كتابه الرائع «انهيار الإرادة» (2001، ص 88) أنَّ «القواعد الشخصيَّة هي آليَّةٌ تكراريَّة؛ فهي تختبر نفسها باستمرار، وإذا شعرت أنَّها تتداعى، فإنَّ هذه الحقيقة بالذات ستؤدّي إلى مزيدٍ من التداعي». ويصف ديناميكيَّة هذه العمليَّات بواسطة الالتزامات الاستراتيجيَّة المتصارعة التي يمكن أن تتنافس على السيطرة في منظَّمةٍ أو فرد، فبمجرَّد أن تبدأ في العيش وفقاً لمجموعةٍ من القواعد الصريحة، تزداد المخاطر: عندما تسقط، ماذا يجب أن تفعل، أتعاقب نفسك، أم تغفر لنفسك، أم تتظاهر أنَّك لم تلاحظ ذلك؟

بعد هفوة، يكون الاهتمام بعيد المدى في موقفٍ محرجٍ لدولة هدَّدت بخوضِ حرب في ظرفٍ معيَّن حدث بعد ذلك، تريد الدولة تجنُّب الحرب دون تدمير مصداقيَّةِ تهديدها، لذلك قد تبحث عن طرق تجعلها تبدو كما لو أنَّها لم تكتشف الظروف.

سوف يتأثَّر اهتمامك بعيد المدى إذا وجدت نفسك تتجاهل هفوة، ولكن ربَّما لا يحدث ذلك إذا كان بإمكانك تَصنُّع تجاهلها، دون أن تضبط نفسك متلبّساً بذلك، وهذا الترتيب أيضاً، يجب ألَّا يُكتَشَف، ممَّا يعني أنَّ عمليَّة التجاهل الناجحة يجب أن تكون من بين العديد من الوسائل العقليَّة التي تنشأ عن طريق التجربة والخطأ، تلك التي تحتفظ بها لمجرَّد أنَّها تجعلك تشعر أنَّك أفضل حالاً دون أن تدرك السبب. [ص. 150]

الفكرة القائلة بأنَّ هناك أساطيرَ نعيش بها، وأساطيرَ يجب ألَّا يتمَّ إزعاجها بأيّ ثمن، تتعارض دائماً مع نموذجنا المثالي للبحث عن الحقيقة وقول الحقيقة، وأحياناً بنتائجَ مؤسفة، فعلى سبيل المثال، تمَّ الاعتراف بالعنصريَّة أخيراً على نطاق واسع بوصفها شرّاً اجتماعيّاً فظيعاً، لذلك أصبح العديد من الأشخاص المفكّرين يجيزون الاعتقاد من الدرجة الثانية[1] بأنَّ الإيمان بالمساواة بين جميع النَّاس، بصرف النظر عن عرقهم يجب تعزيزه بقوَّة، لكن كيف يتم ذلك بقوة؟

---

(1) الاعتقاد الخاطئ من الدرجة الأولى: إدراك أنه من الممكن الاحتفاظ بمعتقدات خاطئة حول الأحداث في العالم، الاعتقاد الخاطئ من الدرجة الثانية: إدراك أنه من الممكن تحمل اعتقاد خاطئ.

هنا يختلف الأشخاص ذوو النوايا الحسنة اختلافاً حادّاً: يعتقد البعض أنَّ الإيمان بالاختلافات العرقيَّة ضارٌّ لدرجة أنَّه حتَّى عندما يكون صحيحاً فإنَّه يجب إخماده، وقد أدَّى ذلك إلى بعض التجاوزات المؤسفة حقّاً، فعلى سبيل المثال، هناك بياناتٌ سريريَّةٌ واضحة حول كيفيَّة تعرُّض الأشخاص من مختلف الأعراق للمرض بشكلٍ مختلف، أو الاستجابة بشكلٍ مختلف للأدوية المختلفة، ولكنَّ هذه البيانات تعدُّ محظورةً من قبل بعض الباحثين، وبعضها يعيق البحث، وهذا له تأثيرٌ ضارّ حيث يتمُّ تجنُّب طرق البحث المشار إليها بشدَّة، ممَّا يضرُّ بصحَّة المجموعات العرقيَّة المعنيَّة.

يكشف «أينسلي» عن الحفاظ على المعتقدات الاستراتيجيَّة في مجموعةٍ متنوّعةٍ من الممارسات البشريَّة العزيزة:

يجب القيام بالأنشطة التي أفسدها إحصائها، أو الاعتماد عليها بشكلٍ مراوغ، كي تظلَّ ذات قيمة، فعلى سبيل المثال، يُنظَر إلى الرومانسيَّة التي تُمارس من أجل الجنس، أو لكي «تكون محبوباً» على أنَّها فظَّة، كما يُنظَر إلى بعض المهن الأكثر ربحاً التي تمارس من أجل المال، أو فنون الأداء التي تؤدَّى من أجل الحصول على الإعجاب.

يُفسد الإدراك المبالغ فيه للاحتمالات التحفيزيَّة للجنس، أو المودَّة، أو المال، أو التصفيق الجهد، ليس فقط لأنَّه يحرّر الأشخاص الآخرين المعنيين من الخداع، ويتمُّ تثمين المعتقدات حول القيمة الجوهريَّة لهذه الأنشطة بما يتجاوز الدقَّة التي تحظى بها هذه المعتقدات، لأنَّها تعزّز المراوغة المطلوبة. [منشور]

على الرَّغم من أنَّه لا يقتصر على الدين إطلاقاً، فإنَّ الإيمان بالإيمان هو محرّكٌ أكثر خصوبةً للتوضيح من أيّ مكانٍ آخر، ويلخّص «أينسلي» ذلك بأنَّه يفسّر بعض المحرَّمات المعرفيَّة المحيّرة الموجودة في الأديان:

من الكهنوت إلى الكهانة، يبدو أنَّ الاتصال مع الحدس يحتاج إلى نوعٍ من العِرافة، هذا صحيحٌ تماماً بالنسبة للمناهج التي تزرع شعوراً بالتعاطف مع الإله، في المقابل تحظر

العديد من الأديان محاولة جعل إلهم أكثر واقعيَّةً من خلال رسم صورٍ له، وتحظر اليهوديَّة الأرثوذكسيَّة حتَّى تسميته، من المفترض أن تأتي تجربة حضور الله من خلال نوعٍ من الدعوة قد يقبلها أو لا يقبلها، وليس من خلال الدعاء. [2001، ص. 192]

ماذا يفعل النَّاس عندما يكتشفون أنَّهم لم يعودوا يؤمنون بالله؟

بعضهم لا يفعل شيئاً، لا يتوقَّفون عن الذهاب إلى الكنيسة، ولا يخبرون حتَّى أحبَّائهم، بل يواصلون حياتهم بهدوء، ويعيشون بشكلٍ أخلاقي (أو غير أخلاقي) كما فعلوا من قبل، فيما يشعر آخرون، مثل دون كيوبت، مؤلِّف كتاب «بعد الله: مستقبل الدين»، بالحاجة إلى البحث عن عقيدةٍ دينيَّةٍ يمكنهم تأييدها بجدِّيَّة.

لدى النَّاس إيمانٌ راسخٌ بأنَّ الإيمان بالله شيءٌ يجب الحفاظ عليه، لذلك عندما يجدون أنَّ المفاهيم التقليديَّة عن الله لا تُصدَّق بصراحة فإنَّهم لا يستسلمون، بل يبحثون عن بديل، والبحث – مرَّةً أخرى- لا يجب أن يكون واعياً ومدروساً.

دون أن يدركوا بصراحةٍ أنَّ المثل الأعلى معرَّضٌ للخطر بطريقةٍ ما، فقد يتأثَّر النَّاس جدَّاً بفزعٍ مجهول السبب، إحساسٍ غامرٍ بفقدان الاقتناع، تهديدٍ بداهي ولكن غير مفصَّل يجب مواجهته بقوَّة، وقد يضعهم ذلك في حالةٍ ذهنيَّةٍ تجعلهم يتقبَّلون خصوصاً تأكيداتٍ جديدةً تبدو صحيحةً أو مناسبةً نوعاً ما.

إنَّ مراجعة العقيدة هي عمليَّةٌ مزعجةٌ للغاية عند مراقبتها عن كثب، مثل صناعة النقانق وصياغة التشريعات في نظام ديمقراطي، لذلك فلا عجب أن يتلاشى ضباب غموضه بسرعة.

لقد كُتب الكثير على مرِّ القرون عن العمليَّات التَّاريخيَّة التي تمَّ التحوُّل من خلالها من تعدُّد الآلهة إلى التوحيد – استبدال الإيمان بآلهة بالإيمان بالله- لكنَّ ما يتمُّ تأكيده بشكلٍ أقلَّ في كثيرٍ من الأحيان هو: كيف وحَّد هذا الإيمان بالله قواه مع الإيمان بالإيمان بالله، لتحفيز ارتحال مفهوم الله في الديانات الإبراهيميَّة (اليهوديَّة والمسيحيَّة والإسلام) بعيداً عن التجسُّد

الملموس إلى مفاهيمَ أكثر تجريداً وتجرُّداً عن الخصائص البشريَّة من أيّ وقتٍ مضى؟.

يمكن إلقاء الضوء على ما هو لافت في هذا الأمر من خلال التناقض مع التحوُّلات المفاهيميَّة الأخرى التي حدثت خلال الفترة نفسها، كما يمكن بالتأكيد أن تتغيَّر المفاهيم الأساسيَّة بمرور الوقت، فقد تغيَّر مفهومنا للمادَّة تغيُّراً جذريّاً منذ أيَّام الفلاسفة الذرّيين اليونانيين القدماء، فيما تختلف مفاهيمنا العلميَّة للزمان والمكان اليوم، بفضل الساعات والتلسكوبات وآينشتاين وآخرين، عن مفاهيمهم أيضاً، وقد جادل بعض المؤرّخين والفلاسفة بأنَّ هذه التحوُّلات ليست تدريجيَّةً كما قد تظهر للوهلة الأولى، بل هي تغيّراتٌ مفاجئةٌ وجذريَّةٌ، لدرجة أنَّ المفاهيمَ السابقة واللاحقة «غير قابلةٍ للقياس» بطريقةٍ ما.

هل أيٌّ من هذه المراجعات المفاهيميَّة ثوريَّةٌ جدّاً في الواقع، بحيث تجعل التواصل عبر العصور مستحيلاً كما جادل البعض؟

من الصعب إثبات هذه القضيَّة، حيث يمكننا على ما يبدو رسم التغييرات بدقَّةٍ وتفصيل، وفهمها جميعاً مع مرور الوقت، وعلى وجه الخصوص، يبدو أنَّه لا يوجد سبب للاعتقاد بأنَّ مفاهيمنا اليوميَّة عن المكان والزمان ستكون غريبةً إلى حدٍّ ما على الإسكندر الأكبر أو أريستوفانيس، على سبيل المثال، ولن نواجه صعوبةً كبيرةً في التحدُّث مع أيّ منهما حول اليوم والغد والعام الماضي، أو آلاف الأمتار أو المسافات بين أثينا وبغداد، لكن إذا حاولنا التحدُّث مع القدماء عن الله، فستكون الفجوة التي تفصل بيننا أكبر.

لا أستطيع التفكير في أيّ مفهومٍ آخر خضع لهذا التشوُّه الدراماتيكي، يبدو الأمر كما لو أنَّ مفهومهم عن الحليب قد تحوَّل إلى مفهومنا للصحَّة، أو كما لو أنَّ مفهومهم عن النَّار قد تحوَّل إلى مفهومنا عن الطَّاقة؛ لا يمكنك شرب الصحَّة حرفيّاً أو إطفاء الطاقة حرفيّاً، و- اليوم، وفقاً للعديد من المؤمنين ولكن ليس كلّهم- لا يمكنك الاستماع إلى الله حرفيّاً، أو الجلوس بجانبه حرفيّاً، لكنَّ هذه ادّعاءاتٌ غريبةٌ بالفعل بالنسبة إلى الموحّدين الأصليين.

كان «يهوه» في العهد القديم بالتأكيد رجلاً خارقاً - وهو رجلٌ، وليس امرأة- يمكن

أن ينحاز في المعارك إلى أحد الأطراف، وأن يكون غيوراً وغاضباً في الوقت نفسه، فيما ربُّ العهد الجديد الأصلي أكثرُ غفراناً ومحبَّةً، لكنَّه ما يزال أباً، وليس أمّاً أو قوَّةً لا جنس لها، وفاعلاً في العالم من خلال ابنه صانع المعجزات.

لا يزال الشخص عديم الجنس الذي لا يملك جسداً، والذي مع ذلك يستجيب للصلوات في الوقت الحقيقي (كائن ستارك الواعي الخارق) مجسَّماً جدَّاً بالنسبة إلى البعض، الذين يفضّلون التحدُّث عن قوَّةٍ أعظم (جوهر ستارك) لا يمكن فهم خصائصها، بصرف النظر عن حقيقة أنَّهم- بطريقةٍ غير مفهومة- أخيارٌ وليسوا أشراراً.

هل تمتلك القوَّة الأعظم ذكاءً (مبدعاً)، وبأيّ شكل، هل هو (He وليس she) يهتمُّ بنا، في كلّ شيء؟

لقد انحسر ضباب الغموض بسهولةٍ عن جميع الميزات المجسَّمة التي لم يتمَّ التخلّي عنها تماماً، وقد تمَّ تطعيم المزيد من التكيُّف.

من غير المهذَّب أن نسأل عن هذه الأمور، إذا أصريت، فمن المحتمل أن تحصل على إجابة على هذا المنوال: «يمكن أن يراك الله عندما تفعل شيئاً شرّيراً في الظلام، لكن ليس لديه جفون، ولا يرفُّ له جفنٌ أبداً، أنت شخصٌ فظٌّ سخيف، وبالطبع هو يمكن أن يقرأ أفكارك حتَّى عندما تكون حريصاً على عدم التحدُّث إلى نفسك، لكنَّه ما يزال يفضّل أن تصلّي إليه بالكلمات، ولا تسألني كيف ولماذا، فهذه ألغازٌ لن نفهمها نحن البشر الفانون المحدودون».

لقد تمَّ تعليم النَّاس من جميع الأديان أنَّ أيَّ استجوابٍ من هذا القبيل هو بطريقةٍ ما إهانةٌ أو تحقيرٌ لعقيدتهم، ولابدّ أن تكون محاولةً للسخرية من آرائهم، يا لها من شاشة حمايةٍ ممتازةٍ يوفّرها هذا الفيروس، ممَّا يسمح له بالتخلُّص من الأجسام المضادَّة المشكّكة دون عناء! لكنَّ هذا لا ينجح دوماً، وعندما يصبح الشكُّ أكثر تهديداً، يمكن اللجوء إلى تدابير أقوى.

واحدةٌ من أكثر هذه الإجراءات فاعليَّةً وشفافيَّة: الكذبة الشيطانيَّة القديمة - المصطلح يأتي من دي روجيمونت (1944)، الذي يتحدَّث عن «النزعة المفترضة لـ "أبي الأكاذيب"

للظهور على عكس ما هو عليه»»، إنَّها حرفيّاً خدعةٌ بالمرايا، ومثل العديد من الحيل السحريَّة الجيّدة، من الواضح جدّاً أنَّه يصعب تصديق أنَّها قد تنجح في أيّ وقت (لذا غالباً ما يضطرُّ السحرة المبتدئون إلى تقوية أنفسهم لأداء الحيل في المرة الأولى علناً- لا يبدو أنَّه من الممكن أن ينخدع الجمهور بهذه الحيل، لكنَّهم يفعلون ذلك).

لو كنت لأصممَ ديناً زائفاً، لكنت سأقوم بالتأكيد بتضمينه نسخةٍ من هذه الجوهرة الصغيرة، لكنَّني سأجد صعوبةً في قول ذلك بشكلٍ مباشر:

إذا أثار أيُّ شخصٍ أسئلةً أو اعتراضاتٍ حول دينك لا يمكنك الإجابة عليها، فإنَّ هذا الشخص هو الشيطان، في الواقع، كلَّما كان الشخص أكثر عقلانيَّة، وكلَّما ازداد توقه لجعلك تنخرط في نقاشٍ منفتحٍ ولائق، وكلَّما زاد تأكُّدك من أنَّك تتحدَّث إلى الشيطان متخفيّاً، ابتعد عنه، لا تستمع له، إنَّه فخ.

ما يجعل هذه الحيلة جذَّابةً بشكلٍ خاصّ أنَّها «ورقة جوكر» مثاليَّة، تفتقر جدّاً للمحتوى بحيث يمكن لأيَّة طائفةٍ أو عقيدةٍ أو مؤامرة استخدامها بفعَّاليَّة، إذ يمكن تحذير الخلايا الشيوعيَّة من أنَّ أيَّ نقدٍ يواجهونه على أنَّه بالتأكيد من عمل مندسّين متخفّين من مكتب التحقيقات الفيدرالي، ويمكن لمجموعات المناقشة النسويَّة الراديكاليَّة أن تسحق أيَّ نقدٍ لا يمكن الردُّ عليه، من خلال إعلان أنَّه دعايةٌ ذكوريَّةٌ يتمُّ نشرها عن غير قصد، من قبل مغسول دماغٍ مخدوع بالأبويَّة الشريرة، وما إلى ذلك. هذا الفارض للولاء لجميع الأغراض هو جنون العظمة في صورة شخصٍ بغيض، ومن الثابت أنَّه سيُبقي النقَّاد صامتين، إن لم يخرسهم.

هل اخترع أيُّ شخصٍ هذا التكيُّف الرائع، أم أنَّه ميمٌ جامحٌ روَّض نفسه من خلال الارتباط بميماتٍ أخرى كانت تتنافس على مضيفين في جواره؟

لا أحد يعرف، لكنَّه الآن متاحٌ لأي شخصٍ لاستخدامه - وإن كان لهذا الكتاب أن يحقّق أيَّ نجاح، رغم ذلك، فالمهمُّ هو أن يجعل ضراوة هذا الميم تتضاءل عندما يبدأ النَّاس في

التعرُّف على حقيقته.

(قد تكون المواظبة الأكاديميَّة النشطة على المناقشة والبحوث اللاهوتيَّة، والاستفسار باحترامٍ شديدٍ عن التفسيرات المحتملة للعقائد المختلفة، هي الاستجابة الأكثر اعتدالاً والبنَّاءة أكثر للشكوكِ التي لا هوادة فيها، يثير هذا التمرين الفكري الجادّ الشهوة المتشكّكة لهؤلاء الأشخاص القلائل الذين لا يشعرون بالراحة تجاه المعتقدات التي تمَّ تلقينهم أيَّاها منذ الطفولة، فيما يتمُّ تجاهلها من قبل الآخرين، لذا لا يشعر معظم النَّاس بالحاجة إلى فحص تفاصيل الافتراضات الدينيَّة التي يعلنون إيمانهم بها).

يقال: إنَّ الغموض يحيط بالمفاهيم المختلفة لله، ولكن لا يوجد شيءٌ غامض حول عمليَّة التحوُّل، وهو أمرٌ مرئيٌّ للجميع بوضوح، وقد تمَّ وصفه - وغالباً ما تم استنكاره- من قبل أجيالٍ من الحياة المحتملين لهذه الفكرة المهمَّة.

لماذا لا يقوم الحياة فقط بصياغة مصطلحاتٍ جديدةٍ للمفاهيم المنقَّحة، والتخلّي عن المصطلحات التقليديَّة جنباً إلى جنب مع المفاهيم المهملة؟ ففي نهاية المطاف، نحن لا نصرُّ على المصطلحات الطبيَّة التي عفا عليها الزمن، مثل الجلطة والسكتة الدماغيَّة، أو الإصرار على إيجاد شيءٍ ما في الفيزياء أو الكيمياء المعاصرة لتعريفه على أنَّه اللاهوب phlogiston[1].

لم يفترض أحدٌ أنَّنا اكتشفنا هويَّة العنصر الحيوي (المكوّن السرّيّ الذي يميّز الكائنات الحيَّة عن المادة المجرَّدة)؛ إنَّه الحمض النووي (لم يكن لدى الحيويين[2] المفهوم الصحيح عنه، لكنَّهم كانوا يعلمون أنَّه يجب أن يكون هناك شيءٌ ما).

لماذا يصرُّ النَّاس على تسمية القوَّة الأعظم التي يؤمنون بها بـ «الله»؟

الجواب واضح: لقد قدَّر المؤمنون بالله أنَّ استمرار الاعتراف يتطلَّب استمراريَّة التسمية،

(1) مادة الفلوجستون: مادةٌ افترض كيميائيو القرن الثامن عشر وجودها في جميع الأجسام القابلة للاحتراق، ويتمُّ إطلاقها أثناء الاحتراق.

(2) القائلون بالمذهب الحيوي الذي يعتقد بأنَّ «الكائنات الحيَّة تختلف اختلافاً جوهرياً عن الكيانات غير الحيَّة، لأنَّها تحتوي على بعض العناصر غير المادية أو تكون محكومةً بمبادئ مختلفة عن الأشياء الجامدة.

وأنَّ الولاء للعلامة التجاريَّة هو سمةٌ قيّمة، لدرجةِ أنَّه سيكون من الحماقة العبث بها، لذا مهما كانت الإصلاحات الأخرى التي قد ترغب في إجرائها، لا تحاول استبدال كلمة «الله» («يهوه»، «زيوس»، «الإله»، «القدير»، «ربّنا»، «الله») عندما تعبث بدينك. في البدء كانت الكلمة.

ينبغي أن أقول: إنَّها كانت ناجحةً نوعاً ما، فعلى مدى ألف عامٍ تقريباً، استقبلنا بحفاوةٍ حشداً من المفاهيم الفكريَّة والمتجرّدة من الخصائص البشريَّة لله، التي تعايشت جميعها في أذهان «المؤمنين بسلام، وبما أنَّ كلَّ شخصٍ يسمّي نسخته «الله»، فهناك شيءٌ «يمكننا أن نتَّفق عليه جميعاً» - فنحن جميعاً نؤمن بالله؛ نحن لسنا ملحدين! لكن بالطبع هذا الأمر لم ينجح.

إذا كانت لوسي تعتقد أنَّ (روك هدسون) نجمٌ محبوب، وتعتقد ديسي أنَّ الروك (الموسيقى) محبوبة، فهم لا يتَّفقون على أيّ شيء، أليس كذلك؟ المشكلة ليست جديدة.

بالعودة إلى القرن الثامن عشر، قرَّر هيوم بالفعل أنَّ «فكرتنا عن الإله» قد تغيَّرت كثيراً، لدرجة أنَّ الآلهة في العصور القديمة لا يعتدُّ بها ببساطة، لكونها مجسَّمةً للغاية.

سيظهر لأيّ شخصٍ ينظر في الأمر بعدل، أنَّ آلهة جميع المشركين ليست أفضل من الجان والجنّيات عند أسلافنا، ولا تستحقُّ إلَّا القليل من العبادة أو التبجيل الورع، هؤلاء المتديّنون المزعومون هم في الحقيقة نوعٌ من الملحدين المؤمنين بالخرافات، ولا يعترفون بوجود أيّ كينونة، وهو ما يتوافق مع فكرتنا عن الإله، لا يوجد مبدأٌ أولٌ للعقل أو الفكر، لا حكومةٌ ولا إدارةٌ عليا، لا ابتكارٌ ولا نيَّةٌ إلهيَّة لبناء العالم. [1777، ص. 33]

في الآونة الأخيرة، وبتوبيخٍ في الاتجاه المعاكس، أعرب ستارك وفينكي (2000) عن استيائهما من الآراء «الملحدة» لجون شيلبي سبونج، الكاهن الأسقفي في نيويورك، الذي لم يكن إلهه مجسَّماً بما فيه الكفاية، ففي كتابه عام 1998(لماذا يجب أن تتغيَّر المسيحيَّة أو تموت) يرفض سبونج ألوهيَّة يسوع، ويعلن أنَّ الصلب «بربري»، ويرى أنَّ إله معظم المسيحيين

التقليديين هو غول.

أخبرني رجل دينٍ أسقفي بارزٍ آخر مرَّةً، أنَّه عندما اكتشف ما يعتقده بعض المورمون عندما قالوا إنَّهم يؤمنون بالله، تمنَّى أنَّهم لا يؤمنون بالله، لماذا لا يقول هذا من على المنبر؟

لأنَّه لا يريد أن يخيِّب أمل العائلة، فبعد كلِّ شيء، هناك الكثير من الأشرار، «الملحدين» هناك، ولن يزعج هذه الرواية الهشَّة بأنَّنا «لسنا ملحدين» (حاشا لله!).

2 – الله كشيءٍ مقصود:

قال الجاهل في قلبه لا إله» – مزمور 14: 1 (أيضاً 53: 1).

الإيمان بالإيمان بالله يجعل النَّاس يتردَّدون في الاعتراف بما هو واضح، من أنَّ الكثير من المعارف التقليديَّة عن الله لا تستحقُّ الإيمان أكثر من المعرفة حول سانتا كلوز Santa Claus أو المرأة المعجزة Wonder Woman، ومن الغريب أنَّه لا بأس في أن تضحك على ذلك.

ضع في حسبانك جميع الرسوم الكرتونيَّة التي تصوِّر الله كرجلٍ ملتحٍ صارم، يجلس على سحابة مع كومةٍ من الصواعق إلى جانبه، ناهيك عن النكات، سواءً الفاسقةً أو النظيفةً، التي تحكى عن أقوامٍ مختلفة تصل الجنَّة ولديها مُصيبة من نوعٍ ما.

يثير هذا الكنز من السخرية ضحكاتٍ مكتومةً من الجميع، باستثناء أكثر المتشدّدين تجهُّماً، لكنَّ القليل منهم يشعر بالراحة عند الاعتراف بأنَّنا ننحدر من إله التكوين 2:21، الذي -حرفيَّاً- ينتزع ضلعاً من آدم ويغلق الجسد (بأصابعه، تخيَّل ذلك) قبل نحت حوَّاء على الفور.

يقدّم ريتشارد دوكينز في في كتابه قسيس الشيطان (2003a) بعض النصائح السليمة، لكنَّه يعلم مسبقاً أنَّ أحداً لن يلتفت إليها، لأنَّ النَّاس يمكنهم رؤية النتيجة الآتية:

«قد يقرُّ المؤمنون المعاصرون أنَّه عندما يتعلَّق الأمر بآلهةٍ كبعل، والعجل الذهبي، وثور،

ووتان، وبوسيدون، وأبولو، وميثراس، وآمون رع، فهم ملحدون فعلاً، نحن جميعاً ملحدون بمعظم الآلهة التي آمنت بها البشريَّة بالمطلق، ويذهب البعض خطوةً إضافيَّة فلا يؤمنون بجميع الآلهة بما فيهم الله. [ص. 150]

تكمن المشكلة في كون المناقشات حول وجود الله تجري ضمن تظاهرٍ بالتديّن غير واضح الحدود، لأنَّ نصيحة «دوكينز» هذه لن يُلتَفتُ إليها، فإذا كان المؤمنون طيّبين للغاية بحيث يقدّمون قائمةً قصيرة بمفاهيم الله كلّها التي ينبذونها على أنّها هراء قبل المضيّ قدماً، فسنعرف نحن الملحدين فقط الموضوعات التي ما تزال مطروحةً للنقاش، ولكن بدافع مزيجٍ من الحذر والولاء، وعدم الرغبة في الإساءة إلى أيّ شخص «من جانبهم»، عادةً ما يرفض المؤمنون القيام بذلك[7]. لا تضع بيضك كلَّه في سلَّةٍ واحدة، على ما أعتقد. يتمُّ تمكين هذا المعيار المزدوج إذا لم تتمَّ إجازته بالفعل، من خلال الارتباك المنطقي الذي يستمرُّ في تحدّي القرار من قبل الفلاسفة الذين عملوا عليه: مشكلة الأشياء المقصودة. بعبارة- التي سيتبيَّن أنّها غير مرضية، كما سنرى حالاً- فالأشياء المقصودة هي الأشياء التي يمكن لأيّ شخصٍ التفكير فيها.

هل أؤمن بالساحرات؟ تتوقَّف الإجابة على ما تعنيه بكلمة «الساحرات»؛ إذا كنت تعني بذلك النساء ذوات القلوب الشرّيرة اللواتي يصنعن التعويذات، ويطرن بشكلٍ خارق على عصيّ المكنسة، ويرتدين قبَّعات سوداء مدبَّبة، فالإجابة واضحة: لا، لم أعد أؤمن بالساحرات أكثر ممَّا أؤمن بأرنب عيد الفصح أو جنيَّة الأسنان، أمَّا إذا كنت تقصد أشخاصاً- رجالاً ونساءً- ممَّن يمارسون الويكا[1]، ديانة العصر الجديد الشعبيَّة هذه الأيَّام، فإنَّ الإجابة واضحةٌ أيضاً: نعم، أنا أؤمن بالسحرة؛ إنَّهم ليسوا خارقين للطبيعة أكثر من فتيات الكشَّافة أو الروتاريين. هل أعتقد أنَّ هؤلاء السحرة يصنعون تعويذات؟ نعم ولا، يتفوَّهون

(1) الويكا: هي أشهر ديانة وثنية جديدة، تمَّ إشهار الويكا في سنة 1954 على يد جيرالد غاردنر وهي الآن موجودة في العديد من دول العالم. ادَّعى جيرالد غاردنر أنَّ الويكا هي استمرار لديانة السحر التي استمرَّت في السر لمئات السنين، رجوعاً إلى الوثنية ما قبل المسيحية في أوروبا، لهذا فإنَّ الويكا تسمى أحياناً بالديانة القديمة.

بإخلاص بلعناتٍ من أنواع مختلفة، متوقّعين تغيير العالم بطرقٍ مختلفةٍ خارقةٍ للطبيعة، لكنّهم مخطئون باعتقادهم أنّها ناجعة، على الرّغم من أنّها قد تغيّر مواقفهم وسلوكهم نتيجة لذلك (إذا أعطيتك العين الحامية من الحسد، فقد تشعر بقلقٍ شديد لدرجة الإصابة بمرضٍ خطير، ولكن إذا كان الأمر كذلك، فذلك لأنّك ساذج، وليس لأنّني أمتلك قوىً سحريّة) لذلك كل هذا يتوقّف على ما تعنيه، وهو يصحُّ في الأوقات كلّها!

منذ حوالي أربعين عاماً في إنجلترا، شاهدت برنامجاً إخباريّاً لهيئة الإذاعة البريطانيّة (بي بي سي) حيث أُجرِيَت مقابلاتٌ مع أطفال حضانة حول الملكة إليزابيث الثانية، ماذا يعرفون عنها؟ كانت الإجابات ساحرة: ارتدت الملكة تاجها وهي «تكنس» قصر باكنغهام، وتجلس على العرش عندما تشاهد التلفاز، وبشكلٍ عام تتصرَّف كمزيج بين أمٍّ وملكة القلوب. هذه هي الملكة إليزابيث الثانية، الشيء المقصود الذي ظهر (كتجريد) من خلال القناعات الإجماعيّة لهؤلاء الأطفال، كانت أكثر تشويقاً وتسليةً من المرأة الحقيقية، وقوّة سياسيّة أكثر فاعليّة!.

هل هناك، إذن، كيانان متميّزان، المرأة الحقيقيّة والملكة المتخيَّلة، وإذا كان الأمر كذلك، فليس هناك الملايين أو المليارات من الكيانات المتميّزة – الملكة إليزابيث الثانية كما يراها المراهقون في اسكتلندا، والملكة إليزابيث الثانية كما يراها العاملون في قلعة وندسور، والملكة إليزابيث الثانية كما أراها وما إلى ذلك؟ لقد جادل الفلاسفة بقوّة طوال قرن حول كيفيّة استيعاب مثل هذه الأشياء المقصودة في أنطولوجيّاتهم – كتالوجاتهم للأشياء الموجودة – مع عدم وجود إجماعٍ منبثق. بريطانيٌّ بارزٌ آخر هو شيرلوك هولمز، الذي غالباً ما يؤخذ في الحسبان، على الرّغم من أنّه لا وجود له إطلاقاً، وبشكلٍ أو بآخر، هناك حقائق وأكاذيب حول مثل هذه الأشياء المقصودة (المجرَّدة): صحيحٌ أنَّ شيرلوك هولمز – الكائن المقصود الذي ابتكره السير آرثر كونان دويل – عاش في شارع بيكر، وكانَ مدخّناً، ولكن لم يكن لديه أنفٌ أخضر برَّاق، وصحيحٌ أنَّ بيغاسوس «Pegasus» كان له أجنحة، بالإضافة إلى أربعة أرجل حصان عاديَّة، والخطأ أنَّ الرئيس ترومان امتلكه ذات مرَّة وركبه إلى البيت الأبيض

من ميسوري، لكن بالطبع لم يكن شيرلوك هولمز ولا بيغاسوس حقيقيين، أو كانا كذلك في أيّ وقتٍ مضى.

قد يكون لدى بعض النَّاس انطباعٌ خاطئٌ بأنَّ شيرلوك هولمز موجودٌ بالفعل، وأنَّ قصص كونان دويل ليست خيالاً، يؤمن هؤلاء النَّاس بشيرلوك هولمز بالمعنى القوي، فيما يكرّس آخرون، معروفون باسم «شيرلوكيانز»، وقت فراغهم ليصبحوا علماء شيرلوك هولمز، ويمكنهم الترفيه عن بعضهم البعض بمعرفتهم الموسوعيَّة بأعمال «كونان دويل»، دون ارتكاب خطأ الخلط بين الحقيقة والخيال. الجمعيَّة الأكثر شهرةً لهؤلاء العلماء هي «جنود شارع بيكر غير النظاميين» the Baker Street Irregulars، التي سمّيت على اسم عصابة أولاد الشوارع الذين جنَّدهم هولمز لأغراضٍ مختلفةٍ على مرّ السنين، يسعد أعضاء هذه الجمعيَّات - نظراً لوجود العديد من جمعيَّات «شيرلوك» حول العالم- بمعرفة القطار الذي استقلَّه هولمز من بادينغتون في 12 أيار، لكنَّهم يعرفون جيِّداً أنَّه لا توجد حقيقة يمكن معرفتها حول ما إذا كان يجلس في القطار مع اتجاه سيره أم عكسه، لأنَّ كونان دويل لم يحدّدها، أو لا يوجد أيُّ شيءٍ يدلُّ على ذلك، إنَّهم يعرفون أنَّ هولمز شخصيَّةٌ خياليَّة، لكنَّهم مع ذلك يكرّسون أجزاء كبيرة من حياتهم لدراسته، وهم متشوّقون لشرح سبب تبرير حبّهم لهولمز بشكلٍ أفضل من حبّ بعض المعجبين الآخرين لبيري ميسون أو باتمان. إنَّهم يؤمنون بشيرلوك هولمز بالمعنى الضعيف، إنَّهم يتصرَّفون إلى حدٍّ كبير مثل العلماء الهواة الذين يكرّسون وقت فراغهم لمحاولة اكتشاف حقيقة جاك السفَّاح،[1] ومن الطبيعي أن يفترض مراقبٌ لم يكن يعرف أنَّ قصص هولمز هي من نسج الخيال- بينما جاك السفَّاح هو قاتلٌ حقيقي- أنَّ «جنود شارع بيكر غير النظاميين» يحقّقون في شخصيَّةٍ تاريخيَّة.

من الممكن تماماً لأيّ شيءٍ مقصود مثل شيرلوك هولمز أن يستحوذ على النَّاس، حتَّى

(1) جاك السفاح: هو الاسم الأشهر الذي أطلق على قاتل متسلسل مجهول الهوية، كان نشطاً في المناطق الفقيرة جدّاً في منطقة وايت تشابل وحولها في لندن عام 1888، وقد نشأ هذا الاسم من رسالة كتبها شخص يدَّعي أنه القاتل، ونُشرت الرسالة في وسائل الإعلام، ولكن يُعتقد بقوّةٍ أن هذه الرسالة كانت مجرَّد خدعة، وربَّما يكون الذي كتبها هو أحد الصحفيين.

عندما يعرفون جيّداً أنّه ليس حقيقيّاً، لذلك ليس من المستغرب أنَّ مثل هذا الشيء (إذا كان صحيحاً أن نسمّيه شيئاً، بالنتيجة) يمكن أن يسيطر على حياة النَّاس عندما يؤمنون به بالمعنى القوي، مثل الأشخاص الذين ينفقون ثرواتٍ من أجل اصطياد وحش بحيرة لوخ نيس[1] أو ذي القدم الكبيرة[2]، وعندما يسيطر شخصٌ حقيقي، مثل الملكة إليزابيث الثانية، على حياة النَّاس، عادةً ما يتمُّ تحقيق هذه الهيمنة بشكلٍ غير مباشر، من خلال إنشاء مجموعةٍ متنوّعةٍ من المعتقدات، وإعطاء النَّاس شيئاً مقصوداً يظهر في تفكيرهم، وفي القرارات التي يتَّخذونها. لا يمكنني أن أكره خصمي أو أحبَّ جاري دون أن يكون لديَّ مجموعةٌ من المعتقدات الواضحة والدقيقة إلى حدٍّ كبير، والتي تعمل على انتقاء هذا الشخص من بين الحشود، حتَّى أتمكَّن من التعرُّف عليه، وتتبّعه والتفاعل معه بأسلوبٍ فعَّال.

في معظم الظروف، تكون الأشياء التي نؤمن بها حقيقيَّةً تماماً، ونحن نؤمن بالأشياء الحقيقيَّة، لذلك يمكننا عادةً تجاهل التميز المنطقي بين الشيء المقصود (موضوع الإيمان) والشيء في العالم الذي ألهم وأسس ورسَّخ الإيمان. لا يحدث هذا الأمر دائماً، تبيَّن أنَّ نجمة الصباح ليست سوى نجمة المساء، «هما» ليستا نجمتين، «هما» الشيء نفسه، كوكب الزهرة، كوكبٌ واحد، شيئان مقصودان. تجعل الأشياء التي تهمُّنا عادةً نفسها مغروفةً لنا بشكلٍ آمن، من خلال مجموعةٍ متنوّعةٍ من الطرق التي تسمح لنا بتتبُّعها من خلال مساراتها، ولكن هناك سيناريوهات أخرى؛ قد أتسلَّل محبطاً مشاريعك، أو بدلاً من ذلك، أمنحك «حظّاً سعيداً»، وسيطرةً على حياتك بطريقةٍ أو بأخرى، دون أن تشكَّ أبداً في أنَّني موجود كشخصٍ، أو كشيءٍ، أو حتَّى كقوَّةٍ في حياتك، ولكن هذا احتمالٌ غير مرجَّح. عموماً، تظهر

(1) وحش لوخ نس: هو مخلوقٌ غير مؤكّد الوجود، يُعتقد بأنَّه سليل مجموعةٍ باقية من البلوصورات، على الرَّغم من أنَّ وصفه يختلف من شاهدٍ لآخر، ويُقال إنَّه يسكن بحيرة لوخ نس في اسكتلندا، التي تعدُّ أكبر بحيرة مياه عذبة في بريطانيا العظمى.

(2) ذو القدم الكبيرة أو (بيغ فوت): والمعروف أيضاً باسم ساسكواتش، هو الاسم الذي يطلق على كائنٍ مجهولٍ يشبه القرد، ويقال إنَّه يسكن الغابات في شمال غرب المحيط الهادئ، وعادةً ما يوصف بيغ فوت في فلكلور أمريكا الشماليَّة على أنَّه كائنٌ شبه بشري كبيرٌ ومشعر، ويمشي على قدمين،وقد أتى مصطلح ساسكواتش من كلمة sásq'ets من لغة هالكوميليم.

الأشياء التي تُحدث فرقاً في حياة الشخص كأشياء مقصودة بشكل أو بآخر فيها. حتى لو حُدِدتْ بشكلٍ خاطئ أو أُسيء فهمها، وعندما تحدث أخطاء في الفهم، تنشأ مشكلاتٌ حول كيفيَّة وصف الموقف، فمثلاً لنفترض أنّك كنت تقوم بأعمالٍ حسنة لي خفيةً على مدى أشهر، إذا كنت «ممتناً لحسن طالعي» بينما تكون أنت من يجب أن أشكره حقّاً، فسيكون من الخطأ القول إنَّني أؤمن بك وأنَّني ممتنٌ لك، ربَّما أكون أحمقاً لأقول في أعماقي: إنَّه يجب أن أشكر حسن طالعي فقط - بعبارةٍ أخرى، أنّه لا يوجد أحدٌ لأشكره - ولكن هذا ما أؤمن به؛ لا يوجد كائنٌ مقصودٌ في هذه الحالة يتمُّ التعرُّف عليه على أنّه أنت.

افترض بدلاً من ذلك أنّني كنت مقتنعاً بأن لديَّ مساعداً سرّيّاً، لكنَّ هذا المساعد لم يكن أنت، بل كاميرون دياز، سيكون بالتأكيد مضللاً أن أقول: إنَّك كنت موضع امتناني، عندما كتبت رسائل شكرٍ لها، وقدرتها بمحبَّة، وتعجَّبت من كرمها لي. على الرَّغم من أنَّك كنت في الواقع من قام بالأعمال التي أنا ممتنٌّ لها للغاية. ثمَّ افترض أنّني بدأت بالتدرّج في الشكّ بأنّني كنت جاهلاً ومخطئاً، وفي النهاية توصَّلت إلى الإدراك الصحيح أنَّك كنت بالفعل المتلقّي المناسب لامتناني، ألن يكون غريباً بالنسبة لي أن أصف الأمر على هذا النحو: «الآن أفهم: أنت كاميرون دياز!» سيكون من الغريب حقّاً، سيكون خطأً - ما لم يحدث شيءٌ آخر في غضون ذلك. لنفترض أنَّ معارفي قد اعتادوا على مديحي لكاميرون دياز وأعمالها السخيَّة، لدرجة أصبح اسمها بالنسبة لي ولهم، يرمز لأيّ شخصٍ مسؤولٍ عن سعادتي، في هذه الحالة، لن يعود لهذه الكلمات استخدامها أو معناها الأصلي، بل ستتحول الكلمات، «كاميرون دياز»، التي يُزعم أنّها اسمٌ مناسبٌ لفردٍ حقيقي، بشكلٍ تدريجي وغير محسوس - إلى نوعٍ من التعبير الذي يشير إلى جوكر، «اسم» الشخص المسؤول (أو أيّاً كان) عن كل ما أنا ممتنٌّ له، ولكن إذا كان الاسم غير محدد حقّاً بهذه الطريقة، فعندما أشكر «حسن طالعي»، فإنَّني أشكر الشيء نفسه تماماً عندما أشكر «كاميرون دياز» - وأنت تتحوَّل إلى كاميرون دياز. تبيَّن أنَّ نجمة الصباح هي نجمة المساء (كيف تحوّل ملحداً إلى مؤمنٍ عن طريق العبث بالكلمات؟ إذا كان «الله» مجرَّد اسمٍ لأيّ شيء أنتج المخلوقات كلّها، كبيرها وصغيرها، إذن قد يتحوَّل الله إلى عمليَّة تطوُّرٍ بواسطة الانتقاء الطبيعي).

لقد تمَّ استغلال هذا الغموض منذ أن أنشد صاحب المزمور عن الأحمق، فالأحمق لا يعرف ما الذي يتَّحدث عنه عندما يقول في قلبه: إنَّه لا يوجد إله، لذلك فهو جاهلٌ بالطريقة نفسها التي يجهل بها أيُّ شخصٍ يعتقد أنَّ شكسبير لم يكتب هاملت بالفعل (شخصٌ ما فعل ذلك؛ إذا كان شكسبير هو بالتعريف مؤلِّف هاملت، فربَّما يكون مارلو هو شكسبير، إلخ). عندما يكتب النَّاس كتباً عن «تاريخ الله» (Armstrong، 1993؛ Stark، 2001؛ Debray، 2004، are أمثلة حديثة)، فإنَّهم يكتبون بالفعل عن تاريخ مفهوم الله، بالطبع، يتتبَّعون الموضات والخلافات حول الله كشيءٍ مقصودٍ عبر القرون.

يمكن أن يكون هذا المسح التَّاريخيُّ محايداً من ناحيتين: يمكن أن يكون محايداً بشأن أيِّ مفهومٍ لله هو الصحيح (هل كتب شكسبير هاملت، أم هل كتب مارلو هاملت؟)، ويمكن أن يكون محايداً بشأن ما إذا كان المشروع بأكمله يتعلَّق بالحقيقة أو الخيال (هل نحن جنود شارع بيكر غير النظاميين، أم أنَّنا نحاول التعرُّف على قاتلٍ حقيقي؟).

يستهل رودني ستارك مقدمة كتابه «إلهٌ حقيقيٌّ واحد- العواقب التَّاريخيَّة للتوحيد» بمقطعٍ يلمّح إلى هذا الغموض:

تفترض جميع الحركات الدينيَّة التوحيديَّة العظيمة أنَّ إلهها فاعلٌ عبر التَّاريخ، وأنا أخطط لإثبات أنَّهم، على الأقلّ من الناحية الاجتماعيَّة، محقّون تماماً في أنَّ قدراً كبيراً من التَّاريخ - الانتصارات والكوارث- تمَّ صنعه نيابةً عن الله، ما الذي يمكن أن يكون أكثر وضوحاً؟ [2001، ص. 1]

يوحي عنوانه بأنَّه ليس محايداً - إلهٌ واحدٌ حقيقي - ولكنَّ الكتاب بأكمله مكتوبٌ «بمنظورٍ اجتماعي»، ممَّا يعني أنَّه لا يتعلَّق بالله، بل يتعلَّق بالأشياء المقصودة التي تقوم بكلِّ الإلغاء السياسي والنفسي، ربَّما يكون إله الكاثوليك، أو إله اليهود، أو إله المراهقين الذين يعيشون في اسكتلندا. من الواضح حقَّاً أنَّ الله قد لعب دوراً قويَّاً كشيءٍ مقصود، لكن هذا لا يقول شيئاً عمَّا إذا كان الله موجوداً، ومن المخادع أن يختبئ ستارك وراء الغموض. لم يكن تاريخ الخلاف كلّه مجرَّد تسليةٍ جيّدة، في نهاية المطاف، مثل جنود شارع بيكر غير النظاميين

في مقابل نادي بيري مايسون، لقد مات النَّاس من أجل نظريَّاتهم.

قد يكون ستارك محايداً، لكنَّ الممثل الكوميدي ريتش جيني ليس كذلك، فالحرب الدينيَّة، كما يراها، مثيرةٌ للشفقة: «إنَّكم تقتلون بعضكم البعض بشكلٍ أساسي لكي تعرفوا من منكم لديه الصديق الخياليُّ الأفضل». ما رأي ستارك في ذلك، وما هو رأيك، هل من الصواب- بل من الإلزامي- النضال من أجل مفهوم، سواءً أكان المفهوم يشير إلى شيءٍ حقيقي أم لا؟ في النهاية، يمكن للمرء أن يضيف: ألم يجلب لنا الصراع جائزةً من الفن والأدب العظيمين، في سباق التسلُّح للتمجيد التنافسي؟

أجد أنَّ بعض النَّاس الذين يعدُّون أنفسهم مؤمنين، هم في الواقع يؤمنون بمفهوم الله فقط، أنا شخصيَّاً أعتقد أنَّ المفهوم موجودٌ- كما يقول ستارك، ما الذي يمكن أن يكون أكثر وضوحاً؟ بالإضافة إلى ذلك، يعتقد هؤلاء الأشخاص أنَّ المفهوم يستحقُّ القتال من أجله. لاحظ أنَّهم لا يؤمنون بالإيمان بالله! إنَّهم حذقون للغاية بالنسبة لذلك؛ إنَّهم مثل جنود شارع بيكر غير النظاميين، الذين لا يؤمنون بالإيمان بشيرلوك هولمز، ولكن فقط بالدراسة وتمجيد العلم، إنَّهم يعتقدون أنَّ مفهومهم عن الله أفضل بكثيرٍ من المفاهيم الأخرى عن الله، لدرجة أنَّهم يجب أن يكرّسوا أنفسهم لنشر الكلمة، لكنَّهم لا يؤمنون بالله بالمعنى القوي.

بحكم التعريف، قد يعتقد المرء أنَّ المؤمنين يؤمنون بالله (الإلحاد هو إنكار الإيمان بالله)، ولكن هناك أملٌ ضئيلٌ في إجراء تحقيقٍ فعَّال في مسألة ما إذا كان الله موجوداً، عندما يكون هناك مؤمنون يصفون أنفسهم بأنَّهم مؤمنون «يعتقدون أنَّ تقديم أخلاقيَّاتٍ إيمانيَّةٍ مرضية يتطلَّب التخلِّي عن فكرة أنَّ الله نوعٌ من كينونةٍ خارقةٍ للطبيعة «(Ellis، 2004)، وإذا لم يكن الله نوعاً من الكينونة الخارقة للطبيعة، فمن يدري ما إذا كنت أنت أو أنا نؤمن به (هو؟). الإيمان بـ شيرلوك هولمز، بيغاسوس، السحرة على عصا المكنسة - هذه هي الحالات السهلة، ويمكن فهمها بسهولةٍ مع القليل من الاهتمام بالتفاصيل، لكن من ناحيةٍ أخرى، عندما يتعلَّق الأمر بالله، لا توجد طريقةٌ مباشرةٌ للتغلُّب على ضباب سوء الفهم للوصول إلى إجماعٍ حول الموضوع قيد النظر، وهناك أسبابٌ مثيرةٌ للاهتمام تجعل النَّاس يقاومون فرض

تعريفٍ محدَّدٍ لله عليهم (حتَّى من أجل الجدل). إنَّ ضباب عدم الفهم وفشل الاتصال ليست مجرَّد عوائق مزعجةٍ للدَّحض الصارم، هي نفسها سماتٌ تصميميَّةٌ للأديان تستحقُّ النظر إليها عن كثبٍ بحدِّ ذاتها.

3- تقسيم العمل العقائدي:

"زيِّفه ريثما تفهمه"- مدمنو الكحول المجهولون

«إذن، لدينا ظاهرةٌ غريبة، كما يؤكِّد لنا كانط، تتمثَّل في عقلٍ يؤمن بكلِّ قوَّته في الحضور الحقيقي لمجموعةٍ من الأشياء التي لا يستطيع أحدٌ تكوين أيِّ فكرةٍ عنها إطلاقاً» - وليام جيمس، أصناف التجربة الدينيَّة

تمنحنا اللغة العديد من العطايا، بما في ذلك القدرة على الحفظ، والنقل، والاعتزاز، وحماية الصيغ التي لا نفهمها بشكلٍ عام. إليكم جملةً أعتقد اعتقاداً راسخاً بصحَّتها:

(1) Her insan doğar، yaşar، ve ölür.، مكتوبة باللغة التركيَّة.

ليست لديَّ أدنى فكرةٍ عمَّا تعنيه العبارة رقم (1)، لكنَّني أعلم أنَّها صحيحة، لأنَّني طلبت من زميلٍ تركي موثوق به أن يزوِّدني بجملةٍ صحيحةٍ لهذا الغرض فقط.

أودُّ أن أراهن بمبلغٍ كبيرٍ من المال على صحَّة هذه الجملة - وهذا يدلُّ على مدى تأكُّدي من صحَّتها، لكن كما أقول: لا أعرف ما إذا كانت العبارة (1) تتحدَّث عن الأشجار، أم النَّاس، أم التَّاريخ، أم الكيمياء، أم الله؟ لا يوجد شيءٌ غريبٌ أو صعبٌ أو غير لائقٍ أو محرج من الناحية الميتافيزيقيَّة في حالتي الذهنيَّة. أنا فقط لا أعرف ما هو المعنى الذي تحمله هذه الجملة، لأنَّني لست «خبيراً» في اللغة التركيَّة. في الفصل السابع، لاحظت المشكلات المنهجيَّة التي تواجه علماء الأنثروبولوجيا العازمين على فهم الثقافات الأخرى، واقترحت أنَّ جزءاً من المشكلة هو أنَّ المُخبِرين الأفراد قد لا يعدُّون أنفسهم خبراء في العقائد التي يُطلب منهم توضيحها. تتفاقم المشكلات التي تنشأ بسبب مثل هذه «الأفكار غير المفهومة»

في حالة العقائد الدينيَّة، ولكنّ غالباً ما تواجه مثل هذه المشكلات في العلم كما في الدين. وهنا، كما يمكن للمرء أن يقول: هذا هو التقسيم النهائيُّ للعمل، تقسيم العمل العقائدي، الذي أصبح ممكناً عن طريق اللغة: نحن عامَّة النَّاس نقوم بالإيمان - نوقِّع على عقيدة الله - ونُحيل أمر فهم هذه العقائد للخبراء!.

ضع في حسبانك الصيغة الطلسميَّة النهائيَّة للعلم:

$$e = mc^2 \ (2)$$

هل تعتقد أنَّ $e = mc^2$؟ أنا أعتقد بذلك.

نعلم جميعاً أنَّ هذه هي معادلة أينشتاين العظيمة، ولبُّ نظريَّته النسبيَّة، والكثير منَّا يعرف ما تعنيه الأحرف e وm وc، ويمكنه حتَّى العمل على العلاقات الجبريَّة الأساسيَّة واكتشاف الأخطاء الواضحة في تفسيرها، لكنَّ نسبةً ضئيلةً ممَّن يعرفون أنَّ «$e = mc^2$» هي حقيقةٌ أساسيَّةٌ في الفيزياء، يفهمونها فعليّاً بطريقةٍ جوهريَّة، ولحسن الحظ، لا يتعيَّن على بقيَّتنا فعل ذلك؛ لدينا علماء فيزيائيُّون خبراء أحلنا إليهم بامتنان المسؤوليَّة لفهم الصيغة، لذا فإنَّ ما نقوم به في هذه الحالات ليس هو الإيمان بالفرضيَّةِ حقّاً، لذلك عليك أن تفهم الفرضيَّة. ما نقوم به هو الإيمان بأنَّه أيّاً تكن هذه الفرضيَّة المعبَّر عنها بالصيغة «$e = mc^2$» فهي صحيحة.

الفرق بالنسبة لي بين (1) و (2) هو أنَّني أعرف الكثير - لكن ليس بما يكفي! - ما تدور حوله العلاقة (2)، ففي الفضاء اللامتناهي لجميع الافتراضات الممكنة، يمكنني تضييق معناها إلى مجموعةٍ ضيّقةٍ إلى حدٍّ ما من المتغيّرات المتطابقة تقريباً.

ربَّما يمكن لعالمٍ فيزيائي أن يجعلني أرتكب خطأً عن طريق إقناعي بتأييد إعادة صياغةٍ صحيحةٍ تقريباً من شأنها أن تكشف جهلي (هذا ما يمكن أن تفعله اختبارات الخيارات المتعدّدة الصعبةِ حقّاً، حيث تفصل الطلَّاب الذين يفهمون المادة حقّاً عن أولئك الذين لا يفهمونها إلَّا نوعاً ما) وبالنسبة للعبارة (1)، فإنَّ كلَّ ما أعرفه هو أنَّها تعبّر عن واحدةٍ من الافتراضات الحقيقيَّة - تقليص المساحة اللانهائيَّة من الافتراضات إلى النصف، مع ترك

العديد من الافتراضات اللانهائيَّة غير القابلة للتمييز من قبلي كأفضل تفسيرٍ لها (يمكنني أن أُخمن أنَّ الأمر ربما لا يتعلَّق بكيفيَّة فوز فريق ريد سوكس على فريق يانكيز أربع مرَّاتٍ متتالية للفوز ببطولة الدوري الأمريكي في أكتوبر 2004، لكنَّ مثل هذا التقلُّص لا يقدّم لنا الكثير).

لقد قدَّمت مثالاً من العلم لأظهر أنَّ هذا ليس ضعفاً محرجاً للاعتقاد الديني وحده، فحتَّى العلماء يعتمدون يوميَّاً على الصيغ التي يعرفون أنَّها صحيحة، ولكنَّهم ليسوا خبراء في التفسير، بل إنَّهم في بعض الأحيان يعزّزون الفصل بين الفهم والحفظ. ويمكن العثور على مثالٍ حي في المحاضرات التمهيديَّة الكلاسيكيَّة لريتشارد فاينمان حول الديناميكا الكهربائيَّة الكميَّة، QED: The Strange Theory of Light and Matter (1985)، والتي يدعو فيها جمهوره بشكلٍ طريف إلى الاسترخاء، وعدم محاولة فهم الطريقة التي يُدَرِّسُها:

"أنت تعرف الآن ما الذي سأتحدَّث عنه، السؤال التالي هو: هل ستفهم ما سأخبرك به؟ لا، لن تكون قادراً على فهم ذلك، لماذا إذن سأزعجك بكلِّ هذا، لماذا ستجلس هنا طوال هذا الوقت، بينما لن تكون قادراً على فهم ما سأقوله؟ مهمَّتي هي إقناعك بعدم الابتعاد، لأنَّك لا تفهم ذلك، وكما ترى، طلَّاب الفيزياء لديَّ لا يفهمونها أيضاً، هذا لأنَّني لا أفهم ذلك. لا أحد يفعل، إنَّها مشكلةٌ تعلَّم الفيزيائيُّون التعامل معها، لقد تعلَّموا أن يدركوا أنَّ سؤال ما إذا كانوا يحبُّون النظريَّة أو لا يحبُّونها، ليس هو السؤال الأساسي. بل هو ما إذا كانت النظريَّة تعطي تنبُّؤاتٍ تتَّفق مع التجربة أم لا، إنَّها ليست مسألة ما إذا كانت النظريَّة مبهجةً من الناحية الفلسفيَّة، أو سهلة الفهم، أو معقولةً تماماً من وجهة نظر الفطرة السليمة....، من فضلك لا تفقد اهتمامك لأنَّك لا تصدّق أنَّ الطبيعة غريبةٌ جدَّاً، فقط اسمعني إلى النهاية، وآمل أن تكون سعيداً مثلي عندما ننتهي". [ص. 9-10]

يتابع لوصف طرق حساب السعات الاحتماليَّة بعباراتٍ تثبّط الفهم عمداً – «سيكون عليك أن تستعدَّ لهذا – ليس لأنَّه من الصعب فهمه، ولكن لأنَّه أمرٌ مثيرٌ للسخرية تماماً: كلُّ ما نفعله هو رسم أسهمٍ صغيرةٍ على قطعةٍ من الورق – هذا كلُّ شيء!» (ص. 24) – لكنَّه

يدافع عن هذا لأنَّ النتائج التي تسفر عنها الطرق دقيقةٌ للغاية:

"لإعطائك فكرةً عن دقَّة هذه الأرقام، فإنَّ النتيجة ستشبه شيئاً مثل هذا؛ إذا كنت ستقيس المسافة من لوس أنجلوس إلى نيويورك بهذه الدقَّة، فإن هامش الخطأ في القياس لن يتجاوز مقدار سماكة شعرة إنسان، هذه هي الطريقة التي تمَّ بها التحقّق من الديناميكا الكهربائيَّة الكميَّة بدقَّة في الخمسين عاماً الماضية، نظريَّاً وتجريبيَّاً"(ص 7).

وهذا هو الاختلاف الأكثر أهميَّة بين تقسيم العمل في الدين والعلم، فعلى الرَّغم من إنكار فاينمان المفرط بشكلٍ غير معهود، فإنَّ الخبراء يفهمون الأساليب التي يستخدمونها – ليس كلَّ شيءٍ عنها– ولكن ما يكفي لشرح لماذا تعطي نتائج دقيقةً بشكلٍ مذهل لبعضهم البعض ولأنفسهم. فقط لأنَّني واثقٌ من أنَّ الخبراء يفهمون الصيغ حقَّاً، يمكنني التنازل لهم بصدق ومن دون خجل عن مسؤولية تحديد الافتراضات (وبالتالي فهمها). ومع ذلك، في الدين، لا يبالغ الخبراء عندما يقولون إنَّهم لا يفهمون ما يتحدَّثون عنه. يتم التأكيد على اللافهم الأساسي لله بوصفه عقيدة إيمان مركزية، وتُعلَن الافتراضات ذاتها باعتبارها محيّرة للجميع بشكل منهجي، وعلى الرَّغم من أنَّنا يمكن أن نُسايّر الخبراء عندما ينصحوننا بالجمل التي نقول إنَّنا نؤمن بها، إلَّا أنَّهم يصرُّون أيضاً على أنَّهم لا يستطيعون استخدام خبراتهم ليثبتوا – حتَّى لبعضهم البعض – أنَّهم يعرفون ما الذي يتحدَّثون عنه. هذه الأمور غامضةٌ للجميع، للخبراء والأشخاص العاديين على حدٍّ سواء، إذاً، فلماذا يُسايّر أيُّ شخصٍ ذلك؟ الجواب واضح: الإيمان بالإيمان.

يؤمن كثير من النَّاس بالله، ويؤمن آخرون بالإيمان بالله، ما الفرق؟ النَّاس الذين يؤمنون بالله على يقينٍ من وجود الله، وهم سعداء، لأنَّهم يرون الله أروع الأشياء إطلاقاً، الأشخاص الذين يؤمنون بالإضافة إلى ذلك بالإيمان بالله على يقينٍ من وجود الإيمان بالله (ومن يمكنه الشكُّ في ذلك؟)، ويعتقدون أنَّ هذه حالةٌ جيّدة، وهو أمرٌ يجب تشجيعه وتعزيزه بقوَّةٍ حيثما كان ذلك ممكناً: لو كان الإيمان بالله أكثر انتشاراً، ينبغي على المرء أن يؤمن بالله، ينبغي عليه أن يجاهد ليؤمن بالله، يجب أن يكون المرء متضايقاً، ويتَّخذ موقفاً دفاعيَّاً، وأن يشعر بالنقص

والذنب، إنْ وجد أنَّه لا يؤمن بالله، إنَّه فَشَل، لكنَّه يحدث.

من الممكن تماماً أن تكون ملحداً وأن تؤمن بالإيمان بالله، مثل هذا الشخص لا يؤمن بالله، ولكنَّه مع ذلك يعتقد أنَّ الإيمان بالله سيكون حالةً ذهنيَّةً رائعة، فقط إن أمكن ترتيب ذلك، على الرَّغم من ذلك يحاول الأشخاص الذين يؤمنون بالإيمان بالله حمل الآخرين على الإيمان بالله، وكلَّما وجدوا إيمانهم بالله واهناً، فإنَّهم يبذلون قصارى جهدهم لاستعادته.

من النادر – ولكنَّه ممكن- أن يؤمن النَّاس بشيءٍ ما، بينما يندمون على إيمانهم به، إنَّهم لا يؤمنون بإيمانهم! (لو وجدت أنَّني أؤمن بشخصيَّات الأرواح الشريرة أو وحش بحيرة لوخ نيس، سأكون محرجا تماماً، سأعدّها أحد أسراري الصغيرة القذرة والتي أتمنّى لو لم تكن موجودة، وسأكون سعيداً إن لم يعرفها أحد! قد أتّخذ خطواتٍ لمعالجة نفسي من هذا النتوء غير الملائم في إنطولوجيَّتي العقلانيَّة والصارمة بشكلٍ لا تشوبه شائبة). يستيقظ النَّاس أحياناً فجأةً على حقيقة أنَّهم عنصريُّون أو متحيّزون جنسيَّاً، أو أنهم فقدوا حبَّهم للديمقراطيَّة، لا أحد منَّا يريد اكتشاف هذه الأشياء عن نفسه، لدينا جميعاً مُثلٌ عليا يمكننا من خلالها قياس المعتقدات التي نكتشفها في أنفسنا، ولطالما كان الإيمان بالله أحد أكثر المُثلِ العليا بروزاً للعديد من النَّاس لفترةٍ طويلة.

على العموم، إذا كنت تؤمن ببعض المقولات، فأنت تعتقد أيضاً أنَّ أيَّ شخصٍ لا يؤمن بها مخطئ، وعموماً، يكون الأمر سيّئاً للغاية عندما يكون النَّاس مخطئين أو غير مطَّلعين أو جاهلين، وعموماً أيضاً، سيكون العالم مكاناً أفضل إذا شارك النَّاس المزيد من الحقائق وآمنوا بعدد أقلَّ من الأكاذيب، لهذا السبب لدينا تعليم وحملات إعلاميَّةٌ عامَّة وصحف وما إلى ذلك.

هناك استثناءات – أسرار استراتيجيَّة، على سبيل المثال، الحالات التي أؤمن فيها بشيءٍ ما وأكون ممتنَّاً لعدم مشاركة شخصٍ آخر لاعتقادي، قد تكمن بعض المعتقدات الدينيَّة ضمن أسرارٍ خاصَّة، ولكنَّ النمط السائد بالنسبة للنَّاس أنَّ المعتقدات الدينيَّة ليست للمشاركة فقط، ولكن لمحاولة إقناع الآخرين، وخاصَّة أطفالهم.

4- القاسم المشترك الأصغر:

«الله عظيم لدرجة أنَّ العظمة تمنع الوجود» - رايموندو بانيكار، صمت الله

«إنَّه الدليل الأخير على قدرة الله المطلقة، أنَّه ليس بحاجةٍ إلى الوجود من أجل خلاصنا» -خطبة من القس ماكريل - مفرط الليبراليَّة، بطل ساحة الماكريل، بقلم بيتر دي فريس

«الكنيسة المجاهدة والكنيسة المنتصرة أصبحتا كنيسةً اجتماعيَّة وكنيسةً غربيَّة» —روبرت بنسون، اتصالات شخصيَّة، 1960

يؤمن كثير من النَّاس بالله، فيما يعتقد الكثير من النَّاس بالإيمان بالله! (يمكننا أن نكون على يقين تامّ من أنَّه نظراً لأنَّ كلَّ شخصٍ يؤمن بالله، ويؤمن أيضاً بالإيمان بالله، فهناك في الواقع عددٌ أكبر من الأشخاص الذين يؤمنون بالإيمان بالله أكثر من أولئك الذين يؤمنون بالله)، ويعجُّ الأدب العالمي - بما في ذلك عظاتٍ ومواعظ لا تُحصى - بقصص أناسٍ يمزقهم الشكّ ويأملون في استعادة إيمانهم بالله.

لقد رأينا للتو أنَّ مفهومنا عن الإيمان يسمح بوجود اختلافٍ تجريبي واضح بين هاتين الحالتين الذهنيتين، ولكن هنا ينبثق سؤال محيّر: من بين جميع الأشخاص الذين يؤمنون بالإيمان بالله، ما هي النسبة المئويَّة (بشكلٍ تقريبي) لأولئك الذين يؤمنون حقاً بالله؟ تبيَّن أنَّ التحقيق في هذا السؤال التجريبي صعبٌ للغاية، لماذا؟

في البداية يبدو الأمر كما لو كان بإمكاننا ببساطة إعطاء النَّاس استبياناً به سؤالٌ متعدّد الخيارات:

أنا أؤمن بالله: ــــــ نعمــــــــــــــــ لا ـــــــــــ لا أعرف

أم يجب أن يكون السؤال:

الله موجود: ـــــنعمـــــــــــــــ لا ـــــــــ لا اعرف

هل ستحدث كيفيَّة صياغة الأسئلة أيَّ فرقٍ في الإجابات؟

(لقد بدأت في إجراء بحثٍ حول مثل هذه الأسئلة، وكانت النتائج مستفزَّة، ولكن لم يتمُّ تأكيدها بما يكفي لنشرها).

المشكلة الرئيسة في مثل هذه المقاربة البسيطة واضحة، فبالنظر إلى الطريقة التي تمَّ بها تصميم المفاهيم والممارسات الدينيَّة، فإنَّ السلوكيَّات التي قد تكون دليلاً واضحاً على الإيمان بالله هي أيضاً سلوكيَّاتٌ يمكن أن تكون دليلاً واضحاً على الإيمان (فقط) بالإيمان بالله، وإذا كان أولئك الذين لديهم شكوكٌ قد أُمِروا من قبل كنيستهم - بأن يعلنوا إيمانهم بالرَّغم من شكوكهم- أن يقولوا الكلمات بأكبر قدرٍ ممكنٍ من الاقتناع بصورةٍ متكررة، على أمل ترسيخ القناعة للتكاتف وتلاوة قانون الإيمان الخاصّ بعقيدتهم، الصلاة عدَّة مرَّاتٍ في اليوم في الأماكن العامَّة، القيام بكلّ الأشياء التي يقوم بها المؤمن، ثمَّ يضعون إشارةً في خانة «نعم» بحذر، على الرَّغم من أنَّهم في الحقيقة لا يؤمنون بالله؛ يؤمنون بشدَّةٍ بالإيمان بالله، تجعل هذه الحقيقة من الصعب معرفة من يؤمن بالله فعلاً، بالإضافة إلى الإيمان بالإيمان بالله.

بفضل تقسيم العمل، فإنَّ الأمر في الواقع أسوأ من ذلك، ربما كما قد تكون فَهِمْتَ بالفعل، قد تجد أنَّك عندما تنظر إلى قلبك، فإنَّك ببساطة لا تعرف ما إذا كنت أنت نفسك تؤمن بالله، عن أيّ إلهٍ نتحدَّث؟ ما لم تكن خبيراً ومتأكّداً من فهمك للصيغ التي تعبّر رسميَّاً عن مقولات عقيدتك، فلا بد أن أن تكون حالتك الذهنيَّة في مكانٍ ما في الوسط بين حالتي الذهنيَّة فيما يتعلَّق بـالعبارة (1) (الجملة باللغة التركية)، وحالتي الذهنيَّة فيما يتعلَّق بـالعبارة (2) (صيغة أينشتاين). أنت لست جاهلاً مثلي بخصوص العبارة (1)؛ لقد دَرَسْتَ وربَّما حَفِظْتَ الصيغ الرسميَّة، وتعتقد أنَّ هذه الصيغ صحيحةٌ (مهما كانت تعني)، لكن عليك أن تعترف بأنَّك لا تملك سلطةً على ما تعنيه. يجد العديد من الأمريكيين أنفسهم في هذا الموقف، كما لاحظ ذلك آلان وولف في كتابه «تحوُّل الدين الأمريكي- كيف نعيش إيماننا فعليَّاً»، استطلاعه الأخير للتطوُّرات في الدين الأمريكي: هؤلاء هم الأشخاص الذين يؤمنون بالله، غالباً بشغف، حتَّى لو لم يتمكَّنوا من إخبار الآخرين بالكثير عن الإله الذي يؤمنون

به « (2003، ص 72). إذا كنت تندرج ضمن هذه الفئة، فيجب أن تعترف - على عكس الطريقة التي وضعها وولف- أنَّه على الرَّغم من أنَّك قد تكون واحداً من أولئك الذين يؤمنون بالإيمان بالله، إلَّا أنَّك لست في وضعٍ جيِّدٍ للحكم على ما إذا كنت بالفعل تؤمن (بشغفٍ أو غير ذلك) بإله عقيدتك الخاصَّة، أو بإلهٍ آخر (ومن شبه المؤكَّد أنَّك لم تخضع أبداً لاختبارٍ قاسٍ متعدِّد الخيارات، لمعرفة ما إذا كان بإمكانك التمييز بموثوقيَّةٍ بين مفهوم الخبير بالله، وبين المحتالين البارعين الذين يكاد يكونون على حق).

بدلاً من ذلك، يمكنك تعيين نفسك كسلطةٍ خاصَّةٍ بك: «أعرف ما أعنيه عندما أنطق بنصوص قانون الإيمان الخاصّ بي، وهذا جيِّدٌ بما يكفي بالنسبة لي!» وهذا جيِّدٌ بما يكفي - هذه الأيّام - لعددٍ مذهلٍ من الأديان المنظَّمة أيضاً. لقد أدرك قادتها أنَّ قوَّة المؤسَّسة الدينيَّة لا تعتمد على توحيد الإيمان إطلاقاً، بل تعتمد على توحيد الاعتراف، ولطالما كانت هذه سمةً لبعض سلالات اليهوديَّة: قم بتزييفه ولا تهتمَّ فيما إذا فهمته (كما قال لي تلميذي Uriel Meshoulam ذات مرَّةٍ بوضوح). الاعتراف بأن مجرد فكرة أمر شخص ما بالإيمان بشيء ما غير متماسكة في ظاهرها، هو دعوة إلى عدم الصدق أو خداع الذات.

ترفض العديد من الطوائف اليهوديَّة المطالبةَ بالأرثوذكسيَّة، الإيمان الصحيح، وتكتفي بالأرثوبراكسية[1]، فبدلًا من خلق جيوبٍ سّريَّةٍ من الشكِّ المتفاقم بالذنب، فإنهَّم يمارسون فضيلة الشكِّ الصريح المعبَّرِ عنه باحترام.

طالما أنَّ الصيغ تنتقل عبر العصور، فإنَّ الميمات ستبقى وتزدهر، لقد تمَّ تبنّي الموقف نفسه مؤخَّراً من قبل العديد من الطوائف المسيحيَّة الإنجيليَّة، وخاصَّةً الظاهرة الجديدة المزدهرة لـ«الكنائس الضخمة» «mega-churches»، والتي كما يصفها وولف بشيءٍ من التفصيل، تبذل قصارى جهدها لمنح أعضائها مساحةً كبيرةً التفسيرات الشخصيَّة للكلمات

(1) الأرثوبراكسيَّة: هو مصطلح يشير إلى السلوك الصحيح، الأخلاقي والشعائري، في مقابل الإيمان أو النِعَم الإلهية إلخ، وهو يتناقض مع الأرثوذكسيَّة التي تؤكد على الاعتقاد الصحيح، وممارسة الشعائر، والمصطلح «Orthopraxy» هو كلمة مركَّبة تعني «الممارسة الصحيحة».

التي يزعمون أنّها مقدّسة. يميّز وولف بشكلٍ حادّ بين الإنجيليّة والأصوليّة، التي «تميل إلى أن تكون أكثر انشغالاً بمسائل الجوهر اللاهوتي»، ويهدف استنتاجه إلى أنْ يكون مُطَمْئِناً:

لكنَّ أولئك الذين يخشون عواقب عودة المعتقد الديني القوي إلى الولايات المتحدة، يجب ألّا ينخدعوا بالنمو السريع للإنجيليّة، على العكس من ذلك، فإنَّ شعبيَّة الإنجيليَّة ترجع إلى حدٍّ كبير إلى إلحاحها الشعبويّ والديمقراطيّ - عزمها على معرفة ما يريده المؤمنون بالضّبط وتقديمه لهم - كما هو الحال بالنسبة إلى يقين الإيمان. [2003، ص. 36]

يوضّح وولف أنَّ نهج التسويق الصريح لستارك وفينكي ليس غريباً إطلاقاً عن الزعماء الدينيين أنفسهم، ويلاحظ دون سخرية بعض التنازلات التي هم على استعداد لتقديمها للثقافة العلمانيَّة المعاصرة، أو التنازلات التي تتجاوز مواقع الويب والبرامج التلفزيونيَّة ذات الميزانيَّات الضخمة، أو إدخال الجتيار الكهربائي، والطبول، والعروض التقديميَّة power point في قداديسهم. على سبيل المثال، يتمُّ تجنُّب مصطلح «حرم - sanctuary» من قبل كنيسةٍ واحدة «بسبب دلالاته الدينيَّة القويَّة» (ص 28)، ويتمُّ إيلاء المزيد من الاهتمام لتوفير الكثير من مواقف السيَّارات المجّانيَّة ومجالسة الأطفال أكثر مما يتم إيلائه للتفسير الصحيح لمقاطع الكتاب المقدَّس. أجرى وولف العديد من المقابلات الاستقصائيَّة مع مُخبِريه، وقد أظهروا أنّه غالباً ما يكون من الصعب تمييز مراجعة التقاليد عن الرفض الصريح لها، صاغ هؤلاء المهندسون الميميُّون مصطلحاً ساخراً لوصف الصورة التي يحاولون جاهدين التخلُّص منها: «الحالة الكنسيَّة»[1] (ص 50).

في الواقع، يقول لارس Lars وآن An، مثل العديد من الإنجيليين في جميع أنحاء البلاد: إنَّ الإيمان مهمٌّ جدّاً بالنسبة لهما، لدرجةٍ أنّه لا يمكن السماح لـ «الدين» - الذي يربطانه بالشقاق أو الخلاف ومن ثمَّ بالعقيدة، بالتدخُّل في ممارسته (ممارسة الإيمان). [ص. 73]

ليس هناك من ينكر نتائج هذه الخبرة التسويقيَّة، تضمُّ كنيسة Calvary Chapel الخاصَّة

---

(1) "churchianity"

بالقس تشاك سميث أكثر من ستمائة كنيسة، بعضها يضمُّ عشرة آلافٍ من المصلّين في الأسبوع (وولف، 2003، ص 75)، فيما تضمُّ كنيسة World Changers التابعة للدكتور كريفلو دولار خمسةً وعشرينَ ألف عضو، «لكنَّ ثلاثين في المائة منهم فقط كانوا من دافعي العشر المنتظمين» (Sanneh، 2004، p. 48).

وفقاً لـ وولف: «تواجه ديانات أمريكا كلّها الحتميَّة نفسها، فإمّا أن تضفي طابعاً شخصيّاً عليها أو تموت، كلٌّ منها يفعل ذلك بطريقةٍ مختلفة» (ص 35)، قد يكون على حقّ، لكنَّ حجَّته لهذا الاستنتاج الكاسح سطحيَّةٌ وسرديَّة، وعلى الرَّغم من أنَّه لا يمكن أن يكون هناك شكٌّ في أنَّ الظواهر التي يصفها موجودة، فإنَّ السؤال عمّا إذا كانت ستصبح سماتٍ دائمةً للدين من الآن فصاعداً، أم أنَّها بدعةٌ عابرة، سؤال يستدعي نظريَّةً قابلةً للاختبار، وليس مجرَّد مجموعةٍ من الملاحظات، مهما كانت حسَّاسة، لذا مهما كانت قوتها الباقية وأسبابها، فإنَّ مثال الدين الذي «ليس له مصداقيَّة» (دعه يعمل) يتناقض بشكلٍ واضح مع التركيز العقائدي المستمرّ للكنيسة الكاثوليكيَّة الرومانيَّة.

5- معتقداتٌ مصمَّمة للاعتراف بها:

متسلّق الجبال الذي يتسلَّق بحماقةٍ بمفرده، ينزلق من الهاوية ليجد نفسه متدلّياً في نهاية حبل الأمان الخاصّ به، على ارتفاع ألف قدم فوق وادٍ، غير قادرٍ على تسلُّق الحبل أو التأرجح إلى مكانٍ آمنٍ للراحة، ينادي بيأس: «مرحباً، مرحباً! هل يمكن لأيّ شخصٍ مساعدتي؟» لدهشته، تنشقُّ الغيوم، ضوءٌ جيلٌ يتدفَّق من خلالها، وصوتٌ عظيمٌ يردّ: «نعم يا بني، يمكنني مساعدتك، خذ سكّينك واقطع الحبل!» يأخذ المتسلّق سكّينه، ثمَّ يتوقَّف ويفكّر ويفكّر، ثمَّ يصرخ: هل يستطيع شخصٌ آخر مساعدتي؟

وفقاً للحكمة القديمة، تتحدَّث الأفعال بصوتٍ أعلى من الكلمات، لكن في الواقع، لا تعني هذه الحكمة تماماً ما تقوله؛ أفعال الكلام هي أيضاً أفعال، والشخص الذي يقول، على سبيل المثال، أنَّ الكفَّار يستحقُّون الموت، يقوم بعملٍ قد تكون له آثارٌ مميتة، وقوله

مؤثّرٌ كتأثير الفعل، وبعد التأمُّل، فإنَّ ما تعنيه الحكمة هو أنَّ الأفعال بخلاف أفعال الكلام هي عادةً دليلٌ أفضل على ما يعتقده الممثّل حقّاً، أكثر من أيّ كلماتٍ قد يقولها. من السهل بمافيه الكفاية التشدّق بالكلام (المصطلح الرائع!)، ولكن عندما تعتمد العواقب الملموسة لأفعالك على ما إذا كنت تؤمن بشيءٍ ما - سواءٌ كنت تعتقد أنَّ البندقيّة محشوّة، أو إذا كنت تعتقد أنَّ الباب غير مقفل، وسواءٌ كنت تؤمن أنَّك غير مُراقب - يصبح التشدق بالكلام مرجعاً ضعيفاً يمحوه السلوك غير اللفظي - الذي يعبّر عن معتقداتك الحقيقيَّة- بسهولة.

وإليك حقيقةٌ مثيرةٌ للاهتمام: يتميز الانتقال من الدين الشعبي إلى الدين المنظم بتحول في المعتقدات من تلك التي لها عواقب واضحة وملموسة للغاية إلى تلك التي لها عواقب موارِبة بشكل منهجي. - إن التشدق بالكلام هو الطريقة الوحيدة التي يمكنك من خلالها التصرف بناء عليها

إذا كنت تعتقد حقّاً أنَّ إله المطر لن يوفّر المطر إلّا إذا ضحيّت بثور، فإنَّك ستضحّي بثورٍ إذا كنت تريدها أن تمطر، وإذا كنت تعتقد حقّاً أنَّ إله قبيلتك جعلك منيعاً أمام السهام، فأنت تتجه بسرعةٍ نحو سربٍ من السهام القاتلة للوصول إلى عدوك، وإذا كنت تؤمن حقّاً أنَّ إلهك سيخلصك، فتقطع الحبل، وإذا كنت تعتقد حقّاً أنَّ إلهك يراقبك ولا يريدك أن تمارس العادة السرّيَّة، فلن تمارس العادة السرّيَّة (لن تمارس العادة السرّيَّة إذا كانت والدتك تراقبك، فكيف يمكنك ممارسة العادة السرّيَّة إذا كان الله يراقبك، هل تعتقد حقّاً أنَّ الله يراقبك؟ ربَّما لا).

ولكن ماذا يمكنك أن تفعل لتظهر أنَّك تؤمن حقّاً أنَّ الخمر الموجود في الكأس قد تحوَّل إلى دم المسيح؟ يمكنك المراهنة على مبلغٍ كبير من المال، ثمَّ إرسال النبيذ إلى المختبر لمعرفة ما إذا كان يحتوي على الهيموغلوبين (واستعادة جينوم يسوع من الحمض النووي في الصفقة!).

باستثناء أنَّ العقيدة كانت محميَّةً بذكاء من مثل هذه الاختبارات الملموسة، فإنَّ إزالة النبيذ من الاحتفال سيكون تدنيساً للمقدَّسات، وإلى جانب ذلك، فإنَّ إخراج النبيذ من السياق المقدَّس من شأنه بالتأكيد أن يفقده جوهره، ويعيده إلى نبيذٍ عادي،

وهناك فعلٌ واحدٌ فقط يمكنك اتخاذه لإثبات هذا الاعتقاد: يمكنك القول إنَّك تؤمن به بشكلٍ متكرر، بقدر ما تتطلَّبه المناسبة.

لقد تمَّ التطرُّق إلى هذا الموضوع بطريقةٍ معبّرة في «دومينوس إيسوس»: عن وحدة يسوع المسيح والكنيسة وعالميَّته الخلاصيَّة»، الإعلان الذي كتبه الكاردينال راتزينغر (الذي انتُخِبَ لاحقاً باسم البابا بنديكتوس السادس عشر)، وصادق عليه البابا يوحنا بولس الثاني، في جلسة عامَّة في 16 حزيران 2000.

تحدّد هذه الوثيقة بصورةٍ متكررة ما يجب أن «يؤمن به الكاثوليك المؤمنون إيماناً راسخاً» (الخط المائل في النص الأصلي)، ولكن في عدَّة نقاط يغيّر الإعلان المصطلح، ويتحدَّث عمّا «يجب على المؤمنين الكاثوليك أن يعلنوا» (الخط المائل في النص الأصلي). بصفتي أستاذاً جامعياً، أجد أن استخدام هذا الفعل لا يقاوم. ما يشار إليه عموماً باسم «المعتقد الديني» أو «القناعة الدينيَّة» قد يُطلق عليه بشكلٍ أقلَّ تضليلاً اعترافاً دينيًّا، على عكس الأساتذة الأكاديميين، فإنَّ الأساتذة الدينيين (ليس فقط الكهنة، ولكن جميع المؤمنين) قد لا يفهمون أو يصدّقون ما يدَّعون، إنَّهم يعترفون فقط، لأنَّ هذا هو أفضل ما يمكنهم فعله، وهم مُطَالبون بالاعتراف. يستشهد الكاردينال راتزينغر برسالة بولس إلى أهل كورنثوس: «الكرازة بالإنجيل ليست سبباً يدعوني للتباهي به؛ إنَّها ضرورةٌ ملقاة على عاتقي، ويلٌ لي إن لم أبشّر بالإنجيل!» (1 كورنثوس 9:16).

على الرَّغم من أنَّ التشدُّق بالكلام مطلوب، إلَّا أنَّه لا يكفي، يجب أن تؤمن بشدَّة بما يجب عليك قوله. كيف يمكن إطاعة هذا الأمر؟ الاعتراف طوعي، لكنَّ الإيمان ليس كذلك، يتطلَّب المعتقد، عندما يتمُّ تمييزه عن الإيمان بأنَّ بعض الجمل تعبّر عن الحقيقة، الفهم، هو أمرٌ يصعب الحصول عليه، حتَّى من قبل الخبراء في هذه الأمور. لا يمكنك أن تجعل نفسك تصدّق شيئاً ما بالتكرار، فماذا تفعل؟ يقدّم إعلان الكاردينال راتزينغر بعض المساعدة في هذا الصدد: «الإيمان هو قبول نعمة الحقيقة الموحى بها، والتي «تجعل من الممكن إماطة اللثام عن اللغز بطريقةٍ تسمح لنا بفهمه بشكلٍ متماسك» [نقلاً عن الرسالة العامَّة ليوحنا

بولس الثاني العقل والإيمان "Fides et Ratio"، P13]، لذلك يجب أن تصدّق هذا، وإذا استطعت، فإنَّ الاعتقاد بهذا ينبغي أن يساعدك على الاعتقاد بأنَّك تفهم اللغز (حتَّى لو بدا لك أنَّك لا تفهمه)، ومن ثمَّ عليك أن تؤمن بشدَّةٍ مهما كان ما تقرُّ بأنَّك تؤمن به، لكن كيف تصدّق هذا؟ يتطلَّب ذلك الإيمان.

لماذا تحاول، ماذا لو لم تشارك شخصيّاً الإيمان بالإيمان بالعقيدة المعنيَّة؟ هذا هو المكان الذي يمكن أن تقدّم فيه وجهة النظر الميميَّة بعض التفسير، ففي مناقشته الأصليَّة للميمات، لاحظ دوكينز هذه المشكلة وحلَّها التقليدي: «يعتقد العديد من الأطفال وحتَّى بعض البالغين أنَّهم سيعانون من عذابٍ مروّعٍ بعد الموت، إذا لم يلتزموا بالقواعد الكهنوتيَّة....، فكرة نار الجحيم مكتفيةٌ ذاتيّاً- بكلِّ بساطة- بسبب تأثيرها النفسي العميق (Dawkins، 1976، p. 212)».

إذا كنت قد تلقّيت في أيّ وقتٍ من الأوقات رسالةً متسلسلةً تحذّر من الأشياء الفظيعة التي قد تحدث لك، إذا فشلت في تمريرها، فيمكنك تقدير الاستراتيجيَّة، حتَّى لو لم تقع في غرامها، كما يمكن أن تكون تأكيدات الكاهن الموثوق به أكثر إقناعاً.

إذا كانت نار الجحيم هي العصا، فإنَّ اللغز هو الجزرة، يجب أن تكون المقولات التي يجب تصديقها محيّرة! كما قال رابابورت بشكلٍ لاذع: «إذا إردت للإدعاءات أن تكون غير قابلةٍ للشك، فمن المهمّ أن تكون غير مفهومة» (1979، ص 165). ليست مخالفةً للحدس فقط - بالمعنى التقني لبوير الذي يناقض واحداً أو اثنين فقط من الافتراضات الأساسيَّة لفئةٍ أساسيَّة، ولكنَّ الملتبسة تماماً. تأكيداتٌ سرديَّةٌ ليس لها تأثير، إضافةً إلى ذلك يتمُّ فحصها بسهولةٍ شديدةٍ للتأكُّد من دقّتها.

للحصول على عرضٍ رائعٍ ومثيرٍ للعقل حقّاً، لا يوجد شيءٌ يتفوّق على التناقض الذي تمَّ الإعلان عنه بشغف، ففي مقالٍ لاحق، لفت دوكينز الانتباه إلى ما يمكن أن نسميه تضخم الألعاب الرياضية العقائدية، وهو التفاخر بأنَّ إيماني قويٌّ جدّاً، لدرجة أنَّني أستطيع أن أتبنّى عقليّاً مفارقةً أكبر ممَّا تستطيع.

من السهل وغير المبهم الاعتقاد بأنَّ نبيذ القربان المقدَّس يتحوَّل إلى دم المسيح بمعنىً رمزي أو مجازي، ومع ذلك فإنَّ العقيدة الكاثوليكيَّة الرومانيَّة للاستحالة(1) تدَّعي أكثر من ذلك بكثير؛ تتحوَّل «كامل مادة» الخمر إلى دم المسيح، وأنَّ ظهور الخمر المتبقّي هو «مجرَّد حادثٍ عرضي»، «لا يملك أيَّ جوهر»، يتمُّ شرح الاستحالة الجوهريَّة بالعاميَّة على أنَّها تعني أن تحوِّل الخمر «حرفيَّاً» إلى دم المسيح. [دوكينز، 1993، ص. 21] [11]

هناك العديد من الأسباب تفسّر لماذا سيكون هذا التضخُّم في عدم الفهم تكيُّفاً من شأنه أن يعزّز لياقة الميم، أولاً: كما لوحظ للتو، فإنَّه يميل إلى إثارة الدهشة ولفت الانتباه إلى نفسه، إنَّه عرضٌ نابضٌ بالحياة لذيل طاووسٍ حقيقي، ويتنبَّأ علم الميمات أنَّ شيئاً مثل سباق تسلُّح للمفارقات سينشأ عندما تواجه الأديان الولاء المتضاءل. تمَّ تقييد ذيول الطاووس أخيراً بسبب عدم القدرة الجسديَّة المطلقة للطاووس على حمل الأشياء الأكبر حجماً، ويجب أن تستنفد المفارقات إمكاناتها أيضاً. إنَّ انزعاج النَّاس من عدم الترابط المطلق أمرٌ قوي، لذلك هناك دائماً عناصر مثيرةٌ في السرد المدغدغ للأحاسيس، تتخلَّلها شذراتٌ مربكةٌ للغاية من عدم الفهم، تمنح الحالات الشاذَّة أدمغة المضيف شيئاً يقضُّ مضجعه، مثل قفلةٍ موسيقيَّةٍ غير مستقرَّة، ومن ثمَّ هناك شيء يجب التدرُّب عليه مرَّةً أخرى، ويربكون أنفسهم بشكل هذيان.[12] ثانياً: كما هو مذكور في الفصل الخامس، يعوق عدم الفهم إعادة الصياغة - والتي يمكن أن تكون الموت لهوية ميمية - من خلال ترك المضيف دون خيار قابل للتطبيق سوى النقل الحرفي. («لا أعرف حقّاً ما الذي قصده البابا يوحنا بولس الثاني، لكن يمكنني أن أخبرك أنَّ ما قاله كان:» يسوع هو الكلمة المتجسّدة- شخصٌ واحدٌ غير قابلٍ للتجزئة»).

لاحظ دوكينز امتداداً أو تنقيحاً لهذا التكيُّف: «يُؤمِّن ميم الإيمان الأعمى استمراره من خلال الوسيلة اللاواعية البسيطة المتمثّلة في تثبيط البحث العقلاني» (1976، ص 212-13). في الوقت الذي جعلت فيه «المبادرات القائمة على الإيمان» وغيرها من الاستخدامات،

(1) الاستحالة في اللاهوت المسيحي: هي تحوُّل جوهر العناصر الإفخارستيَّة إلى جسد ودم المسيح عند التكريس، فقط مظاهر الخبز والخمر باقية.

مصطلح «الإيمان» مرادفاً لمصطلح «الدين» في أذهان الكثيرين (كما في عبارة «الأشخاص من جميع الملل الدينية»)، فكذلك من المهمّ أن نذكّر أنفسنا بأنّه ليست كلُّ الأديان لديها موطنٌ للمفهوم، أو أيُّ شيءٍ قريبٍ جدّاً منه.

يُظهر ميم الإيمان لياقةً تعتمد على التكرار، إنّه يزدهر خصوصاً في صحبة الميمات العقلانيّة، أمّا في جوار يحتوي عددٌ قليلٌ من المتشكّكين، لا يجذب ميم الإيمان الكثير من الاهتمام، ومن ثمَّ يميل إلى الاستقرار في الأذهان، لذلك نادراً ما تتمُّ إعادة تقديمه مرّةً أخرى في عالم الميمات (دينيت، 1995 ب، ص 349). في الواقع، إنّها سمةٌ مسيحيّةٌ أساساً، وكما أشرنا مؤخّراً، شجّعت اليهوديّة بالفعل نقاشاً فكريّاً قويّاً حول معنى - وحتّى حقيقة - العديد من نصوصها المقدّسة، لكن يتمُّ تكريم خصائص رياضيّةٍ مماثلة في التقاليد اليهوديّة، كما أوضح الحاخام:

أنَّ معظم قوانين الكشروت (كوشير) هي أوامر إلهيّةٌ من دون سببٍ معطى 100 في المائة إلى هذه النقطة، من السهل جدّاً عدم قتل النّاس، سهلٌ جدّاً، من الأصعب قليلاً عدم السرقة لأنَّ المرء يتعرَّض للإغراء من حينٍ لآخر، لذلك ليس هذا دليلاً عظيماً على أنّني أؤمن بالله، أو أنّي أحقّق إرادته، ولكن إذا قال لي ألّا أشرب فنجاناً من القهوة مع الحليب مع وجبة اللحم المفروم والبازلاء في وقت الغداء، فهذا اختبار، والسبب الوحيد لفعل ذلك هو أنّه طُلِبَ منّي القيام بذلك، إنّه فعلاً شيءٌ صعب. [الغارديان، 29 تموز/ يوليو 1991، مقتبس في دوكينز، 1993، ص. 22]

بينما يُلزِم الإسلام أتباعه بالتوقُّف عمّا يفعلونه خمس مرات في اليوم للصلاة، بصرف النظر عن مدى إزعاج أو خطورة فعل الولاء هذا، إنّنا نثبت إيماننا بعملٍ متطرّفٍ أو بآخر - مثل اختيار الموت على التخلّي عن عنصرٍ من العقيدة التي لا نفهمها - يسمح لنا بالتمييز القوي بين الإيمان الديني ونوعٍ من الإيمان الذي أملكه أنا شخصيّاً بالعلم. إيماني بخبرة علماء الفيزياء مثل ريتشارد فاينمان، على سبيل المثال، يسمح لي بتأييد فرضيّةٍ لا أفهمها - وإذا تطلّب الأمر ذلك، فإنّني سأراهن بشدّةٍ على حقيقتها، حتّى الآن إيماني ليس مختلفاً عن الإيمان الديني، لكنّني لست متحمّساً إطلاقاً للذهاب إلى حتفي، بدلاً من التراجع عن صيغ الفيزياء. انظر:

[E لا تساوي mc^2، لا، لا] كنت أكذب، لذا لن أشعر بالذنب في إلقاء هذه النكتة الصغيرة، على عكس الأشخاص الذين سيجدون صعوبةً بالغة في نطق كلمات التجديف أو التراجع عن عقيدتهم، لكن أليس إيماني بصحَّة افتراضات ميكانيكا الكم التي أعترف أنّني لا أفهمها، نوعاً من الإيمان الديني بأيّ حالٍ من الأحوال؟. اسمحوا لي أن أخترع شخصاً شديد التديّن، اسمّيه البروفيسور «إيمان»،لإلقاء خطابٍ صغير يوضّح هذه التهمة، يريد البروفيسور (إيمان) أن يعلّمني كلمةً جديدة، «لاهوت سلبيٌّ»[(1)]apophatic:

الله شيءٌ عجيب، إنَّه متلقٍّ مناسبٌ للصلوات، وهذا كلُّ ما يمكننا قوله عنه. مفهومي عن الله مبنيٌّ على النفي! قد تسأل ماذا يعني ذلك؟ هذا يعني أنّني أعرف الله على أنّه لا يوصف، لا يمكن معرفته، شيءٌ يتجاوز كلَّ البشر، استمع إلى ما قاله سايمون أوليفر عن كتاب «دينيس تيرنر» الأخير، الإيمان بالبحث (2003):

«إنَّ الله الذي رفضه الإلحاد الحديث ليس إله المسيحيَّة الأرثوذكسيَّة ما قبل الحديثة، الله ليس شيئاً قد يُرفَض وجوده بالطريقةِ التي قد يرفض بها المرء وجود بابا نويل، إنَّ إله «تيرنر» - بفضل الكثير من الصوفيين في القرون الوسطى - هو مفهومٌ لاهوتيٌّ سلبيٌّ بعمق، متجذّرٌ في وعي الخطيئة، وفي نهاية المطاف، هو ظلمةٌ لا يمكن إدراكها، نبدأ رحلتنا إلى هذه الغيريَّة في إدراكنا أنَّ وجودنا هو هديَّةٌ كريمة. [ص. 32]

ويكتب رايموندو بانيكار في هذا السياق عن البوذيَّة:

عادةً ما يُستخدم مصطلح «لاهوتي سلبي» في إشارة إلى اللاهوتيَّة السلبية الغنوصيَّة، مفترضاً بكلِّ بساطة أنَّ الحقيقة المطلقة فوق الوصف- إنَّ الذكاء البشري غير قادرٍ على استيعابها أو الإحاطة بها - على الرَّغمِ من أنَّ هذه الحقيقة المطلقة نفسها قد يتمُّ تمثيلها على أنَّها واضحة، بل فائقة الوضوح في حدِّ ذاتها. وبالتالي، فإنَّ اللاهوتيَّة السلبية الغنوصيَّة تتوافق مع عدم قابليَّة الوصف من جانب الحقيقة المطلقة فقط بالنسبة لنا، من ناحيةٍ أخرى، يسعى

(1) apophatic: (من معرفة الله) التي تمَّ الحصول عليها من نفي المفاهيم التي يمكن تطبيقها عليه.

مذهب اللاهوتيَّة السلبية البوذيَّة إلى نقل عدم القابليَّة للوصف إلى قلب الحقيقة المطلقة ذاتها، معلناً أنَّ هذه الحقيقة – طالما أنَّ شاراتها (تعبيرها وتواصلها) لم تعد تتعلَّق بنظام الحقيقة المطلقة، ولكن أصبحت تتعلَّق بتجلِّي النظام تحديداً – لا يمكن وصفها ليس فقط في نظرنا، ولكن على هذا النحو، لذاتها، وهكذا فإنَّ اللاهوتيَّة السلبية البوذيَّة هي لاهوتيَّة سلبية وجوديَّة. [1989، ص. 14]

أنا أزعم أنَّ هذه الادّعاءات لا تختلف حقّاً عما يقوله علماؤك: إنَّ علماء الفيزياء أدركوا أنَّ المادة لا تتكوَّن من مجموعاتٍ من الكرات الصغيرة الصلبة (الذرَّات)، وهم يعترفون بأنَّ المادة أغرب من ذلك بكثير، لكنَّهم ما زالوا يسمُّونها مادة، على الرَّغم من أنَّهم يعرفون بشكلٍ رئيس أنَّها ليست مادة، ولكنَّهم لا يعرفون ماهيَّتها، ما زالوا يطلقون عليها اسم الذرَّات، لكنَّهم لم يعودوا يفكّرون بها على أنَّها ذريَّة، لقد غيَّروا مفهومهم عن الذرَّات وتصوُّرهم للمادة جذريَّاً، وإذا سألتهم عمَّا يعتقدونه الآن أنَّه مادة، فإنَّهم يعترفون بأنَّه شيءٌ من الغموض، مفهومهم لاهوتي سلبي أيضاً! إذا كان بإمكان الفيزيائيين الانتقال من الواقعيَّة إلى الغموض، كذلك يمكن لعلماء اللاهوت.

آمل أن يكون الأستاذ «إيمان» قد أنصف هذه الفكرة، والتي واجهتها كثيراً في النقاش، أنا لست مقتنعاً بها إطلاقاً، هناك فرقٌ كبيرٌ بين الإيمان الديني والإيمان العلمي: إنَّ ما دفع التغيرات في المفاهيم في الفيزياء، ليس فقط الشكوك المتزايدة من قبل عملاء دنيويين ومتطوِّرين بشكلٍ متزايد، ولكن موجةٌ عارمةٌ من النتائج المُؤكدة المفصَّلة بشكلٍ رائع؛ أنواعٌ من التوقُّعات المؤكَّدة التي أشار إليها فاينمان في الدفاع عن ميدانه المعرفي، وهذا يُحدث فرقاً كبيراً لأنَّه يعطي المعتقدات حول حقائق الفيزياء مجالاً عندما تكون الفرصة سانحة، حيث يمكن القيام بأكثر من مجرَّد الاعتراف.

على سبيل المثال، يمكنك بناء شيءٍ يعتمد في تشغيله الآمن على حقيقة تلك الأحكام، والمخاطرة بحياتك في محاولة السفر إلى القمر، ومثل معتقدات أتباع الديانات الشعبيَّة بأنَّه يجب عليهم التضحية بماعز، أو أنَّهم غير معرَّضين للسهام، فهذه معتقدات يمكنك التصرُّف

وفقاً لها بطرقٍ أبلغ من الكلمات. الأشخاص الذين يتخلُّون عن كلِّ ممتلكاتهم، ويصعدون إلى قمَّة جبلٍ تحسُّباً لنهايةٍ وشيكةٍ للعالم، لا يؤمنون فقط بالإيمان بالله، لكنَّهم يمثّلون الاستثناءات وليس القاعدة، عندما يتعلّق الأمر بالمعتقدات الدينيَّة.

6- دروسٌ من لبنان: حالات غريبة (الدروز وكيم فيلبي):

ما يزال هناك المزيد من الفضول بشكلٍ منهجي حول الظاهرة التي يسمّيها النَّاس المعتقد الديني، ولكن من الأفضل أن يُطلَق على ذلك الاعتراف الديني. هذه ميزةٌ أسرتني منذ فترةٍ طويلة، بينما أقنعتني أكثر بأنَّ مشروع هيوم للدين الطبيعي (تقييم الحجج المؤيّدة والمعارضة لوجود الله) هو جهدٌ ضائعٌ إلى حدٍّ كبير. انبثق اهتمامي بهذه الميزة من تجربتين، كلتاهما تتعلّق بأحداثٍ وقعت في لبنان منذ أكثرَ من أربعين عاماً (رغم أنَّ هذه محض صدفة، على حدٍّ علمي) قضيت بعض الأيّام الأولى لي في بيروت، حيث كان والدي – وهو مؤرّخٌ للإسلام- ملحقاً ثقافيّاً (وجاسوساً لـ OSS[1]) كانت أصوات المؤذّنين الذين ينادون المؤمنين للصلاة من المئذنة المجاورة هي تجربتي اليوميَّة، جنباً إلى جنب مع دبّي وشاحنات الألعاب، ولم يفشل النداء الجميل في جعلي أشعر بقشعريرةٍ عندما أسمعه اليوم، لكنَّني غادرت بيروت عندما كنت في الخامسة من عمري، ولم أعد حتَّى عام 1964، عندما زرت والدتي وأختي اللتان كانتا تعيشان هناك. قضينا بعض الوقت في الجبال خارج بيروت في قريةٍ كان معظم سكّانها من الدروز وبعض المسيحين والمسلمين. سألت بعض سكّان البلدة غير الدروز ليخبروني عن الديانة الدرزية، وهذا ما قالوه:

أوه، الدروز مجموعةٌ بائسة، المبدأ الأول في الديانة الدرزيَّة هو الكذب على الغرباء بشأن معتقداتهم – لا تقل الحقيقة لكافر! لذلك لا يجب أن تأخذ أيَّ شيءٍ يخبرك به الدروز على أنَّه موثوق.

---

(1) مكتب الخدمات الاستراتيجية، ويعرف اختصاراً OSS وهي وكالة استخبارات أمريكيَّة سابقة تمَّ إنشاؤها أثناء الحرب العالمية

يعتقد البعض منّا- في الواقع- أنَّ الدروز كانوا يملكون كتاباً مقدَّساً خاصَّاً بهم، لكنَّهم فقدوه، وهم محرجون جدّاً من هذا الأمر، لدرجة أنَّهم اختلقوا كلَّ أنواع الهراء المَهيب لكيلا ينكشف ذلك للعلن. ستلاحظ أنَّ النساء لا يشاركن إطلاقاً في الشعائر الدرزيَّة، وذلك لأنَّهنَّ لا يستطعن الحفاظ على هذا السرّ!

سمعت هذه الحكاية من عدَّة أشخاصٍ زعموا أنَّهم يعرفون، وسمعت أيضاً أنَّ قلَّةً من الدروز ينكرونها بالطبع، لكن إذا كان هذا صحيحاً، فإنَّ هذا سيخلق معضلةً لأيّ عالِمٍ أنثروبولوجي، ستكون الطريقة المعتادة لاستجواب المُخبِرين مطاردةً يائسةً لأوزَّة بريَّة، حتَّى إذا قدَّم التضحية القصوى واعتنق هو نفسه الديانة الدرزيَّة حتَّى يتمكَّن من استكشافها من الداخل.

كان عليه أن يعترف بأنَّنا في الخارج لا ينبغي أن نصدّق أطروحته العلميَّة، «ما يؤمن به الدروز حقَّاً»، لأنَّها كتبت من قبل درزي متديّن (والجميع يعلم أنَّ الدروز يكذبون) بصفتي فيلسوفاً شابَّاً، كنت مفتوناً بهذه النسخة الواقعيَّة من التناقض الكاذب (تقول إبيمينيدس الكريتيَّة[1]: أنَّ جميع الكريتيين كذَّابون، هل تقول الحقيقة؟)، وكذلك بالأصداء الواضحة لمثالٍ مشهورٍ آخر في الفلسفة: خنفساء لودفيج فيتجنشتاين في الصندوق، يقول فتغنشتاين في كتابه *تحقيقات فلسفيَّة* (1953):

لنفترض أنَّ كلَّ شخصٍ لديه صندوقٌ به شيءٌ ما، نسمّيه «خنفساء»، لا أحد يستطيع النظر في صندوق أيّ شخصٍ آخر، والجميع يقول إنَّه يعرف ما هي الخنفساء فقط من خلال النظر إلى خنفساءه، لذا قد يكون من الممكن تماماً أن يكون لدى كلِّ فرد شيءٌ مختلفٌ في صندوقه، وربَّما يتخيَّل المرء حتَّى أنَّ مثل هذا الشيء يتغيَّر باستمرار، ولكن لنفترض أنَّ كلمة «خنفساء» لها استخدام في لغة هؤلاء النَّاس، إذا كان الأمر كذلك، فلن يتمَّ استخدامها كاسمٍ لشيء، الشيء الموجود في الصندوق ليس له مكان في اللغة إطلاقاً، ولا حتّى كأيّ

(1) Epimenides the Cretan شاعرة وفيلسوفة يونانية تعود إلى القرن السابع أو السادس قبل الميلاد من كونوسوس

شيء، لأنَّ الصندوق قد يكون فارغاً، لا يمكن للمرء أن «يصنِّف» حسب الشيء الموجود في الصندوق، مهما يكن. [القِسْم 293]

لقد كُتب الكثير عن صندوق خنفساء فيتجنشتاين، لكنّي لا أعرف ما إذا كان أيُّ شخصٍ قد اقترح يوماً تطبيقاً على معتقد ديني، على أيّ حال، يبدو من الرائع في البداية أنَّ الدروز قد يكونون مثالاً حقيقيّاً للظاهرة. هل أقوم فقط بتضخيم الافتراء المسيء لسمعة الدروز من قبل جيرانهم، لإثارة وجهة نظرٍ فلسفيَّةٍ مشكوكٍ فيها؟ ربَّما، لكن ضع في حسبانك ما قاله سكوت أتران عن محاولاته، كعالم أنثروبولوجي، للكتابة عن معتقدات الدروز:

كطالب دراساتٍ عليا منذ ما يقرب من ثلاثة عقود، أمضيت بضع سنوات مع الدروز في الشرق الأوسط، كنت أرغب في التعرُّف على معتقداتهم الدينيَّة، التي بدت وكأنَّها تنسج معاً أفكاراً من جميع الديانات التوحيديَّة العظيمة بطرقٍ مثيرةٍ للاهتمام.

إنَّ تعلُّم الدين الدرزي عمليَّةٌ تدريجيَّةٌ وفق التقليد السقراطي، تنطوي على تفسير الأمثال في شكل سؤالٍ وجواب، على الرَّغم من أنَّني لست درزيّاً، لا يمكنني أبداً الانخراط رسميّاً في الدين، بدا أنَّ كبار السن سعداء بمحاولتي فهم العالم كما تصوَّروه، لكن في كلّ مرَّةٍ وصلت فيها إلى مستوىً معيَّنٍ من الوعي حول مشكلةٍ ما، يذكّرني كبار السنّ من الدروز بأنَّ أيَّ شيءٍ يقال أو يُتعلَّم بعد هذه النقطة، لا يمكن مناقشته مع أشخاصٍ غير منخرطين في الدين، بما في ذلك الدروز الآخرين. لم أكتب قط عن الدين الدرزي، وانتهى بي المطاف بأطروحةٍ حول الأسس المعرفيَّة للعلم. [2002، ص. XI]

يبدو أنَّنا ما زلنا لا نعرف ما يعتقده الدروز حقّاً، وقد نتساءل عمَّا إذا كانوا هم أنفسهم يعرفون، وقد نبدأ أيضاً في التساؤل عمَّا إذا كان الأمر مهمّاً، وهو ما يقودني إلى درسي الثاني في لبنان.

في عام 1951، اشتُبِهَ بكون «كيم فيلبي»، وهو ضابطٌ كبيرٌ في جهاز المخابرات البريطاني (SIS)، عميلاً مزدوجاً، وعميلاً مأجوراً رفيع المستوى يعمل لصالح المخابرات السوفيتيَّة

KGB، عقدت هيئة المخابرات العامَّة محاكمةً سرِّيَّة، ولكنَّ هيئة المحكمة رأت أنَّ فيلبي غير مذنبٍ وفق الأدلَّة المقدَّمة، وعلى الرَّغم من أنَّ المخابرات العامَّة لم تكن قادرةً على إدانته، إلَّا أنَّهم رفضوا بعقلانيَّةٍ إعادته إلى أكثر مناصبه حساسية، فاستقال، ثمَّ انتقل إلى لبنان ليعمل كصحفي. في عام 1963، أكَّدَ منشقٌّ سوفيتيٌّ هرب إلى لندن أنَّ فيلبي كان عميلاً مزدوجاً، وعندما ذهبت المخابرات البريطانيَّة إلى بيروت لمواجهته، هرب إلى موسكو، حيث أمضى بقيَّة حياته يعمل لصالح المخابرات السوفيتيَّة. هل فعلَ ذلك؟ عندما ظهر فيلبي لأول مرَّةٍ في موسكو، كانت المخابرات السوفيتيَّة (على ما يبدو) تشتبه في كونه عميلاً بريطانيّاً - عميلاً ثلاثيّاً، هل كان في الحقيقة كذلك؟

على مدى سنوات، تمَّ تداول قصَّةٍ في دوائر المخابرات بهذا المعنى، كانت الفكرة أنَّه عندما «برَّأت» المخابرات البريطانيَّة «SIS» فيلبي في عام 1951، وجدوا طريقة رائعة للتعامل مع مشكلة الثقة الحسَّاسة لديهم:

مباركٌ يا كيم، أيُّها الفتى العجوز! كنَّا نظنُّ دائماً أنَّك مخلصٌ لقضيَّتنا، ومن أجل مهمَّتك التالية، نودُّ منك التظاهر بالاستقالة من المخابرات البريطانيَّة SIS - أنت حانقٌ على فشلنا في إعادتك إلى منصبك بالكامل، أليس كذلك؟ - انتقل إلى بيروت واعمل كصحفيٍ في المنفى، وفي الوقت المناسب، نعتزم إعطائك سبباً «للفرار» إلى موسكو، حيث سيتمُّ تقديرك في النهاية من قبل رفاقك، لأنَّه يمكنك إفشاء الكثير من المعلومات الداخليَّة غير الضارَّة نسبيَّاً التي تعرفها بالفعل، وسنزوّدك بهدايا إضافيَّة مُتحكَّم بها بعناية من قبل الاستخبارات - وبالمعلومات المضلّلة - التي سيكون الروس سعداء بقبولها، حتَّى عندما تكون لديهم شكوكهم، وبمجرَّد أن تصبح ذا حظوة لديهم، نودُّ منك أن تبدأ في إخبارنا بكلِّ ما يمكنك فعله بشأن ما يخطِّطون له، وما الأسئلة التي يطرحونها عليك، وما إلى ذلك.

بمجرَّد أن أعطت SIS فيلبي هذه المهمَّة الجديدة، انتهت مخاوفهم. لا يهمُّ ما إذا كان حقَّاً مواطناً بريطانيَّاً يتظاهر بأنَّه عميلٌ ساخط، أو عميلٌ سوفيتيٌّ مخلصٌ يتظاهر بأنَّه عميلٌ بريطانيٌّ مخلص (يتظاهر بأنَّه عميلٌ ساخط) سوف يتصرَّف بالطريقة نفسها تماماً في كلتا

الحالتين؛ ستكون أنشطته قابلةً للتفسير ويمكن التنبُّؤ بها من كلتا صورتي الموقف المتعمَّد المنعكستين: في إحداها، يؤمن بشدَّةٍ أنَّ القضيَّة البريطانيَّة تستحقُّ المخاطرة بحياته من أجلها، وفي الآخرى، يؤمن بشدَّةٍ أنَّ لديه فرصةً ذهبيَّةً ليكون بطلاً للاتحاد السوفيتي من خلال التظاهر بأنَّه يؤمن بشدَّةٍ أنَّ القضيَّة البريطانيَّة تستحقُّ المخاطرة بحياته من أجلها، وما إلى ذلك.

في غضون ذلك، كان السوفييت بلا شكّ يستخلصون الاستدلال نفسه، ولم يكلّفوا أنفسهم عناء محاولة معرفة ما إذا كان فيلبي حقّاً عميلاً مزدوجاً أم عميلاً ثلاثيّاً أم عميلاً رباعيّاً، ووفقاً لهذه القصَّة، تمَّ تحويل فيلبي ببراعة إلى نوعٍ من الهاتف البشري، مجرَّد قناةٍ للمعلومات يمكن للجانبين استغلالها لأيّ أغراضٍ يمكن أن يحلموا بها، والاعتماد عليه ليكون مرسلاً عالي الدقَّة لأيّ معلوماتٍ قدَّموها له، دون القلق بشأن مكان ولاءاته النهائيَّة.

في عام 1980، عندما كانت مكانة فيلبي بين نظرائه في موسكو تتحسَّن (على ما يبدو)، كنت زميلاً زائراً في كليَّة أول سولز All Souls College في أكسفورد، وكان هناك زميلٌ زائرٌ آخر في ذلك الوقت هو السير موريس أولدفيلد، الرئيس المتقاعد للمخابرات البريطانيَّة MI6، وهي الوكالة المسؤولةٌ عن مكافحة التجسُّس خارج بريطانيا العظمى، وأحد روَّاد التجسُّس المسؤولين عن مسار فيلبي.

(كان السير موريس نموذجًا لـ «M» لإيان فليمنغ في روايات جيمس بوند) ذات ليلةٍ بعد العشاء، سألته عمَّا إذا كانت هذه القصَّة التي سمعتها صحيحة، وأجاب بصراحةٍ شديدة أنَّها تضمَّنت الكثير من الهراء، تمنَّى أن يترك النَّاس فيلبي المسكين يقضي أيَّامه في موسكو بسلامٍ وهدوء، فأجبته بأنَّني مسرورٌ بالحصول على إجابته، لكن كان على كلينا أن يدرك أنَّه ما كان ليقول غير ذلك حتَّى لو كانت القصَّة صحيحة! حدَّق السير موريس بي بدهشة ولم يقل شيئاً.

توضّح هاتان القصَّتان بشكلٍ مبالغ فيه المشكلة الأساسيَّة التي يواجهها أيُّ شخصٍ عازمٍ على دراسة المعتقدات الدينيَّة، لقد لاحظ العديد من المعلّقين أنَّ المعتقدات الدينيَّة

التقليديَّة لا يمكن اختبارها للتأكُّد من صحَّتها، وكما أشرت سابقاً، يعدُّ هذا جيّداً كسمةٍ مميَّزةٍ للمعتقدات الدينيَّة، يجب أن «تُعتنَق» ولا تخضَع للتأكيد (العلمي والتَّاريخي)، ولكن أكثر من ذلك، لهذا السبب وغيره، لا يمكن أن تؤخذ مصطلحات المعتقد الديني في ظاهرها.

اقتبس عالما الأنثروبولوجيا كريغ بالمر ولايل ستيدمان (2004، ص 141) رثاء سلفهما المتميّز، عالم الأنثروبولوجيا رودني نيدهام، الذي كان محبطاً في عمله مع بينان[1] Penan في بورنيو الداخليَّة:

«أدركت أنَّني لا أستطيع أن أصف موقفهم من الله بثقة، سواءٌ كان هذا اعتقاداً أو أيَّ شيءٍ آخر[...]، في الواقع، كما كان عليَّ أن استنتج بكآبة، لم أكن أعرف ما هو موقفهم النفسي تجاه الشخص الذي كنت أفترض أنَّهم يؤمنون به[....]، من الواضح أنَّ الإبلاغ عن الأفكار التي تمَّ تلقّيها، والتي اشترك فيها النَّاس كانا شيئاً واحداً، ولكنَّ الحديث عن حالتهم الداخليَّة (الاعتقاد على سبيل المثال) عندما عبَّروا عن مثل هذه الأفكار أو استمتعوا بها كان أمراً مختلفاً تماماً، ومع ذلك، إذا قال أحد علماء الإثنوغرافيا: إنَّ النَّاس صدَّقوا شيئاً ما، بينما لم يكن يعرف في الواقع ما يجري بداخلهم، فمن المؤكَّد أنَّ روايته عنهم لا بدَّ أن تكون معيبةً للغاية بطرقٍ أساسيَّةٍ تماماً، كما حدث لي. [نيدهام، 1972، ص 1-2]

أخذ بالمر وستيدمان هذا الاعتراف من نيدهام، للإشارة إلى الحاجة لإعادة صياغة النظريَّات الأنثروبولوجيَّة كتفسيراتٍ للسلوك الديني، وليس المعتقد الديني: «بينما لا يمكن التعرُّف على المعتقدات الدينيَّة، فإنَّ السلوك الديني يمكن تحديده، ويمكن فهم هذا الجانب من التجربة الإنسانيَّة، والمطلوب هو تفسير هذا السلوك الديني المُشاهد الذي يقتصر على ما يمكن ملاحظته» [ص. 141].

ذَهَبَا إلى القول أنَّ نيدهام هو الوحيد الذي يدرك الآثار العميقة لهذه الحقيقة حول غموض

(1) البينان هم من السكان الأصليين الرحل الذين يعيشون في ساراواك وبروناي، على الرغم من وجود مجتمع صغير واحد فقط في بروناي. ومن بين هؤلاء في بروناي اعتنق نصفهم الإسلام، حتى لو كان ذلك بشكل سطحي. بينان هي واحدة من آخر هذه الشعوب المتبقية كصيادين وجامعي.

المجاهرة الدينيَّة، لكنَّهم هم أنفسهم يتغاضون عن المعنى الأكثر عمقاً لذلك: السكَّان الأصليُّون في القارب نفسه مثل نيدهام! إنَّهم غير قادرين على الدخول إلى أعماق العقول الداخليَّة لأقاربهم وجيرانهم مثل نيدهام.

عندما يتعلَّق الأمر بتفسير المجاهرات الدينيَّة للآخرين، فإنَّ الجميع يعدُّ شخصاً خارجيّاً، لماذا؟ لأنَّ المجاهرات الدينيَّة تتعلَّق بأمورٍ خارج نطاق الملاحظة، وتتجاوز الاختبار ذا الدلالة الإحصائيَّة، لذا فإنَّ الشيء الوحيد الذي يمكن لأيِّ شخصٍ المضيُّ فيه هو السلوك الديني، وبشكلٍ أكثر تحديداً، سلوك الاعتراف. يشبه الطفل الذي ينشأ في ثقافةٍ ما عالم أنثروبولوجيا - بالمحصّلة- محاطاً بأشخاصٍ يقدّمون له المعلومات، والذين تحتاج مزاعمهم إلى التفسير، حقيقة أنَّ أولئك هم أبوك وأمّك، ويتحدَّثون بلغتك الأم، لا يمنحك أيَّ شيءٍ أكثر من ميزةٍ ظرفيَّةٍ طفيفة على عالم الأنثروبولوجيا البالغ الذي يتعيَّن عليه الاعتماد على سلسلةٍ من المترجمين ثنائيي اللغة للاستفسار من مُخبِريه. (وفكّر في حالتك الخاصَّة: ألم تكن مرتبكاً أو مشوَّشاً بشأن ما كان من المفترض أن تؤمن به؟ أنت تعلم جيّداً أنَّك لا تتمتَّع بامتياز الوصول إلى مبادئ الإيمان الذي نشأت فيه، أنا فقط أطلب منك أن تعمّم الفكرة، وأن تدرك أنَّ الآخرين ليسوا في وضعٍ أفضل).

7- هل الله موجود؟

«إذا لم يكن الله موجوداً، لكان من الضروري أن نخترعه» - فولتير

في نهاية المطاف، أنتقل إلى التفكير الموعود في الحجج المؤيّدة لوجود الله، وبعد مراجعة العقبات - الدبلوماسيَّة والمنطقيَّة والنفسيَّة والتكتيكيَّة - التي تواجه أيَّ شخصٍ يريد القيام بذلك بشكلٍ بنَّاء، سأقدّم فقط نظرةً عامَّةً مختصرة عن مجال التحقيق، وأعبّر عن أحكامي الخاصَّة، ولكن ليس بالمنطق الذي دُرِسَت به، مقدّماً إحالاتٍ إلى بضع نماذجَ قد لا تكون مألوفةً للكثيرين. هناك طيفٌ من الأشياء المقصودة التي يجب مراعاتها، بدءاً من مقياس التجسيم من رجلٍ في السماء، إلى قوَّةٍ حميدةٍ خالدة، وهناك طيفٌ من الحجج التي تصطفُّ

بشكلٍ غير متساوٍ مع طيف الآلهة.

يمكننا أن نبدأ مع الآلهة المجسَّمة والحجج من الوثائق التَّاريخيَّة المفترضة، مثل هذا: وفقاً للكتاب المقدَّس، وهو الحقيقة الحرفيَّة، الله موجود، كان دائماً موجوداً، وخلق الكون في سبعةِ أيّام قبل بضعة آلافٍ من السنين، من الواضح أنَّ الحجج التَّاريخيَّة مُرضيةٌ لأولئك الذين يقبلونها، لكن لا يمكن ببساطة إدخالها في تحقيق جادّ، لأنَّها تتطلَّب استجواباً واضحاً (إذا لم يكن هذا واضحاً لك، فاسأل عمّا إذا كان كتاب مورمون [1829] أو الوثيقة التأسيسيَّة للسيانتولوجيا، كتاب إل رون هوبارد (ديانيتكس)(1) [1950]، يجب أن تؤخذ على أنَّها دليلٌ قاطع على الافتراضات التي تحتويها، لا يمكن منح أيّ نصٍ مكانة «الحقيقة الإنجيليَّة» دون حجب جميع التساؤلات العقلانيَّة).

هذا يتركنا مع الحجج التقليديَّة التي نوقشت باستفاضةٍ من قبل الفلاسفة وعلماء الدين على مرِّ القرون، وبعضها تجريبي، مثل الحجَّة من التصميم، فيما البعض الآخر بداهيٌّ أو منطقي، مثل الحجَّة الأنطولوجيَّة والحجَّة الكونيَّة لضرورة وجود السبب الأول.

يعدُّ العديد من المفكّرين الحجج المنطقيَّة، بما في ذلك العديد من الفلاسفة الذين نظروا إليها بعنايةٍ لسنوات، على أنَّها استحضار حيلٍ أو ألغازٍ فكريَّة، وليست مقترحاتٍ علميَّةً جادَّة.

تأمّل الحجَّة الأنطولوجيَّة التي صاغها القدّيس أنسيلم لأول مرَّةٍ في القرن الحادي عشر كاستجابةٍ مباشرةٍ لمزمور 14: 1، حول ما قاله الجاهل في قلبه، ويدَّعي أنسيلم أنَّه إذا كان الجاهل يفهم مفهوم الله، فعليه أن يفهم أنَّ الله (بالتعريف) هو الكائن الأعظم الذي يمكن تصوُّره، أو في العبارة الشهيرة المحيّرة للعقل، الكائن الأعظم من أيّ شيءٍ لا يمكن تصوُّره، لكن من بين الكمالات التي يجب أن يملكها مثل هذا الكائن الأعظم الذي يمكن تصوُّره هو الوجود، لأنَّه إذا افتقر الله للوجود، لكان من الممكن تصوُّر كائنٍ أعظم موجود؛ أي إلهٍ مع

(1) dianetics: نظامٌ طوَّره مؤسّس كنيسة السيانتولوجيا(ل. رون هابرد) الذي يهدف إلى تخفيف الاضطرابات النفسية الجسديَّة عن طريق تطهير العقل من الصور الذهنية الضارَّة.

كلِّ كمالاته، بالإضافة إلى وجوده!

إنَّ الله الذي يفتقر إلى الوجود لن يكون الكائن الأعظم من أيّ شيءٍ لا يمكن تصوُّره، ولكن هذا هو تعريف الله، لذلك يجب أن يكون الله موجوداً، هل تجد هذا مقنعاً، أم هل تشكُّ في أنَّه نوعٌ من «خدعة المرايا» المنطقيَّة؟ (هل يمكنك استخدام مخطَّط الحجَّة نفسه لإثبات وجود أفضل مثلَّجات آيس كريم يمكن تصوُّرها، لأنَّه إذا لم تكن موجودة، فسيكون هناك مثلَّجات أكثر كمالاً يمكن تصوُّرها؛ أي مثلَّجاتٌ موجودةٌ بالفعل؟) إذا كنت متشكّكاً، فمرحباً بك.

منذ إيمانويل كانط في القرن الثامن عشر، كان هناك اعتقادٌ واسع النطاق - ولكن لم يصل إلى مستوى الإجماع بأيّ حال من الأحوال- بأنَّه لا يمكنك إثبات وجود أيّ شيء (بخلاف التجريد) من خلال المنطق المطلق، يمكنك إثبات أنَّ هناك عدداً أوليَّاً أكبر من تريليون، وأنَّ هناك نقطةً تلتقي عندها الخطوط التي تقسم الزوايا الثلاث لأيّ مثلث، وهناك «جملة Gödel»[1] (جملة غير مكتملة) لكلِّ آلة تورينج[2] متَّسقة، ويمكن أن تُمثِّل حقائق الحساب، لكن لا يمكنك إثبات أنَّ شيئاً ما له تأثيراتٌ في العالم المادي موجود إلَّا من خلال الأساليب التجريبيَّة جزئيَّاً على الأقل.

هناك من يعارضون ذلك، وما يزالون يؤيّدون الإصدارات المحدثة من حجَّة أنسيلم الأنطولوجيَّة، لكنَّ الثمن الذي يدفعونه (عن طيب خاطر) مقابل وصولهم إلى دليلٍ منطقي بحت، هو شيءٌ مقصودٌ مجرَّد وعديم الملامح.

---

(1) نظريَّات عدم الاكتمال لجودل: هما نظريتان للمنطق الرياضي تهتمان بحدود الإثبات في النظريات البداهية الرسمية، هذه النتائج التي نشرها Kurt Gödel في عام 1931، مهمَّة في كلٍّ من المنطق الرياضي وفلسفة الرياضيات. يتمُّ تفسير النظريَّات على نطاقٍ واسع، ولكن ليس عاليَّاً، على أنَّها توضّح أنَّ برنامج هيلبرت لإيجاد مجموعةٍ كاملة ومتَّسقة من البداهيَّات لجميع الرياضيَّات أمرٌ مستحيل.

(2) آلة تورينج: هي نموذجٌ رياضيٌّ للحساب يحدّد آلة مجرَّدة تعالج الرموز على شريطٍ من الشريط وفقاً لجدول القواعد، على الرَّغم من بساطة النموذج، فبالنظر إلى أي خوارزميَّة كمبيوتر، يمكن إنشاء آلة تورينج قادرة على تنفيذ منطق تلك الخوارزميَّة.

حتَّى لو كان هناك كائنٌ أعظم - ممَّا لا يمكن تصوُّر أيِّ شيءٍ عنه، فلا بدَّ من وجوده، كما تخمِّهم حججهم- فإنَّ المسافة طويلةٌ من هذا التحديد إلى كائنٍ رحيمٍ أو عادلٍ أو محبٍّ - ما لم تتأكَّد من تعريفه بهذه الطريقة منذ البداية، إدخال التجسيم عن طريق المراوغة التي لن تقنع المتشكِّكين، ولن تعيد الطمأنينة إلى قلوب المؤمنين- حسب تجربتي.

الحجَّة الكونيَّة التي تنصُّ في أبسط أشكالها: بما أنَّه يجب أن يكون لكلّ شيءٍ سبب، فيجب أن يكون للكون سبب - الله- لا يبقى بسيطاً لفترةٍ طويلة، ينكر البعض هذه الفرضيَّة، لأنَّ فيزياء الكم تعلّمنا أنَّه ليس كل ما يحدث يحتاج إلى سبب، فيما يفضّل البعض الآخر قبول الفرضيَّة، ثمَّ يسألون: ما سبب الله؟ الجواب القائل بأنَّ الله هو مُسبَّبٌ ذاتيّاً (بطريقةٍ أو بأخرى) يظهر هذا السؤال المشكّك: إذا كان هناك شيءٌ يمكن أن يكون مُسبَّباً ذاتيَّاً، فلماذا لا يكون الكون بكليَّته هو هذا الشيء؟

يؤدّي هذا في اتجاهاتٍ غامضةٍ مختلفة، إلى الدوائر الغريبة لنظريَّة الأوتار[1] وتقلُّبات الاحتمالات وما شابه، في أحد طرفيها، وإلى مماحكةٍ بارعةٍ حول معنى «السبب» من ناحيةٍ أخرى، وما لم يكن لديك تذوّقٌ للرياضيَّات والفيزياء النظريَّة من ناحية، أو تفاصيل المنطق المدرسي من ناحيةٍ أخرى، فلن تقتنع بشيءٍ من ذلك أو تفهمه.

ومع ذلك قد يرغب النَّاس في العودة إلى الحجج البداهيَّة كشبكة أمانٍ من نوعٍ ما، بعد أن يروا ما يمكن أن تؤدّي إليه الحجَّة التجريبيَّة - الحجَّة من التصميم- بما فيها تنويعاتها الحديثة التي تستدعي مبدأ الأنثروبي[2].

(1) نظريَّة الأوتار أو النظريَّة الخيطيَّة: هي مجموعةٌ من الأفكار الحديثة حول تركيب الكون تستند إلى معادلاتٍ رياضيَّةٍ معقَّدة.

(2) عبارةٌ عن أطروحةٍ تقول بأنَّ الكون حتمي حيث تكون معادلاته وقوانينه الطبيعيَّة مناسبةً لظهور أنواع حياة ذكيَّة، حيث أنَّه لو كانت الجسيمات الأولية مثل الإلكترون والبروتون ليست بصفاتها الموجودة (مثل مقدار الشحنة ونوعها وكتلة كلّ منهما) والقوانين التي تحكمها، لكان من غير الممكن نشأة الحياة على الأرض بما فيها نشأة الإنسان نفسه، والإنسان هو المخلوق الوحيد الذي بمقدوره وصف الكون ومراقبته وتحليله فيزيائيّاً.

من المؤكَّد أنَّ الحجَّة من التصميم هي الحجَّة الأكثر بداهيَّةً وشعبيَّة، وقد كانت كذلك لعدَّة قرون، من المنطقي أنَّ كلَّ عجائب العالم الحي يجب أن تكون مرتَّبةً من قبل مصمِّمٍ ذكي، لا يمكن أن يكون كلُّ شيءٍ مجرَّد صدفة، أليس كذلك؟ وحتَّى إذا كان التطوُّر عن طريق الانتقاء الطبيعي يفسِّر تصميم الكائنات الحيَّة، أفلا يتطلَّب «الضبط الدقيق» لقوانين الفيزياء لجعل كلِّ هذا التطوُّر ممكناً، وجودَ متحكِّمٍ بالضبط؟ (حجَّة المبدأ الأنثروبي)

لا، هذا ليس منطقيَّاً، حيث يمكن أن يكون كلُّ ذلك نتيجة «الحوادث العرضيَّة» التي استُغِلَّت من قِبل انتظامات الطبيعة الدؤوبة، وكذلك لا، حيث يمكن شرح الضبط الدقيق لقوانين الفيزياء دون افتراض وجود متحكِّمٍ ضبط ذكي.

لقد غطَّيت هذه الحجج بشكلٍ أوسع في كتابي «فكرة داروين الخطرة» (خاصَّةً الفصلين 1 و7)، لذلك لن أكرّر حجَّتي المضادَّة، ولكن فقط ملخَّصي للتقهقر الذي دفعته فكرة داروين الخطيرة خلال القرن ونصف القرن الماضيين.

لقد بدأنا برؤيةٍ طفوليَّةٍ إلى حدٍّ ما عن إلهٍ مجسَّم، إلهٍ مصنوعٍ يدويَّاً، وأدركنا أنَّ هذه الفكرة، بالمعنى الحرفي للكلمة، كانت على وشك الانقراض، وعندما نظرنا من خلال عيون داروين إلى العمليَّات الفعليَّة للتصميم التي نحن وجميع عجائب الطبيعة نتاجها حتَّى الآن، وجدنا أنَّ «بالي»[1] Paley كان محقَّاً في رؤية هذه التأثيرات كنتيجةٍ لكثيرٍ من أعمال التصميم، لكنَّنا وجدنا تفسيراً غير إعجازيٍ لها: عمليَّةٌ موازيَّةٌ على نطاقٍ واسع، لذا فهي مسرفةٌ جدَّاً لمحاولة تصميمٍ حسابيَّةٍ طائشة، تمَّ فيها توفير الحدِّ الأدنى من الإضافات في التصميم بشكلٍ مقتصد، ونسخها وإعادة استخدامها على مدى مليارات السنين. كانت الخصوصيَّة الرائعة أو الفرديَّة للخلق- لم تكن بسبب عبقريَّة شكسبير الإبداعيَّة- إنَّما تعود إلى المساهمات المتواصلة للصدفة، وهي تسلسلٌ متزايدٌ لما أطلق عليه «كريك» (1968) «الحوادث المجمَّدة».

هذه الرؤية للعمليَّة الإبداعيَّة ما تزال على ما يبدو تترك دوراً لله بصفته المشرِّع، لكنَّ هذا

(1) ويليام بيلي: كان تبريرياً مسيحياً إنجليزياً، فيلسوفاً يؤمن بمذهب النفعية.

أفسح المجال بدوره إلى الدور النيوتوني لمكتشف القانون[1]، والذي تبخَّر أيضاً، كما رأينا مؤخَّراً، ولم يترك وراءه أيَّ قوَّةٍ ذكيَّة في هذه العمليَّة إطلاقاً، وما تبقَّى هو ما وجدته العمليَّة وهي تتنقل عبر الخلود، بلا تصوُّرٍ مسبق (عندما تجد أيَّ شيء): إمكانيَّة أفلاطونيَّة سرمديَّة للنظام. هذا- في الواقع- شيءٌ من الجمال، كما يهتف علماء الرياضيَّات إلى الأبد، لكنَّه ليس شيئاً ذكيَّاً في حدِّ ذاته، بل هو عجيبةٌ من العجائب، شيءٌ معقول، ولكونه مجرَّداً وخارج الزمن، فهو ليس شيء يحتاج لبداية، أو إلى تفسير أصله.

ما يحتاج إلى شرحِ أصله هو الكون الملموس نفسه، وكما طرحت فلسفة هيوم هذا التساؤل منذ زمنٍ طويل: لماذا لا تتوقَّف عند العالم المادي؟ لقد رأينا أنَّه يؤدّي نسخةً من خدعة التمهيد النهائيَّة؛ إنَّه يخلق نفسه من العدم، أو على أيّ حال من شيءٍ لا يمكن تمييزه عن لا شيء إطلاقاً، وعلى عكس الخلق الذاتي الغامض والخالد لله، فإنَّ هذا الخلق الذاتيَّ هو عملٌ غير إعجازي ترك الكثير من الآثار، ولأنَّه ليس ملموساً فحسب، بل نتاجاً لعمليَّةٍ تاريخيَّةٍ خاصَّة بشكلٍ رائع، فهو إبداعٌ فريدٌ تماماً - يشمل ويقزّم جميع الروايات واللوحات والسمفونيَّات لجميع الفنَّانين - يحتلُّ موقعاً في فضاء الاحتمالات الذي يختلف عن الآخرين.

عرَّف بنديكت، سبينوزا، في القرن السابع عشر، الله والطبيعة، بحجَّة أنَّ البحث العلمي هو المسار الصحيح لعلم اللاهوت، وتعرَّض من أجل هذه البدعة للاضطهاد، هناك صفة مقلقةٌ (أو مغريةٌ للبعض) في رؤية سبينوزا الهرطقيَّة عن Deus sive Natura (الله، أو الطبيعة): في اقتراح تبسيطه العلمي، هل كان يجسّد الطبيعة أو ينزع الطابع الشخصيَّ عن الله؟

توفّر رؤية داروين الأكثر إنتاجيَّة، البنية التي يمكننا من خلالها رؤية ذكاء الطبيعة الأمّ (أم أنَّه مجرَّد ذكاءٍ ظاهري؟) على أنَّه ميزةٌ غير إعجازيَّةٍ وغير غامضة - من ثمَّ فهي أكثر روعة - لهذا الشيء المخلوق ذاتيَّاً. [دينيت، 1995 ب، ص 184 - 85]

(1) إشارة إلى دور إسحاق نيوتن في اكتشاف قانون الجاذبيَّة.

هل ينبغي عدُّ سبينوزا ملحداً أم مؤمناً بوحدة الوجود؟ لقد رأى مجد الطبيعة، ثمَّ رأى طريقةً للقضاء على الوسيط! كما قلت في نهاية كتابي السابق:

«إنَّ شجرة الحياة ليست مثاليةً وليست لانهائيَّةً في المكان أو الزمان، لكنَّها حقيقية، وإذا لم يكن كائن «أنسيلم» الأعظم من أيّ شيء لا يمكن تصوُّره»، فهي بالتأكيد كائن أعظم من أيّ شيء سيتصوَّره أيٌّ منَّا بالتفصيل الجدير بتفصيله. هل هناك شيءٌ مقدَّس؟ نعم، أجيب أنا مع نيتشه، لم أستطع أن أصلّي له، لكن يمكنني أن أقف في تأكيد روعته، العالمِ مقدَّس». [1995 ب، ص. 520]

هل هذا يجعلني ملحداً؟ بالتأكيد، بالمعنى الواضح.

إذا كان ما تعدُّه مقدَّساً ليس أيَّ نوع من الأشخاص يمكنك أن تصلّي إليه، أو تعدُّه متلقّياً مناسباً للامتنان (أو الغضب، عندما يُقتل أحد الأحبَّاء بلا معنى)، فأنت ملحدٌ في نظري، وإذا كنت تريد، لأسبابٍ تتعلَّق بالولاء للتقاليد أو الدبلوماسيَّة أو التمويه الوقائي (مهمٌّ جدّاً اليوم، خاصَّةً بالنسبة للسياسيين)، إنكار ما أنت عليه، فهذا شأنك، لكن لا تخدع نفسك، ربَّما في المستقبل، إذا تقدَّم عدد أكبر منَّا إلى الأمام وأعلن بهدوء أنَّنا بالطبع لم نعد نؤمن بأيّ من هؤلاء الآلهة، سيكون من الممكن انتخاب ملحدٍ لمنصب أعلى من عضو مجلس الشيوخ، لذا لدينا الآن أعضاءٌ يهود ونساء في مجلس الشيوخ، وأعضاء مثليُّون في الكونغرس، لذا يبدو المستقبل مشرقاً.

الكثير من أجل الإيمان بالله، ماذا عن الإيمان بالإيمان بالله؟

ما زلنا لم نستفسر عن جميع أسس هذا الإيمان، أليس هذا صحيحاً؟ هو كذلك، أليس صحيحاً أنَّه سواءٌ أكان الله موجوداً أم لا، فإنَّ المعتقد الدينيَّ لا يقلُّ أهميَّةً عن الإيمان بالديمقراطيَّة، وسيادة القانون، والإرادة الحرَّة؟

الرأي السائد (لكن بعيداً عن كونه عالميّاً) هو أنَّ الدين حصن الأخلاق والمعنى، فمن دون الدين سنقع في الفوضى والتشوُّش، في عالمٍ فيه «كلُّ شيءٍ مباح».

كشفت الفصول الخمسة الأخيرة عن مجموعةٍ متنوّعةٍ من الحيل المألوفة التي تمَّ اكتشافها بصورةٍ متكررة، والتي تميل إلى حماية الممارسات الدينيَّة من الانقراض أو التآكل الذي لا يمكن التعرُّف عليه.

إذا كان الجانب القاتم من هذا هو تصميم الأنظمة الكليبتوقراطيَّة، وغيرها من المنظَّمات الشرّيرة الواضحة التي يمكن أن تفترس الأبرياء، فإنَّ الجانب المشرق هو تصميم المؤسَّسات الإنسانيَّة والمفيدة التي لا تستحقُّ ولاء النَّاس فحسب، بل يمكننا تأمينه بشكلٍ فعَّال.

ما زلنا لم نتطرَّق بجدّيَّةٍ إلى مسألة ما إذا كانت الأديان - بعض الأديان، أو دينٌ واحد، أو أيُّ دين - هي ظواهر اجتماعيَّةٌ مفيدة أكثر ممَّا هي مؤذية، والآن بعد أن أصبح بإمكاننا رؤية بعضٍ من هذا الحجاب الواقي، نحن في وضعٍ يسمح لنا بمعالجة هذا السؤال.

الفصل الثامن: إنَّ الإيمان بأنَّ الإيمان بالله مهمٌّ جدّاً، بحيث لا يجب أن يتعرَّض لمخاطر عدم الثقة أو النقد الجادّ، ممَّا جعل المتدينين يميلون إلى «إنقاذ» معتقداتهم بجعلها غير مفهومةٍ حتَّى بالنسبة لهم، والنتيجة هي أنَّه حتَّى المؤمنون لا يعرفون حقّاً ما الذي يؤمنون به، وهذا يجعل هدف إثبات وجود الله أو دحضه بحثاً خياليّاً، ولكن لهذا السبب بالذات أيضاً ليس مهمّاً للغاية.

الفصل التاسع: السؤال المهمُّ هو ما إذا كانت الأديان تستحقُّ حماية أتباعها المستمرَّة، إذ إنَّ كثيراً من النَّاس يحبُّون دياناتهم أكثر من أيِّ شيءٍ آخر في الحياة، فهل تستحقُّ دياناتهم هذا العشق؟

الجزء الثالث

الدين اليوم

الفصل التاسع

نحو دليل المُشتَري للأديان

1- لمحبّة الله:

«هناك حالة ذهنيّةٌ يعرفها رجال الدين دون غيرهم، حيث أثبتنا ذاتنا عن طريق الرغبة في إغلاق أفواهنا وأن نقف صاغرين أمام ملكوت الله، في هذه الحالة الذهنيّة، أصبح أكثر ما يخيفنا هو الركون إلى سلامتنا، وتحوَّلت ساعة موتنا الأخلاقي إلى عيد ميلادنا الروحي، لقد انتهى زمن التوتُّر في أرواحنا، وقد حان وقت الاسترخاء السعيد، والهدوء، والتنفّس العميق، والحاضر الأبدي، مع عدم وجود مستقبلٍ نقلق بشأنه» - وليام جيمس، أصناف التجربة الدينيّة

يؤمن معظم النَّاس بالإيمان بالله، حتَّى أولئك الذين لا يستطيعون الإيمان بالله (طوال الوقت)، لماذا يؤمنون بذلك؟

الجواب الواضح هو أنّهم يريدون أن يكونوا جيّدين؛ أي أنّهم يريدون أن يعيشوا حياةً جيّدةً وذات مغزى، ويريدون ذلك للآخرين أيضاً، ولا يمكنهم رؤية طريقة أفضل للقيام بذلك من وضع أنفسهم في خدمة الله.

قد تكون هذه الإجابة صحيحة، وربّما يكونون على حقّ، ولكن قبل أن نتمكّن من النظر في هذه الإجابة بالعناية التي تستحقُّها، نحتاج إلى مواجهة التحدّي، يجد بعض الأشخاص -

وقد تكون أحدهم - هذا التصوُّر الكامل للمشكلة مرفوضاً، لذا سأدع البروفيسور «إيمان يحاول إعطاء إيضاحٍ مقبولٍ عن وجهة النظر هذه:

أنت تصرُّ على التعامل مع مسألة الدين كما لو كان الأمر أشبه بتبديل الوظائف، أو شراء سيَّارة، أو إجراء عمليَّة، وهي مسألةٌ يجب تسويتها من خلال التفكير بهدوءٍ وموضوعيَّةٍ في الإيجابيَّات والسلبيَّات، ثمَّ التوصُّل إلى استنتاجٍ حول أفضل مسار، «مع أخذ كل الأشياء في الحسبان».

ليس الأمر كما نراه إطلاقاً، فليس الإيمان بالله هو قناعتنا الراسخة، بل هي مسألة تتعلَّق بأفضل سياسةٍ عاميَّة للحياة تمكنَّا من اكتشافها، الأمر أبعد من ذلك بكثير! لقد تحدَّثت في الفصل السابق عن «زيّفه ربثما تَفهّمه»، لكنَّك لم تتمكَّن أبداً من وصف الحالة الرائعة لأولئك الذين فهموها، والذين تنجح محاولاتهم الصادقة لإشباع أنفسهم بروح الله.

من يعرف التجربة منَّا يعرف أنَّها لا تشبه أيَّ تجربةٍ أخرى، فرحةٌ أكثر دفئاً من فرحة الأمومة، وأعمق من فرحة الانتصار في الرياضة، وأكثر نشوةً من مباهج العزف أو غناء الموسيقى الرائعة، عندما نرى الضوء، فهي ليست مجرَّد تجربة صرخة دهشة، مثل اكتشاف لغزٍ أو رؤية شخصيَّة مخفية في رسمٍ ما فجأةً، أو سماع نكتة، أو الاقتناع من خلال مناقشة، إنَّها لا تصل إلى اعتقادٍ إطلاقاً، نحن نعلم إذن، أنَّ الله هو أعظم شيءٍ يمكن أن يدخل حياتنا، إنَّها ليست تجربة مثل قبول قضاء؛ إنَّها مثل تجربة الوقوع في الحب.

نعم أنا أسمعك، لقد عمدت إلى إعطاء هذا الفصل عنواناً استفزازيَّاً لتنشيط هذا القلق، ووضع هذا الاعتراض في دائرة الضوء. أدرك الحالة التي تصفها، وسأقدم تعديلاً وديّاً: إنَّها ليست مجرَّد وقوع في الحب؛ إنَّها نوعٌ من الوقوع في الحب.

إنَّ الانزعاج أو حتَّى الغضب الذي تشعر به عند مواجهتك بدعوتي الهادئة للنظر في إيجابيَّات وسلبيَّات دينك، هو ردُّ الفعل نفسه الذي يشعر به المرء عند سؤاله عن تقييمٍ صريحٍ لحبّه الحقيقي: «أنا لا أحبُّ حبيبتي فقط، لأنَّني أعتقد أنَّ كلَّ صفاتها الرائعة تفوق بكثير

عيوبها القليلة، أعلم أنَّها الشخص المناسب لي، وسأحبُّها دائماً من كلِّ قلبي وروحي».

يشتهر مزارعو «نيو إنجلاند» بقبضتهم الشديدة على عواطفهم، كما هو الحال مع أموالهم وكلماتهم، وإليكم نكتة قديمة من ولاية مين:

«كيف حال زوجتك يا «جيب»؟»

«مقارنةً بماذا؟»

يبدو أنَّ جيب لم يعد يحبُّ زوجته، وإذا كنت على استعداد للتفكير في مقارنة دينك بديانات الآخرين، أو بعدم وجود دينٍ إطلاقاً، فلابُد أنك لا تحبّ دينك، هذا حبٌّ شخصيٌّ للغاية (ليس مثل حبّ موسيقى الجاز أو البيسبول أو المناظر الجبليَّة)، ولكن لا يوجد شخصٌ واحد - لا كاهن ولا حاخام ولا إمام - أو حتَّى أيُّ مجموعةٍ من النَّاس -جماعة المؤمنين- هم المحبوب. ولاء المرء الذي لا يفنى ليس ولاءً لهم، فرديَّاً أو معاً، ولكن لنظام الأفكار الذي يوحّدهم، بالطبع، يقع النَّاس أحياناً في حبٍّ - حب رومانسي - مع كاهنهم أو مع زميلٍ أبرشي، وقد يكون من الصعب عليهم تمييز حبّهم لدينهم، لكنَّني لا أفترض أنَّ هذه هي طبيعة تجربة معظم محبّي الله، ومع ذلك فإنَّني أفترض أنَّ ولائهم المطلق، وعدم رغبتهم حتَّى في النظر إلى الفضائل مقابل الرذائل، هو نوعٌ من الحب، ويشبه الحبَّ الرومانسي أكثر منه الحبّ الأخوي أو العقلاني.

ليس من قبيل المصادفة أنَّه لا يمكن التمييز بين لغة الحبِّ الرومانسي ولغة الإخلاص الديني، وليس من قبيل المصادفة أيضاً أنَّ جميع الأديان تقريباً (مع استثناءاتٍ قليلةٍ صارمة، مثل البيوريتانيين والهزازات وطالبان) أعطوا عشَّاقهم وفرةً من الجمال لإثارة حواسهم: العمارة الشاهقة مع الزخرفة المطبَّقة على كلِّ سطح، الموسيقى، الشموع، والبخُّور.

تُتوَّج قائمة الأعمال الفنيَّةُ العظيمة في العالم بروائع دينيَّة، فبفضل الإسلام، لدينا قصر الحمراء، والمساجد الرائعة في أصفهان واسطنبول، وبفضل المسيحيَّة، لدينا آيا صوفيا وكاتدرائيَّات أوروبا، ليس عليك أن تكون مؤمناً حتَّى تسحرك المعابد البوذيَّة والهندوسيَّة والشنتويَّة ذات التعقيد السريالي والنسبة السامية.

تعدُّ أغاني سانت ماثيو باشون لـ «باخ»، ومسيح «هاندل»، وأعجوبة ترانيم عيد الميلاد، من بين أكثر أغاني الحبّ حماسةً إطلاقاً، والقصص التي وضعوها على الموسيقى هي في حدّ ذاتها مؤلّفاتٌ ذات قوّةٍ عاطفيّةٍ غير عاديّة، ربّما لم يكن المخرج السينمائي «جورج ستيفنز» يبالغ عندما وصف فيلمه عام 1965 عن حياة يسوع: بإنّه «أعظم قصّةٍ رويت إطلاقاً».

المنافسة شرسةٌ مع الأوديسا، الإلياذة، روبن هود، روميو وجولييت، أوليفر تويست، جزيرة الكنز، هاكلبيري فين، يوميّات آن فرانك، وجميع الروايات العظيمة الأخرى في الأدب العالمي، ولكن من أجل الفرح، الخطر، الشفقة، الانتصار، المأساة، الأبطال، الأشرار (ولكن لا يوجد تلطيف كوميدي)، من الصعب التغلّب عليها، وبالطبع القصّة لها مغزى.

نحن نحبُّ القصص، ويستخدم إيلي ويزل قصّةً لشرح ذلك:

عندما رأى مؤسّس اليهوديّة الحسيديّة[1]، الحاخام العظيم «إسرائيل شيم طوف»، أنَّ المحنة تهدّد اليهود، كان من عادته الذهاب إلى جزء معيّنٍ من الغابة للتأمُّل، هناك يشعل ناراً، ويصلّي صلاةً خاصّة، فتتحقّق المعجزة ويتمُّ تجنُّب المصيبة، في وقتٍ لاحق، عندما أُتيحَ لتلميذه المشهور، مجيد من ميزيريتيش[2] الفرصة، للسبب نفسه للتوسّل إلى السماء، كان يذهب إلى المكان نفسه في الغابة، ويقول: «سيّد الكون، اسمع! أنا لا أعرف كيف أشعل النار، لكنّي ما زلت قادراً على تلاوة الصلاة»، ومرّةً أخرى تتحقّق المعجزة.

في وقتٍ لاحق، ذهب الحاخام «موشيه ليب» من «ساسوف»، من أجل إنقاذ شعبه مرّةً أخرى إلى الغابة، وقال: «لا أعرف كيف أشعل النار، لا أعرف الصلاة، لكنّي أعرف المكان، وهذا يجب أن يكون كافياً»، وكان له ما أراد وتحقّقت المعجزة، ثمَّ وقع الاختيار على الحاخام

(1) هي حركة روحانية اجتماعية يهودية نشأت في القرن السابع عشر. مؤسس الحسيدية إسرائيل بن ألعازر، المعروف باسم إسرائيل شم طوف وتلميذه، المجيد من مزريتش، الذي بدوره نشر وعمم هذا في جميع أنحاء شرق أوروبا وتحولها إلى حركة كبيرة ومؤسسة. الفكر الحسيدي وخصوصاً في الأجيال الأولى تميزت بالدعوة إلى عبادة الرب وطاعته ومحبة إسرائيل واتباع الصالحين. وفي الأجيال الأخيرة تمتاز الحسيدية بشكل أساسي بوضع مزارات القاصدية مخصصة حول سلالات القاصدية.

(2) Maggid of Mezeritch

«إسرائيل» من «رزين» للتغلُّب على المحنة، تحدَّث إلى الله جالساً على كرسيّه، ورأسه بين يديه: «أنا غير قادرٍ على إشعال النار، ولا أعرف الصلاة، ولا يمكنني حتَّى أنَّ أجد المكان في الغابة، كلُّ ما يمكنني فعله هو أن أحكي القصَّة، وهذا يجب أن يكون كافياً»، وكان ذلك كافياً، خلق الله الإنسان لأنَّه يحبُّ القصص. [مقدمة 1966، (وليس Wiesel، 1972، كما هو الحال في العديد من المواقع على شبكة الإنترنت)]

لقد وُهِبْنا الكثير لنُحبَّه، وليس فقط الفن والقصص والاحتفالات الجميلة الخلَّابة، لقد أنجزت الأعمال اليوميَّة للمتدينين أعمالاً صالحةً لا تُحصى عبر التَّاريخ، حيث خفَّفت المعاناة وأطعمت الجياع وقامت برعاية المرضى. لقد جلبت الأديان راحة الانتماء والرفقة للكثيرين، الذين لولا ذلك لعاشوا الحياة بمفردهم دون مجدٍ أو مغامرة، لم يقدّموا الإسعافات الأوليَّة فقط، للأشخاص الذين يواجهون صعوبات؛ بل قد وفَّروا الوسائل لتغيير العالم بطرقٍ تزيل تلك الصعوبات. وكما يقول «آلان وولف»: «يمكن للدين أن يقود النَّاس للخروج من دورات الفقر والتبعيَّة، تماماً كما أخرج موسى من مصر» (2003، ص 139) يمكن لمحبي الدين أن يفخروا بالكثير من تقاليدهم، كما يجب علينا جميعاً أن نكون ممتنّين للكثير منها.

حقيقة أنَّ الكثير من النَّاس يحبُّون أديانهم أكثر من أيّ شيءٍ آخر في حياتهم، هي حقيقةٌ مهمَّةٌ بالفعل، لذا أميل إلى الاعتقاد بأنَّه لا يوجد شيءٌ يمكن أن يهمَّ أكثر ممَّا يحبُّه النَّاس. على أيّ حال، لا يمكنني التفكير في أيّ قيمةٍ سأضعها في الأعلى، لا أريد أن أعيش في عالمٍ بلا حبّ، هل سيكون العالم الذي يسوده السلام، ولكن من دون الحب، عالماً أفضل؟ ليس إذا تحقَّق السلام بتخدير الحبّ (والكراهية) فينا، أو بالقمع. هل يكون عالمٌ يسوده العدل والحرية، ولكن من دون حب، عالماً أفضل؟ ليس إذا تمَّ تحقيقه عن طريق تحويلنا جميعاً إلى ملتزمين بالقانون بلا حب، من دون أيٍّ من التوق أو الحسد أو الكراهية التي هي منابع الظلم والقهر.

من الصعب التفكير في مثل هذه الافتراضات، وأشكُّ إذا كان علينا الوثوق بأول أفكارنا عنها، ولكن لما يستحق، أعتقد أنَّنا جميعاً نريد عالماً يكون فيه الحب والعدالة والحرّيَّة والسلام كلّهم موجودين قدر الإمكان، ولكن إذا اضطررنا إلى التخلّي عن أحدها، فلن يكون، بل لا

ينبغي أن يكون الحب، لكن من المحزن أن نقول: حتَّى لو كان صحيحاً أنَّه لا يوجد شيءٌ يمكن أن يكون أهمَّ من الحب، فلن يترتَّب على ذلك أن نمتلك سبباً للتشكيك في الأشياء التي نحبُّها نحن والآخرون.

الحبُّ أعمى كما يقولون، ولأنَّ الحب أعمى، فإنَّه غالباً ما يؤدّي إلى مأساة، إلى صراعاتٍ يكون فيها حبُّ شخصٍ ضدَّ حبِّ شخصٍ آخر، ويجب على طرفٍ ما أن يتنازل، مع معاناةٍ أكيدةٍ في أيّ حل.

افترض أنَّني أحبُّ الموسيقى أكثر من الحياة نفسها، عند تساوي الأشياء الأخرى، يجب أن أكون حرَّاً في أن أعيش حياتي سعياً وراء تمجيد الموسيقى، الشيء الذي أحبُّه أكثر من كلِّ قلبي وروحي، لكنَّ هذا لا يمنحني الحقَّ في إجبار أطفالي على العزف على آلاتهم ليلاً نهاراً، ولا يمنحني الحقَّ كديكتاتور في بلد ما بفرض التربية الموسيقيَّة على كل إنسان، أو الحقَّ في تهديد حياة أولئك الذين لا يحبُّون الموسيقى.

إذا كان حبّي للموسيقى كبيراً لدرجة أنَّني ببساطةٍ غير قادرٍ على التفكير في آثارها بموضوعيَّة، فهذه إعاقةٌ مؤسفة، وقد يصرُّ الآخرون، لسببٍ وجيه، على الحقِّ في التصرُّف بدلاً عنّي، ويقررون بضميرٍ حي ما هو الأفضل للجميع، لأنَّ حبّي قد دفعني إلى الجنون، ولا يمكنني المشاركة بعقلانيَّةٍ في تقييم سلوكي وعواقبه.

قد لا يوجد شيءٌ أروع من الحب، لكنَّ الحبَّ لا يكفي، عالمٌ أدَّى فيه حبُّ مشجّعي لعبة البيسبول لفرقهم إلى كره الفرق الأخرى ومعجبيهم، حيث أنَّ الحرب القاتلة التي رافقت التصفيات ستكون عالماً أدّى فيه حبٌّ خالصٌ، نقيٌّ وخالٍ من اللوم في حدِّ ذاته، إلى عواقبَ لا أخلاقيَّة لا تطاق. لذلك، على الرَّغم من أنَّني أتفهَّم وأتعاطف مع أولئك الذين ينتقدون دعوتي للنظر في إيجابيَّات وسلبيَّات الدين، إلَّا أنَّني أصرُّ على أنَّه ليس لديهم الحقُّ في إطلاق العنان لأنفسهم بالإعلان عن محبَّتهم، ومن ثمَّ الاختباء خلف حجاب سخط الصالحين والمشاعر المعذَّبة.

الحبُّ لا يكفي، هل سبق لك أن واجهت مشكلةً موجعةً للقلب لصديقةٍ عزيزةٍ وقعت في حبِّ شخصٍ لا يستحقُّ حبَّها؟

إذا قلت لها أنَّه لا يستحقُّ حبَّها، فأنت تخاطر بخسارتها كصديقة، وستصفعك على وجهك بسبب إزعاجك لها، لأنَّ الأشخاص الذين يعيشون في الحبّ، غالباً ما يعدُّون الردَّ بشكلٍ غير عقلاني وعنيف على أيّ استخفافٍ بمحبوبهم، قضيَّة شرف، إنَّه جزءٌ من الهدف الكامل للوقوع في الحبّ بعد كلّ شيء.

عندما يقولون إنَّ الحبَّ أعمى، يقولون ذلك دون ندم، من الشائع أنَّ الحبَّ يجب أن يكون أعمى؛ يجب أن تكون فكرة التقييم بأكملها خارج الحدود عندما يتعلّق الأمر بالحبّ الحقيقي، لكن لماذا؟

الحكمة الشائعة لا تقدّم جواباً، وقد رفض الاقتصاديُّون المتشدّدون الفكرة منذ فترةٍ طويلة على أنَّها هراءٌ رومانسي، لكنَّ الاقتصادي التطوُّري روبرت فرانك أشار إلى أنَّ هناك في الواقع سبباً ممتازاً (عائماً حرّاً) لظاهرة الحبِّ الرومانسي في سوق البحث غير المنضبط عن الشريك البشري:

«لأنَّ البحث مكلف، فمن المنطقي الاستقرار على شريكٍ قبل فحص جميع المرشَّحين المحتملين، وبمجرَّد اختيار الشريك، تتغيَّر الظروف ذات الصلة في كثير من الأحيان[....]، وعدم اليقين الناتج يجعل من غير الحكمة القيام باستثماراتٍ مشتركةٍ من شأنها أن تكون في مصلحة كلا الطرفين، فمن أجل تسهيل هذه الاستثمارات، يريد كلُّ طرفٍ تقديم تعهُّدٍ ملزمٍ بالبقاء في العلاقة [....]، قد تستمرُّ الخصائص الشخصيَّة الموضوعيَّة في لعب دورٍ في تحديد الأشخاص الأكثر انجذاباً لبعضهم البعض في البداية، كما تشير الكثير من الأدلَّة، لكنَّ الشعراء محقُّون بالتأكيد في أنَّ الرابطة التي نطلق عليها الحب، لا تتكوَّن من مداولاتٍ عقلانيَّة حول هذه الخصائص، إنَّه رابطٌ جوهريٌّ يتمُّ فيه تقدير الشخص لمصلحته أو مصلحتها، وهنا بالتحديد تكمن قيمته كحلٍ لمشكلة الالتزام». [1988، ص 195-96]

كما يقول ستيفن بينكر: «التململ من نظرات حبيبك، وكسب القوة، ومعدَّل الذكاء الذي يلبّي الحدَّ الأدنى من المعايير الخاصَّة بك قد يقتل المزاج الرومانسي، وعلى الرَّغم من أنَّ العبارة صحيحةٌ إحصائيّاً: الطريق إلى قلب الشخص هو أن تعلن العكس؛ أنَّك «واقعٌ في الحبّ لأنَّ الأمر ليس في يدك» (1997، ص 418). هذا العجز الظاهر (أو على الأقل المُعلن عنه بشغف) هو أقرب ما يمكن إلى ضمان أنَّك لم تعد تبحث عن شريك، ومع ذلك، مثل جميع الإشارات الاتصاليَّة، إذا كان من الممكن تزويرها بثمنٍ بخس، فلن تكون إشارة التزامك فعَّالة، والنتيجة كما هو الحال في كثير من الأحيان في عالم إشارات الحيوانات، هي الدوَّامة التضخُّميَّة للإشارات المكلفة (زهافي، 1987). ليس الشبَّان المحبوبون فقط هم الذين يغمرون حبيباتهم بالهدايا التي بالكاد يستطيعون تحمُّل تكاليفها؛ تعريشة الطيور هي استثماراتٌ مكلفة، وكذلك «الهدايا الزوجية» من الطعام والسلع الأخرى التي يقدّمها ذكور العث والخنافس والصراصير والعديد من المخلوقات الأخرى.

هل تمَّ استغلال قدرتنا المتطوِّرة على الحب الرومانسي من قبل الميمات الدينيَّة؟ ستكون بالتأكيد خدعةً جيّدة، قد يُدفَعُ النَّاس إلى الاعتقاد بأنَّه من الشرفِ حقّاً أن يتَّخذوا موقفاً عدائيّاً، وأن يهاجموا جميع المتشكّكين بغضبٍ وقوَّة ومن دون خوفٍ على سلامتهم – ناهيك عن سلامة الشخص الذي يهاجمونه، هم يعتقدون أنَّ أحبَّاءهم لا يستحقُّون أقلَّ من هذا: التزامٌ كاملٌ بالقضاء على الكافر، ومن بين هذه الأشياء الفتاوى، لكنَّ هذه الميم لا تقتصر على الإسلام إطلاقاً، فهناك الكثير من المسيحيين المضلَّلين – على سبيل المثال– الذين سوف يفكّرون باستمتاع بإمكانيَّة إظهار عمق التزامهم من خلال الإساءة لجرأتي في التشكيك في محبَّتهم ليسوعهم، لذا قبل أن يتصرَّفوا وفقاً لأوهامهم المتسامحة مع أنفسهم، آمل أن يتوقَّفوا للحظةٍ للتفكير في أنَّ أيَّ فعلٍ من هذا القبيل سيؤدّي في الواقع إلى إهانة إيمانهم.

كانت بعض أكثر المشاهد حزناً في القرن الماضي هي الطريقة التي دنَّس بها المتعصّبون من جميع الأديان والأعراق مزاراتهم وأماكنهم المقدَّسة، وجلبوا الخزي والعار لقضاياهم، من خلال إهمال ولائهم المتعصّب. ربَّما كانت كوسوفو مكاناً مقدَّساً للصرب منذ معركة عام

1389، ولكن من الصعب أن نرى كيف يمكن للصرب أن يستمرُّوا في الحفاظ على ذكراهم بعد التَّاريخ الحديث. من خلال تدمير الآثار البوذيَّة «الوثنيَّة» في أفغانستان، أساءت طالبان إلى نفسها ودينها بطرقٍ قد تستغرق قروناً من الأعمال الصالحة للتكفير عنها. قتلُ المئات من المسلمين انتقاماً لمقتل عشرات الهندوس في معبد أكشاردام في ولاية غوجارات يلوّث سمعة الديانتين، اللتين يجب تذكير أتباعهما المتعصّبين بأنَّ بقيَّة العالم ليس متأثّراً فحسب، بل سئمٌ ومتعبٌ من مظاهر إخلاص كلٍّ منهم لديانته. ما سيثير إعجابنا حقّاً أيُّها الكفَّار هو إعلان- من جانبٍ واحدٍ أو مشترك- أنَّ الموقع المتنازع عليه أصبح من الآن فصاعداً قاعة العار، ولم يعد مقدَّساً، بل تذكيراً بكلِّ شرور التعصُّب.

منذ 11 سبتمبر 2001، اعتقدت كثيراً أنَّه ربَّما كان من حسن حظ العالم أنَّ المهاجين استهدفوا مركز التجارة العالمي بدلاً من تمثال الحرّيَّة، لأنَّهم لو دمَّروا رمزنا المقدَّس للديمقراطيَّة، فأنا أخشى ألَّا نتمكَّن نحن الأمريكيين من منع أنفسنا عن إطلاق العنان لنوبات انتقامٍ من النوع الذي لم يشهده العالم من قبل، لو حدث ذلك، لكان قد أُفسِدَ معنى تمثال الحرّيَّة بشكلٍ يفوق أيَّ أملٍ في الخلاص اللاحق، إن بقي أيُّ شخصٍ معني. لقد تعلَّمت من طلَّابي أنَّ هذا الفكر المزعج عندي يخضع للكثير من سوء الفهم المؤسف، لذا اسمحوا لي أن أتوسَّع في الأمر لدرئه: كان قتل الآلاف من الأبرياء في مركز التجارة العالمي جريمةً شنعاء، وأعظم شرّاً بكثير من تدمير تمثال الحرّيَّة. نعم، كان مركز التجارة العالمي رمزاً أكثر ملاءمةً لغضب القاعدة ممَّا كان يمكن أن يكون عليه تمثال الحرّيَّة، لكن لهذا السبب بالذات لم يكن يعني الكثير، كرمزٍ بالنسبة لنا، لقد كان مركز التجارة العالمي رمزاً لجشع الأثرياء والعولمة، وليس سيّدة الحرّيَّة. إنَّني أشكُّ في أنَّ الغضب الذي كان من الممكن أن يتفاعل به العديد من الأمريكيين مع التدنيس الذي لا يوصف لرمزنا الوطني العزيز، والذي هو أنقى صورةٍ لتطلُّعاتنا كدولةٍ ديمقراطيَّة، كان من شأنه أن يجعل الردَّ العقلاني والمحسوب صعباً للغاية، هذا هو الخطر الكبير للرموز؛ يمكن أن تصبح «مقدَّسةً» للغاية. من المهام الأساسيَّة للنَّاس المتدينين من جميع الأديان في القرن الحادي والعشرين، نشر قناعةٍ بأنَّه لا توجد أفعالٌ مخزيةٌ أكثر من إيذاء «الكفَّار» من فئةٍ أو آخرى بسبب «عدم احترام» علمٍ أو صليبٍ أو

نصٌّ مقدَّس.

من خلال طلب حسابٍ لإيجابيّات وسلبيّات الدين، فأنا أخاطر بالتدخُّل فيما لا يعنيني أو مَا هو أسوأ، ومع ذلك فأنا أصرّ، لماذا؟ لأنّني أعتقد أنّه من المهمّ للغاية كسر هذه التعويذة، وحملنا جميعاً على النظر بعنايةٍ في السؤال الذي بدأت به هذا القسم: هل النَّاس محقُّون في أنّ أفضل طريقة لعيش حياةٍ كريمة هي من خلال الدين؟ واجه ويليام جيمس المشكلة نفسها مباشرةً عندما ألقى محاضرات جيفورد التي أصبحت كتابه العظيم (تنوُّع التجربة الدينيَّة) وسأكرر دعوته للتسامح:

«أنا لست من محبّي الفوضى وأشكُّ بذلك، بل أخشى أن أفقد الحقيقة بادّعائي امتلاكها بالكامل فعلاً، يمكننا كسب المزيد والمزيد من ذلك من خلال التحرّك دائماً في الاتجاه الصحيح، فأنا أؤمن مثل أيّ شخصٍ آخر، وآمل أن أوصلكم جميعاً إلى طريقة تفكيري قبل إنهاء هذه المحاضرات، حتَّى ذلك الحين، أدعوكم ألَّا تكونوا متعنتين بشكلٍ لا رجعة فيه ضدَّ التجريبيَّة التي أنادي بها». [1902، ص. 334]

2- شاشة التضليل الأكاديميَّة:

«تشير كلمة الله إلى «عمقٍ» و«كمال» بخلاف أيّ شيءٍ نعرفه نحن البشر أو يمكننا معرفته، من المؤكّد أنّه يفوق قدرتنا على التمييز والتسمية» - جيمس ب. أشبروك وكارول راوش أولبرايت، العقل البشري

«الغموض هو لغز، من ناحيةٍ أخرى، إذا اعتبرنا أنّه من المهمّ دراسة كيفيَّة تواصل النَّاس حول فكرة كون الشيء لغزاً، فلا يوجد سببٌ مسبقٌ يجعل هذا غير خاضعٍ للمنهج العلمي» —إلكا Pyysièainen، كيف يعمل الدين.

«إنَّ مقاومة سيل الدين المدرسي بمثل هذه الأقوال الضعيفة التي تنصُّ على استحالة وجود الشيء نفسهِ وعدم وجوده، وأنَّ الكلَّ أكبر من الجزء، وأنَّ اثنين وثلاثة يساويان خمسة؛ هو

كمن يتظاهر بإيقاف المحيط بثور، هل ستُنشئُ عقلاً دنساً ضدَّ السرّ المقدَّس؟ لا عقاب كبيراً بما فيه الكفاية لمعاصيك، والحرائق نفسها، التي أُحرِقَ فيها الزنادقة، ستعمل أيضاً على تدمير الفلاسفة» - ديفيد هيوم، التاريخ الطبيعي للدين.

كان جيمس يحاول منع إقصاء المتدينين، لكنَّهم ليسوا الوحيدين الذين يلجأون إلى الحمائيَّة، لقد أقام أصدقاء الدين العلماء -وكثيرٌ منهم خبراء ملحدون أو محايدون، وليسوا من أبطال أيّ عقيدة- حاجزاً أكثر دقَّة وأقلّ صراحة، ولكنَّه محبطٌ بالقدر نفسه أمام التحقيق المباشر في طبيعة الدين، إنَّهم يريدون أن يدرسوا الدين، ولكن على طريقتهم فقط، وليس بالطريقة التي أقترحها، والتي هي بنظرهم «علميَّة»، «اختزاليَّة»، وبالطبع تافهة، وقد أشرت إلى هذه المعارضة في الفصل الثاني، عندما ناقشت الفجوة الأسطوريَّة التي يريد الكثيرون رؤيتها بين العلوم الطبيعيَّة والعلوم التفسيريَّة.

يمكن لأي شخصٍ يحاول تقديم منظورٍ تطوُّري للتأثير على أيّ عنصرٍ من عناصر الثقافة الإنسانيَّة، وليس الدين فقط، أن يتوقَّع صدماتٍ تتراوح بين صيحات الغضب إلى الإقصاء المتعجرف من الخبراء الأدبيين والتَّاريخيين والثقافيين في العلوم الإنسانيَّة والاجتماعيَّة.

عندما تكون الظاهرة الثقافيَّة هي الدين، فإنَّ الخطوة الأكثر شيوعاً هي الإقصاء الوقائي، وهي خطوةٌ معروفةٌ جيّداً منذ القرن الثامن عشر، عندما تمَّ استخدامها لتشويه سمعة الملحدين والربوبيين الأوائل (مثل ديفيد هيوم والبارون دي هولباخ، وبعض الأبطال الأمريكيين العظماء، بنجامين فرانكلين وتوماس باين).

إليكم نسخةً من أوائل القرن العشرين من إميل دوركهايم: «من لا يجلب نوعاً من المشاعر الدينيَّة إلى دراسة الدين، لا يمكنه التحدُّث عنه! إنَّه مثل رجلٍ أعمى يحاول التحدُّث عن اللون» (1915، P.XVII) وهنا، بعد نصف قرن، هناك نسخةٌ يتمُّ اقتباسها كثيراً من عالم الدين العظيم ميرسيا إلياد:

«لن يتمَّ التعرُّف على ظاهرةٍ دينيَّةٍ على هذا النحو، إلَّا إذا تمَّ استيعابها على مستواها

الخاصّ؛ أي إذا تمّت دراستها على أنّها شيءٌ ديني، محاولة فهم جوهر هذه الظاهرة عن طريق علم وظائف الأعضاء، وعلم النفس، وعلم الاجتماع والاقتصاد واللغويات والفن، أو أيّ دراسةٍ أخرى هو خطأ؛ إنّه يفتقد العنصر الوحيد الذي لا يمكن اختزاله فيه - عنصر المقدّس». [P.III ،1963]

يمكنك العثور على ادّعاءاتٍ مماثلةٍ حول الإقصاء الوقائي لحماية مواضيع أخرى.النساء فقط مؤهّلاتٌ للقيام بأبحاث عن النساء (وفقاً لبعض النسويّات الراديكاليّات)، لأنّهنّ وحدهنّ قادراتٌ على التغلّب على مركزيّة القضيب[1]phallocentrism التي تجعل الذكور أغبياء ومتحيّزين بطرقٍ لا يمكنهم أبداً الاعتراف بها والتصدّي لها. يصرُّ بعض أتباع التعدُّديّة الثقافيّة على أنّ الأوروبيين (بمن فيهم الأمريكيُّون) لا يمكنهم حقّاً إلغاء المركزيّة الأوروبيّة المُعطِّلة، وفهم ذاتيّة شعوب العالم الثالث، لذا يحتاج المرء إلى معرفةٍ واحدة، وفقاً لهذا الموضوع في جميع أشكاله. حسناً، إذاً، هل يجب علينا جميعاً أن نتقوقع في جيوبنا الانعزاليّة وننتظر الموت حتّى يسيطر علينا، لأنّنا لا نستطيع أبداً فهم بعضنا البعض؟ ثمّ هناك نوعٌ من الانهزاميّة في تخصُّصي الأساسي (فلسفة العقل) العقيدة الغامضة التي تصرُّ على أنّ الدماغ البشري ببساطةٍ لا يرقى إلى مهمّة فهم الدماغ البشري، وأنّ الوعي ليس لغزاً، ولكنّه لغزٌ غير قابلٍ للحل (لذا توقّف عن محاولة شرح ذلك). ما هو واضحٌ في كلِّ هذه الادّعاءات هو أنّها ليست انهزاميّةً بقدر ما هي حمائيّة: لا تحاول حتّى، لأنّنا نخشى أنّك قد تنجح! «لن تفهم سحر الشارع الهندي أبداً إذا لم تكن هنديّاً مولوداً في طبقة السحرة، فهذا مستحيل،» لكن بالطبع هذا ممكن (سيجل، 1991)، و»لن تفهم الموسيقى أبداً إلّا إذا ولدت بأذنٍ موسيقيّةٍ عظيمة، وطبقة صوتٍ مثاليّة»، كلام فارغ. في الواقع، ينتج الأشخاص الذين يجدون صعوبةً في التَدَرُّب كموسيقيين أحياناً رؤىً عميقةً حول طبيعة الموسيقى وكيفيّة أدائها، والتي لم تكن متاحةً لأولئك الذين يتسللون بسهولةٍ إلى إتقان الموسيقى، وبالمثل، فقد توصّل تمبل

---

(1) مركزية القضيب: هي الإيديولوجية القائلة بأن القضيب، أو العضو الجنسي الذكري، هو العنصر المركزي في تنظيم العالم الاجتماعي. تم تحليل Phallocentrism في النقد الأدبي والتحليل النفسي وعلم النفس واللغويات والطب والرعاية الصحية والفلسفة. ويكيبيديا

جراندين (1996)، وهو مصابٌ بالتوحّد، ولذلك لديه أذنٌ من طين تجاه الموقف المقصود وعلم النفس الشعبي، إلى ملاحظات مذهلةٍ حول كيفيَّة استياء النَّاس من أنفسهم وتفاعلهم، وهي رؤىً هربت من بقيَّتنا كأشخاصٍ عاديين.

لن ندع أباطرة الأعمال يفلتون بقول ذلك، بما أنَّنا لسنا من الأثرياء، فلا يمكننا أن نأمل في فهم عالم التمويل المتقدّم، لذلك تمَّ استبعادنا من التحقيق في صفقاتهم لعدم أهليَّتنا. لا يمكن للجنرالات الهروب من الإشراف المدني من خلال الادّعاء بأنَّ أولئك الذين يرتدون الزيَّ العسكري فقط، هم من يمكنهم تقدير ما يفعلونه، وكان على الأطبَّاء أن يضعوا أساليبهم وممارساتهم أمام تدقيق الخبراء من غير الأطباء. سيكون تقصيراً في الواجب بالنسبة لنا أن نسمح للمولعين بالأطفال جنسياً بالإصرار على أنَّ أولئك الذين يقدّرون الالتزام بالتحرش الجنسي بالأطفال، هم فقط من يمكنهم فهمهم على الإطلاق، لذا فإنَّ ما قد نقوله لأولئك الذين يصرُّون على أنَّ أولئك الذين يؤمنون فقط – فقط أولئك الذين لديهم تقديرٌ عميقٌ للمقدَّس، هم الذين يجب أن يُعهَد إليهم بالتحقيق في الظواهر الدينيَّة– هو أنَّهم ببساطةٍ مخطئون فيما يتعلَّق بكلٍّ من الحقائق والمبادئ، إنَّهم مخطئون بشأن القدرات التخيُّليَّة والتحقيقيَّة لمن سيستبعدونهم، وهم مخطئون في افتراض أنَّه قد يكون من المبرَّر لأيِّ سبب قصر التحقيق في الدين على المتدينين. إذا قلنا هذا بأدبٍ وحزمٍ، فقد يتوقَّفون في النهاية عن استخدام هذه الحجَّة ويدعوننا نواصل تحقيقاتنا، رغم أنَّ افتقارنا إلى الإيمان قد يشكّل عائقاً، علينا فقط أن نعمل بجدّيَّةٍ أكبر.

إنَّ ستار التضليل ذا الصلة هو الإعلان الأكثر عموميَّةً بأنَّ طرق العلوم الطبيعيَّة لا يمكن أن تحقّق تقدُّماً في الثقافة البشريَّة، الأمر الذي يتطلَّب «السيميائيَّة» أو «التأويل»، وليس التجارب. أحد الدعاة المفضَّلين لهذا الموقف هو عالم الأنثروبولوجيا كليفورد غيرتز، الذي صاغ الأمر على هذا النحو:

معتقداً مع ماكس فيبر بأنَّ الإنسان حيوانٌ معلَّقٌ في شبكاتٍ ذات أهميَّة نسجها بنفسه، فأنني أعتبر الثقافة هي تلك الشبكات، لذا فإنَّ تحليلها ليس علماً تجريبيَّاً يبحث عن قانون،

ولكنّه قانونٌ تفسيريٌّ يبحث عن المعنى». [1973، ص. 5]

وبالعودة إلى عام 1973، ربَّما تكون هذه الحجَّة قد نجحت في حشد التأييد، ولكنَّها حجَّة عفا عليها الزمن، لا شكَّ في أنَّنا كبشرٍ نقوم بنسج شبكاتٍ ذات أهميَّة، ولكن يمكن تحليل تلك الشبكات من خلال الأساليب التي تنطوي بشكلٍ حاسم على التجارب والأساليب المنظَّمة للعلوم الطبيعيَّة. التفسير في العلوم الطبيعيَّة لا يتعارض مع التجربة، لا يندرج كلُّ العلم تحت طائلة بعض القوانين، كما أن كلُّ العلوم المعرفيَّة والبيولوجيا التطوُّريَّة، على سبيل المثال، تفسيريَّةٌ بطرقٍ تتوازى بشكلٍ وثيق مع بعض الاستراتيجيَّات التفسيريَّة للعلوم الإنسانيَّة والانثروبولوجيَّة. (دينيت، 1983، 1995).

في الواقع، إحدى الاختلافات الجادَّة القليلة بين العلوم الطبيعيَّة والعلوم الإنسانيَّة، هو أنَّ العديد من المفكّرين في العلوم الإنسانيَّة قرَّروا أنَّ ما بعد الحداثيين على حقّ، إنَّها كلُّها مجرَّد قصص، والحقيقة كلُّها نسبيَّة. أعلن مؤخراً عالم أنثروبولوجيا ثقافيَّة، لم يذكر اسمه لطلَّابه، أنَّ أحد الأشياء العظيمة في مجاله هو أنَّه – في ضوء مجموعة البيانات نفسها– لن يتوصَّل اثنان من علماء الأنثروبولوجيا إلى التفسير نفسه، نهاية القصَّة. غالباً ما يكون للعلماء مثل هذه الخلافات حول كيفيَّة تفسير مجموعةٍ مشتركة من البيانات غير المتنازعة عليها، ولكن بالنسبة لهم هذه هي بدايةٌ مهمَّةٌ للحل: أيٌّ منها مخطئ؟ تمَّ تصميم التجارب والتحليلات الإحصائيَّة الأخرى وما شابه ذلك للإجابة على السؤال – من خلال اكتشاف حقيقة (ليست الحقيقة «T» الكبيرة[1] حول كلّ شيء، ولكن فقط الحقيقة المُملة حول هذا الاختلاف الواقعي الصغير المعيّن) هذه العمليَّة اللاحقة (التي قد تستغرق سنوات) والتي عدَّها هؤلاء الأيديولوجيُّون، الذين يسخرون من فكرة وجود حقائق موضوعيَّةٍ حول مثل هذه الأمور يجب اكتشافها، مستحيلةٌ أو غير ضروريَّة، لا يمكنهم الادّعاء بإثبات أنَّه لا يوجد شيءٌ اسمه الحقيقة الموضوعيَّة، بالطبع، لأنَّ ذلك سيعني تناقضهم مع أنفسهم بشكلٍ

(1) أفضل وصف للحقيقة بحرف T كبير هو نظرية التناظر للحقيقة. التي تنص، بشكل عام، على وجود واقع موضوعي يمكن أن تتوافق معه البيانات والأفكار والمطالبات. فإذا كانت الفكرة تتوافق مع الواقع، فهي حقيقية.

صارخ، وأنَّ لديهم على الأقلّ هذا القدر من الاحترام للمنطق. لذا فهم يكتفون بالتغاضي عن وقاحة وسذاجة أيّ شخصٍ ما يزال يؤمن بالحقيقة. من الصعب التعبير عن مدى ملل هذا الوابل من السخرية الدفاعيَّة، لذا فليس من المستغرب أن يتوقَّف بعض المحقّقين عن محاولة دحضها، مكتفين بالسخرية منها بدلاً من ذلك.

على سبيل المثال، أنا الآن أكتب على لوحة المفاتيح الخاصَّة بي بهدف إنشاء قصَّةٍ متماسكة حول منطق ما بعد الحداثة، وإذا كان شخصٌ ما يدرسني، فقد ينظر إلى ما هو أبعد من نيَّة المستوى السطحي التي عرضتها للتوّ، ويستنتج بدلاً من ذلك أنَّ ما أفعله حقّاً هو اختراع قصَّةٍ عن تجاربي الشخصيَّة لأغراض تطوير مسيرتي الأكاديميَّة. لتحقيق ذلك، قد يجادل، بأنني أقوم ببناء خطابٍ يميّزني عن الآخرين، ومن ثمَّ يزيد من قيمتي ككاتب (كلّما أربكتك كلّما بُدوتُ أذكى!) لماذا أفعل هذا؟ لأنّني رجلٌ بروتستانتيٌّ أبيض مهتمٌّ بنفسي، وغير مثلي الجنس، ويستخدم المعرفة من أجل السلطة (استراتيجيَّةٌ ليست ذكيَّة، بل للتلاعب والاستغلال) بالنسبة لما بعد الحداثيين، فإنَّ ما يتمُّ تقديمه على أنَّه حقيقة (على سبيل المثال، هذا الكتاب) هو اختراع، مجرَّد نظرةٍ على الواقع، يخفي ما أفعله حقّاً - خداع الجميع من أجل اكتساب القوَّة والحفاظ عليها. [سلون، 2004، ص 39-40]

الروَّاد الذين قدَّمت أعمالهم العلميَّة حول الدين - أتران، بوير، دايموند، دنبار، لوسون، ماكولي، ماكلينون، سبيربر، ويلسون، والبقيَّة - جميعهم يجب أن يتعاملوا مع هذا الأمر، وقد يكون من الممتع، في النهاية، أن نرى كيف يستعدُّون جميعاً لمواجهة هذا الهجوم، وأن يسيروا على خطى ويليام جيمس، يتوسَّلون لجمهورٍ منفتح الذهن، والمفارقة هي أنَّ هؤلاء المتطفّلين الجريئين كانوا أكثر وعياً في محاولاتهم للحصول على وجهة نظرٍ متعاطفةٍ ومستنيرة للدين، أكثر ممَّا حاول أولئك الذين نصَّبوا أنفسهم كمدافعين عن الدين، لفهم وجهة نظر وأساليب أولئك الذين يقاومونهم. عندما يدرس المدافعون الإنسانيُّون علم الأحياء التطوُّري وعلم الأعصاب الإدراكي (والإحصاء وبقيَّة العلوم) بنفس الطاقة والخيال الذي كرَّسه العلماء لدراسة تواريخ وطقوس ومعتقدات الأديان المختلفة، سيصبحون نقَّاداً جديرين للديانات

المختلفة، العمل الذي يخشونه.

عندما تجرَّأ والتر بوركيرت الكلاسيكي في زيورخ على تعريض زملائه علماء الإنسانيَّات للتفكير البيولوجي حول أصول الدين في محاضرات جيفورد عام 1989، أصبح حقًّاً أول عالم إنسانيَّاتٍ يحاول عبور الهوَّة في الاتجاه الآخر. بوركيرت هو مؤرّخٌ بارزٌ للدين القديم، تمّت قراءته على نطاقٍ واسعٍ في الأنثروبولوجيا واللغويَّات وعلم الاجتماع، وقد بدأ في تثقيف نفسه في علم الأحياء التطوُّري الذي يرى بوضوح أنَّه يجب أن يكون أساساً لجهوده الخاصَّة في التنظير. إنَّ إحدى مُتع قراءة كتابه «خلق المقدَّس: مسارات علم الأحياء في الأديان المبكرة» (1996) هي رؤية مدى قيمة كنزه الدفين من الرؤى التَّاريخيَّة عندما يتمُّ وضعه في سياق الأسئلة البيولوجيَّة، وأحد أسباب التردد هو معرفة كيف يعتقد بحذر، بأنَّه ينبغي عليه أن يمشي على رؤوس أصابعه كي لا يثير حساسيَّات زملائه علماء الإنسانيَّات، عندما يقدّم هذه المفاهيم البيولوجيَّة المخيفة في عالمهم (Dennett، 1997، 1998b).

لدى العلماء الكثير لتعلُّمه من المؤرّخين وعلماء الأنثروبولوجيا الثقافيَّة، والبنية التحتيَّة للتعاون البنَّاء موجودةٌ بالفعل في شكل مجلَّاتٍ متعدّدة التخصُّصات، مثل: Journal for the Scientific Study of Religion and Method & Theory in the Study of Religion، Journal of Cognition and Culture، بالإضافة إلى الجمعيات المهنيَّة ومواقع الويب.

يتمثَّل أحد أهدافي في هذا الكتاب في تسهيل دخول الباحثين اللاحقين إلى هذه المناطق المحظورة، والعثور على مواطنين ودودين يتعاونون معهم، دون الحاجة إلى شقِّ طريقهم عبر غابةٍ من المدافعين المعادين، سوف يكتشفون أنَّ علماء الأنثروبولوجيا والمؤرّخين قد فكَّروا بالفعل في معظم أفكارهم «الجديدة»، ولديهم الكثير ليقولونه حول ماهيَّة المشكلات معهم، لذلك أوصي بأنَّ التصرُّفَ بتواضع، وطرحَ الكثير من الأسئلة، وتجاهلَ الفظاظة، والتنازلَ بشكلٍ كبير، يلهم أولئك الذين يخشون اقترابهم.

3- لماذا يهمُّ ما تؤمن به؟

«اليوم علينا تغيير موقفنا من الوصف إلى التقدير، علينا أن نسأل عمّا إذا كانت الثمار المعنيّة يمكن أن تساعدنا في الحكم على القيمة المطلقة لما يضيفه الدين إلى حياة الإنسان» - وليام جيمس، أصناف التجربة الدينيّة

«ليس الأمر فقط أنّني لا أؤمن بالله، وبالطبع أتمنّى ألّا يكون هناك إله! لا أريد أن يكون هناك إله، لا أريد أن يكون الكون هكذا» — توماس ناجل، الكلمة الأخيرة

لدينا انحرافٌ أخير يجب تركه جانباً قبل أن نتمكّن من معالجة السؤال الرئيس بأمان، لماذا نؤمن بالإيمان بالله؟ يجيب كثيرٌ من النّاس: ببساطة لأنّ الله موجود! يؤمنون بالأشجار والجبال والطاولات والكراسي والنّاس والأماكن والرياح والمياه، وبالله.

هذا من شأنه أن يفسّر حقّاً إيمانهم بالله، ولكن ليس حقيقة أنّهم يعدُّون الإيمان بالله أمراً مهمّاً للغاية، على وجه الخصوص، لماذا يهتمُّ النّاس كثيراً بما يؤمن به الآخرون عن الله؟ أعتقد أنّ مركز الأرض يتكوّن أساساً من الحديد المصهور والنيكل، بالنسبة لأشياء أخرى أعتقد أنّها حقيقةٌ كبيرةٌ ومثيرة. فقط تخيَّل: أنّ هناك كرةٌ من الحديد المصهور والنيكل بالقرب منك؛ إنّها بحجم القمر وهي أقرب بكثير، في الواقع، إنّها بيني وبين أستراليا! كثيرٌ من النّاس لا يعرفون هذا، وهو أمرٌ سيّئٌ للغاية بالنسبة لهم - لأنّها حقيقةٌ مبهجةٌ للغاية، لكن لا يزعجني حقّاً أنّهم لا يشاركونني إيماني أو سعادتي، لماذا يهمُّ كثيراً ما إذا كان الآخرون يشاركونك إيمانك بالله.

هل يهتمُّ الله؟ أستطيع أن أرى أنّ يهوه قد يكون منزعجاً حقّاً إذا وجد الكثير من النّاس غافلين عن قوّته وعظمته، جزءٌ ممّا يجعل يهوه مشاركاً رائعاً في قصص العهد القديم هو غيرته وكبريائه كملك، وشهيّته الكبيرة للتسبيح والتضحيات، لكنّنا تجاوزنا هذا الإله (أليس كذلك؟). إنّ الذكاء الإبداعيَّ الذي يُفترض - من قبل الكثيرين - أنّه قام بكلِّ أعمال التصميم التي ينسبها أنصار التطوُّر إلى الانتقاء الطبيعي، ليس من النوع الذي يمكن أن يكون غيوراً، أليس كذلك؟ أعرف أساتذةً يمكن أن ينزعجوا بشدّة إذا تظاهرت أنّك لم تسمع بعملهم المنشور، لكن من الصعب أن أفهم لماذا سيهتمُّ الذكاء الإبداعيُّ الذي اخترع

الحمض النوويّ ودورة التمثيل الغذائي وأشجار المانغروف وحيتان العنبر، بما إذا كانت أياً من مخلوقاته أقر بتأليفه لها، لا يهتمُّ القانون الثاني للديناميكا الحراريَّة بما إذا كان أيُّ شخصٍ يؤمن به، وأعتقد أنَّ أساس كلِّ الوجود يجب أن يكون محرّكاً غير متأثرٍ بالمثل.

أخبرني عالم أنثروبولوجيا ذات مرَّةٍ عن قبيلةٍ أفريقيَّة (لا أتذكَّر اسمها) سارت تعاملاتها مع جيرانها بوتيرةٍ جيّدة، كان المبعوث الذي يتمُّ إرساله سيراً على الأقدام إلى مستوطنة قبيلةٍ مجاورة يرتاح ليومٍ واحدٍ بعد وصوله، قبل إجراء أيّ عملٍ رسمي، حيث كان عليه أن ينتظر روحه لتلحق به.الأرواح في تلك الثقافة تمشي ببطء، على ما يبدو، يمكننا أن نرى تأخُّراً زمنيّاً مشابهاً في هجرة العديد من المؤمنين من إلهٍ شديد التجسُّد، إلى إلهٍ أكثرَ تجريداً وصعب التخيُّل، ما يزالون يستخدمون لغةً مجسَّمةً عند الحديث عن إلهٍ (كهذا) ليس كائناً خارقاً على الإطلاق، ولكنَّه مجرَّد جوهر (باستخدام مصطلحات ستارك المفيدة، وإن كانت غير صحيحةٍ فلسفيّاً). من الواضح كفايةً لماذا يفعلون ذلك: فإن ذلك يسمح لهم بتحمُّل كلِّ الدلالات المطلوبة لفهم أيّ معنىً للحبّ الشخصي لله، يمكن للمرء أن يشعر- كما أفترض- ببعض المودَّة أو الامتنان لقانون الطبيعة - «الجاذبيَّة الجيِّدة، إنَّها لا تخذلك أبداً!»- لكنَّ الهدف المناسب للعشق يجب أن يكون نوعاً ما من الأشخاص، ولكن لا يمكن تصوُّره إلَّا مثلنا، متحدِّثاً يمشي على قدمين وبلا ريش، شخصاً يخيب أمله فيك حرفيّاً إذا أسأت التصرُّف، ويستجيب لصلواتك ويغفر لك، لذلك فقد تسامح رجال الدين مع ذلك «الخطأ اللاهوتي» الذي يستمرُّ في تصوير الله على أنَّه رجلٌ عجوزٌ حكيمٌ في السماء، لا بل شجَّعوه بقوَّةٍ أيضاً.

رأى ويليام جيمس في مطلع القرن العشرين: «حاليّاً، الإله الذي يتطلَّب تضحياتٍ نازفةً لتهدئته سيكون دمويّاً جدّاً، بحيث لا يمكن أخذه على محمل الجدّ» (1902، ص 328)، ولكن بعد قرنٍ من الزمان، وافق القليلون علناً مع توماس ناجل عندما قال صراحةً: إنَّه لا يرغب بوجود مثل هذا الإله (أشكُّ فيما إذا كان ناجل قد وجد كتاب سبينوزا **Deus sive Natura** - الله، أو الطبيعة - بغيضاً). يصرُّ الكثير من النَّاس- إذا تمَّ الضغط عليهم- على أنَّ اللغة المجسَّمة تستخدم لوصف الله مجازيّاً وليس حرفيّاً، قد يفترض المرء، إذاً، أنَّ

الصفة الغربية «الخوف من الله» قد تلاشت على مرِّ السنين، وهي أثرٌ أحفوريٌّ لقصور وعي محرج إلى حدٍّ ما في ماضينا الديني، ولكنّها بعيدةٌ كلَّ البعد عن ذلك. يريد النَّاس إلهاً يمكن أن يُحبَّ ويُخشى منه، كما تحبُّ أو تخشى شخصاً آخر، فالدين باختصار: هو فصلٌ هائلٌ في تاريخ الأنانيَّة البشريَّة؛ الآلهة التي يُؤمَنُ بها - سواءٌ من قبل المتوحّشين الفظّين أو من قبل الرجال المنضبطين فكريّاً - تتّفق مع بعضها البعض في التعرُّف على الدعوات الشخصيّة»، لاحظ جيمس،»اليوم، كما في أيّ عصرٍ سابق، يخبرك الشخص المتديّن أنَّ الإله يلبّي اهتماماته الشخصيَّة» (1902، ص 491).

بالنسبة لكثيرٍ من المؤمنين كلُّ هذا واضح تماماً؛ إنَّ الله شخصٌ يتحدَّث إليهم مباشرةً، إن لم يكن يوميّاً، فعلى الأقل عن طريق وحي يحدث مرَّةً واحدةً في العمر، لكن كما أشار جيمس: لا ينبغي للمؤمنين أن يعوّلوا كثيراً على مثل هذه التجارب، فقد تأتي الأحداث الخارقة الطبيعيَّة، مثل الأصوات والرؤى والانطباعات الطاغية عن معنى نصوص الكتاب المقدَّس التي تظهر فجأة، وانصهار المشاعر والعواطف المضطَّربة المرتبطة بأزمة التغيير، بشكلٍ طبيعي، أو الأسوأ من ذلك، أن يختلقها الشيطان. [1902، ص. 238]

لذلك مهما كان بعض النَّاس مقتنعين بتجاربهم الشخصيَّة القويَّة، فإنَّ مثل هذه الاكتشافات لا تذهب أبعد من ذلك؛ لا يمكن استخدامها كمساهماتٍ في المناقشات المجتمعيَّة التي نجريها الآن. غالباً ما ناقش الفلاسفة واللاهوتيُّون مسألة ما إذا كانت الأفعال جيّدةً لأنَّ الله يحبُّها، أم أنَّ الله يحبُّها لأنَّها صالحة، وعلى الرَّغم من أنَّ هذه الاستفسارات قد يكون لها معنىً ضمن التقليد اللاهوتي في أيَّة بيئةٍ مسكونيَّة، حيث نتطلَّع إلى إجماعٍ «كوني» علينا أن نختار الافتراض الأخير، إضافةً إلى ذلك، فإنَّ أدلَّة التَّاريخ توضّح أنَّه بمرور الوقت تغيَّر الشعور الأخلاقي للنَّاس فيما هو مباح وما هو شنيع، وتغيَّرت معه قناعاتهم فيما يحبُّ الله وما يكرهه. أولئك الذين يرون أنَّ التجديف أو الزنا جريمتان تستحقَّان عقوبة الإعدام، هم اليوم أقليَّةٌ متضائلة، الحمد لله، ومع ذلك فإنَّ السبب الذي يجعل النَّاس يهتمُّون كثيراً بما يعتقده الآخرون عن الله، هو سببٌ جيّد، إنَّهم يريدون أن يكون العالم مكاناً أفضل، يعتقدون

أنَّ إقناع الآخرين بمشاركة معتقداتهم عن الله هو أفضل طريقةٍ لتحقيق هذه الغاية، وهذا بعيدٌ كلَّ البعد عن الوضوح.

أنا أيضاً أريد أن يكون العالم مكاناً أفضل، هذا هو سبب رغبتي في أن يفهم النَّاس ويقبلوا نظريَّة التطوُّر: أعتقد أنَّ خلاصهم قد يعتمد عليها! كيف ذلك؟ من خلال فتح أعينهم على مخاطر الأوبئة وتدهور البيئة وفقدان التنوّع البيولوجي، وإعلامهم ببعض نقاط ضعف الطبيعة البشريَّة، إذاً، أليس إيماني بأنَّ الإيمان بالتطوُّر بوصفه طريقاً إلى الخلاص دين؟ لا، هناك فرقٌ كبير. نحن الذين نحبُّ التطوُّر لا نقدّر أولئك الذين يمنعهم حبّهم لنظريَّة التطوُّر من التفكير فيه بوضوحٍ وعقلانيَّة! على العكس من ذلك، نحن ننتقد بشكلٍ خاص أولئك الذين يؤدّي سوء فهمهم والتحريفات الرومانسيَّة لهذه الأفكار العظيمة إلى تضليل أنفسهم والآخرين، وفي رأينا، لا يوجد ملاذٌ آمنٌ للغموض أو عدم الفهم، نعم، هناك تواضعٌ ورهبةٌ وفرحةٌ مطلقة من بهاء المشهد التطوُّري، لكنَّها ليست مصحوبةً، أو في خدمة إرادة التخلّي عن العقل (ناهيك عن الإثارة)، لذلك أشعر بضرورةٍ أخلاقيَّةٍ لنشر كلمة التطوُّر، لكنَّ التطوُّر ليس ديني، ليس لديَّ دين.

لذا، الآن، مع الاعتذار لأولئك الذين انزعجوا من جرأتي على طرح هذا السؤال الجوهري: ما هي إيجابيَّات وسلبيَّات الدين، وهل يستحقُّ الولاء الشديد الذي ألهمه لدى معظم النَّاس في العالم؟ قاد ويليام جيمس الطريق في هذا الاستفسار أيضاً، وسأستخدم كلماته لتأطير القضايا من أجلنا، ليس لأنَّها رائعةٌ في حدِّ ذاتها، بل لأنَّها تكشف أيضاً عن بعض التقدُّم الذي أحرزناه في القرن الماضي، موضّحاً وصاقلاً تفكيرنا في عددٍ من القضايا، فقبل أن يتحدَّث أيُّ أحدٍ عن الميمات بوقتٍ طويل، أشار جيمس إلى أنَّ الأديان قد تطوَّرت بالفعل، على الرَّغم من كلِّ ادّعاءاتهم بالمبادئ «الأبديَّة» و«الثابتة»، وأشار إلى أنَّ هذا التطوُّر كان دائماً مستجيباً لأحكام القيم الإنسانيَّة.

ما أقترح القيام به بعد ذلك هو- بإيجاز- اختبار القداسة بالفطرة السليمة، واستخدام المعايير البشريَّة لمساعدتنا في تحديد إلى أيِّ مدىً تُثني الحياة الدينيَّة على نفسها كنوعٍ مثالي

من النشاط البشري. إنَّ اقتراحي ما هو إلَّا استبعادٌ لما هو غير لائقٍ إنسانيّاً، وبقاءٌ للأصلح إنسانيّاً، بتطبيق ذلك على المعتقدات الدينيَّة، وإذا نظرنا إلى التَّاريخ بصراحةٍ ودون تحيُّز، علينا أن نعترف بأنَّ الدين لم يقم على المدى الطويل بتأسيس أو إثبات نفسه بأيِّ طريقةٍ أخرى. [1902، ص. 331]

عندما يتحدَّث جيمس عمَّا هو «غير لائقٍ إنسانيّاً»، فإنَّه يعني شيئاً مثل «غير صالحٍ للاستخدام الإنساني»، بدلاً من «غير لائقٍ بيولوجيّاً» أو «وراثيّاً»، وهذا الاختيار للكلمات يطمس رؤيته، وعلى الرَّغم من رغبته في النظر إلى التَّاريخ دون تحيُّز، فإنَّ عبارته تجعل حكمه متحيّزاً في اتجاه التفاؤل. الميمات التي قاومت الانقراض على مرِّ القرون ليست سوى تلك الميمات التي تعزّز الإنسانيَّة بطريقةٍ ما، لكن ما الذي يعزّزونه بالضبط: اللياقة الجينيَّة البشريَّة، أم السعادة البشريَّة، أم رفاهية الإنسان؟.

يعطينا جيمس نسخةً فيكتوريَّةً للغاية من الداروينيَّة: ما يبقى يجب أن يكون جيّداً، لأنَّ التطوُّر دائماً ما يكون مسألة تقدُّمٍ نحو الأفضل، هل التطوُّر يرعى الخير؟ كل هذا يتوقَّف، كما رأينا، على كيف نسأل ونجيب على سؤال: من المستفيد؟

لكن الآن، ولأول مرَّةٍ في الكتاب، نبتعد عن الشرح والوصف ونتحوَّل إلى التقدير، كما قال جيمس: نسأل عمَّا يجب أن يكون، وليس فقط ما هو كائن (وكيف أصبح كذلك):

إذا كانت ثمار حالة الهداية من أجل الحياة جيّدة، فعلينا أن نجعلها مثاليَّةً ونبجّلها، حتَّى لو كانت جزءاً من علم النفس الطبيعي، وإذا لم يكن الأمر كذلك، فيجب علينا القيام بمهمَّةٍ مستعجلة، بصرف النظر عن الكائن الخارق الذي قد يرسّخ الهداية. [1902، ص. 237]

هل يجعلنا الدين أفضل؟ مَيَّز جيمس طريقتين رئيستين يمكن أن يصحَّ بها ذلك: قد يجعل الدين النَّاس أكثر فاعليَّةً في حياتهم اليوميَّة، وأكثر صحَّةً جسديّاً وعقليّاً، وأكثر ثباتاً واتزاناً، وأكثر قوَّةً في مواجهة الإغراء، وأقلَّ معاناةً من اليأس، وأكثر قدرةً على تحمُّل مصائبهم دون الاستسلام، ويُسمّي «جميس» هذا «حركة علاج العقل»، أو قد يجعل النَّاس أفضل من

الناحية الأخلاقيَّة، والطرق التي يدَّعي الدين من خلالها تحقيق ذلك يسميها «القداسة»، أو يمكنه أن يحقّق كلتا الغايتين بدرجاتٍ متفاوتةٍ في ظلّ ظروفٍ مختلفة. هناك الكثير ممَّا يمكن قوله بشأن كلا الأسلوبين، وسيخصَّص الجزء المتبقّي من هذا الفصل للادّعاء الأول، تاركاً السؤال المهمَّ للغاية المتعلّق بدور الدين في الأخلاق لفصلٍ آخر.

4- ماذا يفعل لك دينك؟

«الدين في شكل علاجٍ للعقل يمنح البعض منًّا الصفاء والتوازن الأخلاقي والسعادة، ويمنع أشكالاً معيَّنةً من المرض كما يفعل العلم، أو حتَّى أفضل من العلم لدى فئةٍ معيَّنةٍ من الناس» - وليام جيمس، أصناف التجربة الدينيَّة

«لا أحد يجرؤ على الإشارة إلى أنَّ عبارة «يسوع المخلّص» المكتوبة بمصابيح النيون الوامضة قد تكون إعلاناً كاذباً» — أر. لورانس مور، بيع الله

«صلِّ للمطالبة بإلغاء قوانين الكون نيابةً عن متوسّلٍ وحيد اعترف بأنَّه لا يستحقّ» - أمبروز بيرس، قاموس الشيطان

«في عالمٍ خَطير سيكون هناك دائماً عددٌ أكبر من الأشخاص الذين تمَّت الاستجابة لصلواتهم من أجل سلامتهم، أكثر من أولئك الذين لم يُستَجب لصلواتهم» — قانون نيكولاس همفري حول فعَّاليَّة الصلاة (2004)

تكهَّن جيمس بأنَّه قد يكون هناك نوعان مختلفان تماماً من النَّاس، ذوو العقول السليمة وذوو العقول المريضة، اللذين يريد كلٌّ منهما أشياء مختلفةً من الدين، وأشار إلى أنَّ الكنائس تواجه «صراعاً داخليَّاً دائماً للدين الصارم للقلَّة في مواجهة الدين المتأصل للأغلبيَّة. (ص 114) لا يمكنك إرضاء الجميع طوال الوقت، لذلك يجب على كلِّ دينٍ تقديم تنازلاته. كانت استطلاعاته واستفساراته غير الرسميَّة رائدة أبحاث السوق المكثَّفة والمعقَّدة التي أجراها الزعماء الدينيُّون في السنوات الأخيرة أحياناً، بالإضافة إلى التحقيقات الأكاديميَّة

التي أجراها علماء النفس، وغيرهم من العلماء الاجتماعيين الذين يحاولون تقييم الادّعاءات المقدَّمة باسم الدين. ازدهرت حركات الإحياء الديني في أيّام جيمس، وكذلك المروّجون العلمانيُّون لجميع أنواع المنتجات والأنظمة الوهميَّة، إنَّ «إعلانات المساعدة الذاتيَّة» المعروضة على شاشات التلفزيون اليوم، هي من نسل سلسلةٍ طويلةٍ من الباعة الجوَّالين السابقين الذين عرضوا بضاعتهم في عروض الخيام والمسارح المستأجرة.

يسمع المرء عن «إنجيل الاسترخاء»، و«حركة لا تقلق»، للأشخاص الذين يردّدون لأنفسهم، «الشباب، الصحَّة، النشاط!» عند ارتداء ملابس الصباح، كشعارٍ لهم لهذا اليوم. [ص. 95]

سُئِلَ جيمس عمَّا إذا كانت الأديان تقدّم دعائم جيّدةً مثل أو أفضل من تلك الخاصَّةِ بنظرائها العلمانية، ولاحظ أنَّه مهما احتجُّوا بعزلتها عن العلم، فإنَّ الأديان تعتمد، في الواقع، على «التجربة والتحقُّق» عند كلِّ منعطف: يقول [الدين] « عش كما لو كنتُ حقيقةً، ، و سيثبت كلَّ يومٍ عمليّاً أنَّك على حقّ «(ص 119)، بمعنىً آخر: سترى النتائج بنفسك؛ جرّبها، ستعجبك. «هنا، في ذروة سلطة العلم، تخوض حرباً شرسةً ضدَّ الفلسفة العلميَّة، وتنجح باستخدام أساليب وأسلحة العلم الخاصَّة» (ص 120).

أفضل مندوبي المبيعات هم زبائن راضون، وحتَّى إذا لم يكن هذا هو الهدف من كونك عضواً في الكنيسة، فلا حرج من الانتباه عن كثب إلى أيّ عوامل قد تحسّن الصحَّة الروحيَّة والجسديَّة لأولئك الموالين والأعضاء النشطين.

إذا كنت سأحاول تصميم منظَّمةٍ علمانيَّةٍ لتعزيز السلام العالمي، على سبيل المثال، فسأُبقي عيناي مفتوحتين بالتأكيد على أيّ ميزاتٍ قد يكون لها فائدةٌ عرضيَّةٌ لتعزيز صحَّة الأعضاء أو ازدهارهم، لأنَّني أدرك أنَّ المنظَّمة ستظلُّ دائماً تتنافس مع جميع الطرق الأخرى التي يمكن للنَّاس بها قضاء وقتهم وطاقتهم.

حتَّى لو كنت أتوقَّع وأشجّع على تقديم التضحيات من أولئك الذين ينضمُّون، يجب

أن أزن التضحيات بعناية، وأزيل أيّ أوجه قصورٍ غير مُبررة- واستبدلها بفوائدَ، إن أمكن - لإعطاء تأثيرٍ أكبر للتضحيات الأساسيَّة، فهل الدين مفيد لصحَّتك؟ هناك أدلَّةٌ متزايدة على أنَّ العديد من الأديان قد نجحت بشكلٍ ملحوظٍ في هذا المجال، حيث حسَّنت الصحَّة والروح المعنويَّة لأعضائها، بشكلٍ مستقلٍّ تماماً عن الأعمال الصالحة التي قد تكون قد أنجزتها لصالح الآخرين، فعلى سبيل المثال، تعدُّ اضطرابات الأكل مثل فقدان الشهيَّة العصبي والشره المرضي أقلَّ شيوعاً بين النساء في البلدان الإسلاميَّة، حيث تلعب الجاذبيَّة الجسديَّة للمرأة دوراً مكتوماً مقارنةً بالدول الغربيَّة (عابد، 1998).

هناك موجةُ اهتمام حاليّة للاستفادة من جميع الأدوات الإحصائيَّة لعلم الأوبئة والصحَّة العامَّة في الإجابة عن أسئلة مثل: ما إذا كان روَّاد الكنيسة العاديُّون يعيشون لفترةٍ أطول، وهل هم أقلُّ عرضةً للإصابة بالنوبات القلبيَّة، وما إلى ذلك، وفي معظم الاستطلاعات كانت النتائج إيجابيَّة، في كثيرٍ من الأحيان بقوَّة (للحصول على نظرةٍ عامَّةٍ شاملة، أصبحت الآن قديمةً بسرعة، انظر .Koenig et al، 2000). النتائج المبكرة مثيرةٌ للإعجاب بما يكفي لإثارة رفضٍ متشكّكٍ من بعض الملحدين، الذين لم يتوقَّفوا عن التفكير في مدى استقلاليَّة هذه الأسئلة عما إذا كانت أيُّ معتقداتٍ دينيَّةٍ صحيحةً أم لا. نحن نعلم بالفعل من الدراسات التي تتضمَّن العديد من أنواع الأداء المختلفة، أنَّه إذا أخبرت بشكلٍ عشوائي نصف مجموعةٍ من الأشخاص بأنَّهم «فوق المتوسّط» في المهمَّةِ المعنيَّة، فإنَّ أدائهم سيصبح أفضل، ومن ثمَّ فإنَّ قوَّة الاعتقاد الخاطئ لتحسين القدرات البشريَّة مثبتةٌ بالفعل، وهناك دراساتٌ توضّح، وفقاً للبعض (على سبيل المثال، تايلور وبراون، 1988)، أنَّ الأوهام الإيجابيَّة تحسّن الصحَّة العقليَّة، لكن هناك نقَّادٌ يقولون: إنَّ الحالة ليست آمنةً بعد (كولفين وبلوك، 1994).

قد يكون من الجيّد أنَّ الإيمان بالله (والانخراط في جميع الممارسات التي تتماشى مع هذا الاعتقاد) يحسّن حالتك الذهنيَّة، ومن ثمَّ يحسّن صحَّتك بنسبة 10 بالمائة على سبيل المثال، لذا يجب أن نقوم بالبحث للتحقّق من ذلك، آخذين في الحسبان أنَّه قد يكون صحيحاً أيضاً

أنَّ الاعتقاد بأنَّ الأرض تتعرض للغزو من قبل كائناتٍ فضائيَّةٍ تخطّط لنقلنا إلى كوكبها، وتعليمنا جميعاً كيفيَّة الطيران (والمشاركة في كلّ السلوكيّات المناسبة لهذا الاعتقاد) تحسّن حالتك الذهنيَّة وصحَّتك بنسبة 20 بالمائة! لن نعرف حتَّى نُجري التجارب، ولكن بما أنَّ الأدب العالمي يفيض بقصص الأشخاص الذين استفادوا بشكلٍ كبير من كونهم خُدعوا من قبل معارفهم الذين يتمنُّون لهم الخير، فلا ينبغي أن نتفاجأ بوجود تأثيراتٍ إيجابيَّةٍ للأكاذيب المختارة جيّداً، وإذا كانت هذه التلفيقات أكثر فاعليَّةً من أي عقيدةٍ دينيَّةٍ معروفة، فسنضطرُّ إلى مواجهة السؤال الأخلاقي حول ما إذا كان أيُّ قدرٍ من الفوائد الصحّيَّة يمكن أن يبرّر مثل هذا التحريف المتعمَّد.

النتائج حتَّى الآن قويَّة، ولكنَّها بحاجةٍ إلى مزيدٍ من التحقيق[4]، وبما أنَّ الآثار الحميدة التي يبدو أن الأديان تحدثها قد تتضاءل على الأرجح إذا ترسَّخت الشكوك، بصرف النظر عمّا إذا كان لها ما يبرّرها، فيجب توخّي الحذر. تعتمد العديد من التأثيرات التي يدرسها علماء النفس على أفراد سذج جاهلين نسبيَّاً بآليَّات وظروف الظواهر، وتتضاءل التأثيرات أو تختفي تماماً عندما يتمُّ إعطاء الأشخاص على مزيداً من المعلومات، لذا يجب أن نكون متيقّظين لاحتمال تعرُّض الآثار الجيّدة للخطر، إذا خضعت لمزيدٍ من التدقيق، بسبب أيّ شيءٍ يلقي ضوء تفحص عام قويّ للغاية عليها. من ناحيةٍ أخرى، قد تكون التأثيرات قويَّةً في ظلِّ وابلٍ من الاهتمام المتشكّك - علينا فقط أن نرى- وبالطبع، إذا كانت النتائج تميل إلى التلاشي أثناء دراستنا لها بشكلٍ مكثَّف، فيمكننا توقُّع أنَّ أولئك الواثقين من أنَّ التأثيرات حقيقيَّة سيحتجُّون على أنَّ «مناخ الشكّ» معادٍ للتأثيرات، ممَّا يجعل ظواهر حقيقيَّةً تماماً تختفي تحت ضوء العلم الباهر، وربَّما يكونون على حقّ، كما قد يكونون مخطئين، وهذا أيضاً قابل للاختبار بشكلٍ غير مباشر.

هنا، أكثر من أيّ مجالٍ آخر من مجالات الصراع بين العلم والدين، سيتعيَّن على أولئك الذين يشكّكون أو يخشون سلطة العلم أن يبحثوا في دواخلهم، هل يعترفون بقوَّة العلم إذا تمَّ تطبيقه بشكل صحيح لتسوية مثل هذه الأسئلة الواقعيَّة المثيرة للجدل، أم أنَّهم يحتفظون

بالحكم في انتظار رؤية ما ستكون النتيجة؟ إذا اتَّضح أنَّه على الرَّغم من الأدلَّة القصصيَّة وجبال الشهادات، فإنَّ الدين ليس أفضل من مصادر بديلةٍ للرفاهية، فهل سيكونون مستعدّين لقبول هذه النتيجة والتخلّي عن الدعاية؟ تتعرَّض بعض شركات الأدوية الكبرى حاليّاً لانتقادات شديدةٍ لمحاولتها قمع نشر دراساتٍ موَّلتها وفشلت في إظهار فعَّاليَّة منتجاتها، يبدو من الواضح الآن، أنَّ هذه الشركات ستكون ملزمةً في المستقبل بالموافقة مسبقاً على نشر جميع الأبحاث التي تموِّلها، بصرف النظر عمّا توصَّلت إليه، هذه هي روح العلم: الثمن الذي تدفعه مقابل التأكيد الموثوق لفرضيّتك المفضَّلة، هو المخاطرة بتفنيدها بشكلٍ موثوق، وأولئك الذين يريدون تقديم ادّعاءات حول الفوائد الصحّيَّة للدين يجب أن يخضعوا للقواعد نفسها: إثبات ذلك أو التخلّي عنه، وإذا شرعت في إثبات ذلك وفشلت، فأنت ملزمٌ بإخبارنا.[5]

الفوائد المحتملة للانضمام إلى المجتمع العلمي بشأن هذه القضايا هائلة: الحصول على سلطة العلم لدعم ما تقول إنَّك تؤمن به من كلِّ قلبك وروحك، وليس عبثاً أنَّه تمَّت تسمية الديانات الجديدة في القرن أو القرنين الماضيين بأسماءٍ مثل العلم المسيحي والسيانتولوجيا، فحتى الكنيسة الرومانيَّة الكاثوليكيَّة، بإرثها المؤسف المتمثّل في اضطّهاد علمائها، كانت حريصةً مؤخَّراً على السعي للحصول على مصادقةٍ علميَّة - وقبول خطر عدم المصادقة - لمزاعمها التقليديَّة حول «كفن تورين»، على سبيل المثال.

يثير أحد فروع الموجة الحاليَّة من الأبحاث حول الدين قضيَّةً أكثر جوهريَّة، بعباراتٍ لا يمكن إنكارها، الدراسات جاريةٌ الآن حول فعَّاليَّة صلاة الشفاعة، «الصلاة بأملٍ حقيقي ونيَّةٍ حقيقيَّة أن يتدخَّل الله ويعمل لصالح شخصٍ معيَّن (أشخاصٍ محدَّدين) أو كيانٍ آخر» (Longman، 2000). تختلف هذه الدراسات تماماً عن الدراسات المذكورة أعلاه في دلالاتها، وكما أشرنا للتوّ، يمتلك العلماء بالفعل الكثير من الموارد الموجودة، والتي يمكن أن تشرح الفوائد الصحّيَّة العامَّة لأولئك الذين يصلُّون ويدفعون العشر (الزكاة)؛ لن تكون هناك حاجةٌ إلى التذرُّع بأيّ قوى خارقةٍ للطبيعة لتفسير هذه الفوائد الصحّيَّة المكتنفة، ولكن

إذا كان الاختبار الذي تمَّ إجراؤه بشكلٍ صحيحٍ ومزدوج التعمية وتحت الرقابة الصارمة، مع عددٍ كبيرٍ بما يكفي من الأشخاص لإثبات أنَّ الأشخاص الذين يُصلَّى من أجلهم هم أكثر عرضةً بشكلٍ ملحوظ للشفاء، من الأشخاص الذين يتلقُّون العلاجات الطبيَّة نفسها ولكن لا يُصلَّى من أجلهم، سيكون من المستحيل على العلم تفسير ذلك من دون ثورةٍ كبرى.

كثيرٌ من الملحدين وغيرهم من المشكّكين واثقون تماماً من عدم وجود مثل هذه التأثيرات، ممَّا يجعلهم متحمّسين لإجراء هذه الاختبارات، على النقيض من ذلك، فإنَّ أولئك الذين يؤمنون بفاعليَّة صلاة الشفاعة، لديهم قرارٌ صعبٌ هنا، والمخاطر كبيرة، لأنَّه إذا تمَّ إجراء الدراسات بشكلٍ صحيح ولم تُظهر أيَّ تأثيرٍ إيجابي، فإنَّ الأديان التي تمارس صلاة الشفاعة ستكون ملزمةً بموجب مبادئ الحقيقة أن تعلن التخلّي عن جميع الادّعاءات حول فعَّاليَّتها - تماماً مثل شركات الأدوية- ومن ناحيةٍ أخرى، فإنَّ النتيجة الإيجابيَّة ستوقف العلم في مساره. بعد خمسمائة عامٍ من التراجع المطَّرد في مواجهة تقدُّم العلم، يمكن للدين أن يثبت- بألفاظ ينبغي على العلماء احترامها - أنَّ مزاعمه عن الحقيقة لم تكن كلُّها فارغة.

في أكتوبر 2001، نشرت صحيفة نيويورك تايمز تقريراً عن دراسةٍ رائعةٍ لجامعة كولومبيا أظهرت أنَّ النساء المصابات بالعقم اللاتي صُلِّيَ من أجلهنّ قد حملن مرَّتين، أكثر من النساء اللواتي لم يُصَلَّ من أجلهن، وقد نُشِرت الدراسة في مجلَّةٍ علميَّةٍ كبرى، مجلَّة الطبِّ التناسلي Journal of Reproductive Medicine، وقد استحقَّت النتائج أن تتصدر عناوين الأخبار، لأنَّ جامعة كولومبيا ليست كلّيَّة من كلّيّات حزام الكتاب المقدَّس التي ستكون موضع شكٍّ على الفور في العديد من الأوساط.

دعمت كلّيَّة الطبّ التابعة لجامعة كولومبيا، وهي معقلٌ من معاقل المؤسَّسة الطبّيَّة، النتائج في بيانٍ صحفي وصف الإجراءات الوقائية المتّخذة لضمان أنَّ التحقيق ضُبِطَ بشكلٍ صحيح، ولكن اتَّضح فيما بعد أنَّ هذه كانت حالة احتيالٍ علمي، ومن بين مؤلّفي الدراسة الثلاثة، ترك اثنان الآن مناصبهما في جامعة كولومبيا، وأدين الثالث، دانييل ويرث، الذي لا علاقة له بكولومبيا، مؤخَّراً - في قضيَّةٍ غير ذات صلة- بالتآمر لارتكاب احتيالٍ عبر البريد والاحتيال

المصرفي، واتَّضح أنَّه ليس لديه أيَّة أوراق اعتمادٍ طبيَّة إطلاقاً (Flamm، 2004).

فقدت إحدى الدراسات مصداقيَّتها، وتعرَّضت دراساتٌ أخرى لانتقاداتٍ شديدة، ولكن ما تزال هناك دراساتٌ أخرى قيد التنفيذ، بما في ذلك دراسة رئيسةٌ للدكتور هربرت بنسون وزملائه من كليَّة الطبّ بجامعة هارفارد بتمويلٍ من مؤسَّسة تمبلتون، لذلك لا يوجد حتَّى الآن رأي قاطع فيما يخص فرضيَّة أنَّ صلاة الشفاعة مؤثّرةٌ بالفعل (انظر، على سبيل المثال، Dusek وآخرون، 2002). حتَّى لو أظهرت الدراسات في النهاية أنَّ تلك الفرضية غير صحيحة، فسيظلُّ هناك الكثير من الأدلَّة على فوائد إقل إعجازيَّةً لكونك عضواً نشطاً في الكنيسة، وهو كلُّ ما حافظت عليه العديد من الكنائس بالمطلق. يُجسد القسُّ ريموند جيه لورانس الابن، مدير الرعاية الرعويَّة في مستشفى نيويورك المشيخي/ المركز الطبّي بجامعة كولومبيا، وجهة النظر الليبراليَّة:

> لا توجد طريقة لاختبار الله، وهذا بالضبط ما تفعله عندما تصمم دراسة لمعرفة ما إذا كان الله يستجيب لصلواتك. هذا التمرين برمته يقلل من شأن الدين، ويُروّج لاهوتاً طفولياً بأن الله مستعد لتحدي قوانين الطبيعة بأعجوبة استجابة للصلاة. [كاري ، 2004 ، ص 32]

خلُصَت إحدى الدراسات الحديثة (Lung et al، 2003) إلى أنَّ التعرُّض المطوَّل لأبخرة البخوُّر والشموع المحترقة قد يكون له بعض الآثار الضارَّة بالصحَّة، ولكن هناك الكثير من الأدلَّة الأخرى على أنَّ المشاركة النشطة في المنظَّمات الدينيَّة، يمكن أن تحسّن الروح المعنويَّة، ومن ثمَّ الصحَّة للمشاركين، إضافةً إلى ذلك، يمكن للمدافعين عن الدين أن يشيروا بحقٍّ إلى فوائد أقلَّ واقعيَّة، ولكن أكثر جوهريَّةً لأتباعهم، مثل توفير معنىً لحياتهم! الأشخاص الذين يعانون، حتَّى لو لم تتحسَّن معنويَّاتهم بطرقٍ قابلةٍ للقياس، قد يكتسبون بعض العزاء من مجرَّد معرفة أنَّه يتمُّ الاعتراف بهم، وملاحظتهم، والتفكير فيهم، سيكون من الخطأ افتراض أنَّ هذه البركات «الروحيَّة» ليس لها مكانٌ في قائمة الأسباب التي نحاول نحن المتشكّكون تقييمها، تماماً كما سيكون من الخطأ افتراض أنَّ عدم وجود تأثير لصلاة الشفاعة سيظهر أنَّ الصلاة هي ممارسةٌ غير مجدية، هناك فوائدُ أكثر دقَّةً يجب تقييمها، لكن يجب

تحديدها أولاً.

الفصل التاسع: قبل أن نتمكَّن من طرح السؤال عمَّا إذا كان الدين- مع مراعاة كلِّ الأشياء- شيئاً جيّداً، يجب علينا أولاً اختراق عدَّة حواجز وقائية، مثل حاجز الحبّ، وحاجز الإستقلاليَّة الأكاديميَّة، وحاجز الولاء لله، ثمَّ يمكننا أن نفكّر بهدوءٍ في إيجابيَّات وسلبيَّات الولاء الديني، بالنظر أولاً إلى السؤال: هل الدين مفيد للنَّاس؟ والأدلَّة حتَّى الآن على هذا السؤال مختلطة. يبدو أنَّه يوفّر بعض الفوائد الصحّيَّة، على سبيل المثال، ولكن من السابق لأوانه القول ما إذا كانت هناك طرقٌ أخرى أفضل لتقديم هذه الفوائد، ومن السابق لأوانه أيضاً القول ما إذا كانت الآثار الجانبيَّة تفوق الفوائد.

الفصل العاشر: السؤال الأهمُّ أخيراً: هو ما إذا كان الدين هو أساس الأخلاق، هل نحصل على مضمون الأخلاق من الدين، أم أنَّه بنيةٌ تحتيَّةٌ لا يمكن الاستغناء عنها لتنظيم العمل الأخلاقي، أم أنَّه يوفّر قوَّةً أخلاقيَّةً أو روحيَّة؟

يعتقد الكثيرون أنَّ الإجابات واضحةٌ وإيجابيَّة، ولكنَّ هذه أسئلةٌ تحتاج إلى إعادة النظر في ضوء ما تعلَّمناه.

الفصل العاشر

الأخلاق والدين

1- هل يجعلنا الدِّينُ أخلاقيين؟

«ثمَّ نظر إليه يسوع وأحبَّه، وقال له: ينقصك شيءٌ واحد، اذهب، بع كلَّ ما لديك، واعطِ الفقراء، فيكون لك كنزٌ في السماء، وتعال، احمل الصليب واتبعني» - مرقس 10: 21

«الرَّبُّ يمتحن الصديق، أمَّا الشرير ومحبُّ الظلم فتبغضه نفسه، يمطر على الأشرار فخاخاً ناراً وكبريتاً وريح السموم، نصيبُ كأسهم» - مزمور 11: 5- 6

افتراض أنَّ الإنسان سيكون في المستقبل البعيد مخلوقاً أكثر كمالاً ممَّا هو عليه الآن، كما أؤمن، هي فكرةٌ لا تطاق لأنَّ الإنسان وجميع الكائنات الحيَّة الأخرى محكومٌ عليهم بالفناء بعد هذا التقدُّم البطيء المستمرّ منذ فترةٍ طويلة. بالنسبة لأولئك الذين يعترفون تماماً بخلود الروح البشريَّة، فإنَّ تدمير عالمنا لن يبدو مروِّعاً إلى هذا الحد» - تشارلز داروين، الحياة والآداب.

«يحبُّ غير المسلمين حياتهم كثيراً، ولا يمكنهم القتال، وهم جبناء، إنَّهم لا يفهمون أنَّه ستكون هناك حياةٌ بعد الموت، لا يمكنك أن تحيا إلى الأبد، سوف تموت، الحياة بعد الموت أبديَّة، إذا كانت الحياة بعد الموت محيطاً، فإنَّ الحياة التي تعيشها ليست سوى قطرةٍ في المحيط، لذلك من المهمِّ جدّاً أن تعيش حياتك في سبيل الله، فستكافأ بعد الموت» - مجاهدٌ شابٌّ من

باكستان، نقلاً عن جيسيكا ستيرن، الإرهاب باسم الله

«النَّاس الطيّبون يفعلون أشياء جيّدة، والأشرار يفعلون أشياء سيّئة، لكن ليقوم الصالحون بأشياء سيّئة، فإنَّ هذا يتطلَّب ديناً» — ستيفن واينبرج، 1999

يلعب الدين دوره الأكثر أهمّيَّةً في دعم الأخلاق - كما يعتقد الكثيرون- من خلال إعطاء النَّاس سبباً لا يقهر لفعل الخير: الوعد بمكافأةٍ لا نهائيَّةٍ في الجنَّة، و- اعتماداً على الأذواق- التهديد بعقوبةٍ لانهائيَّةٍ في الجحيم إذا لم يفعلوا ذلك.

من دون الجزرة والعصا الإلهيتين - وفقاً لهذا المنطق- كان النَّاس سيتسكَّعون بلا هدف، أو ينغمسون في رغباتهم الدنيئة، ويخلِفون وعودهم، ويخدعون أزواجهم، ويهملون واجباتهم، وما إلى ذلك، هناك مشكلتان معروفتان في هذا المنطق: (1) لا يبدو أنَّه صحيح، وهذا خبرٌ سار، (2) لأنَّه يمثّل نظرةً مهينةً للطبيعة البشريَّة.

لم أكتشف أيَّ دليلٍ يدعم الادّعاء بأن الأشخاص- المتدينين أو غير المتدينين- الذين لا يؤمنون بالمكافأة في الجنَّة و/ أو العقوبة في الجحيم، من المحتمل أن يقتلوا أو يغتصبوا أو يسرقوا أو يحنثوا بوعودهم أكثر من الأشخاص الذين يؤمنون بذلك.

يشكل الكاثوليك والبروتستانت واليهود والمسلمون والطوائف الأخرى ومن ليس لهم انتماء ديني نسباً من نزلاء السجون في الولايات المتحدة الأمريكية مماثلة لنسبهم من عموم السكَّان، يُظهر «البارعون» وغيرهم ممَّن ليس لديهم انتماءٌ ديني، المدى نفسه من الامتياز الأخلاقي والفساد الذي يظهره مسيحيُّو الولادة الجديدة، ولكن - والأهمُّ من ذلك- فإنَّ أعضاء الديانات التي لا تُركز، أو تُنكر بشكلٍ فاعل أيَّ علاقةٍ بين السلوك الأخلاقي «على الأرض»، والمكافأة والعقاب في نهاية المطاف بعد الوفاة لديّهم نفس المدى. لذلك عندما يتعلَّق الأمر بـ «القيم العائليَّة»، فإنَّ الأدلَّة المتوافرة حتَّى الآن تدعم الفرضيَّة القائلة بأنَّ «البارعين» لديهم أقلُّ معدَّل طلاقٍ في الولايات المتَّحدة، وأنَّ معدَّل الطلاق لدى مسيحيي الولادة الجديدة هو الأعلى (بارنا، 1999). وغنيٌّ عن القول أنَّ هذه النتائج تزعزع بقوَّةٍ

صحَّة المزاعم المعتادة حول الفضيلة الأخلاقيَّة الأكبر للمتدينين، إلى حدٍّ أنَّ هناك طفرةً كبيرةً من البحوث الإضافيَّة التي بدأتها المنظَّمات الدينيَّة محاولةً دحضها، في هذا الوقت. لم يظهر أيُّ شيءٍ يثير الدهشة، ولم يتمّ تحقيق أيِّ شيءٍ يقترب من إجماعٍ مستقرٍّ بين الباحثين، ولكن هناك شيءٌ واحدٌ يمكننا التأكُّد منه، هو أنَّه إذا كانت هناك علاقةٌ إيجابيَّةٌ مهمَّة بين السلوك الأخلاقي والانتماء الديني، أو الممارسة أو المعتقد، سيتمُّ اكتشافه قريباً، نظراً لأنَّ العديد من المنظَّمات الدينيَّة حريصةٌ على تأكيد معتقداتها التقليديَّة حول هذا الأمر علميّاً (إنَّهم معجبون تماماً بقوَّة تقصّي الحقيقة للعلم، عندما يدعم ما يؤمنون به بالفعل) كلُّ شهرٍ يمرُّ دون مثل هذا الإثبات يؤكّد الشكَّ في أنَّ الأمر ليس كذلك.

من الواضح بما فيه الكفاية لماذا قد يرغب المؤمنون في التوصُّل إلى دليلٍ على أنَّ الإيمان بالجنَّة والنار له آثارٌ حميدة، ويعرف الجميع بالفعل الدليل على الفرضيَّة التعويضيَّة القائلة: بأنَّ الإيمان بمكافأةٍ في السماء يمكن أن يحفّز أحياناً على أعمالٍ شريرةٍ وحشيَّة، ومع ذلك هناك الكثيرون في المجتمع الديني ممَّن لن يرحّبوا بإثبات أنَّ الإيمان بمكافأة الله في الجنَّة أو عقاب الجحيم يحدث فرقاً كبيراً، ويعدُّون ذلك مفهوماً طفوليّاً للإله، في المقام الأول، يدفع نحو عدم النضج بدلاً من تشجيع الالتزام الأخلاقي الحقيقي، وكما يلاحظ ميتشل سيلفر، فإنَّ الإله الذي يكافئ الخير بالجنَّة يشبه إلى حدٍّ كبير بطل الأغنية الشعبيَّة «سانتا كلوز قادم إلى المدينة».

مثل سانتا، الله «يعلم إذا كنت نائماً، إنَّه يعرف إذا كنت مستيقظاً، إنَّه يعرف إذا كنت سيِّئاً أو جيّداً»...

تستمرُّ كلمات الأغنية، «لذا كن جيّداً لأجل الله»، أغنيةٌ جذَّابة، ولكنَّها تحتوي غلطةً منطقيَّة، كان ينبغي للأغنية أن تستمرَّ: «حتَّى تكون جيّداً من أجل المعدَّات الإلكترونيَّة، والدمى، ومعدَّات الرياضة وغيرها من الهدايا التي تأمل في الحصول عليها، ولكن لن تحصل عليها إلَّا إذا عدَّك كلِّيُّ العلم (الله) وسانتا العادل مستحقاً لها»، إذا كنت جيّداً لأجل الله، فإنَّ سانتا الذي يرى كلَّ شيء لن يكون ذا صلةٍ كمحفّزٍ لفضيلتك. [قيد الإصدار]

الفلاسفة الأخلاقيُّون الذين لم يتَّفقوا كثيراً - من أيَّام هيوم وكانط وحتَّى نيتشه إلى الوقت الحاضر - عدُّوا هذه الرؤية بعيدة المنال للأخلاق نوعاً من الفخ، برهان النقيض[1] الذي لن يقع فيه سوى عالم الأخلاق غير الحذق. ويوافق العديد من المفكّرين الدينيين على أنَّ: أيَّ عقيدةٍ تتاجر في نوايا الشخص الحسنة الذي لديه رغبات عقلانيَّةٌ في الحصول على النعيم الأبدي، قد تحقّق بعض الانتصارات التافهة، فتغري بضعة أرواحٍ أنانيَّةٍ وعديمة الخيال لتحسّن سلوكها لبعض الوقت، ولكن على حساب التفريط بسعيها الأكبر من أجل الخير.

نرى صدىً لهذا الإدراك المألوف في سخرية العديد من المعلّقين من الخاطفين المنتمين للقاعدة في أحداث 11 سبتمبر/ أيلول، لهدفهم المزعوم المتمثّل في عيش حياة الترف في الجنَّة مع اثنتين وسبعين من الحوريَّات (لكلٍّ منهم) كمكافأةٍ على «استشهادهم».

قد نرفض هذا الموضوع بوصفه أساساً لأخلاقنا اليوم، ومع ذلك ما زلنا نقدّره لأنَّه لعب دوراً مؤسّساً في الماضي، كسُلَّمٍ قد يتمُّ التخلُّص منه بمجرَّد صعوده، كيف يمكن أن ينجح هذا؟ أشار الخبير الاقتصادي توماس شيلينج إلى أنَّ «الإيمان بإلهٍ يكافئ الخير ويعاقب على الشر، يحوّل العديد من المواقف من وهميَّةٍ إلى مضمونة، على الأقلّ في عقل المؤمن» (مقتبس في نيس، محرر، 2001، ص 16). ضع في حسبانك موقفاً يواجه فيه طرفان بعضهما البعض مع وجود إمكانيَّةٍ للتعاون بشأن شيءٍ يريده الطرفان، لكنَّ كلّاً منهما يخشى أن يتراجع الآخر عن أيِّ صفقةٍ يتمُّ التوصُّل إليها، ولا توجد سلطاتٌ أو أطرافٌ أقوى لفرض تنفيذها، يمكن تقديم الوعود ثمَّ الحنث بها، لكن في بعض الأحيان يمكن تأمينها، كما يمكن ضمان الالتزام من خلال الإلزام الذاتي؛ على سبيل المثال، يمكنك حرق جسورك خلفك حتَّى لا تتمكَّن من الهروب، حتَّى لو غيَّرت رأيك، أو قد يتمُّ تأمينها برغبتك الأكبر في الحفاظ على سمعتك. قد يكون لديك سببٌ وجيهٌ للوفاء بالتزاماتك التعاقديَّة، حتَّى لو كان سبب توقيعك على العقد في بداية الأمر قد انقضى، وذلك ببساطة لأنَّ سمعتك معرَّضةٌ للخطر أيضاً، وهي بالفعل سلعةٌ اجتماعيَّةٌ قيّمة، أو - وهذه هي وجهة نظر شيلينج - قد يقنع الوعد الذي تقطعه «أمام

(1) طريقة لإثبات زيف فرضية من خلال إظهار أن نتيجتها المنطقية سخيفة أو متناقضة.

الإله» أولئك الذين يؤمنون بهذا الإله، بأنّه تمَّ إنشاء نوعٍ من حساب الضمان الافتراضي، ممَّا يحمي كلا الطرفين، ويمنح كلًّا منهما الثقة للمضيّ قدماً دون الخوف من نكث الطرف الآخر.

لنتأمّل الوضع الحالي في العراق، حيث من المفترض أن توفّر القوّة الأمنيَّة دعامةً مؤقّتةً لبناء مجتمعٍ ناجح في عراق ما بعد صدّام، ربَّما كان من الممكن بالفعل أن ينجح الأمر منذ البداية لو كانت القوَّة كبيرةً بما فيه الكفاية، ومدرَّبةً ومنشورةً بشكلٍ جيّد لطمأنة النَّاس. دون الحاجة إلى إطلاق رصاصة، ومع عدم كفاية القوَّات، تضاءلت مصداقيَّة قوَّات حفظ السلام، وبدأت دورة تغذيةٍ راجعةٍ فعليَّةٍ من العنف، ممَّا أدّى إلى تدمير الثقة في الأمن. كيف يمكنك الخروج من مثل هذه الدوَّامة؟ من الصعب قول هذا، قد تستمرُّ الديمقراطيَّة المعيبة والهشَّة التي تمَّ تنصيبها، في التغلُّب على بداياتها الفاسدة والمليئة بالعنف، إذا كان العالم محظوظاً، ومهما بدا الوضع بائساً اليوم. لدى الدول الفاشلة طريقةٌ لإدامة نفسها، وإدامة بؤس سكَّانها، وانعدام الأمن لدى جيرانها، ففي الماضي البعيد، ربَّما كانت فكرة الإله المشرف قد سمحت في كثيرٍ من الأحيان للسكَّان الفوضويين، وغير الخاضعين للحكم بأن يضعوا أنفسهم في حالة توافق، مع ما يكفي من القانون والنظام بحيث يمكن للوعود الموثوق بها أن ترسَّخ. فقط في مثل هذا المناخ من الثقة، يمكن أن يزدهر الاستثمار والتجارة والترانزيت، وجميع الأشياء الأخرى التي نأخذها كأمرٍ مسلَّمٍ به في مجتمعٍ ناجح، ستكون مثل هذه الميم عرضةً للانهيار إذا تعرَّضت مصداقيَّتها للتهديد، تماماً كما تعتمد قوَّات الاحتلال في العراق على مصداقيَّتها (الإشكاليَّة) لتحقيق فعَّاليَّتها، وربما كان الأساس المنطقي لإدماج أيّ وسيلةٍ لإخماد الشك واضحاً (بالنسبة لقوى الانتقاء الثقافي العمياء، وربَّما للسلطات نفسها).

في الوقت الحاضر، عندما يتمُّ تأسيس أنماط الثقة المتبادلة بشكلٍ آمن تماماً في الدول الديمقراطيَّة الحديثة، بشكلٍ مستقلٍّ عن أيّ معتقدٍ ديني مشترك، تبدأ الدفاعات القوية للأديان في مواجهة الشك المُزعِج باتخاذ مظهر أوابد أثرية، مثل الآثار الأحفوريَّة لعصرٍ سابق، لم نعد بحاجةٍ إلى الله الشرطي لخلق مناخٍ يمكننا فيه تقديم الوعود وإدارة الشؤون الإنسانيَّة على أساسها، لكنَّ الله ما يزال يعيش في القَسَم القانوني، وفي مخيّلة الكثيرين الذين

يخشون من احتمال التخلّي عن الدين.

لكنَّ المكافأة في السماء ليست الموضوع الوحيد الملهم - وبالتأكيد ليس الأفضل - في العقيدة الدينيَّة، لا يجب أن يُنظر إلى الإله الذي يراقبك على أنَّه إمَّا سانتا كلوز أو الأخ الأكبر لأورويل، بل يجب أن يُنظر إليه كبطلٍ أو «نموذجٍ يُحتذى به»، كما نقول اليوم، شخصٌ نحتذي به بدلاً من أن نخشاه. إذا كان الله عادلاً ورحيماً ومسامحاً ومحبّاً، وأروع كائنٍ يمكن تخيُّله، فينبغي لمن يحبُّ الله أن يرغب بأن يكون عادلاً ورحيماً ومسامحاً ومحبّاً كرمى لله، إنَّ دغم هاتين النظرتين المختلفتين تماماً لدور الله التحفيزي في إحداهما، هو ضحيَّةٌ أخرى للحُجُبِ الشفافة من المهابة الضبابية التي نفحص الدين من خلالها عادةً.

ولكن ربما لا تزال هناك أسباب (عائمة) أفضل لعدم النظر عن كثب إلى هذه الاختلافات الدقيقة بين العقائد، لماذا تَخلُقُ الشقاق حيثُ لا حاجة لوجوده؟ لا تَهزَّ القارب. من المتَّفق عليه على نطاقٍ واسع أنَّ جميع الأديان توفِّر البنى التحتيَّة الاجتماعيَّة لخلق العمل الجماعي الأخلاقي والحفاظ عليه، ربَّما تكون قيمتها كمُنَظِّمَةٍ ومضخِّمةٍ للنوايا الحسنة، تفوق بكثير أيَّ خللٍ ناتج عن عدم الاتساق المفترض الناجم عن التناقضات بين (بعض) مذاهبها، ربَّما يكون سعياً غبيّاً نحو الكمال، وفعلاً غير كفؤٍ أخلاقيّاً، أن نلهي أنفسنا بصراعاتٍ صغيرةٍ في العقيدة عندما يكون هناك الكثير من العمل الذي يجب القيام به لجعل العالم مكاناً أفضل.

هذا ادّعاءٌ مقنع، ولكن يعيبه أنَّه يُقلِّلُ من شأنه إلى حدٍّ ما علناً، بما أنَّه يرقى إلى الاعتراف بأنَّنا «جيّدون كما نحن، نحن لسنا مثاليين، ولكن لدينا أشياء أكثر أهميَّةً لنفعلها من إصلاح أسسنا». اعترافٌ متواضعٌ يتناقض مع الادّعاءات التقليديَّة بالنقاء الذي تجده الأديان لا يقاوم، إضافةً إلى ذلك، فإنَّ أيَّ هفواتٍ من الحكم المطلق تهدّد بتقويض المصدر النفسي الرئيس للسلطة التنظيميَّة التي تمَّ الاعتراف بها. قد يكون المحاربون الدينيُّون اليوم أكثر تطوُّراً من أن يتوقَّعوا من إلههم أن يوقف الرصاص في الجو بناءً على طلبهم، لكنَّ إيمانهم بالحقِّ المطلق لقضيَّتهم قد يكون عنصراً حاسماً في خلق رباطة الجأش التي يذهب بها الجنود الفعَّالون إلى المعركة، وكما قال ويليام جيمس:

«من لا يقول فقط، بل يشعر أنَّ «مشيئة الله قد تحقَّقت»، يتدرَّع ضدَّ كلِّ ضعف؛ والمجموعة التَّاريخيَّة الكاملة من الشهداء والمبشّرين والمصلحين الدينيين، موجودةٌ لإثبات الصفاء الذهني في ظلِّ ظروفٍ محرّضةٍ أو مؤلمةٍ بشكلٍ طبيعي، والتي يسبّبها الاستسلام الذاتي». [1902، ص. 285]

لا تنسجم هذه الحالة الذهنيَّة البطوليَّة بشكلٍ جيّد مع التواضع العلماني، وعلى الرَّغم من أنَّ الكثيرين يعتقدون بصحَّة مقولة: أنَّ المتعصّبين الدينيين هم الجنود الأكثر موثوقيَّة، فقد نتساءل عمَّا إذا كان جيمس على حق، مع أخذ كلِّ الأمور في الحسبان، عندما يمضي في الملاحظة (نقلاً عن «ضابط نمساوي يمتلك فهماً واضحاً»): «من الأفضل أن يكون الجيش متوحّشاً وقاسياً وبربريّاً جدّاً، من أن يمتلك الكثير من العاطفة والعقلانيَّة البشريَّة» (ص 366).

إليكم سؤالاً وثيق الصلة بالأخلاق، ويستحقُّ تحقيقاً تجريبيّاً دقيقاً: هل يمكن لقوَّةٍ مسلَّحةٍ علمانيَّة، دافعها الأساسي حُبُّ الحرّيَّة أو الديمقراطيَّة، وليس الرَّب (أو الله)، أن تحافظ على مصداقيَّتها، ومن ثمَّ فعَّاليَّتها، بالحدِّ الأدنى من إراقة الدماء ضدَّ جيش المتعصّبين؟ وإلى أن نعرف الإجابة، فإنَّنا نجازف بأن نكون عرضةً للابتزاز بسبب الخوف الشديد من أن نضطرَّ لتلقين الهمجيَّة للقوّات، ولسوف يتطلَّب الأمر مزيجاً من الشجاعة والتخطيط الحكيم – وربَّما مساعدةٍ كبيرةٍ من الحظ – لإجراء البحث اللازم لاكتشاف ذلك، لكنَّ البديل أكثر قتامة: إدامة الدوَّامة الهابطة المميتة لحروب «الصالحين»، التي خاضها الشباب المضلَّلون الذين أُرسِلوا إلى معركةٍ مشكوكٍ فيها، من قبل القادة الذين لا يعتقدون حقّاً بالأساطير التي تدعم أولئك الذين يخاطرون بحياتهم، كما يقول المحقّق الكبير في كتاب دوستويفسكي الأخوة كارامازوف: «ما وراء القبر لن يجدوا شيئاً سوى الموت، لكنَّنا سنحفظ السر، ومن أجل سعادتهم سنغريهم بمكافأة السماوات والخلود».

هناك إغراء آخر للمتعصّبين، وربَّما يكون حافزاً أقوى من احتمال المكافأة السماويَّة: رخصة القتل (لتكييف خيال إيان فليمنغ الجذَّاب للغاية حول الوضع الرسمي لجيمس بوند). يبدو

أنَّ بعض النَّاس متعطّشون للدماء فقط، أو يبحثون عن الإثارة، وبيا أنَّ عاداتنا أصبحت أكثر تحضُّراً وتعارضُ العنف، فإنَّ هؤلاء الأشخاص لديهم دافعٌ كبيرٌ للعثور على سببٍ يزوّدهم بـ «مبرّرٍ أخلاقي» لأعمالهم المتهوّرة، سواءٌ كانت «تحرير» حيوانات المختبر، أو الانتقام لـ «روبي ريدج»[1] بقصف مدينة أوكلاهوما، وقتل الأطبّاء الذين يجرون عمليّات إجهاض، وإرسال الجمرة الخبيثة إلى الموظَّفين الفيدراليين «الأشرار». قتل شخصٍ بريء تحت غطاء فتوى، أو الشهادة في الجهاد، أو التحوُّل إلى «مستوطن» (مسلَّح حتَّى الأسنان) في أراضي الضفَّة الغربيّة. قد لا يكون الدين هو السبب المتجذّر لهذا التوق الخطير، فقد تلعب الرغبة المستوحاة من هوليوود في عيش حياةٍ مليئةٍ بالمغامرة، ومن ثمَّ «ذات مغزى»، دوراً أكبر في مضاعفة عدد الشباب الذين يقرّرون تأطير حياتهم ضمن مثل هذه المصطلحات، لكنَّ الأديان هي بالتأكيد المصدر الأكثر إنتاجاً لـ «اليقين الأخلاقي» و«القيم المطلقة» التي تعتمد عليها مثل هذه الحماسة، وعلى الرَّغم من أنَّ الأشخاص الذين يدركون أنَّ الأعمال تتدرَّج ما بين الخير المطلق والشر المطلق، أقلُّ قدرةً على إيجاد أعذارٍ لأعمالٍ إجراميَّةٍ ارتكبوها بأنفسهم، فإنَّهم – اليوم أيضاً- من المرجَّح جدَّاً أن يروا القناعة الدينيَّة المخلصة عاملاً مخفِّفاً بشكلٍ كبير عند توقيع العقوبة على مرتكبي هذه الجرائم.

(يمكننا أن نتمنَّى أن يتغيَّر هذا الوضع سريعاً إذا تمَّ إيلائه اهتماماً عامّاً كافياً، لقد اعتدنا أن نعدَّ أنَّ مسؤوليَّة السكارى عن أفعالهم تتضاءل؛ لقد كانوا ثملين جدَّاً لدرجة أنَّهم لم يعرفوا ما يفعلونه، لكنَّنا أصبحنا نراهم الآن، هم والسقاة الذين خدموهم، مسؤولون بالكامل عن أفعالهم، نحن بحاجةٍ إلى نشر فكرة أنَّ النشوة الدينيَّة ليست عذراً أيضاً).

2- هل الدين هو ما يعطي معنىً لحياتك؟

«دمية الآلهة هي شخصيَّةٌ مأساويَّة، والدمية المعلَّقة على كروموسوماته هي مجرَّد شيءٍ بشع» - آرثر كويستلر، The Sleepwalkers

(1) فتاة أمريكية ماتت في عيادة إجهاض.

«آه، مات ماك تافيش وشقيقه لا يعرف ذلك؛

مات شقيقه وماك تافيش لا يعرف ذلك،

كلاهما ماتا، وهما في نفس السرير،

ولا أحد يعرف أنَّ الآخر قد مات!»

- كلماتٌ لرقصة «المرأة الغاسلة الأيرلنديَّة.

وفقاً للاستطلاعات، يقول معظم النَّاس في العالم: أنَّ الدين مهمٌّ جدّاً في حياتهم (انظر، على سبيل المثال، موقع الويب الخاص بمركز بيو للأبحاث the Pew Research Center، (http://people-press.org/). قد يقول العديد من هؤلاء الأشخاص أنَّه من دون دينهم ستكون حياتهم بلا معنى. من المخادع أنِ نأخذ كلامهم على محمل الجدّ، وأن نعلن أنَّه في هذه الحالة لا يوجد شيء آخر نقوله - لنبتعد بهدوء- من يريد التدخُّل في كلِّ ما يعطي معنى لحياتهم؟ في حال عدم تدخُّلنا، فإنَّنا نتجاهل عمداً بعض الأسئلة الجادَّة: هل يمكن لأيّ دينٍ أن يعطي الحياة معناها بحيث يجب علينا أن نحترمه ونقدّره، وماذا عن الأشخاص الذين يقعون في براثن زعماء الطوائف، أو الذين يتمُّ خداعهم لتقديم مدَّخراتهم إلى المحتالين الدينيين، هل ما زال لحياتهم معنى رغم أنَّ «دينهم» هو احتيال؟

في الفيلم الوثائقي «مارغو» لعام 1972 عن الراهب الإنجيلي الزائف «مارغو غورتنر» المذكور في الفصل السادس، نرى فقراء يفرغون محافظهم وحقائبهم في صندوق جمع التبرُّعات، وعيونهم تتلألأ بدموع الفرح، ويسعدون بالحصول على «الخلاص» من هذا الزيف الكاريزمي، والسؤال الذي كان يزعجني منذ أن شاهدت الفيلم عند عرضه لأول مرَّةٍ هو: من يرتكب الفعل الأكثر شجباً - مارغو غورتنر، الذي يكذب على هؤلاء الأشخاص من أجل الحصول على أموالهم، أم صانعو الفيلم الذين فضحوا هذه الأكاذيب (بتواطؤ حماسي من قبل غورتنر)، ومن ثمَّ سلب هؤلاء الطيّبين المعنى الذي اعتقدوا أنَّهم وجدوه لحياتهم، ألم يستفيدوا من أموالهم قبل مجيء صنَّاع الفيلم؟ فكّر في حياتهم (أتخيَّل تلك

التفاصيل التي لم ترد في الفيلم الوثائقي):

«سام هو طالبٌ ترك المدرسة الثانويَّة، يعمل في محطَّة وقودٍ عند مفترق الطرق، ويأمل في يوم من الأيَّام أن يشتري درَّاجةً ناريَّة؛ إنَّه من مشجّعي فريق دالاس كاوبويز، ويحبُّ تناول القليل من الجِعَّة أثناء مشاهدة المباريات على التلفزيون. ولوسيل، التي لم تتزوَّج قط، تعمل كمسؤولة عن عمَّال التخزين في النوبات الليليَّة في السوبر ماركت المحلّي، وتعيش في منزلٍ متواضعٍ منذ أمد بعيد، وترعى والدتها المسنَّة، وتتابعان المسلسلات معاً». لا توجد فرص مغامراتٍ في مستقبل سام أو لوسيل، أو معظم الآخرين من جموع المصلّين المباركين، لكنَّهم الآن على اتصالٍ مباشرٍ مع يسوع، ومُنِحُوا الخلاص الأبدي، ليصبحوا أعضاء محبوبين ذوي مكانةٍ جيّدةٍ في مجتمع الولادة الجديدة، لقد فتحوا صفحةً جديدةً في احتفال ديني أكثر دراماتيكيَّة، وهم يستبدلون حياتهم المملَّة بحياةٍ متجدّدةٍ وسامية، حياتهم الآن تحكي قصَّة، وهي فصلٌ من أعظم قصَّةٍ إطلاقاً، هل يمكنك أن تتخيَّل أيَّ شيءٍ آخر يمكنهم شراؤه بورقة العشرين دولاراً التي تبرَّعوا بها للكنيسة يكون ذا قيمةٍ أكبر بالنسبة لهم؟

يأتي الرد: بالتأكيد، يمكنهم التبرُّع بأموالهم لدينٍ صادق، والذي يستخدم تبرُّعاتهم في الواقع لمساعدة الآخرين الذين ما زالوا محتاجين، أو يمكنهم الانضمام إلى أيَّة منظَّمةٍ علمانيَّةٍ تضع وقت فراغهم وطاقتهم وأموالهم في الاستخدام الفعَّال لتحسين حالة بعض المرضى في العالم. ربَّما يكون السبب الرئيس وراء قيام الأديان بمعظم العبء الثقيل في أجزاء كبيرةٍ من أمريكا هو: أنَّ النَّاس يريدون حقّاً مساعدة الآخرين، وقد فشلت المنظَّمات العلمانيَّة في التنافس مع الأديان على ولاء النَّاس العاديين، هذا مهمّ، لكنَّه الجزء السهل من الإجابة، مع ترك الجزء الصعب دون تغيير: ماذا يجب أن نفعل حيال أولئك الذين نعتقد بصدقٍ أنَّهم يتعرَّضون للخداع، هل نتركهم لأوهامهم المطمئنة، أم نطلق صافرة التحذير؟ لقد توصَّلت أخيراً إلى استنتاجٍ مبدئي مفاده: أنَّ مارغو غورتنر والمتعاونين معه في صناعة الأفلام قد قاموا بخدمةٍ عامَّةٍ جليلة، على الرَّغم من الألم والإذلال الذي تسبَّب به الفيلم بلا شكّ للعديد من الأبرياء، ولكنَّ مزيداً من التفاصيل، أو مجرَّد مزيدٍ من التفكير في التفاصيل المعروفة، قد

تقودني إلى تغيير رأيي.

معضلات كهذه كلّها مألوفةٌ للغاية في سياقاتٍ مختلفةٍ إلى حدٍّ ما: هل ينبغي إخبار السيّدة العجوز اللطيفة في دار المسنين أنّ ابنها قد أُرسِل لتوّه إلى السجن، هل يجب إخبار الصبي الأخرق البالغ من العمر 12 عاماً، والذي لم يتمّ فصله من فريق البيسبول بسبب الضغط الذي مُورِسَ من قبل جميع الآباء لأقناع المدرّب بإبقائه في الفريق؟ على الرّغم من الاختلافات الحادّة في الرأي حول القضايا الأخلاقيّة الأخرى، يبدو أنّ هناك ما يشبه الإجماع على أنّه من القسوة والخبث التدخُّل في أوهام الآخرين التي تحسّن حياتهم - إلّا إذا كانت هذه الأوهام هي نفسها سبباً لأمراضٍ أكبر- وتأتي الخلافات حول ماهيّة هذه العلل الكبرى، وقد أدّى ذلك إلى انهيار الأساس المنطقي برمته. إنّ إخفاء الأسرار عن النّاس من أجل مصلحتهم الخاصّة، قد يكون أمراً حكيماً في أغلب الأحيان، ولكنّ الأمر لا يحتاج إلّا إلى شخصٍ واحدٍ لكي يتمّ إفشاء السر، وبما أنّ هناك خلافاتٍ حول الحالات التي تستدعي التقدير، فإنّ النتيجة تتلخّص في جوٍّ خانقٍ من النفاق والأكاذيب، ومحاولاتٍ مسعورة، ولكنّها غير مثمرة، لتشتيت الانتباه.

ماذا لو كان (مارغو غورتنر) يخدع مجموعةً من الوعّاظ الإنجيليين المخلصين للقيام بعمله القذر نيابةً عنه، هل ستغيّر براءتهم الشخصيّة المعادلة، وتعطي معنىً حقيقيّاً لحياة أولئك الذين شجّعهم الواعظون وجمعوا تبرُّعاتهم، وفي هذا الصدد، أليس كلُّ الدعاة الإنجيليين زائفين مثل مارغو غورتنر؟ من المؤكّد أنّ المسلمين يعتقدون ذلك، على الرّغم من أنّهم عموماً أكثر تحفُّظاً في قول ذلك، ويعتقد الكاثوليك أنّ اليهود مخدوعون بالقدر نفسه، ويعتقد البروتستانت أنّ الكاثوليك يضيعون وقتهم وطاقتهم على دينٍ باطلٍ إلى حدٍّ كبير، وما إلى ذلك، لكن أيشمل هذا كلّ المسلمين والكاثوليك والبروتستانت واليهود؟ بالطبع لا. هناك أقلّيّاتٌ صريحةٌ في كلِّ ديانةٍ تفسد الأمر، مثل النجم السينمائي الكاثوليكي ميل غيبسون، الذي أجرى مقابلةً مع بيتر بوير (2003) في ملفٍّ شخصي في مجلة «ذا نيويوركر»، سأله بوير عمّا إذا كان البروتستانت محرومين من الخلاص الأبدي:

«لا خلاصَ لمن هم خارج الكنيسة»، أجاب غيبسون: «أنا أؤمن بذلك»،»أسمح لي أن أقول لك إنَّ زوجتي قدّيسة، شخصٌ أفضل منّي بكثير، بصراحة، إنَّها أسقفيَّةٌ من رعايا كنيسة إنكلترا، تصلّي، وتؤمن بالله، وتعرف يسوع، وتؤمن «بتلك الأشياء»، وليس عدلاً إذا لم يُكتَب لها الخلاص، فهي أفضل منّي، لكنَّ هذا قرارٌ من الكرسي الرسولي، وأنا أتَّفق معه».

مثل هذه الملاحظات تحرج بشدَّةٍ مجموعتين من الكاثوليك: أولئك الذين يؤمنون بها، ولكنَّهم يعتقدون أنَّه من الأفضل عدم التصريح بذلك، وأولئك الذين لا يؤمنون بها إطلاقاً - بصرف النظر عمَّا قد يعلنه «الكرسي الرسولي»- وأيَّة مجموعةٍ من الكاثوليك أكبر أم أكثر نفوذاً؟ هذا غير معروفٍ إطلاقاً، وغير معروفٍ حاليَّاً، وهو جزءٌ من الوباء البغيض.

من غير المعروف أيضاً ما هو عدد المسلمين الذين يعتقدون حقَّاً أنَّ جميع الكفَّار وخاصَّةً الكفَّار (المرتدّين عن الإسلام) يستحقُّون الموت، وهو ما يقوله القرآن (5:44) بشكلٍ لا يمكن إنكاره، ويشير يوهانس يانسن (1997، ص 23) إلى أنَّه في الأزمنة السابقة كانت اليهوديَّة (انظر سفر التثنية 18:20) والمسيحيَّة (انظر أعمال الرسل 3:23) أيضاً تعدَّان الردَّة جريمةً كبرى، ولكن بالنسبة للأديان الإبراهيميَّة، يقف الإسلام وحده غير قادرٍ على نبذ هذه العقيدة الهمجيَّة بشكلٍ مقنع. لا يوصّي القرآن صراحةً بقتل المرتدّين، لكنَّ السُنَّة النبويّة (روايات سيرة الرسول وأحاديثه) تفعل ذلك بالتأكيد، أعتقد أنَّ معظم المسلمين مخلصون في إصرارهم على تجاهل الأمر النبوي بقتل المرتدّين، لكن من المقلق- على أقلِّ تقدير- أنَّ الخوف من أن تُعدَّ مرتدّاً ما يزال، على ما يبدو، هاجساً رئيساً في العالم الاسلامي، وعلى حدِّ تعبير يانسن: «لا يمكن أن يكون هناك هاري كريشنا أو بغوان، ولا مذهب السيانتولوجيا أو المورمونيَّة أو التأمُّل التجاوزي في مكَّة أو القاهرة، في العالم الإسلامي، يجب على التجديد الديني الابتعاد عن أيّ شيءٍ يتعلَّق بالردَّة، أو يشير إليها ضمنيَّاً» (ص 88 -89)، لذلك لا نُترك نحن الغرباء فقط للتخمين، حتَّى المسلمون «في الداخل» لا يعرفون حقَّاً ما يفكّر فيه المسلمون الآخرون بشأن الردّة، فهم في الغالب غير مستعدّين للمراهنة بحياتهم عليها، وهي أكثر علامات الإيمان تأكيداً، كما رأينا في الفصل الثامن.

وبالتالي، نرى هنا وجهاً مختلفاً للمشكلة المعرفيَّة التي واجهناها في الفصل الثامن، حول الإيمان بالإيمان، اكتشفنا هناك أنَّه من المستحيل تقريباً التميز بين أولئك الذين يؤمنون حقّاً والذين يؤمنون (فقط) بالإيمان، لأنَّ المعتقدات المعنيَّة يتمُّ إزالتها بسهولةٍ من عالم الفعل. نرى الآن أنَّ سبباً واحداً لمثل هذه المذاهب المُقنَّعة بشكلٍ منهجي هو تجنُّب - أو على الأقلِّ تأجيل - الاصطدام بين العقائد المتناقضة التي من شأنها أن تجبر المتدينين على التصرُّف بشكلٍ غير متسامح، أكثر بكثيرٍ ممَّا يريد معظم النَّاس اليوم أن يتصرَّفوا (من الجدير دائماً تذكير أنفسنا بأنَّه منذ وقتٍ ليس ببعيد، تمَّ نفي النَّاس وتعذيبهم وحتَّى إعدامهم بسبب الهرطقة والردَّة في أكثر مناطق أوروبا المسيحيَّة «حضارة»).

إذن، ما هو الموقف السائد اليوم بين أولئك الذين يسمُّون أنفسهم متدينين، ولكنَّهم يدافعون بقوَّةٍ عن التسامح؟ هناك ثلاثة خياراتٍ رئيسة تتراوح ما بين:

الميكافيلي المخادع:

1. كمسألةٍ استراتيجيَّةٍ سياسيَّة، لم يحن الوقت بعد لإعلاناتٍ صريحةٍ عن التفوُّق الديني، لذلك يجب علينا أن نؤجّل ونغضَّ الطرف على أمل إقناع أتباع تلك الديانات الأخرى بلطفٍ على مر القرون- مروراً بأحد أتباع «أيزنهاور» المتسامح حقّاً، «لا معنى لحكومتنا ما لم تكن مبنيَّةً على معتقدٍ ديني راسخ - ولا يهمني ما هو».

2. لا يهمُّ حقّاً بأيّ دينٍ تقسم بالولاء، طالما أنَّ لديك ديناً ما— وصولاً إلى التجاهل الموينيهاني[1] الحميد الأكثر اعتدالًا—

3. الدين عزيزٌ جدّاً على الكثيرين، لدرجة أنَّهم لا يفكّرون في التخلُّص منه، على الرَّغم من أنَّه لا يفيد شيئاً، وهو ببساطةٍ إرثٌ تاريخيٌّ فارغ يمكننا تحمّله حتّى يطفئ نفسه بهدوء في

(1) نسبة إلى دانيال باتريك موينيهان (16 مارس 1927-26 مارس 2003) سياسي وعالم اجتماع ودبلوماسي أمريكي، بوصفه عضواً في الحزب الديمقراطي، مثَّل نيويورك في مجلس الشيوخ الأمريكي من عام 1977 حتى عام 2001، وعمل مستشاراً للرئيس الجمهوري ريتشارد نيكسون.

وقتٍ ما في المستقبل البعيد، وغير المنظور.

لا جدوى من سؤال الأشخاص عن أيّهم يختارون، نظراً لأنَّ كلا الطرفين غير دبلوماسيين، لدرجة أنّه يمكننا التنبُّؤ مسبقاً بأنَّ معظم النَّاس سيذهبون للحصول على نسخةٍ من التسامح المسكوني سواءٌ صدَّقوا ذلك أم لا (إنَّه تماماً مثل إدانة السير موريس أولدفيلد المتوقَّعة لفرضيَّتي التخريبيَّة حول كيم فيلبي).

لقد أوقعَنا في فخِّ النفاق، ولا يوجد طريقٌ واضحٌ للخروج، هل نحن مثل العائلات التي يتظاهر فيها الكبار باعتقادهم بسانتا كلوز من أجل الأطفال، ويتظاهر الأطفال جميعاً بأنَّهم ما يزالون يؤمنون بسانتا كلوز، حتَّى لا يفسدوا متعة الكبار؟ لو كان مأزقنا الحالي فقط غير ضارٍّ، وحتَّى كوميديَّاً كهذا! في عالم الدين الراشد، يموت النَّاس ويقتلون، ويخضع المعتدلون في صمتٍ بسبب تعنُّت الراديكاليين في أديانهم، ويخشى الكثيرون الاعتراف بما يؤمنون به فعلاً، خوفاً من كسر قلب الجدَّة، أو الإساءة إلى جيرانهم، لدرجة الهروب من المدينة، أو ما هو أسوأ.

إذا كان هذا هو المعنى الثمين الذي نالته حياتنا بفضل ولائنا لدينٍ ما، فهو ليس صفقةً جيّدة، في رأيي، هل هذا هو أفضل ما يمكننا فعله، أليس من المأساوي أن يجد الكثير من النَّاس حول العالم أنفسهم مجنَّدين ضدَّ إرادتهم في مؤامرة صمت، إمَّا لأنَّهم يعتقدون سرَّاً أنَّ معظم سكَّان العالم يضيعون حياتهم في الوهم (لكنَّهم رقيقون للغاية، أو مراوغون لقول ذلك)، أو لأنَّهم يعتقدون سرَّاً أنَّ تقاليدهم مجرَّد وهم (لكنَّهم يخشون على سلامتهم إذا اعترفوا بذلك)؟

ما هي البدائل الموجودة؟

هناك معتدلون يقدّسون الدين الذي نشأوا فيه، ببساطة لأنَّه دينهم، وهم على استعداد للقيام بحملةٍ مبدئيَّاً للحصول على تفاصيل دينهم ببساطة، لأنَّه في سوق الأفكار يجب على كلّ شخصٍ التمسُّك بدينٍ حتَّى نتمكَّن من تمييز الجيّد من الأفضل، والاكتفاء بأفضل ما

يمكننا العثور عليه، مع مراعاة كلِّ الأشياء.

يشبه ذلك الولاء لفريقٍ رياضي، ويمكن أن يعطي معنىً للحياة - إذا لم يؤخذ على محمل الجد- أنا معجبٌ بـفريق Red Sox لمجرَّد أنَّني نشأت في منطقة بوسطن، ولديَّ ذكرياتٌ سعيدة عن تيد ويليامز، وجيمي بيرسال، وجاكي جنسن، وكارل ياسترزيمسكي، وواد بوغز، ولويس تيانت، وبودج فيسك، من بين آخرين.

إنَّ ولائي لفريق Red Sox مندفع، لكنَّه طاغياً بمرحٍ وغير مغرور، ريد سوكس ليسوا فريقي لأنَّهم الأفضل في الحقيقة؛ إنَّهم «الأفضل» (في رأيي) لأنَّهم فريقي، لقد استمتعت بمجد انتصارهم في عام 2004 (والذي كان، بالطبع، الأكثر روعةً وإلهاماً إطلاقاً)، وإذا جلب الفريق العار لنفسه، فلن أكون منزعجاً للغاية فقط، ولكن سأخجل على المستوى الشخصي- كما لو كان لي علاقة بذلك، وبالطبع لي علاقةٌ بذلك- إنَّ مساهمتي الشخصيَّة الصغيرة في محيط الحماسة والفخر المحليين تعمل في الواقع على تعزيز معنويَّات اللاعبين (كما يصرُّون دائماً).

هذا نوعٌ من الحب، لكن ليس الحبَّ المسعور الذي يقود النَّاس إلى الكذب والتعذيب والقتل، أولئك الذين يشعرون بالذنب عند التفكير في «خيانة» الدين الذي يحبُّونه، من خلال الاعتراف بعدم موافقتهم على العناصر الموجودة بداخله، يجب أن يفكّروا في حقيقة أنَّ الدين الذي يدينون به بشدَّة - الدين «الأبديُّ» المقدَّم لهم في شبابهم - هو حقيقةً المنتج المطوَّر بالعديد من التعديلات التي أُدخِلَت بحزم، ولكن بدقَّة من قبل عشَّاقٍ أوائل للدين نفسه.

3- ماذا يمكن أن نقول عن القيم المقدّسة؟

«نحن هنا على الأرض لنفعل الخير للآخرين، ما سبب وجود الآخرين هنا؟ لا أعرف»
W. H. Auden —

«لسنواتٍ عديدةٍ حتَّى الآن، لقد تمَّ إسكاتي أنا وأنت مثل الأطفال، وأُخبِرنا أنَّه لا توجد

إجاباتٌ بسيطةٌ للمشكلات المعقَّدة التي لا نفهمها، حسناً، الحقيقة هي أنَّ هناك إجاباتٍ بسيطة، لكنَّها فقط ليست سهلة» — رونالد ريغان، الخطاب الافتتاحي كحاكم لولاية كاليفورنيا، يناير 1977

«إذا كان لعصبيتنا القبليّة أنّ تفسح المجال أمام هويَّة أخلاقيَّةٍ موسّعة، فإنَّه لن يعد بإمكان معتقداتنا الدينيَّة أن تكون بمنأى عن موجات البحث والنقد الحقيقي، لقد حان الوقت لندرك أنَّ افتراض المعرفة حيث لا يملك المرء سوى الأمل الديني هو نوعٌ من الشر، وحيثما تزداد القناعة بشكلٍ متناسبٍ عكسيَّاً مع مبرّراتها، نكون قد فقدنا أساس التعاون الإنساني ذاته»- سام هاريس، نهاية الإيمان

لكي تتبنَّى مثل هذا الموقف المعتدل، عليك أن تخفّف قبضتك عن القيم المطلقة التي تبدو ظاهريَّاً واحدةً من عوامل الجذب الرئيسة للعديد من المذاهب الدينيَّة، ليس من السهل أن تكون أخلاقيَّاً، ويبدو أنَّ الأمر يزداد صعوبةً هذه الأيَّام، كانت معظم مشكلات العالم - المرض والمجاعة والحرب - تفوق قدرة النَّاس العاديين على الإصلاح، لم يكن هناك شيءٌ يمكنهم فعله حيال ذلك، وبما أنَّ كلمة «يجب» تعنيّ ضمنيَّاً «يستطيع»- يمكن للنَّاس تجاهل الكوارث على الجانب الآخر من الكرة الأرضيَّة -حتَّى لو علموا بها- بضميرٍ مرتاح، لأنَّهم كانوا عاجزين عن تجنُّبها بأي شكلٍ من الأشكال. العيش بقليلٍ من المبادئ البسيطة القابلة للتطبيق محليَّاً يمكن أن يضمن بشكلٍ أو بآخر أن يعيش المرء حياةً جيّدةً بقدر الإمكان في عصره. لم يعد بالإمكان فعل ذلك الآن.

بفضل التكنولوجيا، فإنَّ ما يمكن لأيّ شخصٍ فعله تقريباً قد تضاعف ألف مرَّة، بينما لم يواكب فهمنا الأخلاقيُّ لما يجب علينا فعله ذلك (دينيت، 1986، 1988). يمكنك الحصول على طفل أنبوب أو تناول حبَّة منع الحمل لمنع إنجاب طفل، ويمكنك إشباع رغباتك الجنسيَّة في خصوصيَّة غرفتك عن طريق تنزيل المواد الإباحيَّة على الإنترنت، ويمكنك نسخ الموسيقى المفضَّلة لديك مجّاناً بدلاً من شرائها، كما يمكنك الاحتفاظ بأموالك في حساباتٍ مصرفيَّةٍ خارجيَّةٍ سرّيَّة، وشراء أسهمٍ في شركات السجائر التي تستغلُّ دول العالم الثالث

الفقيرة، ويمكنك زرع حقول الألغام وتهريب الأسلحة النوويَّة في حقائب السفر، وصنع غاز الأعصاب، وإلقاء «قنابلَ ذكيَّةٍ» بدقَّةٍ بالغة، أيضاً، يمكنك إرسال مائة دولارٍ شهريّاً وتلقائيّاً من حسابك المصرفي، لتوفير التعليم لعشر فتياتٍ في بلدٍ إسلامي، لولا ذلك لن يتعلَّمن القراءة والكتابة، أو لإفادة مائة شخصٍ يعانون من سوء التغذية، أو تقديم الرعاية الطبيَّة لمرضى الإيدز في أفريقيا. يمكنك استخدام الإنترنت لتنظيم مراقبة المواطنين للمخاطر البيئيَّة، أو للتحقُّق من صدق وأداء المسؤولين الحكوميين، أو للتجسُّس على جيرانك، الآن، ماذا علينا أن نفعل؟

في مواجهة هذه الأسئلة المستحيلة حقّاً، من المعقول تماماً البحث عن مجموعةٍ قصيرةٍ من الإجابات البسيطة، قال مينكين ساخراً: «لكلِّ مشكلةٍ معقَّدة، هناك إجابةٌ بسيطة، وهي خاطئة»، لكن ربَّما كان مخطئاً! رَّبما تحلُّ القاعدة الذهبيَّة أو الوصايا العشر أو بعض القوائم المختصرة الأخرى التي لا يمكن التفاوض بشأنها إطلاقاً، جميع المآزق على ما يرام، بمجرَّد معرفة كيفيَّة تطبيقها، ومع ذلك لا أحد ينكر أنَّه ليس من الواضح إطلاقاً، كيف يمكن تفسير أيٍّ من القواعد أو المبادئ المفضَّلة لتناسب جميع مآزقنا، وكما يشير سكوت أتران، فإنَّ المعارضون الدينيُّون لعقوبة الإعدام، ومؤيّدو الدين أيضاً، يستشهدون بوصيَّة «لا تقتل» (2002، ص 253). يبدو مبدأ قدسيَّة الحياة البشريَّة واضحاً ومطلقاً: كلُّ حياةٍ بشريَّةٍ مقدَّسةٌ على قدم المساواة، ولا يجوز المساس بها؛ كما هو الحال مع الملك في الشطرنج، لا يمكن تثمينها – باستثناء «اللانهاية»، لأنَّ خسارتها تعني خسارة كلِّ شيء، لكن في الحقيقة، نعلم جميعاً أنَّ الحياة ليست – ولا يمكن– أن تكون مثل الشطرنج، هناك العديد من «الألعاب» المتداخلة التي تحدث في وقتٍ واحد، ماذا سنفعل عندما تكون أكثر من حياةٍ بشريَّةٍ على المحك؟ إذا كانت كلُّ حياةٍ ذات قيمةٍ لا متناهية، وليس لها قيمةٌ أكثر من حياةٍ أخرى، فكيف لنا على سبيل المثال أن نتخلَّى عن عددٍ قليل من الكلى القابلة للزرع المتوافرة؟ لا تؤدّي التكنولوجيا الحديثة إلَّا إلى تفاقم المشكلات القديمة؛ لقد واجه «سليمان» خياراتٍ صعبةً بحكمةٍ ملحوظة، وكان على كلِّ أمٍّ لديها أقلُّ ممَّا يكفي من الطعام لأطفالها (ناهيك عن أطفال جارتها) أن تواجه عدم جدوى تطبيق مبدأ قدسيَّة الحياة البشريَّة. من المؤكَّد أنَّ كلَّ

شخصٍ تقريباً قد واجه معضلةً أخلاقيَّة، وتمنَّى سراً، «لو كان بإمكان شخصٍ ما - شخصٍ أثق به - فقط أن يخبرني بما يجب أن أفعله!» ألن يكون هذا غير صحيح من الناحية الأخلاقيَّة، ألسنا مسؤولين عن اتخاذ قراراتنا الأخلاقيَّة؟ نعم، لكنَّ فضائل التفكير الأخلاقي: «افعلها بنفسك» لها حدودها، وإذا قرَّرت- بعد دراسةٍ واعية- أنَّ قرارك الأخلاقي هو تفويض المزيد من القرارات الأخلاقيَّة في حياتك إلى خبيرٍ موثوق، فأنت بذلك تكون قد اتَّخذت قراراتك الخاصَّة.

قرارٌ أخلاقي: لقد قرَّرت الاستفادة من تقسيم العمل الذي تتيحه الحضارة، والحصولَ على مساعدة المتخصّصين الخبراء.

نشيد بحكمة هذا المسار في جميع المجالات المهمَّة الأخرى لاتخاذ القرار (لا تحاول أن تكون طبيب نفسك، فالمحامي الذي يمثّل نفسه أمام المحكمة يرتكب حماقة، وما إلى ذلك). حتَّى في حالة القرارات السياسيَّة، مثل طريقة التصويت، يمكن الدفاع عن سياسة التفويض؛ عندما أذهب أنا وزوجتي إلى اجتماع البلدة، أعلم أنَّها درست القضايا التي تواجه بلدتنا بجدّيَّةٍ أكثر بكثيرٍ ممَّا فعلت أنا، لدرجة أنَّني أتبعها بشكلٍ روتيني، وأصوّت بالطريقة التي تطلب منّي التصويت بها، حتَّى لو لم أكن متأكّداً من السبب، لأنَّه لديَّ الكثير من الأدلَّة على اقتناعي بأنَّه إذا أخذنا الوقت والجهد للتحقُّق من ذلك، فإنَّها ستقنعني بأنَّ رأيها كان صحيحاً. هل هذا تقصيرٌ في واجباتي كمواطن؟ لا أعتقد ذلك، لكنَّ الأمر يعتمد على وجود أسبابٍ جيّدةٍ للثقة في حكمها، فالحبُّ لا يكفي، وهذا هو السبب في أنَّ أولئك الذين لديهم إيمانٌ لا يرقى إليه الشكّ في صحَّة التعاليم الأخلاقيَّة لدينهم يمثّلون مشكلة؛ إذا لم يفكّروا هم أنفسهم بضميرٍ حي، فيما إذا كان رعاتهم أو كهنتهم أو حاخاماتهم أو أئمَّتهم يستحقُّون هذه السلطة المفوَّضة على حياتهم الخاصَّة، فإنَّهم في الواقع يتَّخذون موقفاً شخصيَّاً غير أخلاقي.

ربَّما يكون هذا هو أكثر التداعيات إثارةً للصدمة في بحثي، وأنا لا أتراجع عنه، على الرَّغم من أنَّه قد يسيء إلى الكثيرين الذين يعتقدون أنَّهم أخلاقيُّون بعمق. من المفترض عموماً أنَّه من المعتاد تماماً تبنّي التعاليم الأخلاقيَّة لدين المرء دون شك، لأنَّها - بعبارةٍ أبسط - كلمة

الله (كما يفسّرها، دائماً، المتخصّصون الذين فوّضهم الفرد بالسلطة). أنا أحثُّ- على العكس من ذلك- أيَّ شخصٍ يصرّح بأنَّ نقطةً معيّنةً من الاقتناع الأخلاقي غير قابلةٍ للنقاش، وغير قابلةٍ للجدال، وغير قابلةٍ للتفاوض، لمجرَّد أنّها كلمة الله، أو لأنَّ الكتاب المقدَّس يقول ذلك، أو لأنَّ «هذا هو ما يعتقده جميع المسلمين [الهندوس، السيخ ...إلخ]، وأنا مسلم [هندوسي، سيخي ...إلخ]، «يجب أن يُنظر إليه على أنّه يجعل من المستحيل على بقيّتنا أن يأخذوا آرائه على محمل الجد، متبرّئين من تلك المحادثة الأخلاقيَّة، مع الاعتراف عن غير قصد بأنَّ آرائه الخاصَّة ليست مصانةً بشكلٍ متقن، ولا تستحقُّ الاستماع إليها.

الحجَّة في ذلك مباشرة: لنفترض أنَّ لديَّ صديقاً اسمه «فريد»، هو دائماً على حقّ (في رأيي المدروس بعناية)، فإذا قلت لك إنّني ضدَّ أبحاث الخلايا الجذعيَّة، لأنَّ «صديقي فريد يقول إنّها خاطئة وهذا كلُّ ما في الأمر»، ستنظر إليَّ كما لو أنّني لا أفهم موضوع المناقشة بشكلٍ جيّد. من المفترض أن تكون المناقشة مراجعةً للأسباب، وأنا لم أعطكَ سبباً يمكنني بحسن نيَّةٍ أن أتوقَّع منك تقديره، افترض أنّك تعتقد أنَّ أبحاث الخلايا الجذعيَّة خاطئة، لأنَّ هذا ما أخبرك به الله. حتَّى لو كنتَ محقّاً؛ أي حتَّى لو كان الله موجوداً بالفعل، وقد أخبرك شخصياً أنَّ أبحاث الخلايا الجذعيَّة خاطئة، لا يمكنك أن تتوقَّع بشكلٍ معقول من الآخرين الذين لا يشاركونك إيمانك أو خبرتك قبول هذا كسبب. أنت غير منطقي في اتّخاذ موقفك، وحقيقة أنَّ إيمانك قويٌّ لدرجةٍ أنّك لا تستطيع أن تفعل خلاف ذلك يُظهِرُ فقط (إذا كنت لا تستطيع فعلاً) أنّك عاجزٌ بسبب اليقين الأخلاقي، وهو نوعٌ من العبوديَّة الآليَّة ليمٍ لا يمكنك تقييمها، وإذا أجبت بأنّه يمكنك ذلك، ولكنَّك لن تفكّر في أسبابٍ تؤيّد قناعتك أو تعارضها (لأنّها كلمة الله، وسيكون من التدنيس حتَّى مجرَّد التفكير بأنّها قد تكون خاطئة)، فأنت تقرُّ برفضك المتعمَّد للالتزام بالحدِّ الأدنى من شروط المناقشة العقلانيَّة، وفي كلتا الحالين، فإنَّ تصريحاتك عن آرائك الراسخة هي مواقف ليست في محلّها، وجزءٌ من المشكلة، وليست جزءاً من الحلّ، وسيتعيَّن علينا نحن الآخرون العمل للتحايل عليك بأفضل ما نستطيع.

لاحظ أنَّ هذا الموقف لا ينطوي على عدم احترام، ولا على حكمٍ مسبقٍ على إمكانيَّة أن الله قد أخبرك، إذا أخبرك الله، فإنَّ جزءاً من مشكلتك هو إقناع الآخرين، الذين لم يُحدِّثهم الله (بَعد)، أنَّ هذا هو ما يجب أن نؤمن به، وإذا رفضت أو لم تتمكَّن من القيام بذلك، فأنت في الواقع تخذل إلهك، تحت ستار إظهار حبّك العاجز. يمكنك الانسحاب من المناقشة إذا كان عليك - هذا حقُّك - ولكن بعد ذلك لا تتوقَّع منَّا أن نعطي وجهة نظرك أيَّ وزنٍ معيَّن لا يمكننا اكتشافه بوسائل أخرى، ولا تلمنا إذا لم «نفهمها.»

لطالما كان العديد من الأشخاص المتدينين متحمّسين للدفاع عن قناعاتهم في ساحة تحقيقٍ وإقناعٍ معقول، لن يجدوا صعوبةً مطلقاً في هذه الملاحظات - بصرف النظر عن مواجهة القرار الدبلوماسي بشأن ما إذا كانوا سينضمُّون إليَّ في محاولة إقناع أتباعهم الأقلّ عقلانيَّة بأنَّهم يزيدون الأمور سوءاً على دينهم بسبب تعنّتهم- وهنا واحدةٌ من أصعب المشكلات الأخلاقيَّة التي تواجه العالم اليوم. كلُّ دينٍ لديه مجموعةٌ سكَّانيَّةٌ صحّيَّةٌ من الأشخاص ذوي التفكير المسكوني، الذين يتوقون للوصول إلى أتباع دياناتٍ أخرى، أو أولئك الذين ليس لديهم أيُّ دينٍ إطلاقاً، ويأخذون في الحسبان المشكلات الأخلاقيَّة للعالم على أساسٍ عقلاني. في يوليو/ تموز 2004، انعقد البرلمان الرابع لأديان العالم في برشلونة،[3] وجمع الآلاف من النَّاس من مختلف الأديان معاً لمدَّة أسبوع في ورش العمل والندوات والجلسات العامَّة والعروض وخدمات العبادة، وكلّها أمرت بمراعاة نفس المبادئ:

- استمع للآخرين، ودَع الآخرين يستمعون إليك، حتَّى يمكن سماع جميع المتحدّثين
- تحدَّث باحترامٍ لكي يتمَّ التحدُّث معك باحترام
- طوّر أو عمّق التفاهم المتبادل
- تعرّف على منظور الآخرين، وفكّر في وجهات نظر الآخرين، و.....إلخ.
- اكتشف رؤىً جديدة. [مسارات إلى السلام، برنامج البرلمان]

جموعٌ ملوَّنةٌ بأزياء مختلفة من الكهنة والمعلّمين الروحيين والراهبات والرهبان والجوقات

والراقصين، وجميعهم يمسكون بأيدي بعضهم البعض ويستمعون باحترام لبعضهم البعض، كان كلُّ ذلك دافئاً للغاية، لكنَّ هؤلاء الأشخاص ذوو النوايا الحسنة والحيويُّون هم غير فعَّالين بشكل شخصي في التعامل مع أعضاء دياناتهم الأكثر تطرُّفاً، ففي كثيرٍ من الحالات هم- بحقٍّ- خائفون منهم. لم يكن المسلمون المعتدلون حتَّى الآن، قادرين تماماً على قلب تيَّار الرأي العام الإسلامي ضدَّ الوهابيين والمتطرّفين الآخرين، لكنَّ المسيحيين المعتدلين واليهود والهندوس كانوا عاجزين بالقدر نفسه في مواجهة مطالب وأفعال عناصرهم المتطرّفة المشينة.

لقد حان الوقت لأن يجد الأتباع العقلاء من جميع الأديان الشجاعة والقدرة على التحمُّل لتغيير الدين الذي يقدّر محبَّة الله العاجزة. فبالإضافة إلى كونها غير مُبَجَّلة، فإنها غير مبرَّرة أيضاً، ومخزية، والأكثر خزياً هم الكهنة والحاخامات والأئمَّة، وغيرهم من الخبراء الذين كانت استجابتهم للطلبات الصادقة لجماعاتهم من أجل الحصول على التوجيه الأخلاقي، هي إخفاء عدم قدرتهم على إبداء أسبابٍ لآرائهم حول القضايا الصعبة من خلال الاختباء وراء تفسير بعض «المعصمين» للنصوص المقدَّسة (قراءة «النقد أعلاه»). إنَّ تفويض السلطة من قِبل شخصٍ عادي حسنِ النيَّة، وذي ولاءٍ عميقٍ في دينه لقادته الدينيين أمر طبيعي جداً، لكن أن يتظاهر هؤلاء القادة باكتشاف الإجابات الصحيحة في دينهم (بفضل خبرتهم) من خلال عمليَّةٍ قائمة على التسليم، ومُحصّنة حتى تجاه النقد ذي النوايا الحسنة فهو أمر مختلف تماماً.

كما كان الحال في كثير من الأحيان، يجب أن نسلّم بأنَّه من الممكن تماماً أن يكون هذا المنطق المراوغ للتهرُّب من الأسئلة عائماً تماماً، بمعنىً آخر؛ من الممكن بالتأكيد للنَّاس أن يؤمنوا بكلِّ براءةٍ أنَّ حبَّهم لله، يعفيهم من مسؤوليَّة اكتشاف أسباب هذه الأوامر التي يصعب فهمها من إلههم الحبيب. لا نحتاج إلى توجيه اتهاماتٍ بالنفاق أو المكر، لكنَّ احترام براءة شخصٍ ما لا يلزمنا باحترام معتقده. وإليكم ما يجب أن نقوله لمثل هذا الشخص: لا توجد سوى طريقةٍ واحدةٍ لاحترام جوهر أيِّ قرارٍ أخلاقي مزعوم أعطاه الله، فكّر فيه بضميرٍ في ضوء المنطق الكامل، مستخدماً كلَّ الأدلَّة الموجودة في متناولنا، لا يستحقُّ العبادةَ إلهٌ يفرح

بإظهار الحبِّ غير المنطقي.

إليكم أحجية: كيف يشبه دينكم بركة السباحة؟

وإليكم الجواب: إنَّه ما يُعرَف قانوناً بمجلبة الضرر الجذَّابة، ومبدأ مجلبة الضرر الجذَّابة: هو المبدأ الذي ينصُّ أنَّه يقع على عاتق النَّاس الذين يبقون ممتلكاتهم في حالةٍ خطيرة، يحتمل أن تجتذب الأطفال، واجبُ توجيه إنذارٍ أو اتّخاذ إجراءاتٍ إيجابيَّةٍ أقوى لحماية الأطفال من أخطار هذا الجذب، إنَّه استثناءٌ للقاعدة العامَّة التي تنصُّ على عدم الحاجة إلى عنايةٍ خاصَّة من مالكي العقارات لحماية المتعدّين من الأذى. أحواض السباحة غير المغلقة هي أفضل الأمثلة المعروفة، لكنَّ الثلَّاجات القديمة التي تتنزع أبوابها، والآلات أو أكوام مواد البناء، أو غيرها من الأشياء التي يمكن تسلُّقها، والتي يمكن أن تكون إغراءً لا يقاوم للأطفال الصغار قد عُدَّت أيضاً مصدراً جالباً للضرر جذَّاباً، ويتحمَّل مالكوها المسؤوليَّة عن الأضرار التي تحدث عند احتفاظهم بأشياء يمكن أن تجذب الأبرياء مسبِّبةً الأذى.

أولئك الذين يحافظون على الأديان، ويتَّخذون خطواتٍ لجعلها أكثر جاذبيَّة، يجب أن يتحمَّلوا بالمثل المسؤوليَّة عن الأضرار التي يسبّبها بعض أولئك الذين يجذبونهم ويزوّدونهم بعباءة الاحترام. يسارع المدافعون عن الدين إلى الإشارة إلى أنَّ الإرهابيين، عادةً ما يكون لديهم أجندّاتٌ سياسيَّةٌ وليست دينيَّة، وهو ما قد يكون صحيحاً في كثير أو معظم الحالات، أو حتَّى في جميع الحالات، لكنَّ هذا ليس نهاية الأمر، فغالباً ما تقود الأجنّدات السياسيَّة للمتطرّفين العنيفين إلى تبنّيهم قناعاً دينيّاً، واستغلال البنية التحتيَّة التنظيميَّة، وتقليد الولاء المطلق لأيِّ دينٍ متاح.

صحيحٌ أنَّ هؤلاء المتعصّبين نادراً ما يستوحون أفكارهم ومبادئهم من أعمق وأفضل المبادئ في تلك التقاليد الدينيَّة، أو يسترشدون بها، وماذا في ذلك؟

ما يزال إرهاب القاعدة و«حماس» مسؤوليَّةَ الإسلام، وما يزال تفجير عيادة الإجهاض مسؤوليَّة المسيحيَّة، وما تزال الهندوسيَّة مسؤولةً عن الأنشطة القاتلة للمتطرّفين الهندوس.

كما يجادل سام هاريس في كتابه الشجاع «نهاية الإيمان» (2004)، تواجه الجهود النبيلة للمعتدلين والمسكونيين في جميع الأديان معضلةً قاسية من نوع[1]Catch-22: من خلال أعمالهم الصالحة، يوفّر هؤلاء المعتدلين ميزةً وقائيَّةً لأتباع دينهم المتعصّبين، الذين يدينون سرّاً انفتاحهم واستعدادهم للتغيير في حين يحصدون ثمار العلاقات العامَّة الجيِّدة التي بناها المعتدلون.

باختصار، يتمُّ استخدام المعتدلين في جميع الأديان من قبل المتعصّبين، ولا ينبغي عليهم الاستياء من ذلك فقط ؛ بل ينبغي أن يتَّخذوا أيَّ خطواتٍ لتقليص ذلك في تقاليدهم الدينيَّة الخاصَّة، ربَّما لا يستطيع أحد فعل ذلك.

فكرةٌ واقعيَّة: إذا أردنا أن يتحقَّق سلامٌ مستقرٌّ بين الإسلام والغرب، يجب أن يمرَّ الإسلام بتحوُّلٍ جذري، ولكي يكون هذا التحوُّل مقبولاً لدى المسلمين، يجب أن يبدو أيضاً أنَّه يأتي من المسلمين أنفسهم، لا يبدو من المبالغة القول إنَّ مصير الحضارة يكمن إلى حدٍّ كبير في أيدي المسلمين «المعتدلين». [هاريس، 2004، ص. 154]

يجب أن نحمّل هؤلاء المسلمين المعتدلين مسؤوليَّة إعادة تشكيل دينهم، لكن هذا يعني أنَّه يجب علينا أن نحمّل المسيحيين المعتدلين واليهود وغيرهم، مسؤوليَّة جميع التجاوزات في أديانهم، وكما أشار جورج لاكوف: نحتاج إلى أن نثبت لهؤلاء القادة الإسلاميين أنَّنا نسمع أصواتهم الأخلاقيَّة، وليس أصواتنا فقط.

نحن نعتمد على حسن نيَّة وشجاعة القادة الإسلاميين المعتدلين، ولكسبها يجب أن نُظهر

---

(1) وضع إشكاليٌّ يُحظر فيه الحلُّ الوحيد من خلال الظروف المتأصلة في المشكلة أو عن طريق قاعدة، صاغ جوزيف هيلر المصطلح في روايته الجديدة لعام 1961، والذي يصف القيود البيروقراطية السخيفة على الجنود في الحرب العالمية الثانية. تم تقديم المصطلح من قبل شخصية دوك دانيكا وهو طبيب نفسي في الجيش يستخدم هذا المصطلح لشرح السبب في أنَّ أيَّ طيَّار يطلب التقييم العقلي على أمل أن يتوصل هذا التقييم إلى اعتباره لا يتمتع بصحةٍ عقليَّةٍ بما يكفي للطيران، وبالتالي الهروب من المهمات الخطرة- يدل على أنه عاقل، هذه العبارة تعني أيضا معضلةً أو ظرفاً صعباً، لا يوجد أي هروب بسبب ظروف متضاربة أو تعزية متضاربة.

حسن نيّتنا من خلال البدء بطريقةٍ جادَّةٍ في معالجة الظروف الاجتماعيَّة والسياسيَّة التي تؤدّي إلى اليأس. [2004، ص. 61]

كيف يمكننا جميعاً منع استخدام عباءة الاحترام الديني لإيواء التجاوزات المجنونة؟

جزءٌ من الحلّ هو جعل الدين بشكلٍ عام أقلّ من «بقرة مقدَّسة»، وأكثر من «بديل لائق»، هذا هو المسار الذي اتَّبعه بعضنا بشكلٍ سيِّئٍ إلى حدٍّ ما – الملحدون، واللاأدريُّون، والمفكّرون الأحرار، والإنسانيُّون العلمانيُّون، وغيرهم ممَّن حرَّروا أنفسهم من الولاءات الدينيَّة على وجه التحديد، ونحن "البارعون" مدركون تماماً لكلِّ الخير الذي تنجزه الأديان، لكنَّنا نفضّل توجيه أعمالنا الخيريَّة وأعمالنا الصالحة من خلال المنظَّمات العلمانيَّة – على وجه التحديد– لأنَّنا لا نريد أن نكون متواطئين في إعطاء اسم جيّدٍ للدين! هذا يبقي أيدينا نظيفة، لكن هذا لا يكفي، كما أنَّه لا يكفي أن يتجنَّب المسيحيُّون المعتدلون التبرُّع بالأموال للمنظَّمات المعادية للسَّاميَّة داخل المسيحيَّة، أو حصر اليهود المعتدلين أعمالهم الخيريَّة في المنظَّمات التي تعمل لتأمين التعايش السلمي بين الفلسطينيين والإسرائيليين. تلك هي البداية، لكن هناك المزيد من العمل الذي يتعيَّن القيام به، وهو عملٌ غير مبهجٍ، بل وخطيرٌ لإزالة تقديس التجاوزات في كلِّ دينٍ من الداخل، أيُّ شخصٍ متديّن لا يشارك بشكلٍ نشطٍ وعلني في هذا الجهد هو متنصِّلٌ من المسؤوليَّة، وحقيقة أنَّك لا تنتمي إلى جماعةٍ أو طائفةٍ مسيئة لا يعفيك: إنَّها المسيحيَّة والإسلام واليهوديَّة والهندوسيَّة (على سبيل المثال) التي تمثّل مجلبة ضررٍ جذَّابة، وليست مجرَّد طوائفَ متفرّعةٍ عنها.

ينبغي أن يشعر ضمير كلّ من يسمُّون أنفسهم مسيحيين بالذنب بسبب أية عقيدة شرّيرة تستخدم صوراً أو نصوصاً مسيحيَّةً كصبغة وقائيَّة، وإلى أن يُدين الكهنة والحاخامات والأئمَّة وجموعهم صراحةً وبالاسم، الأفرادَ والتجمُّعات الخطرة في صفوفهم، فهم جميعاً متواطئون.

أعرف العديد من المسيحيين الذين أصيبوا بالغثيان بسبب العديد من الكلمات والأفعال التي تمَّت «باسم يسوع»، لكنَّ تعبيرات الفزع للأصدقاء المقرَّبين ليست كافية، ففي «فكرة داروين الخطيرة»، كتبت عن المسلمين الشجعان الذين تجرَّأوا على التحدُّث علناً

ضدَّ التحريف البغيض للفتوى التي صدرت بحقّ سلمان رشدي، مؤلّف كتاب «آيات شيطانيَّة»، والذي أُهدِرَ دمهُ بسبب هرطقاته، حيث أكّدتْ: «دعونا جميعاً نتقاسم الخطر بالتكاتف معهم» (ص 517 ن)، لكن هذه هي المشكلة المحزنة حقّاً: إذا تعاونّا نحن غير المسلمين معهم، فإنّنا بذلك نصنّفهم على أنّهم «دمى في يد أعداء الإسلام» في أعين العديد من المسلمين. فقط أولئك داخل المجتمع الديني يمكنهم أن يبدأوا بفعَّاليَّة في تفكيك هذا الموقف اللاأخلاقي العميق، لكنَّ الأشخاص المؤمنين بالتعدُّديَّة الثقافيَّة الذين يحثُّوننا على التساهل معهم يفاقمون المشكلة.

4- باركي روحي (الروحانيَّة والأنانيَّة):

«من لديه أكبر عددٍ من الألعاب عندما يموت هو الفائز»- شعار مادي معروف

«نعم لدينا روح، لكنَّها مصنوعةٌ من الكثير من الروبوتات الصغيرة»— شعاري المادي

تأمَّل معنيين مختلفين تماماً لكلمة «الماديَّة»، في معناه اليومي الأكثر شيوعاً، يشير إلى شخصٍ يهتمُّ فقط بالممتلكات «الماديَّة» والثروة وجميع مظاهرها، وبالمعنى العلمي أو الفلسفي، يشير إلى نظريَّةٍ تطمح إلى شرح الظواهر كلّها دون اللجوء إلى أيّ شيءٍ غير مادي، مثل الروح الديكارتيَّة، أو «الهيولى»، أو الله.

النقيض النموذجيُّ لكلمة ماديَّ materialistic بالمعنى العلمي هو ذو طبيعة ثنائية dualistic، والذي يؤكّد أنَّ هناك نوعين مختلفين تماماً من المادَّة، المادَّة و...، أيًّا يكن ما تصنع منه العقول، والجسر الظاهر الذي يربط المعنيين معاً واضحٌ بما فيه الكفاية: إذا كنت لا تعتقد أنَّ لديك روحاً خالدة، فأنت لا تؤمن أنَّك ستحصل على ثوابك في الجنَّة، لذا قد تسعى للحصول على كلِّ ما يمكنك الحصول عليه في هذا العالم المادّي، من ثمَّ إذا سألنا النَّاس عن نقيض مصطلح المادّي بالمعنى اليومي، فقد يتفقون على مصطلح روحاني spiritual.

في سياق بحثي حول هذا الكتاب، وجدت رأياً واحداً تمَّ التعبير عنه بطرقٍ مختلفةٍ

قليلاً من قبل النَّاس عبر مجموعةٍ من الآراء الدينيَّة: «الإنسان» لديه «حاجةٌ عميقةٌ» إلى «الروحانيَّة»، وهي حاجة تتمُّ تلبيتها للبعض من خلال الدين التقليدي المنظَّم، ولآخرين من خلال طوائف وحركات العصر الجديد أو الهوايات، وبالنسبة للآخرين من خلال السعي المكثَّف للفن، أو الموسيقى، أو الفخار، أو النشاط البيئي، أو كرة القدم! ما يذهلني حول هذا التوق المتنوّع بشكل مبهج إلى «الروحانيَّة»، هو أنَّ النَّاس يعتقدون أنَّهم يعرفون ما يتحدَّثون عنه، على الرَّغم من – أو ربَّما لأنَّ – لا أحد يكلّف نفسه عناء شرح ما يقصدونه بالضبط، من المفترض أن يكون واضحاً، على ما أعتقد، لكنَّه في الحقيقة ليس كذلك. عندما أطلب من النَّاس أن يوضحوا ما الذي يقصدونه، فإنَّهم عادةً ما يعتذرون عن القيام بذلك، على غرار ردِّ لويس أرمسترونغ الذي كثيراً ما يُقتبَس عندما سُئِلَ عن موسيقى الجاز: «إذا كان عليك أن تسأل، فلن تعرف كيف تفعل ذلك أبداً». هذا لن يفي بالغرض. لترى بنفسك مدى صعوبة تحديد ماهيَّة الروحانيَّة، حاول تحسين هذه المحاكاة الساخرة، بعد أن تمَّ تلخيصها من العديد من اللقاءات المحبطة: «الروحانيَّة -كما تعلم- تشبه الانتباه إلى روحك، أو أن تكون لديك أفكارٌ عميقةٌ تحرّكك حقَّاً، وليس مجرَّد التفكير بمن لديّه ملابس أجمل، وما إذا كنت تريد شراء سيَّارةٍ جديدة، وماذا ستتناول على العشاء وأشياء من هذا القبيل. الروحانيَّة هي أن تهتمَّ حقَّاً، لا أن تكون ماديَّاً فقط، و»جنباً إلى جنب مع هذه النظرة الشائعة وغير التأمّليَّة للروحانيَّة، فإنَّ الصورة النمطيَّة للملحد: يفتقر الملحدون إلى «القيم»؛ فهم لامبالون، أنانيُّون، ضحلون، مغرورون بأنفسهم، يعتقدون أنَّهم يعرفون كلَّ شيء، ولكنهم يفتقدون الروح تماماً (لا يمكنك أن تكون شخصاً جيّداً حقَّاً ما لم تكن لديك حياةٌ روحيَّة).

الآن اسمحوا لي أن أحاول وضع كلمات أفضل على ألسنتهم، ما أدركه هؤلاء الأشخاص هو أحد أفضل أسرار الحياة: أطلق العنان لنفسك، إذا تمكَّنت من التعامل مع تعقيدات العالم، كلٍّ من أمجاده وأهواله، بموقفٍ من الفضول المتواضع، مع الاعتراف بأنَّه مهما رأيته بعمق، فأنت لا تعرف إلَّا النذر اليسير للتوّ، ستكتشف عوالم داخل عوالم، جمالاً لم يكن بوسعك حتَّى الآن تخيُّله، وستتقلَّص اهتماماتك الدنيويَّة إلى الحجم المناسب، وليس كلُّ ذلك مهمَّاً في المخطَّط الأكبر للأشياء.

إنَّ الحفاظ على هذه الرؤية المذهلة للعالم متاحة أثناء التعامل مع متطلّبات الحياة اليوميَّة ليس تمريناً سهلاً، ولكنَّه بالتأكيد يستحقُّ الجهد، لأنَّه لو استطعت البقاء في المركز والمشاركة، فستجد الخيارات الصعبة أسهل، ستأتي الكلمات الصحيحة إليك عندما تحتاج إليها، وستكون بالفعل شخصاً أفضل، هذا - كما أقترح- هو سرُّ الروحانيَّة، ولا علاقة له مطلقاً بالإيمان بالروح الخالدة، أو بأيّ شيءٍ خارقٍ للطبيعة.

اكتشف عالم النفس نيكولاس همفري بشيءٍ من العمق، العلاقة بين الإيمان بـ «القوى النفسيَّة» والمعنى الشائع للأخلاق، ويشير إلى أنَّ جميع قصص الخوارق، والإدراك خارج الحواس والاستبصار والتحدُّث إلى الأصدقاء والأقارب المتوفّين في جلسات تحضير الأرواح، تملك «هالة ذاتية نوعاً ما بالنسبة لهم- علامةٌ على القداسة، ونوع معين من المَسّ دون لمس» (1995، ص 186) وعلى الرَّغم من أنَّ هذا قد يرجع جزئيَّاً إلى حقيقة أنَّ القصص غالباً ما تتعامل مع المجالات الأكثر حساسيَّةً في حياة النَّاس من الناحية العاطفيَّة، إلَّا أنَّ لديه تفسيراً آخر:

«لقد نشأت[1] مع ما يمكن القول إنَّه أحد أكثر حيل الثقة التي مارستها ثقافتنا علينا، كان هذا لإقناع النَّاس بأنَّ هناك علاقةً عميقةً بين الإيمان بإمكانيَّة وجود قوى نفسيَّة، وكونك عضواً كريماً وصادقاً ومستقيماً وجديراً بالثقة».

ويعلن الأساس المنطقيُّ للتعويم الحر بمهارة أنَّه:

«سواءً كان النَّاس قد حصلوا على أيّ تعليم ديني صريح أم لا، فقد تعرَّضوا جميعاً لفكرة وجود صورة الوالد الخارق الذي يراقبهم ويهتمُّ بهم، وقد يترتَّب على ذلك بسهولة أنَّ إحساس النَّاس بالعدالة واللياقة، يقنعهم أنَّه إذا كانت مثل هذه الصورة موجودة، فعندئذٍ فإنَّ عدم الإيمان بها سيكون جحوداً إلى أقصى الحدود، والأولاد الأشرار فقط هم الذين يمكن أن يكونوا جاحدين إلى هذا الحد، ولكن إذا كان غير المؤمنين أشراراً عامَّةً، فمن الطبيعي (رغم

(1) يشير همفري هنا إلى القوى النفسية

أنّه ليس منطقيّاً) افتراض أنَّ المؤمنين صالحون بالعموم، لذا سواءً كان الشخص يؤمن بهذا الوالد الخارق أم لا، فإنه يصبح في حدِّ ذاته مقياساً لفضيلته الأخلاقيّة». النتيجة السخيفة، ولكن المقبولة على نطاقٍ واسع، هي أنَّ كلَّ قصَّةٍ خارقةٍ نسمعها، من المفترض أن تستحقَّ الاهتمام والاحترام تلقائيّاً. [ص. 186-87]

لقد توصلَّت إلى قبول أنَّ هذا التوافق بين الخير الأخلاقي مع «الروحانيَّة» والشرّ الأخلاقي مع «المادّيَّة»، هو مجرَّد حقيقةٍ محبطةٍ في الحياة، وهي متجذّرةٌ بعمقٍ في مخطَّطنا المفاهيمي المعاصر، لدرجة أنّها ترقى إلى الاتجاه السائد الذي يتوجب على العلم المادّيّ أن يقاومه.

نحن المادّيُّون أشرار، وأولئك الذين يؤمنون بأيّ شيءٍ خارقٍ للطبيعة، مهما كان الاعتقاد الخاصُّ بهم سخيفاً وساذجاً، فلديهم على الأقلّ هذا القدر من الأهمّيَّة: إنَّهم «في صفِّ الملائكة».

ولدت هذه العبارة المألوفة، بالمناسبة، في اتحاد أكسفورد، جمعيَّة مناظرة في جامعة أكسفورد، في خطاب بنجامين دزرائيلي في عام 1864، ردّاً على تحدّي الداروينيَّة: «ما هو السؤال المطروح الآن أمام الجمعيَّة، مع تأكيدٍ سطحي هو الأكثر إثارةً للدهشة، والسؤال هو: هل الإنسان قردٌ أم ملاك؟. ربّي، أنا إلى جانب الملائكة، «إنَّ الاصطفاف الخاطئ إلى جانب الخير وإنكار المادّيَّة العلميَّة له تاريخٌ طويل، لكنَّه اصطفافٌ خاطئ[5]، ليس هناك سبب على الإطلاق يجعل عدم الإيمان بعدم مادّيَّة الروح أو خلودها الشخص أقلَّ رعاية، وأقلَّ أخلاقيَّة، وأقلَّ التزاماً برفاهية الجميع على الأرض من شخصٍ يؤمن بـ «الروح»، لكن ألا يهتمُّ مثل هذا المادّي فقط بالرفاهية المادّيَّة للنّاس؟ إذا كان هذا يعني فقط سكنهم وسيَّارتهم وطعامهم وصحَّتهم «الجسديَّة» مقابل صحَّتهم «العقليَّة»، فالجواب: لا، بعد كلّ ذلك، يعتقد المادّيُّ العلميُّ الجيّد أنَّ الصحَّة العقليَّة – الصحَّة الروحيَّة، إن أردت – هي مثل الصحَّة الجسديَّة والمادّيَّة تماماً، يمكن أن يهتمَّ المادّيُّ العلميُّ الجيّد بما إذا كان هناك الكثير من العدالة والحبّ والفرح والجمال والحرّيَّة السياسيَّة وحتّى الحرّيَّة الدينيَّة، بمقدار اهتمامه بما إذا كان هناك الكثير من

الطعام والملابس على سبيل المثال، نظراً لأنَّ جميع هذه الفوائد ماديَّة، وبعضها أكثر أهمّيَّةً من البعض الآخر (لكن من أجل الخير، دعونا نحاول توفير الطعام والملابس لكلِّ من يحتاجها في أسرع وقتٍ ممكن، لأنَّه من دونها يكون العدل والفنُّ والموسيقى والحقوق المدنيَّة والأشياء الأخرى أموراً مثيرةً للسخرية).

هذا الأمر ينبغي أن يصحّح الارتباك المنطقي المفهوم، وهناك أيضاً سوء فهمٍ واقعي يجب تصحيحه: الكثير من الأشخاص «الروحانيين بعمق» - والجميع يعرف ذلك - يتَّسمون بالقسوة والغطرسة والأنانيَّة، وهم غير مهتمّين تماماً بالمشكلات الأخلاقيَّة للعالم، في الواقع، إنَّ إحدى الآثار الجانبيَّة المقزّزة حقّاً للخلط المشترك بين الخير الأخلاقي و«الروحانيَّة»، هو أنَّه يسمح لأعدادٍ لا حصر لها من النَّاس بالتراخي في التضحية والأعمال الصالحة، والاختباء وراء قناع التقوى والعمق الأخلاقي المقدّس (والذي لا يمكن اختراقه).

لا يقتصر الأمر على المنافقين فقط، على الرَّغم من وجود الكثير منهم دائماً، هناك العديد من الأشخاص الذين يؤمنون ببراءةٍ وبصدق أنَّهم إذا كانوا جادّين في تلبية إحتياجاتهم الشخصيَّة «الروحيَّة»، فإنَّ هذا يرقى إلى مستوى عيش حياةٍ طيّبةٍ أخلاقيّاً.

أعرف العديد من النشطاء- المتدينين والعلمانيين- الذين يتَّفقون معي: هؤلاء النَّاس يخدعون أنفسهم، قد تهزُّ نكتة أودن الساخرة إيماننا بضرورة مساعدة الآخرين، من المؤكد أنها لا تفعل شيئا يشير إلى أن مجرد الاعتناء ب «روح» المرء ليس سوى أنانية..

تأمَّل، على سبيل المثال، هؤلاء الرهبان التأمّليين، في المقام الأول في التقاليد المسيحيَّة والبوذيَّة، الذين - على عكس الراهبات المجتهدات في المدارس والمستشفيات- يكرّسون معظم ساعات استيقاظهم لتطهير أرواحهم، والباقي للحفاظ على أسلوب الحياة التأمُّلي الذي اعتادوا عليه، بأيّ طريقةٍ، بالضبط، هل هم متفوّقون من الناحية الأخلاقيَّة على الأشخاص الذين يكرّسون حياتهم لتحسين مجموعات الطوابع الخاصَّة بهم أو لعبة الجولف؟ يبدو لي أنَّ أفضل ما يمكن أن يقال عنهم هو: أنَّهم تمكَّنوا من البقاء بعيداً عن المشكلات، وهذا ليس شيئاً.

ليس لديَّ أيَّة أوهامٍ حول مدى صعوبة التراجع عن قرونٍ من الافتراضات التي تميل إلى دمج «الروح» و«الخير»، بما أنَّ «روح الفريق» جيّدةٌ بشكلٍ واضح، فكيف يمكن أن يكون إنكار «الروح» سوى أمر سيّئ؟ حتَّى في أعماق علم الأعصاب الإدراكي، أجد أصداءً وظلالاً مزعجةً لهذا التحيُّز، مع وجودنا نحن المادّيين «الواقعيين» في موقفٍ دفاعي إلى الأبد ضدَّ الأنواع المنقرضة عمليّاً من الثنائيين[1] «الحنونين»، الذين يبدو أنهَّم يحظون، بنظر النَّاس العاديين على الأقل، بالمكانة الأخلاقيَّة العالية لمجرَّد أنَّهم ما زالوا يؤمنون بعدم ماديَّة النفوس. إنَّها معركةٌ شاقَّة، ولكن ربَّما ستسير الأمور بشكلٍ أفضل بالنسبة لنا عندما يتمُّ خوضها في وضح النهار.

ولكن ماذا عن هذا الجوع للروحانيَّة، الذي يعتقد الكثير ممَّن استطلعت آرائهم أنَّه مصدر الولاء الديني؟ الخبر السارُّ هو أنَّ النَّاس يريدون حقّاً أن يكونوا صالحين. يستنكر المؤمنون و"البارعون" على حدٍّ سواء الماديَّة الفظَّة (بالمعنى اليومي) للثقافة الشعبيَّة، ولا يتوقون للاستمتاع بجمال الحبِّ الحقيقي فحسب، بل لجلب تلك البهجة للآخرين. ربَّما كان صحيحاً في كثير من الأحيان في الماضي أنَّ الطريق الوحيد المتاح لتحقيق هذا الأمر بالنسبة لمعظم النَّاس، ينطوي على الالتزام بما هو خارقٌ للطبيعة، وبشكلٍ أكثر تحديداً بنسخةٍ مؤسَّسيَّةٍ معيَّنة ممَّا هو خارقٌ للطبيعة، ولكن اليوم يمكننا أن نرى أنَّ هناك الكثير من الطرق السريعة وممرَّات المشاة البديلة للنظر فيها.

الفصل العاشر: الرأي السائد بأنَّ الدين هو حصن الأخلاق يمثّل إشكاليَّةً في أحسن الأحوال، وفكرة أنَّ المكافأة السماويَّة هي ما يحفّز الناس الطيّبين هي فكرةٌ مهينةٌ وغير ضروريَّة. إنَّ الفكرة القائلة بأنَّ الدين في أفضل حالاته يعطي معنىً للحياة، معرَّضةٌ للخطر بسبب فخِّ النفاق الذي وقعنا فيه، وفكرة أنَّ السلطة الدينيَّة هي الأساس لأحكامنا الأخلاقيَّة هي فكرةٌ غير مجديةٍ في الاستكشاف المسكوني الحقيقي، والعلاقة المفترضة بين الروحانيَّة

---

(1) هم أولئك الذين يعتقدون أنَّ الأشياء تنقسم إلى جزءين مختلفين أو متعارضين في كثيرٍ من الأحيان: الثنائية الغربية تقدّر العقل على الجسد.

والصلاح الأخلاقي هي مجرَّد وهم.

الفصل الحادي عشر: البحث الموصوف في هذا الكتاب هو مجرَّد البداية، وهناك حاجةٌ إلى مزيد من البحث حول كلٍّ من التَّاريخ التطوُّري للدين وظواهره المعاصرة، كما تظهر لمجالاتٍ مختلفة. تتعلَّق الأسئلة الأكثر إلحاحاً بكيفيَّة التعامل مع تجاوزات التنشئة الدينيَّة وتجنيد الإرهابيين، لكن لا يمكن فهم هذه الأسئلة إلَّا على خلفيَّةٍ من النظريَّات الأوسع للمعتقدات والممارسات الدينيَّة، نحن بحاجةٍ لتأمين مجتمعنا الديمقراطي- القاعدة الرئيسة لهذا البحث- ضدَّ التخريب الذي يمارسه أولئك الذين قد يستخدمون الديمقراطيَّة كسلَّمٍ للثيوقراطيَّة، ومن ثمَّ التخلُّص منها، ونحن بحاجةٍ لنشر المعرفة التي هي ثمرة الاستفسار الحر.

الفصل الحادي عشر

الآن ماذا نفعل؟

1- مجرَّد نظريَّة:

«أنتم الفلاسفة محظوظون، فأنتم تكتبون على الورق، بينما أجد نفسي - أنا الإمبراطورة المسكينة- مضطرَّةً للكتابة على الجلود الحسَّاسة للبشر» — كاثرين العظيمة، إلى ديدرو (الذي نصحها بشأن إصلاحات الأراضي).

منذ عام 2002، وضعت المدارس في مقاطعة كوب، ولاية جورجيا، ملصقاتٍ في كتب علم الأحياء الخاصَّة بها تقول: إنَّ «التطوُّر هو نظريَّةٌ وليس حقيقة»، لكن صدر مؤخَّراً حكمٌ قضائيٌّ يلزم المدارس بإزالتها، لأنَّها قد تنقل رسالة تأييد الدين «في انتهاكٍ للتعديل الأول للفصل بين الكنيسة والدولة، حيث يحظر دستور جورجيا استخدام الأموال العامَّة لمساعدة الدين» (نيويورك تايمز، 14 كانون الثاني/ يناير 2005). هذا أمرٌ منطقي، لأنَّ الدوافع الوحيدة لانتقاء نظريَّة التطوُّر لهذه المعاملة هي دوافع دينيَّة، لا أحد يضع ملصقاتٍ في كتب الكيمياء أو الجيولوجيا يقول فيها: إنَّ النظريَّات الموضَّحة فيها هي مجرَّد نظريَّاتٍ وليست حقائق، ما يزال هناك الكثير من الخلافات في الكيمياء والجيولوجيا، ولكنَّ هذه النظريَّات المتنافسة تتبارى مع بعضها البعض ضمن النظريَّات الأساسيَّة الراسخة بشكلٍ آمن لكلِّ مجالٍ علمي، لإثبات أنَّها ليست مجرَّد نظريَّةٍ بل حقيقة. هناك الكثير من النظريات المثيرة للجدل في علم الأحياء أيضاً، لكن النظرية الاساسية التي لا جدال فيها هي التطور.

هناك نظريات متنافسة حول طيران الفقاريات، ودور الهجرة في الانتواع، والكائنات الأقرب إلى منزلة الإنسان، نظريات حول تطور اللغة، وثنائية القدم، والإباضة المخفية، والفصام، على سبيل المثال لا الحصر تمثل خلافات قوية بشكل خاص. في النهاية، سيتم حل كل هذه الأمور، وستثبت بعض النظريات أنها ليست مجرد نظريات بل حقائق.

وصفي لتطوُّر السمات المختلفة للدين في الفصول (4-8) هي بالتأكيد «مجرَّد نظريَّة»، أو بالأحرى عائلة نظريَّاتٍ أوليَّة، بحاجةٍ إلى مزيدٍ من التطوير، وباختصار، تقول نظريتي: أنَّ الدين قد تَطَوَّر، لكنَّه لم يكن مفيداً لنا كي نتطوَّر (التبغ ليس مفيداً لنا، لكنَّه يعيش على ما يرام).

لا نتعلَّم جميعاً اللغة لأنَّنا نعتقد أنَّها مفيدةٌ لنا؛ كلُّنا نتعلَّم اللغة لأنَّنا لا نستطيع أن نفعل غير ذلك (إذا كان لدينا أجهزةٌ عصبيَّةٌ طبيعيَّة) وفي حالة الدين، هناك الكثير من التدريس والتدريب، والكثير من الضغط الاجتماعي المتعمَّد، أكثر ممَّا يوجد في تعلُّم اللغة، وفي هذا الصدد، فإنَّ الدين يشبه القراءة أكثر من الكلام، هناك فوائد هائلةٌ للقدرة على القراءة، وربَّما تكون هناك فوائد مماثلة أو أكبر من التديُّن، لكن قد يحبُّ النَّاس الدين بشكلٍ مستقلٍّ عن أيَّةِ فوائدَ يقدّمها لهم (يسعدني أن أعرف أنَّ شرب النبيذ الأحمر باعتدال مفيدٌ لصحَّتي، لأنَّه سواءً كان جيِّداً بالنسبة لي أم لا، فأنا أحبّه وأريد الاستمرار في شربه، ويمكن أن يكون الدين كذلك).

ليس من المستغرب أن يبقى الدين، فقد تمَّ تشذيبه وتنقيحه وتحريره لآلاف السنين، مع اختفاء ملايين الأشكال المختلفة للدين في هذه العمليَّة، لذلك فهو يحتوي على الكثير من الميزات التي تجذب النَّاس، الكثير من الميزات التي تحافظ على هويَّة وصفاتها لهذه الميزات بالذات، والميزات التي تدرء الأعداء والمنافسين أو تربكهم، وتؤمّن الولاء.

أصبح لدى النَّاس بشكلٍ تدريجي تقدير لأسباب -الأسباب المنطقيَّة العائمة الحرَّة حتَّى الآن – هذه السمات. يعني الدين أشياء كثيرةً لكثيرٍ من النَّاس، وبالنسبة للبعض، فإنَّ الميمات الدينيَّة متكافلة (متبادلة النفع)، وتوفّر فوائدَ لا يمكن إنكارها من أنواعٍ لا يمكن العثور

عليها في أيّ مكانٍ آخر، وقد يعتمد هؤلاء الأشخاص في حياتهم على الدين، بالطريقة التي نعتمد بها جميعاً على البكتيريا الموجودة في أحشائنا التي تساعدنا على هضم طعامنا.

يوفّر الدين لبعض النّاس منظّمة محفّزةً للقيام بأشياء عظيمة: العمل من أجل العدالة الاجتماعيّة، والتعليم، والعمل السياسي، والإصلاح الاقتصادي، وما إلى ذلك، وبالنسبة للآخرين، فإنّ الميمات الدينيّة أكثر سُمّيّة، حيث تستغلُّ الجوانب الأقلّ إمتاعاً في نفسيّاتهم، وتلعب على الشعور بالذنب والوحدة والتوق إلى احترام الذات والأهمّيّة، ولن نتمكّن من صياغة سياساتٍ يمكن الدفاع عنها لكيفيّة الاستجابة للأديان في المستقبل، إلّا عندما نتمكّن من صياغة رؤيةٍ شاملةٍ للجوانب العديدة للدين.

بعض جوانب المخطّط الأولي لهذه النظريّة راسخةٌ جيّداً، ولكنّ الغوص في التفاصيل، وتوليد المزيد من الفرضيّات القابلة للاختبار هو عملٌ للمستقبل.

أردت أن أعطي القراء فكرةً جيّدةً عن شكل النظريّة القابلة للاختبار، وأنواع الأسئلة التي ستثيرها، وأنواع المبادئ التفسيريّة التي يمكن أن تستدعيها، قد يكون مخطّط نظريّتي خاطئاً في كثيرٍ من النواحي، ولكن إذا كان الأمر كذلك، فسيتمّ توضيح ذلك من خلال تأكيد بعض النظريّات البديلة من النوع نفسه.

في العلم، يتمثّل التكتيك في طرح شيءٍ يمكن إصلاحه أو دحضه بشيءٍ أفضل، فقبل قرنٍ من الزمان، كان القول بأنّ الطيران الثابت الجناحين ممكن، مجرّد نظريّة، والآن هو حقيقة، وقبل بضعة عقود، كان القول: إنّ سبب الإيدز هو فيروس، مجرّد نظريّة، لكنّ حقيقة فيروس نقص المناعة البشريّة ليست مجرّد نظريّة اليوم.

وبما أنّ نظريّتي الأوليّة لم يتمّ تأسيسها بعد، وقد يثبت أنّها خاطئة، فلا ينبغي استخدامها بعد لتوجيه سياساتنا.

بعد أن شدّدت في البداية على أنّنا بحاجةٍ لإجراء المزيد من الأبحاث حتّى نتمكّن من اتّخاذ قراراتٍ مستنيرة، فسأناقض نفسي إذا شرعت الآن في وصف مسارات العمل على أساس

غزوتي الأوليَّة.

تذكَّر- من الفصل الثالث- المعنويَّات التي رسمها «توبس» في تاريخه عن النشاط المضلِّل الذي قادنا إلى الحملة الشعواء قليلة الدهون: «إنَّها قصَّة ما يمكن أن يحدث عندما تواجه حاجات سياسة الصحَّة العامَّة - وحاجات الجمهور للحصول على نصيحةٍ بسيطة - الغموض المربك للعلم الحقيقي.

هناك ضغطٌ علينا جميعاً للعمل بشكلٍ حاسمٍ اليوم، على أساس الشيء القليل الذي نعرفه بالفعل، أو نعتقد أنَّنا نعرفه، لكنّي أنصح بالصبر، والوضع الحاليُّ مخيف، يمكن أن يؤدّي هذا التعصُّب الدينيُّ أو ذاك إلى كارثةٍ عالميَّة، لكن يجب أن نقاوم «العلاجات» المتهوّرة وغيرها من المبالغة في ردِّ الفعل، ومع ذلك، من الممكن مناقشة الخيارات اليوم، والتفكير افتراضياً في ماهية السياسات السليمة إذا كان تفسيري للدين صحيحاً.

يمكن أن يساعد النظر في السياسات المحتملة في تحفيز المزيد من البحث، ممَّا يمنحنا أسباباً ملحَّةً لاكتشاف الفرضيَّات الصحيحة حقَّاً.

إذا أراد شخصٌ ما وضع ملصقٍ في هذا الكتاب يقول: إنَّه يقدّم نظريَّةً وليس حقيقة، فسأوافق بسعادة، ويجب أن يقول ذلك الملصق: «احذر! إنَّ افتراض صحَّة هذه الافتراضات دون مزيدٍ من البحث، يمكن أن يؤدّي إلى نتائجَ كارثيَّة»، لكنَّني أصرُّ على أن نضع الملصقات أيضاً على أيّ كتبٍ أو مقالاتٍ تحافظ أو تفترض مسبقاً أنَّ الدين هو قارب النجاة في العالم، وهو ما لا نجرؤ على إزعاجه، فالافتراض أنَّ الله موجود ليس حتَّى نظريَّة، كما رأينا في الفصل الثامن.

هذا التأكيد غامضٌ للغاية لدرجة أنَّه يعبّر- في أحسن الأحوال- عن مجموعةٍ غير منظَّمةٍ من العشرات أو المئات - أو المليارات- من النظريَّات الممكنة المختلفة تماماً، ومعظمها غير مؤهَّلةٍ كنظريَّاتٍ على أيَّة حال، لأنَّها محصَّنةٌ بمنهجيَّةٍ ضدَّ التأكيد أو عدم التأكيد.

الإصدارات القابلة للدحض من الادّعاء بأنَّ الله موجود، لها دورات حياةٍ مثل ذباب أيَّار،

حيث يولد ويموت في غضون أسابيع، إن لم يكن دقائق، حيث لا تتحقَّق التنبُّؤات (يُسْعِد كلُّ رياضي يصلّي لله من أجل النصر في اللعبة الكبيرة، ثمَّ يفوز، أن يشكر الله على انحيازه إلى جانبه، ويقدم بعض «الأدلَّة» لصالح نظريَّته عن الله، لكنَّه يراجع نظريَّته عن الله بهدوء كلَّما خسر على الرُّغم من صلواته).

حتَّى الافتراض العلماني وغير المتحيّز بأنَّ الدين بشكلٍ عام يفيد أكثر ممَّا يضرّ، سواءً بالنسبة للمؤمن الفرد أو للمجتمع كليّاً، لم يبدأ اختباره بشكلٍ صحيح، كما رأينا في الفصلين التاسع والعاشر.

إذن، فهذه هي الوصفة الوحيدة التي سأقدّمها بشكلٍ قاطع ودون تحفّظ: إجراء المزيد من البحث، هناك بديل، وأنا متأكّد من أنَّه ما يزال جذّاباً لكثيرٍ من النَّاس، دعونا فقط نغلق أعيننا، ونثق في التقليد الديني ونجنّده، دعونا فقط نسلّم بأنَّ الدين هو المفتاح - أو أحد المفاتيح - لخلاصنا.

كيف أتماحك مع الإيمان (بحقِّ السماء)؟ إيمانٍ أعمى؟ لو سمحت، فكّر.

من هنا بدأنا. كانت مهمَّتي هي إثبات أنَّ هناك سبباً كافياً للتشكيك في تقليد الإيمان، بحيث لا يمكنك بضميرٍ حي أن تدير ظهرك للحقائق المتاحة أو القابلة للاكتشاف ذات الصلة، أنا مستعدٌّ تماماً لأن أشمّرَ عن ساعديّ، وأن أبدأ في فحص الأدلَّة والنظر في النظريَّات العلميَّة البديلة للدين، لكنَّني أعتقد أنَّني عرضت بالفعل قضيَّتي القائلة بأنَّه سيكون من التهوُّر بشكلٍ لا يمكن الدفاع عنه، عدم القيام بهذا البحث.

لقد أبرز المسح الذي أجريته، جزءاً صغيراً من العمل الذي تمَّ القيام به بالفعل، عن طريق رواية إحدى القصص المحتملة عن: كيف أصبح الدين ما هو عليه اليوم؟ تاركاً القصص الأخرى دون ذكر، لقد أخبرت ما أعتقد أنَّه أفضل إصدارٍ حالي، لكن ربَّما أغفلت بعض المساهمات التي سيتمُّ التعرُّف عليها في النهاية بأثرٍ رجعي لتكون أكثر أهميَّة.

هذه مخاطرةٌ يواجهها مشروعٌ مثل مشروعي: إذا كان مفيداً، من خلال لفت الانتباه إلى

أحد مجالات البحث، في إغفال بعض السبل الأفضل، فسأكون قد ألحقت الضرر، إنّني أدرك تماماً هذا الاحتمال، لذلك قمت بمشاركة مسودات هذا الكتاب مع الباحثين الذين لديهم رؤيتهم الخاصّة لكيفيّة إحراز تقدُّم في هذا المجال، ومع ذلك فإنَّ شبكة المُخبرين الخاصّة بي لها حتماً تحيُّزها الخاصّ، ولا أرغب في شيءٍ أفضل من أن يثير هذا الكتاب تحدّياً - تحدّياً علميّاً منطقيّاً وغنيّاً بالأدلّة - للباحثين ذوي وجهات النظر المتعارضة.

أتوقّع أن يأتي أحد التحدّيات من أولئك في الأوساط الأكاديميّة غير المتأثّرين بمناقشتي حول «ستارة التضليل الأكاديميّة» في الفصل التاسع، والذين يؤمنون بشدَّةٍ أنَّ الباحثين المؤهّلين لإجراء البحث هم فقط أولئك الذين يستكشفون الدين مع «الاحترام اللائق» للمقدّسات، مع الالتزام العميق بتقديس التقاليد إن لم يكن التحوُّل إليها.

سيرغبون في التأكيد على أنَّ هذا النوع من الاستفسارات التجريبيّة القائمة على البيولوجيا التي أيّدتها - بنماذجها الرياضيّة واستخدامها للإحصاءات وغيرها- لا بدَّ أن يكون سطحيّاً بشكلٍ يرثى له، وغير حسَّاس، وغير مفهوم.

يظهر التَّاريخ الحديث أنَّ هذا أمر يجب أن يؤخذ على محمل الجد، فقبل بضعة عقود، ولد مجال «دراسات العلوم»، عندما انضمَّ مؤرّخو وفلاسفة العلوم إلى علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا، الذين قرّروا تطبيق تقنيّاتهم، وصقلوا استكشاف الثقافات القبليّة المعزولة في الأدغال والأرخبيلات البعيدة، من أجل العلم بحدِّ ذاته، مثل الثقافات الفرعيّة لعلماء فيزياء الجسيمات، أو علماء الأحياء الجزيئيّة، أو علماء الرياضيَّات.

أدّت بعض المحاولات المبكرة من قبل فرقٍ حسنة النيَّة من علماء الاجتماع لدراسة هذه الظواهر «في البرّيّة» (في مقابل تلك الدراسات التي تُجرى في المختبر وقاعات الندوات)، إلى نشر الدراسات التي قوبلت واستحقّت سخرية العلماء الذين كانوا موضوع البحث، وعلى الرَّغم من كون الباحثين متطوِّرين كعلماء أنثروبولوجيا، إلّا أنّهم ما زالوا مراقبين ساذجين، جاهلين إلى حدٍّ كبير بتقنيَّات العلم الذي كانوا يدرسونه، لذلك غالباً ما توصَّلوا إلى تفسيرات هزليَّةٍ سيِّئة لما لاحظوه، لذا إذا كنت لا تفهم بشيءٍ من التفصيل عمل الأشخاص

الذين تدرسهم، فلديك فرصةٌ ضئيلةٌ لفهم تفاعلاتهم وردود أفعالهم على المستوى الإنساني، ويجب أن ينطبق المبدأ نفسه على دراسة الخطاب والممارسات الدينيَّة.

كان على الأشخاص في دراسات العلوم أن يعملوا بجدٍّ للتغلُّب على السمعة السيِّئة التي اكتسبها المجال في أيّامه الأولى، وما يزال هناك العديد من العلماء الذين لا يكلّفون أنفسهم عناء قمع ازدرائهم لها، ولكنَّ هذا العمل المُضلّل أصبح الآن أكثر توازناً من خلال عملٍ مستنيرٍ وشامل، تمكَّن بالفعل من فتح أعين العلماء على الأنماط ونقاط الضعف في ممارساتهم الخاصَّة.

مفتاح هذا النجاح الحديث بسيط: قم بأداء واجبك، يحتاج أيُّ شخصٍ يأمل في فهم أيِّ مجالٍ متطوِّرٍ وصعبٍ للغاية للجهد البشري، إلى أن يصبح شبه خبيرٍ في هذا المجال، بالإضافة إلى الحصول على تدريبٍ في مجاله الأصلي، وعند تطبيقها على دراسة الدين، فإنَّ الوصفة واضحة: العلماء العازمون على شرح الظواهر الدينيَّة سيضطَّرون إلى الخوض بعمقٍ وضمير في التقاليد، والممارسات، والنصوص، والسياقات، والحياة اليوميَّة، ومشكلات الأشخاص الذين يدرسونهم.

كيف يمكن ضمان هذا؟

يمكن للخبراء الدينيين - الكهنة والأئمَّة والحاخامات والقساوسة وعلماء الدين ومؤرّخوه - الذين يشكّكون في مؤهّلات هؤلاء العلماء الذين سيدرسونهم، إنشاء اختبار قبولٍ وإدارته، وأيُّ شخصٍ لا يستطيع اجتياز امتحان القبول الذي ابتكروه سيُحكَمُ عليه بشكلٍ مناسب تماماً بأنَّه ليس على درايةٍ كافيةٍ لفهم الظواهر قيد التحقيق، ويمكن أن يُحجَبَ عن الوصول والتعاون.

دع الخبراء يجعلون امتحان القبول شرطاً كما يحلو لهم، وامنحهم سلطةً كاملةً في تصحيحه، لكن اطلب من بعض خبرائهم إجراء الاختبار أيضاً، واشترط أن تكون أسماء الممتحنين في الاختبار مُغفلة -اختبارٌ أعمى، بحيث لا يستطيع المصحّحون أن يعرفوا هوّيَّة المرشَّحين،

من شأن ذلك أن يمنح الخبراء الدينيين طريقةً لتأكيد احترامهم المتبادل مع التخلُّص من الجهلاء في صفوفهم، والمصادقة على أيّ محقّقين مؤهَّلين.

2- بعض السبل لاستكشافها: كيف يمكننا العودة إلى القناعة الدينيَّة؟

«لا تجب على استبياناتٍ

أو اختباراتٍ حول الشؤون العالميَّة،

ولا تذعن لأيّ اختبار.

لا تجالس إحصائيين

ولا تلتزم بعالِم اجتماع» — دبليو. هـ. أودن، «مسارٌ رجعيٌّ للعصر»

ما هو البحث المطلوب؟

ضع في ذهنك بعض الأسئلة التجريبيَّة التي لم تتمَّ الإجابة عليها، والتي أثرتها بالفعل حتَّى الآن في هذا الكتاب:

الفصل الرابع: كيف كان أسلافنا قبل أن يكون هناك شيءٌ مثل الدين، هل كانوا مثل جماعات الشمبانزي، وما الذي تحدَّثوا عنه، إن وُجد، بخلاف الطعام والحيوانات المفترسة ولعبة التزاوج، هل تُظهر ممارسات الدفن لدى إنسان نياندرتال أنَّهم قد امتلكوا حتماً لغةً واضحةً تماماً؟

الفصل الخامس: هل يمكن لقردٍ (دون لغة) أن يختلق مزيجاً غير متوقَّع من شجرةٍ تسير أو موزةٍ غير مرئيَّة، لماذا لا يوجد فنٌّ لدى الأنواع الأخرى، لماذا نحن كبشرٍ نركّز باستمرارٍ تخيُّلاتنا عن أسلافنا، هل يعمل التنويم الإيحائي المرتجل بشكلٍ فعَّال عندما لا يكون المُنوِّم المغناطيسي هو الوالد، وإلى أيّ مدى حافظت الثقافات الأُمّيَّة على طقوسها ومعتقداتها عبر الأجيال، كيف نشأت طقوس الشفاء، هل يجب أن يكون هناك شخصٌ ما لخلق الظروف

المناسبة؟ (ما هو دور المبدعين الكاريزماتيين في نشأة الجماعات الدينيَّة؟)

الفصل السادس: إلى متى يمكن أن يكون الدين الشعبيُّ قد استمرَّ بين أسلافنا قبل أن يبدأ التفكير في تحويله، كيف ولماذا تحوَّلت الأديان الشعبيَّة إلى دياناتٍ منظَّمة؟

الفصل السابع: لماذا ينضمُّ النَّاس إلى المجموعات، هل قوَّة الدين مثل قوَّة مستعمرة النمل أم الشركة، هل الدين نتاج غريزةٍ تطوُّريَّة عمياء أم اختيار عقلاني، أم أنَّ هناك إمكانيَّةً أخرى، هل ستارك وفينكي على حقّ بشأن السبب الرئيس للانحدار السريع لأعداد الكاثوليك الراغبين باتّخاذ العمل الكنسي كحرفةٍ لهم بعد مجمع الفاتيكان الثاني؟

الفصل الثامن: من كلّ النَّاس الذين يؤمنون بالإيمان بالله، ما هي النسبة المئويَّة (تقريباً) لأولئك الذين يؤمنون بالله أيضاً؟

في البداية، يبدو الأمر كما لو كان بإمكاننا ببساطة أن نعطي الناس استبياناً به سؤالٌ متعدّد الاختيارات:

أنا أؤمن بالله: نعم ______ لا ______________ لا أعرف

أم يجب أن يكون السؤال:

الله موجود: نعم ______________ لا ______ لا أعرف

هل سيحدث أيُّ فرقٍ في كيفيَّة صياغة الأسئلة؟

ستلاحظ أنَّه قلما يتعامل أيٌّ من هذه الأسئلة بشكلٍ غير مباشر مع الأدمغة أو الجينات، ولِمَ لا؟ لأنَّ وجود قناعاتٍ دينيَّة لا يشبه إلى حدٍّ كبير الإصابة بنوبات صرعٍ أو امتلاك عيون زرقاء.

يمكننا أن نكون متأكّدين تماماً من أنَّه لن يكون هناك «جين الله» أو حتَّى جين «الروحانيَّة»، ولن يكون هناك مركز الكثلكة في دماغ الكاثوليك، أو حتَّى مركز «تجربةٍ دينيَّة».

نعم، بالتأكيد، كلّما فكّرت في يسوع، ستكون بعض أجزاء دماغك أكثر نشاطاً من غيرها، ولكن كلّما فكّرت في أيّ شيء سيكون هذا صحيحاً.

قبل أن نبدأ التلوين في خرائط الدماغ الخاصّة بك للتفكير في المزاح والزلّاجات النفّاثة والمجوهرات (واليهود)، يجب أن نلاحظ الأدلّة التي تشير إلى أنّ مثل هذه النقاط الساخنة متحرّكةٌ ومتعدّدة، وتعتمد بشكلٍ كبيرٍ على السياق - وبالطبع غير مرتّبةٍ حسب الترتيب الأبجدي عبر قشرة الدماغ!- في الواقع، فإنّ احتماليّة أنّ تكون الأماكن التي تضيء اليوم عندما تفكّر في يسوع هي الأماكن ذاتها التي ستضيء الأسبوع المقبل عندما تفكّر في يسوع، ليست عاليةً جدّاً.

ما يزال من الممكن أن نجد آليّاتٍ عصبيّةً مخصّصةً لبعض جوانب التجربة والقناعة الدينيّة، لكنّ الهجمات المبكرة على مثل هذا البحث لم تكن مقنعة.

إلى أن نطوّرَ نظريّاتٍ عامّةً أفضل للهندسة المعرفيّة، لتمثيل المحتوى في الدماغ، فإنّ استخدام التصوير العصبي لدراسة المعتقدات الدينيّة يكاد يكون سيّئاً، مثل استخدام مقياس الفولتميتر لدراسة كمبيوتر يلعب الشطرنج، لذا في الوقت المناسب، يجب أن نكون قادرين على ربط كلّ شيءٍ نكتشفه بوسائل أخرى بما يحدث بين مليارات الخلايا العصبيّة في أدمغتنا، لكنّ المسارات الأكثر إنتاجيّةً تؤكّد على أساليب علم النفس والعلوم الاجتماعيّة الأخرى.[4]

بالنسبة للجينات، قارن القصّة التي سردتها في الفصول السابقة بهذه النسخة المبسّطة، من مقال الغلاف الأخير لمجلة تايم «هل الله في جيناتنا؟»

ازدهر البشر الذين طوّروا إحساساً روحانيّاً، وورّثوا تلك السمة إلى نسلهم، أولئك الذين لم يجازفوا بالموت وسط الفوضى والقتل، المعادلة التطوُريّة بسيطة لكنّها قويّة. [كلوغر، 2004، ص. 65]

الفكرة الكامنة في هذا المقطع الجريء، هي: أنّ الدين «مفيدٌ لك» لأنّ التطوُّر أقرّه، هذا مجرّدُ نوعٍ من الداروينيّة المبسّطة التي تقلق بحقٍّ العلماء البارعين ومنظّري الدين.

في الواقع، كما رأينا، الأمر ليس بهذه البساطة، وهناك «معادلاتٌ» تطوُّريَّةٌ أقوى، فالفرضيَّة القائلة بوجود «حسٍّ روحاني» موروث (وراثي) يعزّز اللياقة الجينيَّة البشريَّة، هي واحدةٌ من أقلِّ الإمكانيَّات التطوُّريَّة احتماليَّةً، وأقلُّها إثارةً للاهتمام.

بدلاً من المعنى الروحاني الواحد، أخذنا في الحسبان تقارباً للعديد من النزعات مفرطةِ النشاط والحساسيَّات والتكيُّفات المختارة الأخرى التي لا علاقة لها بالله أو الدين، وقد أخذنا في الحسبان أيضاً أحد الاحتمالات الجينيَّة المباشرة نسبيَّاً، وهو جين لزيادة القابليَّة للتنويم المغناطيسي، قد يكون هذا الجين قد قدَّم فوائدَ صحّيَّةً كبيرةً في أوقاتٍ سابقة، وسيكون طريقةً لأخذ فرضيَّة هامر «الجين الإلهي» على محمل الجدّ، أو يمكننا أن نجمعها مع تكهُّنات ويليام جيمس القديمة بأنَّ هناك نوعين من النَّاس، أولئك الذين يحتاجون إلى دينٍ «حادّ»، وأولئك الذين تكون احتياجاتهم «مزمنةً» وأكثر اعتدالاً.

يمكننا أن نحاول اكتشاف ما إذا كانت هناك بالفعل اختلافاتٌ عضويَّةٌ جوهريَّة بين أولئك الذين هم شديدو التديّن، وأولئك الذين يكون حماسهم للدين معتدلاً أو غير موجود.

لنفترض أنَّنا عثرنا على مثل هذا النمط، ما هي انعكاسات ذلك - إن وجدت - على السياسة؟ يمكننا النظر في أوجه التشابه مع الاختلافات الجينيَّة التي تساعد في تفسير صعوبة تناول الكحول لدى بعض الآسيويين وبعض الأمريكيين الأصليين، فكما هو الحال مع الاختلاف في تحمُّل اللاكتوز، هناك تباينٌ ينتقل وراثيَّاً في القدرة على استقلاب الكحول، بسبب الاختلاف في وجود الإنزيمات، وخاصَّةً نازع هيدروجين الكحول ونازِعَةَ هيدْروجينِ الألْدَهيد[5]، وغنيٌّ عن القول، لأنَّه، من دون أن يكون ذلك خطأهم، فإنَّ الكحول سامٌّ للأشخاص الذين لديهم هذه الجينات - أو يحوّلهم إلى مدمنين على الكحول - من الأفضل لهم التخلّي عن شرب الكحول.

هناك تشابهٌ مختلفٌ مع النفور من البروكلي والقرنبيط والكزبرة ينتقل وراثيَّاً والذي يختبره كثيرٌ من النَّاس على أنفسهم؛ فهو ليس ناجماً عن صعوبةٍ في استقلاب هذه الأطعمة، لكنَّهم يجدونها غير مستساغة، بسبب الاختلافات المحدَّدة في العديد من الجينات التي ترمّز

للمستقبلات الشمّيَّة، لذا لا يجب نصحهم بتجنُّب هذه الأطعمة.

هل يمكن أن يكون هناك «عدم تحمُّلٍ للتجربة الروحيَّة» أو «نفورٌ من التجربة الروحيَّة»؟ ربما ، فقد تكون هناك سماتٌ نفسيَّة ذات أسس وراثيَّة تظهر في ردود أفعالٍ مختلفة من قبل النَّاس للمثيرات الدينيَّة (ولكنَّنا نجد أنَّه من المفيد تصنيفها).

يقدّم وليام جيمس ملاحظاتٍ غير رسميَّةٍ تعطينا سبباً للشكِّ بذلك: يبدو بعض النَّاس محصَّنين تجاه الطقوس الدينيَّة، وجميع مظاهر الدين الأخرى، في حين أنَّ آخرين - مثلي - يتأثَّرون بعمقٍ بالحفلات والموسيقى والفن، لكنَّهم غير مقتنعين تماماً بالعقائد، ربَّما ما يزال الآخرون يتوقون لهذه المحفّزات، ويشعرون بالحاجة العميقة لدمجها في حياتهم، ولكن من الأفضل الابتعاد عنها، لأنَّهم لا يستطيعون «استقلابها» بالطريقة التي يفعلها الآخرون (يصبحون مهووسين وخارجين عن السيطرة، أو مكتئبين، أو هستيريين، أو مرتبكين، أو مدمنين).

هذه فرضيَّاتٌ تستحقُّ بالتأكيد الصياغة بالتفصيل، واختبار ما إذا كان بإمكاننا تحديد أنماط التباين الفردي، سواءً كانت وراثيَّةً أم لا (ربَّما تنتقل ثقافيَّاً، في نهاية المطاف).

لنأخذ مثالاً خياليَّاً: قد يُنصح الأشخاص الذين كانت لغتهم الأم هي الفنلنديَّة (بصرف النظر عن تراثهم الجيني) بأن يكونوا متديّنين باعتدال!

قد يُثبتَ «الحسُّ الروحاني» (أيَّاً كان ذلك) أنَّه تكيّفٌ جينيٌّ في أبسط معانيه، لكنَّ الفرضيَّات الأكثر تحديداً حول الأنماط في الميول البشريَّة للاستجابة للدين، قد تكون أكثر منطقيَّةً وأكثر قابليَّةً للاختبار، وأكثر احتماليَّةً لإثبات كونها مفيدةً في حلِّ بعض الأسئلة المزعجة المتعلّقة بالسياسة التي يتعيَّن علينا مواجهتها.

على سبيل المثال، سيكون من المفيد خصوصاً معرفة المزيد عن كيفيَّة اختلاف المعتقدات العلمانيَّة عن المعتقدات الدينيَّة (وكما رأينا في الفصل الثامن، فإنَّ «المعتقد» تسميةٌ خاطئةٌ هنا، ربَّما من الأفضل أن نطلق عليها قناعاتٍ دينيَّة لتمييز الاختلاف).

كيف تختلف القناعات الدينيَّة عن المعتقدات العلمانيَّة في طريقة اكتسابها واستمرارها وانقراضها، وفي الأدوار التي تلعبها في تحفيز النَّاس وسلوكهم؟

كانت هناك صناعةٌ بحثيَّةٌ كبيرة مكرَّسةٌ لإجراء استطلاعاتٍ حول جميع جوانب السلوك الديني[6]، لذلك نرى بانتظام أبرز النتائج في وسائل الإعلام، لكنَّ الأسس النظريَّة والافتراضات التمكينيَّة لمنهجيَّات المسح بحاجةٍ إلى تحليلٍ دقيق، ويعتقد آلان وولف (2003، ص152)، على سبيل المثال، أنَّ الاستطلاعات غير موثوقة: «النتائج غير متَّسقةٍ ومحيِّرة، اعتماداً - كما هو الحال في كثيرٍ من الأحيان مع مثل هذه الأبحاث- على صياغة الأسئلة في الاستطلاعات أو العيّنات التي تمَّ اختيارها للتحليل»، لكن هل وولف على حقّ؟ لا ينبغي أن يكون هذا مجرَّد رأي شخصي، نحن بحاجةٍ لمعرفة ذلك.

خذ في الحسبان أحد التقارير الأخيرة الأكثر إثارةً للدهشة، وفقاً لـ ARIS (استطلاع الهوِيَّة الدينيَّة الأمريكيَّة) في عام 2001، كانت الفئات الثلاث التي حصلت على أكبر زيادةٍ في العضوية منذ المسح السابق لعام 1990 هي إنجيليَّة/ ولادة جديدة (42٪)، ومن دون طائفة (37٪)، ولا دينيين (23٪).

تدعم هذه البيانات وجهة النظر القائلة بأنَّ التبشير ينمو في الولايات المتحدة، لكنَّها تدعم أيضاً الرأي القائل بأنَّ العلمانيَّة آخذةٌ في الازدياد، يبدو أنَّنا أصبحنا مُستقطَبين، كما أكَّد العديد من المراقبين غير الرسميين مؤخَّراً، لكن لماذا؟ هل هذا لأنَّ - كما يعتقد مؤيِّدو نظريَّة العرض مثل ستارك وفينكي- الديانات الأكثر كلفةً فقط، هي التي يمكنها التنافس في السوق مع اللادينيَّة على وقتنا ومواردنا؟ أم أنَّه كلَّما تعلَّمنا المزيد عن الطبيعة، كلَّما أذهل العلم الكثير من النَّاس بإغفاله شيءٍ ما، الشيء الذي يمكن أن يوفِّره فقط منظورٌ مناهضٌ للعلم، أم أنَّ هناك تفسيراً آخر؟

قبل أن ننتقل لشرح البيانات، يجب أن نسأل عن مدى تأكّدنا من الافتراضات المستخدمة في جمعها.

ما مدى موثوقيَّة البيانات وكيف تمَّ جمعها؟ (الاستفسار عبر الهاتف، في حالة نظام ARIS، وليس استبياناً مكتوباً) ما الاختبارات التي تمَّ استخدامها لتجنُّب السياق المتحيِّز، وما هي الأسئلة الأخرى التي تمَّ طرحها على النَّاس، وكم من الوقت استغرق إجراء المقابلة؟

ثمَّ هناك أسئلة شاذَّة قد يكون لها إجاباتٌ مهمَّة: ماذا حدث في الأخبار يوم إجراء الاستطلاع، هل كان للمحاور لكنةٌ معيَّنة، وهلمَّ جرًّا؟.

إنَّ إجراء المسوحات واسعة النطاق مكلفٌ للغاية، ولا أحد ينفق آلاف الدولارات في جمع البيانات باستخدام «أداةٍ» مصمَّمةٍ بشكلٍ اتفاقي (استبيان).

لقد كُرِّسَت الكثير من الأبحاث لتحديد مصادر التحيُّز والتصنُّع في أبحاث المسح، متى يجب عليك استخدام سؤال بسيطٍ (بنعم/ لا) (ولا تنسَ تضمين الخيار المهمّ «لا أعرف»)، ومتى يجب استخدام مقياس ليكرت المكوَّن من خمس نقاط (مثل المقياس المألوف: أوافق بشدَّة، يميل للموافقة، غير مؤكَّد، تميل إلى الاختلاف، لا أوافق بشدَّة)؟

عندما أجرت ARIS مسحها في عام 1990، كان السؤال الأول هو: «ما هي ديانتك؟» وفي عام 2001 تمَّ تعديل السؤال: ما هي ديانتك إن وجدت، ما مقدار الزيادة في اللاطائفيَّة واللادينيَّة بسبب التغيير في الصياغة، ولماذا تمَّت إضافة عبارة «إن وجدت»؟

أثناء كتابة كتاب (كيف نعتقد: العلم والشكُّ والبحث عن الله) (الطبعة الثانية، 2003)، أجرى مايكل شيرمر، مدير جمعية المتشكّكين، مسحاً طموحاً للمعتقدات الدينيَّة، وقد كانت النتائج رائعة، جزئيَّاً لأنَّها تختلف بشكلٍ لافت للنظر عن النتائج التي تمَّ العثور عليها في استطلاعاتٍ أخرى مماثلة، فقد وجدت معظم الاستطلاعات الأخيرة أنَّ ما يقرب من 90٪ من الأمريكيين يؤمنون بالله، وليس مجرَّد إلهٍ «جوهري»، بل إلهٍ يستجيب للصلاة، وفي استطلاع شيرمر، قال 64٪ فقط إنَّهم يؤمنون بالله، فيما 25٪ قالوا إنَّهم كفروا بالله (ص 79).

هذا تناقضٌ كبير، ولا يرجع إلى أيِّ خطأ بسيطٍ في أخذ العيِّنات (مثل إرسال الاستبيانات إلى المتشكّكين المعروفين!)، ويخمِّن شيرمر أنَّ التعليم هو المفتاح.

طلب الاستطلاع الذي أجراه مع النّاس الردَّ بكلماتهم الخاصّة على «سؤالٍ مقالي مفتوح» موضّحين سبب إيمانهم بالله:

كما اتّضح، كان الأشخاص الذين أكملوا استطلاعنا أكثر تعليماً بشكلٍ ملحوظ من الأمريكيين العاديين، ويرتبط التعليم العالي بتديّنٍ أقلّ، فوفقاً لمكتب الإحصاء الأمريكي لعام 1998، أكمل ربع الأمريكيين الذين تزيد أعمارهم عن خمسةٍ وعشرين عاماً درجة البكالوريوس، بينما كان المعدَّل المقابل في عيّنتنا تقريباً الثلثين (من الصعب تحديد سبب ذلك، ولكنَّ أحد الاحتمالات هو أنّه من المرجَّح بشكلٍ أكبر أن يكمل المتعلّمون مسحاً معقّداً إلى حدٍّ ما) [ص.79]

ولكن (كما أشار تلميذي ديفيد بولك) بمجرَّد الاعتراف بالاختيار الذاتي كعاملٍ جدّي، يجب أن نطرح السؤال الإضافي: من الذي سيأخذ وقتاً لملء مثل هذا الاستبيان؟ ربَّما فقط أولئك الذين لديهم أقوى المعتقدات.

من غير المرجَّح أن يقوم الأشخاص الذين لا يعتقدون أنَّ الدين مهمٌّ، بملء استبيانٍ يتضمَّن كتابة إجاباتٍ للأسئلة، كان معدَّل إعادة الاستبيان فقط واحداً من كلِّ عشرةٍ من الأشخاص الذين تلقّوا الاستطلاع عبر البريد، وهو معدَّل استجابةٍ منخفضٌ نسبيَّاً، لذلك لا يمكننا استخلاص أيّ استنتاجاتٍ مثيرةٍ للاهتمام من رقمه البالغ 64 في المائة، كما يقرُّ (شيرمر وسولاوي، قيد النشر)

3- ماذا نقول للأولاد؟

«كان تلميذ المدرسة من قال: «الإيمان هو الاعتقاد بأنَّ ما تعرفه ليس كذلك» - مارك توين من الموضوعات البحثيَّة ذات الأهمّيَّة الخاصَّة، ولكن ذات الحساسية الأخلاقيَّة والسياسيَّة الخاصَّة أيضاً، هو تأثير التنشئة والتعليم الدينيين على الأطفال الصغار. هناك كمٌّ هائلٌ من الأبحاث - بعضها جيّد، وبعضها سيّئ- حول تنمية الطفولة المبكرة، وتعلُّم اللغة والتغذية وسلوك الوالدين وتأثير الأقران، وتقريباً كلّ متغيّرٍ آخر يمكن تخيُّله يمكن قياسه

في السنوات العشر الأولى من حياة الشخص، ولكنَّ كلَّ هذه الأبحاث تقريباً - بقدر ما أستطيع تحديده - تتجنب الدين بحذرٍ، والذي ما يزال إلى حدٍّ كبير أرضاً مجهولة، وفي بعض الأحيان، هناك أسباب أخلاقيّةٌ جيّدةٌ جدّاً - لا جدال فيها - لهذا الأمر. تنطبق جميع الحواجز التي تمَّ إنشاؤها وحمايتها بعنايةٍ في مواجهة الأبحاث الطبيّة المؤذية للبشر بالقوَّة نفسها على أيّ بحثٍ قد نتخيَّل إجراؤه حول الاختلافات في التنشئة الدينيَّة. لن نقوم بدراسات الدواء الوهمي حيث تُلقَّن المجموعة «أ» تعليماً دينيّاً، بينما تُلقَّن المجموعة «ب» تعليماً دينيّاً مختلفاً، وتُلقَّن المجموعة «ج» مقاطعَ لا معنى لها، كما لن نقوم بدراسات التبنّي المتبادل التي يتمُّ فيها تبديل أطفال آباءٍ مسلمين مع أطفال من آباء كاثوليك. من الواضح أنَّ هذه الدراسات مستبعدة، ويجب أن تظلَّ كذلك، لكن ما هي الحدود؟

السؤال مهمّ، لأنّنا بينما نحاول تصميم طرقٍ غير مباشرةٍ وغير مؤذيةٍ للوصول إلى الأدلَّة التي نسعى إليها، سنواجه نوع المفاضلات التي تواجه الباحثين الذين يبحثون عن علاجاتٍ طبيّةٍ بشكلٍ منتظم، وربَّما يكون البحث الحالي تماماً من المخاطر حول هذه الموضوعات مستحيلاً. ما الذي يُعدُّ موافقةً مستنيرة، وما مقدار المخاطر التي يمكن السماح بها حتّى لمن يوافقون عليها، وبموافقة من: الوالدينِ أم الأبناء؟

كلُّ هذه الأسئلة المتعلّقة بالسياسة تبقى دون فحصٍ في الظلّ الذي تلقي به التعويذة الأولى، تلك التي تقول: إنَّ الدين خارجَ حدود البحث حاليّاً، لذا لا ينبغي أن نتظاهر بأنَّ هذا إهمالٌ حميدٌ من جانبنا، كوننا نعلم جيّداً أنّه باسم حماية الخصوصيَّة الشخصيَّة والحرّيّة الدينيَّة يقوم الآباء بممارساتٍ واسعة الانتشار، يخضعون فيها أطفالهم للعلاجات التي من شأنها إرسال أيّ باحثٍ أو طبيب ممارس أو خلاف ذلك إلى السجن. ما هي حقوق الوالدين في مثل هذه الظروف، و»أين نرسم الحدَّ الفاصل»؟ هذا سؤالٌ سياسيٌّ لا يمكن تسويته باكتشاف «الإجابة»، ولكن من خلال التوصُّل إلى إجابةٍ مقبولةٍ لأكبر عددٍ ممكنٍ من الأشخاص المطَّلعين.

لن يكون مُرضِياً للجميع أكثر من قوانيننا وممارساتنا الحاليَّة، فيما يتعلَّق باستهلاك

المشروبات الكحوليَّة التي تُرضِي الجميع، لقد تمّت تجربة الحظر، وكان هناك إجماعٌ عامٌّ على أنّها تجربةٌ فاشلة. الفهم الحاليُّ مستقرٌّ تماماً، ومن غير المحتمل أن نعود إلى الحظر في أيّ وقتٍ قريباً، ولكن ما تزال هناك قوانين تحظر بيع المشروبات الكحوليَّة للقاصرين (مع اختلاف العمر حسب البلد)، وهناك الكثير من المناطق الرماديَّة: ماذا يجب أن نفعل إذا وجدنا الآباء يقدّمون الكحول لأطفالهم؟ إن فعلوا ذلك أثناء حضور مباراة الكرة، قد يقع الوالدان في مشكلة، لكن ماذا عن خصوصيَّة منازلهم، فهل هناك فرقٌ بين كأسٍ من الشمبانيا في حفل زفاف الأخت الكبرى، وستَّة علبٍ من البيرة كلَّ مساء أثناء محاولة أداء الواجبات المنزليَّة، ومتى لا يكون للسلطات الحقُّ فحسب، بل عليها واجب التدخُّل ومنع الانتهاكات؟ هذه أسئلةٌ صعبة، ولن تكون أسهل عندما يكون الموضوع هو الدين وليس الكحول، ففي حالة الكحول، فإنَّ حكمتنا السياسيَّة تستند بشكلٍ مهمّ إلى ما تعلَّمناه عن الآثار قصيرة المدى وطويلة المدى لشرب الكحول، ولكن في حالة الدين ما زلنا نتبع حدسنا.

سوف يسخر بعض النَّاس من فكرة أنَّ التنشئة الدينيَّة يمكن أن تكون ضارَّةً للطفل - حتَّى يتأمَّلوا في بعض النظم الدينيَّة الأكثر قسوةً الموجودة في جميع أنحاء العالم، ويدركون أنّنا في الولايات المتحدة نحظر بالفعل الممارسات الدينيَّة المنتشرة في أجزاء أخرى من العالم. يذهب ريتشارد دوكينز إلى أبعد من ذلك، لقد اقترح أنّه لا ينبغي تحديد أيّ طفلٍ على أنّه طفلٌ كاثوليكيٌّ أو طفلٌ مسلم (أو طفلٌ ملحد)، لأنَّ هذا التعريف في حدِّ ذاته يحكم مسبقاً على القرارات التي لم يتمَّ النظر فيها بشكلٍ صحيح بعد.

سنصاب بالذعر عندما يتمُّ إخبارنا عن طفلٍ لينيني، أو طفلٍ من المحافظين الجدد، أو طفلٍ من علماء النقود الهايكيين[1]، إذاً، أليس من سوء معاملة الأطفال، الحديثُ عن طفلٍ كاثوليكي، أو طفلٍ بروتستانتي؟ خاصَّةً في أيرلندا الشماليَّة وغلاسكو حيث مثل هذه العلامات المتوارثة عبر الأجيال، قسَّمت الأحياء لعدَّة قرون ويمكن أن تصل إلى حدِّ أمر

(1) نسبة إلى فريدريش أوغوست فون هايك (1992-1899) حاصل على وسام رفقاء الشرف وزمالة الأكاديمية البريطانية، والذي عادةً ما يُعرف بالحروف الأولى من اسمه إف. أي. هايك، هو فيلسوف وعالم اقتصاد نمساوي بريطاني معروف بدفاعه عن الليبرالية الكلاسيكية

الإعدام [2003 ب].

تخيَّل لو حدَّدنا الأطفال منذ الولادة كمدخنين صغار أو أطفال يتناولون الكحول، لأنَّ والديهم يدخنون أو يشربون الكحول. في هذا الصدد (وليس غيره) يذكّرني دوكينز بجدّي، الطبيب الذي كان سابقاً لعصره في الخمسينيَّات من القرن الماضي، حيث كان يكتب رسائل حماسيَّة إلى محرري صحف بوسطن، مستنكراً فيها التدخين السلبي الذي كان يهدّد صحَّة الأطفال الذين يدخّن آباؤهم في المنزل، فكنَّا نسخر منه جميعاً، ونواصل التدخين، لكن ما مقدار الضرر الذي يمكن أن يتسبَّب فيه هذا القدر القليل من الدخان؟ لقد اكتشفنا الأمر.

الجميع يقتبس (أو يخطئ في الاقتباس) من الآباء اليسوعيين: «أعطني طفلاً حتَّى يبلغ السابعة من العمر، وسأريكم أي رجل سيصبح»، لكن لا أحد - لا اليسوعيُّون أو أيُّ شخصٍ آخر - يعرف حقّاً مدى مرونة الأطفال. هناك الكثير من الأدلَّة المتناقلة على أنَّ الشباب أداروا ظهورهم لتقاليدهم الدينيَّة بعد سنواتٍ من الانغماس فيها، وابتعدوا بابتسامةٍ وعدم اكتراث ومن دون آثارٍ سيِّئةٍ ظاهرة، من ناحيةٍ أخرى، تتمُّ تنشئة بعض الأطفال في مثل هذا السجن الأيديولوجي، بحيث يصبحون عن طيب خاطر سجّاني أنفسهم، كما قال نيكولاس همفري (1999)، حيث يحظرون على أنفسهم أيَّ اتصالٍ بالأفكار التحرريَّة التي قد تغيِّر رأيهم. في مقالته العميقة المدروسة «ماذا يجب أن نخبر الأطفال؟» كان همفري رائداً في النظر في القضايا الأخلاقيَّة التي ينطوي عليها تقرير كيفيَّة تحديد «متى وما إذا كان تعليم الأطفال نظام معتقداتٍ يمكن الدفاع عنه أخلاقيّاً» (ص 68).

يقترح همفري اختباراً عامّاً يستند إلى مبدأ الموافقة المستنيرة، ولكنَّه يُطبَّق افتراضيّاً، كما ينبغي أن يكون: ما الذي سيختاره هؤلاء الأطفال في وقتٍ لاحقٍ من الحياة لو قُدِّمَت لهم المعلومات التي يحتاجون إليها من أجل اتّخاذ خيارٍ مستنير؟

ضدَّ الاعتراض القائل بأنَّنا لا نستطيع الإجابة على مثل هذه الأسئلة الافتراضيَّة، يجادل همفري بأنَّ هناك في الواقع الكثير من الأدلَّة التجريبيَّة والمبادئ العامَّة، التي يمكن من خلالها استخلاص استنتاجاتٍ واضحةٍ بضميرٍ حي.

نعتبر أنه من المسموح لنا، بل لازماً، اتّخاذ مثل هذه القرارات الواعية نيابةً عن الأشخاص الذين لا يستطيعون، لسببٍ أو لآخر، اتّخاذ قرارٍ مستنيرٍ لأنفسهم، ويمكن معالجة هذه المجموعة من المشاكل باستخدام الفهم الذي توصلنا إليه بالفعل في حلقة عمل توافق الآراء السياسي بشأن هذه المواضيع الأخرى.

إنَّ حلَّ هذه المعضلات ليس واضحاً (حتَّى الآن)، على أقلّ تقدير. قارنها بالمسألة وثيقة الصلة بما يجب علينا فعله في الظاهر حيال Sentinelese[1] وJarawas[2]، والشعوب الأخرى التي ما تزال تعيش في العصر الحجري في عزلةٍ ملحوظة على جزر أندامان ونيكوبار، بعيداً في المحيط الهندي. لقد تمكّن هؤلاء الأشخاص من إبعاد حتَّى المستكشفين والتجّار الأكثر جرأة لقرون، من خلال دفاعهم الشرس بالقوس والسهم عن أراضي جزرهم، لذلك لا يُعرف الكثير عنهم، ولبعض الوقت حظرت حكومة الهند التي تشكّل الجزر جزءاً نائياً منها، أيَّ اتصالٍ معها. الآن، وقد تمَّ لفت انتباه العالم إليهم في أعقاب كارثة تسونامي الكبرى في كانون الأول/ ديسمبر 2004، من الصعب تخيُّل أنَّه يمكن الحفاظ على هذه العزلة، ولكن حتَّى لو كان ذلك ممكناً، فهل يجب أن يكون الأمر كذلك، من له الحقُّ في تقرير الأمر؟ بالتأكيد ليس علماء الأنثروبولوجيا، على الرَّغم من أنَّهم عملوا بجدٍّ لحماية هؤلاء الأشخاص من الاتصال - حتَّى معهم - لعقود، من يكونون ليقوموا «بحماية» هؤلاء البشر؟ فهم ليسوا مُلكاً لعلماء الأنثروبولوجيا كما لو كانوا عيّناتٍ مُخبريَّةً تمَّ جمعها بعناية، وحمايتها من التلوُّث، وفكرة أنَّ هذه الجزر يجب أن تُعامَل كحديقة حيوان أو محميَّةٍ بشريَّة هي فكرةٌ مسيئة، حتَّى عندما نفكّر في البديل الأكثر عدائيَّة، وهو فتح الأبواب للمبشّرين من جميع الأديان، الذين لا شكَّ في أنَّهم سوف يندفعون بشغفٍ لإنقاذ أرواح هذه الشعوب.

(1) إن Sentinelese ، المعروفون أيضاً باسم Sentineli وجزر North Sentinel، هم من السكان الأصليين الذين يسكنون جزيرة North Sentinel في خليج البنغال في شمال شرق المحيط الهندي. تمَّ تصنيفهم على أنَّهم مجموعة قبلية معرضة بشكلٍ خاص للخطر وقبيلة مجْهولة، وينتمون إلى فئة أوسع من شعوب أندامانيس.

(2) جاراواس (جزر أندامان)، أحد الشعوب الأصلية في جزر أندامان

إنَّه لمن المغري، ولكن بشكلٍ وهمي، الاعتقاد بأنَّهم قد حلُّوا المشكلة الأخلاقيَّة بالنسبة لنا، من خلال قرارهم الحكيم بطرد كلِّ الغرباء دون أن يسألوا عمَّا إذا كانوا حماةً أو مستغلّين أو محقّقين أو منقذين للروح، من الواضح أنَّهم يريدون أن يُترَكوا بمفردهم، لذلك يجب أن نتركهم وشأنهم! هناك مشكلتان في هذا الاقتراح الملائم: قرارهم غير مدروس بشكلٍ واضح، لدرجة أنَّنا لو تركناه يتفوَّق على جميع الاعتبارات الأخرى، ألن نكون مذنبين مثل أيّ شخصٍ يترك شخصاً يتناول كوكتيلاً مسموماً «بإرادته الحرَّة» دون تحذيره؟ وعلى أيّ حال، على الرَّغم من أنَّ البالغين ربَّما بلغوا سنَّ الرشد، ألا يقع أطفالهم ضحيَّة جهل والديهم؟ لن نسمح أبداً بإبقاء طفل الجيران مخدوعاً، لذا ألا يجب علينا عبور المحيط والتدخُّل لإنقاذ هؤلاء الأطفال، مهما كانت الصدمة مؤلمة؟

هل تشعر بارتفاعٍ طفيفٍ في الأدرينالين في هذه اللحظة؟ أجد أنَّ قضيَّة حقوق الوالدين هذه مقابل حقوق الأطفال لا تنافسها أية قضية أخرى في إثارة ردود فعلٍ عاطفيَّةٍ بدلاً من الاستجابات المنطقيَّة، وأظنُّ أنَّ هذا هو المكان الذي يلعب فيه العامل الجينيُّ دوراً مباشراً تماماً. في الثدييات والطيور التي يجب أن تعتني بنسلها، فإنَّ غريزة حماية صغارها من أيّ تدخُّلٍ خارجي هي أمرٌ عامٌّ وقويٌّ للغاية؛ سنخاطر بحياتنا دون تردُّد – دون تفكير – لدرء التهديدات الحقيقيَّة أو المتخيّلة، إنَّه مثل ردّ الفعل، وفي هذه الحالة، يمكننا أن «نشعر في أعماقنا» أنَّ للوالدين الحقَّ في تربية أطفالهم بالطريقة التي يرونها مناسبة. لا تخطئ أبداً في التجوُّل بين الدبَّة الأم وصغيرها، ولا ينبغي أن يتدخَّل شيءٌ بين الوالدين وأطفالهم، هذا هو جوهر «القيم العائليَّة»، في الوقت نفسه، علينا أن نعترف بأنَّ الآباء لا يمتلكون أطفالهم حرفيَّاً (كما كان مُلَّاك العبيد يمتلكون العبيد سابقاً)، بل هم – بالأحرى – الوكلاء أو الأوصياء عليهم، ويجب أن يتحمَّلوا المسؤوليَّة أمام الغرباء عن وصايتهم، ممَّا يعني ضمنيَّاً أنَّ للغرباء الحقَّ في التدخُّل، ممَّا يؤدّي إلى إطلاق إنذار الأدرينالين مرَّةً أخرى. عندما نجد أنَّه من الصعب الدفاع في محكمة العقل عمَّا نشعر به في أعماقنا، فإنَّنا ندافع عن أنفسنا ونبدأ في البحث عن شيءٍ نختبئ وراءه، ماذا عن الرابطة المقدَّسة التي لا جدال فيها؟ آه، وهو المطلوب!

هناك توتّرٌ واضح (ولكن نادراً ما تتمُّ مناقشته) بين المبادئ التي يُفترض أنَّها مقدَّسة، وتلك التي تمَّ الاستشهاد بها في هذه المرحلة، فمن ناحية، يصرّح الكثيرون أنَّ حقَّ الحياة هو حقٌّ مقدَّسٌ ومعصوم: لكلِّ طفلٍ لم يولد بعد الحقُّ في الحياة، ولا يحقُّ لأيِّ والدٍ محتملٍ إنهاء الحمل (باستثناء إذا كانت حياة الأم نفسها في خطر)، ومن ناحيةٍ أخرى، يعلن نفس الأشخاص أنَّه بمجرَّد ولادته، يفقد الطفل حقَّه في عدم تلقينه عقيدةً أو غسل دماغ أو إساءةً نفسيَّةً إليه من قبل هذين الوالدين، اللذين لديهما الحقُّ في تربية الطفل بأيَّة طريقةٍ يختارانها، دون الحديث عن التعذيب الجسدي. دعونا ننشر قيمة الحرّيَّة في جميع أنحاء العالم، ولكن ليس للأطفال، على ما يبدو، لا يحقُّ لأيِّ طفلٍ التحرُّر من التلقين، ألا يجب أن نغير ذلك؟ ماذا، وهل سأسمح أن يكون للغرباء رأي في كيفية تربية أطفالي؟ (الآن هل تشعر باندفاع الأدرينالين؟)

بينما نتصارع مع الأسئلة حول سكّان جزر أندامان، يمكننا أن نرى أنّنا نضع الأسس السياسيَّة لأسئلةٍ مماثلةٍ حول التنشئة الدينيَّة بشكلٍ عام. لا ينبغي أن نفترض- مع القلق بشأن الآثار المحتملة- أنَّ إغراءات الثقافة الغربيَّة ستُغرِقُ تلقائيّاً جميع الكنوز الهشَّة للثقافات الأخرى، وتجدر الإشارة إلى أنَّ العديد من النساء المسلمات، اللواتي نشأن في ظلِّ ظروفٍ تراها العديد من النساء غيرِ المسلمات غير محتملة، عند إعطائهنَّ فرصاً مستنيرةً للتخلّي عن الحجاب، والعديد من تقاليدهنَّ الأخرى، اخترن بدلاً من ذلك الحفاظ عليها.

ربَّما يمكن الوثوق بالنَّاس في كلِّ مكان، ومن ثمَّ السماح لهم باتّخاذ خياراتهم المستنيرة. اختيارٌ مستنير! يا لها من فكرةٍ مذهلةٍ وثوريَّة! ربَّما يجب الوثوق بالنَّاس لاتّخاذ الخيارات، وليس بالضرورة الخيارات التي نوصي بها، ولكن الخيارات التي لديها أفضل فرصةٍ لتحقيق أهدافهم المدروسة، لكن ماذا نعلّمهم حتَّى يصبحوا على درايةٍ كافية، وناضجين بما يكفي ليقرّروا بأنفسهم؟ نحن نعلّمهم عن جميع ديانات العالم، بطريقةٍ واقعيَّةٍ ومستنيرةٍ من الناحية التَّاريخيَّة والبيولوجيَّة، بالطريقة نفسها التي نعلّمهم بها عن الجغرافيا والتَّاريخ والحساب. دعونا ندخل المزيد من التعليم حول الدين في مدارسنا،

وليس أقل، يجب أن نعلّم أطفالنا العقائد والعادات والنواهي والطقوس والنصوص والموسيقى، وعندما نتحدَّث عن تاريخ الدين، يجب أن ندرج كلّاً من الإيجابي (دور الكنائس في حركة الحقوق المدنيَّة في الستينيَّات، وازدهار العلوم والفنون في صدر الإسلام، ودور المسلمين السود في خلق الأمل والشرف واحترام الذات للعديد من نزلاء سجوننا، على سبيل المثال) والسلبي (محاكم التفتيش، معاداة السَّاميَّة على مرِّ العصور، دور الكنيسة الكاثوليكيَّة في انتشار الإيدز في إفريقيا من خلال معارضتها لاستخدام الواقي الذكري). لا ينبغي تفضيل أيّ دين، ولا ينبغي تجاهل أيّ دين، وعندما نكتشف المزيد والمزيد حول الأسس البيولوجيَّة والنفسيَّة للممارسات والمواقف الدينيَّة، يجب إضافة هذه الاكتشافات إلى المناهج الدراسيَّة، بالطريقة نفسها التي نقوم فيها بتحديث مناهجنا حول العلوم والصحَّة والأحداث المعاصرة، يجب أن يكون كلُّ هذا جزءاً من المناهج الدراسيَّة الإلزاميَّة لكلٍّ من المدارس العامَّة والتعليم المنزلي.

اليكم اقتراحاً: طالما أنَّ الآباء لا يعلّمون أطفالهم أيَّ شيء، من المحتمل أن يجعلهم منغلقين فكريّاً:

1. عن طريق الخوف أو الكراهية.

2. أو من خلال تعطيلهم عن الاستفسار (بحرمانهم من التعليم، على سبيل المثال، أو إبقائهم معزولين تماماً عن العالم).

عندئذٍ يستطيعون أن يعلّموا أولادهم ما يحلو لهم من عقائد دينيَّة، إنَّها مجرَّد فكرة، وربَّما هناك أفكار أفضل يجب مراعاتها، ولكن يجب أن تروق لعشَّاق الحرّيَّة في كلّ مكان: فكرة الإصرار على أنَّ المؤمنين من جميع الأديان يجب أن يواجهوا التحدّي المتمثّل في التأكُّد من أنَّ عقيدتهم جديرةٌ بما يكفي، وجذَّابةٌ ومعقولة، وذات مغزىً كافٍ لتحمل إغراءات منافسيها.

إذا كان عليك خداع أطفالك - أو عصب أعينهم - للتأكُّد من أنَّهم يؤكّدون إيمانهم عندما يصبحون بالغين، فيجب أن ينقرض إيمانك.

4- الميمات السَّامة:

«تتطلَّب أيُّ مواجهةٍ إبداعيَّةٍ مع الشر ألَّا ننأى بأنفسنا عنه من خلال شيطنة أولئك الذين يرتكبون أفعالاً شرّيرة. من أجل الكتابة عن الشر، على الكاتب أن يحاول فهمه من الداخل إلى الخارج؛ لفهم الجناة وليس بالضرورة التعاطف معهم. لكن يبدو أنَّ الأمريكيين يواجهون صعوبةً بالغةً في إدراك أنَّ هناك فرقاً بين الفهم والتعاطف. نعتقد بطريقةٍ ما أنَّ محاولة إخبار أنفسنا بالعوامل المسببة للشر هي محاولة لإبعاده، أعتقد أنَّ العكس هو الصحيح، فعندما يتعلَّق الأمر بالتعامل مع الشر، فإنَّ التجاهل هو أسوأ عدوٍّ لنا» - كاثلين نوريس، «الشر الأصلي»

«ساعدتني كتابة هذا الكتاب على فهم أنَّ الدين هو نوعٌ من التكنولوجيا، إنَّه مغرٍ للغاية في قدرته على التهدئة والشرح، لكنَّه خطيرٌ أيضاً» — جيسيكا ستيرن، الإرهاب باسم الله: لماذا يقتل المتشددون الدينيُّون؟

هل سمعت عن «ياهوز»، النَّاس الذين يعتقدون أنَّ ما نسمّيه المواد الإباحيَّة للأطفال هي مجرَّد متعةٍ نظيفةٍ جيّدة؟ إنَّهم يدخّنون الماريجوانا يوميَّاً، ويقيمون احتفالًا عامًّا للتغوُّط (مع منافسةٍ مضحكةٍ لمعرفة من الذي يمكنه القيام بطقوس الإزالة)، وكلَّما بلغ أحد كبارهم سنَّ الثمانين، يقيمون له يوم احتفالٍ خاصًّا يقتل فيه الشخص نفسه بشكلٍ احتفالي، ثمَّ يأكل الجميع لحمه.

شيءٌ يدعو للاشمئزاز، ثمَّ تعرَّف كيف يشعر الكثير من المسلمين تجاه ثقافتنا المعاصرة، بما فيها من الكحول والملابس الاستفزازيَّة، والمواقف غير الرسميَّة تجاه السلطة الأسريَّة. جزءٌ من جهودي في هذا الكتاب هو جعلك تفكّر لا أن تشعر فقط، وفي هذه الحالة، عليك أن ترى أنَّ اشمئزازك مهما كان قويّاً، هو مجرَّد معطيات، وحقيقةٌ عنك وهي مهمَّةٌ جدّاً، ولكنَّها ليست إشارة معصومةً من الحقيقة الأخلاقيَّة، إنَّها تماماً مثل اشمئزاز المسلمين من بعض ممارساتنا الثقافيَّة. يجب أن نحترم المسلمين، ونتعاطف معهم، ونأخذ اشمئزازهم على

محمل الجدّ، ولكن بعد ذلك نقترح عليهم أن ينضمُّوا إلينا في مناقشةٍ حول وجهات النظر التي نختلف بشأنها، الثمن الذي يجب أن تكون على استعدادٍ لدفعه مقابل هذا، هو رغبتك في التفكير في أسلوب حياة «ياهوز» (الخيالي!) بهدوء، والسؤال عمَّا إذا كان من الواضح أنَّه لا يمكن الدفاع عنه، إذا دخلوا في هذه التقاليد بإخلاص، دون أيّ إكراهٍ واضح، ربَّما ينبغي أن نقول: «عِش، ودع غيرك يعيش».

وربَّما لا، يجب أن يقع العبء على عاتقنا لنثبت لـ«ياهوز» أنَّ أسلوب حياتهم يتضمَّن تقاليد يجب أن يخجلوا منها، ويجب التخلُّص منها، ربَّما إذا شاركنا في هذا التمرين بوعي، سنكتشف أنَّ بعض اشمئزازنا من أساليبهم كان ضيّق الأفق، وغير مبرَّر، سوف يعلّموننا شيئاً، وسنعلّمهم شيئاً ما، وربَّما لن يتمَّ جسر هوَّة الاختلاف بيننا أبداً، لكن لا ينبغي أن نفترض هذا الاحتمال الأسوأ.

في غضون ذلك، فإنَّ طريقة التحضير لهذه الحوار العالمي المثالي هي أن ندرس- قدر الإمكان- طرقهم وطرقنا الخاصَّة بشكلٍ غير متحيّزٍ وبرفق. خذ على سبيل المثال الملاحظة الذاتيَّة الشجاعة لرجا شحادة، التي كانت عن قبضة فلسطين الحديثة: «يتمُّ إنفاق معظم طاقتك في توسيع قدرتك الشعوريَّة لاكتشاف التصوُّر العامّ لأفعالك، لأنَّ بقاءك مرهونٌ بالبقاء على علاقةٍ جيّدةٍ مع مجتمعك». عندما نتمكَّن من مشاركة ملاحظاتٍ مماثلةٍ حول المشكلات في مجتمعنا، سنكون على مسارٍ جيّدٍ للتفاهم المتبادل.

يعاني المجتمع الفلسطيني- إذا كان شحادة على حقّ- من حالة عدائيَّة ميم «عَاقِب مَن لن يعاقبوا»، والتي توجد لها نماذج (بدءاً من Boyd and Richerson، 1992) تتنبَّأ بخصائص أخرى يجب أن نبحث عنها. ربما يكون من شأن الميزة الخاصَّة أن تحبط المشاريع حسنة النيَّة التي من الممكن أن تنجح في المجتمعات التي تفتقر إليها، على وجه الخصوص، يجب ألَّا نفترض أنَّ السياسات الحميدة في ثقافتنا لن تكون خبيثةً في ثقافة الآخرين، وكما تقول جيسيكا ستيرن:

«لقد أصبحت أرى الإرهاب نوعاً من الفيروسات، ينتشر نتيجة عوامل الخطر على

مستوياتٍ مختلفة: عالميٌّ، بين الدول، وطنيٌّ، وشخصي، لكنّ تحديد هذه العوامل بدقّةٍ أمرٌ صعب، نفس المتغيّرات (السياسيّة، الدينيّة، الاجتماعيّة، أو كلُّ ما سبق) التي يبدو أنّها تسبّبت في أن يصبح شخصٌ ما إرهابيّاً، قد تتسبّب في أن يصبح شخصٌ آخر قدّيساً». [2003، ص. 283]

نظراً لأنّ تكنولوجيا الاتصالات تجعل من الصعب على القادة حماية أفرادهم من المعلومات الخارجيّة، وبما أنّ الوقائع الاقتصاديّة للقرن الحادي والعشرين توضّح أنّ التعليم هو أهمُّ استثمارٍ يمكن أن يقوم به أيُّ والدٍ في طفله، سيتمُّ فتح بوّابات المفيض في جميع أنحاء العالم، مع تأثيرات صاخبة. حثالة الثقافة الشعبيّة، إضافةً إلى كلِّ القمامة والحثالة التي تتراكم في أركان المجتمع الحرّ، ستغرق هذه المناطق البِكر نسبيّاً جنباً إلى جنب مع كنوز التعليم الحديث، والمساواة في الحقوق للمرأة، والرعاية الصحّيّة الأفضل، وحقوق العمّال، والمُثل الديمقراطيّة، والانفتاح على ثقافات الآخرين. كما تظهر التجربة في الاتحاد السوفيتي السابق بشكلٍ واضح للغاية، فإنّ أسوأ سمات الرأسماليّة والتكنولوجيا المتقدّمة هي من بين أقوى الناسخات في هذا الانفجار السكّاني للميمات، وسيكون هناك الكثير من الأسباب لكراهية الأجانب والليديّة[1] و«الطهارة» المغرية للأصوليّة الرجعيّة، في الوقت نفسه، لا ينبغي أن نتسرّع في الاعتذار عن الثقافة الشعبيّة الأمريكيّة والتي لها تجاوزات، لكن في كثيرٍ من الحالات لا تكون تجاوزاتها مسيئةً بقدر ما تفعل من خلال عقيدة المساواة والتسامح التي تتبنّاها. غالباً ما تكون كراهية هذا التصدير الأمريكي القويّ مدفوعةً بالعنصريّة، بسبب الوجود الأفريقي الأمريكي القوي في الثقافة الشعبيّة الأمريكيّة، والتمييز على أساس الجنس، بسبب مكانة المرأة التي نحتفل بها، ومعاملتنا الحميدة (نسبيّاً) للمثليّة الجنسيّة (انظر على سبيل المثال، ستيرن، 2003، ص 99).

(1) نسبةً إلى Luddites وهي منظّمةٌ سرّيّةٌ قائمة على القَسَم لعمّال النسيج الإنجليز في القرن التاسع عشر، وهو فصيلٌ راديكاليٌّ دمّر آلات النسيج. يُعتقد أنّ المجموعة أخذت اسمها من نيد لود، وهو نسّاجٌ من Anstey، بالقرب من Leicester. واحتجّوا على الشركات المصنّعة التي استخدمت الآلات فيما اسموه «بطريقةٍ احتياليّةٍ ومخادعة» للالتفاف على ممارسات العمل القياسية، خشي Luddites من أنّ الوقت الذي يقضونه في تعلّم مهارات حرفتهم سيضيع، حيث ستحلُّ الآلات محلَّ دورهم في الصناعة.

كما يظهر جاريد دايموند في كتابه «الأسلحة والجراثيم والصلب»، كانت جراثيم الأوروبيين هي التي دفعت سكّان نصف الكرة الغربي إلى حافّة الانقراض في القرن السادس عشر، حيث لم يكن لهؤلاء الأشخاص تاريخٌ يمكّنهم من تطوير مناعةٍ ضدّها. في هذا القرن، ستعيث ميماتنا- سواءً كانت منشّطةً أو سامّة- فساداً في العالم غير المستعدّ لها، لا يمكننا أن نفترض امتلاك الآخرين لقدرتنا على تحمّل التجاوزات السّامّة للحرّيّة، أو مجرّد تصديرها كسلعةٍ أخرى. تمنحنا قابليّة التعلّم غير المحدودة عمليّاً لأي إنسانٍ الأمل في النجاح، ولكنّ تصميم وتنفيذ التطعيمات الثقافيّة اللازمة لدرء الكارثة، مع احترام حقوق أولئك الذين يحتاجون إلى التطعيم، ستكون مهمّةً عاجلةً ذات تعقيدٍ كبير، ولا تتطلّب فقط علوماً اجتماعيّةً أفضل، ولكن أيضاً حساسيّةً وخيالاً وشجاعةً أفضل، سيكون مجال الصحّة العامّة الذي توسّع ليشمل الصحّة الثقافيّة، التحدّي الأكبر في القرن المقبل.

لاحظت جيسيكا ستيرن، وهي رائدةٌ جريئةٌ في هذا المسعى، أنّ الملاحظات الفرديّة مثل ملاحظاتها ليست سوى البداية: «تتطلّب الدراسة الدقيقة وغير المتحيّزة - إحصائيّاً- للأسباب الجذريّة للإرهاب على مستوى الأفراد، تحديد المجموعة الضابطة، أولئك الشباب الذين عاشوا في بيئة الأرهابيين نفسها، والذين شعروا بالإذلال وانتهاك حقوق الإنسان والحرمان النسبي نفسه، ولكنّهم اختاروا وسائلَ غير عنيفةٍ للتعبير عن شكواهم، أو اختاروا عدم التعبير عنها إطلاقاً. سيقوم فريقٌ من الباحثين، بما في ذلك الأطبّاء النفسيّون والأطبّاء ومجموعةٌ متنوّعةٌ من علماء الاجتماع، بتطوير استبيانٍ وقائمةٍ بالفحوصات الطبّيّة التي ستُجرى لعيّنةٍ عشوائيّةٍ من المشاركين وأسرهم». [2003، ص. xxx]

في الفصل العاشر، قلت إنّه لا ينبغي أن يكون الباحثون مؤمنين لكي يكونوا متفاهمين، آمل أنّني كنت محقّاً، لأنّنا نريد أن يفهم باحثونا الإرهاب الإسلامي من الداخل دون الاضطّرار إلى أن يصبحوا مسلمين - وبالتأكيد ليسوا إرهابيين - في هذه الحالة، لكنّنا أيضاً لن نفهم الإرهاب الإسلامي ما لم نتمكّن من رؤية أوجه التشابه والاختلاف بينه وبين الأنواع الأخرى من الإرهاب، بما في ذلك الإرهاب الهندوسي والمسيحي، والإرهاب البيئي،

والإرهاب المناهض للعولمة، لتجميع المشتبه بهم المعتادين.

لن نفهم الإرهاب الإسلاميَّ والهندوسيَّ والمسيحي دون فهم ديناميكيَّات التحوُّلات التي تؤدّي إلى التحوُّل من طائفةٍ حميدةٍ، إلى مذهب، إلى نوعٍ من الظاهرة الكارثيَّة التي شهدناها في جونستاون- غيانا، في واكو- تكساس، وفي طائفة أوم شينريكيو، في اليابان.

واحدةٌ من أكثر الفرضيَّات جاذبيَّةً، هي أنَّ هذه الطفرات السَّامَّة بشكلٍ خاصّ تميل إلى الظهور عندما يخطئ القادة الكاريزماتيُّون في تقدير حساباتهم ليصبحوا مهندسي تطويرٍ ثقافي (مهندسين ميميين)، ويطلقون العنان للتكيُّفات الميميَّة التي يجدونها - مثل الساحر المبتدئ- وعندما يفقدون السيطرة عليها، يصبحون يائسين إلى حدٍّ ما، ويواصلون إعادة اختراع العجلات الرديئة نفسها لجعلهم يتخطُّون تجاوزاتهم. يقدّم عالم الأنثروبولوجيا هارفي وايتهاوس (1995) تقريراً عن الكارثة التي أصابت زعماء بوميو كيفونج، الديانة الجديدة في بابوا غينيا الجديدة المذكورة في بداية الفصل الرابع، والتي تشير (بالنسبة لي) إلى أنَّ شيئاً مثل الانتقاء الجنسي الجامح سيطر على الأمر: استجاب القادة لضغوط الشعب بنسخٍ مبالغ فيها باستمرار من الادّعاءات والوعود التي أوصلتهم إلى السلطة، ممَّا أدَّى إلى الانهيار بشكلٍ محتوم. إنَّه يذكّرنا بالاندفاع المتسارع للإبداع الذي تراه لدى الكاذبين المرضيين عندما يشعرون أنَّ انفضاح أمرهم بات وشيكاً، بمجرَّد أن تحدّث النَّاس عن قتل كلِّ الخنازير تحسُّباً للفترة العظيمة للشركات، لن يكون لديك مكان تذهب إليه سوى الانهيار أو الهرب: الكفَّار هم سبب كلِّ بؤسنا!

هناك الكثير من التعقيدات والمتغيّرات - هل يمكننا أن نأمل يوماً في التوصُّل إلى تنبُّؤاتٍ يمكننا العمل وفقاً لها؟ نعم، في الواقع، نستطيع، وسوف أعرض هنا إحداها فقط: في كلِّ مكانٍ انتشر فيه الإرهاب، فإنَّ أولئك الذين اجتذبهم هم تقريباً جميع الشباب الذين تعلَّموا ما يكفي عن العالم، ليروا أنَّ مستقبلهم يبدو قاتماً وغير ملهمٍ بخلاف ذلك (كمستقبل أولئك الذين استغلَّهم مارغو غورتنر).

ما يبدو أنّه أكثر جاذبيَّةً فيما يتعلَّق بالجماعات الدينيَّة المتشدّدة - بصرف النظر عن مجموعة الأسباب التي قد يوردها الفرد للانضمام - هي الطريقة التي يتمُّ بها تبسيط الحياة، يتمُّ إظهار

الخير والشر بمعالم واضحة: تغيُّر الحياة من خلال العمل، يوفِّر الاستشهاد - العمل الأسمى للبطولة والعبادة - الخلاص النهائيّ من معضلات الحياة، خاصَّةً للأفراد الذين يشعرون بالغربة والارتباك أو الإهانة أو اليأس. [ستيرن، 2003، ص 5-6]

أين سنجد وفرةً من هؤلاء الشباب في المستقبل القريب جدًّا؟ في العديد من البلدان، وخاصَّةً في الصين، حيث كان للإجراءات الصارمة (طفل واحدٌ لكلِّ أسرة)، والتي أدَّت إلى إبطاء الانفجار السكَّاني إلى حدٍّ كبير (وحوَّلت الصين إلى قوَّةٍ اقتصاديَّةٍ مزدهرة ذات حجم مقلق)، آثارٌ جانبيَّةٌ تسبَّبت في خلق اختلال توازن هائلٍ بين الذكور والإناث؛ أراد الجميع إنجاب ابن (ميم عتيق الطراز تطوَّر ليزدهر في بيئةٍ اقتصاديَّة سابقة)، لذلك تمَّ إجهاض الأجنَّة الإناث (أو قتلهنَّ عند الولادة) بأعدادٍ كبيرة، لذلك لن يكون هناك عددٌ كافٍ من الزوجات، ماذا سيفعل كلُّ هؤلاء الشباب بأنفسهم؟ لدينا بضع سنواتٍ لاكتشاف القنوات الحميدة التي يمكن أن توجَّه إليها طاقاتهم المليئة بالهرمونات.

5- الصبر والسياسة:

«لا يجوز للكونغرس أن يضع أيَّ قانونٍ بخصوص تأسيس ديانةٍ أو حظر ممارستها بحرّيَّة، أو تقييد حرّيَّة الكلام أو حرّيَّة الصحافة، أو حقّ الشعب في التجمّع السلمي، وتقديم التماسٍ للحكومة من أجل إنصاف المظالم» - التعديل الأول لدستور الولايات المتحدة الأمريكيَّة.

«لا تستحقُّ التقاليد الاحترام إلَّا بقدر ما هي محترمة؛ أي بالقدر الذي تحترم فيه -هي نفسها- الحقوق الأساسيَّة للرجل والمرأة» - أمين معلوف، باسم الهوية: العنف وضرورة الانتماء

«الحمد لله على الإنترنت، مع جعل الويب الرقابة الذاتيَّة غير مجدية، أصبح الانترنت مكاناً يتنفَّس فيه المجازفون الفكريُّون أخيراً» - إرشاد منجي، مشكلة الإسلام

«اليقظة الأبديَّة هي ثمن الحرّيَّة» — إمَّا توماس جيفرسون (التَّاريخ غير معروف) أو ويندل فيليبس (1852)

هناك شيءٌ مثل النضوج بسرعةٍ كبيرة، علينا جميعاً أن نقوم بالانتقال المحرج من مرحلة الطفولة إلى مرحلة المراهقة إلى مرحلة البلوغ، وفي بعض الأحيان تأتي التغييرات الرئيسة في وقتٍ مبكرٍ جدّاً مع نتائج مؤسفة، لكن لا يمكننا الحفاظ على براءة طفولتنا إلى الأبد، حان الوقت لكي ننمو جميعاً، يجب أن نساعد بعضنا البعض، وأن نتحلَّ بالصبر. إنَّه ردُّ فعلٍ مبالغٌ فيه لأنَّنا فشلنا بصورةٍ متكررة، لذا امنح النضج بعض الوقت، وشجّعه، وسيحدث ذلك، يجب أن نثق في مجتمعنا المفتوح، في المعرفة، في الضغط المستمر لجعل العالم مكاناً أفضل للعيش فيه، ويجب أن ندرك أنَّ النَّاس بحاجةٍ إلى رؤية أنَّ حياتهم ذات معنى.

التعطُّش للسعي، للهدف، للمعنى، لا يمكن إخماده، وإذا لم نوفّر طرقاً حميدةً أو غير خبيثةٍ على الأقلّ، فسنواجه دائماً ديناً سامّاً.

بدلاً من محاولة تدمير المدارس الدينيَّة التي تغلق عقول الآلاف من الأولاد المسلمين الصغار، يجب علينا إنشاء مدارسَ بديلةٍ - للبنين والبنات المسلمين - والتي ستخدم بشكلٍ أفضل احتياجاتهم الحقيقيَّة والملحَّة، ونجعل هذه المدارس تتنافس علناً مع المدارس الدينيَّة من أجل الزبائن. كيف نأمل أن ننافس وعد الخلاص وأمجاد الاستشهاد؟ يمكننا الكذب وتقديم وعودٍ خاصَّةٍ بنا لا يمكن تحقيقها أبداً في هذه الحياة، أو في أيّ مكانٍ آخر، أو يمكننا تجريب شيءٍ أكثر صدقاً: يمكننا أن نقترح عليهم أنَّ مزاعم أيّ دين لا يجب أن تؤخذ على محمل الجدّ، يمكننا أن نبدأ في تغيير مناخ الرأي الذي يجعل الدين فوق المناقشة، فوق النقد، فوق التحدّي. الإعلان الكاذب هو إعلانٌ كاذب، وإذا بدأنا في تحميل المنظَّمات الدينيَّة المسؤوليَّةَ عن ادِّعاءاتها - ليس عن طريق محاكمتها، ولكن فقط من خلال الإشارة، في كثيرٍ من الأحيان وبنبرةٍ واقعيَّة، إلى أنَّ هذه الادِّعاءات بالطبع سخيفة - ربَّما يمكننا أن نزيل شيئاً فشيئاً ثقافة السذاجة. لقد أتقنَّا تقنية خلق الشكِّ من خلال وسائل الإعلام («هل أنت متأكّدٌ من أنَّ أنفاسك حلوة»، «هل تحصل على ما يكفي من الحديد»، «ما الذي فعلته شركة التأمين الخاصَّة بك مؤخَّراً؟»)، والآن يمكننا التفكير حول تطبيقه، بلطفٍ ولكن بحزم، على الموضوعات التي كانت حتَّى الآن محظورة. دع الأديان الصادقة تزدهر لأنَّ أعضائها

يحصلون على ما يريدون، كمختارين مطّلعين.

ولكن يمكننا أيضاً بدء حملاتٍ لتعديل جوانب معيَّنة من المشهد العامّ الذي تجري فيه هذه المنافسة. حفرةٌ لا قاع لها في هذا المشهد العامّ والتي تشدّني بشكلٍ خاصّ كشيءٍ يجب التخلُّص منه، هي تقليد «الأرض المقدَّسة»، إليكم يوئيل ليرنر، إسرائيلي وإرهابي سابق، نقلاً عن ستيرن:

«هناك ستُّمائةٍ وثلاثون وصيَّةً في التوراة، تمثّل خدمة الهيكل حوالي مئتين وأربعين من هذه الوصايا، ومنذ ما يقرب من ألفي عام، منذ تدمير الهيكل، لم يتمكّن الشعب اليهودي، خلافاً لرغباتهم، من الحفاظ عليها خدمةً للمعبد، لم يتمكّنوا من الامتثال لتلك الوصايا، شكَّل الهيكل نوعاً من خطِّ الهاتف لله»، يلخّص ليرنر: لقد تمَّ تدمير هذا الرابط، نريد إعادة بنائه. [2003، ص 88]

هذا هراء، لنفترض أنَّ هذه حالةٌ خياليَّة: لنفترض أنَّه اتَّضح أنَّ جزيرة ليبرتي (جزيرة بيدلوي سابقاً، والتي يقف عليها تمثال الحرّيَّة) كانت ذات يومٍ مقبرة للموهوك[1] – على سبيل المثال قبيلة ماتينيكوك في لونغ آيلاند القريبة، ولنفترض أنَّ الموهوك تقدَّموا بادّعاء أنَّه ينبغي استعادة نقائها الأصلي (من دون كازينوهات قمار، ومن دون تمثالٍ للحرّيَّة أيضاً، فقط مقبرةٌ مقدَّسةٌ كبيرةٌ واحدة). إنّه كلامٌ فارغ، وعارٌ على أيّ فردٍ من الموهوك امتلك الجرأة (!) لإثارة غضب زملائه الشجعان حول هذه القضيَّة، سيكون هذا تاريخاً قديماً – أقلَّ قدماً بكثير من تاريخ الهيكل – ويجب السماح له بالانكفاء بأمانٍ إلى الماضي.

نحن لا نسمح للأديان أن تعلن أنَّ تقاليدها المقدَّسة تتطلَّب استعباد الأشخاص الذين يستخدمون اليد اليسرى، أو أنَّ الأشخاص الذين يعيشون في النرويج يجب أن يُقتلوا، وبالمثل لا يمكننا أن ندع الأديان تعلن أنَّ «الكفَّار» الذين يعيشون ببراءةٍ في أرضها «المقدَّسة» لأجيالٍ لا يحقُّ لهم العيش هناك، وهناك أيضاً– بالطبع– نفاقٌ ملامٌ في سياسة البناء المتعمَّد

(1) عضو في شعب إيروكوي يسكن في الأصل أجزاء ممَّا يعرف الآن بولاية نيويورك العليا، وهو أحد الشعوب الخمسة التي تضمُّ كونفدرالية إيروكوا الأصلية.

لمستوطناتٍ جديدة، فقط من أجل جلب مثل هؤلاء السكّان «الأبرياء»، وإعاقة مطالبات السكّان السابقين بتلك الأرض.

هذه ممارسةٌ تعود إلى قرونٍ مضت، اهتمَّ الإسبان الذين احتلُّوا معظم نصف الكرة الغربي في كثيرٍ من الأحيان ببناء كنائسهم المسيحيَّة على الأساسات المدمَّرة لمعابد السكّان الأصليين، أصبح ذلك من الأمور المنسيَّة، لا يوجد أيُّ طرفٍ في هذه الخلافات فوق النقد، وإذا استطعنا فقط التقليل من قيمة تقاليد الأرض المقدَّسة بأكملها واحتلالها، فيمكننا معالجة المظالم المتبقّية بأذهانٍ أقدرَ على التفكير بعمق.

ربَّما لا تتَّفق معي في هذا الأمر، حسناً، دعونا نناقش ذلك بهدوءٍ وانفتاح، ودونَ احتكامٍ غير قابلٍ للطعن إلى المقدَّس، والذي لا مكان له في مثل هذا النقاش، وإذا كان علينا الاستمرار في احترام الادّعاءات حول الأرض المقدَّسة، فسيكون ذلك لأنَّه، مع أخذ كل الأشياء في الحسبان، مسار العمل العادل، والذي يجعل الحياة ممكنة، وهو طريقٌ أفضل للسلام من أيّ طريقٍ آخر يمكن أن نجده، أيُّ سياسةٍ لا يمكنها اجتياز هذا الاختبار لا تستحقُّ الاحترام.

إنَّ مثل هذه المناقشات المفتوحة يكفلها أمن المجتمع الحر، وإذا كان لها أن تستمرَّ دون مضايقات، يجب أن نكون يقظين لحماية مؤسَّسات ومبادئ الديمقراطيَّة من التخريب. تذكَّر الماركسيَّة، كان استفزاز الماركسيين بشأن التناقضات الموجودة في بعض أفكارهم المحبَّبة عادةً، نوعاً من السخرية اللاذعة، اعتقد الماركسيُّون الجيّدون أنَّ ثورة البروليتاريا كانت حتميَّة، لكن إذا كان الأمر كذلك، فلماذا كانوا حريصين على تجنيدنا لصالح قضيَّتهم؟ إذا كانت الثورة ستحدث على أيَّة حال، فستحدث بمساعدتنا أو من دونها، لكن بالطبع الحتميَّة التي يؤمن بها الماركسيُّون تعتمد على نموِّ الحركة وكلِّ نشاطها السياسي.

كان هناك ماركسيُّون يعملون بجدٍّ لإحداث الثورة، وكان من المريح لهم أن يعتقدوا أنَّ نجاحهم مضمونٌ على المدى الطويل، والبعض منهم، الوحيدون الذين كانوا خطرين حقّاً، آمنوا بشدَّةٍ بقضيَّتهم، حتَّى أنَّهم اعتقدوا أنَّه من الجائز الكذب والخداع من أجل تعزيزها، حتَّى أنَّهم علَّموا هذا لأطفالهم منذ الطفولة. هؤلاء هم «أطفال الحفَّاضات الحمراء»،

أطفال أعضاء متشدّدين في الحزب الشيوعي الأمريكي، وبعضهم لايزال من الممكن العثور عليهم، وهم يؤثّرون في أجواء العمل السياسي في الأوساط اليساريَّة، ممَّا أثار إحباط وانزعاج الاشتراكيين الشرفاء، وآخرين على اليسار.

اليوم لدينا ظاهرةٌ مماثلةٌ تتشكَّل لدى تيَّار اليمين الديني: حتميَّة نهاية الأيَّام، أو الذروة، هرمجدون القادمة التي ستفصل المباركين عن الملعونين في يوم الحساب الأخير. عاش الأنبياء والطوائف مُدَّعين بأنَّ نهاية العالم وشيكةٌ منذ آلافٍ من السنين، الأمر الذي يدعو للسخرية منهم عندما اكتشفوا في الصباح التالي أنَّ حساباتهم كانت بعيدةً بعض الشيء، ولكن - كما هو الحال مع الماركسيين- هناك من بينهم من يعمل بجدٍّ «لتسريع ما لا مفرَّ منه»، وليس مجرَّد توقُّع آخر الأيَّام بفرح، ولكن القيام بعملٍ سياسي لخلق الظروف التي يعتقدون أنَّها متطلَّباتٌ لتلك المناسبة، وهؤلاء النَّاس ليسوا مسلّين إطلاقاً، إنَّهم خطيرون، للسبب نفسه الذي يجعل الأطفال ذوي الحفَّاضات الحمراء خطيرين: إنَّهمّ يضعون ولائهم لعقيدتهم قبل التزامهم بالديمقراطيَّة والسلام والعدالة (الأرضيَّة) والحقيقة، وإذا أتت اللحظة الحاسمة، فإنَّ البعض منهم على استعدادٍ للكذب وحتَّى القتل، لفعل كلِّ ما يلزم للمساعدة في تحقيق ما يعدُّونه عدالةً سماويَّةً لأولئك الذين يعدُّونهم خطأة، هل هم متطرّفون متعصّبون؟

هم بالتأكيد بعيدون عن الواقع بشكلٍ خطير، لكن من الصعب معرفة عددهم، هل أعدادهم آخذةٌ في الازدياد؟ على ما يبدو.

هل يحاولون اكتساب مناصب قوَّةٍ ونفوذ في حكومات العالم؟ على ما يبدو. هل يجب أن نعرف كلَّ شيءٍ عن هذه الظاهرة؟ بالتأكيد. المئات من مواقع الويب تزعم أنَّها تتعامل مع هذه الظاهرة، لكنَّني لست في وضعٍ يسمح لي بعدٍّ أيّ منها دقيقة، لذا لن أذكر أيَّاً منها. هذا في حدِّ ذاته مثيرٌ للقلق، ويشكّل سبباً ممتازاً لإجراء تحقيق موضوعي حول حركة نهاية الأزمنة بأكملها، ولا سيَّما الوجود المحتمل لأتباعٍ متطرّفين في مناصب السلطة في الحكومة والجيش، ماذا يمكننا أن نفعل حيال هذا؟

أقترح أنَّ القادة السياسيين الذين هم في أفضل وضع للدعوة إلى الكشف الكامل عن هذا الاتجاه المزعج، هم أولئك الذين لا يمكن الطعن في أوراق اعتمادهم من قبل أولئك الذين يخشون الملحدين أو "البارعين": أعضاء مجلس الشيوخ والكونغرس الأحد عشر الذين هم أعضاء في «مؤسَّسة العائلة» «Family» (أو«Fellowship Foundation»)، وهي منظَّمةٌ مسيحيَّةٌ سرّيَّة كانت مؤثّرةً في واشنطن العاصمة لعقودٍ من الزمان: أعضاء مجلس الشيوخ تشارلز جراسلي (جمهوري ، أيوا) ، بيت دومينيسي (جمهوري ، نيو مكسيكو) ، جون إنساين (جمهوري ، نيفادا) ، جيمس إنهوف (جمهوري ، أوكلاهما) ، بيل نيلسون (ديمقراطي ، فلوريدا) ، كونرادبيرنز (جمهوري ، مونت) ، والنواب جيم ديمينت (جمهوري ، ساوث كارولاينا) ، فرانك وولف (جمهوري، فيرجينيا) ، جوزيف بيتس (جمهوري، بنسلفانيا) ، زاك وامب (جمهوري ، تينيسي) ، وبارت ستوباك (ديمقراطي ، ميشيغان).

كذلك قادة العالم الإسلامي غير المتعصّبين الذين يعوِّل عليهم العالم لتطهير الإسلام من الإفراط السَّام، يملك المسيحيُّون غير المتعصّبين التأثير والمعرفة والمسؤوليَّة لمساعدة الأمَّة على حماية نفسها من أولئك الذين يخونون ديمقراطيَّتنا من خلال السعي لتحقيق أجنداتهم الدينيَّة.

نظراً لأنَّنا بالتأكيد لا نريد إحياء المكارثيَّة في القرن الحادي والعشرين، يجب أن نتعامل مع هذه المهمَّة بأقصى قدرٍ من المساءلةِ العامَّة والإفصاح، بروح مؤيّدي الحزبين، وفي ضوء الاهتمام العامِّ الكامل، لكن بالطبع هذا سيتطلَّب منَّا كسر المحظور التقليدي ضدَّ الاستفسار بصراحةٍ وبعينٍ فاحصة للانتماءات والمعتقدات الدينيَّة.

لذا، في النهاية، فإنَّ توصيتي المركزيَّة المتعلّقة بالسياسة، هي: أنّ نعلّم النَّاس في العالم بصدقٍ وبحزم، حتَّى يتمكَّنوا من اتّخاذ قراراتٍ مستنيرةٍ بشأن حياتهم. إنَّ فرض الجهل أمرٌ مخزٍ، لا يقع اللوم على معظم النَّاس في جهلهم، ولكن إذا قاموا بتمريره عن عمد، فإنَّ اللوم يقع على عاتقهم، وقد يعتقد المرء أنَّ هذا الأمر واضحٌ جدَّاً، لدرجة أنَّه لا يحتاج إلى اقتراح، ولكنَّ هناك مقاومةً كبيرةً له في كثيرٍ من الأوساط. يخاف النَّاس من أن يكونوا أكثر جهلاً

من أطفالهم، خاصَّةً بناتهم على ما يبدو، سيتعيَّن علينا إقناعهم بأنَّ هناك القليل من الملذَّات الأكثر شرفاً وسعادةً من تلقِّي تعليماتٍ من أطفالك، وسيكون من الرائع رؤية المؤسَّسات والمشاريع التي سيبتكرها أطفالنا، بناءً على الأسس التي بنتها الأجيال السابقة وحافظت عليها، لتنقلنا جميعاً بأمانٍ إلى المستقبل.

الملحق أ

الناسخات الجديدة

[انظر ص. 81، للسياق. أعيد طبعه بإذنٍ من موسوعة التطور (أكسفورد: دار نشر جامعة أكسفورد، 2002).]

لقد كان من الواضح منذ فترةٍ طويلة أنَّ عملية الانتقاء الطبيعي، من حيث المبدأ، محايدة الركيزة: سيحدث التطوُّر في أيّ وقت، وفي أيّ مكانٍ تتحقق فيه ثلاثة شروط:

1. النسخ المتماثل
2. الاختلاف (طفرة)
3. اللياقة التفاضلية (المنافسة)

وفقاً لمصطلحات داروين الخاصَّة، إذا كان هناك «سلالة [1] مع تعديل [2]» و «صراعٌ شديدٌ من أجل الحياة» [3]، فإنَّ الأحفاد المجهَّزين تجهيزاً أفضل سيزدهرون على حساب المنافسين. نحن نعلم أنَّ ركيزةً ماديَّةً وحيدة، الحمض النووي (مع الأنظمة المحيطة به للتعبير الجيني والتطوُّر)، تؤمّن الشرطين الأولين للحياة على الأرض، والشرط الثالث مؤمَّنٌ بمحدوديَّة الكوكب، وكذلك بشكلٍ أكثر مباشرة من خلال تحدّياتٍ بيئيَّةٍ غير محسوبة، لكننا نعلم أيضاً أنَّ الحمض النووي قد تغلَّب على الاختلافات المبكرة التي تركت آثارها

ونماذجها المتجددة، مثل فيروسات الحمض النووي الريبي والبريونات[1]. هل نشأت على هذا الكوكب أيّ ركائزَ تطوُّريَّةٍ مختلفةٍ تماماً؟ أفضل المرشَّحين هم بنات الأفكار، المخطَّط أو غير المخطَّط لها، لنوعٍ واحد، الإنسان العاقل (Homo sapiens).

اقترح داروين نفسه كلماتٍ كمثال: «إنَّ البقاء أو الحفاظ على بعض الكلمات المفضَّلة في الصراع من أجل الوجود، هو انتقاءٌ طبيعي» (أصل الإنسان، 1871، ص 61) يتمُّ نطق بلايين الكلمات (أو تسجيلها) كلَّ يوم، وكلُّها تقريباً عبارةٌ عن نُسخٍ طبق الأصل من الكلمات السابقة التي يتصوَّرها نَاطقُوها- بمعنى ما سيتمُّ مناقشته أدناه. النسخ المتماثل ليس مثاليّاً، وهناك العديد من الفرص للتغيُّر أو التغيير في اللفظ أو التصريف أو المعنى (أو التهجئة، في حالة الكلمات المكتوبة)، إضافةً إلى ذلك، يتمُّ عزل الكلمات تقريباً في سلالاتٍ من سلاسل النسخ المتماثل؛ على سبيل المثال، يمكننا تتبّع أحفاد كلمةٍ ما من اللاتينيَّة إلى الفرنسيَّة إلى الكاجونس[2]. تتنافس الكلمات على وقت البثّ ومساحة الطباعة في العديد من وسائل الإعلام، مع كلماتٍ عفا عليها الزمن، وسقطت من مجمع الكلمات، بينما تظهر الكلمات الأخرى وتزدهر، نكتشف أنَّ هناك نطقان محتملان لكلمة controversy: أحدهما يشدّد على (CONtroversy)-con وبينما يشدِّد النطق الآخر على المقطع trov (controversy)-. النطق الأول هو الأكثر تقليديَّة، لكنَّ الأخير أصبح الآن أكثر انتشاراً في اللغة الإنجليزيَّة البريطانيَّة، في حين أنَّ المعنى الأصلي لـ «يطرح السؤال» "begs the question" يُستبدل في بعض الأوساط بتهجئةٍ مختلفة. تمَّت دراسة التغييرات التَّاريخية التي يمكن اكتشافها في اللغات من منظورٍ دارويني أو آخر منذ أيَّام داروين، ويُعرف الكثير عن أنماط النسخ والتباين والمنافسة في العمليَّات التي أسفرت عن اللغات

(1) البريون أو الجزيئات البروتينية المسبّبة للعدوى أو جسيم مُعْدٍ بروتيني بالإنجليزية: proteinaceous infectious particle بروتينات معتلّة تميّز العديد من الأمراض العصبية المميتة في كلٍّ من الحيوانات والبشر

(2) يعد كاجونس، المعروف أيضاً باسم أكاديين، مجموعة عرقيَّة تعيش بشكل رئيس في ولاية لويزيانا الأمريكيَّة، كما أنَّهم يعيشون في المقاطعات الكندية البحرية المكونة في جزء من أحفاد المنفيين الأكاديين الأصليين- الناطقين باللغة الفرنسية من أكاديا، فيما يعرف الآن بالجزائر البحرية في كندا الشرقية.

المتنوّعة اليوم، في الواقع، فإنَّ بعض أساليب الاستقصاء في علم الأحياء التطوُّري الحديث وفي المعلوماتيَّة الحيويَّة، على سبيل المثال، تنحدر نفسها من أبحاث ما قبل الداروينيَّة التي أجراها علماء الكتابات القديمة، وغيرهم من الباحثين الأوائل في فقه اللغة التَّاريخي، كما لاحظ داروين: «إنَّ تكوين لغات مختلفة وذات أنواع متمايزة والأدلة على أن تطويرهما جرى من خلال عملية تدريجية هو نفس الأمر بشكل مثير للفضول» (1871، ص 59).

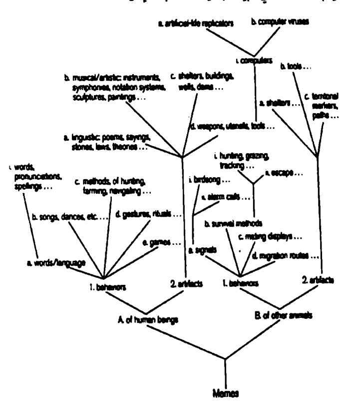
ومع ذلك، فإنَّ اللغات والكلمات التي تملأها ليست المتغيّرات الوحيدة المنقولة ثقافيّاً التي تمَّ اقتراحها، فقد تمَّ تعريف الأفعال والممارسات البشريَّة الأخرى التي انتشرت عن طريق التقليد كناسخاتٍ محتملة، مثل امتلاك البشر لبعض عادات الحيوانات غير البشريَّة.

إنَّ الركائز الماديَّة لهذه الوسائط متنوّعةٌ بالفعل، بما في ذلك الأصوات وجميع أنواع الأنماط المرئيَّة والملموسة في سلوك الكائنات الناقلة للعدوى، إضافةً إلى ذلك، غالباً ما تُنتِج السلوكيَّات مصنوعاتٍ (مسارات، ملاجئ، أدوات، أسلحة، علامات أو رموز) والتي قد تكون بمثابة نماذجَ أفضل لأغراض النسخ من السلوكيَّات التي تنتجها، وتصبح مستقرَّةً نسبيّاً بمرور الوقت، ومن ثمَّ تكون- في هذا الصدد- أسهل في النسخ، فضلاً عن كونها قابلةً للحركة والتخزين بشكلٍ مستقلّ، مثل البذور.

إحدى المصنوعات البشريَّة (الحاسوب) المعروف بقدرته الغزيرة على النسخ، قدَّم مؤخَّراً ركيزةً جديدةً مميّزة، حيث تزدهر الآن التجارب المقصودة وغير المقصودة في التطوُّر الصنعي، مستفيدةً بشكلٍ خاص من ظهور شبكاتٍ عملاقةٍ من أجهزة الحاسوب المرتبطة، التي تسمح بالانتشار السريع لوحدات الاستنساخ المصنوعة من أجزاءٍ من المعلومات فقط. إنَّ هذه الفيروسات الحاسوبيَّة هي ببساطة متوالياتٌ من الأرقام الثنائيَّة التي يمكن أن يكون لها تأثيرٌ على النسخ المتماثل الخاصّ بها، ومثل فيروسات الجزيئات الكبيرة، تتنقل بخفَّة، فهي ليست أكثر من حزم معلومات بما في ذلك تغطيةٌ ظاهريَّة تميل إلى تمكينها من الوصول إلى آلات النسخ أينما واجهتها، وأخيراً، يطمح الباحثون في المجال الجديد للحياة الاصطناعيَّة إلى إنشاء عوامل افتراضيَّة (محاكاةٍ مجرَّدة) وحقيقيَّة (روبوتيَّة) ذاتيَّة الاستنساخ

يمكنها الاستفادة من الخوارزميَّات التطوُّريَّة لاستكشاف المشاهد العامَّة التكيُّفيَّة التي تقع فيها، إنشاء تصميماتٍ محسَّنة من خلال العمليَّات التي تلبّي الشروط المحدَّدة الثلاثة، مع الاختلاف عن أشكال الحياة القائمة على الكربون بطرقٍ مذهلة، وفي حين أنَّ هذه الظواهر قد تبدو للوهلة الأولى مجرَّد نماذج لكياناتٍ متطوِّرة، تزدهر في بيئاتٍ مصمَّمة، فإنَّ الحدود بين عرضٍ تجريدي وتطبيقٍ في العالم الحقيقي يمكن تجاوزه بسهولةٍ بواسطة هذه الظواهر التطوُّريَّة أكثر ممَّا يفعل الآخرون، على وجه التحديد بسبب حياديَّة الركيزة للخوارزميَّات التطوُّريَّة الأساسيَّة.

يمكن للناسخات الذاتيَّة الاصطناعيَّة الهروب من بيئاتها الأصليَّة على حواسيب الباحثين، لتعيش «حياتها» الخاصَّة في البيئة الجديدة الخصبة للإنترنت.



تصنيف بسيط للناسخات الجديدة:

يمكن ملاحظة أنَّ كلَّ هذه الفئات من الناسخات المتماثلة الجديدة تعتمد- مثل الفيروسات- على آليَّةٍ استنساخيَّةٍ تمَّ إنشاؤها والحفاظ عليها بشكلٍ مباشر أو غير مباشر، من خلال العمليَّة الأصليَّة للتطوُّر البيولوجي. إذا انقرضت جميع أشكال حياة الحمض النووي، فإنَّ جميع عاداتها وعاداتها المتحوِّلة، ومصنوعاتها ومصنوعاتها المتحوِّلة، ستفنى معهم حالاً، مفتقرةً للموارد (كلٍّ من الآلات والطاقة لتشغيل الآلات) لكي تتكاثر بمفردهم. قد لا تكون هذه ميزةً دائمةً للكوكب، ففي الوقت الحالي، تتطلَّب شبكاتنا الحاسوبيَّة ومرافق تصنيع وإصلاح الروبوتات إشرافاً وصيانةً مكثَّفين من قبلنا، ولكن كما اقترح عالم الروبوتات هانز مورافيك (1988): فإنَّ المعدَّات الإلكترونيَّة (أو الضوئيَّة) القائمة على السيليكون يمكن أن تصبح ذاتيَّة الاستدامة وذاتيَّة التكاثر بالكامل، ملغيةً اعتمادها على منشئيها المعتمدين على الكربون. هذا الاحتمال المستبعد والبعيد ليس شرطاً للتطوُّر أو للحياة نفسها، ومع ذلك يعتمد الاستنساخ الذاتي والصيانة الذاتيَّة لدينا كلِّيّاً على مليارات البكتيريا التي من دونها ستفشل عمليَّات الأيض لدينا، إذا اضطرَّ أحفادنا المصنَّعون بالمثل إلى استعباد جيوشٍ من أحفادنا البيولوجيين للحفاظ على أنظمتهم قيد التشغيل، فلن ينتقص ذلك من ادّعائهم بأنَّهم جنودٌ جددٌ على شجرة الحياة.

كما هو الحال مع العديد من التصنيفات في نظريَّة التطوُّر، هناك خلافاتٌ وألغاز حول كيفيَّة رسم الفروع وكيفيَّة تسميتها، بعض هذه الألغاز موضوعيَّة، والبعض الآخر مجرَّد خلافاتٍ حول المصطلحات التي يجب استخدامها. صاغ عالم الحيوان ريتشارد دوكينز مصطلح «ميم» «meme» في فصلٍ من كتابه الصادر عام 1976، The Selfish Gene الجين الأناني، وقد انتشر هذا المصطلح، افتتح نقاشه حول تلك «الناسخات الجديدة» بمناقشة تغريد العصافير، لكنَّ الآخرين الذين تبنُّوا المصطلح أرادوا قصر الميمات على الثقافة الإنسانيَّة. هل ينبغي أيضاً تسمية تقاليد حيوانيَّةٍ متطوِّرة مثل صيحات الإنذار وطرق بناء العش وأدوات الشمبانزي بالميمات؟ قاوم الباحثون الذين ركَّزوا على انتقال الثقافة في الحيوانات، مثل John

Tyler Bonner (1980) و Eytan Avital و Eva Jablonka (2000)، المصطلح، بينما اختار الباحثون الآخرون الذين كتبوا عن التطوُّر الثقافي البشري، مثل Luigi Luca Cavalli-Sforza وMarcus Feldman (1981)، روبرت بويد وبيتر ريتشرسون (1985) استخدام مصطلحات بديلة، ولكن نظراً لأنَّ كلمة «meme» قد ضمنت موطئ قدمٍ في اللغة الإنجليزيَّة، فقد ظهرت في أحدث إصدارٍ من قاموس أكسفورد الإنجليزي مع تعريفها (أي عنصرٌ ثقافيٌّ يمكن اعتباره متوارثاً بوسائل غير وراثية). قد نستقرُّ على هذا المصطلح بشكلٍ ملائم لكونه المصطلح العام لأيِّ ناسخٍ قائمٍ على الثقافة، إذا كان كذلك، يجب على أولئك الذين يشعرون بالحيرة تجاه استخدام مصطلحٍ ما تزال ظروف هويَّته محاصرةً للغاية، أن يذّكروا أنفسهم بأنَّ خلافاتٍ مماثلة ما تزال مستمرةً حول كيفيَّة تعريف نظيرها (الجين)، وهو مصطلحٌ قد توصي قلَّةٌ من الباحثين بالتخلّي عنه.

إذن، لا تشمل الميمات تقاليد الحيوانات فقط، ولكن أيضاً الناسخات المتماثلة المعتمدة على الحاسوب، لسببين: لا تعتمد أجهزة الحاسوب وصيانتها وتشغيلها على الثقافة البشريَّة فحسب، بل إنَّ الحدود بين الفيروسات الحاسوبيَّة والميمات البشريَّة التقليديَّة قد تمَّ بالفعل طمسها، في الواقع، تحمل الفيروسات الحاسوبيَّة البسيطة تعليمة «copy me»، والتي يتمُّ توجيهها إلى الحاسب - بلغة الآلة- وهي غير مرئيَّة تماماً لمستخدم الحاسوب. مثل السموم التي يتمُّ تناولها عن غير قصد من قبل الأشخاص الذين يصطادون ويأكلون أسماك المياه العذبة، فإنَّ مثل هذا الفيروس الحاسوبي، على الرَّغم من كونه عنصراً من بيئة المستخدمين، فإنَّه يمكن القول: إنَّه ليس جزءاً من بيئتهم الثقافيَّة، ومع ذلك فإنَّ مثل هذه الفيروسات الحاسوبيَّة «الخطيرة» على الأقل، بقدر ما هي واسعة الانتشار وخبيثة، فإنَّها تحذيراتٌ مزيَّفةٌ من فيروسات حاسوبيَّة، موجَّهةٍ إلى مستخدم الحاسوب، باللغة الطبيعيَّة، وهذه الفيروسات، التي تعتمد بشكلٍ مباشر على ناقلٍ بشري مدرك (ولكن مخدوع) لتنسخ نفسها على الإنترنت، هي بالتأكيد ضمن الفهم المقصود للميمات، والحالات الوسيطة هي فيروسات الحاسوب التي تعتمد على حثِّ المستخدمين البشريين على فتح روابط (ممَّا يؤدّي إلى تشغيل تعليمات النسخ غير المرئيَّة) من خلال الوعد ببعض المحتويات المسلّية أو المثيرة.

تعتمد هذه الفيروسات، أيضاً، على الإدراك البشري؛ فيروسٌ واحدٌ مكتوب باللغة الألمانيَّة لن ينتشر بسهولةٍ على أجهزة الحاسوب لمتحدثي اللغة الإنجليزيَّة أحاديي اللغة (قد يتغيَّر هذا النمط إذا استفاد المستخدمون بانتظام من خدمات الترجمة عبر الإنترنت).

في سباق التسلُّح بين الفيروسات وبرامج مكافحة الفيروسات، من المتوقَّع حدوث المزيد من الاستغلال الأكثر تفصيلاً للاهتمامات البشريَّة، لذلك يبدو من الأفضل تضمين كلِّ هذه النسخ المتماثلة تحت عنوان الميمات، مع ملاحظة أنَّ بعضها يَستخدم فقط بشكلٍ غير مباشر ناقلين بشريين، ولذلك فهي فقط عناصر غير مباشرةٍ للثقافة الإنسانيَّة.

لقد بدأنا في رؤية هذه الحدود المليئة بالثغرات تتقاطع في الاتجاه الآخر أيضاً: كان صحيحاً أنَّ النسخ التفاضليَّ لمثل هذه الميمات الكلاسيكيَّة - مثل الأغاني والقصائد والوصفات- يعتمد على فوزهم في المنافسة على الإقامة في أدمغة البشر، ولكن الآن فإنَّ العديد من محرّكات البحث على الويب قد أقحمت نفسها بين المؤلّفين وجمهورهم (البشري)، تتنافس مع بعضها البعض على السمعة كمصادرَ عالية الجودة للعناصر الثقافيَّة، ويمكن أن تتراكم اختلافاتٌ كبيرةٌ في اللياقة بين الميمات بشكلٍ مستقلٍّ عن أيِّ تقديرٍ أو إدراكٍ إنساني بالمطلق. قد يأتي قريباً اليوم الذي يتمُّ فيه فهرسة عبارة (مستخدمة بذكاء) في كتاب بواسطة العديد من محرّكات البحث، وعندئذٍ تدخل اللغة بوصفها عبارةً رائجةً جديدة، دون أن يقرأ أيُّ شخصٍ الكتاب الأصلي.

مشكلات التصنيف والتمييز:

بعض مشكلات التصنيف جوهريَّة، وتعتمد جزئيّاً على الحقائق التَّاريخيَّة غير الراسخة، والبعض الآخر مشكلاتٌ تكتيكيَّة للمُنظِّر: ما هي أقسام الظواهر التي ستثبت أنَّها أكثر وضوحاً، هل انحدرت جميع فيروسات الحاسوب بشكلٍ خطير من أولى الغزوات في الحياة الاصطناعيَّة، أم ينبغي على الأقلّ أن يظهر بعضها على أنَّه ينشأ بشكلٍ مستقلٍّ عن تلك الحركة الفكريَّة؟ ليس كلُّ قراصنة الحاسوب قراصنة حياة اصطناعيَّة، ولكن هناك

أيضاً سؤالٌ تكتيكيٌّ من دون إجابة حول كيفيَّة تمييز ما يتمُّ نسخه، إذا حصل أحد الهاكرز على الفكرة العامَّة لفيروس حاسوب من شخصٍ آخر، ثمَّ قام بصنع نوعٍ جديدٍ تماماً من فيروسات الحاسوب، فهل سيكون هذا الفيروس الجديد سليل الفيروس الذي ألهم إنشائه مع بعض التعديلات، ماذا لو قام الهاكر بتكييف عناصر التصميم الأصلي للفيروس ضمن النوع الجديد، ما مقدار النسخ غير الواعي الذي يجب أن يكون موجوداً، أو بدلاً من ذلك، مقدار الإلهام المدرك الذي قد يكون موجوداً في حالة النسخ المتماثل؟ المزيد حول هذا السؤال أدناه، هل هناك نسخ ميمات عبر الأنواع في عالم الحيوان؟ تبني الدببة القطبية وكراً يتضمَّن رفّاً ثلجيّاً مرتفعاً يسمح للهواء البارد بالخروج من الفتحة المنخفضة للوكر، هل هذا الاتجاه الحكيم في تكنولوجيا القطب الشمالي فطريٌّ تماماً (الآن)، أم أنَّه يجب على أشبال الدببة أن تقلّد نماذج أمهاتهم؟ تمَّ العثور على الجرف الثلجي نفسه في كوخ الإسكيمو أو كوخ كوينسي، هل نسخ الإنيوت[1] هذا التقليد من الدبِّ القطبي، أم أنَّه اختراعٌ مستقلّ، هل حدث أن بدأ أحد الأنواع في الاستجابة لصيحات الإنذار من نوعٍ آخر، ثمَّ طوَّر تقليداً خاصَّاً به صيحة الإنذار، هل ينتشر ميم صيحة الإنذار من أنواع إلى أخرى، أم يجب أن نعدَّ صيحات الإنذار بين الأنواع وأشكالها المختلفة سلالاتٍ مستقلَّةً تماماً؟

يؤدّي تفاقم هذه المشكلات إلى مشكلاتٍ أخرى تتعلَّق بتمييز الميم: هل ينبغي اعتبار كلمة «رياضة ركوب الأمواج» (الإنجليزيَّة) متميِّزة عن ميم «التصفُّح» (لغة محايدة)، هل هما ميمٌ أم اثنتان، هل تُحسب الأنماط، مثل البانك[2] والغرونج[3]، على أنَّها ميمات، قبل

(1) هم مجموعة من الشعوب الأصلية المتشابهة ثقافيا التي تعيش في المناطق القطبية الشمالية وشبه القطبية في جرينلاند ولابرادور وكيبيك ونونافوت والأقاليم الشمالية الغربية وألاسكا. لغات الإنويت هي جزء من لغات الإسكيمو-أليوت، والمعروفة أيضا باسم الإنويت-يوبيك-أونانغان، وأيضا باسم إسكاليوت. لغة إشارة الإنويت هي لغة معزولة مهددة بالانقراض تستخدم في نونافوت.

(2) موسيقى البانك روك، نوع موسيقي نشأ في السبعينيات ومرتبط بأنواع فرعية مختلفة.

(3) الجرونج (يشار إليه أحياناً باسم صوت سياتل) هو نوعٌ بديلٌ من موسيقى الروك، وثقافة فرعيَّةٌ ظهرت خلال منتصف الثمانينيَّات في ولاية واشنطن شمال غرب المحيط الهادئ الأمريكيَّة، لا سيَّما في سياتل والمدن المجاورة. يدمج الجرونج عناصر من موسيقى الروك البانك والهيفي ميتال، ولكن من دون هيكل وسرعة البانك. تميّز هذا النوع بصوت الجيتار الكهربائي المشوَّه المستخدم في كلا النوعين، على الرَّغم من أنَّ بعض

أن يكون لها أسماء؟ ولِمَ لا، لا شكَّ بأنَّ توحيد القوى مع اسم ميم هو ميزة لياقة ممتازة لأي ميم تقريباً. (قد يكون الاستثناء عبارةً عن ميمٍ يعتمد على الانتشار بشكلٍ خفّي؛ قد يؤدّي صوغ اسم ميم، مثل الشوفينيَّة الذكوريَّة، في الواقع إلى إعاقة انتشار الشوفينيَّة الذكوريَّة عن طريق تحفيز شيءٍ مثل ردِّ الفعل المناعي في النواقل المحتملة)، لأنَّه بمجرَّد أن يصبح أيُّ ميمٍ بشري بارزاً بدرجةٍ كافية في البيئة ليتمَّ تمييزه، فسيتمُّ تسميته بناءً على ذلك من قبل أحد مميِّزيه، ورابطاً بإحكامٍ بين الميمين بعد ذلك: الاسم والمسمّى، اللذان عادةً ما يكون لهما مصيرٌ مشترك، ولكن ليس دائماً. (تشمل الخصائص الموسيقيَّة التي يمكن تمييزها على أنَّها موسيقى البلوز العديد من الأمثلة القويَّة التي لا يطلق عليها أولئك الذين يعزفونها ويستمعون إليها اسم موسيقى البلوز) يمكن أيضاً أن تزدهر الميمات غير المعروفة، فعلى سبيل المثال، يمكن للتغييرات في نطق أو معنى كلمةٍ ما أن تنتقل إلى التثبيت في مجتمعٍ كبير قبل أن يلاحظها أيُّ لغوي مرهف السمع، أو أيُّ مراقبٍ ثقافي آخر، هناك عددٌ ليس بالقليل من النَّاس - الكوميديين وعلماء الأنثروبولوجيا وعلماء الاجتماع الآخرين - الذين يكسبون رزقهم من الكشف والتعليق على الاتجاهات المتطوِّرة في الأنماط الثقافيَّة التي لم يتمَّ تقديرها حتَّى الآن إلَّا على استحياء في أحسن الأحوال.

إلى أن يتمَّ حلُّ هذه المشكلات وغيرها من مشكلات التوجُّه النظري الأولي، فإنَّ الشكوك حول الميمات ستظلُّ منتشرةً وصادقة.

يعارض العديد من المعلّقين بشدَّة أيَّ مقترحاتٍ لإعادة صياغة الأسئلة في العلوم الاجتماعيَّة والإنسانيَّة بمصطلحات التطوُّر الثقافي، وغالباً ما يتمُّ التعبير عن هذه المعارضة بواسطة التحدّي المتمثّل في إثبات وجود «الميمات»:

الفرق الموسيقيَّة تؤدّي بتركيزٍ أكبر على أحدهما أو الآخر في مثل هذه الأنواع. يستخدم الجرونج عادةً الجيتار الكهربائي، والغيتار الجهير، والطبول والغناء، ويضمُّ Grunge أيضاً تأثيرات من فرق موسيقى الروك المستقلّة مثل Sonic Youth. عادةً ما تكون الأغاني مليئة بالقلق والاستبطان، وغالباً ما تتناول موضوعات مثل الاغتراب الاجتماعي، والشكّ الذاتي، والإساءة، والإهمال، والخيانة، والعزلة الاجتماعيَّة والعاطفيَّة، والصدمات النفسيَّة، والرغبة في الحرّيَّة.

الجينات موجودة [هذا ما منحنا أيّاه هؤلاء النقّاد] ولكن ما هي الميمات، ممَّ تتكون الميمات؟ الجينات مصنوعةٌ من الحمض النووي، لكن هل الميمات مصنوعةٌ من أنماط عصبيَّة في أدمغة الأشخاص المثقَّفين، وما هي المادة الأساسيَّة لهذه الميمات؟

هناك بعض مؤيّدي الميمات الذين جادلوا لصالح محاولة التعرُّف على الميمات ذات البنى الدماغيَّة المحدَّدة، وهو مشروعٌ ما يزال مجهول الملامح تماماً بالطبع، ولكن وفقاً للفهم الحالي لكيفيَّة تخزين الدماغ للمعلومات الثقافيَّة، فمن غير المرجَّح أن يتمَّ عزل أيّ بنىً دماغيَّة مشتركة يمكن تحديدها بشكلٍ مستقلٍّ في أدمغةٍ مختلفة، بوصفها الركيزة الماديَّة لميمٍ معيّن.

في حين أنَّ بعض الجينات المستخدمة في تكوين العيون يمكن التعرُّف عليها سواءً كانت موجودةً في جينوم ذبابةٍ أو سمكةٍ أو فيل، فلا يوجد سببٌ وجيهٌ لتوقُّع أنَّ الميمات الخاصَّة بارتداء النظَّارات ثنائيَّة البؤرة يمكن عزلها بالمثل في الأنماط العصبيَّة في الأدمغة، ومن غير المحتمل تماماً، أنَّ دماغ بنجامين فرانكلين، الذي اخترع النظَّارات ثنائيَّة البؤرة، وأدمغة من يرتديها منَّا، يجب أن «يتهجَّى» فكرة النظَّارات ثنائيَّة البؤرة في رمزٍ دماغي مشترك، إلى جانب ذلك، فإنَّ هذا المسار المتخيّل للاحترام العلمي يقوم على تشبيهٍ خاطئ. في كتابه الصادر عام 1966(التكيُّف والانتقاء الطبيعي) قدَّم المنظِّر التطوُّريُّ جورج ويليامز تعريفاً مؤثِّراً للجين على أنَّه: «أيَّة معلوماتٍ وراثيَّةٍ يكون لها تحيُّز اختيارٍ مواتٍ أو غير مواتٍ يساوي عدَّة مرَّات معدَّل التغيير الداخلي»، وكما أكَّد في كتابه الصادر عام 1992، «الانتقاء الطبيعي: المجالات والمستويات والتحدّيات»، فإنَّ «الجين ليس جزيء DNA؛ إنَّه المعلومات القابلة للنسخ التي يشفّرها الجزيء» (ص 11).

الجينات والوصفات الجينيَّة، كلُّها مكتوبةٌ في الوسط المادّي للحمض النووي، باستخدام لغةٍ أساسيَّةٍ واحدة، الأبجديَّة النوكليوتيديَّة للأدينين، والسيتوزين، والجوانين، والثايمين، ترمز ثلاثة توائمَ منها للأحماض الأمينيَّة، لنفترض أنه تم إتلاف كلِّ خيطٍ من الحمض النووي للجدري في العالم؛ فإذا تمَّ الحفاظ على جينوم الجدري (تمَّت ترجمته من النيوكليوتيدات إلى الأحرف A وC وG وT وتخزينها على أقراصٍ صلبة على أجهزة الكمبيوتر، على سبيل المثال)،

فإنَّ الجدريَّ لا ينقرض حقّاً؛ يمكن أن يكون له أحفادٌ يوماً ما، لأنَّ جيناته ما تزال موجودةً على تلك الأقراص الصلبة، كما يسمّيها ويليامز «حزم المعلومات» (1992، ص 13).

الميمات، الوصفات الثقافيَّة، تعتمد بالمثل على وسيطٍ ماديّ أو آخر لاستمرار وجودها (فهي ليست سحراً)، ولكنَّ يمكنها أن تقفز من وسطٍ إلى وسط ، حيث تُترجَمُ من لغةٍ إلى لغة، ومن لغةٍ إلى رسم تخطيطي، ومن رسمٍ تخطيطي إلى تدرُّبٍ على الممارسة، وما إلى ذلك. يمكن حفظ وصفة كعكة الشوكولاتة، سواءً كانت مكتوبةً باللغة الإنجليزيَّة بالحبر على الورق، أو منطوقةً بالإيطاليَّة على شريط فيديو، أو مخزَّنةً في بنية بياناتٍ بتخطيطيّةٍ على القرص الصلب لجهاز الكمبيوتر، ونقلها، وترجمتها، ونسخها. نظراً لأنَّ برهان نجاح البودينغ هو أكلها، فإنَّ احتمالية حصول الوصفة على أيّ من نسخها الماديَّة مكرّرةً يعتمد (بشكلٍ أساسي) على مدى نجاح الكعكة، ما مدى نجاح الكعكة في عملٍ ما، في الحصول على مضيفٍ لعمل كعكةٍ أخرى؟ عادةً، ولكن الأهمُّ من ذلك، هو جعل المضيف يقوم بعمل نسخةٍ أخرى من الوصفة وتمريرها، هذا كلُّ ما يهمُّ في النهاية. قد لا تعزّز الكعكة لياقة من يأكلها، حتَّى أنَّها قد تسمّمهم، ولكن إذا استفزَّتهم بطريقةٍ ما لتمرير الوصفة، فسوف تزدهر الميم.

ربَّما يكون هذا هو الابتكار الأكثر أهمّيَّةً في النظرة المستقبليَّة المسموح بها، من خلال إعادة صياغة التحقيقات لمصطلحات الميمات: لديهم لياقتهم الخاصَّة كناسخات، بصرف النظر عن أيّ مساهمةٍ قد يقدِّمونها أو لا يقدّمونها للياقة الجينيَّة لمضيفيهم، النواقل البشريَّة. وقد صاغ دوكينز (1976) ذلك على هذا النحو: «ما لم نأخذه في الحسبان سابقاً هو أنَّ السمة الثقافيَّة ربَّما تكون قد تطوَّرت بالطريقة التي تطوَّرت بها، وذلك ببساطةٍ لأنَّها مفيدةٌ لنفسها» (ص 200 من المراجعة)، وقد صاغها عالم الأنثروبولوجيا أف. تي كلوك: «قيمة بقاء التعليم الثقافي هي وظيفته نفسها؛ هي قيمته لبقائه/ تكراره، أو نسخته المتماثلة».

أولئك الذين يتساءلون عمّا إذا كانت «الميمات موجودةً» لأنَّهم لا يستطيعون رؤية الشيء المادّي الذي يمكن أن تكونه الميم، يجب أن يسألوا أنفسهم ما إذا كانوا متشكّكين بالقدر نفسه حول ما إذا كانت الكلمات موجودةً أم لا. ممَّا تتكوّن كلمة «قطّة»؟

الكلمات هي منتجات النشاط البشري التي يمكن التعرُّف عليها وإعادة التعرُّفِ عليها؛ تأتي في العديد من الوسائط، ويمكن أن تقفز من ركيزةٍ إلى ركيزة في عمليَّة استنساخها. إنَّ مكانتهم كأشياء حقيقيَّةٍ لا يمكن بأيِّ حالٍ من الأحوال الطعن فيها من خلال تجريدهم، وفي التصنيف المقترح، فإنَّ الكلمات ليست سوى نوعٍ واحد من الميمات، والأنواع الأخرى من الميمات هي نوع الأشياء نفسها التي تمثّلها الكلمات - فقط لا يمكنك نطقها أو تهجئتها- بعض الميمات الأخرى يمكنك أن ترقصها أو تغنّيها أو تعزفها، والبعض الآخر يمكنك تتبُّعها من خلال صنع شيءٍ من مواد البناء المختلفة التي يوفّرها العالم. كلمة «قطّة» ليست مصنوعةً من بعض الحبر في هذه الصفحة، ووصفة كعكة الشوكولاتة ليست مصنوعةً من الدقيق والشوكولاتة.

لا يوجد رمز ملكيَّةٍ واحدٌ موازٍ للرمز المكوَّن من أربعة عناصرَ للحمض النووي، يمكن استخدامه لترسيخ هويَّة الميم بالطريقة التي يمكن بها إرساء الهويَّة الجينيَّة لمعظم الأغراض العمليَّة، هذا فرقٌ مهمّ، لكنَّه اختلافٌ في الدرجة؛ إذا كان الاتجاه الحالي لانقراض اللغات بوتيرتهِ الحاليَّة، ففي المستقبل غير البعيد، سيتحدَّث كلُّ شخصٍ على وجه الأرض اللغة نفسها، وسيكون من الصعب عندئذٍ مقاومة الإغراء (الذي ما يزال يتعيَّن مقاومته!) لتحديد الميمات بتسمياتها اللفظيَّة (الفريدة عمليّاً الآن)، ولكن طالما أنَّ هناك لغاتٍ متعدّدة، ناهيك عن الوسائط المتعدّدة التي يمكن فيها نسخ العناصر الثقافيَّة غير اللغويَّة، فمن الأفضل أن نلتزم بصرامةٍ بالفهم التجريدي المحايد للـ meme بوصفها «حزمةً من المعلومات، «مع الأخذ في الحسبان أنَّه لكي يحدث النسخ المتماثل عالي الدقَّة، يجب أن يكون هناك دائماً بعض» الرموز «أو غيرها. تلعب الرموز دوراً حاسماً في جميع أنظمة النسخ المتماثل عالي الدقَّة، لأنَّها توفِّر مجموعاتٍ محدودةً وعمليَّة من القواعد التي يمكن على أساسها إجراء تحريرٍ أو تدقيق لغوي غبي نسبيّاً، ولكن حتَّى في أوضح حالات الرموز، غالباً ما توجد مستوياتٌ متعدّدةٌ من المعايير.

لنفترض أنَّ تومي كتب الحروف «SePERaTE» على السبُّورة، وأنَّ بيلي «نسخها» بكتابة «separate» ، فهل هذا نسخٌ حقّاً؟ يُظهر التطبيع لجميع الأحرف الصغيرة أنَّ بيلي

لا ينسخ ما كتبه تومي بشكلٍ خاضع، ولكن تمَّ حثُّه لإجراء سلسلةٍ من الأفعال المعياريَّة والمتعارف عليها: اكتب حرف «s» و«e» وما إلى ذلك. بفضل معايير الأحرف، فإنَّ بيلي يستطيع «نسخ» كلمة تومي بأيّ حال، لكنَّه يقلّد خطأ تومي الإملائي، على عكس مولي التي «تنسخ» ما كتبه تومي بكتابة "séparate" وفق قاعدةٍ أرقى، على مستوى تهجئة الكلمات، ثمَّ تذهب سالي خطوةً أرقى، «نسخ» عبارة «separate butt equal» - كلُّ الكلمات في وضعٍ جيّدٍ في القاموس - على أنَّها «separate but equal» استجابةٌ لمعيارٍ معترفٍ به على مستوى العبارة. هل يمكننا أن نرتقي؟ نعم، أيُّ شخص، عند «نسخ» سطرٍ في وصفة طبخ: «افصل ثلاث بيضات، واخفق صفار البيض حتَّى تشكّل مخاريطَ بيضاء صلبة»، يستبدلُ «صفار البيض» بـ «بياض»، فإنَّه يعرف ما يكفي عن الطهي للتعرُّف على الخطأ وتصحيحه، إنَّ القواعد الإملائيَّة والنحويَّة المذكورة أعلاه هي حاضنة المعايير الدلاليَّة أيضاً.

يمكن أن تعيق القواعد وتساعد في عمليَّة النسخ، وقد ميّز عالم الأنثروبولوجيا دان سبيربر (2000) النسخ ممَّا يسمّيه «الإنتاج المحفّز»، ولاحظ أنَّه في النقل الثقافي «يتمُّ استكمال المعلومات التي يوفّرها الحافز بمعلوماتٍ موجودةٍ بالفعل في النظام». يميل هذا التكميل إلى امتصاص الطفرات بدلاً من نقلها، فيما يعتمد التطوُّر على وجود الطفرات التي يمكن أن تنجو من عمليَّات التدقيق اللغوي للنسخ المتماثل، ولكنَّها لا تحدّد المستوى الذي يجب أن يحدث عنده هذا البقاء. قد يتمُّ تصحيح ابتكارٍ رائعٍ في الطهي من قبل طاهٍ على درايةٍ كاملةٍ أثناء نقل الوصفة، ولكنَّ «الأخطاء» الأخرى قد تُنقَل وتُنسخ إلى أجلٍ غير مسمًّى، وفي الوقت نفسه، يجب أن يكون تصحيح الأنواع الأخرى من اللغط في المستويات الأخرى، والاستجابة لمعايير التهجئة أو غيرها، مستمرَّاً من أجل الحفاظ على عمليَّة النسخ أمينةً بما يكفي بحيث يمكن اختبار نماذج متعدّدةٍ لكلِّ ابتكارٍ في مواجهة البيئة، وكما يقول ويليامز: «يجب أن تتكاثر حزمةٌ معيَّنةٌ من المعلومات (المخطوطة) بشكلٍ أسرع ممَّا تتغيَّر، وذلك لإنتاج سلالةٍ يمكن التعرُّف عليها من خلال بعض التأثيرات التشخيصيَّة» (1992، ص 13)، يمكن التعرُّف عليها، بالنسبة للبيئة غير المركَّزة والمتغيّرة بشكلٍ مستقلّ، لذلك يمكن

أن تسفر عن أحكامٍ احتماليَّةٍ للانتقاء الطبيعي التي لديها بعض الاحتماليَّة لتحديد تكيُّفات القيمة الاصطفائيَّة المتوقَّعة.

ما مدى كبر او صغر الميم؟ النغمة الموسيقيَّة الواحدة ليست ميماً، في حين أنَّ لحناً لا يُنسى هو كذلك، لكن هل السيمفونيَّة عبارةٌ عن ميمٍ واحد، أم أنَّها نظامٌ من الميمات؟ بالطبع يمكن طرح سؤال موازٍ عن الجينات، لا يوجد نيوكليوتيد واحد أو كودون يكون جيناً، إذن، كم عدد النوتات الموسيقيَّة أو الحروف أو الشفرات التي يستغرقها الأمر؟

تتسامح الإجابة في كلتا الحالين مع حدودٍ غير واضحة: يجب أن يكون حجم الميم أو الجين كبيراً بما يكفي لحمل معلوماتٍ تستحقُّ النسخ، لا يوجد مقياسٌ ثابتٌ لذلك، ولكنَّ المجموعة الغزيرة من السوابق القضائيَّة بشأن انتهاك حقوق النشر وبراءات الاختراع، تشير إلى أنَّ الأحكام في حالاتٍ معيَّنة تشكّل توازناً موثوقاً نسبيّاً، ومستقرّاً بدرجةٍ كافيةٍ، لمعظم الأغراض.

يبدو أنَّ الاعتراضات الأخرى على الميمات تُظهر علاقةً عكسيَّةً بين الشعبيَّة والصوابيَّة، فكلَّما كانت مؤيّدةً بحماسةٍ أكبر، كلَّما قلَّت المعلومات التي تقدّمها، لقد تمَّ دحض ذلك بتأنٍ بصورةٍ متكررة من قبل المؤيّدين، لكنَّ أولئك الذين أصيبوا بالفزع من احتمال وجود روايةٍ تطوُّريَّةٍ لأيّ شيءٍ في الثقافة البشريَّة، لا يبدو أنَّهم يلاحظون ذلك. الخطأ الشائع هو أن يتخيَّل النقَّاد أنَّ الميمات يجب أن تكون مثل الجينات، أكثر ممَّا يجب أن تكون عليه من أجل تلبية الشروط الثلاثة، وقد لوحظ – على سبيل المثال– أنَّه عندما يكتسب الفرد لأول مرَّةٍ بعض العناصر الثقافيَّة التي تمَّت مواجهتها، فعادةً لا تكون تلك حالة تقليدٍ واحدة منها (إذا بدأت بممارسة ارتداء قبَّعة البيسبول الخاصَّة بي للخلف، أو أضفت كلمةً جديدةً إلى مفردات العمل الخاصَّة بي، فهل أقوم بنسخ أول حالةٍ لاحظتها إطلاقاً، أو أحدث حالة، أم أنَّني آخذ الحالة المتوسّطة بينهما؟). تعقّد حيرة الأثرياء في البحث عن والدٍ للنسل الجديد، نموذج الاستنساخ الثقافي، لكنَّه لا يستبعد– في حدِّ ذاته العمليَّة– إحدى عمليَّات النسخ، فعلى سبيل المثال، يعتمد النسخ الفائق الدقَّة لملفات الكمبيوتر في كثيرٍ من الحالات على أنظمة قراءة التعليمات البرمجيَّة لتصحيح الأخطاء، التي تسمح في الواقع لـ «قاعدة الأغلبيَّة»

بتحديد أيٍّ من عدَّة نماذجَ مرشَّحة يجب عدُّها أساسيَّة، في مثل هذه الحالات، لا يمكن تحديد وسيلةٍ واحدة للمعلومات على أنَّها المصدر، ولكنَّها اقتراحٌ للنسخ المتماثل إذا كان هناك أيُّ شيء.

إنَّ متطلَّبات داروين الثلاثة محايدةٌ من حيث الركيزة والتنفيذ على حدٍّ سواء، إلى درجة لا يتمُّ تقديرها دائماً.

هل التطور الثقافي دارويني؟

بعد تحديد هذه المشكلات غير المحلولة للتسمية والتفرُّد، يمكننا أن ننتقل إلى السؤال الأساسي والأكثر أهمّيَّة: هل يلبّي أيٌّ من هؤلاء المرشَّحين للنسخ الدارويني - بالفعل- المتطلَّبات الثلاثة، بطرقٍ تسمح للنظريَّة التطوُّريَّة بشرح الظواهر التي لا يمكن تفسيرها بالفعل بطرق نظريَّات العلوم الاجتماعيَّة التقليديَّة، أم أنَّ هذا المنظور الدارويني يقدّم فقط جمع شملٍ عديم الأهمّيَّة نسبيَّاً؟ ما يزال من المهمّ استنتاج أنَّ التطوُّر الثقافي يتَّبع المبادئ الداروينيَّة بالمعنى البسيط، بحيث لا يتعارض أيُّ شيءٍ يحدث فيه مع النظريَّة التطوُّريَّة، حتى لو كان من الأفضل تفسير الظواهر الثقافيَّة بمصطلحاتٍ أخرى. حدَّد داروين نفسه، في كتاب «أصل الأنواع»، ثلاث عمليَّات اختيار: الاختيار «المنهجي» من خلال الأعمال الحكيمة والمتعمَّدة للمزارعين، وغيرهم ممَّن يقومون بالانتقاء الاصطناعي، والاختيار «غير الواعي»، الذي شارك فيه البشر في الأنشطة التي ساهمت عن غير قصد في البقاء التفاضلي وتكاثر الأنواع، والتي غالباً ما تأخذ طريقها إلى التدجين والانتقاء «الطبيعي»، حيث لم تلعب النوايا البشريَّة أيَّ دورٍ إطلاقاً. يمكننا أن نضيف إلى هذه القائمة ظاهرةً رابعة، وهي الهندسة الوراثيَّة، حيث تلعب نيَّة وبصيرة المصمّمين البشريين دوراً أكثر بروزاً. كلُّ هذه الظواهر الأربعة داروينيَّةٌ بالمعنى البسيط، لا ينتج المهندسون الوراثيُّون أمثلةً معاكسةً لنظريَّة التطوُّر عن طريق الانتقاء الطبيعي، أكثر ممَّا قدَّمه مربُّو النباتات على مرِّ العصور؛ إنَّهم ينتجون ثماراً جديدة لثمار التطوُّر عن طريق الانتقاء الطبيعي. تعدُّ فكرة الميمات - بالمثل- بتوحيد هذه الظواهر الثقافيَّة المتنوّعة تحت منظورٍ واحد، مثل الابتكارات العلميَّة والثقافيَّة

المدروسة والحكيمة (الهندسة الميميَّة)، ومثل الإنتاجات مجهولة المؤلّف كالفولكلور، وحتّى هذه الظواهر المعاد تصميمها عن غير قصد مثل اللغات والعادات الاجتماعيَّة نفسها. مع دخولنا عصر العبث المتعمَّد، والذي يُزعم أنَّه ذو بصيرة في الجينوم الخاصّ بنا وجينومات الأنواع الأخرى، فإنَّنا نواجه احتماليَّة التفاعلات القويَّة بين التطوُّر الجيني والتطوُّر الميمي، بما في ذلك العديد من التفاعلات التي قد تنطلق دون توقُّع إطلاقاً. يتعيَّن علينا التحقيق في هذه الاحتمالات بنفس الحماسة والاهتمام بالتفاصيل التي نكرّسها للتحقيق في تطوُّر مسبّبات الأمراض القائمة على الكربون، والاختفاء السريع للحواجز الطبيعيَّة التي شكَّلت المحيط الحيوي حتّى وقتٍ قريبٍ جدّاً.

كما يجب أن نذكّر أنفسنا أيضاً أنَّه، كما أنَّ علم الوراثة السكَّانيَّة ليس بديلاً عن علم البيئة الذي يبحث في التفاعلات المعقَّدة بين الأنماط الظاهريَّة والبيئات التي تؤدّي في النهاية إلى اختلافات اللياقة التي يفترضها علم الوراثة، فلا ينبغي لأحدٍ أن يتوقَّع أن ينقلب علم الميميات الجديد، أو يحلَّ محلَّ جميع النماذج والتفسيرات الموجودة للظواهر الثقافيَّة التي طوَّرتها العلوم الاجتماعيَّة. ومع ذلك فإنَّه قد يعيد صياغتها بطرقٍ مهمَّة، وبإثارة استفساراتٍ جديدةٍ إلى حدٍّ كبير بالطريقة التي ألهمت بها الجينات سيلاً من التحقيقات في علم البيئة. تستكشف الكتب المدرجة ضمن عبارة (لمزيدٍ من القراءة) هذه الاحتمالات بشيءٍ من التفصيل، ولكنَّها ما تزال على مستوىً منهجي ونظري للغاية، في هذا الوقت، ما يزال هناك عددٌ قليلٌ فقط من الأعمال التي يمكن إدراجها على أنَّها تحقيقاتٌ تجريبيَّةٌ رائدةٌ في فروعٍ متخصّصة في علم الميمات: هال (1988)، بوكلينجتون وبيست (1997)، جراي وجوردن (2000).

مصادر لمزيد من القراءة حول الموضوع:

- Aunger, Robert, [June 2002], The Electric Meme: A New Theory of How We Think and Communicate. New York: Free Press.
- ——, ed., 2000, Darwinizing Culture: The Status of Memetics as a Science. Oxford: Oxford University Press.

- Avital, Eytan, and Eva Jablonka, 2000, Animal Traditions: Behavioural Inheritance in Evolution. Cambridge: Cambridge University Press.
- Blackmore, Susan, 1999, The Meme Machine. Oxford: Oxford University Press. Bonner, John Tyler, 1980, The Evolution of Culture in Animals. Princeton: Princeton University Press.
- Boyd, Robert, and Peter Richerson, 1985, Culture and the Evolutionary Process. Chicago: University of Chicago Press.
- Brodie, Richard, 1996, Virus of the Mind: The New Science of the Meme. Seattle: Integral Press.
- Cavalli-Sforza, Luigi Luca, and Marcus Feldman, 1981, Cultural Transmission and Evolution: A Quantitative Approach. Princeton: Princeton University Press.
- Dawkins, Richard, 1976, The Selfish Gene. Oxford: Oxford University Press.Rev. ed., 1989.
- Dennett, Daniel, 1995, Darwin's Dangerous Idea. New York: Simon & Schuster.
- ——, 2001, «The Evolution of Culture.» Monist, vol. 84, no. 3, pp. 305-24.
- ——, 2005, «From Typo to Thinko: When Evolution Graduated to Semantic Norms.» In S. Levinson and P. Jaisson, eds., Culture and Evolution. Cambridge, Mass.: MIT Press.
- Durham, William, 1992, Coevolution: Genes, Culture and Human Diversity. Stanford, Calif.: Stanford University Press. Hull, David, 1988, Science as a Process. Chicago: University of Chicago Press.
- Laland, Kevin, and Gillian Brown, 2002, Sense and Nonsense: Evolutionary Perspectives on Human Behaviour. Oxford: Oxford University Press.

- Lynch, Aaron, 1996, Thought Contagion: How Belief Spreads Through Society. New York: Basic Books.
- Pocklington, Richard, in press, «Memes and Cultural Viruses.» In Encyclopedia of the Social and Behavioral Sciences.
- Journal
- Artificial Life
- Web Journal
- Journal of Memetics. Available at http://www.cpm.mmu.ac.uk/jom-emit/.
- Other References
- Cloak, F. T, 1975, «Is a Cultural Ethology Possible?» Human Ecology, vol. 3, pp. 161-82.
- Gray, Russell D., and Fiona M. Jordan, 2000, «Language Trees Support the ExpressTrain Sequence of Austronesian Expansion.» Nature, vol. 405 (June 29, 2000), pp. 1052-55.
- Moravec, Hans, 1988, Mind Children: The Future of Robot and Human Intelligence. Cambridge, Mass.: Harvard University Press.
- Pocklington, Richard, and Michael L. Best, 1997, «Cultural Evolution and Units of Selection in Replicating Text.» Journal of Theoretical Biology, vol. 188, pp. 79-87.
- Sperber, Dan, 2000, «An Objection to the Memetic Approach to Culture.» In Robert Aunger, ed., Darwinizing Culture. Oxford: Oxford University Press.
- Williams, George, 1966, Adaptation and Natural Selection. Princeton: Princeton University Press.
- ——, 1992, Natural Selection: Domains, Levels, and Challenges. Oxford: Oxford University Press.

ملحق ب

المزيد من الأسئلة حول العلوم

[للسياق، انظر ص. 93]

1- دعوة للتحقيق:

في نظامٍ ديمقراطي مع حرّيّةٍ دينيّة، يحقُّ للنّاس أن يعلنوا أنَّ دينهم هو الدين الحقيقيُّ الوحيد، ومن ثمَّ يرفضون جميع الدعوات للدفاع عن إعلانهم، في نظامٍ ديمقراطي، نسمح أيضاً للنّاس بالاستنكاف الضميري عن الخدمة العسكريّة، لكنّنا بذلك لا نعطي أو نلمّح لإيّ تأييدٍ مهما كان لمزاعمهم. إذا رفضت وضع معتقداتك على المحكّ، فلا يمكن حقّاً إيلاء معتقداتك- مهما كانت هذه المعتقدات- أيَّ اعتبار في التحقيق الجاري الذي لا يُستخدم في التصريحات أحادية الجانب، التي لن تخضع لتدقيقٍ صارمٍ واستجوابٍ مفصَّل. سننظر بالتأكيد إلى معتقداتك (الظاهرة) على أنّها بيانات- أنت واحدٌ من النّاس الذين يقدّمون اعترافاتٍ مختلفة، ولكن لا يمكن إغراءك بوضع هذه الاعترافات على المحكّ- لكنّنا لن نرتكب خطأ اعتبار اعترافك رأياً مقدّماً كمساهمةٍ في تحقيقنا.

يُعتقد أحياناً أنَّ مثل هذا الرفض لإخضاع عقيدة المرء للتحقيق الفضولي، هو عمل ولاءٍ للجماعة الدينيّة جديرٌ بالثناء، وهو إعلانٌ إيمانيٌّ مشرّف. قد تكون من بين العديد من الأشخاص الذين يؤكّدون بفخرٍ أنَّ دينهم أكثر أهمّيّةً بالنسبة لهم من ولائهم للعائلة أو الأصدقاء أو الأمّة، أو أيّ شيءٍ آخر، يمكن أن يكون شعارك «لا تفكّر حتّى في البدائل!»،

إلَّا أنَّ التعبير عن ذلك سيكون انتهاكاً للذات، كما رأينا في الفصل الأول، هذا ما تعنيه بالقول: إنَّ دينك مقدَّسٌ بالنسبة لك.

أريد أن أضع هذا الموقف في سياقٍ أكبر: حتَّى لو كنت مقتنعاً بأنَّ دينك هو طريقٌ فريدٌ إلى الحقيقة، يجب أن تكون مهتمَّاً بمعرفة سبب شهرة جميع الديانات الأخرى حول العالم، وإذا كنت تعتقد أنَّه سيكون أمراً جيّداً أن تجلب هؤلاء الأشخاص - الذين يشكّلون غالبيَّة سكَّان العالم، بصرف النظر عن دينك - لرؤية الحقيقة كما تفعل، فعليك أن تعرف ما الغاية النظر باهتمام -كطرفٍ خارجي- إلى هذه الأديان، «لمعرفة ما الذي يجعلها علامةً فارقة». إنَّ النظر في كيف يبدو دينك لشخصٍ من الخارج سيكون أيضاً تمريناً قيّماً، أليس كذلك، لأنَّ فهم كيف يستجيب الغرباء مع ما يكتشفونه عندما يواجهونك، نادراً ما يفشل في تحسين فعَّاليتك في نقل رسالتك إلى الآخرين.

بينما ننظر إلى العالم المضطَّرب اليوم، نرى دولاً فاشلة، وعنفاً عرقيَّاً، وظلماً بشعاً ينشأ من جميع الجوانب، والسؤال الذي يتعيَّن علينا جميعاً مواجهته، هو: أيُّ قوارب نجاةٍ يجب أن نسعى جاهدين لإبقائها عائمة؟ يعتقد بعض النَّاس أنَّ الدول الديمقراطيَّة هي أفضل أملٍ للعالم، وأنَّها توفّر أكثر المنصَّات أماناً وموثوقيَّة - رغم أنَّها ليست مضمونة - على هذا الكوكب لتحسين رفاهية الإنسان ودرء الفوضى النوويَّة والإبادة الجماعيَّة، وإذا انقلبوا، فنحن جميعاً في ورطةٍ عميقة. يعتقد البعض الآخر أنَّ دياناتهم العابرة للحدود تصنع قوارب نجاةٍ أفضل، وإذا كان عليهم الاختيار بين صالح دينهم وصالح بلدهم، فإنَّهم سيختارون دون تردُّدٍ صالح دينهم، ربَّما كنت من بينهم، وبما أنه - إذا كنت تقرأ هذا الكتاب - من شبه المؤكَّد أنَّك تعيش في دولةٍ ديمقراطيَّة مع مبدأ حرّيَّة الدين، فأنت إذن في وضعٍ حسَّاس: فأنت تتمتَّع بأمان قارب النجاة الديمقراطي، بينما تحجب ولاءك النهائي عنه.

من خلال الاستفادة من الحرّيَّة التي منحتها لك أمَّةٌ تحترم حرّيَّة الدين، فإنَّك تعفي نفسك - كحقٍّ لك (مثل الاستقواء بـ«التعديل الخامس» للدستور الأمريكي[1] عند استدعائك

(1) ينصُّ التعديل الخامس لدستور الولايات المتحدة الامريكيَّة على: «لا يجوز احتجاز أيّ شخصٍ للمساءلة

للإدلاء بشهادةٍ في المحكمة) - من مساعدة مواطنيك في استكشاف مشكلة الأمن القومي والدولي ذات الأولويَّة القصوى. أنت راكبٌ مجّاني، وتعطي ولاءك لدينك الأولويَّة على واجبك تجاه مواطنيك، لحسن حظّك، هناك عددٌ كافٍ من المواطنين المتحمّسين للتعويض عن الخسارة، والحفاظ على سلامة الأمَّة، بينما تنغمس في موقفك الديني «من حيث المبدأ». وفي هذا الصدد، أنت لا تختلف عن الشيعي أو السُنّي الذي يقول في قلبه: دع العراق يهلك، إذا لزم الأمر، ما دامت طائفتي الدينيَّة تزدهر. الفرق الرئيس (وهو كبير) هو أنَّ حالة العراق غير المستقرَّة لا تمثّل (حاليًّا) في نظر أيّ شخصٍ قارب نجاةٍ صالح للإبحار، في حين أنَّ المجتمع الحرَّ الذي تعيش فيه هو - بوضوح- الضامن للأمن والحرّيَّة التي نتمتَّع بها الآن، لذلك لديك أسباب أقلُّ لحجب ولائك للأمَّة وقوانينها ممَّا لدى العراقيين.

بالنسبة للكثيرين منَّا، الثمن الذي ندفعه - قبول حكم القانون العلماني - هو أحد أفضل الصفقات على هذا الكوكب؛ إنَّ أولئك الذين وضعوا ولاءنا الأول - بشكلٍ حرج ومتردد ومشروط - لأنظمتنا الديمقراطيَّة العلمانيَّة، يعترفون بحكمةٍ بمبدأ حرّيَّة الدين، وسيدافعون عنه حتَّى عندما يتعارض بجدّيَّةٍ مع مصالحنا الخاصَّة. أولئك الذين لديهم ولاءاتٌ أخرى، والذين يرفضون تقديم هذا الالتزام يمثلون مشكلة، وليست مجرَّد مشكلةٍ نظريَّة، ففي تركيا اليوم، يحكم حزبٌ إسلاميٌّ بأغلبيَّةٍ تمكّنه من فرض الشريعة الإسلاميَّة على الأمَّة بأكملها، لكنَّه يمتنع بحكمة، بل ويذهب إلى أبعد من ذلك حتَّى أنَّه يحظر بعض ممارسات المسلمين الراديكاليين بوصفها غير متوافقةٍ مع الحرّيَّة الدينيَّة للجميع..كانت النتيجة هشَّةً ومليئةً بالمشاكل، لكنَّها تتناقض بشكلٍ كبير مع الوضع في الجزائر، حيث يستمرُّ العنف وانعدام الأمن في تدمير حياة الجميع في أعقاب الحرب الأهليَّة التي اندلعت في عام 1990، عندما

عن جريمةٍ كبرى، أو جريمةٍ شائنة، ما لم يتمّ تقديم قرار اتّهام أو لائحة اتّهام من هيئة محلَّفين كبرى، إلَّا في الحالات التي تنشأ في القوّات البرّيَّة أو البحريَّة، أو في الميليشيا، عندما يكونُ في الخدمة الفعليَّة في وقت الحرب أو الخطر العام، ولا يجوز أن يتعرَّض أيُّ شخصٍ لنفس الجريمة لتعريض حياته أو أحد أطرافه للخطر مرَّتين، كما لا يجوز إجباره في أيّ قضيَّةٍ جنائيَّة على أن يكون شاهداً ضدَّ نفسه، ولا يُحرَم من الحياة أو الحرّيَّة أو الممتلكات دون اتّباع الإجراءات القانونيَّة الواجبة، ولا يجوز الاستيلاء على الممتلكات الخاصَّة للاستخدام العامّ، دون تعويضٍ عادل».

أصبح من الواضح أنَّ الانتخابات الديمقراطيَّة ستضع في السلطة حزباً إسلاميّاً عازماً على التخلُّص من سُلَّم الديمقراطيَّة، وإقامة حكومةٍ دينيَّة.

قبل خمسين عاماً، رشَّح الرئيس أيزنهاور، تشارلز إي ويلسون، رئيس شركة جنرال موتورز آنذاك، لمنصب وزير الدفاع في حكومته، وفي جلسة الترشيح أمام لجنة القوات المسلَّحة بمجلس الشيوخ، طُلِبَ من ويلسون بيع أسهمه في جنرال موتورز، لكنَّه اعترض، وعندما سُئِلَ عمَّا إذا كانت حصَّته المستمرَّة في جنرال موتورز قد لا تؤثّر بشكلٍ غير ملائم على قراراته، أجاب: «لسنوات، كنت أعتقد أنَّ ما كان جيّداً للبلد كان جيّداً لشركة جنرال موتورز، والعكس صحيح». ركَّز البعض في الصحافة -غير الرَّاضين عن هذا الردّ- على النصف الثاني فقط من ردّه - «ما كان جيّداً لشركة جنرال موتورز هو جيّدٌ للبلد» - واستجابةً للغضب الذي أعقب ذلك، اضطرَّ ويلسون إلى بيع أسهمه من أجل الفوز بالترشيح، كان هذا درساً رائعاً حول أهمّيَّة أن تكون واضحاً بشأن الأولويَّات. حتَّى لو كان صحيحاً، مع تساوي الأشياء الأخرى، بإنَّ ما كان جيّداً بالنسبة لشركة جنرال موتورز كان جيّداً للبلد، أراد النَّاس أن يكونوا واضحين بشأن مكان ولاءات ويلسون في حال حدوث صراع، حتَّى ولو كان ذلك نادراً.

من الذي سيفيده ويلسون أكثر في تلك الظروف؟ هذا ما أثار استياء النَّاس، وهم محقُّون في ذلك، لقد أرادوا أن يكون صنع القرار الفعلي من قبل وزير الدفاع استجابةً مباشرةً للمصلحة الوطنيَّة، وإذا كانت القرارات التي تمَّ التوصُّل إليها في ظلِّ تلك الظروف الحميدة قد أفادت جنرال موتورز (ويفترض أنَّ معظمها سيفعل ذلك، إذا كانت عظة ويلسون طويلة الأمد صحيحة)، فسيكون ذلك جيّداً، لكنَّ النَّاس كانوا يخشون أن تكون أولويَّات ويلسون تسير بالاتجاه الآخر. تخيَّل الضجَّة التي كانت ستثار لو قال ويلسون: إنَّه كان يعتقد لسنوات، بصفته ميثوديَّاً جيّداً، أنَّ ما كان جيّداً للكنيسة الميثوديَّة كان جيَّداً للبلاد.

إنَّ الولاء لمبادئ المجتمع الحرِّ والديمقراطي فقط طالما أنَّها تدعم مصالح دينك هو بداية، لكن يمكننا أن نطلب المزيد، إذا كان هذا هو أفضل ما يمكنك حشده، فهذا عادلٌ بما فيه

الكفاية، ولكن يجب أن تدرك أن بقيَّة مجتمعنا على حقٍّ في رؤيتك كجزءٍ من المشكلة، هل هذا حكمٌ عادل؟ هذا الأمر مثيرٌ للجدل، وقد عَبَّرتُ عنه عمداً بعباراتٍ صارخةٍ لإظهار التناقض: إنَّها وجهة نظرٍ تستحقُّ أن تؤخذ على محمل الجدّ، مثل الإصرار الأكثر تقليديَّة - والأكثر تحيُّزاً بشكلٍ واضح- على أنَّ الاحترام العميق يرجع إلى كلِّ هذه الاعفاءات من التدقيق. غالباً ما تظهر أسئلةٌ مشابهةٌ أثناء المحاولات المسكونيَّة لحلِّ وجهات النظر المختلفة للعلم والدين، وتضع المتناقشين ذوي التفكير العلمي في مأزق: كيف يجب أن يستجيبوا؟ يتمثَّل الأسلوب المهذَّب في: الاعتراف بالاختلافات العميقة في وجهات النظر، ومحاولة إخفاء الأمور الخاطئة مع بعض التأكيدات المبتذلة على الاحترام المتبادل، لكنَّ هذا يخفي ويؤجّل النظر في عدم التماثل إلى أجلٍ غير مسمًّى: لن نعير لحظةً واحدةً اهتماماً موقَّراً لأيّ عالمٍ يتراجعُ إلى: «إذا لم تفهم نظريَّتي، فذلك لأنَّك لا تؤمن بها!» أو «فقط الأعضاء الرسميُّون في مختبري لديهم القدرة على اكتشاف هذه الآثار»، أو «التناقض الذي تعتقد أنَّك تراه في حججي هو مجرَّد علامةٍ على محدوديّة الفهم البشري»، هناك بعض الأشياء التي لا يمكن فهمها، وأيُّ إعلانٍ من هذا القبيل سيكون بمثابة تخلٍّ غير مقبول عن المسؤوليَّة كباحثٍ علمي، واعترافٍ بالإفلاس الفكري.

وفقاً لأفيري كاردينال دالاس (2004)، فإنَّ الدفاع عن الدين apologetics هو «الدفاع العقلانيُّ عن الإيمان»، وفي الماضي كان من المفترض أن يثبت بصرامةٍ أنَّ الله موجود، وأنَّ يسوعاً كان إلهاً، ووُلِدَ من عذراء، وما إلى ذلك، ولكن ذلك أصبح سيء السمعة. وقع الدفاع عن الدين تحت شبهة أنَّه وَعَدَ بأكثر ممَّا يمكنه الوفاء به، وأنَّه يتلاعب بالأدلَّة لدعم الاستنتاجات المرجوَّة، أنه لم ينجُ دائماً من الآفة التي وصفها بول تيليش بأنَّها «خيانة الأمانة المقدَّسة» [ص. 19]. إدراكاً لهذه المشكلة، نكص العديد من المتديّنين إلى مجاهرةٍ أقلّ عدوانيَّةً بمعتقداتهم، لكنَّ الكاردينال دالاس يأسف لهذا التطوُّر، ويدعو إلى تجديد وإصلاح الدفاعات.

هذا الانسحاب من الجدل، رغم كونه يبدو لطيفاً ومهذَّباً، إلَّا أنَّه انسحاب مراوغ، حيث

يصبح الدين مهمَّشاً لدرجة أنَّه لم يعد يجرؤ على رفع صوته في الأماكن العامَّة [...]، لقد أدَّى إحجام المؤمنين عن الدفاع عن إيمانهم إلى إيجاد الكثير من المسيحيين الذين يعانون من ضبابيَّة الذهن والفتور، والذين لا يهتمُّون كثيراً بما يمكن تصديقه. [ص. 20]

يحثُّ دالاس على أنَّ «الدفاع عن الدين» بحاجةٍ إلى تغيير موقفه:

«في دينٍ موحى به مثل المسيحيَّة، السؤال الرئيس هو: كيف يأتي الله إلينا ويكشف عالماً من المعنى لا يمكن لقدرات البحث البشريَّة الوصول إليه؟ الجواب، كما أقترح، هو الشهادة: الشهادة الشخصيَّة تتطلَّب نظريَّةً معرفيَّةً مختلفةً تماماً عن نظريَّة المعرفة العلميَّة، كما هو مفهومٌ بشكلٍ عام». يتعامل العالِم مع المعطى الذي سيتمُّ البحث فيه على أنَّه كائنٌ منفعلٌ يجب إخضاعه وإدخاله في الآفاق الفكريَّة للباحث، لا يتمُّ قبول التفسيرات التي يقدّمها الآخرون بالإتباع، بل يتمُّ اختبارها عن طريق الاستقصاء النقدي، لكن عندما ننتقل إلى الشهادة، سيكون الوضع مختلفاً تماماً، فالحدث هو لقاءٌ شخصي، يلعب فيه الشاهد دوراً نشطاً، ويؤثّر علينا، ودون إجبارنا بأيّ شكلٍ من الأشكال على الإيمان، يدعو الشاهد إلى الموافقة الحرَّة التي تنطوي على الاحترام والثقة الشخصيَّة. رفض الرسالة هو حجبٌ الثقة عن الشاهد، فيما قبولها هو وثوقٌ بمصداقيَّة الشاهد، نتخلَّى عن استقلاليَّتنا ونعتمد عن طيبِ خاطر على حكم الآخرين بمقدار ما نؤمن بهم. [ص. 22]

يوضّح هذا التقييم الصريح الأساس المنطقيَّ العائم الحرّ لـحركة «الشهود»، التي تتملَّص بمهارةٍ من استجواب العالِم باعتبار استجواب الشاهد بمثابة إساءةٍ وشيءٍ من الوقاحة، لا بل أسوأ من ذلك. يستغلُّ هذا التكتيك الرغبة المنتشرة لدى النَّاس في عدم الإساءة، وهو طريقةٌ فعَّالةٌ للغاية لتعطيل الجهاز النقدي للعلم، ويلاحظ دالاس بصراحةٍ مماثلة أنَّ المنهج العلميَّ يعاني من عيب، فمن منظوره التبشيري: «بصفتنا فلاسفةً أو مؤرّخين، نتعامل مع المعلومات بوصفها شيئاً غير شخصي يتمُّ وضعه ضمن توجُّه عالمنا الفكري». هذه الطريقة مفيدةٌ لتأكيد بعض المذاهب ودحض أخطاء معيَّنة، لكنَّها نادراً ما تؤدّي إلى الهداية» [ص 21]، بمعنىً آخر، استخدم الطريقة العلميَّة عندما تكون مفيدة، واستخدم طرقاً أخرى

عندما لا تكون كذلك، يسمّي العلماء هذه الممارسة بقطف الكرز، وهي خطيئةٌ علميَّة.

لم يضطرَّ أحدٌ إلى اختراع ممارسة الشهادة؛ فإنَّها تظهر فقط، وتنجح (تنجح بشكلٍ أفضل من المنافسة، في بعض الظروف)، لذلك يتمُّ تكرارها. يثني الكاردينال دالاس على هذه الممارسة، ويشرح سبب نجاحها، لكنَّه ليس مسؤولاً عنها، ولا يقتصر الأساس المنطقيُّ للشهادة بأيّ حالٍ من الأحوال على الكاثوليكيَّة. أتذكّر بوضوحٍ انزعاجي الشديد منذ بضع سنوات عندما أخبرتني طالبةٌ من الهند عن المعجزات التي شاهدت أحد رجال دينها يؤدّيها خلال إجازتها في الهند، لقد أوضحت لي بشكلٍ غير مباشر - ولكن بجلاء- أنَّني إذا شكّكت بروايتها، حتَّى على انفراد (خارج الفصل)، فسوف تشعر بالإهانة بشدَّة. لا يجب أن أفعل ذلك لطالب! ماذا أفعل؟ عندما رفعت المخاطر، أخبرتني عن الصورة التي كانت لديها في غرفة نومها، مع عسلٍ حقيقي يتدفَّق من عيون المعلّم الروحي، طلبت بفارغ الصبر أن أرى بنفسي وأتذوَّق العسل، لكن على الرَّغم من أنَّها وافقت على الفور على ترتيب الأمر لي لفحص الشيء الرائع بنفسي، لم يتمَّ توجيه دعوةٍ أخرى للتحقيق، لقد تساءلت كثيراً عمَّا إذا فكَّرت هذه الطالبة يوماً ما فيما حدث، وإذا كان الأمر كذلك، فما هي الاستنتاجات التي توصَّلت إليها، لكنَّ التأدُّب بالطبع جعلني أترك الأمر.

يطغى التأدُّب أيضاً على الغرائز المتشكّكة لدى العديد من الأشخاص المستهدفين من المحتالين المتعمَّدين، الذين يعرفون أنَّ اللعب على وتر إيذاء المشاعر يمكن أن يحيّد معظم - إن لم يكن كلَّ - الأسئلة التي قد يرغب أيُّ شخصٍ عاقلٍ في الإجابة عليها، يمكن استخدام تكتيكٍ ناجحٍ عن قصد وشراسة، ولكنَّه يمكن أن ينجح أيضاً - وأحياناً أفضل - على يد متحمّسٍ بريءٍ لا يسعى أبداً لفعل أيّ شيءٍ مراوغ.

الكاردينال دالاس مهتمٌّ بالحصول على هدايات، وكذلك العلماء، إنَّهم يقاتلون بقوَّةٍ وبراعة من أجل نظريَّاتهم المحبَّبة، لكنَّهم مقيَّدون بقواعد العلم بعدم الانخراط في ممارساتٍ تميل إلى تعطيل الملَكات النقديَّة للمضيفين المحتملين للميمات التي يريدون نشرها، ولم يتمَّ تطوير مثل هذه القواعد حتَّى الآن لتنظيم ممارسة الدين.

2- ما الذي يفسّر العلم؟

«والدين الذي يخاف من العلم يذلُّ الله وينتحر» —رالف والدو إيمرسون

ماذا عن العلم نفسه، ماذا يحدث عندما نسلّط ضوء نظريَّة التطوُّر على نفسها، على سبيل المثال، ونسأل ما هو تحالف الظروف والمكافآت التي أدَّت إلى وجودها؟ العلم بشكلٍ عام نشاطٌ بشريٌّ مكلفٌ للغاية. ما هي الرغبة الشديدة في الظلام التي قد تكون مرضية، ألا يكون لها نصيبٌ من أسلافها الدينيّين، أو تدفعها شهواتٌ محرجة؟ غالباً ما تكون الفوائد العمليَّة التي فسَّرت البحث العلمي موجودةً - بالتأكيد- ولكن ربَّما تقدَّم العلم في كثيرٍ من الأحيان من خلال فرط فضولٍ مرضي- المعرفة لذاتها، وبأيّ ثمن. هل يمكن أن يتحوَّل العلم إلى عادةٍ سيّئة لا تقاوم؟ ربَّما يكون ذلك، وكذلك الدين، دعنا نكتشف، من خلال الدراسة العلميَّة للعلم نفسه، هو تحقيقٌ جارٍ بالفعل.

لماذا نمارس العلم؟ من المؤكَّد أنَّ أدمغتنا لم تتطوَّر للقيام بفيزياء الكم أو حتَّى الانقسام المطوَّل، تبدأ الإجابة النموذجيَّة التي قد تخفي تعقيداتٍ مهمَّة، بما يمكن أن نطلق عليه محرّك الفضول الأصلي، والذي نتشاركه مع جميع الحيوانات تقريباً، والذي يركّز انتباهنا على أيّ شيءٍ جديد أو معقَّد، خاصَّةً إذا كان متحرّكاً، ويجبرنا بشكلٍ أو بآخر على فحصه (بحذر). الأساس المنطقيُّ الحرّ لهذا الأمر واضح: بصفتنا متحرّكين، فإنَّنا نقلّل من مخاطر الضرر، ونعزّز فرصنا في العثور على ما نحتاجه من خلال التطلُّع إلى ما نبحث عنه. إذا وجدنا أنَّ الأشجار فضوليَّةٌ أيضاً، فسنضطرُّ إلى إعادة التفكير في هذه الحكمة الشائعة، لكنَّ المثال الشهير هو بخُّ البحر[1] يشير إلى أنَّ المبدأ آمن، يتجوَّل بخُّ البحر الفتيُّ عبر المحيط بحثاً عن مكان جيّدٍ للاستقرار فيه، وللاسترشاد في هذه المهمَّة يحتاج إلى جهازٍ عصبي بدائي، وعندما يجد صخرةً مناسبة للتشبُّث بها لبقيَّة حياته (كمغذٍّ مرشَّح لاعنقي)، فإنَّه لا يعود بحاجةٍ إلى نظامه العصبي، فيقوم بتفكيكه وتمثّله غذائيَّاً، وهو مثالٌ حيٌّ لدعم الفرضيَّة القائلة بأنَّ

(1) بَخَّاخَاتُ البَحْر أو القَمِيصِيَّات حيواناتٌ بحريَّةٌ في شكل زجاجة، تقضي حياتها ملتصقةً بجسمٍ ثابتٍ في قاع المحيط

الفضول مكلف، وعندما لا يستطيع أنْ يبرّر نفسه من خلال توجيه الحركة، يتمُّ التخلّي عنه. كما تقول النكتة: هذا مثل وظيفة الأستاذ الجامعي، بمجرَّد حصولك عليها، فأنت حرٌّ في أن تأكل عقلك!

يجب أن يقوَّى الفضول بالحذر والاعتدال كما هو الحال دائماً، لذلك ليس مستغربا أنَّ تميل الحيوانات إلى إبداء الفضول فقط تجاه الاهتمامات البيئيَّة الأكثر إلحاحاً على الفور؛ تقوم الحيوانات العاشبة بتفحُّص النباتات المجاورة، بينما تتجاهلها الحيوانات آكلة اللحوم إلى حدٍّ كبير. تعدُّ الحيوانات التي تأكل الأعشاب واللحوم أكثر انشغالاً من الحيوانات العاشبة، على الرَّغم من أنَّ كليهما يراقب الحيوانات المفترسة، وهكذا دواليك. يُظهر أقرب أقربائنا، القردة العليا، اهتماماً متنوّعاً أكثر بكلِّ الأشياء تقريباً، ولكن حتَّى الشمبانزي المولود في الأَسْرِ، لا يهتمُّ بشكلٍ ملحوظ بكلِّ الكلام البشري الذي يسمعه من حوله منذ يوم ولادته، على الرَّغم من أنَّه من الثابت أنَّه مهمٌّ من الناحية البيئيَّة له، في ظروفه الجديدة تطوُّرياً. قد يكون اهتمام الرضيع البشري الشديد بأصوات الكلام في الواقع أحد أهمِّ الاختلافات الجينيَّة بيننا وبين الشمبانزي، لا أحد يعرف كيف يمكن أن يتطوَّر دماغ الشمبانزي الرضيع بشكلٍ مختلف، إذا كان لديه ببساطةٍ الرغبة في الاهتمام بسيل المدخلات اللفظيَّة التي يتلقَّاها نظامه السمعي، ولكنَّه يتجاهل بانتظامٍ بنفس الطريقة التي يتخلَّص بها دماغ الشمبانزي من حفيف الأوراق في مهبِّ الريح. نحن لا نعرف أيَّ عضوٍ في الجسم يقدّر مبدأ «استخدمه أو أفقده» أكثر من الدماغ، من المتصور أن تغييراً جينياً صغيراً، يؤدي، في الواقع، إلى زيادة الحجم التنافسي لفئة أصوات الكلام، قد يتحول إلى تغييرات تشريحية كبيرة في الدماغ النامي.

من غير المحتمل للغاية أن يكون مثل هذا التغيير الجيني الصغير مسؤولاً عن جميع الاختلافات بين أدمغة الشمبانزي والأدمغة البشريَّة، ولكن كان هناك على أيّ حال وقت لإتمام مجموعةٍ كاملةٍ من التعديلات الجينيَّة لجعل أدمغتنا أكثر ملاءمةً للغة من أدمغة الشمبانزي، ومهما كانت تلك الاختلافات، فإنَّها تمثّل ابتكاراً رئيساً في التَّاريخ التطوُّري، لأنَّه بمجرَّد أن تطوَّرت اللغة لم نعد فضوليين فقط، بل أصبحنا محبِّين للاستطلاع: لقد

طرحنا أسئلةً بصوتٍ عالٍ بلغة مفصليَّة. أصبحت الأسئلة عناصر واسعة الانتشار في عوالمنا الإدراكيَّة، وأثارت ردود فعل، والتي أثارت بدورها المزيد من الأسئلة، متضخّمةً من خلال تراكم المعلومات التي يمكن نقلها شفهيّاً، ثمَّ تدوينها في النهاية. في نقطةٍ واحدة على الأقلّ، تتّفق الروايات الداروينيَّة والإنجيليَّة حول كيفيَّة وصولنا إلى هنا: في البدء كانت الكلمة.

لكن مرَّ وقتٌ طويلٌ قبل أن يبدو هذا التراكم من العلم، والحكمة، والخرافات، والتَّاريخ، والأساطير، والحقائق العمليَّة، والأكاذيب المجمَّدة، وكأنَّه علم. لم يكن منهجيّاً ولا واعياً لطرقه، ولم يكن قد أولى الكثير من الاهتمام لنفسه بعد. وهذه الخطوة الانعكاسيَّة، التي تعطينا علم العلم، تاريخ التَّاريخ، فلسفة الفلسفة، منطق المنطق، وما إلى ذلك، وهي واحدةٌ من أكبر الأشواط التمكينيَّة للحضارة الإنسانيَّة، حيث تنقية المادة الخام التي حصلنا عليه من الفضول غير المنظَّم لآلاف السنين لنستخرج منها معدن البحث النقي. هل يمكنك «تحسين وضعك بجهودك الذاتية»؟ ليس دون تحدّي قانون الجاذبيَّة، لكن يمكنك فعل شيءٍ جيّدٍ تقريباً: يمكنك استخدام أساليب البحث الحاليَّة وغير الكاملة وغير المفهومة، لتحسين تلك الأساليب بالذات، وتحريض الأفكار الجيّدة ضدَّ الأفكار الأفضل، واستخدام إحساسك الحالي لمعرفة ما الذي يعدُّ فكرةً جيّدةً باعتباره دليلك المؤقَّت للتحسين. في هذا الصدد، يشبه الأمر عند الانتقال إلى بلدٍ أجنبي، اختيار عددٍ قليلٍ من المُخبِرين والثقة بهم، وحتَّى تعرف خلاف ذلك، إذا كان حظّك سيّئاً حقّاً في اختياراتك الأوليَّة، فقد ينتهي بك الأمر غالباً ضحيَّةً ومضلَّلاً بلا حول وقوَّة، وإذا كان مُخبِروك موثوقين إلى حدٍّ ما، من ناحيةٍ أخرى، يمكنك غالباً اكتشاف بعض حدود موثوقيَّتهم، والبدء في إجراء تعديلاتٍ مستهدفة. إنَّه أمر غير مضمون النجاح منطقيّاً، ولكن ماذا بعد؟ من المرجَّح أن تنجح أكثر بكثيرٍ من رمي قطعة نقود معدنية في الهواء (صورة أم كتابة)، وستتحسَّن الاحتمالات بمرور الوقت.

ضع في حسبانك المشكلة الغريبة المتمثّلة في رسم خطٍّ مستقيم، حقّاً خطٌّ مستقيم، كيف لنا أن نفعل ذلك؟ نحن نستخدم الحافَّة المستقيمة بالطبع، ومن أين حصلنا عليها؟ على مرِّ القرون، قمنا بتحسين تقنياتنا لعمل حوافٍ مستقيمة لتصبح أكثر استقامة، ونضعها في

مواجهة بعضها البعض في التجارب الخاضعة للإشراف والتعديلات المتبادلة التي استمرَّت في رفع عتبة الدقَّة، ولدينا الآن آلاتٌ كبيرةٌ تصل دقَّتها إلى جزءٍ من المليون من البوصة على طولها بالكامل، وليس لدينا صعوبةٌ في استخدام منظورنا الحالي لتقدير القاعدة التي لا يمكن تحقيقها عمليّاً، ولكن يمكن تصوُّرها بسهولةٍ للحافَّةِ المستقيمة حقّاً، اكتشفنا هذا المعيار؛ الشكل الأفلاطونيَّ الأبدي للمستقيم- إذا أردت- من خلال نشاطنا الإبداعي.[2]

سواءً كنَّا نؤرِّخ بداية العلم انطلاقاً من الهندسة المصريَّة المبكرة (حرفيّاً، قياس الأرض) أو نتَّبع تحوُّل الانبهار الديني بـ «الأجرام السماويَّة» ودورات التقويم إلى علم الفلك، فقد بدأ العلم في الاهتمام بالنقد الذاتي للأدلَّة والاستدلال الدقيق فقط قبل بضعة آلافٍ من السنين. الدين أقدم بكثير، بالطبع، على الرَّغم من أنَّ الدين المنظَّم - مع المعتقدات والتسلسل الهرمي للمسؤولين الكنسيين وأنظمة الأمور والنواهي المدوَّنة - يتزامن تقريباً مع العلم المنظَّم والكتابة، من غير المرجَّح أن تكون هذه مصادفة، يتطلَّب الأمر الكثير من حفظ السجلَّات للتغلُّب على حدود ذاكرة الدماغ البشري، وهو موضوعٌ تمَّ تناوله بمزيدٍ من التفصيل في الفصلين الخامس والسادس.

تعاون علماء الفلك والرياضيَّات مع الكهنة في البداية، حيث ساعدوا بعضهم البعض في حلِّ الأسئلة الصعبة: كم يوماً حتَّى نتمكَّن من ممارسة طقوس الانقلاب الشتوي، متى تكون النجوم في الموضع الأكثر ملاءمةً لمراسم تضحيةٍ أكثر فعَّاليَّة وأنسب؟

لذلك، من دون طرح الأسئلة من قِبَل الدين، ربَّما لم يجد العلم أبداً التمويل الذي يحتاجه للانطلاق على أرض الواقع. افترقت في الآونة الأخيرة وجهات نظر هؤلاء المتخصّصين إلى وجهات نظرٍ عالميَّةٍ متنافسة، طلاقٌ علنيٌّ ولا رجعة فيه مع بزوغ فجر العلم الحديث في القرن السابع عشر. لعب تطوُّر الأعمال الحربيَّة أيضاً دوراً مهمّاً في تطوير العلم، حيث دفعت سباقات التسلُّح فعليّاً مقابل البحث والتطوير للأسلحة والمركبات والخرائط والأجهزة الملاحيَّة وأنظمة التنظيم البشري وغير ذلك الكثير، السيوفَ قبل المحاريث- بلا شك- وقوائمَ الغنائم قبل قوائم الطيور وتصنيفات الزهور. الزراعة والتصنيع والتجارة: أنتج كلٌّ

مشروعٍ من مشاريع الحضارة الإنسانيَّة أسئلةً تحتاج إلى إجابات، وبمرور الوقت تطوَّرت تقنيات الإجابة على الأسئلة بشكلٍ منهجي وموثوق، عن طريق التطوُّر الثقافي وليس الجيني.

وهكذا ولد العلم من الدين ومشاريع الحضارة الأخرى، وهو ظاهرةٌ ثقافيَّةٌ حديثةٌ جدًّا، ولكنَّه غيّر كوكب الأرض بشكلٍ لا مثيل له في آخر خمسةٍ وستّين مليون سنة. أجرى المهندس صاحب الرؤى بول ماكريدي عمليَّةً حسابيَّةً مذهلة: منذ عشرة آلاف عام، كان البشر (بالإضافة إلى حيواناتهم الأليفة) يمثّلون أقلَّ من عُشر الواحد في المائة (بالوزن) من جميع الكائنات الحيَّة الفقاريَّة على الأرض وفي الهواء، في ذلك الوقت، كنَّا مجرَّد نوعٍ آخر من الثدييات، ولسنا نوعاً كثير العدد بشكلٍ بارز (قُدِّرَ وجود نحو ثمانينَ مليون شخصٍ في جميع أنحاء العالم)، واليوم فإنَّ هذه النسبة بما فيها الماشية والحيوانات الأليفة تقارب 98٪!.

كما يقول ماكريدي (2004):

على مدى بلايين السنين، في عالمٍ فريد، رسمت الصدفة غطاءً رقيقاً من الحياة – معقَّدةً وغير محتملةٍ ورائعة وهشَّة، فجأةً، حقَّقنا نحن البشر (النوع الذي وصل حديثاً ولم يعد خاضعاً للضوابط والتوازنات المتأصّلة في الطبيعة)، نموًّا في عدد السكَّان والتكنولوجيا والذكاء لنصل إلى اكتساب قوَّةٍ رهيبة: نحن الآن نستخدم هذه القوَّة.[3]

لذا فإنَّ العلم والتكنولوجيا التي يُنتِجها، كانا عمليَّان بشكلٍ متفجّر ومضخّم للقوى البشريَّة في كلِّ بُعدٍ يمكن تخيُّله تقريباً، ممَّا يجعلنا أقوى وأسرع، وقادرين على الرؤية أبعد في كلٍّ من المكان والزمان، وأكثر صحَّة، وأكثر أماناً، وأكثر درايةً حول كلِّ شيءٍ تقريباً، بما في ذلك أصولنا، لكنَّ هذا لا يعني أنَّه يمكنه الإجابة على جميع الأسئلة أو خدمة جميع الاحتياجات.

لا يحتكر العلم الحقيقة، وقد جادل بعض منتقديه بأنَّه لا يرقى حتَّى إلى مستوى إعلاناته كمصدرٍ موثوقٍ للمعرفة الموضوعيَّة.

سوف أتعامل بسرعةٍ مع هذا الادّعاء الغريب لسببين: لقد تعاملت أنا والآخرون

معه بإسهابٍ في مكانٍ آخر (Dennett، 1997؛ Gross and Levitt، 1998؛ Weinberg، 2003)، وإلى جانب ذلك، فإنَّ الجميع يعرف أفضل- مهما كان ما قد يقوله النَّاس في خضمِّ معركةٍ أكاديميَّة. أنهم يعربون عن ذلك بصورةٍ متكررة في حياتهم اليوميَّة. لم أقابل بعد ناقداً علميّاً لما بعد الحداثة يخشى الطيران في طائرة، لأنَّه لا يثق في حسابات الآلاف من مهندسي الطيران والفيزيائيين الذين أظهروا واستغلُّوا مبادئ الطيران، ولم أسمع أبداً عن الوهابيّ المتديّن الذي يفضّل استشارة إمامه المفضَّل حول احتياطيَّات النفط المؤكَّدة في المملكة العربيَّة السعوديَّة على حسابات الجيولوجيين. إذا قمت بشراء بطَّاريَّةٍ جديدةٍ وقمت بتثبيتها في هاتفك المحمول، فستتوقَّع أن تعمل، وستتفاجأ وتغضب بشدَّةٍ إن لم تفعل ذلك. أنت جاهز تماماً للمراهنة بحياتك على الموثوقيَّة غير العاديَّة للتكنولوجيا التي تحيط بك، ولا تفكّر فيها مرَّةً أخرى. تثق كلُّ كنيسةٍ بعلم الحساب لتتبُّع الإيصالات الموجودة في لوحة التجميع بدقَّة، ونحن جميعاً نتناول بهدوءٍ الأدوية من الأسبرين إلى زوكور، واثقين من وجود أدلَّةٍ علميَّةٍ كثيرة تدعم الفرضيَّة القائلة بأنَّها آمنةٌ وفعَّالة.

لكن ماذا عن كلِّ الخلافات في العلم؟ يتمُّ الإعلان عن نظريَّاتٍ جديدةٍ في أسبوعٍ، وتفقد مصداقيَّتها في الأسبوع التالي؛ عندما يختلف الحائزون على جائزة نوبل حول ادّعاءٍ علمي، يكون أحدهم على الأقلِّ مخطئاً، على الرَّغمِ من كونه أميراً مكرَّساً في كنيسة العلم، وماذا عن الفضائح المتفرقة للبيانات المزوَّرة وكتم النتائج؟ العلماء ليسوا معصومين عن الخطأ، ولا هم- كقاعدةٍ عامَّة- أكثر فضيلةً من النَّاس العاديين، لكنَّهم يخضعون لنظامٍ مرموقٍ يحافظ على صدقهم على الرَّغم منهم، ويفرض أنظمةً معقَّدةً لضبط النفس والمراجعة، وإلى درجة ملحوظة من إلغاء الطابع الشخصي لمساهماتهم الفردية، لذلك، على الرَّغم من صحَّة وجود علماء بارزين عنصريين أو متحيّزين للجنس أو مدمنين على المخدّرات أو مجرَّد مجانين، فإنَّ مساهماتهم دائماً ما تثبت أو تخفق بشكلٍ مستقلٍّ عن هذه الإخفاقات الشخصيَّة، وذلك بفضل المرشِّحات والفحوصات والتوازنات التي تستأصل العمل غير الموثوق به. (في بعض الأحيان، يلحق العار أو سوء السمعة السياسيَّة بعالمٍ أو مدرسةٍ كاملةٍ من البحث العلمي، وبما أنَّ العلماء الجادّين لا يريدون الاستشهاد بهؤلاء المنبوذين في عملهم، فإنَّ هذا يمنع تماماً

البحث الجيّد لجيلٍ أو أكثر، ففي علم النفس، على سبيل المثال، توقّف البحث عن الصور الاستدلاليّة - «الذاكرة الفوتوغرافيّة» - لفترةٍ طويلة لأنّ بعض الأعمال المبكرة قام بها النازيُّون).

تبدو حافّة القطع للفأس المشحوذة بشكلٍ جيّد، من خلال المجهر، مثل جبال روكي، كلّها خشنةً وغير منتظمة، لكنّ الثقل الراكد للفولاذ خلف الحافّة هو الذي يمنح الفأس قوّتها، وبالمثل، فإنّ طليعة العلم التي شوهدت عن قربٍ تبدو خشنةً وفوضويّة، وحفنةً من ذوي النفوذ العلمي ينخرطون في مباريات صراخ، وأحكامهم مشوّهةً بالغيرة والطموح والجشع، ولكن يكمن خلفهم - كما هو متّفق عليه من قبل جميع المتنازعين- الثقل الهائل المعتاد للنتائج المتراكمة، الحقائق التي تعطي العلم قوّته. ليس مستغرباً أن يميل أولئك الذين يريدون النيل من سمعة العلم واستنزاف هيبته وتأثيره الهائل، إلى تجاهل منظور الزاوية الواسعة، والتركيز على صدامات المدارس وأجنّداتها غير المخفية، ولكن من المفارقات، أنّهم عندما شرعوا في تقديم قضيّتهم للمقاضاة (باستخدام جميع أدوات المنطق والإحصاء المصقولة بدقّة)، فإنّ كلّ أدلّتهم الجيّدة على إخفاقات وتحيُّزات العلم تأتي من ممارسات العلم القويّة للغاية في ضبط النفس والتصحيح الذاتي، لذا ليس لدى النقّاد خيار: لا يوجد مصدرٌ للحقيقة في أيّ موضوعٍ أفضل من العلم حسن التنفيذ، وهم يعرفون ذلك.

ماذا عن التمييز بين العلوم «الصعبة» - الفيزياء، والكيمياء، والرياضيّات، والبيولوجيا الجزيئيّة، والجيولوجيا، وأقاربهم - العلوم الاجتماعيّة «الناعمة» (جنباً إلى جنب مع التّاريخ والتخصُّصات الأخرى في العلوم الإنسانيّة)؟ هناك اعتقاد سائد على نطاقٍ واسع بأنّ العلوم الاجتماعيّة ليست علوماً حقيقيّةً إطلاقاً، بل هي مجرّد دعايةٍ سياسيّةٍ من نوعٍ ما، أو في أحسن الأحوال هي نوعٌ من العلم (علمٌ تأويليٌّ أو علمٌ تفسيري) يُمارسُ وفقاً لقواعد مختلفة، وبأهدافٍ ومنهجيّاتٍ مختلفة. ليس هناك من ينكر أنّ المعارك الأيديولوجيّة تحتدم داخل العلوم الاجتماعيّة حول هذه القضايا فقط، ما هي فرصة أن يكون العمل الذي يثبت جداوه في معسكرٍ أو آخر جديراً بالاهتمام المقدَّر الذي نوليه لنتائج العلوم الصعبة؟ ينقسم علم

الأنثروبولوجيا، علانيةً، إلى قسمين، حيث يقف علماء الأنثروبولوجيا المادّيّة إلى جانب علماء الأحياء وغيرهم من العلماء الجادّين، وعادةً ما يكونون غير قادرين على إخفاء ازدرائهم لعلماء الأنثروبولوجيا الثقافيَّة، الذين يقفون إلى جانب المنظّرين الأدبيين، وغيرهم من الأشخاص في العلوم الإنسانيَّة، ويعبّرون عادةً عن ازدراءٍ شديدٍ بالقدر نفسه لزملائهم «الاختزاليين» في المعسكر الآخر. هذا الأمر مؤسف، عددٌ قليلٌ من علماء الأنثروبولوجيا الشجعان، مثل Atran (2002)، Boyer (2001)، Cronk et al (2000)، دنبار (2004)، دورهام (1992)، وسبيربر (1996)، حاولوا سدَّ الفجوة بين علم الأحياء التطوُّري والثقافة، وتوجب عليهم التعامل مع سربٍ مستمرٍّ من النقّاد المدفوعين أيديولوجياً.

يمكن العثور على انقساماتٍ مماثلة - وإن كانت أقلَّ تطرُّفاً- في علم النفس والاقتصاد والعلوم السياسيَّة وعلم الاجتماع، ومع وجود حملاتٍ يشنُّها الفرويديُّون والماركسيُّون والسكنريُّون والجبسونيُّون والبياجيُّون والتشومسكيُّون والفوكولديُّون - والبنيويُّون والتفكيكيُّون والحوسبيُّون والوظيفيُّون - على بعضهم البعض، لا يمكن إنكار أنَّ الأيديولوجيا تلعب دوراً كبيراً في كيفيَّة إجراء هذه الأبحاث العلميَّة المفترضة. هل كلُّ هذا مجرَّد أيديولوجيا؟ بينما تحتدم الزلازل المثيرة للجدل على القمم الخشنة، هل تتراكم في الوديان النتائج الموضوعيَّة القيّمة التي يمكن أن تستخدمها أيُّ مدرسةٍ فكريَّة؟ نعم، وهذا واضح تماماً. يستفيد الباحثون في إحدى المدارس بشكلٍ روتيني من النتائج التي تحقَّقت بشقِّ الأنفس لخصومهم، لأنَّه إذا مُورِسَ العلم بشكلٍ صحيح، يجب على الجميع قبول النتائج، ولكن ليس التفسيرات المبنية عليها. يتألَّف الكثير من العمل القيّم المنجز في هذه المجالات، من تأكيد البيانات المُجمَّعة بشكلٍ جيّد (وتكرار التجارب)، ثمَّ إظهار أنَّ تفسيراً أفضل للنتائج ينبثق من منظورٍ نظريٍ منافس.

3 - وضع الإيديولوجيا في مكانها:

«الأيديولوجيا مثل رائحة الفم الكريهة، وهي ما يمتلكه الزميل الآخر» - تيري إيغلتون، أيديولوجيا

هذه هي الإجابة العمليَّة، لكنّي أريد أيضاً التفكير في تحدٍّ أعمق (الفيلسوف هو الشخص الذي يقول: «نحن نعلم أنّه ممكنٌ عمليّاً؛ نحاول معرفة ما إذا كان ذلك ممكناً من حيث المبدأ!») في عام 1998، نشر أم. بالكين (الباحث القانوني بجامعة ييل) كتاب «البرمجيَّات الثقافيَّة: نظريَّة الأيديولوجيا»، وهو كتابٌ رائعٌ يبحث في هذه الخلافات من منظورٍ مستنيرٍ بيولوجيّاً. يحاول، على وجه الخصوص، حلَّ ما يسمّيه تناقض مانهايم: «إذا كان كلُّ خطابٍ أيديولوجيّاً، فكيف يمكن أن يكون هناك أيُّ شيءٍ آخر غير الخطاب الإيديولوجي حول الأيديولوجيا؟» (ص 125) هل هناك - أو يمكن أن تكون هناك - أيَّة وجهة نظر محايدة وخاليةٍ من الأيديولوجيا يمكن من خلالها الحكم على هذه القضايا بموضوعيَّة، إذاً ما هي الأيديولوجيا؟ هي ليست فقط أيَّ تفكيرٍ خاطئ، ولكنَّها التفكير الذي يكون مرضيّاً أو سيّئاً لنا بطريقةٍ ما. وبعد مراجعة مجموعةٍ متنوِّعةٍ من التعريفات النموذجيَّة للأيديولوجيا (وبالطبع الأيديولوجيَّة للغاية!)، يقترح بالكين تعريف الأيديولوجيا بأنَّها طرق التفكير التي تساعد في الحفاظ على الظروف الاجتماعيَّة غير العادلة.

لفهم ما هو أيديولوجي، لا نحتاج إلى فهم ما هو حقيقيٌّ فقط، ولكن لفهم ما هو عادلٌ أيضاً. إنّ المعتقدات الخاطئة عن الآخرين، مهما كانت خاطئةً أو غير مغريّة، ليست أيديولوجيَّةً حتّى نتمكّن من إثبات أنَّ لها تأثيراتٍ أيديولوجيَّةً في العالم الاجتماعي. [ص. 105]

يُظهر هذا اختلافاً كبيراً بين الأهداف والأساليب في العلوم الاجتماعيَّة والعلوم الصعبة، فالعلوم الاجتماعيَّة لا تتعلّق فقط بالنَّاس (وكذلك البيولوجيا الجزيئيَّة لفيروس نقص المناعة البشريَّة، وكيمياء التغذية البشريَّة)، ولكنَّها تتعلّق بكيف يجب أن يعيش النَّاس.

هناك أحكامٌ أخلاقيَّةٌ متضمَّنةٌ في وضع أجندات البحث لهذه المجالات، وعلى الرَّغم من أنَّ هذه الأحكام تشبه الأحكام القيميَّة المتضمّنة في أسئلةٍ مثل: «كيف يمكننا التدخُّل في تكاثر فيروس نقص المناعة البشريَّة؟» (لماذا نرغب في القيام بذلك؟) و«كيف يمكننا تحسين تغذية الإنسان؟» (ما هو المعيار الذي نستخدمه لقياس التغذية الجيدة؟)، فإنَّ الأحكام

القيميَّة المتضمَّنة في العلوم الاجتماعيَّة أقلُّ وضوحاً من الأحكام التي يوافق عليها كلُّ شخصٍ عاقل. وبالتالي فإن وسم تفكير شخص ما بالأيديولوجية يعني إدانته من منظور أخلاقي قد لا يقبله الشخص المستهدف. يلاحظ بالكين أنَّ الكثير من الجدل يغذّيه الخوف المبرّر تماماً ممَّا يسمّيه الكونيَّة الإمبرياليَّة:

الرأي القائل بأنَّ هناك معاييرَ عالميَّةً ملموسةً للعدالة وحقوق الإنسان تنطبق على كلِّ مجتمع، سواءً قبل أو ما بعد الصناعة، سواءً أكان علمانيّاً أم دينيّاً، وأنَّ من واجب الأشخاص ذوي العقليَّة الصحيحة تغيير المعايير والمؤسَّسات الوضعيَّة لجميع المجتمعات، بحيث تتوافق مع هذه المعايير العالميَّة للعدالة وحقوق الإنسان العالميَّة. [ص. 15]

من المؤكَّد أنَّ الكثير من النَّاس في الولايات المتحدة واثقون تماماً من صحَّة ذلك، ويرون أنَّه من واجبنا تعميم نمط الحياة الأمريكيَّة على جميع شعوب العالم؛ إنَّهم يعتقدون أنَّ أيَّ ثقافةٍ تجد رسالتنا بغيضة هي ثقافة مضلِّلةٌ للغاية، لأنَّها لا تعرف كيف تجري الأمور في العالم، وكيف ينبغي أن تكون، ومن ثمَّ فالبديل الوحيد الذي يمكنهم رؤيته لهذا الوضع صادم حقّاً، ألا وهو ما يُعرَفُ بالنسبيَّة الأخلاقيَّة التي ترى أنَّ كلَّ ما توافق عليه ثقافةٌ معيَّنة - تعدُّد الزوجات، والعبوديَّة، وقتل الأطفال، ختان الإناث، سمّها ما شئت - يتجاوز النقد العقلاني، وبما أنَّ مثل هذه النسبيَّة لا تطاق، في نظرهم (معظم الأمريكيين)، فإنَّه يجب دعم الكونيَّة الإمبريالية: إمَّا أنَّنا على حقٍّ وهم على خطأ، أو أنَّ «الصواب» و«الخطأ» ليس لهما معنى!.

في غضون ذلك، يتَّفق العديد من المسلمين - على سبيل المثال - على أنَّ النسبيَّة الأخلاقيَّة هي أحطُّ من الازدراء، بينما يصرُّون على أنَّ لديهم البصيرة الحقيقيَّة الوحيدة لما يجب القيام به في العالم، ويعتقد العديد من الهندوس بالمثل طبعاً. كلَّما زاد فهم المرء للمعتقدات المختلفة التي يتمسَّك بها النَّاس في جميع أنحاء العالم بشغف، كلما أصبح من المغري أن يقرِّر أنَّه لا يمكن أن يكون هناك حقّاً وجهة نظرٍ يمكن من خلالها بناء الأحكام الأخلاقيَّة العالميَّة والدفاع عنها، لذلك ليس مستغرباً أن يميل علماء الأنثروبولوجيا الثقافيَّة إلى أخذ مجموعةٍ

متنوِّعةٍ من النسبيَّة الأخلاقيَّة أو أخرى كأحد افتراضاتهم التمكينيَّة. كما نجد أن النسبيَّة الأخلاقيَّة منتشرةٌ أيضاً في المجالات الأكاديميَّة الأخرى، ولكن ليس كلِّها، إنَّها بالتأكيد موقف أقليَّةٍ من علماء الأخلاق والفلاسفة الآخرين، على سبيل المثال، وهي ليست بأيّ حال من الأحوال افتراضاً ضروريّاً للانفتاح العلمي.

لا يجب أن نفترض أنَّه لا توجد حقائق أخلاقيَّةٌ من أجل دراسة الثقافات الأخرى بشكلٍ عادلٍ وموضوعي، علينا فقط أن نضع جانباً - في الوقت الحالي- الافتراض بأنَّنا نعرف بالفعل ما هي هذه الحقائق، من ثمَّ فالكونيَّة الإمبرياليَّة (من أيّ نوع) ليست طريقةً جيّدةً للبدء. حتَّى لو كنَّا «نحن» على حقّ، فإنَّ الإصرار على ذلك منذ البداية، ليس دبلوماسيّاً ولا علميّاً، فليس من المفترض أن يمتلك العلم جميع الإجابات الأخلاقيَّة، كما لا يجب الدعاية له كموفِّر لهذا الإجابات، قد نناشد العلم لتوضيح أو تأكيد الافتراضات الواقعيَّة لمناقشاتنا الأخلاقيَّة، لكنَّه لا يقدّم أو يؤسِّس القيم التي تستند إليها أحكامنا وحججنا الأخلاقيَّة. لا ينبغي علينا نحن المؤمنون بالعلم أن نكون أكثر ممانعةً للاعتراف بهذا الأمر من أولئك المؤمنين بدينٍ ما. يجب على الجميع التفكير في تبنّي الأرضيَّة الوسطيَّة المستقرّة التي قدَّمها بالكين: موقفٌ منفتح («متأرجح») يسمح بحوارٍ عقلاني يهتمُّ بقضايا النَّاس، بصرف النظر عن اختلاف خلفيَّاتهم الثقافيَّة اختلافاً جذريّاً. يمكننا الانخراط في هذا الحوار بقدرٍ معقولٍ من الأمل في الحلّ، الذي لا يتعلَّق فقط بثقافةٍ تتغلبُ على الأخرى بالقوَّة الغاشمة، يجادل بالكين بأنَّه: لا يمكننا أن نتوقَّع إقناع الآخرين إذا لم نترك مجالاً وفرصةً لهم لإقناعنا. يعتمد النجاح على مساهمة المشاركين، ومعرفة أنَّهم يتشاركون في قيمتين ساميتين للحقيقة والعدالة، ما يعنيه هذا هو أنَّ كلا الطرفين يقبل أنَّ هذه القيم مفروضةٌ بشكلٍ لا مفرَّ منه من خلال المشاريع الإنسانيَّة التي نشارك فيها جميعاً، وذلك ببساطةٍ من خلال كوننا على قيد الحياة: مشاريع البقاء على قيد الحياة، والبقاء آمنين، لذا لا حاجة لافتراض المزيد من ضيق الأفق، وحتَّى «المريخيُّون» يجب أن يكونوا قادرين على الاتّفاق على هذا.

إنَّ فكرة القيمة السامية تشبه إلى حدٍّ ما فكرة الخطِّ المستقيم التَّام - لا يمكن تحقيقها في

الممارسة، ولكن يمكن فهمها بيسرٍ على أنّها نموذجٌ يمكن مقاربته حتّى لو تعذّر التعبير عنه بشكلٍ كامل، في البداية، قد يبدو هذا وكأنّه مراوغةٌ مشكوكٌ فيها، وهو مثالٌ نتقبّله جميعاً بطريقةٍ ما، حتّى لو لم يكن أحدٌ يستطيع أن يقول ما هو! ولكن في الواقع، يتمُّ قبول مثل هذه المُثُلِ العليا والتي لا مفرَّ منها حتّى في أكثر الأبحاث صرامةً وشكلانيّةً.

ضع في ذهنك مثال العقلانيّة نفسها: عندما يختلف علماء المنطق حول ما إذا كان المنطق الكلاسيكيُّ يُفضَّلُ على المنطق الحدسي، على سبيل المثال، فعليهم أنَّ يضعوا في حسبانهم معياراً سابقاً للعقلانيّة، بالقياس إليه يمكن النظر(من قبل الجميع) إلى أحد المنطقين على أنّه أفضل من منطقٍ آخر، ويجب أن يفترضوا أنّهم يتشاركون هذا المثال الأعلى، لكن لا يتعيَّن عليهم أن يكونوا قادرين على صياغة هذا المثال بشكلٍ صريح، وهذا ما يعملون عليه، وبالروح ذاتها فقط، يمكن للأشخاص الذين لديهم أفكارٌ مختلفةٌ جذريّاً حول أيّ السياسات أو القوانين التي من شأنها أن تخدم الإنسانيّة على أفضل وجه - في الواقع، يجب - أن يفترضوا مسبقاً بعض المثل المشتركة، إذا كان هناك أيُّ جدوى من الحديث عنها إطلاقاً.

يقدّم «بالكين» حواراً وهميّاً يوضّح التوسُّل بالقيم السامية في أبسط أشكالها: يذبح جيشٌ غازٍ النّاس ونسمّيهم مجرمي حرب، يعترضون قائلين: إنَّ ثقافتهم تسمح بما فعلوه، لكن يمكننا أن نستخدم وجهة نظرهم ضدَّهم، يمكننا أن نقول لهم: «إذا كانت معايير العدالة والحقيقة خاصَّةً بكلِّ ثقافة، فلا يمكنك الاعتراض على وصفنا لكم كمجرمي حرب، تماماً كما لا يمكن تطبيق معاييرنا عليك، فإنَّ معاييرك لا يمكن أن تنطبق علينا، نحن محقُّون بإظهار شرورك في ثقافتنا كما أنت محقٌّ في إظهار استقامتك في ثقافتك، لكنَّ إصرارك على أنّنا أسأنا فهمك يقوّض هذا الادّعاء؛ إنَّه يفترض مسبقاً وجود قيمٍ مشتركةٍ للحقيقة والعدالة بطريقةٍ ما نحن ملزمون بالاعتراف بها، وعلى هذا الأساس نحن مستعدُّون للدفاع عن شرّكم». [ص. 148]

قد لا تلقى هذه الدعوة آذاناً صاغية، ولكن إذا كان الأمر كذلك، فهناك حقّاً أسبابٌ موضوعيّةٌ للحكم باللاعقلانيّة، فهم يرتكبون خطأً دون أن يملكوا أسباباً للدفاع عنه أمام

أنفسهم، ولذا لسنا بحاجةٍ إلى احترام دفاعهم بالمقابل.

لقد أعطانا التطوُّر الثقافي أدوات التفكير لإنشاء مجتمعاتنا وجميع أنساقها القيميَّة ووجهات نظرها، ويرى «بالكين» أنَّ أدوات التفكير هذه - التي يسمّيها البرمجيَّات الثقافيَّة - هي حتماً محرّرةٌ ومقيّدة، وتمكينيَّةٌ ومحدَّدةٌ على حدٍّ سواء.

عندما تسكن الميمات أدمغتنا التي تطوَّرت تحت ضغوط الاختيار السابق، فإنَّ طرق تفكيرنا مقيَّدةٌ تماماً مثلما يتمُّ تقييد طرقنا في التحدُّث والسمع عندما نتعلَّم لغتنا الأم، لكنَّ الانعكاسيَّة التي تطوَّرت في الثقافة الإنسانيَّة، وخدعة التفكير في التفكير وتمثيل تمثيلاتنا، تجعل كلَّ القيود مؤقَّتةً وقابلة لإعادة النظر، وبمجرَّد أن ندرك ذلك، نحن على استعدادٍ لتبنّي ما يسمّيه بالكين التصوُّر المتناقض للأيديولوجيا الذي يتجنَّب مفارقة مانهايم: «إنَّ الموضوع الذي تشكّله البرمجيَّات الثقافيَّة هو التفكير في البرمجيَّات الثقافيَّة التي تشكّلها، ومن المهمّ أن ندرك أنَّ هذا التكرار لا ينطوي في حدِّ ذاته على أيّ تناقضٍ أو شذوذٍ أو صعوبةٍ منطقيَّة» (ص 127 - 28).

يصرُّ بالكين على أنَّ «النقد الأيديولوجي لا يعلو فوق الأشكال الأخرى لخلق المعرفة أو اكتسابها، إنَّه ليس شكلاً رئيساً من أشكال المعرفة» (ص 134). يهدف هذا الكتاب إلى أن يكون مثالاً على مثل هذا الجهد المسكوني، بالاعتماد على احترام الحقيقة وأدوات تقصّي الحقيقة، لتوفير مجموعةٍ مشتركةٍ من المعارف يمكننا من خلالها العمل معاً نحو رؤىً متبادلةٍ مفهومة ومقبولةٍ لما هو جيّد وما هو عادل.

لا تتمثَّل الفكرة في تخويف النَّاس بالعلم، ولكن جعلهم يرون أنَّ الأشياء التي يعرفونها بالفعل، أو التي يمكن أن يعرفوها، لها آثارٌ على الكيفيَّة التي ينبغي عليهم الردُّ بها على القضايا قيد المناقشة.

الملحق ج

الحمَّال وسيّدةٌ اسمها تاك

[للاطلاع على السياق، انظر الملاحظة 11 على الفصل 5]

أعرب دان سبيربر وزملاؤه - سكوت أتران وباسكال بوير- لسنوات، عن شكوكهم حول فائدة منظور عين الميم.

أولاً، اسمحوا لي أن أحاول التعبير عن اعتراضاتهم الرئيسة تعبيراً واضحاً، قبل أن أقول لماذا لم يقنعوني، على الرَّغم ممَّا تعلَّمته منهم، وهذا هو تلخيصي الخاصُّ لموقفهم:

من الواضح أنَّ العناصر الثقافيَّة (الأفكار والتصاميم والأساليب والسلوكيات...إلخ) تشهد تزايداً كبيراً لبعضها، وانقراض بعضها الآخر، وأنَّ هناك تشابهاتٍ عائليَّةً كبيرةً غير عرضيَّة بين هذه العناصر والنماذج التي تلهمها، أو التي تنحدر منها بطريقةٍ أخرى، لكنَّ ظاهرة الانتقال في معظم هذه الحالات وليس كلِّها تماماً، ليست من نوع النسخ عالي الدقَّة الذي يتطلَّبه النموذج الجيني. مسبّبُ الحالة الجديدة ليس النسخ إطلاقاً: «قد يؤدّي المسبّب فقط إلى إنتاج تأثيرٍ مماثل» (سبيربر، 2000، ص 169)، ومن ثَمَّ فإنَّ أوجه التشابه بين الحالات ليست مثل أوجه التشابه بين الجينات، لذا فهي تتطلَّب نوعاً مختلفاً من التفسير الدارويني.

تتطوَّر الثقافة، ولكن ليس بشكلٍ صارمٍ من أصلٍ مع التعديل. صحيح أنَّ هناك عدداً

قليلاً من الميمات التي تلبّي مواصفات دوكينز، مثل الأحرف المتسلسلة، لكنَّ مثل هذه الميمات الحقيقيَّة تلعب دوراً ضئيلاً نسبيّاً في ديناميَّات التطوُّر الثقافي (سبيربر، 2000، ص 163)، لذا من الأفضل التركيز بدلاً من ذلك على القيود والتحيُّزات الملحوظة في الآليَّات النفسيَّة التي يتشاركها النَّاس (Atran، 2002، p.237-38؛ Boyer، 2001، pp. 35-40).

يمكن العثور على ردّي الرئيس على هذا الاعتراض في الملحق أ، «الناسخات الجديدة»، وهنا سوف أتوسَّع في هذا الردّ من خلال التركيز على الكلمة الماثلة أعلاه: «بدلاً من ذلك». أريد أن أتحدَّى قناعة أتباع «سبيربر» بأنَّ بإمكانهم دراسة قيود وتحيُّزات علم النفس متجاهلين الميمات. يشتكي أتران، على سبيل المثال، من أنَّ المنهج الميميَّ هو «عمى العقل» (2002، ص 241 وما يليها) من حيث أنَّه يتجاهل الدور التفصيليَّ للآليَّات النفسيَّة المحدَّدة في تشكيل العناصر الثقافيَّة التي تتكاثر، هذه ليست نقطة خلافٍ واضحة إطلاقاً، لأنَّ أتران يوافق على أنَّ هناك تبايناً في انتشار العناصر الثقافيَّة. من المغري أن ننظر إلى الخلاف على أنَّه نتاجٌ لسوء التواصل، مع (بعض) علماء الميميك الواعدين، والمناهضين للميمات الذين يلحقونهم للوفاء بوعدهم. كما لاحظت في نهاية الملحق أ، لا تحلُّ الميمات محلَّ علم النفس أو تستبقه أكثر من الجينات السكَّانيَّة التي تحلُّ محلَّ البيئة أو تستبقها (هل علم الوراثة السكَّانيَّة هو أعمى بيئيّاً؟ نعم، بشكلٍ عام، لم يتأثر بذلك، نظراً لأنَّ نماذجه لا تدخل في تفاصيل: كيف ولماذا توجد ضغوطٌ انتقائيَّةٌ في البيئة؟ إنَّها تبيّن فقط كيف ستتجلَّى آثار تلك القوى الإنتقائيَّة - مهما كانت- في المجموعات السكَّانيَّة بمرور الوقت، حيث تؤثّر على الهجرات والمواليد والوفيَّات، لذا للحصول على تفسيرٍ بيولوجي كامل، ما زلت بحاجةٍ إلى علم البيئة، ومن أجل تفسيرٍ ثقافي كامل، لا يزال علماء الميم يحتاجون إلى علم النفس، على الرَّغم من أنَّهم قد ينكرونها في ظلِّ معاناتهم من التعصُّب الحزبي).

يعبّر بوير عن اعتراضٍ سبيربيري[1] بعباراتٍ مماثلة، ولكن على الرَّغم من معارضته المعلنة للميمات، إلَّا أنَّه غالباً ما لا يستطيع مقاومة صياغة نقاطه بمصطلحات النسخ التفاضلي،

(1) نسبة إلى سبيربر.

في الواقع، تمَّ تلخيص نظريَّته من قبل أحد المعلّقين المتعاطفين على أنَّها الأطروحة القائلة: «يمكن فهم الدين في المقام الأول على أنَّه استغلالٌ منهجيٌّ للأنظمة النفسيَّةِ الدنيويَّة، من خلال سلالاتٍ خبيثةٍ بشكلٍ خاصّ من المفاهيم الثقافيَّة» (Bering، 2004، p. 126).

«خبيثة» ليست الكلمة التي يبحث عنها Bering تماماً، لأنَّ كلَّ دلالاتها (المعجميَّة) سلبيَّة؛ ستكون كلمتا «غزير الإنتاج» أو «الملاءمة» تليخصاً أكثر دقَّةً لأطروحة بوير، نظراً لأنَّ بوير حريصٌ على أن يكون محايداً في مسألة ما إذا كان الدين مرافقاً جيّداً أم سيّئاً لحياة الإنسان، ولكن إذا تركنا ذلك جانباً، فيبدو أن Bering سيضع Boyer بين علماء الميمات على الرَّغم من تنصُّله، فلماذا لا نشجّع بوير وأتران وسبيربر فقط على التركيز على القوى الانتقائيَّة التي يوفّرها علم النفس، وهو ما يفعلونه جيّداً، تاركين العمل التوحيدي[1] (التافه؟) لعلماء الميمات في الدرك الأسفل؟

ولكن هناك المزيد ليقال: نريد أن نضع تصوُّراً للتطوُّر الثقافي بمصطلحات الميمات، ومصطلحات قيود علم النفس، والقيود الإضافيَّة التي تنشأ من التفاعل السابق بين الميمات وتلك القيود ذاتها!

ضع في حسبانك تجربةً قد نجريها مستوحاةً من البحث عن «الأساطير الحضريَّة» بواسطة Heath وBell و(Sternberg (2001: هل سمعت عن حمّال أمتعة نزلاء الفنادق ضُبِطَ بواسطة المراقبة وهو يضع فُرَشَ أسنان نزلاء الفندق في.....، وماذا عن السائق الذي سمع دويّاً، وعندما أوقف سيَّارته بعد عدَّة أميال، وجد جثَّة طفلٍ مغروسةً في مقدّمة سيَّارته؟

من خلال ملاحظة أنَّ العديد من الأساطير الحضريَّة الأكثر شعبيَّة تتضمَّن حكاياتٍ مثيرةً للاشمئزاز، قام هؤلاء الباحثون بالتحقيق في دور الاشمئزاز في زيادة احتماليَّة انتقال مجموعةٍ متنوّعةٍ من الأساطير الحضريَّة، لقد قدَّموا «النسخ» المتنافسة (روايات بديلة) لكلِّ قصَّة، ووجدوا أنَّه من المؤكد أنَّ النسخ الأكثر إثارةً للاشمئزاز كانت تنتقل بشكلٍ أفضل، لكن

(1) يقصد هنا جهود علماء الميمات توحيد عملهم مع علم النفس.

للأسف، لم يقيسوا الانتقال الفعلي، بل فقط قناعات الخاضعين للتجربة حول مدى احتماليَّة تكرار القصص. البحث مكلف، لكنَّ التجارب الفكريَّة رخيصة، لذلك دعونا نتخيَّل تجربةً توضّح بشكلٍ جيّد وجهة نظر سبيربيريين، ولماذا لا أجدها حجَّةً جيّدةً ضدَّ نهج الميمات.

لنفترض أنَّنا قمنا بتلفيق آلاف الأساطير الحضريَّة المختلفة – أساطير جديدةٌ لم يتمَّ تداولها بعد على شبكة الويب العالميَّة – وقمنا بزرعها بعنايةٍ في أذهان عشرة آلاف مستمعٍ مختلف– واحدة لكلِّ عشر عملاء– كلُّ قصَّةٍ تذهب إلى عشرة مستمعين، نحاول إعطاء هؤلاء المرشَّحين «علاماتٍ مميزة» من خلال تضمين تفاصيل منبِّهة في كلِّ نسخةٍ مزروعة، على غرار: «هل سمعت عن سائق سيَّارة الأجرة البرازيلي الذي...»، ونفترض أيضاً أنَّنا ننفق الكثير من المال على تتبُّع هذه المسارات، عن طريق توظيف جيوشٍ من المحقّقين الخاصّين للتنصُّت على الأفراد الأوائل الخاضعين للتجربة، والتنصُّت على هواتفهم وما إلى ذلك (فضيلةٌ أخرى للتجارب الفكريَّة – لا يتعيَّن عليك تبرئتها من خلال مجلس المراجعة الداخلي لجامعتك أو الشرطة!)، لذلك نحصل على الكثير من البيانات الجيّدة عن كلّ القصص التي تتبخَّر بعد روايةٍ واحدة، وتلك التي يتمُّ نقلها بالفعل، وبأي كلمات.

ستكون نتيجة حلم أتباع سبيربر هي أنَّنا توصلنا إلى لا شيء! ستختفي جميع علاماتنا المميزَة تقريباً، وكلُّ ما سيتبقَّى من آلاف القصص المختلفة هي (على سبيل المثال) سبعَ قصصٍ يتم إعادة اختراعها بصورةٍ متكررة، لأنَّ هذه القصص السبع كانت الوحيدة التي دغدغت القيود النفسيَّة الفطريَّة كلَّها. عندما ننظر إلى السلالات، سنرى على سبيل المثال، مئة قصَّةٍ مختلفةٍ جدَّاً في البداية، قد اجتمعت جميعها في نهاية المطاف في قصَّةٍ واحدة، وهي «عنصر الجذب» الأقرب في فضاء الأسطورة الحضريَّة، وفي بعض الأحيان يتمُّ تعديل القصَّة تدريجيَّاً في اتجاه عنصر الجذب المفضَّل، ولكن إذا كان المستمع يعرف بالفعل هذه الحكاية، فقد تنتهي القصَّة الجديدة فجأةً إلى طريقٍ مسدود: «مرحباً، ممتع، هذا يذكّرني – هل سمعت عن الرجل الذي...؟». إذا كانت هذه هي النتيجة، فسنرى أنَّ كلَّ المحتوى في الأساطير الحضريَّة التي سادت بمرور الوقت، كان ضمنيَّاً بالفعل في سيكولوجيَّة المستمعين والرواة، ولم يتمَّ نسخ

أيّ شيءٍ تقريباً بأمانةٍ من القصص الأوليّة. ها هي طريقة أتران للتعبير عن هذه النقطة:

في التطوُّر الجينيِّ لا يُوجِدُ سوى «انتقاءٍ ضعيف»، بمعنى أنّه لا توجد محدِّداتٌ قويّةٌ لتغيير الاتجاه، نتيجةً لذلك، يمكن أن تؤدّي التأثيرات التراكميّة للطفرات الصغيرة (في حدود واحدٍ في المليون) إلى تغييرٍ اتجاهيٍ مستقرّ، على النقيض من ذلك، في التطوُّر الثقافي، هناك «اختيارٌ قويٌّ» للغاية؛ بمعنى أنَّ التوقُّعات المنمطَة يمكن أن تقيّد بشدَّةٍ تنقُّل المعلومات إلى قنواتٍ معيَّنةٍ دون غيرها، نتيجةً لذلك، على الرَّغم من «الخطأ» و»الضجيج»، و»الطفرة» المتكرِّرة في المعلومات المنقولة اجتماعيّاً، تميل الرسائل إلى التوجيه (إعادة توجيهها أو إطلاقها للأمام) في مساراتٍ مستقرَّةٍ معرفيّاً، لذا فالقوالب المعرفيّة وليس الميمات نفسها، هي ما تمكّن عملية النقل عبر القناة الثقافيّة[1] للمعتقدات والممارسات. [2002، ص. 248]

سيكون الأمر كما لو أنَّ كلَّ واحدٍ منّا لديه قرصٌ مضغوط في أدمغتنا، مخزَّنٌ به العشرات أو المئات من الأساطير الحضريّة، عندما نسمع قصّةً تشبه إحدى هذه الأساطير الحضريّة، يؤدّي ذلك إلى تشغيل القرص المضغوط لكي يذهب إلى هذا المسار ويشغّله - «إنتاج محفّز»، وليس تقليداً لما سمعناه (هذا ما يقترحه «المثال النظري» لسبيربر عن مسجلّات الصوت [2000، ص 169]) هذه النتيجة الفارغة المتطرّفة غير مرجَّحةٍ بالطبع، فإن تمَّ نسخ بعض المحتوى من مضيفٍ إلى مضيف، فإنَّ أولئك الذين أصيبوا به سيضعون قيداً جديداً على مصير أيّة أساطير حضريّةٍ يسمعونها بعد ذلك.

يمكن أن تكون عملية النقل عبر القناة الثقافيّة ناتجة عن التعرُّض الثقافي السابق، بقدر ما تكون ناتجة عن القوالب المعرفيّة الأساسيّة للفرد. للتحقيق في التفاعل بين المحتويات المنقولة ثقافيّاً، والقيود التي تتمُّ مشاركتها بشكلٍ مستقلٍّ عن الثقافة، يجب عليك أن تتعقّب نسخ الميمات - بأفضل ما يمكنك. لم يقل أحدٌ أنّه كان برنامجاً عمليّاً لإعادة البحث في معظم

(1) «في علم الوراثة التطوري، القناة هي آلية تستخدم للحفاظ على نمط ظاهري أكثر ثباتا عن طريق احتواء وقمع التباين الجيني.»

المصدر: https://psychologydictionary.org/canalization/

الحالات.

وحدث مثالٌ رائعٌ على ذلك في أثناء إعداد هذا الكتاب؛ لاحظ أحد قرَّاء المسودة قبل الأخيرة خطئاً مطبعيّاً في الفصل 2، وبما أنَّه تكرَّر في البيليوغرافيا، فقد خطر له أنَّني ربما غفلت عنه: هو أن عنوان كتاب غولد لعام 1999 هو Rocks of Ages،، كما أخبرني، لكنَّني كتبت إنَّه Rock of Ages. كان ردُّ فعلي الأول إنكاراً صريحاً، اعتقدت أنَّ قارئي كان يرتكب الخطأ؛ لا يمكن أن تكون الكلمة الأولى في عنوان كتاب غولد هي "Rocks" أليس كذلك؟ كنت قد قرأت الكتاب، ولاحظت تلاعبه بالكلمات (يدرس عالم الحفريَّات أعمار الصخور، بينما...) لكنَّني أخطأ تماماً بإدخاله التغيير في عنوانه، لأنَّ عنوان الترنيمة كان محفوراً في ذاكرتي! اضطررت إلى التحقُّق من الكتاب بنفسي، وبالتأكيد كان العنوان هو Rocks of Ages، لكنَّني انتقلت بعد ذلك إلى الويب لمعرفة ما إذا كنت وحيداً في ارتكاب هذا الخطأ. في 23 آذار (مارس) 2005، كان هناك عدد من الاقتباسات من كتاب «Gould» بعنوان «Rock of Ages» في محرّك البحث Google (3860) تقريباً، يكافئ عدد الاقتباسات من كتاب Gould بالعنوان الصحيح «Rocks of Ages»، وهو (3950) اقتباساً، وعلى الرَّغم من ثبوت أن العديد من الإدخالات السابقة كان لها فرصة عادلة في الظهور كعنوان كتاب جولد وعنوان الترنيمة، إلَّا أنّه كانَ من بين الإدخالات التي كان بها خطأٌ إملائيٌّ في العنوان مراجعات ومناقشات للكتاب، سواءً كانت إيجابيَّةً أو سلبيَّة. لا يبدو، للتدقيق العادي، أنَّ هناك أيَّ نمطٍ واضحٍ للأخطاء، ولكن إليك مشروعاً أوليّاً جيّداً في علم الميمات الحسابي لأي شخصٍ يريد التعمُّق أكثر، من المؤكّد أنَّ هناك قصَّةً مثيرةً للاهتمام يمكن سردها حول عدد المرَّات التي تسلَّل فيها هذا الخطأ بسبب طفرة، ومن الذي قام بنسخ خطأ الآخر(انظر مناقشة دوكينز [1989، الصفحات 325–329] لخطأ نسخ مماثل لعنوان، ومدخلٍ إلى طرق علم الميمات باستخدام موارد مؤشّر الاقتباس العلمي).

بالإضافة إلى امتلاك الآليَّات أو الوحدات المتطوِّرة وراثيّاً المُفَضَّلة لعلماء النفس التطوُّري، فإنَّ أدمغتنا مليئةٌ بالآليَّات المنقولة ثقافيّاً من كلِّ الأنواع التي يمكن تخيُّلها، يساهم ووجود

أو عدم وجود هذه المجموعات في تكوين حالات المناعة والتقبل في المضيف بالقوّة نفسها، أو حتّى أكثر من القيود التي تظهرها الآليّة الأساسيّة. في فصله ضدّ الميمات، يقتبس أتران منّي حول هذا الموضوع، لكنّه أساء فهم وجهة النظر التي كنت أحاول توضيحها، لقد قلت: إنّ بنية العقول الصينيّة والكوريّة «مختلفةٌ اختلافاً كبيراً» عن بنية العقول الأمريكيّة أو الفرنسيّة (دينيت، 1995 ب، ص 365)، ويفترض أتران (2002، ص 258) أنّني أحاول توضيح فكرةٍ غامضةٍ حول كيفيّة تفسير الأشخاص ذوي اللغات الأصليّة المختلفة للصور، أو عزوَ السببيّة أو إلقاء اللوم في مختلف السيناريوهات. يستشهد أتران بالتجارب التي يستجيب فيها أشخاصٌ من مجموعاتٍ ثقافيّةٍ مختلفة، بشكلٍ متشابه تماماً في مجموعةٍ متنوّعةٍ من الظروف التي صمّمها علماء النفس لاستنباط مثل هذه الاختلافات، لكن ما كنت أفكر فيه هو شيء أبسط وأكثر وضوحاً: الأشخاص ذوو العقول الصينيّة لن يضحكوا أو يتذكّروا أو يكرّروا النكات التي تُروى باللغة الإنجليزيّة! (قبل بضع سنوات، أصدر مؤلّف الأغاني والمغني اللامع Lyle Lovett ألبوماً بعنوان Joshua[1] Judges[2] Ruth[3]، وجدت أن أصدقائي لم يفهموه بشكلٍ عام، أردت سؤالهم ماذا يمكن أن يكون عنوان ألبوم Lovett القادم، فلم يجبني أيٌّ منهم، ?First and Second Samuel[4] - وهو أول ما يخطر ببالي[5]، بفضل حضور مدرسة الأحد قبل أكثر من نصف قرن). كما يمكننا التأكّد تماماً من أنّ النكات التي تُروى باللغة الفرنسيّة تواجه صعوبةً في الانتشار في الأحياء الناطقة بالإنجليزيّة، يمكننا أن نكون على يقينٍ تامّ من أنّ الآراء السياسيّة للفرد، ومعرفته بالفن (أو فيزياء الكم، أو الممارسات الجنسيّة) ستفرض قيوداً قويّةً أو تحيُّزاتٍ على تقبّله وحرصه على نقل مختلف الميمات المرشّحة. على سبيل المثال، بالنسبة لطريقة تفكيري، فإنّ أحد أطرف القصائد الفكاهيّة التي سمعتها إطلاقاً هي ما يلي، والتي ستجدها مضحكةً فقط إذا سمعت

(1) سفر يوشع من أسفار العهد القديم في الكتاب المقدس.
(2) سفر القضاة من أسفار العهد القديم في الكتاب المقدس.
(3) سفر راعوث من أسفار العهد القديم في الكتاب المقدس.
(4) سفري صموئيل الأول والثاني من أسفار العهد القديم في الكتاب المقدس.
(5) يشير المؤلف هنا إلى ترتيب أسفار العهد القديم في الكتاب المقدس.

الكثير من القصائد الفكاهيَّة:

كانت هناك سيّدةٌ شَابَّةٌ اسمها توك

والتي كان لديها أسوأ حظّ:

خرجت في قارب

وسقطت على الجبهة

أصيبت في ساقها من قبل بطَّة.

لم أستطع مقاومة نقلها إليك، من سينقلها أكثر؟ يعتمد ذلك كثيراً على الميمات الأخرى التي تصيب عقلك، وأدمغة من تتحدَّث إليهم. في عالم النقل الثقافي المعقَّد، ربَّما لن تظهر الأنماط التي ترجع مباشرة إلى السمات الثابتة لعلم النفس البشري بشكل خاص، لذلك يبدو لي أنَّ أولئك الذين يتبعون «سبيربر» في معارضته للميمات، يعرضون وجهات نظر يمكن طرحها بشكلٍ أفضل بلغة الميمات، وإحدى الأشياء التي يقولونها على سبيل المثال، هو: أنَّ التطوُّر المتقارب يلعب دوراً مهيمناً في التطوُّر الثقافي، لدرجة أنَّ انتقال التصميم عن طريق الإنتقال الفعلي عبر السلالات الثقافيَّة هو عامل ذو أهمية أقل بكثير في تفسير أوجه التشابه الملحوظة مما يقوم به تشكيل التصميم بواسطة قوىً انتقائيَّة. غالباً ما يكون هذا أمراً معقولاً للغاية، ويمكن التحقيق فيه بأيّ حالٍ من الأحوال، لكن يجب علينا أيضاً أن نكون متنبّهين لاحتمال أنَّ العديد من أوجه التشابه بين الإسلام والمسيحيَّة، على سبيل المثال، قد تكون بسبب دين أسلافهما الإبراهيمي المشترك، بدلاً من أنَّ كلّاً منهما قد تكيَّف مع الظروف المتشابهة الموجودة لدى أتباعهم من البشر.

الملحق (د)

كيم فيلبي كحالةٍ حقيقيّة لـ
عدم تحديد التفسير الراديكالي

[للاطلاع على السياق، انظر الملاحظة 14 على الفصل 8.]

أمضى الفلاسفة عقوداً يحلمون بتجارب فكريَّةٍ مصمَّمةٍ لإثبات أو دحض مبدأ كواين[(1)]* (1960) حول عدم تحديد الترجمة الجذريَّة: الادّعاء المدهش أنّه من حيث المبدأ يمكن أن تكون هناك طريقتان مختلفتان لترجمة لغةٍ طبيعيَّةٍ إلى لغةٍ طبيعيَّةٍ أخرى، ولا يوجد دليلٌ إطلاقاً على أيّها هي الطريقة الصحيحة لترجمة اللغة (أصرَّ كواين على أنَّه في هذه الحالة لن يكون هناك طريقٌ صحيح؛ ستكون كلُّ طريقةٍ جيّدةً مثل الأخرى، ولن تكون هناك حقيقةٌ أخرى لهذه المسألة). يبدو من غير المحتمل في البداية أن يكون هذا ممكناً، ألا يستطيع الشخص ثنائي اللغة المطّلع، على سبيل المثال، أن يخبر دائماً أيٌّ من الترجمتين المتنافستين لجملةٍ في إحدى لغتيه كانت أفضل ترجمةً من الأخرى، كيف لا يكون هناك الكثير من الأدلّة لصالح إحدى الترجمتين؟

(1) ويلارد فان أورمان كواين (25 حزيران 1908 - 25 كانون الأول 2000) فيلسوفٌ أمريكيٌّ وعالم منطقٍ في الفلسفة التحليليَّة، يُعدُّ واحداً من أهمِّ الفلاسفة المؤثّرين في القرن العشرين.

إذا كنت تعتقد أنَّ الحلَّ واضح، فأنت لم تقرأ أو تفهم الأدبيَّات الفلسفيَّة الضخمة حول هذا اللغز الغريب. مكانٌ جيِّدٌ للبدء، بعد قراءة تحفة كواين الرائعة، Word and Object (1960)، سيكون الإصدار الخاصُّ لعام 1974 من Synthese المخصَّص لمؤتمر جامعة كونيتيكت حول القصديَّة واللغة والترجمة، حيث واجه كواين خصومه الأكثر تميُّزاً، وغادرهم دون حلِّ القضيَّة التي ما تزال عالقةً حتَّى اليوم (كواين، 1974 أ، ب).

في حالة معتقدات فيليبي النهائيَّة، لدينا لمحةٌ مثيرةٌ عن مدى قربنا في العالم الحقيقي من حالة عدم تحديد التفسير الراديكالي (على عكس العالم الغريب للعديد من تجارب الفلاسفة الفكريَّة) (انظر مقال ديفيد لويس «التفسير الراديكالي» 1974، في قضية التأليف David Lewis's essay «Radical Interpretation» 1974 in the Synthese issue)). قد نتخيَّل مراقِبَيْنِ لا يعرفان الكلل، يتابعان كلَّ خطوةٍ لفيليبي، ويسجّلان كلَّ ما يقوله، ويقرأان أوراقه الأكثر سرِّيَّة، ويستمعان إليه وهو يتحدَّث في نومه، وحتَّى (الآن عدنا إلى أرض الفلسفة) يسجّلان كلَّ موجاته الدماغيَّة، ويمكننا أن نرى أنَّهما قد يتوصَّلان- بناءً على الأدلَّة نفسها- إلى أحكامٍ متعارضةٍ قويَّة: إنَّه بريطانيٌّ مخلصٌ في النهاية، لا، إنَّه سوفيتيٌّ مخلص.

لن يكون من المفيد سؤال فيليبي بالطبع؛ يدرك كلا المراقبين جيّداً كيف سيردُّ على مثل هذا السؤال، وتفسّر نظريَّاتهما المتعارضة ذلك جيّداً (للحصول على حجَّةٍ ذات صلة، راجع مناقشتي لمعتقدات «Ella» في «Real Patterns،» 1991b) ولا شكَّ أنَّه من غير المحتمل إلى حدٍّ كبير في مثل هذه الحالة ألّا ينكشف أيٌّ من التفسيرين أبداً، ولكنه أمر غير مستحيل، كما أصر كواين. كانت تلك وجهة نظره. في كلِّ موقفٍ في العالم الحقيقي، من المحتمل أن يتوازن اثنان من هذه التفسيرات المختلفة جذريَّاً، لتاريخ حياةٍ كاملةٍ على حافَّة السكّين من عدم وجود حكمٍ لفترةٍ قصيرةٍ فقط، وفي النهاية سينهار أحد التفسيرين، تاركاً الآخر منتصراً، لكن لا ينبغي لنا أن نقع في خطأ افتراض أنَّ هذا كان يقيناً ميتافيزيقيّاً، تضمَّنته بعض الحقائق الداخليَّة الخاصَّة التي حسمت القضيَّة.

يمكننا حتّى أن نرى- من هذا المنظور- أنَّ فيلبي نفسه قد يتساءل أيّ وجهة نظرٍ كانت الحقيقة، ولن يكون قادراً على الإجابة على هذا السؤال! ستواجه هذه المشكلة أيضاً ثنائيَّ اللغة المتخيَّل الذي يُسألُ عن دليل عمل الترجمة الصحيح، وقد يندهش عندما يكتشف أنَّه ليس لديه مصادرٌ ليقول ما هو «الصواب»، وفي هذه الحالة، أصرَّ كواين: لن تكون هناك حقيقةٌ حول أيّهما كان على حقّ، ستكون ترجماتٍ جيّدةً بالقدر نفسه، وهذا كلُّ شيءٍ يمكن للمرء أن يقوله.

إذا كانت وجهة النظر ما تزال بعيدةً عنك، فقد يساعدك التفكير في حالةٍ أبسط للظاهرة نفسها، وهي «لغز الكلمات المتقاطعة الكوينيّة»: ليس من السهل اختلاق أحجية الكلمات المتقاطعة بحلّين متساويين، ولكن هاك أحداها، ما هو الحلُّ الحقيقي؟ ولا واحد من الحلين، لأنّني شرعت في القيام بذلك قصداً على هذا النحو. من حيث المبدأ، من الممكن عمل أحجية كلماتٍ متقاطعةٍ ذات أبعادٍ أعلى، وهي لعبة Philby، والتي يكون هيكلها وتاريخها ومجموعة ميولها الحاليَّة، مستجيبةً بشكلٍ متساوٍ لتفسيرين متعمَّدين مختلفين عمليّاً شيئاً مستحيلاً، لكن لا ينبغي لنا - لهذا السبب- تخيُّل فئةٍ من الحقائق الداخليَّة التي من شأنها تسوية أيّ حالة.

· لغز الكلمات المتقاطعة كوينيان

1	2	3	4
2			
3			
4			

Across	Down
1. Dirty stuff	1. Vehicle dependent on $H_2 0$
2. A great human need	2. We usually want this
3. To make smooth	3. Just above
4. Movie actor	4. U.S. state (abbrev.)

الملاحظات الختامية

1-كسر أيّ تعويذة؟

1. ناقشت مثال Dicrocelium dendriticum في Dennett، 2003c؛ لمعرفة المزيد عن دورة حياتها الرائعة، انظر Ridley، 1995، and Sober and Wilson، 1998، للحصول على مثال مدهش (طفيلي السمك)، انظر (1993) LoBue and Bell. ستتمُّ مناقشة طفيلي الفئران، التوكسوبلازما جوندي Toxoplasma gondii، بمزيدٍ من التفصيل في الفصل الثالث، كما تمَّ العثور على قول مأثور طريف لـ Hugh Pyper في كتاب لـ (1999) Blackmore، وكذلك في كتاب (1998) Pyper، ويمكن العثور على جميع المراجع في البيليوغرافيا في نهاية الكتاب، وبشكلٍ عام ستتمُّ إدراجها في النص، وليس كحاشية، ستتمُّ استخدام ملاحظاتٍ مثل هذه للتوسُّع في النقاط الموجودة ضمن النص، بطرقٍ قد تكون مفيدةً للمتخصّصين فقط.

2. لماذا كانت إمكانيَّة تربية الولاء الموجودة في الكلاب، ولكن ليس في القطط، بحدِّ ذاتها فصلاً مثيراً للاهتمام في علم الأحياء، ولكنَّه سيأخذنا بعيداً؟ لمعرفة المزيد عن حدود التدجين، انظر Diamond، 1997.

3. فيما يلي تعريفان من أشهر تعريفات الدين التي يمكن مقارنة تعريفيَّ بهما:

نظامٌ موحَّدٌ من المعتقدات والممارسات المتعلِّقة بالأشياء المقدَّسة؛ أي الأشياء المحظورة والممنوعة- المعتقدات والممارسات التي تتَّحد في منظومة أخلاقية واحدة تسمَّى طائفة [إميل دوركهايم، الأشكال الأوليَّة للحياة الدينيَّة]

[Emil Durkheim The Elementary Forms of the Religious Life]

(2) نظامٌ من الرموز يعمل على (2) إنشاء أمزجةٍ ودوافعَ قويَّة، ومنتشرة، وطويلة الأمد لدى الرجال عن طريق (3) صياغة مفاهيم النظام العام للوجود (4) وإلباس هذه المفاهيم هالةً من الواقعيَّة المزاجيَّة (5) والدوافع التي تبدو واقعيَّةً بشكلٍ فريد [كليفورد غيرتز،

تفسير الثقافات [Clifford Geertz, The Interpretation of Cultures]

4. تحدث هذه التحوُّلات عادةً بشكلٍ تدريجي، ألا يجب أن يكون هناك حيوانٌ ثديٌّ رئيس؟ أول حيوانٍ ثدي لم تكن والدته من الثدييات، ليس حقيقيّاً. ليس من الضروري أن تكون هناك طريقةٌ مبدئيَّة لرسم الحدود بين الثيرابسيدات[1] therapsids، أولئك المتحدّرين من الزواحف الذين تشمل سلالتهم جميع الثدييات، من جهة والثدييات من جهة أخرى (لمناقشة هذه النقطة المحيّرة الدائمة، انظر Dennett، Freedom Evolves، 2003c، ص 126 – 28). يمكن أن يتحوَّل دينٌ قديم العهد إلى دينٍ سابقٍ تدريجيّاً، حيث يتخلّى المشاركون فيه تدريجيّاً عن العقائد والممارسات التي تميّز النصَّ الأصلي. لا يتضمَّن هذا الوصف حكماً قيميّاً؛ فالثدييات هي ثيرابسيداتٌ سابقة، والطيور ديناصوراتٌ سابقة، الأمر الذي لم يؤثّر سلباً. بالطبع، ألا يجب تسوية الآثار القانونيَّة المترتّبة على تجاوز الحدود أم لا، لكنَّ هذه قضيَّةٌ سياسيَّة، مثل الوضع الأخلاقي للأخطبوط، وليست قضيَّةً نظريَّة.

5. قد تكون القوَّة معك! هل يعدُّ لوك سكاي ووكر[2] مُتديّناً؟ فكّر في كيفيَّة ردِّ فعلنا بشكلٍ مختلف على هذه التعويذة لو قدَّم جورج لوكاس[3] القوَّة على أنهَّا شيطانيَّة. الشعبيَّة الحديثة للملاحم السينمائيَّة ذات الأديان الخياليَّة – يقدّم فيلمي سيّد الخواتم والمصفوفة مثالين آخرين – هي ظاهرةٌ مثيرةٌ للاهتمام في حدِّ ذاتها، ومن الصعب تخيُّل التسامح مع مثل هذه الموضوعات الحسَّاسة في أوقاتٍ سابقة. إنَّ وعينا الذاتي المتزايد بشأن الأديان أمرٌ جيّد – كما أعتقد– رغم كلِّ تجاوزاته، ومثل الخيال العلمي عموماً، يمكن أن يفتح أعيننا على الاحتمالات الأخرى، ويجعلنا نرى العالم الفعليَّ من منظورٍ أفضل.

6. خلال الخمسينيَّات والستينيَّات من القرن الماضي، عندما كان التحليل النفسي الفرويدي

---

(1) نوع من الزواحف المنقرضة من رتبة العصر البرمي والترياسي، يرتبط أعضاؤها بأسلاف الثدييات

(2) إحدى شخصيات سلسلة أفلام حرب النجوم

(3) منتج سلسلة أفلام حرب النجوم

في طريقه نحو القمّة، اصطدم النقّاد الذين حاولوا أن يلفتوا انتباه أتباع التحليل النفسي الفرويدي إلى العديد من نقاط الضعف والأخطاء في نظريّة فرويد بجدارٍ مبتذل بشكل مزعجٍ من تحريف التحليل النفسي، على غرار: «دعونا نرى ما إذا كان بإمكاننا اكتشاف سبب عدائك الشديد للتحليل النفسي، ولماذا تشعر بهذه الحاجة العاطفيّة إلى «دحض» ادّعاءاته، لماذا لا تبدأ بإخبارنا عن علاقاتك مع والدتك؟ «كان هذا سؤالاً مطروحاً (أو استنتاجاً دائريّاً) حتّى عندما كان السؤال مقصوداً بصدق، وكان غالباً غير أمينٍ ببساطة، لذا أعترف بأنّ تأجيلي للنظر في مسألة هل الله موجود؟ قد ينظر إليه أولئك المسلّحون بالحجج على أنّه تهرُّبٌ غير مبدئي بالمثل من المسؤوليّة الفكريّة، لكن لو بدأت هذا الكتاب بقضيّتهم، ضمن إطارها التقليدي، فسيستغرق الأمر مئات الصفحات من العمل الشّاق فوق التضاريس المألوفة، قبل أن أتمكّن من الوصول إلى مساهمةٍ جديدة، لذا تحمّل معي من فضلك، لأنّي لن أنسى التزامي بمعالجة هذا الموضوع!

2- بعض الأسئلة حول العلم:

1. لمزيدٍ من المعلومات حول دور العلم في اجتناب وانفجار «قابليّة الاجتناب»، الذي حقّقته الحضارة الإنسانيّة، انظر كتابي Freedom Evolves، 2003c.

2. بعد الممارسة الحديثة، أستخدمُ مصطلح «إسلامويّ» «islamist» للإشارة إلى تلك السلالات الراديكاليّة أو الأصوليّة من الفكر الإسلامي، التي تدين بشكلٍ عامٍّ الديمقراطيّة وحقوق المرأة وحرّيّة البحث التي يمكن أن يزدهر فيها العلم والتكنولوجيا، يعارض العديد من المفكّرين والقادة المسلمين، وربّما معظمهم، الموقف الإسلامويَّ بشدّة.

3. الدراسة الوحيدة التي وجدتها هي دراسة Anderson and Prentice، 1994.

3- لماذا تحدث الأشياء الجيّدة؟

1. التقيت في حالاتٍ قليلةٍ بمجموعاتٍ صغيرةٍ من الأخوة في الدين، كان اكتشاف

المخبرين من حين لآخر للاختلافات بينهم معبراً بشكل خاص، حتى أنَّها ربما تكون مفصلية في الحياة في حالات قليلة.

2. التفكير الحالي هو أنَّ نداءات الذئب الأمريكي (القيوط) المختلفة، تخدم أغراضاً مختلفة.

تعدُّ «مجموعة أصوات عواء الفرح yip-howl» المرعبة مهمَّةً للغاية في الإعلان عن احتلال منطقة، ومنع التواصل البصري بين مجموعاتٍ من ذئاب القيوط» (انظر Lehner، 1978a، p. 144؛ Lehner، 1978b)، إذا تمكنت هذه الذئاب من تجنُّب معركةٍ فعليَّة على الأرض من خلال الانخراط في لعبةٍ صاخبةٍ مثيرةٍ للإعجاب، فقد تكون هذه هي الطريقة المقتصدة للحفاظ على الطَّاقة والصحَّة للصيد في يومٍ آخر، وفقاً لهذه الفرضيَّة، يعدُّ الحجم المثير للإعجاب للإشارة علامةً يصعب تزييف صدقها، وهي ظاهرةٌ شائعةٌ في التواصل بين الحيوانات (انظر Hauser، 1996، الفصل السادس، للحصول على مناقشةٍ ممتازةٍ للتحقيقات النظريَّة والتجريبيَّة لتطوُّر الإشارات الصادقة) كما يقترح بعض التجارب المثيرة للاهتمام التي يجب إجراؤها باستخدام عمليَّات تشغيلٍ عالية الجودة لعواء ذئبٍ مسجَّلٍ لتنظيم الكثافات السكَّانيَّة، هل سيدرك القيوط معنى العواء، وكم من الوقت سوف يستغرق ذلك؟

1. يجب أن يشمل المسح الافتتاحي للأدبيَّات الضَّخمة حول الخلق والتصميم الذكي: Pennock، 1999، Tower of Babel: The Evidence Against the New Creationism؛ بيراخ، 2003، تصميمٌ غير ذكي؛ شانكس، 2004، الله، الشيطان، وداروين: نقدٌ لنظريَّة التصميم الذكي؛ يونغ وإديس، 2004، لماذا يفشل التصميم الذكي: نقدٌ علميٌّ للخلق الجديد؛ والأكاديميَّة الوطنيَّة للعلوم، 1999، العلوم والإبداع. استعرض عدد أيار/ مايو – آب/ أغسطس 2004 من تقارير المركز الوطني لتعليم العلوم عدَّة عشراتٍ من الكتب الحديثة حول هذا الموضوع، بما في ذلك أكثر من اثني عشر كتاباً (ذات جودةٍ متفاوتة) مكتوباً من منظورٍ مسيحي أو يهودي. من أجل الدراسات الاستقصائيَّة الممتازة لعلم الأحياء التطوُّري المعاصر، أوصي بشدَّة بمختارات العمل الحالي الذي تمَّ تحريره بواسطة

Evolution: From Molecules to Ecosystems ،2004 ،Moya and Font؛ موسوعة التطوُّر المكوَّنة من مجلّدين، أد. باجل، 2002؛ والطبعة السابعة من الكتاب المدرسي Life: The Science of Biology، بقلم Purves، وآخرين، 2004.

هناك أيضاً العشرات من مواقع الويب الجيّدة التي يمكن للمرء أن يجد فيها تفنيداتٍ موثوقةً وعادلة لعمل أبرز نقّاد التطوُّر، مثل William Dembski وMichael Behe. يعدُّ المركز الوطنيُّ لتعليم العلوم من أفضل المراكز على الموقع http: //www.ncseweb.org، وهناك أيضاً الكثير من مواقع الويب المخصَّصة للتصميم الذكي، بالطبع، لكن لا توجد مجلّاتٌ جادَّةٌ محكَّمة، لماذا؟

إذا كان التصميم الذكي عبارةً عن فكرةٍ حان وقتها، فستعتقد أنَّ العلماء الشباب سوف يندفعون نحو مختبراتهم، ملتصقين بأجهزة الحاسوب الخاصَّة بهم، ويتنافسون للفوز بجوائز نوبل الموجودة بالتأكيد لأيّ شخصٍ يمكنه إلغاء أيّ اقتراحٍ مهمّ لعلم الأحياء التطوُّري المعاصر. يصرُّ عشّاق التصميم الذكي على أنَّ المؤسَّسة العلميَّة لديها تحيُّزٌ ضدَّ عملهم، ممَّا يجعل من المستحيل عليهم اقتحام المجلّات الرئيسة، لكن هذا ببساطة ليس ذا مصداقيَّة، يمكن لمعهد ديسكفري والملاذات الأخرى التي تقدّم تمويلاً جيّداً لأبحاث التصميم الذكي بسهولة، إنتاج مجلَّةٍ محكَّمةٍ عالية الجودة، إن كان هناك أيُّ شيءٍ للنشر فيها، وإذا كان بإمكانهم العثور على علماء موثوقين للقيام بتحكيم المقالات.

يتمُّ نشر الآلاف من المقالات العلميَّة المحكَّمة كلَّ عام لتوضيح وتوسيع النظريَّة الأساسيَّة للتطوُّر، ولم يصبح معظم مؤلّفي هذه المقالات مشهورين أبداً، على الرَّغم من خبرتهم المثبتة، من المؤكَّد أنَّ قلَّةً منهم سوف يتخلَّون بسعادة عن اعتقادهم بهذه النظريَّة، ويخاطرون بأن يصبحوا محطَّ سخرية المؤسَّسة العلميَّة من أجل فرصة أن يصبحوا مشهورين عالميَّاً، مثل العَالِم الذي دحض نظريَّة داروين، لكنَّ مؤيّدي نظريَّة الخلق لا يكلّفون أنفسهم عناء تقديم الإغراء، فهم يعرفون شيئاً أفضل، إنَّهم يعلمون أنَّ كلَّ ما لديهم هو دعاية، وهذا هو ما ينفقون هباتهم عليه.

قام (William Dembski (2003 بإتاحة قائمةٍ بأربعةٍ من المقالات العلميَّة المحكَّمة، والتي- كما يقول- تدعم موضوعات التصميم الذكي (كما أدرج أيضاً كتابه لعام 1998، والذي تمَّ نشره بالفعل في سلسلةٍ تمَّ تحكيمها من قبل دار نشر جامعة كامبريدج)، لكنَّ تعليقات دمبسكي الخاصَّة على هذه المقالات توضّح أنَّ حججهم هي في أحسن الأحوال، على حدِّ تعبيره، «غير داروينيَّة» (يتمُّ إجراؤها من دون أيّ مرتكزاتٍ داروينيَّةٍ على وجه التحديد)، ومن ثمَّ يمكن استخدامها لدعم حجَّة التصميم الذكي. لم يقدّم أيٌّ منهم في الواقع حجَّةً للتصميم الذكي.

4. هذه الطريقة النموذجيَّة في الحديث تخفي تعقيداً: عندما نتحدَّث عن «نصف جيناتك» هنا، فإنَّنا نعني نصف الجينات الخاصَّة بك التي تعدُّ فُراديَّةً، والتي تميّزك وراثيّاً عن الآخرين من جنسك. في الاستنساخ، مهما كانت الجينات التي تمتلكها التي تجعلك «مميّزاً» (نحو الأفضل أو نحو الأسوأ) تنتقل إلى ذريّتك بالكامل، بينما يظهر ،في التكاثر الجنسي، نصف هذه الجينات فقط في ذريّتك؛ يوفّر رفيقك بقيّة الجينات الخاصَّة.

5. هل تنشأ النقود من أنظمة المقايضة البحتة من خلال سلسلةٍ من التحوُّلات التدريجيَّة، والتي نادراً ما تُلاحظ في الممارسة (نظريَّة «السلعة»)، أم أنَّها تتطلَّب دائماً نوعاً من «الأمر» من سلطة دولةٍ ما، أو اتفاقاً واعياً أو ميثاقاً (نظريَّة «الكارتل»)؟

كان أصل النقود محلَّ نقاشٍ لعدَّة قرون، للحصول على مناقشةٍ رائعةٍ لتاريخ الجدل حوله، إلى جانب بعض النماذج الاقتصاديَّة الأنيقة للعمليَّات المحتملة، انظر Awai، 2001. انظر أيضاً .Burdett et al، 2001؛ وSeabright, 2004.

6. من الممكن، بالطبع، أن يكون شخصٌ تاريخيٌّ ما قد قام بالكثير من أعمال التصميم المبكرة على المال أو اللغة أو الموسيقى، لدرجة أنَّه يستحقُّ لقب المؤلّف، ولكن هذا غير مرجَّحٍ للغاية وغير ضروري تماماً. يسمح التطوُّر بتراكم ابتكارات التصميم الثقافي بشكلٍ تدريجي، بحيث يتمُّ توزيع التأليف على ملايين المبتكرين المجهولين على مدى آلاف الأجيال، تماماً مثل ابتكارات التصميم التي تُنقّح الجينات.

7. الفرق في نظام التكاثر يُحدث فرقاً كبيراً. بالطبع، عندما تغيّرُ دار سكِّ العملة تاريخَ السنة المنقوشةِ على القالب الذي تختم به جميع العملات المعدنيَّة التي تصنعها، يمثّل هذا نوعاً من الطفرة، لكنَّ مثل هذه الطفرات لا تتراكم بشكلٍ طبيعي، إذا لم يتمّ إصلاح شقٍّ أو عيبٍ في القالب، فقد يميّز هذا جميع العملات النقديَّة لسنواتٍ عديدة، وحتّى يتمَّ نسخه على القالب الجديد (إذا تمَّ اختيار إحدى العملات المعدنيَّة التي تمَّ صنعها لتكوّن القالب الذكر الذي يصنع منه القالب الأنثى)، وهذا يشبه إلى حدٍّ كبير طفرةً جينيَّةً تنتقل إلى الأبناء.

8. حول القيمة «الجوهريَّة» المتخيَّلة للمال، انظر:

«Consciousness: How Much Is That in Real Money?», Dennett 2005c.

9. عن ماهيَّة أن تكون نسر الرومي turkey vultur، انظر Dennett، 1995a، أُعيدَ طبعه في Dennett، 1998a.

10. ربَّما يمكن لعلماء الأحياء أن يفهموا بشكلٍ أفضل مقاومة العديد من علماء الاجتماع لإضفاء الطابع البيولوجي على تخصُّصاتهم، من خلال التفكير في عدم ارتياحهم لمحاولات جعل علم الأحياء فيزيائيّاً. نشر إرنست ماير، عالم الأحياء التطوُّري الأسطوري، مؤخَّراً كتاباً (بعد فترةٍ وجيزةٍ من عيد ميلاده المائة) عن استقلاليَّة علم الأحياء، موضّحاً سبب عدم «اختزاله» في الفيزياء (Mayr، 2004). أنا أتّفق مع معظم الادّعاءات التي يقدّمها، إنَّه لا يدَّعي أنَّ الفيزياء لا توفّر أيَّ قيودٍ أو مبادئ يجب أن يفهمها علماء الأحياء ويمكن أن يستغلُّوها. هناك أنواعٌ مختلفةٌ من الاختزاليَّة، فقط بعضها - والتي أسمّيها الاختزالات الجشعة (Dennett، 1995b) - هي أخطاء؛ عندما يعلن شخصٌ ما أنَّ وجهة نظر تتعرَّض للهجوم هي وجهة نظر اختزاليَّة، علينا أن ننظر عن كثبٍ لنرى ما إذا كان هذا أمراً سيّئاً.

11. من بين أولئك الذين يُنسب إليهم هذا القول المأثور الفيلسوف لودفيج فيتجنشتاين، والفنان بول كلي، والناقد فيكتور شكلوفسكي.

12. بالطبع، هناك الكثير من الحالات الوسيطة، حيث يكون لدى بُناة القوارب فكرةٌ ما، جيّدةٌ أو سيّئة، غبيةٌ أو عبقريّة، وراء الطفرات التي يدخلونها، ومن ثمَّ ليست كلّها زلّاتٍ من فأس النجار، ما بدا فكرةً جيّدةً في ذلك الوقت قد يثبت أنّه لا قيمة له خلال وقت قصيرٍ إلى حدٍّ ما، ويؤدّي هذا إلى تسريع عمليَّة التصميم، ولكن في كلا الاتجاهين يتمُّ تجربة الأفكار الأكثر سوءاً في عمليَّة التجربة والخطأ، بالإضافة إلى الأفكار الجيّدة. طرح ريتشارد دوكينز فكرة تسمية التصاميم من دون مصممين بـ «شبه تصميم» "designoid" (1996، ص 4). الابتكار مفيدٌ لتميّز الخطأ الذي يرتكبه النَّاس غالباً في افتراضهم أنَّ أيَّ شيءٍ يبدو مصمَّماً، لا بُدَّ أنَّه منتجٌ من قبل عقلٍ واعٍ متعمّد، ولكن لا ينبغي أن يؤخذ على أنَّه يمثّل خطأً واضحاً في الطبيعة؛ هل الأرجل القصيرة للكلاب الألمانيَّة ذات تصميم، أم هي شبه تصميم designoid؟ شرع المربُّون البشريُّون في إنجاز هذا التأثير، وكانت لديهم أسبابهم. هل الكائنات الحيَّة المعدَّلة وراثيَّاً مصمم، أم شبه مصممة، هل سدُّ القندس الذي يستغلُّ ببراعةٍ الفرص المحليَّة وغير المسبوقة لبناء السدود مصمم، أم شبه مصممٌ؟ يتطلَّب بناء سدِّ القندس موهبةً معرفيَّةً أكبر بكثير من مصيدة الرمل المخروطيَّة لأكل النمل. يتمُّ توزيع عمل استكشاف الوحدة الكبرى لـ Design Space بين التصعيد البطيء للانتقاء الطبيعي للجينات، والاستكشافات السريعة للتجربة والخطأ للأدمغة الفرديَّة (ومركَّباتها الاستكشافيَّة العديدة)، لذلك سأستمرُّ في استخدام مظلَّة مصطلح «تصميم» لتغطية كلِّ شيء.

13. أحد الموضوعات الرئيسة لفكرة داروين الخطرة (Dennett، 1995b) هو أنَّ ما اكتشفه داروين كان في الأساس خوارزميَّة، وصفةٌ لمعالجة المعلومات يمكن تنفيذها في العديد من الوسائط المختلفة، تماماً كما يمكن تنفيذ خوارزميَّة القسمة المطوَّلة بالقلم الرصاص أو القلم أو الطباشير أو الخدش بعصا على الأرض.

14. لمزيدٍ من المعلومات عن الميمات، انظر أيضاً:

.Dennett, 1995b, 2001b, 2001c, 2005c,

والمحلق / ج/ في هذا الكتاب.

15. للحصول على بعض التفاصيل، انظر:

Dawkins, 2004a, pp. 31-32.

16. كان لاختيار المجموعة مسارٌ مثيرٌ للجدل في نظريّة التطوُّر، والخلافات التقنيّة تجعلها أرضاً خادعةً للمبتدئين، انظر: Wilson and Sober، 1994 (وجميع التعليقات المنشورة في نفس المجلة)؛ Sober and Wilson, 1998؛ and Dennett، 2002a (ورد سوبر وويلسون في نفس المجلة) ستتمُّ مناقشة آراء ويلسون بشكلٍ أكثر تفصيلاً في فصلٍ لاحق.

4- أصول الدين:

1. لا يوجد إجماعٌ بين الدراسات الاستقصائيّة حول كيفيّة احتساب الأديان (على عكس الطوائف وغيرها من المنظّمات قصيرة العمر عادةً)، ولكن هناك عدّة آلافٍ من الأديان (المستقلّة وغير المترابطة)،وفقاً لأيّ معيار. حدّدت التقويمات أكثر من ثلاثين ألف كنيسةٍ مسيحيّةٍ متميّزة، والعمل المرجعيُّ المعياريُّ إلى حدٍّ ما لجميع الأديان هو:

Barrett et al., World Christian Encyclopedia (2nd ed., 2001)

تتكاثر الأديان بشكلٍ متكرر لدرجة أنّه حتّى مواقع الويب تجد صعوبةً في تحديث قوائمها باستمرار، أورد بعضها هنا:

http://www.religioustolerance.org/worldrel.htm
http://www.watchman.org/cat95.htm

فهذه الأخيرة تفهرس أكثر من ألف طائفةٍ وديانةٍ جديدة، وهناك أيضاً مجلّاتٌ ومنظّماتٌ أخرى مكرّسةٌ لدراسة الأديان الجديدة، ويمكن العثور عليها بسهولةٍ على الويب.

2. يسمي دنبار (2004) هذه القبور دليلاً لا لبس فيه على الدين، لكنّها في الحقيقة

غامضةٌ للغاية، ليس هناك شكٌّ في أنَّ الجثث وُضعت عمداً في مواضعها مع أجسام مغطّاةٍ بالمغرة الحمراء (أُكسيد الرصاص)، لكنَّ معزى المشهد مثيرٌ للجدل إلى حدٍّ كبير، انظر على سبيل المثال،

http: //home/eartHink.net/~ekerilaz/ dolni.html

3. من الأمثلة المفيدةٌ Atran and Norenzayan، 2004، مع أكثر من عشرين من تعليقات الخبراء المرافقة له ورد المؤلّفين عليها، تشمل القراءات الأساسيَّة الأخرى Sperber، 1975، 1996؛ وLawson and McCauley، 1990، 2002، Guthrie، 1993، Whitehouse، 1995، Barrett، 2000، Pyysièainen، 2001، Andresen، Shermer 2001، 2003.

4. تمَّ تطوير هذا الموضوع من قبل العديد من المؤلّفين في السنوات الأخيرة، تشمل مساهماتي الخاصَّة في هذه الأدبيّات Dennett، 1991a، 1995b، 1996 والعديد من المقالات.

5. السبب الرئيس لمعارضتي للتحدُّث عن الحيوانات - أو حتَّى البشر البالغين - على اعتبار أنَّ «لديهم نظريَّةً ذهنيَّة»، هو: أنَّ هذا يستحضر عادةً صورةً ذهنية تماماً لعالمٍ مبتدئ مُشتقٍّ نظريّات، مقترحٍ مقولات، مختبرٍ فرضيّات، في حين أنني أرى أن المتبنين للموقف المتعمد - حتى الممارسين الموهوبين مثل الأشخاص الأكثر مناورة الذين قابلتهم على الإطلاق - يشبهون الفنانين البديهيين أكثر من كونهم منظّرين محنّكين. الحرف اليدويَّة أكثر وضوحاً من الإيديولوجيا، وتطوير نماذج صريحةٍ وواعيةٍ للذات للحرفة الشعبيَّة ما يزال ابتكاراً حديثاً، ظهر أولاً في الروايات الرائعة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر وأصبح أكثر منهجيَّة (ولكن ليس أكثر قوَّة) من قبل علماء النفس وعلماء الاجتماع، وما شابههم في القرن العشرين (Dennett، 1990، 1991c). سيردُّ «منظّرو النظريَّة»: أنَّ هذه الحرفة الرائعة أو المعرفة الفنيَّة يجب تنفيذها بطريقةٍ ما في أدمغة أولئك الذين لديهم الكفاءة، وأنَّنا يجب أن نحاول تطوير نموذج علم أعصابٍ حسابي لهذه الكفاءة، أنا أتّفق تماماً، لكنَّ تسميتها

بـ»النظريَّة» ما زالت تضغط على خيال المنظّر بطرقٍ أعتقد أنَّه يجب علينا تجنُّبها، ماذا يمكن أن تكون سوى نوعٍ من النظريَّات؟ هذا سؤالٌ جيّد -على ما أعتقد، يجب أن نحاول الإجابة عليه- وليس سؤالاً بلاغيّاً يمنع القضيَّة.

6. انظر، على سبيل المثال، Tomasello and Call، 1997، Hauser، 2000، Povinelli، 2003.

7. هذا موضوعٌ حسَّاسٌ ومثيرٌ للجدل في علم الإدراك النظري هذه الأيام: ما هي المتعة أو الألم، وما هو الإدمان أو العادة أو قوَّة الإرادة؟ لديَّ القليل لأقوله عن الوضع الحالي للفن في Dennett، 2003b، لكنَّ المزيد قيد التقدُّم.

5- الدين: الأيَّام الأولى

1. هل نعلم أنَّ الأنواع الأخرى ليس لديها لغةٌ أو فن، إذا كان الأمر كذلك، كيف نعرف؟ من بين العديد من الكتب الحديثة الجيّدة حول هذه الموضوعات، أوصي بكتاب Hauser، 1996، 2000، ربَّما تكون تعريشات طيور التعريشة هي أقرب نظيرٍ للفنِّ البشري، نظراً لأنَّها أدوات غير وظيفيَّةٍ أو زخرفيَّة هدفها الواضح (إذا كان عائماً حرّاً) هو جذب الجنس الآخر، والذي غالباً ما يُفترض أنَّه المصدر الأصليُّ لدوافعنا الفنيَّة.

2. يدافع دنبار (2004) عن الأطروحة القائلة بأنَّه في حين أنَّ أقرب أقربائنا، الشمبانزي، يمكنهم تدبُّر مستويين من القصديَّة على الأكثر (المعتقدات حول المعتقدات، على سبيل المثال، أو المعتقدات حول الرغبات) بينما يمكن للبشر العاديين تقدير تعقيدات القصديَّة من المستوى الرابع والاستجابة لها، أو من المستوى الخامس، والحجج بأنَّ الموهوبين بيننا يمكن أن يرتقوا إلى مستوىً أعلى، ويتتبَّعون القصديَّة من الدرجة السادسة، وهم يتنقَّلون في طريقهم بين أقرانهم، «الزعماء الدينيُّون، مثل الروائيين الجيّدين، سلالةٌ نادرة» (ص 86)، وانظر أيضاً Tomasello، 1999.

3. يلاحظ فابر (2004) أنَّ حياة الإنسان تبدأ مع طفلٍ يبكي من أجل الطعام، من أجل الراحة، من أجل الحماية (من الخوف)، للحصول على المساعدة، تُلبّى هذه الأمور من قبل شخصٍ كبيرٍ لطيفٍ ورائع، يصرخ الرضيع آلاف المرّات، تتمُّ الاستجابة لصرخاته آلاف المرّات. «سيكون من الصعب على المرء أن يكتشف داخل عالم الطبيعة مثالًا آخر للتكيُّف الفسيولوجي والعاطفي لمقارنته بهذا المثال من حيث العمق والاستمراريَّة» (ص 18)، ويجادل فابر بأنَّ هذا يهيّئ الطفل للقصص الدينيَّة:

إنَّه يتواصل بسهولةٍ مع المجال الخارق للطبيعة، لأنَّه لطالما كان موجوداً هناك طوال الوقت، إنْ جاز التعبير، لقد كان يعيش مع/ أو بصحبة كياناتٍ قويَّةٍ وغير مرئيَّة، وتمنح الحياة الاستدامة منذ أن بدأ عمليَّة تطبيع العقل مع الجسم، أو البصمة الفسيولوجيَّة التفاعليَّة، كما نشأت بشكلٍ طبيعي ومستمرّ من تفاعله العاطفي مع المعيل القدير، الشخص الكبير الذي ظهر بصورةٍ متكررة، عشرة آلاف مرَّة، لإنقاذه من الجوع والضيق وتلبية احتياجاته العاطفيَّة والشخصيَّة، مستجيباً إلى دافعه العاطفي العميق للتعلُّق. [ص. 20] ... يتردَّد صدى العقل اللاواعي للطفل في الروايات الدينيَّة قبل أن تنضج قدراته العقلانيَّة، وقبل أن يتمكَّن من الرؤية والتقييم النقدي لما تتطلَّبه استجابته الإدراكيَّة. [ص. 25]

4. يمكن العثور على قائمةٍ بأكثر من ثمانين طريقةٍ مختلفةٍ على الموقع http: //en.wiki .pedia.org /wiki /Divination

5. تمَّت مناقشة ريشة دامبو السحريَّة بشيءٍ من التفصيل في Dennett، 2003b.

6. يقدّم Burkert (1996) سيناريو تطوُّريّاً تأمُّليّاً مختلفاً لسلسلةٍ من الاختناقات التي يمكن أن تختار الجينات القابلة للتأثُّر بالدين: «على الرَّغم من أنَّ الهوس الديني يمكن أن يسمّى شكلاً من أشكال جنون العظمة، إلَّا أنَّه يوفّر فرصةً للبقاء في حالاتٍ متطرّفةٍ ويائسة، عندما ينهار ويستلم الآخرون غير المتدينين. ستكون البشريَّة، في ماضيها الطويل، قد مرَّت بالعديد من المواقف اليائسة، واستطاعت تجاوزها بإيجاد أشخاصٍ متدينين «(ص 16). لا يمكنني حتَّى الآن رؤية كيف يمكن اختبار هذه الفرضيَّة، لكنَّها بالتأكيد إمكانيَّةٌ تستحقُّ

النظر فيها بجدّيّة، إذا تمكنّا من إيجاد طريقةٍ لفعل ذلك.

7. يتعارض استخدامي لمصطلح الدين الشعبي مع استخدام بعض علماء الأنثروبولوجيا وعلماء الموسيقى العرقيّة (على سبيل المثال، Yoder، 1974؛ Titon، 1988)، الذين يستخدمونه لوصف التباين بين الدين المنظَّم «الرسمي»، وما يؤمن به ويمارسه الأشخاص من هذه الطوائف في الواقع في حياتهم اليوميَّة (انظر Titon، 1988، ص 144 وما يليها، للمناقشة). راجع أيضاً مفهوم «الخطأ اللاهوتي» ذي الصلة (Slone، 2004)، غالبا ما يطلق على ما أسمّيه الدين الشعبي اسمٌ دينيٌّ قبليٌّ أو بدائيّ.

8. قلّةٌ من محبّي الموسيقى الشعبيَّة اليوم هم أصوليُّون، لدرجة أنّهم يرفضون جميع الأغاني «الشعبيَّة» الملحَّنة، ولكن فيما يتعلّق بقواعد الصفائيَّة، لأغراضي، فإنَّ تلك الألحان والقصائد الصغيرة نسبيّاً من دون مؤلّفين، هي الموسيقى الشعبيَّة التي أتحدَّث عنها. في كلِّ عصر، يتمُّ تعديل هذه الأغاني وإعادة ترتيبها ببراعة، مع كلماتٍ جديدةٍ وإيقاعاتٍ جديدة، وأحياناً ألحانٍ جديدةٍ أيضاً، وعلى طول الطريق يضيف الفنَّانون الشعبيُّون الأغاني من تأليفهم الخاصّ. لنلقي نظرةً على الماضي القريب فقط، قام Huddie Ledbetter وWoody Guthrie وPete Seeger بتأليف مجموعاتٍ من «الأغاني الشعبيَّة» التي انضمَّت إلى التراث، على الرَّغم من أنّنا كنّا نعرف المؤلّف في هذه الحالات، نحن نميل إلى استبعاد القصائد الغنائيّة مثل جيلبرت وسوليفان وجيرشوينز من التراث، لكنَّ الوقت قد يمحو هذا التمييز. وجهة نظري هي أنّه بالرَّغم من أنّه من الممكن من حيث المبدأ، إذا امتلكنا معرفةً تاريخيّةً كاملة، فيمكننا دائماً تحديد الملحّن والشاعر الغنائي، وفي كثيرٍ من الحالات، تمَّ توزيع التأليف على مدى القرون بحيث لا أحد يستحقُّ الفضل في اللحن أو كلمات الأغنية الشعبيَّة «الكلاسيكيَّة» التي تظهر الآن في التراث؛ هل دوَّن رافنسكروفت «الغربان الثلاثة» عام 1611 فقط، أم أنّه قام بتأليفها، أم أنّه قام بتكييفها كما دوَّنها، أم أنّها تكيَّفت بنفسها؟

9. بعضٌ من هذا يمكن ملاحظته بوضوح: لماذا يجب أن تكون اللغة المكتوبة مسلسلةً بالمطلق (كلمةٌ واحدةٌ فقط في كلّ مرّة)؟ بعبارة فجة، لأنَّ لدينا فماً واحداً فقط نتحدَّث به.

تُظهِر الرموز الكتابيَّة اليابانيَّة والصينيَّة أنَّه من الممكن للغات المكتوبة أن تفكَّ قيودها الشفويةَ، إن لم يتمَّ التخلُّص منها تماماً، هل يمكن اعتبار نظام الرموز الذي لا يمكن «نطقه»، والذي كان ثلاثيَّ الأبعاد (نحت كلمةٍ من نوعٍ ما)، أو اعتمد بشكلٍ كبير على استخدام اللون، لغة؟ ظهرت فكرة القراءة الصامتة - ناهيك عن القراءة دون تحريك الشفاه! - في وقتٍ متأخِّرٍ من تطوُّر الكتابة (في العصور الوسطى، متوسِّط المؤرِّخين- انظر، على سبيل المثال، Saenger، 2000)، والتهجئة القديمة هي أيضاً، بالطبع، أثرٌ للنطق السابق.

10. يجادل بلاكمور (1999، ص 197) بأنَّ «الدافع الميمي» ممكن ومرجَّح في تفسير حبّنا للطقوس: سوف يستجيب النَّاس بشَكلٍ متنوّعٍ للطباع في الطقوس المنقولةِ ثقافيّاً، وهذا من شأنه أن يخلق بيئةً انتقائيَّةً جديدة حيث تمَّ اختيار موهبة، وتقدير هذه الطباع وراثيّاً، تماماً كما تمَّ اختيار موهبة اللغة جينيّاً بمجرَّد نشوء اللغة. ما بدأ كحبٍّ غير متمايزٍ إلى حدٍّ ما للطقوس، يمكن أن يتطوَّر وراثيّاً إلى حبٍّ لإصداراتٍ غير طبيعيَّةٍ من الطباع المحليَّة، وهي حالةٌ من التطوُّر المشترك للثقافة الجينيَّة التي قادها الاستكشاف الثقافي لمساحة الاحتمالات، وهو امتدادٌ محتملٌ لتأثير بالدوين، حيث يمكن للابتكارات السلوكيَّة التي حقَّقها الأفراد في حياتهم (الابتكارات التي اكتشفوها أو تعلَّموها) أن تخلق وتركِّز ضغوط الاختيار التي تؤدّي في النهاية إلى ميولٍ فطريَّةٍ لأداء هذه الابتكارات، يمكن أن تؤثِّر الخصائص المكتسبة على تطوُّر الخصائص المُحدَّدَة وراثيّاً بطريقةٍ غير لاماركيَّة (انظر Dennett، 1995b، 2003a، 2003d).

11. قد ينزعج بعض القرَّاء من حديثي المستمرّ عن الميمات في هذا الفصل، لأنَّ علماء الأنثروبولوجيا الذين أناقش عملهم بشكلٍ إيجابي - بوير وأتران ومعلِّمهم سبيربر - متَّحدون في رفضهم لمنظور الميمات، كما هو واضح تماماً في كتبهم ومقالاتهم. لقد ناقشت هذا معهم لبعض الوقت، سواءً في الصحافة (Dennett، 2000، 2001a، 2001b، 2002b [أعيد طبعه هنا كملحق أ]، وخاصَّةً 2005 ب؛ وانظر سبيربر، 2000) وفي المؤتمرات. أعتقد أنَّهم يرتكبون خطأً، لكنَّه نوعٌ من الخلاف الفنّي الذي قد يصرف انتباه معظم القرَّاء، ومع ذلك

فإنَّ الردَّ على اعتراضاتهم مقبول، ويتمُّ توفيره في الملحق ج، انظر أيضاً المقالات الأخرى في Aunger، .ed، 2000، حيث Sperber،2000، appears؛ وLaland و Brown، 2002، الفصل 6.

12. شكراً لدان سبيربر لقيامه بتفجير هذا البالون من خلال لفت انتباهي إلى Mahadevan and Staal، 2003، والذي اقتبس منه هذا المقطع.

13. للحصول على مدخلٍ واضح، ولكن مثيرٍ للجدل للمجال العلمي، والذي أصبح الآن قديماً إلى حدٍّ ما، انظر Ruhlen، 1994، وللحصول على نظرةٍ عامَّة عن الحالة الراهنة للعلم، انظر .Christiansen and Kirby ،eds، 2003.

دراساتٌ أخرى تحفِّز الفكر هي Carstairs-McCarthy، 1999، -and Cavalli Sforza، 2001.

14. السباحة هي حالةٌ وسيطةٌ مثيرةٌ للاهتمام: على عكس الجري والمشي، فإنَّ حركات السباحة لها تاريخٌ ميمي، ففي أواخر القرن التاسع عشر، نقل الإنجليزي آرثر ترودجن الطريقة الأمريكيَّة الأصليَّة للسباحة إلى إنجلترا (سرعان ما أُطلِق على هذا الموجّه الميمي اسم «trudgeon» أو «trudgen crawl»)، لكنَّه أخطأ في تنفيذ الحركة، باستخدام حركة الصدر «الضفدع» بدلاً من ركلة الرفرفة التي يستخدمها الأمريكيُّون الأصليُّون. تمَّ تصحيح خطأ النقل هذا بواسطة Richard Cavill في عام 1902، وتعدُّ السباحة السريعة front crawl اليوم سليلة هذا التحسين الأخير، لكن من المحتمل أن تكون نسخ السباحة قد تمَّ اختراعها وإعادة اختراعها عدَّة مرَّات على مرِّ العصور، نظراً لأنَّها تتفوَّق بشكلٍ واضح على جميع الطرق المعروفة الأخرى لدفع النفس عبر الماء بسرعةٍ عالية، ولذلك عرفت هذه الحيلة الجيّدة باسم السباحة الحرَّة في السباحة التنافسيَّة، والقاعدة الوحيدة في السباحة الحرَّة، هي: أنَّه يجب عليك رفع الرأس فوق سطح الماء بين الحين والآخر (وقد تمَّ تقديم هذه القاعدة لمنع السبَّاحين من تجربة الحركات الخطرة تحت الماء، التي قد تغرقهم إذا أغمي عليهم)، في السباحة الحرَّة، مرحَّبٌ بك لتحسين السباحة السريعة إن استطعت.

15. لاحظ أنّه اليوم، بفضل الكتابة ووسائط التخزين الأخرى، هذه ليست مشكلة، لذلك لم يعد الدين بحاجةٍ إلى مثل هذه الطقوس المعتادة من الانسجام، للحفاظ على النصّ نقيّاً، لكنّ الدين الذي يجعل الطقوس اختياريّة معرّضٌ لخطر الاستسلام لأسبابٍ أخرى.

16. يقدّم Atran ، 2002، Lawson and McCauley ، 2002، انتقاداتٍ مفصّلةً لفرضيّات Whitehouse (1995،2000) وغيرها.

17. قاعدة Orgel الثانية هي: «التطوُّر أذكى منك!» (دينيت، 1995 ب، ص 74)، ويجادل Stark and Finke (2000) بأنّ العديد من «الإصلاحات» الدينيّة التي تمّ تنفيذها بشكلٍ متحرّرٍ وواعٍ في الآونة الأخيرة، تبطل أعمال التصميم الحكيمة المتضمَّنة في الممارسات الدينيَّة التقليديَّة، وهم يجادلون بأنَّه من الخطأ الفادح في التصميم، أن تجعل الطقوس الدينيَّةَ سهلةً وغير مكلفةٍ وغير مؤلمةٍ للغاية.

6- تطوُّر الوكالة:

1. عرَّفني عالم الموسيقى العرقي جيف تود تيتون على موسيقى التبشير بالإنجيل في تحليله الرائد لفن جون شيرفي (Titon، 1988)؛ يمكنك أن ترى وتسمع بنفسك في الفيديو الوثائقي الخاصّ به، Powerhouse for God ((Documentary Educational Resources، 101 Morse Street، Watertown، MA 02472). العشرات من خطب سي إل فرانكلين في ديترويت وممفيس تمَّ تسجيلها وبثُّها على الصعيد الوطني بواسطة شركة تسجيلات Chess، وهي متاحةٌ من خلال مواقع الويب المختلفة.

2. من الممكن أيضاً أن تنتقل بعض العناصر المستقرَّة في أماكن التزاوج عن طريق التقليد، وليس من خلال الجينات، وهذا مثالٌ آخر على التقليد الحيواني، وليس الغريزة (Avital and Jablonka، 2000). يمكن لدراسات التبنّي المتبادل، التي تمَّ فيها تفريخ بيض الطيور من تقليد مكان تزاوجٍ واحد، وتربيته بواسطة طيورٍ ذات مكان تزاوجٍ مختلف، إلقاءُ

الضوء على هذا الأمر.

3 - Pinker، 1994؛ Deacon، 1997؛ وJackendoff، 2002، هي أكثر الأعمال التي يمكن الوصول إليها مؤخَّراً حول هذا الموضوع.

4. نعم، البندول يتأرجح مرَّةً أخرى حول السمرة، يتَّضح الآن أنَّ ضوء الشمس مفيدٌ جدَّاً بالنسبة لك (باعتدال)، لدرجة أنَّ التغطية التي أوصى بها العديد من أطبَّاء الجلد كانت تذهب بعيداً جدَّاً، من الصعب مواكبة كلِّ هذه المعلومات، ولذلك لا نشكّك في الغالب في «ما يعرفه الجميع».

5. يجب أن أشدّد على هذا، لإبقاء التعدديين الثقافيين ذوي النوايا الحسنة والمضلِّلين في مأزق: الكيانات النظريَّة التي تؤمن بها تلك القبائل بصراحة – الآلهة والأرواح الأخرى – غير موجودة، هؤلاء النَّاس مخطئون، وأنت تعرف ذلك جيّداً مثلي.

من الممكن أن يكون لدى الأشخاص الأذكياء نظريَّةٌ مفيدةٌ للغاية ولكنَّها خاطئة، ولا يتعيَّن علينا التظاهر بخلاف ذلك من أجل إظهار الاحترام لهؤلاء الأشخاص وطرقهم.

6. في مناقشةٍ مهمَّةٍ، ولكن لا تحظى بالتقدير الكافي، يقترح Sperber (1985، ص 49 وما يليها) أنَّنا نطلق على مثل هذه الحالات المعرفيَّة غير المحدَّدة، تمثيلاتٍ شبه افتراضيَّة. هذه هي «الأفكار نصف المفهومة» التي نستخدمها جميعاً كلَّ يوم، والتي تتحوَّل عادةً إلى تمثيلاتٍ افتراضيَّة مناسبةٍ فقط تحت ضغط التحقيق المنهجي، وهذه العمليَّة المفترضة لتوليد اللاهوت تشبه نموذج التوليد والاختبار لإنتاج الأحلام وتوليد الهلوسة الموصوف في Dennett، 1991a، الفصل الأول.

7. أتبنَّى هنا الحديث «الأناني الميمي» بصوت المعلوم، إنَّه الاختصار نفسه الذي نستخدمه عندما نقول: إنَّ فيروس نقص المناعة البشريَّة «يهاجم» و«يخفي» و«يعدّل استراتيجيَّته» استجابةً لجهودنا لاستئصاله. الأفكار ليس لها عقولٌ أكثر من الفيروسات أو البكتيريا، ولكن يمكن وصفها بشكلٍ مفيدٍ وتوقُّعي كما لو كانت أنانيَّةً وذكيَّة.

8. منذ سنواتٍ عديدة، قمت بنشر ورقةٍ عن الألم Dennett ، 1975، أُعيد طبعها في عام 1978) تضمَّنت بعض الحقائق المروّعة حول استخدام أطبّاء التخدير عقاقيرَ غير مؤذيةٍ للقضاء على ذكريات ألم ما بعد الجراحة، الذي عانى منه المرضى الذين خضعوا للتخدير غير الكافي أثناء الجراحة. ناشدني العديد من أطباء التخدير الذين قرأوا مقالتي في المسودة عدم نشر هذه التفاصيل في مجلّةٍ غير طبيّة، لأنّها ستجعل عملهم أكثر صعوبة، أيُّ شيءٍ يزيد من قلق المرضى قبل الجراحة يجعل التخدير الآمن أكثر صعوبة، ومن ثمَّ أكثر خطورةً عليهم، لذلك من الأفضل الاحتفاظ بهذه المعلومات في مكانها: مقصورةً على المجتمع الطبّي. هذه أقوى حالةٍ أعرفها عن حقيقةً أنَّ النّاس قد يكونون أفضل حالًا بعدم المعرفة، لكنّها لم تكن قويَّةً بما يكفي لثنيي عن ذلك، قد ترغب في أن تسأل نفسك ما إذا كنت ستوافق على سياسة تمتُّع الأطبّاء بميزة المعرفة السرّيّة التي تمَّ الاحتفاظ بها بشكلٍ منهجي عن مرضاهم بأيّ ثمن.

9. إنَّ النظريَّة القائلة بأنَّ كلَّ دينٍ هو مجرَّد خدعة كاهنٍ، أو خداعٍ أو تلاعبٍ من قبل الكهنة لمصلحتهم، هي نظريَّةٌ ذات تاريخٍ يعود إلى ديدرو والتنوير، «ومع ذلك، على الرَّغم من الشكوك القديمة والحديثة على حدٍّ سواء، وعلى الرَّغم من وجود المكر والخداع الذي لا يرقى إليه الشكُّ بين البشر، فإنَّ فرضيَّة الخداع الخالص لا تفسّر أيَّ شيء،» يجزم Burkert (1996، ص 118)، ولكن هذا قويٌّ جدًّا؛ قد لا يفسّر كلَّ شيء، لكنَّه يفسّر العديد من سمات الدين في جميع أنحاء العالم، من عمليّات الاحتيال النفسي إلى أسوأ تجاوزات التبشير الإنجيلي عبر التليفزيون.

7- اختراع روح الفريق:

1. قد تتحدَّث إحدى التقاليد هنا عن الاهتمام «غير الأناني»، ولكن بما أنَّ هذا يدعو حتماً إلى الاعتراضات حول التناقض المزعوم للنكران الحقيقي للذات، فإنَّني أفضّل التفكير في هذا على أنّه إمكانيَّةٌ لتوسيع مجال الذات، إليكم سبباً وجيهاً واحداً: من المفترض أنَّ الفاعلين

«غير الأنانيين» ليسوا محصَّنين على الإطلاق ضدَّ المشكلات التي تفسد الفاعلين الأنانيين الذين يصفهم الاقتصاديُّون؛ لنفترض أنّني فاعلٌ في موقف مساومة، أو في معضلة سجين، أو أواجه عرضاً قسريّاً، أو محاولة ابتزاز، لم يتمَّ حلُّ مشكلتي، أو تقليلها، أو حتَّى تعديلها بشكلٍ كبير، إذا كانت «الذات» التي أحميها تختلف عن ذاتي المناسبة، إذا لم أكن أحاول فقط إنقاذ بشرتي، إذا جاز التعبير، فإنَّ المبتزَّ أو المتبرّع الذي يعرف ما يهمّني هو في الموقع الذي يستطيع من خلاله أن يوجّه إليَّ ضربةً في الأمر الذي يهمّني، مهما كان هذا الأمر (المادة الواردة في هذه الملاحظة والفقرة النصيَّة التي تمَّ ربطها بها مستمدَّةٌ من Dennett، 2001b و2003b.)

2. يقدّم مانجي مثالاً معبّراً: السحق المتعمَّد للاجتهاد، وهو التقليد الإسلاميُّ في البحث الذي ازدهر حتَّى القرن العاشر (وكان سبباً في الإنجازات الفكريَّة والفنيَّة المجيدة للإسلام المبكر). تحت ستار حماية الأمَّة الإسلاميَّة في جميع أنحاء العالم من الانقسام (المعروف باسم الفتنة والتي تعدُّ جريمة)، شكَّل العلماء المعتمدون في بغداد إجماعاً على تجميد النقاش داخل الإسلام، استفاد هؤلاء العلماء من الرعاية، ولم يكونوا ليمتدحوا الانفتاح عندما أراد أسيادهم كلماتٍ أكثر قسوة، وكان الشيء الوحيد الذي حقَّقته هذه الاستراتيجيَّة الإمبرياليَّة هو إحداث أكبر اضطّهادٍ عنيفٍ للمسلمين من قبل المسلمين: حصر التفسير. [2003، ص. 59] يلاحظ مانجي أنَّ ما تمَّ نشره هو «تقليد التقليد»، وهي آليَّةٌ لتعزيز دقَّة النسخ مثل تلك التي تمَّت مناقشتها في الفصل الخامس، ولكن في هذه الحالة صمَّمها المشرفون عن عمد، لتعديل جميع الطفرات الاستكشافيَّة قبل أن تنتشر.

3. كتاب ويلسون مليءٌ بالأدلَّة والتحليلات المهمَّة، ولكن إحدى خيبات الأمل بالنسبة لمنظّري التطوُّر هي: أنَّ آليَّة نظريَّة الاختيار متعدّدة المستويات، التي طوَّرها ودافع عنها بقوَّة سوبر وويلسون في كتاب «إلى الآخرين» (1998)، لم يتمَّ استخدامها هنا. لا نرى أبداً أيَّ تحليلاتٍ لبياناتٍ تجريبيَّةٍ تُظهر أنَّ مجموعات السكَّان تتحلَّل بشكلٍ دوري إلى مكوّناتها، ويعاد تشكيلها في مجموعاتٍ ذات نسبٍ أعلى من محبّي الغير، على سبيل المثال، كما لا نرى

تكراراً تفاضليّاً جماعيّاً على الإطلاق - باستثناء بعض الملاحظات غير الرسميَّة المحيّرة في فصولٍ لاحقة من الكتاب، حول الطريقة التي تنتج بها الأديان الراسخة الطوائف. تعترف ملاحظةٌ ختاميَّةٌ مبكرة (رقم 3 في الصفحة 14) بهذه المضاعفات: «إذا ظلّت المجموعات معزولةً بشكلٍ دائمٍ عن بعضها البعض، فإنَّ الميزة المحليّة للأنانيَّة ستأخذ مجراها داخل كلِّ مجموعة وتؤدّي إلى انقراض الإيثار. يجب أن يكون هناك شعورٌ بأنَّ المجموعات تتنافس مع بعضها البعض في تكوين مجموعاتٍ جديدة، على الرَّغم من أنَّ المنافسة لا يجب أن تكون مباشرة...»(ص. 235) ولكن هذا هو المكان الوحيد الذي يتمُّ فيه معالجة هذه التعقيدات في الكتاب، بصرف النظر عن الادّعاءات التي ليست محلَّ الجدل مثل هذا: «بشكلٍ عام، لا تغيّر آليّات الرقابة الاجتماعيَّة الاستنتاج الأساسيَّ القائل بأنَّ التكيُّفات على مستوى المجموعة تتطلَّب عمليَّة مقابلةٍ لاختيار المجموعة» (ص 19). هذا الادّعاء بحاجةٍ إلى مزيدٍ من الدفاع الحذر، ويعتمد بشكلٍ حاسم على التعريف المستخدم لاختيار المجموعة.

4. في قائمته للنظريّات ص 45، يعرّف نظريَّة الميم على أنَّها: «1.3 الدين بوصفه» طفيليّاً «ثقافيّاً يتطوَّر غالباً على حساب الأفراد والجماعات البشريَّة».

5. لا يقتصر الأمر على أنَّ العديد من النقاط التي يضعها ويلسون دعماً لنظريَّة اختيار المجموعة، يمكن ترجمتها بسهولةٍ إلى حديثٍ ميمي، واستخدامها لدعم نظريَّة اختيار الميم، ويقرُّ ويلسون بأنَّ نظريّته في اختيار المجموعة تعتمد على وجود التطوُّر الثقافي:

«من المهمِّ أن نتذكَّر أنَّ المجتمعات الأخلاقيَّة التي يزيد عددها عن بضع مئاتٍ من الأفراد، «غير طبيعيَّة» فيما يتعلَّق بالتطوُّر الجيني، لأنَّها لم تكن موجودةً قبل ظهور الزراعة على حدِّ علمنا؛ هذا يعني أنَّ الآليّات المتطوُّرة ثقافيّاً مطلوبةٌ تماماً للمجتمع البشري لكي يتكاتف معاً فوق مستوى المجموعات التي تتواجه وجهاً لوجه»، [ص. 119] ونظراً لأنَّه - كما يلاحظ ويلسون- غالباً ما يتمُّ نسخ السمات الممتازة لدينٍ ما من قبل دياناتٍ أخرى غير مرتبطة، فهو ملتزمٌ بالفعل بتتبُّع سهولة التنقّل بين المضيفين من خلال الابتكارات، بشكلٍ مستقلٍّ تماماً عن أيّ انتقالٍ «عمودي» للسمات إلى مجموعات السليل.

يقدّم ويلسون مجموعةً متنوّعةً من النقاط المهمّة التي لا يمكن فهمها حقًّا، إلَّا على أنَّها ارتدادٌ ضمنيٌّ إلى وجهة نظر ميميّة، لذلك يمكن للمرء أن ينظر إلى» بديلي الميمي المعتدل «كتعديلٍ ودّي، على الرَّغم من أنّني أتوقَّع أن يستمرَّ ويلسون في تبنّي اختيار مجموعة، فهذه هي الميم التي كرَّس حياته المهنيَّة لنشرها بعد كلِّ شيء.

6. حقيقة أنَّ نظريَّة جانب العرض تسيءُ إليهم، ليست في حدِّ ذاتها حجَّةً ضدَّها بالطبع، ولا الادّعاء (الذي يدَّعيه الكثيرون) بأنَّهم لا يرون أنفسهم يتَّخذون قراراتٍ عقلانيَّةً في السوق بشأن دينهم، قد يخدعون أنفسهم بشأن عمليَّات تفكيرهم الفعليَّة، ولكن مع تساوي الأشياء الأخرى (والتي قد لا تكون كذلك)، فإنَّ حقيقة أنَّ النَّاس يتعاملون مع الكفر والغضب عند التفكير في نظريَّات المتعاملين مع العرض، هي بعض الأدلَّة على أنَّ معقوليَّة هذه النظريَّات ليست واضحةً كما يدَّعي ستارك وزملاؤه. انظر Bruce ، 1999، للحصول على نقدٍ مفصَّلٍ لنظريَّات الاختيار العقلاني للدين.

7. تمَّ تقديم مناقشةٍ تمهيديَّةٍ لهذه الأدبيَّات الحديثة في Dennett ، 2003c، الفصل 7، «تطوُّر الوكالة الأخلاقيَّة».

8. مقتبس من Armstrong ، 1979، ص. 249.

9. في مصطلحاتي، الآلهة ككائناتٍ واعية هي أنظمةٌ مقصودةٌ عالية المستوى، وكلاء عقلانيُّون يمكن للمرء أن يتحدَّث معهم، ويفاوضهم، ويجادلهم، يمكن أن يقدّم لهم العهود، ويمكن أن يتضرَّع إليهم. من الصعب تخيُّل الهدف من تقديم وعدٍ إلى أرضيَّة كلِّ الوجود.

10. تدور نماذج Bowles وGintis حول تطوُّر الميمات داخل المجتمعات، على الرَّغم من أنَّهما اختارا عدم استخدام المصطلح: «نحن نتبنَّى وجهة النظر التطوُّريَّة التي تعدُّ مفتاح فهم السلوكيَّات في أنواع التفاعلات الاجتماعيَّة قيد الدراسة، وهو التكرار التفاضلي: يمكن تفسير الجوانب الدائمة للسلوك، بما في ذلك المعايير، من خلال حقيقة أنَّه تمَّ نسخها والاحتفاظ بها ونشرها ومن ثمَّ تكرارها، في حين لم يتمَّ نسخ السمات الأخرى «(ص 347)،

واستمرُّوا في الإشارة إلى أنَّ هذه التأثيرات ليست نتيجة آليَّات اختيار المجموعة (ص 349)، على الرغم من أنَّها تفسّر التكيُّفات الشبيهة بالكائنات التي تظهرها المجتمعات.

8- الإيمان بالإيمان:

1. كما لاحظ ريتشارد ليونتين مؤخَّراً: «للبقاء على قيد الحياة، يجب أن يفضح العلم عدم الأمانة، ولكنَّ كلَّ عرضٍ علني من هذا القبيل ينتج عنه تشاؤمٌ حول نقاء المؤسَّسة وعدم اكتراثها، ويوفِّر الوقود لمناهضة العقلانيَّة الأيديولوجيَّة. كان الكشف عن أنَّ الجمجمة الأحفوريَّة لرجل بلتداون المتناقضة ظاهريَّاً هي في الواقع خدعةٌ، ومصدر ارتياح كبير لعلماء الأحافير الحائرين، ولكنَّه سببٌ للابتهاج الكبير في معابد تكساس «(2004، ص 39).

2. من أجل مناقشة نيتشه واستجابته الفلسفيَّة لنظريَّة داروين للتطوُّر عن طريق الانتقاء الطبيعي، انظر كتابي «فكرة داروين الخطيرة» (1995 ب).

3. توجد فروقٌ ذات دلالةٍ إحصائيَّة في سرطان الثدي (Li and Daling، 2003)، وارتفاع ضغط الدم، والسكَّري، وتحمُّل الكحول، والعديد من الحالات الأخرى المدروسة جيّداً، للحصول على نظرةٍ عامَّة، راجع مجلس سياسة العلوم الصحّيَّة (HSP)، 2003.

4. يُعَدُّ توماس كون، في كتابه «بنية الثورات العلميَّة» (1962)، الأب الروحيَّ لجميع المناقشات اللاحقة، وتجدر الإشارة إلى أنَّ كتاب «كون» ربَّما يكون بطل كلِّ العصور في فئة الكلاسيك الذي يساء فهمه بحماسة، إنَّه كتابٌ رائع بالرَّغم من كلِّ سوء الاستخدام الذي تعرَّض له.

5. أعطى نيوبيرج، داكويلي، وراوز كتابهم الصادر عام 2001 عنوان «لماذا لن يختفي الله: علم الدماغ وبيولوجيا الإيمان»، ويدَّعون أنَّهم يظهرون من خلال «العلم التقليدي المُتقي» (ص 141) «تأكيداتٍ أعمق ومصادقاً عليها من قبل علم بيولوجيا الأعصاب تجعل الله حقيقيَّاً «(ص 164)، لكنَّ الله الذي يزعمون أنَّهم يكشفون عنه من خلال دراسة» علم

أعصاب التفوُّق»، هو شيءٌ يسمُّونه كائناً وحدانيّاً مطلقاً، وهو أمرٌ لا يمكن تعريفه لدرجة أنَّني لا أملك أيَّ فكرةٍ عمّا إذا كنت أؤمن به. (أعتقد أنَّ شيئاً ما موجود - هل هذا الكائن الوحداني المطلق؟) يعترف المؤلّفون: «إذا كان الكائن الوحدانيُّ المطلق حقيقيّاً، فإنَّ الله بجميع الأشكال التي يعرفه بها البشر، يمكن أن يكون مجرَّد استعارة» (ص 171)، بعبارةٍ أخرى، لا يوجد شيءٌ في علم الأعصاب يجب أن يختلف معه الملحد.

6. في رواية Lee Siegel المبهجة، Love and Other Games of Chance (2003)، هناك شخصيَّةٌ ألَّفت كتاباً دينيّاً كان الأكثر مبيعاً بعنوان He's Not Called God for Nothing. فكّر في الأمر.

7. يسمّم نفس النفور النقاشات حول نظريَّة الخلق و«التصميم الذكي»، ففي أحد طرفيها، هناك خلقيُّو «الأرض الشَّابَّة» الذين ينكرون أنَّ كوكبنا يبلغ من العمر مليارات السنين، ويدافعون عن الفرضيَّات المضحكة لشرح الأحافير وجميع الأدلَّة الأخرى، ومن ثمَّ هناك دعاة التصميم الذكي الأكثر منطقيَّةً إلى حدٍّ ما، والذين يعترفون بعمر الكوكب، والسجلِّ الأحفوري، وبالفعل تحدُّر جميع النباتات والحيوانات من سلفٍ وحيد الخليَّة، ولكن ما يزالون يعتقدون أنَّهم قادرون على إثبات أنَّ هناك عملاً يتعيَّن على المصمّم الذكي القيام به. عند الضغط على هؤلاء المفكّرين الأكثر تطوُّراً في السرّ، يقرُّون أحياناً بأنَّ هراء «الأرض الشَّابَّة Young Earth» هو مزيجٌ من الخيال والاحتيال، لكنَّهم لن يقولوا ذلك علناً، ثمَّ يشتكون بمرارةٍ من تجاهل المجتمع العلمي لهم: «نحن جادُّون في هذا!» -إنَّهم يصرُّون- «لكن من فضلك لا تطلب منَّا الاعتراف بزيف الإصدارات الأكثر سخافةً لموقفنا!» لا، ليس إذا كنت تريد أن تلعب في بطولات الدوري الكبرى.

8. للحصول على دراسةٍ استقصائيَّةٍ عن حالة الفن حوالي عام 1980 (إلى جانب بعض مقترحاتي المشاكسة)، انظر Dennett، 1982، أُعيدَ طبعه في عام 1987. لقد ألقيت مؤخَّراً نظرةً مختصرةً على الأدبيَّات التي تراكمت حول هذا الموضوع منذ ذلك الحين، ثمَّ خلصتُ إلى أنَّ ربع قرنٍ من الجهد الفاصل لم ينتج عنه أيُّ شيءٍ من شأنه أن يغيّر آرائي العائدة لعام

1982 بشكلٍ كبير، ولكن بالطبع سيختلف معي العديد من الفلاسفة بشدَّة.

9. كتاب "Cannon"، 1957، هو استكشافٌ كلاسيكيٌّ للمعتقدات التقليديَّة المنتشرة، التي تدَّعي أنَّ تعويذات الشر قد قتلت النَّاس بالفعل، ويخلص إلى أنَّه ليس من المستحيل بأيّ حالٍ من الأحوال التسبُّب في وفاة شخصٍ ما عن طريق إثارة أعصابه بشكلٍ قاتل، في الواقع، «يرفض [الضحيَّة] في رعبه كلّاً من الطعام والشراب، وهي حقيقةٌ لاحظها العديد من المراقبين، وهي – كما سنرى لاحقاً– مهمَّةٌ للغاية لفهمٍ مبسَّطٍ للنشوء البطيء للضعف؛ «يبتعد» الضحيَّة، تنفد قوَّته مثل الماء، لإعادة صياغة الكلمات المقتبسة بالفعل من حسابٍ بياني واحد، ويستسلم في غضون يومٍ أو يومين» (ص 186).

10. في Dennett ، 1978، اقترحت تمييزاً بين المعتقدات و«الآراء»، وهي (تقريباً) جملٌ يمكن للمرء أن يراهن على أنَّها صحيحة (حتَّى لو لم يفهمها تماماً). قام Sperber (1975) بعمل تقسيمٍ مشابهٍ بين المعتقدات البداهيَّة والتأمُّليَّة، وقام بتوسيع ومراجعة هذا التحليل في Sperber ، 1996.

11. انظر أيضاً Palmer and Steadman، 2004، حول التكتيك التكيُّفي للكتابة الحَرْفيَّة للاستعارات.

12 . جاءت مقدّمتي لهذه الفكرة المحبطة إلى حدٍّ ما في عام 1982، عندما أخبرتني محرّرة المقتنيات في إحدى شركات نشر كتب الجيب الكبرى، أنَّ شركتها لن تقدّم عرضاً للحصول على حقوق كتاب الجيب لـكتاب» The Mind's I، مختارات الفلسفة والخيال العلمي» الذي حرَّرته أنا ودوغلاس هوفستاتر، لأنَّه «كان من الواضح جدّاً أن يصبح كتابَ عبادة». استطعت أن أرى ما قصدته: لقد شرحنا الأشياء بعنايةٍ قدر الإمكان، وكما أخبرني جون سيرل ذات مرَّة عن محادثةٍ أجراها مع الراحل ميشيل فوكو: «ميشيل، أنت واضحٌ جدّاً في الحديث؛ لماذا عملك المكتوب غامضٌ جدّاً؟» أجاب فوكو: «هذا لأنَّه لكي تُؤخذ على محمل الجدّ من قبل الفلاسفة الفرنسيين، فإنَّ 25 بالمائة ممَّا تكتبه يجب أن يكون هراءً لا يمكن اختراقه،» لقد قمت بصياغة مصطلح لهذا التكتيك تكريماً لصراحة فوكو: التحريف

.(Dennett، 2001a)

13. البروفيسور إيمان/ Faith هو خليفة أوتو في كتاب Consciousnesss Explained (1991 أ)، وكونراد في كتاب «الحرِّيَّة تتطوَّر» (2003 ج)، لا يجب أن يُعرف على أنَّه محاورٌ حقيقيٌّ لي، لكنَّه يعبر عن معظم الاعتراضات التي سمعتها.

14. أمضى الفلاسفة عقوداً يحلمون بتجارب فكريَّةٍ مصمَّمةٍ لإثبات أو دحض مبدأ كواين الخاصّ بعدم تحديد الترجمة الراديكاليَّة (1960): الادّعاء المدهش أنَّه من حيث المبدأ يمكن أن تكون هناك طريقتان مختلفتان لترجمة لغةٍ طبيعيَّةٍ إلى لغةٍ طبيعيَّةٍ أخرى، ولا يوجد دليلٌ على الإطلاق حول الطريقة الصحيحة لترجمة اللغة (أصرَّ كواين على أنَّه في هذه الحالة لن يكون هناك طريقةٌ صحيحة؛ كلُّ طريقةٍ ستكون جيّدةً مثل الأخرى، ولن تكون هناك حقيقةٌ أخرى لهذه المسألة). يمكن أن تساعدنا قضيَّة فيلبي في رؤية أنَّ ادّعائه هو أمرٌ لا يصدقُ كما يبدو لأول وهلة، ويقدّم الملحق (د) مناقشةً موجزةً لهذه النقطة (للفلاسفة فقط على الأرجح).

15. سوف يفهم الفلاسفة هذا بكونه تطبيقاً لنظريَّة كواين عن المعنى (1960)، وامتداداً لملاحظته أنَّه في «شبكة الاعتقاد» العظيمة، تُظهر العبارات النظريَّة البعيدة عن محيط التأكيد وعدم التأكيد التجريبي، بسهولة غموض المرجع.

16. تنصُّ نظريَّة Gödel على أنَّه إذا حاولت إضفاء البداهيَّة على الحساب (بالطريقة التي بسَّط بها إقليدس الهندسة المستوية - تذكَّر هندسة المدرسة الثانوية؟)، فسيكون نظام البداهيَّات الخاصُّ بك إمَّا غير متَّسق (وهو ما لا تريده بالتأكيد، لأنَّ أيَّ شيءٍ على الإطلاق، الأكاذيب وكذلك الحقائق، يمكن إثباتها من البداهيَّات غير المتَّسقة) أو غير كاملة - ستكون هناك على الأقلّ حقيقةٌ حسابيَّةٌ واحدة، نظام جملة Gödel، والتي لا يمكن إثباتها أبداً من البداهيَّات الخاصَّة بك. يمكن إثبات نظرية Gödel مسبقاً، ولكن لجعلها تحتوي على أيّ تطبيقٍ في العالم الحقيقي (على سبيل المثال، لوصف القيود المفروضة على آلات Turing الفعليَّة والمنفّذة)، يجب عليك إضافة فرضيَّةٍ تجريبيَّةٍ أو اثنتين، وهنا تنشأ مشكلات التفسير

للتشويش على الازدواجيّة المحتملة، على سبيل المثال. انظر «قدرات الرجال والآلات» في Dennett ، 1978؛ والفصل عن روجر بنروز في Dennett ، 1995b.

17. قد أكون مخطئاً بالطبع، هناك العديد من النقّاد الدينيين الجديرين بالذكر في كتابي (والعديد من المحرّفين اليائسين).

إنَّ مراجعة الميتافيزيقي المسيحي ألفين بلانتينجا السلبيّة (1996)، والمتاحة (مع مقالاتٍ أخرى حول هذه الموضوعات) على موقع الويب الخاصّ به في http: //id-www.ucsb.edu /fscf / library /plantinga / dennett.html، هو مكانٌ جيّدٌ للبدء، لأنّه على الرّغم من أنّه لا يستطيع مقاومة إساءة تفسير بعض حججي، فإنّه يشرح بوضوحٍ شديد قوّة التحدّي الدارويني لمسيحيّته، فهو على سبيل المثال، ليس لديه أوهامٌ حول «الصلاحيّات» لستيفن جاي جولد التي نوقشت في الفصل الثاني.

إذا كانـت الداروينيَّـة عـلى حـقّ، فـإنَّ العديـد مـن العقائـد المسـيحيَّة العزيـزة في ورطـة، ولهـذا السـبب فهـو - ميتافيزيقـيٌّ وليـس فيلسـوف علـم - يأخـذ عـلى عاتقـه تأييـد بعـض الحجـج السـيّئة لمجتمـع التصميـم الذكـي. كان بلانتينجـا أيضـاً، في العديـد مـن كتبـه ومقالاتـه، مدافعـاً لا يعـرف الكلـل عـن الحجـج المسـبقة للاهـوت، بـما في ذلـك محـاولات دحـض الحجّـة المضـادّة المفضّلـة للملحديـن، وهـي حجّـة الـشر، والتـي تـمَّ إعـادة الاسـتماع إليهـا مؤخّـراً بشـكلٍ جيّـد بعـد كارثـة تسـونامي في المحيـط الهنـدي. لموازنـة بلانتينجـا، أوصي بكتـاب أقـدم، وهـو كتـاب جـون ماكـي معجـزة الإيـمان بـالله: الحجـج المؤيّـدة لوجـود الله وضـدَّ وجـوده (1982)، كمعالجـةٍ صبـورةٍ ومتعاطفـة - ولكنّهـا أيضـاً معالجـةٌ صارمـةٌ وقاسـية - كـما أراهـا.

18- أثار ديكارت مسألة ما إذا كان الله قد خلق حقائق الرياضيّات، وقد عبَّر أحد أتباعه نيكولاس دي مالبرانش (1638-1715) بحزمٍ عن وجهة نظرهم بأنَّ حقائق الرياضيّات لا تحتاج إلى بداية، كونها أبديَّةً مثل أيّ شيءٍ يمكن أن يكون.

9 - نحو دليل المشتري للأديان:

1. للحصول على مثالٍ حديث، انظر Dupré، 2001، كنت أفضّل أن أوصي بتجاهله، لكنّني طلبت مراجعة ذلك، كما قرّرت استخدام المناسبة لتوجيه اللوم (Dennett، 2004) حول التجاوزات المؤسفة لما بعد الحداثة، انظر أيضاً Dennett، 1997.

2. وفقاً لبوركيرت، أشار دياجوراس إلى النقطة نفسها منذ آلاف السنين:

«قيل لدياجوراس الملحد: «انظر إلى كل هذه الهدايا النذريَّة» في حرم Samothrace الذي يضمُّ الآلهة العظيمة التي اشتهرت بإنقاذ النَّاس من الأخطار في البحر، وردَّ الملحد بلا هوادة: «سيكون هناك عددٌ أكبر من النذور، لو أتيحت الفرصة لجميع أولئك الذين غرقوا في البحر بالفعل لإقامة نصبٍ تذكاريَّة». [1996، ص. 141]

3. كما تمَّت مناقشته في الفصل السابع، يجادل Stark and Finke (2000) بأنَّ تكلفة التضحية هي في الواقع عامل جذبٍ مهمّ للدين، ولكن فقط لأنَّك «تحصل على ما تدفع مقابله»، وجزءٌ ممَّا تحصل عليه يمكن أن يكون صحَّةً وازدهاراً.

4. كان هناك قدرٌ هائلٌ من الأبحاث حول هذا الموضوع، عددٌ قليلٌ من أفضل الاستطلاعات هي Ellison and Levin، 1998؛ Chatters، 2000؛ Sloan and Bagiella، 2002؛ and Daaleman et al.، 2004.

5. في عام 1996، أعلن البابا يوحنَّا بولس الثاني أنَّ «المعرفة الجديدة تقودنا إلى الاعتراف بنظريَّة التطوُّر بكونها أكثر من مجرَّد فرضيَّة»، وعلى الرَّغم من أنَّ العديد من علماء الأحياء قد شعروا بالبهجة من هذا الاعتراف بالنظريَّة العلميَّة الأساسيَّة التي توحّد البيولوجيا كلَّها، فإنَّهم لاحظوا بجزعٍ أنَّه استمرَّ في الإصرار على أنَّ الانتقال من القرد إلى الإنسان ينطوي على «انتقالٍ إلى الروحاني» الذي لا يمكن لعلم الأحياء أن يفسّره، ومن ثمَّ فإنَّ نظريَّات التطوُّر التي- وفقاً للفلسفات الملهمة لها- تعدُّ الروح على أنَّها منبثقةٌ من قوى المادَّة الحيَّة، أو مجرَّد ظاهرةٍ ثانويَّةٍ لهذه المسألة، لا تتوافق مع حقيقة الإنسان، كما أنَّهم غير قادرين على ترسيخ

كرامة الشخص؛ تصف علوم الملاحظة وتقيس مظاهر الحياة المتعدّدة بدقّةٍ متزايدة وتربطها بالجدول الزمني.

لا يمكن أن تكون لحظة الانتقال إلى الروحانيّة موضوع هذا النوع من الملاحظة، والتي مع ذلك يمكن أن تكتشف على المستوى التجزيبي سلسلةً من العلامات القيّمة للغاية التي تشير إلى ما هو خاصٌّ بالإنسان. [يوحنا بولس الثاني، 1996]

في الآونة الأخيرة، نشر كريستوف شونبورن، رئيس أساقفة فيينا الكاثوليكي الروماني، مقالةً افتتاحيّةً في صحيفة نيويورك تايمز (7 يوليو 2005) يستنكر فيها تحريف هذه الرسالة على أنّها تأييد للتطوُّر، والتأكيد على أنّ الموقف الرسميّ للكنيسة الكاثوليكيّة الرومانيّة يعارض في الواقع نظريّة التطوُّر الداروينيّة الجديدة عن طريق الانتقاء الطبيعي. سيكون مشهد الأساقفة والكرادلة الرومان الكاثوليك الذين يرشدون المؤمنين إلى زيف علم الأحياء الدارويني الجديد هزليّاً، إذا لم يكن تذكيراً واضحاً بتاريخ الكنيسة المؤسف في اضطّهاد العلماء الذين كانت نظريّاتهم غير ملائمةٍ من الناحية العقائديّة. وفقاً لرئيس الأساقفة شونبورن، قد يستخدم الكاثوليك «نور العقل» للوصول إلى نتيجةٍ مفادها: أنّ «التطوُّر بالمعنى الدارويني الجديد - كعمليّةٍ غير موجّهةٍ وغير مخطّطةٍ للتنوّع العشوائي والانتقاء الطبيعي» غير ممكن، وهو استنتاجٌ دحضته بشدّةٍ آلاف الملاحظات والتجارب والحسابات التي أجراها خبراءٌ في علم الأحياء مستخدمين نور العقل الخاصّ بهم، لذلك، على الرَّغم من بعض التنازلات المهمّة على مرِّ السنين - والاعتذار الرسمي لغاليليو بعد قرونٍ من ظهور الحقيقة - ما تزال الكنيسة الرومانيّة الكاثوليكيّة في موقفٍ محرجٍ لا يمكن تبريره، عندما تحاول الاتّكاء على السلطة العلميّة، عندما يعجب الكاثوليك بما تخلص إليه، بينما يرفضونها بشكلٍ قاطع عندما تتعارض مع تقاليدهم.

10- الأخلاق والدين:

1. استشهد البعض بعمل الاستطلاع الذي أجراه McCleary و McCleary (2003)

and Barro (2003) على أنّه يوضّح وجود صلةٍ بين الإيمان بالجنّة والجحيم، وامتلاك أخلاقيّات عملٍ جيّدة، ولكن لم يتمّ استبعاد التفسيرات الأخرى لعملهم. الاقتصاد القياسيُّ هو مجالٌ غالباً ما تسفر فيه الترتيبات المسموح بها للبيانات عن «نتائجَ» مختلفةٍ بشكلٍ لافتٍ للنظر، لذلك لا ينبغي أن يندهش المرء عندما يتوصَّل منظّرو المعتقدات المختلفة إلى قراءاتٍ مختلفة.

2. يختلف علماء المسلمين حول تفسير الآيات ذات الصلة من القرآن (والحديث 2562 في سنن الترمذي)، لكنَّ المقاطع الكتابيّة موجودةٌ بالتأكيد، ولم تُترجَم بشكلٍ خاطئ.

3. عُقِدَت البرلمانات السابقة في شيكاغو عام 1893، في المعرض الكولومبي، في عام 1993، في شيكاغو، وفي عام 1999 في كيب تاون.

4. كان هذا هو العنوان الرئيس باللغة الإيطاليّة، لمقابلةٍ أجراها معي جوليو جيوريلي نُشِرَت في كوريري دلتا سيرا في ميلانو عام 1997، وقد تبنّيته شعاراً لي منذ ذلك الحين، وافتتحت به كتابي Freedom Evolves (2003c).

5. للحصول على محاولةٍ حديثةٍ لاستغلالها، انظر جونسون 1996.

11- الآن ماذا نفعل؟

1. في كتابي «فكرة داروين الخطيرة»، انضممت إلى رونالد دي سوزا في الانتقاص من اللاهوت الفلسفي بوصفه «تنساً فكريّاً من دون شبكة» (1995 ب، ص 154)، وأوضحت سبب كون الاحتكام إلى الإيمان خارج الحدود، بالمعنى الحرفي للكلمة، في لعبة البحث التجريبي الجدّيّة. أثار هذا المقطع غضب بلانتينجا (1996) وآخرين، لكنّني أساند هذه الفكرة، لنلعب التنس الفكريَّ الحقيقي: هذا الكتاب هو الخدمة التي أقدّمها، وأنا أرحّب بالردود الجادّة، مع شبكةِ العقل دائماً.

2. أنا أقترح هذا مسبقاً، مع أملٍ ضئيلٍ في إحباط ردِّ الفعل المعتاد: السخرية الدفاعيّة.

ضع في ذهنك بعض الردود على كتاب جاريد دياموند الجديد، Collapse (2005)، كما هو موضَّح في بوسطن غلوب بواسطة كريستوفر شيا (2005):

يقول أنتوني جرافتون، أستاذ التاريخ الأوروبي المبكر في جامعة برينستون، الذي يعتقد أنَّ عمل دياموند «سطحي»: إنَّ كُتباً مثل «أسلحة وجراثيم وفولاذ»، كما يقول، أقلُّ أهمّيّةً من أجل حججها من «إظهار ما تخلَّى عنه المؤرّخون» - التَّاريخ الكبير الشامل الذي يربط بين النقاط التي أنشأتها آلاف الدراسات. بالنسبة لي، لا يبدو البروفيسور جرافتون حقيراً؛ يبدو راضياً، ربَّما يستخفُّ هو وزملاؤه المؤرّخون بقوَّةٍ بحجج دياموند «السطحيَّة»، لكنَّنا لن نعرف حتَّى يأخذوها على محمل الجدِّ بما يكفي للتخلُّص منها بشكلٍ صحيح، وكما يقول المثل: إنَّها مهمَّةٌ قذرة، ولكن يجب على شخصٍ ما القيام بها.

لا يتعيَّن علينا جميعاً نحن أنصار التطوُّر أن نأخذ الخلقيين على محمل الجدّ، لأنَّ بعض أفرادنا قاموا بهذه المهمَّة بشكلٍ جيّد، وقمنا بفحصها ووافقنا عليها (انظر الملاحظة 3 في الفصل 3) بمجرَّد أن دحض المؤرّخون أطروحات دياموند بالاهتمام نفسه، يمكنهم العودة إلى تجاهل حججه، إذا لم يتمَّ إقناعهم. للحصول على ردٍّ آخر على ردِّ Diamond، انظر مراجعة Gregg Easterbrook (2005) وردي (Dennett، 2005c).

3. الباحثون الذين احتلُّوا عناوين الأخبار هم Michael Persinger (1987)؛ Vilayanur Ramachandran et al. (1997) للحصول على حساب Ramachandran الشهير، انظر Ramachandran and Blakeslee، 1998)، وAndrew Newberg and Eugene D'Aquili (Newberg et al، 2001) ناقش أتران الآفاق وأوجه القصور المرتبطة بهذا العمل بشكلٍ عادل (2002، الفصل 7، «موجات العاطفة: علم النفس العصبي للدين»). انظر أيضاً Churchland، 2002، وand Shermer، 2003 لمراجعاتٍ جيّدةٍ للدين والدماغ. تمَّت مناقشة الكتاب الأحدث للكاتب دين هامر (2004) في الفصل الخامس، وهناك آخرون يعملون على مثل هذه الموضوعات، وقد ناقش أتران أفضل الأعمال الحديثة.

4. إنَّ المجال الجديد للاقتصاد العصبي (على سبيل المثال، مونتاج وبيرنز، 2002؛ جليمشر، 2003) يحرز تقدُّماً كبيراً بسبب التقدُّم في التفكير الاقتصادي، وبسبب تكنولوجيا التصوير العصبي الجديدة. للمناقشة، انظر الفصل 8 من روس، 2005.

5. يمكن الاطّلاع على بدايةٍ أوليَّةٍ لهذا البحث الحسَّاس سياسيَّاً ولكن الآمن بيولوجيَّاً في Ewing et al.، 1974؛ Shriver، 1997؛ Gill et al.، 1999؛ Wall et al 2003. انظر Duster، 2005، للحصول على تقييمٍ مدروسٍ للمخاطر التي يجب تجنُّبها في دراسة العوامل الوراثيَّة في الأمراض التي تصيب الإنسان.

6. انظر، على سبيل المثال، الموسوعي Hill and Hood، 1999، Measures of Religiosity الذي يستعرض مئاتٍ من الدراسات الاستقصائيَّة والأدوات المختلفة.

7. قد تبدو هذه الأسئلة خياليةً للغاية بحيث لا يمكن أخذها على محمل الجدّ، لكنَّها ليست كذلك؛ أظهرت الأبحاث آثاراً مذهلةً للاختلافات التافهة على ما يبدو، أخبار اليوم مهمَّةٌ في بعض الظروف (Iyengar، 1987). في استطلاعٍ حول السعادة الشخصيَّة (أو الرفاهية الشخصيَّة)، إذا سأل المتّصل الهاتفي الأشخاص: «كيف حال الجوّ في منطقتكم؟» إذاً كيف لا يهمُّ الجو، إذا لم يسأل المتّصل الهاتفي هذا السؤال غير الضارّ وكان الجوُّ مشمساً؟ يقول النَّاس: إنَّهم أكثر سعادةً بشكلٍ ملحوظ! يؤدّي الانتباه إلى الجوّ المحلّي إلى تقليل احتماليَّة تأثّر المجيبين به سرَّاً في ردودهم على أسئلةٍ حول مواضيع أخرى (Schwarz and Clore، 1983) للحصول على أمثلةٍ أخرى، انظر Kahnemann et al.، 2000، eds..

8. صمَّم شيرمر الدراسة بالتعاون مع فرانك سولاوي، وهو إحصائيٌّ سابقٌ في معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا، وباحثٌ في داروين ومؤلّف كتاب Born to Rebel: Birth Order، Family Dynamics، and Creative Lives (1996).

بعد إجراء اختباراتٍ مسبقةٍ واسعة النطاق وتنقيح الاستبيان، أرسلوه أولاً إلى خمسة آلاف

من أعضاء جمعية المتشكّكين وحصلوا على أكثر من سبعمائة إجابة، ثمَّ أرسلوا الاستبيان نفسه إلى عيّنةٍ عشوائيَّةٍ من عشرة آلاف شخص في جميع أنحاء البلاد، وحصلوا على أكثر من ألف مستجيب. الإحصائيَّات أعلاه تخصُّ العيّنة العشوائيَّة، ولا تخصُّ المشكّكين، انظر Shermer، 2003 للحصول على بعض التفاصيل. شيرمر وسولاوي، قيد الإصدار، هو العرض الرسمي للنتائج.

9. كان عملي في تصميم الاستبيان هو استكشاف مصادر أخرى محتملةٍ للتشويه، مثل النظر في كيفيَّة الحصول على إجابةٍ مختلفة عن نفس الأسئلة في سياقين مختلفين (صعب وداعم)، هناك بالتأكيد فروقٌ ذات دلالةٍ إحصائيَّة، لكنَّها ليست ما توقَّعناه في البداية، وغامضةٌ بين العديد من التفسيرات المختلفة، لذلك نحن نصمّم دراسات متابعة، ولم نرسل بعد أيّاً من نتائجنا إلى مجلَّةٍ علميَّةٍ محكَّمة. بالمناسبة، لقد حاولنا الإجابة على السؤال الذي أثير في الفصل الثامن والذي راجعناه أعلاه، فيما يتعلّق بما إذا كان هناك فرقٌ بين السؤال الذي يُقرأ «الله موجود» أو «أعتقد أنَّ الله موجود» (موافقٌ بشدَّة، موافقٌ إلى حدٍّ ما)، تشير نتائجنا الأوليَّة إلى أنَّ هذا الاختلاف الطفيف في الصياغة لا يحدث فرقاً عندما تكون عناصر الاختبار، من حيث الموقف، هي «مشى يسوعٌ على الماء» مقابل «أعتقد أنَّ يسوع مشى على الماء»، لكن قد تكتشف دراسات أخرى سياقاً ينتج عنه نتيجةٌ مختلفة.

10. مقتبس في Stern، 2003، p الثالث عشر.

11. نقلا عن مانجي، 2003، ص. 90.

12. هذه الفقرة وسابقتها مأخوذةٌ مع التنقيحات من Dennett، 1999b.

13. بدأ سكوت أتران دراسة قادة حماس المستقبليين في فلسطين وغزَّة، انظر مقالته الافتتاحيَّة المهمَّة «حماس قد تمنح السلام فرصة»، نيويورك تايمز، 18 ديسمبر / كانون الأول 2004.

14. لن يجرؤ أيُّ ناشرٍ باللغة العربيَّة على نشر ترجمةٍ لكتاب مانجي، لكنَّ الترجمة العربيَّة

له متاحةٌ مجّاناً على الويب. يمكن للشباب المسلمين في جميع أنحاء العالم العربي تنزيله في ملفات PDF سرّيَّة، لقراءتها ومشاركتها ومناقشتها، وهي بدايات ما يسمّيه مانجي عمليَّة الاجتهاد. الاجتهاد يعني «التفكير المستقلّ»، وقد ازدهر كتقليدٍ خلال أعظم فترةٍ للإسلام، خمسمائة سنة تبدأ حوالي 750 م (مانجي، 2003، ص 51).

15. أفادت إرشادات مانجي أنَّها شاهدت لافتةً في مدرسةٍ جديدةٍ للبنات في أفغانستان: «علّموا فتى، وأنتم تعلّمون ذلك الفتى فقط، علّموا فتاةً، وأنتم تعلّمون أسرتها بأكملها» (خطاب في جامعة تافتس، 30 مارس 2005).

16. زعم استطلاعٌ حديثٌ لمجلة نيوزويك (24 مايو 2004) أنَّ 55٪ من الأمريكيين يعتقدون أنَّ المؤمنين سيصعدون إلى الجنَّة في حالة نشوة، و17٪ منهم يعتقدون أنَّ العالم سينتهي خلال حياتهم، وإذا كان هذا الاستطلاع قريباً من الدقَّة، فإنَّه يشير إلى أنَّ عدد الماركسيين في العقد الأول من القرن الحادي والعشرين، يفوق عدد الماركسيين في الثلاثينيَّات وحتَّى الخمسينيَّات بهامشٍ كبير، لكن ما هي النسبة المئويَّة لهؤلاء الأتباع المستعدّين لاتّخاذ أيّ خطوات، علنيَّةٍ أو خفيَّة، لتسريع هرمجدون المتخيَّل؟ أخشى أن أقول ذلك.

17. يقدم Sharlet، 2003، مقدّمةً رائعةً ومقلقة لهذه المنظَّمة غير المعروفة، والتي تتضمَّن هذه القائمة بأعضاء الكونغرس (بما في ذلك عددٌ قليل من الذين لم يعودوا في الكونغرس)، ويصف أيضاً النقاط البارزة في تاريخ أنشطتها في جميع أنحاء العالم، والتي تشمل ولائم إفطار الصلاة الوطنيَّة، والدعم الخفيَّ من القادة والحركات السياسيَّة. وصفت مجلة تايم (7 فبراير 2005، ص 41) زعيمها الحالي، دوجلاس كو، بأنّه «المقنَّع الخفي».

تعليقات شارليت:

في إفطار الصلاة الوطني عام 1990، امتدح جورج إتش. دبليو بوش (دوج كو) لما وصفه بـ «الدبلوماسيَّة الهادئة، ولن أقول الدبلوماسيَّة السرّيَّة»، بوصفه «سفير الإيمان». قام Coe بزيارة عواصم العالم كلّها تقريباً، غالباً مع أعضاء الكونغرس إلى جانبه، وقام

«بتكوين صداقاتٍ» ودعوتهم للعودة إلى المقرّ غير الرسمي للعائلة، وهو قصر (على الطريق مباشرةً من Ivanwald) اشترته العائلة في عام 1978 بتبرُّع بمبلغ 1.5 مليون دولار، من بين آخرين، توم فيليبس، ثمَّ الرئيس التنفيذي لشركة تصنيع الأسلحة Raytheon، وKen Olsen، مؤسّس ورئيس شركة Digital Equipment Corporation. [ص. 55]

أعتقد أنّنا بحاجةٍ إلى معرفة المزيد عن أنشطة هذه الدبلوماسيَّة الهادئة غير الحكوميَّة، لأنَّها قد تتّبع سياساتٍ تتعارض مع تلك الخاصَّة بالديمقراطيَّة التي يُنتخَب أعضاء الكونغرس هؤلاء كممثّلين عنها.

18. نحتاج أيضاً إلى أن نبقى على إطّلاع، وقد أصبح هذا الأمر أكثر صعوبة، ومن الغريب بما فيه الكفاية.

كنَّا نعتقد أنَّ السرّيَّة ربَّما كانت العدوَّ الأكبر للديمقراطيَّة، وطالما لم يكن هناك قمعٌ أو رقابة، يمكن الوثوق بالنَّاس لاتّخاذ قراراتٍ مستنيرةٍ من شأنها الحفاظ على مجتمعنا الحرّ، لكنّنا تعلّمنا في السنوات الأخيرة أنَّ تقنيات المعلومات المضلّلة والتضليل قد أصبحت دقيقةً للغاية، لدرجة أنَّه- حتَّى في مجتمعٍ مفتوح- يمكن لفيضانٍ من المعلومات المضلّلة الموجَّهة بذكاء أن يطغى على الحقيقة، على الرَّغم من أنَّ الحقيقة موجودةٌ وغير خاضعةٍ للرقابة، ومتاحةٌ بهدوءٍ لأيّ شخصٍ يمكنه العثور عليها.

على سبيل المثال، لا أخشى أن يتمَّ حظر أو قمع هذا الكتاب، لكنّني أتوقَّع أنَّه (وأنا) سوف نتعرَّض لتحريفٍ قاسٍ، عندما يسعى أولئك الذين لا يستطيعون مواجهة محتوياته بصدق، إلى تسميم أذهان القرَّاء، أو توجيه الانتباه بعيداً عنه، ففي تجربتي الأخيرة، حتَّى بعض الأكاديميين المحترمين لم يتمكَّنوا من مقاومة الإغراء للقيام بذلك (Dennett، 2003e).

بالاعتماد على هذه التجربة، قمت بإعداد قائمةٍ بمقاطع هذا الكتاب التي من المرجَّح أن يتمَّ اقتطاعها من سياقها، واستخدامها عمداً لتشويه موقفي.

هذه ليست المرّة الأولى التي أفعل فيها هذا، ففي كتابي «شرح الوعي»، قدَّمت حاشية سفليَّةً تمهيديَّة لمقطعٍ عن الزومبي (لا تسأل؛ أنت لا تريد أن تعرف)، مؤكِّدة، «سيكون عملاً يائساً من الغشّ الفكري أن اقتبس هذا التأكيد خارج السياق!» (1991a، p. 407n)، ومن المؤكَّد أنَّ العديد من المؤلّفين لم يتمكّنوا من مقاومة الاقتباس خارج السياق، ولكن على الأقلّ كان عليهم أن يقتبسوا من الحاشية السفليَّة أيضاً، ليسوا بهذا القدر من اليأس أو الخداع. في هذه الحالة، يلزم اتّخاذ تدابيرَ أقوى، نظراً لأنَّ المخاطر أكبر، لذلك أحتفظ بقائمة التحريفات المتعمَّدة المتوقَّعة مختومةً وجاهزةً للإفراج عنها، على سبيل المثال، أيٌّ من نكاتي الصغيرة، غير ضارَّةٍ تماماً في السياق، سيتمُّ التلويح بها لإثبات «عدم تسامحي»، و«عدم احترامي»، و«تحيُّزي» المعادي للمسيحيَّة، والمعادي للسَّاميَّة، والمسلمين؟ (كما يعلم جميع القرَّاء المخلصين جيّداً، فأنا لاعبٌ تشويقيٌّ لتكافؤ الفرص، أرفض التحرُّك على رؤوس أصابعي خوفاً من الإساءة للنَّاس، لأنَّني أريد إخراج بطاقة «أنا مستاءٌ للغاية» من اللعبة). من المثير للاهتمام معرفة من الذي يقع في فخّي، لن يكونوا مجتهدين في قراءة الملاحظات، أليس كذلك؟

الملحق ب المزيد من الأسئلة حول العلوم

1. غالباً ما يشتكي ويليام ديمبسكي، مؤلّف العديد من الكتب والمقالات التي تهاجم نظريَّة التطوُّر، بصوتٍ عالٍ من أنَّ عمله «العلميَّ» لا يُعاملُ باحترامٍ من قبل علماء الأحياء العاملين. بصفته المحرّر المشارك لـ Unapologetic Apologetics: مواجهة تحدّيات الدراسات اللاهوتية (2001)، يمكنه العثور على سبب هذا في ممارساته الخاصَّة، للحصول على نقدٍ تفصيلي لأساليب ديمبسكي، راجع موقع الويب الخاصّ بتوماس شنايدر، //:http .www.lecb.ncifcrf.gov/~toms / paper / ev /

2. هذه الفقرة مأخوذةٌ عن Dennett، 2003c، p. 303.

3. ترجع معظم هذه الزيادة الهائلة في الكتلة مقارنةً بالطبيعة «البرّيَّة» إلى الماشية والحيوانات الأليفة لدينا، والتي تفوقنا الآن في المجموع بأكثر من ثلاثةٍ إلى واحد. من الصعب تقدير نسبة النباتات المستأنسة إلى النباتات البرّيَّة، ولكن بالطبع تغيَّرت هذه النسبة بشكلٍ كبيرٍ أيضاً.



- Abed, Riadh, 1998, «The Sexual Competition Hypothesis for Eating Disorders.» British Journal of Medical Psychology, vol. 17, no. 4, pp. 525-47.
- Ainslie, George, 2001, Breakdown of Will. Cambridge: Cambridge University Press.
- ______, in press, «Precis of Breakdown of Will.» Target article for Behavioral and Brain Sciences.
- Anderson, Carl J., and Norman M. Prentice, 1994, «Encounter with Reality: Children's Reactions on Discovering the Santa Claus Myth.» Child Psychiatry & Human Development, vol. 25, no. 2, pp. 67-84.
- Andresen, Jensine, 2001, Religion in Mind: Cognitive Perspectives on Religious Belief Ritual, and Experience. Cambridge: Cambridge University Press.
- Armstrong, Ben, 1979, The Electric Church. New York: Thomas Nelson.
- Armstrong, Karen, 1993, A History of God: The 4000 Year Quest for Judaism, Christianity and Islam. New York: Ballantine Books.
- Ashbrook, James B., and Carol Rausch Albright, 1997, The Humanizing Brain. Cleveland, Ohio: Pilgrim Press.

- Atran, Scott, 2002, In Gods We Trust: The Evolutionary Landscape of Religion. Oxford: Oxford University Press.
- ________, 2004, «Hamas May Give Peace a Chance.» New York Times, December 18.
- Atran, S., and A. Norenzayan, 2004, «Religion's Evolutionary Landscape: Counterintuition, Commitment, Compassion, Communion.» Behavioral and Brain Sciences, vol. 27, pp. 713-70.
- Auden, W. H., 1946, «A Reactionary Tract for the Times,» Phi Beta Kappa poem, Harvard.
- Aunger, Robert, 2002, The Electric Meme: A New Theory of How We Think and Communicate.
- New York: Free Press.
- ________, ed., 2000, Darwinizing Culture: The Status of Memetics as a Science. Oxford: Oxford University Press.
- Avital, Eytan, and Eva Jablonka, 2000, Animal Traditions: Behavioural Inheritance in Evolution. Cambridge: Cambridge University Press.
- Awai, Katsuhito, 2001, «The Evolution of Money.» In Antonio Nicita and Ugo Pagano, eds., The Evolution of Economic Diversity. London: Routledge, pp. 396-431.
- Balaschak, B., K. Blocker, T. Rossiter, and C. T. Perin, 1972, «The influence of race and expressed experience of the hypnotist on hypnotic susceptibility.» International Journal of Clinical & Experimental Hypnosis, vol. 20, no. 1, pp. 38-45.

- Balkin, J. M., 1998, Cultural Software: A Theory of Ideology. New Haven: Yale University Press.
- Bambrough, Renford, 1980, «Editorial: Subject and Epithet.» Philosophy, vol. 55, pp. 289-90.
- Barna, George, 1999, «Christians Are More Likely to Experience Divorce Than Are Non-Christians.» Barna Research Group, 1999-DEC-21. Available at http://www.barna.org/cgi-bin/.
- Baron-Cohen, Simon, 1995, Mindblindness and the Language of the Eyes: An Essay in Evolutionary Psychology. Cambridge, Mass.: MIT Press.
- Barrett, David, George Kurian, and Todd Johnson, 2001, World Christian Encyclopedia. 2nd ed. New York: Oxford University Press, 2 vols.
- Barrett, Justin, 2000, «Exploring the Natural Foundations of Religion.» Trends in Cognitive Science, vol. 4, pp. 29-34.
- Barth, Fredrik, 1975, Ritual and Knowledge Among the Baktaman of New Guinea. New Haven: Yale University Press.
- Bering, J. M., 2004, «Natural Selection Is Non-denominational: Why Evolutionary Models of Religion Should Be More Concerned with Behavior Than Concepts.» Evolution and Cognition, vol. 10, pp. 126-37.
- Bierce, Ambrose, 1911, The Devil's Dictionary. Copyright expired; available at http://www.alcyone.com/max/lit/devils/.
- Blackmore, Susan, 1999, The Meme Machine. Oxford: Oxford University Press.

- Bonner, John Tyler, 1980, The Evolution of Culture in Animals. Princeton: Princeton University Press.
- Bowles, Samuel, and Herbert Gintis, 1998, «The Moral Economy of Community: Structured Populations and the Evolution of Prosocial Norms.» Evolution and Human Behavior, vol. 19, pp. 3-25.
- ______, 2001, «Community Governance.» In Antonio Nicita and Ugo Pagano, eds., The Evolution of Economic Diversity. London: Routledge, pp. 344-67.
- Boyd, Robert, and Peter Richerson, 1985, Culture and the Evolutionary Process. Chicago: University of Chicago Press.
- ______, 1992, «Punishment Allows the Evolution of Cooperation (or Anything Else) in Sizable Groups.» Ethology and Sociobiology, vol. 13, pp. 171-95.
- Boyer, Pascal, 2001, Religion Explained: The Evolutionary Origins of Religious Thought. New York: Basic Books.
- Boyer, Peter J., 2003, «The Jesus War.» The New Yorker, September 15.
- Brodie, Richard, 1996, Virus of the Mind: The New Science of the Meme. Seattle: Integral Press.
- Brown, Dan, 2003, The Da Vinci Code. New York: Doubleday.
- Brown, David, 2004, «Wildlife Tracking on AVIS Lands.» Andover, Mass. March 9.
- Bruce, Steve, 1999, Choice and Religion: A Critique of Rational Choice Theory. Oxford: Oxford University Press.

- Bulbulia, Joseph, 2004, «Religious Costs as Adaptations That Signal Altruistic Intention.» Evolution and Cognition, vol. 19, pp. 19-42.
- Burdett, Kenneth, Alberto Trejos, and Randall Wright, 2001, «Cigarette Money.» Journal of Economic Theory, vol. 99, pp. 117-42.
- Burkert, Walter, 1996, Creation of the Sacred: Tracks of Biology in Early Religions. Cambridge, Mass.: Harvard University Press.
- Cannon, Walter B., 1957, «'Voodoo' Death.» Psychosomatic Medicine, vol. 19, pp. 182-90.
- Carey, Benedict, 2004, «Can Prayers Heal? Critics Say Studies Go Past Science's Reach.» New York Times, October 10.
- Carstairs-McCarthy, Andrew, 1999, The Origins of Complex Language: An Inquiry into the Evolutionary Beginnings of Sentences, Syllables, and Truth. Oxford: Oxford University Press.
- Cavalli-Sforza, Luigi Luca, 2001, Genes, Peoples, and Languages. Berkeley: University of California Press.
- Cavalli-Sforza, Luigi Luca, and Marcus Feldman, 1981, Cultural Transmission and Evolution: A Quantitative Approach. Princeton: Princeton University Press.
- Chatters, Linda M., 2000, «Religion and Health: Public Health Research and Practice.» Annual Review of Public Health, vol. 21, pp. 335-67.
- Christiansen, Morten H., and Simon Kirby, eds., 2003, Language Evolution (Studies in the Evolution of Language). Oxford: Oxford University Press.

- Churchland, Patricia, 2002, Brain-Wise: Studies in Neurophilosophy. Cambridge, Mass.: MIT Press.
- Cloak, F. T., 1975, «Is a Cultural Ethology Possible?» Human Ecology, vol. 3, pp. 161-82.
- Coe, William C, John R. Bailey, John C. Hall, Mark L. Howard, Robert L. Janda, Ken Kobayashi, and Michael D. Parker, 1970, «Hypnotism as Role Enactment: The Role-Location Variable.» Proceedings: 78th Annual Convention, American Psychological Association, pp. 839-40.
- Coe, William C, et al., 2001, «Hypnosis as Role Enactment: The Role-Location Variable.» Proceedings of the Annual Convention of the American PsychologicalAssociation.
- Colvin, J. Randall, and Jack Block, 1994, «Do Positive Illusions Foster Mental Health? An Examination of the Taylor and Brown Formulation.» Psychological Bulletin, vol. 116, no. 1, pp. 3-20.
- Crick, Francis H. C, 1968, «The Origin of the Genetic Code.» Journal of Molecular Biology, vol. 38, p. 367.
- Cronin, Helena, 1991, The Ant and the Peacock. Cambridge: Cambridge University Press.
- Cronk, Lee, Napoleon Chagnon, and William Irons, 2000, Adaptation and Human Behavior: An Anthropological Perspective. Hawthorne, N.Y.: De Gruyter.
- Cupitt, Don, 1997, After God: The Future of Religion. New York: Basic Books.

- Daaleman, Timothy P., Subashan Perera, and Stephanie A. Studenski, 2004, «Religion, Spirituality, and Health Status in Geriatric Outpatients." Annals of Family Medicine, vol. 2, pp. 49-53.
- Darwin, Charles, 1859, On the Origin of Species by Means of Natural Selection. London: Murray.
- ______, 1886, The Descent of Man, and Selection in Relation to Sex. Princeton: Princeton University Press, 1981 (originally published 1871).
- Davies, Paul, 2004, «Undermining Free Will.» Foreign Policy, September/October, p. 36.
- Dawkins, Richard, 1976, The Selfish Gene. Oxford: Oxford University Press. Rev. ed. 1989.
- ______, 1982, The Extended Phenotype. Oxford: Oxford University Press, paperback, 1999.
- ______, 1989 [rev. ed. of Dawkins, 1976]. Oxford: Oxford University Press.
- ______, 1993, «Viruses of the Mind.» In Bo Dahlbom, ed., Dennett and His Critics. Oxford: Blackwell, pp. 13-27. Reprinted in Dawkins, 2003a.
- ______, 1996, Climbing Mount Improbable. London: Viking Penguin.
- ______, 2003a, A Devil's Chaplain: Reflections on Hope, Lies, Science, and Love. Boston: Houghton Mifflin.
- ______, 2003b, «The Future Looks Bright.» Guardian, June 21.

- ———, 2004a, The Ancestor's Tale: A Pilgrimage to the Dawn of Life. London: Weidenfeld & Nicolson.
- ———, 2004b, «What Use Is Religion? Part 1.» Free Inquiry, June/ July, pp. 13ff. (not consecutive pages).
- Deacon, Terry, 1997, The Symbolic Species. New York: Norton.
- Debray, Régis, 2004, God: An Itinerary. Trans. Jeffrey Mehlman. London: Verso.
- Dembski, William, 1998, The Design Inference: Eliminating Chance Through Small Probabilities. Cambridge: Cambridge University Press.
- ———, 2003, «Three Frequently Asked Questions About Intelligent Design.» Available at http://www.designinference.com.
- Dembski, William, and Jay Wesley Richards, eds., 2001, Unapologetic Apologetics: Meeting the Challenges of Theological Studies. Downers Grove, 111.: InterVarsity.
- Dennett, Daniel C, 1971, «Intentional Systems.» Journal of Philosophy, vol. 68, pp. 87-106.
- ———, 1978, Brainstorms. Cambridge, Mass.: MIT Press/A Bradford Book.
- ———, 1981, «Three Kinds of Intentional Psychology.» In R. Healey, ed., Reduction, Time and Reality. Cambridge: Cambridge University Press, pp. 37-61.
- ———, 1982, «Beyond Belief.» In A. Woodfield, ed., Thought and Object: Essays on Intentionality. Oxford: Oxford University Press. Reprinted 1987.

- ______, 1983, «Intentional Systems in Cognitive Ethology: The 'Panglossian Paradigm' Defended.» Behavioral and Brain Sciences, vol. 6, pp. 343-90.
- ______, 1986, «Information, Technology, and the Virtues of Ignorance.» Daedalus: Proceedings of the American Academy of Arts and Sciences, vol. 115, pp. 135-53.
- ______, 1987, The Intentional Stance. Cambridge, Mass.: MIT Press.
- ______, 1988, «The Moral First Aid Manual.» In S. M. McMurrin, ed., Tanner Lectures on Human Values, vol. 8. Salt Lake City: University of Utah Press; and Cambridge: Cambridge University Press, pp. 119-47. Reprinted, with revisions, in Dennett, 1995b.
- ______, 1990, «Abstracting from Mechanism» (reply to de Gelder). Behavioral and Brain Sciences, vol. 13, pp. 583-84.
- ______, 1991a, Consciousness Explained. Boston: Little Brown.
- ______, 1991b, «Real Patterns.» Journal of Philosophy, vol. 87, pp. 27-51.
- ——, 1991c, «Two Contrasts: Folk Craft Versus Folk Science, and Belief Versus Opinion.» In J. D. Greenwood, ed., The Future of Folk Psychology: Intentionality and Cognitive Science. Cambridge: Cambridge University Press.
- ______, 1995a, «Animal Consciousness: What Matters and Why.» Social Research, vol. 62, no. 3. Fall (1), pp. 691-710. Reprinted in Dennett, 1998a.
- ______, 1995b, Darwin's Dangerous Idea. New York: Simon & Schuster.

- ———, 1996, Kinds of Minds: Towards an Understanding of Consciousness. New York: Basic Books.
- ———, 1997. «Appraising Grace: What Evolutionary Good Is God?» (Review of Walter Burkert, Creation of the Sacred: Tracks of Biology in Early Religions). Sciences, January/February, pp. 39-44.
- ———, 1998a, Brainchildren: Essays on Designing Minds. Cambridge, Mass.: MIT Press.
- ———, 1998b, «The Evolution of Religious Memes: Who—or What—Benefits?"Method & Theory in the Study of Religion, vol. 10, pp. 115-28.
- ———, 1999a, «Faith in the Truth.» In W. Williams, ed., The Values of Science (The Amnesty Lectures, Oxford, 1997). New York: Basic Books, pp. 95-109. Also in Free Inquiry, Spring 2000.
- ———, 1999b, «Protecting Public Health.» In Predictions: 30 Great Minds on the Future, published by Times Higher Education Supplement, pp. 74-75.
- ———, 2000, «Making Tools for Thinking.» In D. Sperber, ed., Metarepresentations: A Multidisciplinary Perspective. New York: Oxford University Press, pp. 17-29.
- ———, 2001a, «Collision, Detection, Muselot, and Scribble: Some Reflections on Creativity. «In David Cope, Virtual Music: Computer Synthesis of Musical Style. Cambridge, Mass.: MIT Press, pp. 283-91.
- ———, 2001b, «The Evolution of Culture.» Monist, vol. 84, no. 3, pp. 305-24.

- _______, 2001c, «The Evolution of Evaluators.» In Antonio Nicita and Ugo Pagano, eds., The Evolution of Economic Diversity. London: Routledge, pp. 66-81.
- _______, 2002a, «Altruists, Chumps, and Inconstant Pluralists» (commentary on Sober and Wilson, Unto Others: The Evolution and Psychology of Unselfish Behavior). Philosophy and Phenomenological Research, vol. 65, no. 3 (November), pp. 692-96.
- _______, 2002b, «The New Replicators.» In Mark Pagel, ed., Encyclopedia of Evolution, vol. 1. Oxford: Oxford University Press, pp. E83-E92.
- _______, 2003a, «The Baldwin Effect: A Crane, Not a Skyhook.» In B. H. Weber and D. J. Depew, eds., Evolution and Learning: The Baldwin Effect Reconsidered. Cambridge, Mass.: MIT Press/A Bradford Book, pp. 60-79.
- _______, 2003b, «The Bright Stuff.» New York Times, July 12.
- _______, 2003c, Freedom Evolves. New York: Viking Penguin.
- _______, 2003d, «Postscript on the Baldwin Effect and Niche Construction.» In B. H.
- Weber and D. J. Depew, eds., Evolution and Learning: The Baldwin Effect Reconsidered. Cambridge, Mass.: MIT Press/A Bradford Book, pp. 108-9.
- _______, 2003c, «Shame on Rea.» Available at http://ase.rufts.edu/cogsrud/papers/ rearesponse.htm.

- ______, 2004, «Holding a Mirror Up to Dupré» (commentary on John Dupré, Human Nature and the Limits of Science). Philosophy and Phenomenological Research, vol. 69, no. 2 (September), pp. 473-83.
- ______, 2005a, «From Typo to Thinko: When Evolution Graduated to SemanticNorms.» In S. Levinson and P. Jaisson, eds., Culture and Evolution. Cambridge, Mass.: MIT Press.
- ______, 2005b, «Geography Lessons.» New York Times Book Review, February 20, p. 6.
- ______, 2005c, Sweet Dreams: Philosophical Obstacles to a Science of Consciousness. Cambridge, Mass.: MIT Press.
- De Vries, Peter, 1958, The Mackerel Plaza. Boston: Little Brown.
- Diamond, Jared, 1997, Guns, Germs, and Steel: The Fates of Human Societies. New York: Norton.
- ______, 2005, Collapse: How Societies Choose to Fail or Succeed. New York: Viking Penguin.
- Dulles, Avery Cardinal, 2004, «The Rebirth of Apologetics.» First Things, vol. 143 (May), pp. 18-23.
- Dunbar, Robin, 2004, The Human Story: A New History of Mankind's Evolution. London: Faber & Faber.
- Dupré, John, 2001, Human Nature and the Limits of Science. Oxford: Clarendon Press.
- Durham, William, 1992, Coevolution: Genes, Culture and Human Diversity. Stanford, Calif.: Stanford University Press.

- Durkheim, Emil, 1915, The Elementary Forms of the Religious Life. New York: Free Press.
- Dusek, J. A., J. B. Sherwood, R. Friedman, P. Myers, C. F. Bethea, S. Levitsky, P. C. Hill, M. K. Jain, S. L. Kopecky, P. S. Mueller, P. Lam, H. Benson, and P. L. Hibberd, 2002, «Study of the Therapeutic Effects of Intercessory Prayer (STEP): Study Design and Research Methods.» American Heart Journal, vol. 143, no. 4, pp. 577-84.
- Duster, Troy, 2005, «Race and Reification in Science.» Science, vol. 307, pp. 1050-51.
- Eagleton, Terry, 1991, Ideology: An Introduction. London: Verso.
- Easterbrook, Gregg, 2005, «There Goes the Neighborhood» (review of Diamond, 2004). New York Times Book Review, January 30.
- Eliade, Mircea, 1963, Myth and Reality. Trans. W R. Trask. New York: Harper and Row.
- Ellis, Fiona, 2004, review of A. C. Grayling, What Is Good? The Search for the Best Way to Live. Times Literary Supplement, March 26, p. 29.
- Ellison, C. G., and J. S. Levin, 1998, «The Religion-Health Connection: Evidence, Theory, and Future Directions.» Health Education and Behavior, vol. 25, no. 6, pp. 700-720.
- Evans-Pritchard, Edward, 1937, Witchcraft, Oracles and Magic Among the Azande. Oxford: Clarendon Press; 2nd ed., abridged, 1976.
- Ewing, J. A., B. A. Rouse, and E. D. Pellizzari, 1974, «Alcohol Sensitivity and Ethnic Background.» American Journal of Psychiatry, vol. 131, pp. 206-10.

- Faber, M. D., 2004, The Psychological Roots of Religious Belief Amherst, N.Y.: Prometheus Books.
- Feibleman, James, 1973, Understanding Philosophy. New York: Horizon.
- Feynman, Richard P., 1985, QED: The Strange Theory of Light and Matter. Princeton: Princeton University Press.
- Flamm, Bruce, 2004, «The Columbia University 'Miracle' Study: Flawed and Fraud.» Skeptical Inquirer, September/October, pp. 25-31.
- Frank, Robert, 1988, Passions Within Reason: The Strategic Role of the Emotions. New York: Norton.
- ——, 2001, «Cooperation Through Emotional Commitment.» In R. Nesse, ed., pp. 57-76.
- Freud, Sigmund, 1927, The Future of an Illusion. New York: Norton, 1989.
- Fry, Christopher, 1950, The Lady's Not for Burning. New York: Oxford University Press (play first produced 1948).
- Gauchet, Marcel, 1997, The Disenchantment of the World: A Political History of Religion. Trans. Oscar Burge. Princeton: Princeton University Press.
- Geertz, Clifford, 1973, The Interpretation of Cultures. New York: Basic Books.
- Glimcher, Paul, 2003, Decisions, Uncertainty and the Brain. Cambridge, Mass.: MIT Press.

- Gopnik, Alison, and Andy Meltzoff, 1997, Words, Thoughts and Theories. Cambridge, Mass.: MIT Press.
- Gould, Stephen Jay, 1980, The Panda's Thumb: More Reflections in Natural History. NewYork: Norton.
- ———, 1999, Rocks of Ages: Science and Religion in the Fullness of Life. New York: Ballantine.
- Grandin, Temple, 1996, Thinking in Pictures: And Other Reports from My Life with Autism. New York: Vintage.
- Grandin, Temple, and Margaret M. Scariano, 1996, Emergence: Labeled Autistic. New York: Warner Books.
- Gray, Russell D., and Fiona M. Jordan, 2000, «Language Trees Support the Express-Train Sequence of Austronesian Expansion.» Nature, vol. 405 (June 29), pp. 1052-55.
- Grice, H. P., 1957, «Meaning.» Philosophical Review, vol. 66, pp. 377-88.
- ———, 1969, «Utterer's Meaning and Intentions.» Philosophical Review, vol. 78, pp. 147-77.
- Gross, Paul R., and Norman Levitt, 1998, Higher Superstition: The Academic Left and Its Quarrels with Science. Baltimore: Johns Hopkins University Press.
- Guthrie, Stuart, 1993, Faces in the Clouds. Oxford: Oxford University Press.
- Hamer, Dean, 2004, The God Gene: How Faith Is Hardwired into Our Genes. New York: Doubleday.

- Harris, Marvin, 1993, Culture, People, Nature: An Introduction to General Anthropology. New York: HarperCollins.
- Harris, Sam, 2004, The End of Faith: Religion, Terrorism and the Future of Reason. NewYork: Norton.
- Hauser, Marc, 1996, The Evolution of Communication. Cambridge, Mass.: MIT Press.
- ———, 2000, Wild Minds: What Animals Really Think. New York: Henry Holt. Health Sciences Policy (HSP) Board, 2003, Unequal Treatment: Confronting Racial and Ethnic Disparities in Health Care. Washington, D.C.: National Academies Press.
- Heath, Chip, Chris Bell, and Emily Sternberg, 2001, «Emotional Selection in Memes: The Case of Urban Legends.» Journal of Personality and Social Psychology, vol. 81, pp. 1028-41.
- Hill, Peter C, and Ralph W. Hood, Jr., 1999, Measures of Religiosity. Birmingham, Ala.: Religious Education Press. Hinde, Robert A., 1999, Why Gods Persist: A Scientific Approach to Religion. London: Routledge.
- Hooper, Lora V., Lynn Bry, Per G. Falk, and Jeffrey I. Gordon, 1998, «Host-Microbial Symbiosis in the Mammalian Intestine: Exploring an Internal Ecosystem.» Bio-Essays, vol. 20, no. 4, pp. 336-43.
- Hopson, J. A., 1977, «Relative Brain Size and Behavior in Archosaurian Reptiles.» Annual Review of Ecology and Systematics, vol. 8, pp. 429-48.
- Horner, J. R., 1984, «The Nesting Behavior of Dinosaurs.» Scientific American, vol. 250, no. 4, pp. 30-137.

- Hubbard, Lafayette Ronald, 1950, Dianetics: The Modern Science of Mental Health. Los Angeles: American Saint Hill Organization.
- Hull, David, 1988, Science as a Process. Chicago: University of Chicago Press.
- Hume, David, 1777, The Natural History of Religion. Ed. H. E. Root. Stanford, Calif.: Stanford University Press, 1957 (originally composed 1757, but published posthumously 1777).
- Humphrey, Nicholas, 1978, «Nature's Psychologists.» New Scientist, vol. 29 (June), pp. 900-904.
- ______, 1995, Soul Searching: Human Nature and Supernatural Belief. London: Chatto and Windus. (Published in U.S.A. as Leaps of Faith: Science, Miracles, and the Search for Supernatural Consolation [New York: Copernicus, 1999].)
- ______, 1999, «What Shall We Tell the Children?» In Wes Williams, ed., The Values of Science: Oxford Amnesty Lectures 1997. Boulder, Colo.: Westview Press.
- ______, 2002, «Great Expectations: The Evolutionary Psychology of Faith Healing and the Placebo Effect.» In The Mind Made Flesh: Essays from the Frontiers of Evolution and Psychology. Oxford: Oxford University Press, pp. 255-85.
- ______, 2004, contribution to the World Question Center (the 2004 Annual Edge Question: «What's your law?"), http://www.edge.org/q2004/q04_print1.html.
- Iannacone, L., 1992, «Sacrifice and Stigma: Reducing Free-Riding in Cults, Communes, and Other Collectives.» Journal of Political Econ-

omy, vol. 100, pp. 271-91.

- ———, 1994, «Why Strict Churches Are Strong.» American Journal of Sociology, vol. 99, pp. 1180-1211.
- Irons, William, 2001, «Religion as a Hard-to-Fake Sign of Commitment.» In R. Nesse, ed., pp. 292-309.
- Iyengar, S., 1987, «Television News and Citizens' Explanations of National Affairs.» American Political Science Review, vol. 81, pp. 815-31.
- Jackendoff, Ray, 2002, Foundations of Language: Brain, Meaning, Grammar, Evolution. New York: Oxford University Press.
- James, William, 1902, The Varieties of Religious Experience. Ed. Martin Marty. New York: Penguin, 1982.
- Jansen, Johannes J. G., 1997, The Dual Nature of Islamic Fundamentalism. Ithaca, N.Y.: Cornell University Press.
- Jaynes, Julian, 1976, The Origins of Consciousness in the Breakdown of the BicameralMind. Boston: Houghton Mifflin.
- John Paul II, 1996, «Truth Cannot Contradict Truth.» Address of the Pope to the Pontifical Academy of Sciences, October 22.
- Johnson, Philip, 1996, «Daniel Dennett's Dangerous Idea.» New Criterion, vol. 15, no. 2 (October). Available at http://www.newcriterion.com/archive/14/oct95/dennett.htm.
- Kahnemann, Daniel, Ed Diener, and Norbert Schwarz, eds., 2000, Well-Being: The Foundations of Hedonic Psychology. New York: Russell Sage Foundation/MIT Press.

- Kinsey, Alfred C, 1948, Sexual Behavior in the Human Male. Philadelphia: W. B. Saunders.
- ______, 1953, Sexual Behavior in the Human Female. Philadelphia: W. B. Saunders.
- Klostermaier, Klaus K., 1994, A Survey of Hinduism. 2nd ed. Albany, N.Y.: SUNY Press.
- Kluger, Jeffrey, 2004, «Is God in Our Genes?» Time magazine, October 25, pp. 62-72.
- Koenig, Harold, Michael E. McCullough, and Donald B. Larson, 2000, Handbook of Religion and Health. Oxford: Oxford University Press.
- Koestler, Arthur, 1959, The Sleepwalkers. London: Hutchinson.
- Kohn, Marek, 1999, As We Know It: Coming to Terms with an Evolved Mind. London: Granta Books.
- Kuhn, Thomas, 1962, The Structure of Scientific Revolutions. Chicago: University of Chicago Press.
- Lakoff, George, 2004, Don't Think of an Elephant! Know Your Values and Frame the Debate. White River Junction, Vt.: Chelsea Green Publishing.
- Laland, Kevin, and Gillian Brown, 2002, Sense and Nonsense: Evolutionary Perspectives on Human Behaviour. Oxford: Oxford University Press.
- Lawson, E. Thomas, and Robert N. McCauley, 1990, Rethinking Religion: Connecting Cognition and Culture. Cambridge: Cambridge University Press.

- ______, 2002, Bringing Ritual to Mind: Psychological Foundations of Cultural Forms. Cambridge: Cambridge University Press.
- Lehner, Philip N., 1978a, «Coyote Communication.» In Marc Bekoff, ed., Coyotes: Biology, Behavior, and Management. New York: Academic Press.
- ______, 1978b, «Coyote Vocalizations: A Lexicon and Comparisons with Other Canids.» Animal Behavior, vol. 26, pp. 712-22.
- Leslie, Alan, 1987, «Pretense and Representation: The Origins of 'Theory of Mind.'» Psychological Review, vol. 94, pp. 412-26.
- Lewis, C. S., 1952, Mere Christianity. San Francisco: HarperCollins, 2001.
- Lewis, David, 1974, «Radical Interpretation,» in Synthese, vol. 27, pp. 331-44.
- Lewontin, Richard, 2004, «Dishonesty in Science.» New York Review of Books, November 18, pp. 38-40.
- Li, C, K. Malone, and J. Daling, 2003, «Differences in Breast Cancer Stage, Treatment, and Survival by Race and Ethnicity.» Archives of Internal Medicine, vol. 163, pp. 49-56.
- LoBue, Carl P., and Michael A. Bell, 1993, «Phenotypic Manipulation by the Cestode Parasite Schistocephalus Solidus of Its Intermediate Host, Gasterosteus aculeatus, the Threespine Stickleback.» American Naturalist, vol. 142, pp. 725-35.
- Longman, Robert, 2000, «Intercessory Prayer.» Available at http://www.spirithome.com/prayintr.html.

- Lorenz, K. Z., 1950, «The Comparative Method in Studying Innate Behavior Patterns.» n J. G. Danielli and R. Brown, eds., Physiological Mechanisms in Animal Behavior. Cambridge: Cambridge University Press.
- Lovelock, J. E., 1979, Gaia. Oxford: Oxford University Press.
- Lung, S.-C. C, M.-C. Kao, and S.-C. Hu, 2003, «Contribution of Incense Burning to Indoor PM10 and Particle-Bound Polycyclic Aromatic Hydrocarbons Under Two Ventilation Conditions.» Indoor Air, vol. 13, p. 194.
- Lynch, Aaron, 1996, Thought Contagion: How Belief Spreads Through Society. New York: Basic Books.
- Maalouf, Amin, 2001, In the Name of Identity: Violence and the Need to Belong. New York: Arcade Publishing.
- McCleary, Rachel M., 2003, «Salvation, Damnation, and Economic Incentives.» Project on Religion, Political Economy and Society, working paper no. 39. Cambridge, Mass.: Weatherhead Center, Harvard University.
- McCleary, Rachel M., and Robert J. Barro, 2003, «Religion and Economic Growth.» Harvard University working paper, available at http://econ.korea.ac.kr/bk21/ notice/uploads/Religion_and_Economic_Growth.pdf.
- McClenon, James, 2002, Wondrous Healing: Shamanism, Human Evolution and the Origin of Religion. DeKalb: Northern Illinois University Press.
- MacCready, Paul, 2004, «The Case for Battery Electric Vehicles.» In Daniel Sperling and fames Cannon, eds., The Hydrogen Energy Transition. New York: Academic Press, pp. 227-33.

- Mackie, J. L., 1982, The Miracle of Theism: Arguments For and Against the Existence of God. Oxford: Oxford University Press. Mahadevan, P., and Frits Staal, 2003, «The Turning-Point in a Living Tradition» Electronic
- Journal of Vedic Studies, vol. 10. Available at http://users.primushost.com/ ~india/ejvs.
- Manji, Irshad, 2003, The Trouble with Islam. New York: St. Martin's. Masters, William H., and Virginia Johnson, 1966, Human Sexual Response. New York: Lippincort/Williams & Wilkins.
- Maynard Smith, John, 1977, «Parental Investment: A Prospective Analysis.» Animal Behaviour, vol. 25, pp. 1-9.
- _______, 1978, The Evolution of Sex. Cambridge: Cambridge University Press.
- Mayr, Ernst, 1982, The Growth of Biological Thought. Cambridge, Mass.: Harvard University Press.
- _______, 2004, What Makes Biology Unique? Considerations on the Autonomy of a Scientific Discipline. Cambridge: Cambridge University Press.
- Melton, J. Gordon, 1998, Encyclopedia of American Religions. 6th ed. Detroit: Gale Group.
- Miller, Geoffrey, 2000, The Mating Mind: How Sexual Choice Shaped the Evolution of Human Nature. New York: Doubleday.
- Mithen, Steven, 1996, The Prehistory of the Mind: The Cognitive Origins of Art, Religion and Science. London: Thames and Hudson.

- Montague, P. R., and G. Berns, 2002, «Neural Economics and the Biological Substrates of Valuation.» Neuron, vol. 36, pp. 265-84.
- Moore, R. Laurence, 1994, Selling God: American Religion in the Marketplace of Culture. New York: Oxford University Press.
- Moravec, Hans, 1988, Mind Children: The Future of Robot and Human Intelligence. Cambridge, Mass.: Harvard University Press.
- MotDoc, 2004, «Cargo Cults.» Available at http://www.bbc.co.uk/dna/h2g2/A2267426.
- Moya, Andrés, and Enrique Font, 2004, Evolution: From Molecules to Ecosystems. Oxford: Oxford University Press.
- Moynihan, Daniel Patrick, 1970, Memorandum to President Nixon on the status of Negroes, as reported in Evening Star, Washington, D.C., March 2, p. A5.
- Nagel, Thomas, 1997, The Last Word. Oxford: Oxford University Press.
- Nanda, Meera, 2002, Breaking the Spell of Dharma and Other Essays: A Case for Indian Enlightenment. Delhi: Three Essays Press.
- ______, 2003, Prophets Facing Backwards: Postmodern Critiques of Science and Hindu Nationalism in India. New Brunswick, N.J.: Rutgers University Press.
- National Academy of Sciences, 1999, Science and Creationism. 2nd ed. Washington, D.C.: National Academy Press.
- Needham, Rodney, 1972, Belief, Language and Experience. Chicago: University of Chicago Press.

- Nesse, Randolph, ed., 2001, Evolution and the Capacity for Commitment. New York: Russell Sage Foundation.
- Newberg, Andrew, Eugene D'Aquili, and V. Rause, 2001, Why God Won't Go Away: Brain Science and the Biology of Belief New York: Ballantine.
- Nietzsche, Friedrich, 1887, On the Genealogy of Morals. Trans. Walter Kaufmann. New York: Vintage, 1967.
- Norris, Kathleen, 2000, «Native Evil.» Boston College Magazine, Winter.
- Oliver, Simon, 2003, Review of Denys Turner, Faith Seeking. Times Literary Supplement, November 14, p. 32.
- Pagel, Mark, ed., 2002, Encyclopedia of Evolution. 2 vols. Oxford: Oxford University Press.
- Pagels, Elaine, 1979, The Gnostic Gospels. New York: Random House.
- Palmer, Craig T, and Lyle B. Steadman, 2004, «With or Without Belief: A New Approach to the Definition and Explanation of Religion.» Evolution and Cognition, vol. 10, pp. 138-45.
- Panikkar, Raimundo, 1989, The Silence of God: The Answer of the Buddha. Maryknoll, N.Y.: Orbis Books.
- Pennock, Robert, 1999, Tower of Babel: The Evidence Against the New Creationism. Cambridge, Mass.: MIT Press.
- Perakh, Mark, 2003, Unintelligent Design. Amherst, N.Y.: Prometheus Books.
- Persinger, Michael, 1987, Neurophysiological Bases of God Beliefs. New York: Praeger.

- Pinker, Steven, 1994, The Language Instinct. New York: Morrow.
- _______, 1997, How the Mind Works. New York: Norton.
- Plantinga, Alvin, 1996, «Darwin, Mind and Meaning.» Books and Culture, May/ June.
- Pocklington, Richard, in press, «Memes and Cultural Viruses.» In Encyclopedia of the Social and Behavioral Sciences.
- Pocklington, Richard, and Michael L. Best, 1997, «Cultural Evolution and Units of Selection in Replicating Text.» Journal of Theoretical Biology, vol. 188, pp. 79-87.
- Posner, Richard, 1992, Sex and Reason. Cambridge, Mass.: Harvard University Press.
- Povinelli, Daniel, 2003, The Folk Physics of Apes: The Chimpanzee's Theory of How the World Works. Oxford: Oxford University Press.
- Premack, David, and Guy Woodruff, 1978, «Does the Chimpanzee Have a Theory of Mind?» Behavioral and Brain Sciences, vol. 1, pp. 515-26.
- Purves, William K., David Sadava, Gordon H. Orians, and H. Craig Heller, 2004, Life: The Science of Biology. 7th ed. Sunderland, Mass.: Sinauer and W. H. Freeman.
- Pyper, Hugh, 1998, «The Selfish Text: The Bible and Memetics.» In J. C. Exum and S. D. Moore, eds., Biblical Studies and Cultural Studies. Sheffield: Sheffield Academic Press, pp. 70-90.
- Pyysièainen, Ilkka, 2001, How Religion Works: Towards a New Cognitive Science of Religion. Leiden: Brill.

- Quine, W.V.O., 1960, Word and Object. Cambridge, Mass.: MIT Press.
- ———, 1974a, «Comment on Donald Davidson.» Synthese, vol. 27, pp. 325-30.
- ———, 1974b, «Comment on Michael Dummett.» Synthese, vol. 27, pp. 413-17.
- Ramachandran, V., and Sandra Blakeslee, 1998, Phantoms in the Brain: Probing the Mysteries of the Human Mind. New York: Morrow.
- Ramachandran, Vilayánur, W. S. Hirstein, K. C. Armel, E. Tecomka, and V. Iragui, 1997, «The Neural Basis of Religious Experience.» Paper delivered to the Annual Conference of the Society of Neuroscience, October. 1997. Abstract no. 519.1. Vol. 23, (Washington, D.C.: Society of Neuroscience).
- Rappaport, Roy A., 1979, Ecology, Meaning and Religion. Richmond, Calif.: North Atlantic Books.
- ———, 1999, Ritual and Religion in the Making of Humanity. Cambridge: Cambridge University Press.
- Ratzinger, Cardinal, 2000, «Dominus lesus: On the Unicity and Salvific Universality of Jesus Christ and the Church.» Declaration ratified by Pope John Paul II at a plenary session, June 16, 2000. Available at http://www.vatican.va/roman_curia/ congregations/cfaith/ documents/.
- Ridley, Mark, 1995, Animal Behaviour. 2nd ed. Boston: Blackwell Scientific Publications.

- Ridley, Matt, 1993, The Red Queen: Sex and the Evolution of Human Nature. New York: Macmillan.
- Rooney, Andy, 1999, Sincerely, Andy Rooney. New York: Public Affairs.
- Ross, Don, 2005, Economic Theory and Cognitive Science: Microexplanation. Cambridge, Mass.: MIT Press.
- Rougement, Denis de, 1944, Le Part du Diable. Trans. Haakon Chevalier as The Devil's Share. New York: Meridian Books, 1956.
- Rubin, D. C, 1995, Memory in Oral Traditions. New York: Oxford University Press.
- Rue, Loyal, 2005, Religion Is Not About God. New Brunswick, N.J.: Rutgers University Press.
- Ruhlen, Merrit, 1994, The Origin of Language. New York: John Wiley & Sons.
- Sacks, Oliver, 1995, An Anthropologist on Mars. New York: Knopf.
- Saenger, Paul, 2000, Space Between Words: The Origin of Silent Reading (Figurae Reading Medieval). Stanford, Calif.: Stanford University Press.
- Sahlins, Marshal, 1972, Stone Age Economics. Chicago: Aldine.
- Sanneh, Kelefa, 2004, «Pray and Grow Rich.» New Yorker, October 11, pp. 48-57.
- Schönborn, Christoph, 2005, «Finding Design in Nature: The Catholic Church's Official Stance on Evolution,» July 7, 2005, http://www.nytimes.com/2005/07/07/opinion/07schonborn.html.

- Schumaker, John F., 1990, The Corruption of Reality: A Unified Theory of Religion, Hypnosis, and Psychopathology. Amherst, N.Y: Prometheus Books.
- Schwarz, N., and G. L. Clore, 1983, «Mood, Misattribution, and Judgments of Well-Being: Informative and Directive Functions of Affective States.» Journal of Personality and Social Psychology, vol. 45, pp. 513-23.
- Seabright, Paul, 2004, The Company of Strangers: A Natural History of Economic Life. Princeton: Princeton University Press.
- Sen, Amartya, 1999, Development as Freedom. New York: Knopf.
- ———, 2003, «Democracy and Its Global Roots.» New Republic, October 6, pp. 28-35.
- Shanks, Niall, 2004, God, the Devil, and Darwin: A Critique of Intelligent Design Theory. Oxford: Oxford University Press.
- Sharlet, Jeffrey, 2003, «Jesus Plus Nothing.» Harper's Magazine, March, pp. 53-58.
- Shea, Christopher, 2005, «Big Picture Guy: Does Megaselling Scientist-Historian Jared Diamond Get the Whole World Right?» Boston Globe, January 16, p. Ci.
- Shehadeh, Raja, 2002, Strangers in the House: Coming of Age in Occupied Palestine. South Royalston, Vt.: Steerforth Press.
- Shermer, Michael, 2003, How We Believe: Science, Skepticism and the Search for God. 2nd ed. New York: A. W. Freeman/Owl Book.
- Shermer, Michael, and Frank Sulloway, in press, «Religion and Belief in God.» Manuscript, January 2005.

- Shriver, Mark D., 1997, «Ethnic Variation as a Key to the Biology of Human Disease.» Annals of Internal Medicine, vol. 127, pp. 401-3.
- Siegel, Lee, 1991, Net of Magic: Wonders and Deceptions in India. Chicago: University of Chicago Press.
- ______, 2003, Love and Other Games of Chance. New York: Viking Penguin.
- Silver, Mitchell, in press, An Optional God: Secular Reflections on New Jewish Theology. New York: Fordham University Press.
- Skinner, B. F., 1948, «'Superstition' in the pigeon.» Journal of Experimental Psychology, vol. 38, pp. 168-72.
- Sloan, Richard P., and Emilia Bagiella, 2002, «Claims About Religious Involvement and Health Outcomes.» Annals of Behavioral Medicine, vol. 24, no. 1, pp. 14-21.
- Slone, Jason, 2004, Theological Incorrectness. Oxford: Oxford University Press.
- Small, Maurice M., and Ernest Kramer, 1969, «Hypnotic Susceptibility as a Function of the Prestige of the Hypnotist.» International Journal of Clinical and Experimental Hypnosis, vol. 17, pp. 251-56.
- Sober, Elliott, and David Sloan Wilson, 1998, Unto Others: The Evolution and Psychology of Unselfish Behavior. Cambridge, Mass.: Harvard University Press.
- Sperber, Dan, 1975, Rethinking Symbolism. Cambridge: Cambridge University Press.
- ______, 1985, On Anthropological Knowledge. Cambridge: Cambridge University Press.

- ———, 1996, Explaining Culture: A Naturalistic Approach. Oxford: Blackwell.
- ———, 2000, «An Objection to the Memetic Approach to Culture.» In Aunger, ed., Darwinizing Culture, pp. 163-73.
- Sperber, Dan, and Deirdre Wilson, 1986, Relevance: A Theory of Communication. Cambridge, Mass.: Harvard University Press.
- Spong, John Shelby, 1998, Why Christianity Must Change or Die. New York: HarperCollins.
- Stark, Rodney, 2001, One True God: Historical Consequences of Monotheism. Princeton: Princeton University Press.
- Stark, Rodney, and W. S. Bainbridge, 1985, The Future of Religion: Secularization, Revival and Cult Formation. Berkeley: University of California Press.
- ———, 1987, A Theory of Religion. New York: David Lang.
- Stark, R., W. S. Bainbridge, and D. P. Doyle, 1979, «Cults of America: A Reconnaissance in Space and Time.» Sociological Analysis, vol. 40, pp. 347-459.
- Stark, Rodney, and Roger Finke, 2000, Acts of Faith: Explaining the Human Side of Religion. Berkeley: University of California Press.
- Sterelny, Kim, 2003, Thought in a Hostile World: The Evolution of Human Cognition. Oxford: Blackwell.
- Stern, Jessica, 2003, Terror in the Name of God: Why Religious Militants Kill. New York: Harper Collins.
- Sulloway, Frank J., 1996, Born to Rebel: Birth Order, Family Dynamics, and Creative Lives. New York: Pantheon.

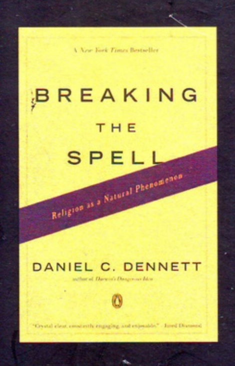
- Taubes, Gary, 2001, «The Soft Science of Dietary Fat.» Science, vol. 291 (March 30), pp. 2536-45.
- Taylor, S. E., and J. D. Brown, 1988, «Illusion and Well-being: A Social Psychological Perspective on Mental Health.» Psychological Bulletin, vol. 103, pp. 193-210.
- Tetlock, Philip, 1999, «Coping with Trade-Offs: Psychological Constraints and Political Implications.» In S. Lupia, M. McCubbins, and S. Popkin, eds., Political Reasoning and Choice, Berkeley: University of California Press.
- ——, 2003, «Thinking the Unthinkable: Sacred Values and Taboo Cognitions.» Trends in Cognitive Science, vol. 7, pp. 320-24.
- Tetlock, Philip, A. Peter McGraw, and Orie Kristel, 2004, «Proscribed Forms of Social Cognition: Taboo Trade-Offs, Forbidden Base Rates, and Heretical Counterfactuals.» In N. Haslam, ed., Relational Models Theory: A Contemporary Overview. Mahwah, N.J.: Erlbaum, pp. 142-61.
- Tinbergen, Niko, 1948, «Social Releasers and the Experimental Method Required for Their Study.» Wilson Bulletin, vol. 60, pp. 6-52.
- ______, 1959, «Comparative Studies of the Behaviour of Gulls (Laridai): A Progress Report.» Behaviour, vol. 15, pp. 1-70.
- Titon, Jeff Todd, 1988, Powerhouse for God: Speech, Chant, and Song in an Appalachian Baptist Church. Austin: University of Texas Press.
- Tomasello, Michael, 1999, The Cultural Origins of Human Cognition. Cambridge, Mass.: Harvard University Press.

- Tomasello, Michael, and Josep Call, 1997, Primate Cognition. Oxford: Oxford UniversityPress.
- Wall, T. L., L. G. Carr, and C. L. Ehlers, 2003, «Protective Association of Genetic Variation in Alcohol Dehydrogenase with Alcohol Dependence in Native American Mission Indians.» American Journal of Psychiatry, vol. 160, no. 1 (January 1), pp. 41-46.
- Weinberg, Steven, 2003, Facing Up: Science and Its Cultural Adversaries. Cambridge, Mass.: Harvard University Press.
- Whitehouse, Harvey, 1995, Inside the Cult: Religious Innovation and Transmission in Papua New Guinea. Oxford: Clarendon Press.
- _______, 2000, Arguments and Icons. Oxford: Oxford University Press.
- Whiten, Andrew, and R. Byrne, eds:, 1988, Machiavellian Intelligence. Oxford: Oxford University Press.
- _______, 1997, Machiavellian Intelligence, II: Extensions and Evaluations. Cambridge: Cambridge University Press.
- Wiesel, Elie, 1966, The Gates of the Forest. New York: Holt, Rinehart & Winston.
- _______, 1972, Souls on Fire: Portraits and Legends of Hasidic Masters. N.p.: Gerecor, Ltd. Reprint, New York: Random House, 1982.
- Williams, George, 1966, Adaptation and Natural Selection. Princeton: Princeton University Press.
- _______, 1992, Natural Selection: Domains, Levels, and Challenges. Oxford: Oxford University Press.
- Wilson, David Sloan, 2002, Darwin's Cathedral: Evolution, Religion, and the Nature of Society. Chicago: University of Chicago Press.

- Wilson, David Sloan, and Elliott Sober, 1994, «Re-Introducing Group Selection to the Human Behavior Sciences.» Behavioral and Brain Sciences, vol. 17, no. 4, pp. 585-654.
- Wittgenstein, Ludwig, 1953, Philosophical Investigations. Oxford: Blackwell.
- Wolfe, Alan, 2003, The Transformation of American Religion: How We Actually Live Our Faith. New York: Free Press.
- Wynne, Thomas, 1995, «Handaxe Enigmas.» World Archeology, vol. 27, pp. 10-23.
- Yoder, Don, 1974, «Toward a Definition of Folk Religion.» Western Folklore, vol. 33, pp. 2-15.
- Young, Matt, and Taner Edis, 2004, Why Intelligent Design Fails: A Scientific Critique of the New Creationism. New Brunswick, N.J.: Rutgers University Press.
- Zahavi, A., 1987, «The Theory of Signal Selection and Some of Its Implications.» In V. P. Delfino, ed., International Symposium on Biological Evolution, Bari, 9-14 April 1985. Bari: Adriatici Editrici, pp. 305-27.
- Zimmer, Carl, 2000, «Parasites Make Scaredy-Rats Foolhardy.» Science, July 28, pp. 525-26.

الفهرس

المقدمة 5
الجزء الأول: فتح صندوق باندورا 9
الفصل الأول: كسر أيّ تعويذة؟ 11
الفصل الثاني: بعض الأسئلة حول العلوم 39
الفصل الثالث: لماذا تحدث الأشياء الجيّدة؟ 67
الجزء الثاني : تطور الدين 113
الفصل الرابع: جذور الدين 115
الفصل الخامس: الدين: الأيام الأولى 135
الفصل السادس: تطوُّر الوكالة 177
الفصل السابع: اختراع روح الفريق 201
الفصل الثامن: الإيمان بالإيمان 229
الجزء الثالث : الدين اليوم 279
الفصل التاسع: نحو دليل المُشتَري للأديان 281
الفصل العاشر: الأخلاق والدين 311
الفصل الحادي عشر: الآن ماذا نفعل؟ 343
الملحق أ: الناسخات الجديدة 377
ملحق ب: المزيد من الأسئلة حول العلوم 395
الملحق ج: الحمَّال وسيّدةٌ اسمها تاك 415
الملحق (د): كيم فيلبي كحالةٍ حقيقيّةٍ لـ عدم تحديد التفسير الراديكالي 423
فهرس المراجع 461



عن الكاتب

فيلسوف وكاتب وعالم إدراكي أمريكي يهتم بالبحث في فلسفة العقل، وفلسفة العلوم، وفلسفة علم الأحياء، وخصوصاً كيفية ارتباط هذه التخصصات بعلم الأحياء التطوري والعلوم الإدراكية، تولى دينيت منصب المدير المشارك لمركز الدراسات المعرفية وكرسي الفلسفة «أوستن ب. فليتشر» في جامعة تافاتس، ويُعرف دينيت نفسه بعبارات قليلة: «يلاحظ آخرون أن تفاديّ للمصطلحات الفلسفية القياسية ومناقشة أمور أخرى مشابهة غالباً ما يخلق مشاكل بالنسبة لي؛ أنا أعلم أن الفلاسفة يواجهون صعوبة في فهم ما أقوله وما أنكره. إن رفضي لعب الكرة مع زملائي متعمد بالطبع، لأنني أرى أن المصطلحات الفلسفية القياسية لا قيمة لها إطلاقاً، وهي عقبة رئيسية أمام التقدم، حيث أنها تتكون من العديد من الأخطاء».

كسر التعويذة : "الدين كظاهرة طبيعية "

هو أهم كتب دينيه، صدر عام 2006، ويحاول من خلاله الفيلسوف والعالم الإدراكي دانيال دينيت نقاش فكرة أن الدين بحاجة إلى تحليل وفق منهجية علمية مما يتيح فهمًا أفضل لطبيعته ومستقبله. «التعويذة أو السحر» الذي يحتاج إلى «كسر» ليس الإيمان الديني بحد ذاته بل الاعتقاد بأن هذا الإيمان هو خارج حدود المنهجية العلمية.

التوزيع في الوطن العربي و العالم



